عبد الله القصيمي

كبرياء التاريخ في مأزق



كبرياء التاريخ في مأزق

عبد الله القصيمي



كبرياء التاريخ في مأزق

عبد الله القصيمي



ص. ب. 13/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠١

كبرياء التاريخ في مأزق

عبد الله القصيمي

الكاتب والمعلم العظيمان هما أقسى عقاب يتلقاه الإنسان جزاء له على اختراعه الكلام والكتابة والتعاليم، أما الكاتب والمعلم الرديئان فهما أقوى ثناء على الكائنات التي لا تستطيع أن تتعلم الكلام والكتابة والتعاليم.

الفهرست

هذا الذباب يقتلني كل صباح مرتين

«أريد أن أرى غضباً، أو إنساناً غاضباً، فلقد أشقاني البحث عن الغضب بين قوم قد فقدوا القدرة على التكلم بأية لغة من لغات الغضب، لقد أغلقت جميع المعاهد التي كانت تعلمهم التكلم ببعض لغاته.

غيظي من هؤلاء القوم وأحزاني عليهم، إنهم لم يفقدوا كل الغضب ويجهلوا كل لغاته بينما يعيشون كل أسبابه، بل، لقد أصبحوا يملكون كل الرضا والتعبير بكل لغات الرضا بينما يعيشون كل أسباب الغضب.

غيظي من هؤلاء القوم وأحزاني لهم، أنهم يعاقبونني بهزيمتهم أكثر مما يعاقبني هذا الذباب بوحشيته!»

*

إن ذباباً كبيراً بذيئاً قد هجم على أرضنا فراح يصب أحزانه البذيئة على كل البيوت، ويعلو طنينه المتحدي فوق كل الأصوات، وتلعن جبهته طلعة كل شمس - إني أتعذب حين أراه وحين أسمع طنينه المتحدي وحين أشعر به، وإني لأتعذب عذاباً أكبر حين أجد كل الذين تحولت وجوههم إلى مباصق له يهتفون ويبايعون، جاعلين من طنينه واستقراره على أنوفهم شعراً وتفكيراً وأدياناً ومذاهب وآداباً وتعاليم كونية. إني أموت كل صباح مرتين: مرة حين أجد كل شيء يستقبل يومه الجديد بالصلاة لهذا الذباب، وأموت مرة أخرى حين أجد أني وحدي الضاج احتجاجاً وألماً من هول البشاعة وهوان الانسان - أو أني وحدي المعلن عن احتجاجه وألمه.

فاسلبني يا إلهي القدرة على رؤية هذا الذباب وعلى سماع تحدياته وعلى الشعور به، وإلا فاصعد به إلى سمواتك لكي تؤدب به ملائكتك وتذل شموخهم الروحي، ولتمتحن بوقاحته صبرك، وبدمامته موهبة الجمال في ذاتك وموهبة الاحساس بالجمال في فنك!

*

ما أعظم تفضلك عليّ يا إلهي، تخلقني لتجعلني محتاجاً، لتمن عليّ بإعطائي بعض احتياجاتي، ثم لتسلبني بحنان كل ما أعطيتني ـ لتسلبني حياتي وكل احتياجي إلى احتياجاتي، فما أرحمك يا إلهي! أنت بالغ الرحمة لأنك تفعل ما لا أعقل وما ترفض أخلاقي أن تكونه أو أن تراه، وما تهددني عليه بالعقاب لو فعلته!

إنك تضلني لأنك تريد هدايتي وتقتلني لأنك تحبني، لهذا أؤمن بك ممجداً حكمتك التي لا أفهمها ـ لا أفهمها لأنك باسمها تسحقني دون أن يكون لك أو لي أو لجاري أو لأي إنسان يسكن المريخ، أو للنجوم أي عزاء أو انتصار في سحقي!

هل تفهم أنت يا إلهي أي تفسير لك في مصافحاتك وضرباتك؟ إن كانت مصافحاتك وضرباتك لعبادك بلا أسباب فلماذا فرقت بينهم في قسمتها، وإن كانت بأسباب فلماذا فرقت بينهم في قسمة أسبابها؟ لست أفهم يا إلهي أخلاقك ولا فنون ذكائك!

تهبني ذكاءً وشوقاً إلى الحرية والكرامة والرخاء، ثم تنصب فوقي طاغية مصاباً بكل الأحقاد والمجاعات الطبقية والتاريخية وبكل الشهوات الاستعراضية، ليتعزى عن جحيم آلامه بسرقة حريتي وكرامتي وذكائي ورخائي ـ مدافعاً ـ في زعمه ـ عن ذكائي وحريتي وكرامتي، وليبدد كل احتمالات رخائي وسلامي نفقات على زفاف دائم لذاته التي تريد أن تحول كل بذاءات الكون إلى احتفالات عرس لها لا تنتهي مواسمه، تحت شعارات الثورة أو المذهبية أو الوطنية أو الإنسانية أو في خصومات دائمة مع كل الأبالسة وكل الملائكة، بحثاً عن مواقف البطولة الخطابية، أي عن مواقف البطولة الاستعلائية التي قد تصبح مرضاً خبيثاً في أحد الزعماء، فيذهب يحول كل قوت مجتمعه ووقاره وذكائه إلى أدوات عرض لجنونه المتحدي الشاتم دون أن تكون له قدرة على الانتصار.

فإن كنت يا إلهي تريد لي ما وهبتني فلماذا خلقت الطغاة؟ وإن كنت تريد أن يأخذ مني الطغاة ما وهبتني فلماذا وهبتني؟

تصنع لي عينين ثم تفقؤهما؟ تصنع لي رجلين ثم تصيبهما بالشلل؟ تصنع فيّ شوقاً إلى الحرية ثم تصنع الطغاة؟ إن الطغاة يا إلهي يشتمونك أكثر مما يشتمون شموسك.

لست أفهم يا إلهي أي تفسير لهذا، لهذا أؤمن بك جداً، فالذين لا يفهمونك، كما لا يريدون أو يستطيعون أو يجرؤون على أن يفهموك هم الذين يؤمنون بك ويحترمونك، أما أعداؤك الذين يجحدونك والذين لا يحترمونك فهم الذين يعرفونك والذين يجرؤون على النظر إليك!

إن معرفة الآلهة والنظر إليها موت أو كفر، فاحمني يا إلهي من الموت والكفر، احمني من رؤيتك ومعرفتك!

إذن فهبني يا إلهي عجزاً عن معرفتك لأني أريد أن أؤمن بك جداً، هبني العجز عن الرؤية يا إلهي فإني لا أطيق أن أرى كل هذه البلادة والشقاء والهوان والطغاة والحقارات التي تطيقها شموسك ونجومك وحكمتك، والتي يمارسها حبيبك الإنسان دون أية معاناة.

افقأ عيني عقلي يا إلهي، فإنه يريد أن يكون كل شيء كما يريدك أن تكون، وهو لا يراك كما يفترضك. إن عقلي يشقيني لأنه يحتج على كل ما لا يرضى، وهو لا يجد شيئاً يرضاه، حتى الزهرة لأنها ليست في كل البيوت، حتى الصحة لأنها ليست في كل الأبدان، حتى النور لأنه يتعب بعض الأبصار، حتى الذكاء لأنه عبد وعميل للغباء، حتى الحضارة لأن الطغاة يحقرونها ويحولونها إلى همجية وإلى أجهزة عرض لطفولتهم الباحثة عن التعري والضجيج!

إن عقلي ليوقظني في الليل ليشتمني ويعذبني باحتجاجاته وتساؤلاته: كيف يطيق الناس أن يبتلعوا كل هذا الذي يبتلعون، كيف تطيق أديانهم أن تبتلع كل هذه العقائد والعبادات والتفاسير، وكيف يبتلع ذكاؤهم كل هذا الغباء، وتبتلع حياتهم كل هذا البؤس، وتبتلع كرامتهم كل هذا التحقير، وتبتلع عقولهم كل هذا التضليل، وتبتلع شجاعتهم كل بذاءات هذا الذباب!

إن البشر لا يرفضون أي شيء، ولكن الأشياء تتعاقب عليهم لأن الذين يفرضونها عليهم يتعاقبون. إن شيئاً ما لم يتغير لأن الناس رفضوه، بل لأن نقيضه فرض عليهم.

إن البشر مستعدون دائماً نفسياً وأخلاقياً وعقلياً لأن يتجمدوا في كل تاريخهم عند مستوى واحد من البؤس والهوان والجهل والتخلف، لا يرفضونه أو ينكرونه أو يتخطونه لو كان ممكناً أن يتركوا في هذا المستوى. إنهم لا يتقدمون لأنهم يرفضون التخلف بل لأنهم لا يتركون في تخلفهم، والذين يصنعون لهم التقدم لا يصنعونه لأنهم لا يطيقون أن يظلوا متخلفين، ولكن لأنهم لا يطيقون أن يظلوا ساكتين - إنهم مفروضون على أنفسهم وعلى الآخرين، لا رافضون للهوان أو البلادة أو الشقاء.

إن عقلي يحتج على كل ما يرى وعلى كل ما لا يرى قياساً على ما يرى، ويحتج على الذين لا يحتجون، إنه يسحقني بكثرة احتجاجاته، إنه يرفض أن يتقبل ما تتقبل أنت وما تتقبل حكمتك وأخلاقك أيها الإله العظيم!

إنه يعذبني لأنه يرى ويبحث عما لا يرى ويصر على أن يرى وعلى أن يفسر ما يرى. إن عقلي يمزقني كلما رأى غباء تهتف له المنابر أو ذكاء لا يغضبه مثل هذا الغباء. وليس في الدنيا كلها كما لم يكن في التاريخ كله غير غباء تهتف له المنابر أو ذكاء لا يثيره مثل هذا الغباء بل يبارك مثل هذا الغباء ويتعامل معه باحترام ورهبة وينحني له بتواضع وارتجاف!

كان عقلي يضج محتجاً على جبن الذكاء وانهزامه أمام الغباء ونفاقه له أكثر من احتجاجه

على الغباء نفسه، إن منظر الذكاء مبايعاً للغباء وتابعاً له ومطروحاً تحت قدميه في خشوع كان أقبح منظر يشتم عقلي ويحول كل شيء أمامه إلى دمامات وكآبة وأنين وإلى سياط تجلد أعصابي.

أقسى العذاب أن توهب عقلاً محتجاً في مجتمع غير محتج، أو أن يسقط على حياتك وثن إنسان كريه لا تستطيع تحمل وثنيته ولا تستطيع التخلص من مواجهته.

كثيرون هم أولئك الطغاة الأغبياء الذين يخر تحت أقدامهم كل ما في الدنيا من ثقافة وفنون وذكاء، يقبلها ويبايعها ويلتمس منها الهداية والنور، خوفاً أو طمعاً أو غوغائية بحثاً عن التلاؤم مع صراخ السوق، إنه مشهد يتكرر ولا يستطيع عقلي أن يغفره للحياة ولا للإنسان ولا لي أنا المغلوب على أمره، كما لا يستطيع أن يغفره لك أنت أيها الرب الطيب.

إذن فافقأ يا إلهي عيني عقلي لكي أستطيع أن أؤمن بك وبالحياة وبالإنسان، ولكيلا أتعذب برؤية الأشياء رؤية حادة مفسرة، فالرؤية الحادة المفسرة ترفض الإيمان وتهب العذاب، لأن هذه الرؤية لا تنطلق إلا عن ذات محتجة، والذات المحتجة هي الرفض والجحيم.

ليتك أيها الإله النبيل توهب ذاتاً محتجة لكي تعاني مثلما أعاني، لكي ترفض ما أرفض!

*

يا رعايا هذا الذباب،

ليت جميع الحكماء والمعلمين القدماء الذين كانوا يخرجون من أصلاب التراب ليعلموا الناس فنون الركوع والصبر والهوان والبلادة، يخرجون من مقابر التاريخ لكي يروا ـ مصعوقين ـ بلادتكم وصبركم وهوانكم وركوعكم، لكي يعلموا أن البشر ليسوا محتاجين، ولم يكونوا في أي وقت من الأوقات محتاجين إلى أنبياء أو حكماء ليعلموهم هذه الفنون، أو ليحدثوهم عن فضائل الخوف والجبن والاستسلام لكل الذباب المتعاقبين على أخلاق الإنسان يؤدبون ويذلون شموخها، لكي يعلموا أن ابتلاع الهوان لا يحتاج إلى أي معلم، وأن البشر لم يزالوا يعيشون جميع فنون الضعف والسقوط الأخلاقي والنفسي على أعلى مستويات الترف دون معلمين، بل عصياناً لتعاليم كل المعلمين ـ أو إذا كانوا محتاجين إلى من يعلمونهم هذه الفنون فإنكم أنتم أفضل من يعلمونهم إياها، إنكم تعلمونها بسلوككم واستجابتكم وبخوفكم أفضل وأقوى مما يعلمها جميع الحكماء والوعاظ بفصاحتهم وحكمتهم.

إن جميع أولئك المعلمين من حكماء وأنبياء لو رأوا هوانكم لانهاروا خجلاً وحزناً، إنهم سيجدون حينئذٍ أن كل نضالهم كان عبثاً، وأنهم كانوا يعلمون ما لا يحتاج إلى تعليم بل ما يحتاج إلى تعليم مضاد. إنكم في ممارستكم للهوان أبلغ من كل المعلمين في تعليمهم للهوان.

إنهم حينئذٍ سوف يتعلمون منكم أساليب التواضع المهين بدل أن يحاولوا تعليمكم إن كان يوجد من يحتاج إلى أن يتعلم أو يعلم أساليب التواضع المهين. أو ليت أولئك المعلمين قد رأوكم من إحدى نوافذ التاريخ ليعلموا أنه لا معنى لمجيئهم ولا حاجة إلى تعاليمهم!

يا رعايا هذا الذباب البذيء المتوحش، إن كل ما في الوحل من ديدان وتواضع ليحسدكم على تنازلكم الكريم عن كل كبرياء، إن كل سكان التراب ليحسدونكم على تنازلكم عن كبرياء الغضب والعصيان والاحتجاج العقلي والأخلاقي، إنهم ليحسدونكم على تنازلكم عن كل كبرياء وعلى تنازلكم عن تكاليف كل معنى من معاني الرفض!

يا رعايا ذباب قد شرب مياه كل الأنهار في أرضكم فحولها إلى محل، وشرب كل معاني النخوة في أخلاقكم فحولكم إلى هوان.

يا رعايا ذباب قد حول كل كرامة في تاريخكم أو في أنفسكم، وكل خصوبة في أرضكم إلى طنين وفاقة.

هل تعلمون أيها الرعايا ماذا يؤخذ منكم وكم تدفعون ثمناً لحماية هذا الذباب وثمناً للإعلان عنه ولتمجيده وللغناء له ولجلب السرور إلى طبعه المتوحش؟

هل تعلمون كم سفكت دماؤكم وسرق رخاؤكم وأذلت كراماتكم وسلبت حرياتكم وخوف أمنكم وحوكم وسجن واعتقل وأعدم الأبرياء منكم بحثاً عن الحماية لهذا الذباب، وثمناً للإعلان عنه ولتمجيده والغناء لمزاجه الباهظ الثمن؟

بل هل تعلمون كم تعطون أو كم يسرق منكم ثمناً لنشر صوره ولتحويل طنينه إلى صلوات تتلى وتفسر من فوق كل المنابر والأجهزة وفي كل المعابد؟

ذباب واحد بذيء متوحش تتحول كل دمائكم ورخائكم وأمنكم وقوانينكم وجيشكم وشرطتكم وجميع اهتماماتكم الداخلية والخارجية وجميع علاقاتكم وارتباطاتكم مع الأفراد والدول ومع المذاهب والنظم، إلى ثمن رخيص بل إلى ثمن تافه لحمايته ولإعطائه المجد والمسرات والكبرياء!

ما أغلاكم أيها الرعايا في حساب أنفسكم وفي حساب آلهتكم وفي حساب النجوم الناظرة إلى هوانكم بلا غضب. إن هذا الذباب لو خافكم جميعاً لكان ثمناً مشروعاً ورخيصاً أن يعتقلكم ويحاكمكم ويقتلكم ويسجنكم كلكم، بل وأن يفعل ذلك بالبشر جميعاً لو خاف منهم جميعاً وكان قتلهم أو اعتقالهم أو سجنهم أو محاكمتهم جميعاً حاجة من حاجات أمنه وحمايته.

إنكم أيها الرعايا، إنكم جميعاً يا رعايا هذا الذباب بعض الثمن المشروع المطلوب القليل

لحمايته، إنه لثمن بخس أن تسجنوا أو تعتقلوا أو تعدموا أو تنفوا أو تراقبوا أو يسلب أمنكم جميعاً إذا كان ذلك احتمالاً من احتمالات الحماية له!

ما أبهظ الأثمان التي دفعها البشر في تاريخهم الطويل، لأن ذباباً طاغية يريد أن يحمي حياته أو مخاوفه أو احتلامه أو توتره أو بغضه وحقده، أو لأنه أساء وظلم، فاحتاج إلى المزيد من الخوف والظلم. إن الذباب المتسلط يظلم فيخاف، فيظلم ليأمن، فيخاف فيظلم، وهكذا يصبح ثمن خوفه وحمايته بلا حدود. وجميع الأجهزة تفسر حماية الذباب المتسلط بأنها ليست إلا حماية للآلهة والكون من الفناء والفساد، لهذا فكل جنون مشروع لإعطاء هذه الحماية!

أما أنت أيهذا الذباب، أيها الذباب المعلم القائد فإن لك لمزية، ذلك أنك قد حولت رعاياك الذين قد أصبحوا معجزة في ضعفهم وعارهم، قد حولتهم إلى قوم لا يخاف عليهم أحد من أخطار شجاعتهم، وإلى قوم لا يمكن أن يتعلم أحد منهم الشجاعة أو الغضب، أو أن تخيف شجاعتهم أو غضبهم أحداً!

لقد أثبت أيها الذباب، أيها القائد الثائر المعلم، أيتها المعجزة الثورية الذبابية، أنه لا حدّ لهوان البشر أو لهوان رعاياك أيها الذباب القائد. وهذه مزية لا بد أن يظل التاريخ يذكرها لك بتواضع وحماس، مع أن التاريخ ينسى كل شيء لأنه يغفر كل شيء لأنه ليس ناقداً ذكياً، أو ناقداً عادلاً، لأنه هو الإنسان، لأنه هو المذنب والناقد والرائي والمتعري، ولأنه يظل يتلوث ويهون ويتلوث ويهون حتى يفقد كل قدرة على التمييز بين حدوث التلوث والنظافة وحدود الشجاعة والهوان. بل إن التاريخ ليس ناقداً ولا يملك الاحتمالات لكي يكون ناقداً، وإنما هو كائن ملوث بليد لا يستطيع كل الكون بكل شموسه وبحاره أن يهبه النظافة أو الذكاء أو الأخلاقية، إنه - أي التاريخ - هو المقبرة التي تثوي فيها كل الجثث التي ماتت بكل الأمراض والحماقات والآلام والعفونات والأخطاء والتناقضات! إنه المريض الذي لا يمكن شفاؤه أو موته، إنه بكل قفزاته ومستوياته لم يستطع أن يضع حدوداً فاصلة بين أي شيء ونقيضه حتى ولا بين مثل هذا الذباب البذيء المتوحش وبين النموذج الراسخ في أذهاننا عن الإنسان الثائر القائد المعلم الذي نتصوره أو نتمناه ناقلاً لحياتنا من الهوان والفقر والعبودية والتخلف والضعف إلى أعلى مستويات المجد والقوة والرخاء والحرية والحضارة. إننا قد نتصور أو ننتظر أو نجد هذا النموذج في ذباب متخلف عاجز بذيء قد نقلنا إلى نقيض النموذج الذي كان في أذهاننا.

إنه لا يوجد شيء خارج البشر يحتكمون إليه، والتاريخ الذي يتحدثون عنه كقوة أخلاقية وعقلية منزهة منفصلة مثل كائن مقدس جليل، منعزل في مكانه الرفيع فوق الغباء والضعف والأهواء، يصدر أحكامه الذكية التقية على الناس والأشياء دون خطأ أو غواية أو عجز - هذا التاريخ الذي يتحدث عنه البشر بمثل هذا الاجلال والثقة ليس سوى مجموع تناقضات أهواء

الإنسان ومصالحه وآرائه ومعاركه مع نفسه وضد نفسه فالتاريخ كبشر أو كمجموع أهواء البشر وتناقضاتهم ومعاركهم وأفكارهم المتعارضة المتهمة في نزاهتها وقدرتها، هل يمكن أن يوثق بذكائه أو بأخلاقه؟ والبشر كمجموع أو كتاريخ هل يمكن أن يتحولوا إلى حكم عقلي على شيء، أو إلى سلوك أخلاقي متوحد أو محترم أو معترف به؟

إن الإنسان سيظل دائماً بلا منطق وبلا مستوى أخلاقي، وبلا حدود من خارجه. والتاريخ الذي أراد أن يصنع منه كائناً خارجياً يحتكم إليه أو يزعم له التفوق عليه ـ مثل زعمه في الآلهة وزعمه لها ـ ليس شيئاً سواه ـ أي سوى الإنسان ـ مجتمعاً ومتفرقاً، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ـ أي تاريخاً ـ أسوأ في معناه الأخلاقي والعقلي من أي إنسان يثيرنا ضعفه الأخلاقي والعقلي!

إن التاريخ لو تجمع في ذات إنسان واحد لكان هذا الإنسان هو أبعد الكائنات عن أن يكون سوياً أو معقولاً أو محترماً، فكيف يمكن أن يكون حكماً أو منطقاً عاماً أو نموذجاً لأخلاق عامة؟ إنه لن يوجد حينئذٍ من يشبهه في جنونه وتمزقه وفساده!

إذن لن يُنتظر من التاريخ أن يفهم هذا الذباب أو يفسره بذكاء وعدل، ولن ينتظر منه أن يعاقبه لأنه يستحق العقاب، أو يشكره ويثيبه لأنه يستحق الشكر والثواب، أي لن ينتظر منه أن يكون عادلاً أو ذكياً في فهمه وتفسيره أو في ثوابه أو عقابه، بل إنه يضرب أو يغدق دون أن يكون معاقباً أو مثيباً، أي دون أن يكون قاصداً الإثابة أو المعاقبة ودون أن يكون عادلاً في فعله أو مريداً العدل أو عارفاً لمكان العدل أو لمعنى العدل. إنه لا شيء مثل التاريخ في جهله لمعنى العدل أو لمكان العدل، كما أنه لا شيء مثله في عجزه عن إرادة العدل وعن القدرة عليه لو عرفه وأراده!

*

أيتها النجوم تحولي إلى رجوم.
أيتها الشموس تحولي إلى حرائق.
أيتها الحقول تحولي إلى أشواك من الجحيم.
أيتها الجبال تحولي إلى سياط.
أيها الرجال تحولوا إلى نمال.
أيتها النساء تحولن إلى صحارى لا تنبت.
أيتها البراكين الخامدة تفجري، تفجري.

أيها الكون لتتساقط غضباً واشمئزازاً، أو رثاء وحزناً، لتتساقط أيها الكون على مجتمع قد غزاه ذباب بذيء، كئيب متوحش فتحولت كل الجباه والهامات فيه، وكل الذكاء والكلمات،

وكل الرجال والشموخ إلى هزائم وعار وزور وصلوات وعبيد ونشيد لمجد الذباب، وإلى تفاسير لما في طنينه من عبقريات ومذاهب ثورية، ومن تحد وهزائم لكل موسيقى رجعية!

أيها الغضب أريد أن أرى غضباً، أريد أن أرى قبر الغضب، حتى قبره أخشى أنه قد مات!

أيتها الآلهة مارسي كل غضبك أو كل حبك، مارسي كل صفاتك وإلا فهبيني كل قوتك!

أيتها البحار.

أيتها الأنهار تحولي إلى دموع تذرفها عيون السماء حزناً على كبرياء الأرض، وتذرفها عيون الأرض حزناً على شرف السماء.

أيتها البحار.

أيتها الأنهار تحولي إلى دموع.

أيها الكون تساقط غضباً واشمئزازاً، أو رثاءً وحزناً.

أيتها الآلهة مارسي كل غضبك وكل حبك، مارسي كل صفاتك وإلا فهبيني كل قدرتك!

ليتحول كل شيء إلى غضب ودموع وعقاب، فلقد انتصر ذباب على تاريخ الإنسان، ليتحول كل شيء إلى هجاء للبشر!

إن الطبيعة لتقسو بوحشية على بعض الناس فتجعلهم بلا عدل أو رحمة كأنما اختيروا ليصبحوا كفارة عن كل نقائص وهموم وذنوب الكون والناس والآلهة، أي ليصبحوا كفارة كونية عن جميع الآلام والهوان والجبن والتلوث والكذب والضعف والسقوط والأخطاء التي يفعلها أو يعيشها أي إنسان أو حيوان أو جماد أو ذباب بذيء مثل هذا الذباب، ليروها ويعانوها ويتعذبوا بها وحدهم دون من يفعلونها أو تفعل ضدهم أو أشد منهم!

إنها أي الطبيعة لتجعل هؤلاء الذين تختارهم أو تقع عليهم دون اختيار ليكونوا الكفارة الكونية، يحسون بآلام كل البشاعات والتفاهات والنقائص ويصدمون بدمامتها ويتعذبون بالاشمئزاز منها والتحدث عنها كأنهم بذلك إنما يكفرون عنها ويحملون وزرها عن كل العالم.

إن كل ذنب وهوان وهزيمة وسقوط وتشوه وضعف وألم، يفعله أو يقاسي منه أي كائن ليستقر في ذواتهم ليقاسوا كل أهواله، إن جميع الدمامات لتتفجر بقسوة في أبصارهم حتى دمامات هذا الذباب. فما أشد ما يتعذبون، فهل أنت واحد منهم؟ أرجو لك ألا تكون.

هل يمكن أن يكون هناك أشد عذاباً ممن تمر من خلاله كل آلام وأخطاء وتشوهات وحقارات الكون والناس والآلهة، مخترقة ذاته طولاً وعرضاً، سطحاً وعمقاً، كارة فارة، ذاهبة آيبة، متكررة في عملية ضاجة ملحة؟ وإذا الطبيعة اختارتك لتجعل منك هذا الإنسان فهي حتماً ليست بك حفية.

إن أكبر وأعجب الأوعية وأشدها شقاء وتشوهاً هو الإنسان الذي تصبح أفكاره ومشاعره وكل حياته وعاء مفتوحاً مستقبلاً ملتقطاً لكل آلام وأحزان وتفاهات وضعف الآلهة والبشر وكل شيء!

واعجباً! كيف يستطيع إنسان ما أن يصبح وعاء أو ممراً لكل ذلك!

إني أعرف إنساناً واحداً ـ على الأقل ـ قد أصبح هذا الوعاء والممر، فكم هو خليق بأن نحزن له! وهذه الوعائية الكونية في هذا الإنسان هي المسؤولة عن إحساسه العميق ببذاءة هذا الذباب ووقاحة كينونته وما فيها من تحد وإذلال لكل ما تعلم البشر في كل مستوياتهم التاريخية والحضارية من معاني الرفض والكرامة والذكاء!

أيها الغضب أريد أن أراك أو أرى قبرك، حتى قبرك إني لا أراه، أخشى أنه قد مات، أخشى أن هذا الذباب قد قتله أو اعتقله حتى مات من التعذيب.

أخشى أنه قد قتله لئلا يزوره أو يتذكره الباحثون عن الذكريات!

أخشى أن هذا الذباب قد انتصر عليك حتى قتل قبرك أيها الغضب أو اعتقله.

إن هذا الذباب يعتقل القبور، نعم ويعتقل الموتى!

أريد أن أرى غضباً، أو إنساناً غاضباً، فلقد أشقاني البحث عن الغضب بين قوم قد فقدوا القدرة على التكلم بأية لغة من لغات الغضب، لقد أغلقت جميع المعاهد التي كانت تعلمهم التكلم ببعض لغاته.

غيظي من هؤلاء القوم وأحزاني عليهم، إنهم لم يفقدوا كل الغضب ويجهلوا كل لغاته بينما يعيشون كل أسبابه، بل لقد أصبحوا يملكون كل الرضا أو التعبير بكل لغات الرضا بينما يعيشون كل أسباب الغضب!

غيظي من هؤلاء القوم وأحزاني لهم، إنهم يعاقبونني بهزيمتهم أكثر مما يعاقبني هذا الذباب بوحشيته!

أيتها النجوم لماذا قهر هذا الذباب رعاياه على هذا المستوى الحزين الشامل؟ هل لأنه أقوى من كل ذباب آخر لم يستطع أن يقهر رعاياه مثل قهره، أم لأن رعاياه أضعف من كل الرعايا الأخرى التي لم تستسلم استسلامها؟

إن كان لأنه أقوى ففي أي شيء هو أقوى؟ في بذاءاته أم في وحشيته أم في وقاحته أم في إرادته أم في ذكائه أم في عضلاته؟

وإن كان لأنها أضعف ففي أي شيء هي أضعف؟ في أخلاقها أم في ذكائها أم في كرامتها وكبريائها أم في أصالتها أم في تاريخها أم في إيمانها أم في عضلاتها؟

إن كان الأمر هذا وهذا، أو هذا وهذا فبأي منطق تحدث الأشياء؟ بأي منطق يخص ذباب واحد من بين جميع بني عرقه بهذه القدرة على القهر والاذلال، أو تخص رعية واحدة من بين كل الرعايا بهذا الضعف الذي تحول إلى أكبر قصة عار في التاريخ!

مجتمع كبير يتحول كل ما فيه إلى تفاسير لغباوات وبذاءات ذباب، وإلى غناء لآلام وهموم وأخطاء ذباب، وإلى طعام لمغامرات وطموح ذباب ـ مجتمع كبير يصيبه الضعف حتى تتحول جميع مقاساته العقلية والأخلاقية واللغوية والنفسية إلى مقاسات ذبابية تحددها شهوة ذباب وعبقرية ذباب!

مجتمع كبير يفرض على قامات جميع من فيه مقاس قامة واحدة لأن الذباب المتسلط يرفض أن تكون القامات الراكعة لشموخه مختلفة المقاسات، إنه يكره التعدد في مستويات الراكعين له، يريد أن يكون كل من يسجدون له خاضعين لانخفاض واحد. ذباب واحد يفرض على كل القامات طولاً واحداً وقدرة على الانحناء لا تتفاوت!

أيتها النجوم المرتفعة بلا أي معنى من معاني الارتفاع، على أي قياس وبأي منطق تحدث الأشياء؟ أي عار تشاهدين أو تصنعين أيتها النجوم، أيتها السماء؟ أي هجاء تهجون تاريخ الإنسان أيها الراكعون الصانعون لمجد الذباب؟ ذباب واحد يحول كل العيون والعقول والقامات والأفئدة والأخلاق وكل أدوات التعبير في مجتمع كبير إلى طول واحد، فلا يتفاوت في رؤية الأشياء أو في تفسيرها، ولا يتفاوت كذلك في طول القامات أو في شجاعة القلوب والأخلاق أو في فضيلة اللغة والتعبير والحديث عن الأشياء وعن الآخرين وعن النفس وعن عبقرية الذباب!

فأية معجزة تحولت إلى أي عار!

في يوم من الأيام قد ينشأ متحف أو معهد للدراسات على هذا الذباب، بحثاً عن ألغاز القوة فيه أو عن ألغاز الوقاحة التي جعلته يستطيع أن يذل مجتمعاً كبيراً كل هذا الاذلال، كما قد ينشأ الكثير من المعاهد للدراسات النفسية والعقلية والأخلاقية والتاريخية والطبيعية والعرقية على هذا المجتمع الذي ألقى بكل أسلحته الإنسانية أمام بذاءة هذا الذباب دون أن يبكي أو يلعن نفسه أو يحتقرها أو يكرهها أو تضعف رغبته في ممارسة العلاقات الجنسية أو في ممارسة الضحك الأبله!

ليتك أيتها النجوم ترين القبح الذي أرى، أو تعانينه ـ مثلي ـ بتفكيرك أو بأحاسيسك، ليتك أيتها النجوم ترين أو تغضبين أو تفكرين ـ ليتك أيتها النجوم، أو ليتكم أيها المتثائبون على الهوان، يا من يركع كل ركوع في التاريخ لركوعكم!

*

إلى كّل طغاة العالم

«إن الطاغية هو أشهر مبصوق عليه في التاريخ: يبصق عليه الضعفاء والمتملقون عفوناتهم النفسية والأخلاقية بأسلوب الامتداح له!».

*

إلى من لا يقبل كل ما في الطبيعة من جمال وضخامة، وكل ما عند الناس من مذاهب ونظم وزعماء ومعلمين ليكون اعتذاراً أو تكفيراً عن رنة عذاب أو هوان أو تشويه أو موقف تحقير يقاسي منه إنسان أو حيوان أو حشرة مجهولة النسب والمكان.

- إلى من لا يقبل كل ما في الدنيا من ثورات وشعارات وانتصارات ثمناً لطاغية واحد تشوه به السماء المتوحشة تاريخ الأرض المريضة بالطغاة والأبطال مرضها المستعصي.

- إلى من يخجل أن يثني على إلهه أو مذهبه أو تاريخه أو وطنه بينما يعيش في مجتمع قد تحول كل ما فيه من كتاب ومعلمين ومفكرين وفنون وتعليم وحياة وحضارة ومن معابد وكتب مقدسة، بل ومن آلهة وشموس وأنهار وحقول إلى أدوات عرض، وإلى منشدين ومفسرين لمجد طاغية فرد، يريد أن تتحول الدنيا كلها إلى مرآة كونية مسحورة العقل والضمير والأخلاق والتعبير، ليراه بها كل العالم، كل الوقت، من كل الجهات، بكل الصور والتهاويل، بكل العيون، بكل أحاسيس الانبهار، حاجباً عن الضوء كل الشموس وكل التاريخ.

- إلى من لا يجرؤ على الحديث عن الشرف والذكاء أو الكرامة لأنه يرى أحد الطغاة يبصق فتتحول بصقته إلى شعر للشعراء ومنطق للمفكرين ودروس للمدرسين وتلاوة في محاريب المؤمنين، بل تتحول كل الآلهة والأديان والمذاهب والأخلاق والقيم والتاريخ إلى شروح لهذه البصقة وقصائد في مدحها.

- إلى كل من ينظر إلى المستقبل بغضب حيث يرى النجوم الهمجية تعد نفسها وتعد

التاريخ للاحتفال بمجيء المزيد من الطغاة حيث تتآمر عبقرية الحضارة مع نفاق المتحضرين لصياغة شراسة هؤلاء الطغاة وإنماء عددهم.

- إلى كل من ينظرون في النجوم فيجدون في لوحاتها الفاضحة لأسرار الآلهة ولضمير الغيب: إن أخطر ما يهدد ذكاء الإنسان وكرامته في العالم الجديد هو طغيان الزعامات الصاعدة بلا وقار أو اتزان أو جدارة، هذه الزعامات التي تفكر وتعيش من داخلها بكل نقائص وضعف التاريخ والبداوة، والتي تضرب وتملك وتعرض نفسها من خارجها بكل مزايا الحضارة والحياة وقوتهما.

- إلى كل من يصرخون من فجور الزعامات التي هي أثقل ما عانى منه ضمير الإنسان وحياته في كل تاريخه. والزعامة كالمرض، أقواها أقتلها.

- ثم إلى كل الطغاة في التاريخ الذين استطاعت وحشيتهم أن تفترس كل ما في التاريخ من احتمالات الشجاعة والكبرياء والحرية، واستطاعت عقولهم وأخلاقهم أن تزدرد وتهضم كل ما يقدم لها من عفونات الكذب والملق والعبودية التي تطالب بها وتفرضها بصراخ طفولتهم التي لا تتهذب - إلى كل هؤلاء الطغاة الذين لا مثيل لهم في قدرتهم على التغذي بالأوحال النفسية التي تفرزها أخلاق الضعفاء وفي الاشتهاء لها، كما لا مثيل لهم في مقدرتهم على قتل السمو الإنساني الذي تتحدث عنه التعاليم والأديان والخطب والشعر.

- إلى هؤلاء الزعماء والحكام الذين لا مثيل لهم في ضعفهم، هؤلاء الذين يلتهمون بكل شهية وتفتح كل ألوان العفن النفسي والأخلاقي الذي يلقى به على موائدهم بلا نظافة أو إيمان، ولا مثيل لوحشيتهم في قدرتها على أن تفترس جميع مستويات الذكاء والكرامة في الإنسان. إن الطغاة هم أشهر مبصوق عليهم في التاريخ: يبصق عليهم الضعفاء والمتملقون ضعفهم وملقهم، إنهم أكبر مكان تتجمع وتلقى فيه الزبالات، إنهم إن كانوا يقبلون الملق والكذب على أنهما ملق وكذب فلا مثيل لوضاعتهم، وإن كانوا يقبلونهما على أنهما صدق وتمجيد لهم فلا مثيل لبلادتهم!

- إلى من يرى ذنوب البشر وأخطاءهم عدواناً عليهم جاء كعدوان منهم.

- إلى من يحاول أن يفسر الناس وينقدهم ويمنعهم بل ويساعدهم ويعالجهم، ولكنه لا يلعنهم أو يحتقرهم أو يبغضهم لأن ذنوبهم وأخطاءهم ليست إلا عدواناً عليهم جاء بأسلوب العدوان منهم.

- إلى من ينقد الطبيعة والمذاهب والزعماء، ويجادل الآلهة، لأنه يتعذب من أجل الإنسان والحيوانات والحشرات المعذبة، ولا تصمت مشاعره أمام الآلام والغباء والأحزان والحقارات المعروضة بكبرياء أمامه.

ـ إلى من لا يقسو في تفسيره لعيوب وأخطاء البشر والكائنات الحية لأنه يحابي الآلهة والزعماء والمذاهب والطبيعة في وحشيتها وغبائها وعدوانها على الحياة في جميع مستوياتها ونماذجها.

ـ إلى من يقسون في تفسيرهم للطبيعة والمذاهب والزعماء والآلهة لأنهم يحابون الحياة حتى في أقل مستوياتها،

ـ إلى من يرفض كل ما كان يقوله مفسرو النبوات والتعاليم القديمة. لقد كانت التعاليم والنبوات القديمة تجيء دائماً أو أحياناً لتحابي كل أعداء الإنسان، أي لتحابي الكون والزعماء والمذاهب والآلهة على حساب الإنسان، ولتأخذ منه لها. لقد كانت تلك النبوات والتعاليم تفسر كل شيء تفسيراً يجعل كل ما عدا الإنسان طيباً وبريئاً ويجعل الإنسان وحده الرديء الآثم. فالآلهة والطبيعة والمعتقدات والمذاهب والزعامات ليست مذنبة ولا مخطئة مهما فعلت من الذنوب والأخطاء، إن ذنوبها وأخطاءها ليست سوى هدايا ودروس تعلم الإنسان وتؤدبه وتصلحه وتهدى إليه ـ إنه لولا ذنوب البشر وأخطاؤهم لما وجد أي خطأ ولا أي ذنب في هذا العالم!

ـ كانوا يقولون إن أخطاء الطبيعة والحكام والمذاهب والآلهة ليست إلا تعبيراً عن أخطاء البشر، إن جرثومة المرض، وإن الحشرة الساقطة على الطعام المتغذية بأعضاء الإنسان، وإن فيضان النهر، وإن انتحار الحقول ظمأ ـ إن كل ذلك وأمثاله ليس إلا ذنوباً إنسانية قد تحولت إلى سلوك للطبيعة أو للإله، وإلى لغة من لغاتهما. كان الإنسان دائماً يفسر ضد نفسه كما كانت تفسر ضده جميع الأشياء. كانت جميع النبوات والتعاليم القديمة التي كانت تجيء في عصور البداوة تدين الإنسان وتبرىء جميع المذنبين حوله، كانت تعاقب العبيد على ذنوب الأرباب وتهبهم الضعف لتهب القوة كلها لأربابهم!

أما نبوات الحضارة وتعاليمها فإنها تفسر كل شيء تفسيراً مقاساته ولغته هي مقاسات الإنسان ولغته، إنها تقسو في تفسيرها للآلهة والكون والمذاهب والزعامات، ثم تتلطف جداً في تفسيرها للإنسان!

كانت النبوات القديمة ترى أن أعلى مستويات التدين أن تقسو على الإنسان لمصلحة أربابه وزعمائه وعقائده ولمصلحة كونه الواسع البليد. أما نبوات الحضارة، أو الحضارة المنكرة للنبوات القديمة، فإن أعلى مستويات التدين لديها أن تقسو على كل شيء لتدافع عن الإنسان. كان الإنسان يقسو على نفسه لحساب أعدائه، وكان يقاوم ـ ولا يزال يقاوم ـ من يحاولون أن ينتصفوا له من أعدائه!

إن الإنسان المتدين جداً هو الذي ينحاز إلى البشر ضد أربابه ومذاهبه وزعمائه، أما الإنسان

المارق فهو الذي يفعل العكس. إن المحارب لكل ما سوى الإنسان انتصاراً للإنسان هو مؤمن المستقبل، أو هو المؤمن الذي يبحث عنه ذكاء الإنسان.

ـ إلى من يخضعون مذاهب الإنسان وآلهته وزعماءه لحياته أو لكرامته، ولا يخضعون كرامته أو حياته لشيء حتى ولا لآلهته.

ـ إلى من يفسرون كل الأشياء بالإنسان، ولا يفسرون الإنسان بشيء.

ـ إلى من يرون الإنسان هو اللغة الكونية التي يجب أن تتعلمها جميع الأرباب والمذاهب بل جميع الشموس والأنهار والصخور والحشرات لتتفاهم بها ومعها وحدها.

ـ إلى كل هؤلاء الذين كتبوا هذا الكتاب المحارب العنيف ـ المحارب العنيف جداً ولكن بلا عداوة أو بغضاء.

ـ إلى هؤلاء الذين أملوا دون قصد هذا الكتاب الذي يحمل وراء عنفه وغضبه ضعفاً إنسانياً خطيراً، إنه ضعف لا يطيق أن يرى الدموع حتى ولا في عيون الطغاة والقتلة والأعداء، حتى ولا في عيون الوحوش والحشرات والأبالسة، حتى ولا في عيون الموت والخوف والآلام والحشرات التي تعتدي علينا وتهدد حياتنا. إنه ضعف لو رأى إبليس ـ صانع جميع الآلام والخطايا ـ يعاني من التعذيب والخوف والإذلال والقيود والظلم في معتقل أحد الطغاة لتعذب من أجله كما يتعذب من أجل الإله لو رآه مصلوباً أو باكياً من العذاب!

إن من وراء هذا الكتاب العنيف الغاضب إنساناً لا توجد بينه وبين أي معذب حدود أو أبعاد، إنه يعيش فيه كل المعذبين ويعيش في كل المعذبين بالخيال والرؤية والأحاسيس والتفكير، إنه بقدر ما يتوقع ويرى ويتصور يتعذب، وهو يتوقع ويرى ويتصور بلا حدود، إذن هو يتعذب بلا حدود، ليست حدود ألمه هي حدود ذاته بل حدود مشاعره، وحدود مشاعره ليست هي حدود العالم الذي وجد بل والعالم الذي لم يوجد، إذن هو يتعذب عذاب ما وجد وما لم يوجد.

إن من وراء هذا العنف والغضب ضعفاً لا يطيق أن يموت الطغاة أو الأبالسة بل يريد لهم أن يشفوا من أنفسهم، وإذا لم يكن بد من أن يموتوا فإنه يريد لهم أن يموتوا بلا عذاب أو هوان، بل كما يموت الطوفان أو الزلزال المخرب، أو كما تسقط الشجرة أو الصخرة العاتية المغلقة للطريق المهددة للناس، أي كما تسقط بلا دموع أو أنين. إنه ضعف لا يجد فرقاً بين الألم الذي يقاسي منه الطاغية والألم الذي يقاسي منه القديس أو النبي، إنه يعاني من الألم الذي يعاني منه الطاغية بمقدار ما يعاني من الألم الذي يعاني منه قديس أو نبي عظيم.

إنه يتعذب لألم من يقع عليه الألم كما يتعذب لألم من يصنع الألم. إن الطغاة يتعذبون

بالآلام النازلة بهم كما يتعذب بها القديسون والأنبياء، والألم لا يرفق بالطاغية أكثر مما يرفق بالرجل الصالح، إن الألم كائن بلا مذهب أو ضمير، إنه يعاقب حيث يوجد كما هو لا كما يراد منه أو ينبغي له. إذن هو ضعف لا بد أن يشقى كلما وجدت الآلام لأنه كلما وجدت الآلام وجد المتألمون، وكلما وجد المتألمون حتى ولو كانوا طغاة أو أبالسة أو قتلة أو أعداء تألم هو. إنه لو رأى الشيطان يموت أو يبكي لوجد موته في أعضائه ودموعه في عيونه وأحزانه في قلبه!

إنه ضعف يرى الطغاة والأبالسة والقتلة مظلومين بأنفسهم، إن أنفسهم ظالمة لهم بقدر ما هي ظالمة للآخرين، إنهم يشقون بشرورهم كما يشقى بها الآخرون ـ إنه ضعف يرى أن الطغاة والأبالسة والقتلة محتاجون إلى أن يحموا من عدوان أنفسهم على أنفسهم كما يحتاج غيرهم إلى مثل هذه الحماية من عدوانهم. وليس الذي أعداؤه أو داؤه أو ألمه داخل ذاته أفضل حظاً أو أسهل خطباً من الذي أعداؤه أو ألمه أو داؤه خارج ذاته، إن الوحش داخل الذات ليس أكثر فضيلة أو أضعف أنياباً من الوحش خارج الذات!

ما أشد ما يتعذب الطغاة وما أكثر أسباب عذابهم. إن الطاغية يتعذب لأنه قد فرض عليه أن يشتهي الطغيان، ولأنه محتاج بلا تعليم إلى ممارسة طغيانه، ولأنه يعيش في ظروفه الأليمة بلا خيار، ولأنه محكوم عليه بالطغيان من داخله وخارجه ومحكوم عليه بممارسته، وإنه ليتعذب من ممارسته ويتعذب من مواجهة عواقبها وردود فعلها، ويتعذب إذا لم يستطع أن يمارس ذاته، ولعله يتعذب بالعجز عن الممارسة أكثر مما يتعذب بالممارسة. وما أكثر ما يعجز عن هذه الممارسة، إذن ما أكثر عذابه. إن الطاغية محكوم عليه بشروره أي محكوم عليه بآلامه، إذن فكم يجب أن نحزن له كما نحزن منه وبه. إني لأحزن إذا انتصر وأحزن إذا انهزم، لأنه إذا انتصر تعذب الناس وإذا انهزم تعذب هو!

ولعل الوحش يتعذب بمشاعره نحو الافتراس وباشتهائه له وباحتياجه إليه وبتركيب صفاته فيه، ويتعذب أيضا بممارسته إياه لأن ذلك يعجزه أحياناً، ويوقعه في الخطر والخوف دائماً. إن الوحش محكوم عليه بوحشيته، وكذلك الطاغية محكوم عليه بطغيانه.

وما أشد الفرق بين عذاب الطاغية وعذاب الوحش، ما أشد الفرق بين ما حكم به على هذا وما حكم به على ذاك. لقد ركبت ذات الطاغية فيه كما ركبت ذات الوحش فيه. فهل الطاغية إذن ظالم أم مظلوم؟ وهل هو كائن يستحق البغضاء والاحتقار، أم هو كائن معذب يستحق الرحمة والانقاذ لنفسه وللآخرين من الوحوش الرهيبة الساكنة فيه؟

كم أتعذب حينما أتصور طاغية يعاني أشد آلام الجوع! إنه الجوع إلى الافتراس، وآلام الجوع إلى الافتراس ليست أخف من آلام أي جوع يعاني منه الأحياء. إن الطاغية يجوع إلى الافتراس

فلا يستطيع، أو يستطيع فيفترس فيزداد جوعاً إلى المزيد من الافتراس، أو فيمتلىء خوفاً من العقاب، إني لأرحم مثل هذا الطاغية أكثر مما أرحم الوحش الجائع العاجز عن أن يجد حيواناً ضعيفاً يسكت به جوعه المتوحش، إني لأرحم الطاغية الذي يريد الطغيان فلا يستطيعه كما أرحم ضحايا طغيانه، بل كما أرحم الحشرة التي لا تجد العفن لتتغذى به. إنه يجب أن أقاوم الوحش إذا حاول افتراسي، ولكن يجب أيضاً أن أفهم عذره وأرثي له كما يجب أن أغفر له رغبته في افتراسي، إنه لا يستطيع أن يمنع أظفاره وأنيابه من أن تنبت عنيفة قوية في جسمه، كذلك لا يستطيع أن يمنع شهوة الافتراس فيه من أن تسحقه.

إن حق الوحش في أن يحاول افتراسي وحاجته إلى هذا الافتراس يساويان حقي في أن أمتنع عليه وحاجتي إلى هذا الامتناع، وهكذا يجب أن أفهم الطاغية وأن أعامله. إني بكل قوتي يجب أن أقاوم الطغاة، ولكني بكل قوة مشاعري وتفكيري سوف أحزن وأتعذب من أجلهم ولعذابهم. إن الطغاة يشتهون العدوان عليَّ كما أشتهي أنا أن أرفض شهوتهم. فأينا المذنب أو أينا الطيب، بل أينا أحق بالغفران؟ أينا الخارج على تعاليم السماء أو على أوامر الطبيعة وقوانينها؟ أيهما أظلم: الحشرة التي تتخلص من عذابها بالتغذي بالناس وبقذفهم بسمومها، أم الناس الذين يتخلصون من خوفهم منها بقتلها؟

أيها الطغاة إني أفهمكم بحنان، أنتم مصابون بالطغيان ولستم عاشقين له، لهذا أتعذب لكم مخلصاً كما أتعذب بكم أعنف عذاب! إننا لا نستطيع أن نغفر لكم عدوانكم على الحياة كما لا نستطيع أن نغفر للطبيعة عدوانها عليكم. وما أشد عذاب من يتعذب بكم ويتعذب لكم، وإنكم لتجنون على من يتعذبون لكم مثل جنايتكم على من يتعذبون بكم، إن أحزانكم ودموعكم لتعذبنا بقدر ما تعذبنا أكاذيبكم وحماقاتكم، إنكم، منتصرين ومنهزمين، عبء على ضمائرنا وحياتنا. ما أكثر الذين نتعذب بهم والذين نتعذب لهم. أليس الذين يعذبوننا يتعذبون، وأحياناً يعذبوننا لأنهم يتعذبون، وقد يتعذبون لأنهم لا يستطيعون تعذيبنا؟ إذن كيف لا نتعذب لهم؟

إنه لو تحول الموت والعار والأمراض إلى كائنات فيها حياة، ثم رأيتها تموت وتتألم لشعرت بالعذاب من أجلها! إني منحاز دائماً للحياة ضد آلامها، ولا أستطيع أن أجد فرقاً بين الحياة الموجودة في ذاتي والحياة الموجودة في ذات أي كائن آخر في انحيازي لها ضد ألمها. والألم بالشعور الموصل قد يكون أقسى الآلام لأنه قد يكون أقدر على المبالغة والتهويل والشمول، إنه حتماً سيكون أشد المتألمين ألماً هو المتألم بالشعور القوي التوصيل لأنه ألم لا حدود ولا زوال ولا علاج له، إنه ألم يتسع اتساع الحياة والناس والخيال.

إنك إذا كنت تملك مشاعر قوية التوصيل فلن تسعد بشيء من الملذات بل لن تسعد بالجنة

المدخرة في السماء لو دخلتها لأن مشاعرك الموصلة ستنقل إليك وأنت في جنتك آلام المقيمين في الجحيم، يمارسون غضب الله الفظيع، وستكون حينئذٍ أشقى من أهل الجحيم، فكيف إذا كان لك أقربون وأصدقاء هناك؟ ولن يوجد تحقير وتعذيب يراد بهما التكريم والاسعاد مثل أن توضع في الجنة بينما يوضع في الجحيم إنسان آخر لك به أقوى العلاقات أو علاقات ما من الشعور أو من أي نوع، كما لن توجد وقاحة أعظم من أن تهنأ بمكانك في الجنة بينما أقاربك أو أصدقاؤك أو غيرهم يكابدون أهوال الجحيم!

إن أسوأ الظروف أن تكون مثلي مصاباً بمشاعر عنيفة التوصيل رديئته، إن مشاعري عنيفة وشاملة في توصيلها جميع الآلام الخارجية،ولكنها عاجزة عن توصيل المسراتِ، إني أتعذب بجميع الآلام التي يتعذب بها الآخرون مع آلامي الخاصة. إن مشاعري بارعة وقوية جداً في التقاط جميع الآلام التي تعيشها جميع النفوس وجميع الأبدان دون أن تستطيع التقاط ملذاتهم أو ضحكاتهم، إن مشاعري تنقل إليّ ألم المتألين وتترك لهم سعادتي، إن آلامهم تشغلني عن سعادتهم، إن إنساناً واحداً حزيناً يجعلني لا أرى الآخرين الكثيرين الذين يمارسون السرور، وإن أصبعاً واحدة مشوهة أو متألمة أو مريضة في إنسان ما تجعلني لا أستطيع رؤية أي عضو من أعضائه السليمة وغير المتألمة، وإني لأتعذب لعواء الذئب ولبكاء الطاغية ولأرقه، لأنه قد رد عن طغيانه وعن انتصاراته العدوانية، كما أتعذب لأنين المريض بنفس الحافز ونفس المستوى.

إني لأتعذب لكل الكون وبكل الكون، لهذا احتج على كل الكون من أجل كل الكون، وإنه لاحتجاج تصنعه مشاعر ممتازة جداً في قدرتها على توصيل جميع الآلام الموجودة والتي قد توجد والتي لن توجد، تعيشها وتراها وتتخيلها وتبحث عنها وتقف عندها وتقرؤها وتفسرها بكل اللغات وعلى جميع الاحتمالات الأليمة.

رحمتكم أيها الطغاة، إنكم تعذبوننا برثائنا لكم، كما تعذبوننا باشمئزازنا منكم وممن يخضعون لكم وممن لا يشمئزون منكم أو لا يرثون لكم، وإنكم لسخرية بذيئة ممن يؤمنون بالإله أو بحكمة الطبيعة ونظامها وفضيلتها أو بشجاعة الإنسان وشرفه النفسي أو العقلي أو الأخلاقي، إنكم لهجاء، أما لشرف الأرض التي أنبتتكم أو لمنطق اليد التي تقبض على الأرض باستحياء تحول إلى استخفاء!

إن وجودكم اتهام للمسؤول الأول في هذا الكون، فمن المسؤول الأول؟ هل هو الآلهة أم الطبيعة أم الإنسان؟ أنتم اتهام وهجاء فإلى من يوجهان؟ إن كانت الآلهة فأين حكمتها ورحمتها؟ وإن كانت الطبيعة فأين نظامها وصداقتها للحياة؟ وإن كان الإنسان فأين شجاعته وكرامته؟ فهل يوجد إذن من يقبل أن يكون المسؤول الأول في هذا الكون أو عنه ليكون المسؤول الأول عن وجودكم؟

حزني عليكم أيها المصابون بالطغيان، أنكم لا تمارسون طغيانكم بلذة بل بعذاب. هل القاتل أو الضارب أو الشاتم يمارس عمله كشهوة ولذة أم كعقاب؟ وأيهما أصدق أو أشد ألماً ـ القاتل أم المقتول، والضارب أم المضروب، والشاتم أم المشتوم؟ إنه لسؤال قد يختلف الجواب عليه أو قد يكون الجواب عليه صعباً ولو في بعض المواقف.

إن الضارب وكذا الشاتم والقاتل إنسان يعاني معاناة باهظة وليس سعيداً سعادة من يمارس العلاقات الجنسية. وهل الممارس للعلاقات الجنسية يمارس سعادة أم يعاني ألماً ونضالاً ضد ذاته وضد ذوات الآخرين؟ وليس الطاغية حينما يمارس الطغيان أحسن حظاً من الضارب أو القاتل أو الشاتم أو المتعاطي للعلاقات الجنسية حينما يضرب أو يشتم أو يقتل أو يفتضح في أداء العملية الشهيرة الفاضحة. ما أقسى الآلام أو الظروف أو الشخصية التي يعاني منها من تحول إلى قاتل أو ضارب أو شاتم أو إلى طاغية يعالج عذابه بإيقاع العذاب بالآخرين؟

إن الطاغية كائن قد ركبت فيه مجاعات وأظفار وأنياب لا عداد لها لأنها ليست منظورة، إنها مجاعات وأنياب وأظفار نفسية وأخلاقية، فهي لا حدود لها، لهذا فإن طاغية واحداً يقاسي من المجاعات والأظفار والأنياب النفسية والأخلاقية أكثر وأفتك مما تقاسي جميع الوحوش من ذلك، وإن أي طاغية ليتعذب بعدد وقوة ما فيه من هذه الأظفار والأنياب والمجاعات، وبقدر عدد من يعذب ويفترس. فما أشد عذابه إذن؟ إنك تتعذب كلما ضربت أو قتلت أو شتمت أي كلما أصبحت ضارباً شاتماً قاتلاً أو وقعت في ظروف ذلك وحكمت بالحاجة إليه. إذن فكيف يكون عذاب الطاغية الذي قد ركب فيه من الأنياب والأظافر والمجاعات النفسية والأخلاقية أكثر مما ركب في جميع الوحوش؟ إن المعتدي إنسان يعاني ويبكي وليس إنساناً يرقص أو يغني أو يبتسم. الاعتداء عذاب في تعبيره وظروفه وحوافزه وأدائه يصاب به المعتدي قبل المعتدى عليه!

حزني عليكم أيها المصابون بالطغيان، فالآلهة والطبيعة تعاقبكم، والتاريخ يلعنكم، وأنفسكم تتعذب بكم، ثم لا تنالون من جزاء أكثر من أن يبصق عليكم الناس ضعفهم وجبنهم ونفاقهم وخوفهم حينما يمدحونكم أو يطيعونكم أو يهتفون لكم. وأي جزاء وبيل هو بصاق أو امتداح الضعفاء والجبناء والمتملقين؟ وأي معبد هذا المعبد الذي يتجمع فيه النفاق متحولاً إلى بصاق؟

أيها الكون الكبير بلا مضمون أو فضيلة ـ أعرني كل اشمئزازك لكي أشمئز من الطغاة، وكل رفضك ومقاومتك لكي أرفضهم وأقاومهم، وكل أحزانك ودموعك لكي أحزن من أجلهم، وكل تحقيرك لكي أحتقر الانتهازية الدولية التي تحولت إلى أذل عميل للطغاة الناشئين في العالم الجديد، لكي أحتقر انتهازية هؤلاء المحسوبين الصناع الأوائل لكل ما في العالم الحديث من ثورية ومذهبية واشتراكية ، لأن هؤلاء الصناع الأوائل قد تحولوا بلا كرامة إلى

شعراء مداحين لهؤلاء الطغاة المتدفقين على العالم الجديد، وإلى معلنين عنهم وخالقين لأمجادهم الحمقاء ومروجين لطغاتهم - ثم أعرني مرة أخرى كل أحزانك ودموعك أيها الكون الكبير بلا أي تخطيط من أي نوع لكي أرثي لهؤلاء المذهبيين الثوريين الاشتراكيين الأقوياء الذين حكم عليهم بكل هذا الضعف والنفاق والانتهازية المهينة حتى أصبحوا ببساطة مثيرة مواكب من الاعلان والافتضاح والامتداح لهؤلاء الطغاة الصغار جداً، لهؤلاء الطغاة القافزين على العالم الجديد، يمتصون من ماضيه وحاضره كل بقايا الشجاعة والكرامة والذكاء، وينفون عن مستقبله كل احتمالات الشجاعة والكرامة والذكاء!

إن الانتهازية التي لا وقار لها ولا حراسة عليها من الصدق أو الشرف هي أعنف مزايا هؤلاء الثوريين المذهبيين الاشتراكيين الذين حولوا أنفسهم وبلادهم الثورية المذهبية الاشتراكية إلى شهادة زور لهؤلاء الطغاة الصغار القاهرين لشعوبهم الناشئة، واضعين - أعني الثوريين المذهبيين الاشتراكيين - كل أخلاقهم وقدرات مجتمعاتهم في أسواق المنافسات والمساومات الدولية ولحساباتها الرهيبة! ولعل جميع الثوريين والمذهبيين الاشتراكيين يخضعون دائماً لحسابات المنافسة والمساومة أكثر من خضوعهم لواجبات المذهبية أو الثورية أو لواجبات الاحترام للنفس، ولعلهم أكثر من غيرهم افتضاحاً في السوق الباحثة عن الفضائح! وهل توجد دائماً علاقات زواج أو مخادنة أو تعاطف مفتضح بين المذهبية القوية وضعف السلوك، أو بين الثورية وفقدان الشرف والصدق؟ وهل التوتر المذهبي الثوري يضعف مشاعر الرفض للعار أو يفسد الاستجابات الأخلاقية أو يمتص من الإنسان قدرته أو رغبته في أن يظل شريفاً؟

إن لدي اقتناعاً ما بأن ماركس وأنجلز وغيرهما من معلمي المذهبية والثورية والاشتراكية لو كانوا اليوم أحياء لاختاروا العيش في إحدى الدول الرأسمالية المتقدمة، ولرفضوا أن يعيشوا في أي بلد من البلدان التي تمارس المذهبية الثورية الاشتراكية، استقباحاً لانتهازية ونفاق زعماء وقادة تلك البلاد الثورية المذهبية الاشتراكية.

إن أولئك المعلمين سيجدون هؤلاء الزعماء والقادة قد تحولوا - من انتهازيتهم ونفاقهم - إلى خدم متواضعين جداً لطغاة صغار تافهين وثبوا على مجتمعات ناشئة فقيرة يقهرونها ويفسقون بكل احتمالاتها الانسانية ويتقايؤون عليها كل معانيهم الصغيرة بمعاونة وهتاف هؤلاء القادة والزعماء والحكام الذين يفاخرون ويتحدون الدنيا كلها بمذهبيتهم وثوريتهم واشتراكيتهم التي يفترض فيها أن تعلم أقطابها شيئاً من الصدق والأمانة المذهبية ولو على أقل المستويات.

ما أفظع الصورة: المذهبيون الثوريون الاشتراكيون الكبار جداً هم أرخص من في السوق وأكثرهم انتهازية وانحيازاً ونفاقاً للطغيان الرجعي الجاهل المخرب!

وأما الاشتراكية

«إن الثوار والزعماء والمعلمين هم جهاز القيء الذي تتقيأ به الجماهير أحزانها وعدوانها وفحشها وأحقادها وغباواتها ـ تتقيؤها على نفسها وعلى ما حولها وعلى ما تمارس من مذاهب ومعتقدات وآلهة وبشر.»

*

الثائر هو الذي يثور على الناس بحجة الثورة من أجلهم، ويسلبهم الحرية والكرامة والذكاء والرخاء والأمن والفضيلة والصدق بحجة السمو بهم، بحجة إعطائهم ما يسلبهم. إنه ـ أي الثائر ـ هو الهارب من نفسه أو من طبقته أو من تاريخه أو من ظروفه أو من همومه إلى الانتقام بالمذهب أو بالنظام أو بالشعارات أو بالعقائد أو بالتفاسير الجديدة للتاريخ، أي إلى الانتقام بذلك من الناس الهاربين مثله من أنفسهم أو من همومهم أو من طبقتهم أو من تاريخهم أو من ظروفهم أو من وجودهم التافه، أو من وجودهم الذي لا يفهمون أو يجدون له تفسيراً. فالمذاهب والنظم هي الآلهة الحديثة أو الدائمة التي يعاقب الثوار باسمها مجتمعاتهم، ويسطون بها عليها.

إن الثائر هو التعبير الكامل العنيف عن كل ما تجمع وتفرق في كل التاريخ من وحشية وحقد ومرارة وكذب وبذاءة وتفاهة ودمامة وغرور وضجيج وادعاء وإرهاب وإفقار وأحزان عدوانية تجيء في وجبة واحدة متجمعة فوق مائدة واحدة لتكون الغذاء الواحد الكامل لأحد المجتمعات المنكودة ـ إنه هو المفقر المذل المغتصب الضارب بخوف وبلا أي قيد من التقاليد!

*

أما الزعيم فهو الذي يظل يبكي في السوق ويخطب ويستجدي ويطلب الرحمة ويتحدث عن حبه وإخلاصه وصدق أحزانه ودموعه حتى ترق له تلك السوق التي يتحدث إليها ويطرح

نفسه فيها، وتذهب تبحث عن الخلاص من مناشدته لها وهتافه بها وإلقائه بكل عيوبه وآلامه وأحزانه فوقها. ثم يظل بإصرار وإلحاح وخنوع مذل يتحدث باسمها، ويهتف بنخوتها، ويبالغ في مغازلتها وادعاء حبها والايمان بها، حتى تتضاعف رقتها له وإرادتها العطف عليه وحاجتها إلى الهرب منه، وحينئذٍ تدعي الإيمان به والاتباع له، وكأنها إنما تحاول بذلك أن تتصدق عليه فراراً من إلحاحه ورثاء لدموعه واسترحامه، ومجاملة لنفاقه وكذبه عليها باسمها.

إن السوق تجامل الكاذبين عليها بادعاء الإيمان بهم والاحترام لهم ـ إنها تعطف على من يكذبون عليها بإعلانها الإيمان بصدقهم وبالهتاف لزعامتهم. وعطف السوق على الزعيم هو أقسى أساليب العطف أو أقسى أساليب القسوة، أو أقسى أساليب الافتراس لكرامة الزعيم وأخلاقه. إن الزعماء هم أكثر الناس طلباً للصدقة وأكثرهم بكاء وتعرياً في الأسواق. وقد ينافسهم في ذلك أحياناً الكتاب والمعلمون!

الزعيم هو الذي يفعل الآخرون ثم يخطب هو، ويتعذب الآخرون ثم يخطب هو، ويحارب الآخرون ثم يخطب هو، فينتصرون فيخطب هو أو ينهزمون فيخطب هو ـ إنه هو الذي يشكر نفسه كلما أصاب الآخرون ويحمل الآخرين كلما أخطأ هو، هو الذي يأمر الآخرين أن يشكروه كلما أصابوا هم، وأن يذموا أنفسهم كلما أخطأ هو، إنه هو الذي يمدح المجتمع حينما يعني نفسه وحينما يبالغ جداً في التغزل بأمجاده المصابة بالاغتلام!

*

وأما الاشتراكية فإنها في نيات وسلوك أقطابها ومعلميها الجدد هي البحث عن التفرد بالقوة والتملك بحجة البحث عن العدالة. إن الاشتراكية في سلوك هؤلاء الجائعين وفي نياتهم هي إسقاط جميع الأقوياء وجميع ذوي المجد لتكون كل القوة وكل المجد لفرد واحد طاغ أو لأفراد قليلين طغاة. والمحتمل جداً أن يتكاثر المدعون للاشتراكية بين الزعماء والحكام الصاعدين في العالم الحديث، أي بين الزعماء والحكام الناشئين المتلهفين إلى امتلاك كل أسباب المجد والقوة والسلطان في آسيا وإفريقيا وفي أماكن أخرى، لأن الاشتراكية أو لأن دعوى الاشتراكية هي الحيلة السهلة الشائعة الخادعة التي تأذن للطامعين المتلهفين إلى المجد المتفرد والقوة المتفردة بأن يكونوا عتاة متفردين، مالكين لكل المال والعمل والحياة والرقاب وكل التصرف تحت شعار الحب لله وللإنسان وتحت شعارات الانكار للتملك. وأظن أن يفطن الملوك ـ نفس الملوك ـ إلى هذه اللعبة السهلة الثمينة فيصبحوا هم أيضاً اشتراكيين ليملكوا كل شيء كما فعل الرؤساء الذين هم ليسوا ملوكاً. إني أظن أن يتعلم الملوك من الرؤساء هذا الفن الشرير!

إن استرقاقاً لم يكن له شبيه في التاريخ من قبل يعاقب به إنسان اليوم تحت أكذب الدعاوى، يعاقبه به زعماء يدعون اشتراكيين، قد ولدتهم الحضارة والظروف الدولية القوية

المتناقضة ولادة مشوهة وغير شرعية، ثم وهبتهم بكل محاباة وبلا أية أخلاقية كل أسباب الجبروت والتمكين وكل فضائل الغوغائية وكل أسباب تفوقها وانتصاراتها. إن قوماً من الطغاة يؤدبون اليوم كرامة الإنسان، إن هؤلاء المؤدبين هم أنبياء العصر الحديث، إنهم الأنبياء الذين يريدون أن يغتصبوا كل شيء بحجة الاشتراكية، وأن يذلوا ويقهروا كل الناس بحجة القضاء على الظلم. إن الجحيم لتقذف العالم اليوم بأفواج متلاحقة من الأنبياء الكذبة الفارضين على الناس ألواحهم بأعنف أساليب الضجيج والإرهاب والقسوة.

واعجباً! إن الحضارة تهب قوة وثراء ليملكهما ويتصرف فيهما بوحدانية متوحشة فرد واحد غير متحضر أو أفراد عتاة غير متحضرين، وإنه كلما ازداد الإنسان قوة وتقدماً وعلماً ازداد طغاته الأغبياء الجهال انتصاراً عليه واسترقاقاً له وتضليلاً لذكائه، وازداد هو انسحاقاً وهواناً تحت أقسى أساليب شمول الحاكم وقوته وملكيته! إنه طراز شامل وجديد وعنيف من الامتلاك القاهر، إنهم أطغى وأشمل وأكثر ملكية وامتلاكاً من جميع الملوك والمالكين في أي نظام عانى منه البشر، إنهم يريدون أن يملكوا كل شيء حتى الغباء والكذب المتعامل عليهما في السوق تحت شعار مقاومة التملك!

إن المالك في النظام الرأسمالي لا يأكل كل ما يملك وإنما يتصرف فيه بأسلوب من الأساليب، وهؤلاء المالكون باسم الاشتراكية يتصرفون في كل شيء ولكن على مستوى أسوأ وأشمل وأكثر أنانية وفردية واستغلالاً وبأسلوب أقل ذكاء ونجاحاً وعلمانية. إن صاحب المال في المجتمع الرأسمالي الفردي قد يحول ماله إلى أعمال إنشائية إنمائية لتزداد اتساعاً وقوة بالتراكم وباستغلال السوق، استغلال المستهلكين والعمال في أحيان كثيرة وعلى مستويات متفاوتة في الوحشية، ولكنه مع ذلك قد يطور المجتمع ويهبه صيغاً جديداً لأنه يبحث عن النجاح، ولأن النجاح قد يقود إلى البحث عن نجاح أفضل، ولأن النتيجة لأي عمل لا تجيء مساوية للنية ولا ملتزمة بها.

أما المالك لكل شيء باسم الاشتراكية فإنه حتماً يصبح أسوأ جداً من صاحب المال، إنه سوف يحول كثيراً مما يملك أو أكثر ما يملك - وهو يملك كل شيء - إلى مغامرات واستعراضات وقوة ودعاية لنفسه وإلى أعمال غير إنتاجية وإلى تفاهات وحماقات، يظلم أشد الظلم صاحب المال في المجتمع الرأسمالي لو اتهم بمثلها أو ببعضها. هذا يبحث عن نجاح العمل، وذاك يبحث عن نجاح المؤامرات والمغامرات ونجاح الخصومة مع الآخرين وعن نجاح الذات في سلوكها الاستعراضي والعدوانية وعن صعود المجد. إن أحدهما قد يبدع الحياة ويعطيها وإن كان يظلم الناس ويسرقهم على نحو ما، أما الآخر فإنه مخرب وسارق فقط دون أي إبداع أو عطاء.

*

وأما الكاتب والمعلم فهما الكائنان العدوانيان اللذان يطلقان على الناس ـ بحجة الموت من أجلهم ـ أحزانهما وتشوهاتهما وبذاءاتهما أو مسراتهما ومشاعرهما المتفائلة الغلامية التي لا تعني سواهما بعد أن يحولاها إلى كلمات فيها كل معاني المشاتمة والمضاربة ونياتهما. إن الكاتب والمعلم هما اللذان يتعريان أمام الناس، يتعريان في السوق، ويعريان الناس ويتحدثان عن أعضائهما الداخلية وعن أعضاء الناس الداخلية بحجة البحث عن الحياء والاحتشام وحب الاتزان والوقار!

إن الكتّاب والمعلمين لا يفهمون الحياة والإنسان أو يتعاملون معهما أو يحبونهما أو يستمعون إلى آلامهما ومسراتهما أكثر أو أعمق ممن يتحدثون إليهم، ولكنهم أكثر كلاماً عنهما لأنهم أكثر تنافراً معهما أو عجزاً عنهما أو شقاء بهما أو حرماناً منهما، أو لأنهم موهوبون أكثر من غيرهما قدرة على الكلام أو رغبة في عرض الذات والإلقاء بها في السوق دون أي احتشام أو صداقة للسوق التي يذهبون يعرضون فيها كل عاهاتهم وتشوهاتهم النفسية والأخلاقية والذهنية والتاريخية بنشوة عدوانية وكأنهم يتصدقون عليها بكل ما فيها من مطامع وهموم ولهاث وغوغائية سعيدة!

*

وأما العالم فهو الذي يجعل الإنسان يعيش في العبث والتفاهة والعذاب مائة عام أو أكثر بدل ثلاثين عاماً أو أقل، ويجعل عدد الناس يتضاعف كل مائة عام أو أقل بدل أن يتضاعف كل ألف عام أو أكثر، ويجعلهم يتقاتلون بالشموس والأقمار من فوق النجوم بدل أن يتقاتلوا بالحجارة والأكف من فوق الأرض، ويبتدع لهم أشياء عديدة ورائعة، ويبتدع لهم مع هذه الأشياء العديدة الرائعة احتياجات وتعقيدات وهموماً هي أيضاً عديدة ورائعة، ويصنع لهم مركبات فضائية يتنقلون بها بين مساكن الكواكب ومضاجع الآلهة وعروشها، ثم يعجز عن أن يبتكر لهم إنساناً لا يحقد أو يكره أو يخاف أو يتكبر أو يبكي من الألم والهوان والجوع والحقارة، أو إنساناً لا يقتل أو يسرق أو يستعبد باسم المذاهب والآلهة والعقائد والدفاع عن القيم الإنسانية، أو إنساناً لا يضطر إلى أن يكون صغيراً أو جباناً أو كذاباً أو ذليلاً أو ملوثاً جداً لكي يستطيع أن يعيش مثل حشرة مهزومة وأن يتلاءم مع المجتمع مثل حيوان مسحوق!

إن العالم هو الذي يستطيع أن يقنع الناس بأنهم مرضى ومجانين ومهددون بكل الأخطار والاحتمالات الأليمة ثم لا يستطيع أن يعالجهم أو يحميهم أو يهبهم الشعور بالأمن ـ إنه هو الذي يستطيع أن يعالجهم من الأمراض التي تستطيع أن تعالج نفسها بالهزيمة أمام الحياة أو بالانتصار على الحياة، ثم لا يستطيع أن يعالجهم من الأمراض والمشاكل التي تحتاج إلى علاج لأنها صعبة ـ إنه هو الذي يخبر عن الألم والمشكلة أو يراهما أو يتحدث عنهما، وليس هو الذي يزيلهما.

إن العالم هو الذي قد يهب بعض الأمراض والمشاكل الصعبة، لأنه قد يصنع بعلمه ظروفاً وتعقيدات جديدة يكون محتوماً أن تصنع هذه الأمراض والمشاكل بقانون التلازم بين الشيء ونتيجته دون قصد أو تدبير. وحتى إذا استطاع العالم أن يعالج الناس من جميع الأمراض المعروفة القديمة فقد يستحدث لهم أمراضاً أخرى جديدة لم تكن معروفة من قبل. ولو أنه عالجهم من كل الأمراض القديمة ولم يستحدث لهم أمراضاً جديدة لألقى بهم إلى ما هو شر من جميع الأمراض والمشاكل، أي لألقى بهم إلى السير الدائم في التيه الذي ليس طريقاً إلى الديار المقدسة، وليس التائهون فيه هم بني إسرائيل وحدهم!

إن العالم هو الذي يستطيع أن يقنع المريض بأنه مريض أكثر مما يستطيع إقناعه بأنه سوف يشفى، ويقنع الناس بكثرة مشاكلهم وتعقدها وأصالتها أكثر من أن يقنعهم بقدرته على حلها ـ إنه هو الذي يقنعهم بأنه عاجز أكثر من إقناعه لهم بأنه قادر، ويقنعهم بأنهم خائفون أكثر من أن يقنعهم بأنهم آمنون، ويقنعهم بأن الطبيعة شريرة ومعادية وضعيفة أكثر من إقناعهم بأنها فاضلة وصديقة وقوية!

*

وأما الأحرار فهم وقاحة تاريخ تتحول إلى وقاحة نفس، إلى وقاحة لغة، إلى وقاحة مذهب، إلى وقاحة سلوك. إن الأحرار هم الذين يتحولون إلى أسوأ الناس لغة وأسوئهم أخلاقاً وأسوئهم أهدافاً، إنهم هم الذين يصنعون أسوأ مما يصنع الآخرون تحت دعاوى وشعارات أسوأ من دعاوى وشعارات الآخرين، إنهم هم أفضل من يعلمون اللغة فنون الافتضاح، هم أسوأ أو أقدر من يعلمون اللغة التواضع البذيء أو الكبرياء الوضيعة!

إن الحشرات لو قسمت إلى أحرار وإلى غير أحرار لكان الذباب هو قائد وسيد أحرارها لأنه أكثرها بذاءة وتلوثاً وعدواناً. إن الأحرار هم الذين يعجزون عن التلاؤم مع الحرية الموجودة والتي قد توجد فيذهبون يلعنونها ويقاومونها تحت شعارات البكاء من أجلها وعليها. إن الحرية في لغة الأحرار هي مقاومة الحرية بحجة البحث عنها والموت في سبيلها وبحجة مقاومة أعدائها!

*

وأما الشجاعة فهي أن تكون جباناً جداً حتى لا تستطيع أن تجسر على عصيان تعاليمك وتاريخك وطغاتك حينما يدفعون بك إلى أن تقتل نفسك وتقتل أيضاً أبرياء مغلوبين مثلك، دفع بهم جبنهم إلى أن يكونوا شجعاناً على قتلك وقتل أنفسهم لأنهم ليسوا شجعاناً على عصيان تاريخهم وطغاتهم وتعاليمهم الآمرة لهم بأن يموتوا دون أن يعرفوا لماذا أو أن يسألوا: ما الثمن. وحينئذٍ يموتون جبناً وهواناً، يموتون لأنهم لا يستطيعون من جبنهم وهوانهم أن يرفضوا

الموت، إنهم يفقدون حياتهم لأنهم لا يجرؤون على الدفاع عنها أو على أن يعصوا من يأمرونهم بأن يموتوا بلا كرامة أو شجاعة أو مجد. إن موتهم هذا الذي يظن أسمى ضروب البطولة ليس إلا أسلوباً ذليلاً من أساليب الذبح وأساليب الاستسلام للذبح والذابح. فالشجاع جداً هو الذي يذبحه طغاته أو تعاليمه أو تقاليده، فيموت وهو ينشد الأناشيد الهاتفة بأمجاد ورحمة هؤلاء الطغاة والتعاليم والتقاليد. إن الحروب الكبيرة هي أعنف تعبير عن جبن البشر وهوانهم أمام آمريهم ومعلميهم وذابحيهم وأمام تاريخهم!

لقد ظل الزعماء والمعلمون يخدعوننا حينما ظلوا يزعمون لنا أن ذبحنا لأنفسنا خوفاً منهم وطاعة لجنونهم هو أعلى مستويات الشجاعة والرفض للهوان، وقد ظل البشر يذبح بعضهم بعضاً لأن لهم زعماء ومعلمين ظلوا يزعمون لهم أنهم بذلك أبطال يدافعون عن أسمى القيم والمعاني الإنسانية. قد تكون هنالك مواقف شجاعة ولكن ليس منها حتماً ذبحك لنفسك أو ذبحك لإنسان آخر لا تعرفه ولا تعاديه كما لا يعرفك أو يعاديك لأن مجانينك العظام قد أمروك بذلك ودعوك شجاعاً إذا أنت فعلته!

إن الشجاعة في الأكثر جبن لا خديعة، والخديعة ليست إلا جبناً ما.

*

وأما العبقري فهو الذي لا يعرف لماذا اختارته الطبيعة ليكون أذكى الناس أو أغباهم، ليكون أكثرهم إسعاداً للحياة أو تعذيباً لها، ثم لا يعرف هل أرادت الحياة بما صنعت به أن تحسن إليه أو أن تسيء. العبقري هو ذلك الإنسان المحكوم عليه بألا يعرف أو يستطيع أن يكون إنساناً فقط، أي إنساناً بلا عبقرية!

وأما العبقرية فهي أن تصبح إنساناً فاقداً للتوازن الذاتي إذ يجيء فيك معنى واحد متفوق على حساب معانيك الضعيفة والسخيفة، أو بين معانيك السخيفة الضعيفة!

*

وأما الأخلاق فهي أن تطيع النبي وتعصي نبوته، وأن تتوافق مع أهواء المجتمع وأكاذيبه وتخرج على مثله وعلى نماذجه المذهبية والدينية!

*

وأما رجل الدين فهو الذي يظل يشتم الناس والحياة لحسابه الخاص، ثم يذهب يطالب الله والمجتمع بثمن شتائمه!

*

وأما الإله فهو الأبعاد الفراغية أو مسافة الفراغ الممتدة بين إرادتنا وقدرتنا!

*

وأما السياسي فهو الذي يصنع المشكلة التي لم تكن موجودة من قبل ولم تكن لتوجد لولاه، أو هو الذي يحاول علاج مشكلة قد صنعها هو أو صنعها سياسي آخر لكي يزيدها تعقيداً واستعصاء بمحاولته علاجها ـ أو هو الذي يتحدث باسم مشكلة ليس في حسابه أو في قدرته أن يعالجها. فالسياسي إذن في جميع مستوياته وجبهاته لا يكون أكثر أو أفضل من مرض يصيب المجتمع، ولا أكثر أو أفضل من طبيب غير بارع وغير صادق يحاول أن يعالج المجتمع أو يدعي علاجه أو يتظاهر بعلاجه من مرض قد أصابه هو به!

إن السياسي ليس إلا الداء أو التداوي منه، وليس إلا الذنب أو الاستغفار منه، إنه ليس ـ في أفضل وأنبل احتمالاته ـ سوى كفارة عن وجوده، عن ذنب وجوده. إن السياسيين في جميع ظروفهم وعصورهم ليسوا سوى أزمة يوجدونها هم أو التداوي من تلك الأزمة التي يوجدون، أما الأزمات الأخرى التي توجدها الطبيعة أو يوجدها التناقض بين الإنسان والطبيعة فليس السياسيون هم الذين يعالجون منها، إنها أكبر منهم، وإنهم أصغر منها كثيراً.

إذن فالسياسيون بمجموعهم هم حسابات مسحوبة من الإنسان لا محسوبة له، إنهم دائماً حسابات على البشر، حسابات مطلوبة التسديد حتى على من لا يستطيعون أن يسددوا لأنهم لا يجدون!

*

وأما التفكير فهو البحث عن ذنوب وأخطاء الكون والناس والأرباب للتحديق فيها والتحدث عنها بلا رحمة أو مجاملة أو صداقة ـ إنه هو الشهوة الافتراسية المصابة بحب الملامسة والرؤية لأعضاء الأشياء الداخلية الكريهة لفضحها بتعريتها والتركيز عليها والشعور بها والحديث عنها بشماتة وأحياناً بأنين!

*

وأما الجماهير فهم الذين يذهبون يبحثون عن وسيلة غير منطقية أو أخلاقية، أو ينتظرون مثل هذه الوسيلة لكي يستفرغوا بها تفاهاتهم وهمومهم وبذاءاتهم وحاجاتهم الدائمة إلى الاستفراغ النفسي والأخلاقي، فيجدون هذه الوسيلة في أعلى مستوياتها لدى الثوار والزعماء والمعلمين. لهذا فالمفروض أن الثوار والزعماء والمعلمين هم أفضل أجهزة التقيؤ التي تتقيأ بها الجماهير أحزانها وعداواتها وفحشها وبلادتها وتفاهتها ـ تتقيؤها على نفسها وعلى الطبيعة وعلى الآخرين، بل وعلى المذاهب والعقائد والآلهة التي بها تؤمن!

إن هتاف الجماهير وصلواتها وأناشيدها الدينية والوطنية وخصوماتها وتعصبها لأديانها أو لأوطانها وحروبها وشتائمها المقدسة وبغضاءها المتدينة ـ إن ذلك كله ليس إلا قيئاً تتقيؤه الجماهير متعلمة أسلوب تقيؤها من الزعماء والثوار والمعلمين. إن هؤلاء هم معلمو البشر التقيؤ

المذهبي والديني والوطني والأخلاقي ـ هم المعلمون لأساليب التقيؤ باسم المذاهب والأديان والأخلاق والآلهة والأوطان، أي هم الذين يعلمون الناس ويشرعون لهم أن يتقيؤوا مساوئهم النفسية والأخلاقية على السوق تحت شعارات محترمة تباركها السوق التي يتقيؤون عليها!

*

وأما الناس ـ كل الناس ـ فهم الكائنات التي تقسو عليها الطبيعة ويقسو عليها زعماؤها وأربابها فتذهب ترد على هذه القسوة التي تمارس ضدها بالقسوة على نفسها وعلى جيرانها!

*

وأما الطبيعة فهي ذلك «اللقيط» الضخم الذي لا يعرف من جنى عليه، بل الذي لا يمكن أن يكون أحد قد جنى عليه، فهو المجني عليه بلا جان وهو الجاني بلا جناية. إن الطبيعة هي اللقيط الذي لا يوجد والذي لا يمكن أن يوجد من يدعيه ولا من يمكن أن يدعي هو الانتساب إليه ولا من يمكن أن يحنو عليه ـ إنها هي اللقيط الشاذ الرهيب الذي ليس له والدة ولا والد معروف أو مجهول، إنها اللقيط بلا والد أو والدة!

إن الطبيعة هي اللقيط الذي عاقب كل البشر والأحياء ـ متأثراً بعقدته الخاصة الأليمة ـ فحولهم جميعاً إلى لقطاء الروح والهدف والمبدأ والمصير!

*

وأما أنت وأنا فمحكوم علينا بأن نقاسي ـ صابرين أو باكين ـ كل ما في الكتاب والمعلمين والثوار والزعماء والسياسيين والعباقرة والعلماء والأحرار ورجال الدين، وكل ما في الناس والسوق والطبيعة، وكل ما في أنفسنا، من ذنوب وأحزان وتشوهات وضعف وأخطاء.

فما أسعدنا إذن حظاً!

وأما المستقبل فهو الذي يعني المزيد من العلم والتقدم مع المزيد من الطغيان والتعصب، ويعني المزيد من انتصار الزعامة والحكم على الإنسان، والمزيد من انتصار العلم على الذكاء والحرية، والمزيد من تفوق قدرة الإنسان على الإنسان، والمزيد من عجز المبدع عن التكافوء مع مبدعاته.

إن المستقبل يعني تعاظم الزعامات والانجازات العلمية والفنية كما يعني تعاظم ضآلة الإنسان وتواضعه وهزائمه أمام هذه الزعامات والانجازات الفنية والعلمية.

إن الإنسان كذكاء وحرية وتفكير يواجه نفسه كقوة وعلم ونظام مواجهة فيها كل أسباب الانهزام، إنه يواجه حضارته ومستقبله القوي مواجهة حزينة مذعورة غير متكافئة!

*

وأما المجد فهو أن تكون أكثر الحشرات المتعادية بذاءة وإلحاحاً وسقوطاً في الوحل وقذفاً

للسموم وتسللاً إلى الشقوق وافتراساً للحشرات الأخرى المنافسة لك على الشقوق والأوحال والسقوط. المجد هو أن يخضع لك الناس أو ضعفاؤهم أو أن يخافوك أو يخدعوا بك أو يتملقوك، أو أن يهتفوا غباء أو رهبة لاسمك أو لموكبك أو لقوتك أو لما يظن فيك ولك من نبوغ أو تفوق أو فضيلة ـ هو أن تأخذ من كرامة الآخرين أو من شجاعتهم أو من قوتهم أو من مالهم أو من طغيانهم أو من سمعتهم أو من ذكائهم أو من لحومهم ودمائهم لتضيف إلى نفسك، لتكون أعلى منهم زئيراً وأطول أنياباً وأظفاراً. وأي تشويه لك وللآخرين وعدوان عليك وعلى الآخرين أفظع من هذا؟

إنه لا يوجد أشقى أو أجبن أو أضعف أو أشد خوفاً أو أفقد للمجد أو لصفات المجد ومزاياه من صاحب المجد ومن الباحث عن المجد. إن امتلاك المجد كالسعي للمجد كلاهما ضد المجد، كلاهما هوان وذل وتلوث وإسقاط للكرامة ولجميع الفضائل الإنسانية وتوحش في النفس والعقل والأخلاق، إن فيهما كل معاني الافتراس والوحشية مع أن فيهما كل معاني السقوط والهوان والخوف. إن خوف مالك المجد أو سارق المجد على مجده وحرصه عليه يحولانه إلى أضحوكة ومسكنة وافتضاح وضعف مهين، ويجعلانه أتفه متملق منافق يستحق الرحمة والعزاء أكثر مما يستحق الاعجاب أو الاحترام!

إن الرجل العظيم لا بد أن يكون أكبر من المجد ومن الافتتان بغواياته والاستسلام لشروطه المهينة الباهظة في ثمنها الأخلاقي والنفسي والإنساني. إن الافتتان بالمجد والانطراح على الأرض لالتقاطه من الأسواق ولعقه من التراب ومن فوق الأحذية ومن أفواه الحشرات والجائعين ومن جراحهم الفاسدة سقوط خطير في رجولة الرجل وكرامته وفي إنسانية الإنسان. هل يوجد من يتعذب أو يهون أو يخاف أو يتلوث أو يفعل ما ينافي كل مجد مثلما يفعل من يملك مجداً أو يبحث عن مجد؟

إن غلاماً من الغلمان يذهب يضرب الغلمان حوله ويشاتمهم ويكذب عليهم ويخدعهم بخطبه وبياناته وبدعاويه ووعوده، ويحرش بينهم، ويعتدي عليهم ثم يعتدي بهم على الجيران أو على الناس الأبعدين أو على الغلمان الآخرين لكي يبدو الأقوى أو الأفضل أو الأنبغ أو الأخلد أو الأعلى صوتاً واسماً، وليتعالج من همومه وآلامه النفسية أو التاريخية أو المنزلية أو الاجتماعية، إن هذا الغلام أو هذا الذي يفعله هذا الغلام هو المجد في أصدق تعبيراته، أو على الأصح في أصدق حوافزه.

إن ممارسة الحقارة السلوكية والنفسية وممارسة العدوان شرط دائم من شروط الظفر بالمجد ومن شروط الاستمساك به والإبقاء عليه!

*

وأما أطول مسافة بين مكانين في هذا العالم فهي المسافة الممتدة بين كلمة الإنسان ونيته، بين التفسير اللغوي لما يقول والتفسير النفسي لما يقصد. إن كل ما في الكون من أبعاد ومسافات ليموت في البعد المتطاول بين ما تقول وما تريد بل بين ما تفعل وما تريد أحياناً! إن جميع قوافل أربابنا وتاريخنا وأحلامنا وأحزاننا وأمانينا قد ضلت ثم ماتت إعياء واشمئزازاً ثم قبرت في تيه المسافة الفاصلة بين نياتنا وأقوالنا دون أن تضيق أو تمتلىء!

*

وأما أكثر الناس تحقيراً لأنفسهم وفقداً للشرف والصدق والنظافة والشجاعة فهؤلاء هم الكتاب وكل الممارسين للكلمة ولكل أدوات التعبير في عهد الطاغية القوي المالك لكل شيء باسم المجتمع أو باسم العدالة الاجتماعية، أو في عهد الحاكم المطلق بقوة التاريخ. إن الكتاب وجميع العاملين في أجهزة الكلمة حينئذٍ يتحولون إلى كائنات لا ترفض شيئاً من أخلاق الحشرات أو من مستويات الحشرات النفسية ولا تشعر بأي تفوق على أسراب الديدان، إنهم حينئذٍ يذهبون يمارسون كل مهاوي السقوط والبذاءات باشتهاء كاشتهاء الممارسة الجنسية، وافتضاح كافتضاحها دون أن يعانوا من الكبرياء في أخلاقهم أو في ذكائهم!

حزني كله على أولئك الذين سيظلون في المستقبل يصنعون الكلمة المكتوبة أو المنطوقة أو أية وسيلة من وسائل التعبير أو يعملون فيها، إنهم سيصبحون أذل من التراب والديدان وأقل نظافة وشموخاً ورفضاً منها. إن الطغيان الذي تشرف كل عبقرية الحضارة العظيمة على صياغة وحشيته وعلى تدريبه وترويضه ليكون قهاراً ساحقاً لا بد أن يقتل فيهم كل معاني الشرف والصدق وتعبيراتهما، ولا بد أن يصبحوا أوقح أدوات الكذب والنفاق. إن الطغيان سيتعاظم في المستقبل، إذن لا بد أن يتعاظم هوان ونفاق العاملين في أجهزة الكلمة وفي جميع الأجهزة الدعائية. إنه لا يوجد إلا احتمال واحد هو أن يصبح الكتاب والدعاة وكل المتحدثين في السوق هم أكثر الكائنات هواناً وسقوطاً وتغذياً بالخزي!

سيصبح الهرب من الكلمة ومن التوظف في أجهزتها انتصاراً عظيماً! أيها العائش في غد تحت حكم أحد القياصرة العظام، كن أي شيء، كن شيئاً صغيراً جداً، كن عاملاً أو حارساً أو راعي بقر أو سائساً في أحد الاسطبلات، ولا تكن كاتباً أو شاعراً أو مذيعاً أو واعظاً في معبد لئلا تفقد كل كرامتك وكل شرفك وكل صدقك وكل دينك!

*

وأما المتفائل فهو الذي يحب ويحابي نفسه حتى ليذهب يرضى ويدافع عن أخطاء وشرور الطبيعة لأنه يحياها. إن دفاعه عنها إنما يعني دفاعه عما يفعل وعما يعيش، فهو أسلوب من أساليب الأنانية، فالتفاؤل إذن أنانية وليس فضيلة أو حكمة عالية. وأما المتشائم فهو الذي يعيش

كل الناس وكل الكائنات الحية داخل نفسه حتى الحيوان والحشرة المتعذبة، إنه ليعاني كل الآلام الإنسانية والحيوانية والحشرية والكونية الموجودة بكل مشاعره، ويعاني كل الآلام التي سوف توجد أو قد توجد أو التي لن توجد بكل تصوره وخياله.

المتشائم إنسان يعيش بخياله وتصوره في كل الأشياء والناس، كما تعيش فيه كل الأشياء وكل الناس، فما أشد وأوسع إذن عذابه. إنه لا يعيش ذاته أو حياته أو فيها فقط كما يعيش الذئب والقراد، ولا يعيش الآلام الموجودة فقط بل والآلام الغائبة، إنه امتداد ورؤية وأحاسيس شاملة ومتخطية.

التفاؤل محاباة للأرباب والطبيعة والزعماء والمعلمين على حساب الإنسان والحشرات والحياة. أما التشاؤم فهو نقد واحتجاج على الأرباب والمذاهب والكون والزعماء والمعلمين دفاعاً عن الإنسان والحياة. ما أكثر ما يكون التفاؤل أسلوباً كذاباً من أساليب الدفاع المتواري عن شيء غير طيب أو غير عادل أو نظيف أو محترم.

إن الكاتب أو الواعظ الذي يتحدث عن التفاؤل في عهد طاغية أو فساد إنما يعني في قصده وحوافزه تمجيد أو تسويغ ذلك الطاغية أو الفساد، إن تفاؤله قصيدة منافقة في امتداح الطغيان والفساد والدفاع عنهما. إنه إذا أثنى على الزهر أو الطقس أو على أشعة الشمس ووقار القمر كان يعني ستر الآلام والمظالم والحماقات والهموم التي يعيشها المجتمع تحت حكم ذلك الطاغية. وإذا أثنى رجل الدين على حكمة الطبيعة وجمالها وحبها للإنسان كان يعني التغطية على سلوك وأخلاق الآلهة حينما تمارس نفسها ضد الأطفال والشيوخ وكل المعذبين، وحينما تبدو شائهة وعدوانية في سلوك الطوفان أو الزلزال أو الوباء أو القحط والمجاعات والموت!

ما أقسى وأوقح من يذهبون يتحدثون عن جمال الكون والحياة والمذاهب والناس إذا كان يوجد إنسان واحد مريض أو جائع أو مشوه أو مظلوم أو حزين أو منبوذ أو محتقر، بل ما أوقح وأقسى من يتفاءلون أو يدعون إلى التفاؤل أو يتحدثون عنه إذا كان يوجد حيوان واحد أو حشرة واحدة معذبة أو جائعة أو ضالة أو مظلومة أو لا تعرف ماذا تصنع بوجودها أو لماذا هي موجودة وماذا يعني وجودها ومن يستفيد منها أو من عذابها وضياعها وسقوطها. كم هو وحشي الحس والعقل والخلق والرؤية ذلك الذي يذهب يتغنى بجمال الزهرة أو القمر أو بقوس قزح وهو يشاهد طفلاً واحداً يعاني من التشويه والآلام والحرمان والبكاء والضياع، بل وهو يعلم أن السجون والمعتقلات والمستشفيات ملأى بالمظلومين والمقهورين والمعذبين!

كم هي مقادير الوقاحة والبلادة التي تحتاج إليها لكي تستطيع أن تغازل شعر عشيقتك أو رقصات صدرها أو همسات جفونها أمام إنسان يموت أو يجلد أو يعذب بأي أسلوب من أساليب العذاب الذي يصنعه الإنسان بالإنسان أو تصنعه الطبيعة بالإنسان أو بالكائنات

الأخرى الحية! إن كل ما في الشمس من ضخامة وأضواء ليتحول إلى هجاء لكل أخلاق الطبيعة وقوانينها إزاء طفل أو حشرة أو حيوان يتعذب!

ولكن التشاؤم والتفاؤل قد يكونان حالة نفسية لا تدبيراً عقلياً أو منطقياً.

وأما القارىء الرديء فهو الذي يقرأ للكتاب الرديء والكاتب الجيد لكي يكون وعاء عاماً لكل التفاهات والغباوات والهموم والأكاذيب الجيدة والرديئة!

*

وأما القارىء الجيد فهو الذي لا يقرأ شيئاً لأنه يرفض أو لا يستطيع أن يكون مكان استقبال لأي مزيد من الغباء والأكاذيب والتفاهات والآلام وشهوات العرض والتعري وشهوات السقوط على الناس وفي أيديهم ومجالسهم وفي أفواههم ومشاعرهم، كما يفعل من يتحول إلى كتاب يقرؤه الناس، ليتحول إلى مذاهب يمارسونها ممارسة نفسية وعقلية وكلامية، أو إلى إثارة وجدل واقتحام وعدوان وتدخل وخصومات تقسمهم وتحرض بعضهم على بعض وتقيم بينهم حدوداً وسدوداً من العداوات والبغضاء والتاريخ والآلهة والمذاهب المتقاتلة!

إن القارىء الجيد لا يقرأ شيئاً لأنه لا يريد أن يتعلم مزيداً من البغض والتعصب والتوتر، أو مزيداً من الغباء والحماقات ومن العجز عن الرؤية، إن ما عنده يكفيه لكي يكون إنساناً عدوانياً أو شريراً أو أعمى أو أحمق أو متوتراً، دون أن يطلب المزيد بالقراءة لأي كاتب أو لأي معلم أو لأي زعيم! إنه لا يحتاج إلى من يعلمه كيف يحب نفسه وأربابه وحماقاته، وكيف يكره مخالفيه ويكره أربابهم وحماقاتهم بلا ذكاء أو عدل أو وقار!

*

وأما الموت فليس هو فقط أن تفقد حياتك أي أن تموت أنت، بل الموت أكبر وأعمق من ذلك كثيراً، إن الموت هو أن تموت كل الأشياء، إن معنى موتك أن تموت الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار والأرض، وأن يموت كل الناس وكل الرؤية والسمع والأحاسيس واللمس والممارسة وجميع التجارب.

إن جميع الأشياء إنما تحيا بك أيها الكائن الحي، فإذا متَّ فقد ماتت جميع الأشياء، لهذا كان الموت في حسابك هو أفظع الأشياء وأكبر الأشياء. إن كلمة «مات» كلمة صغيرة، سهل النطق بها، لا تهز أو تخيف شمساً ولا قمراً بل ولا حشرة، ولكنها مع ذلك تعني كل شيء، إنه لا وجود ولا بقاء لشيء معها. إن رهبة الموت ليست مقارنة بين كلمة «مات» وكلمة «يحيا»، بل مقارنة بين أن تموت كل الأشياء وتعيش كل الأشياء، أو بين أن تملك كل الأشياء وتفقد كل الأشياء.

إن الذي يهبك الحياة ثم يهبك الموت إنما يهبك كل الأشياء، كل الكون المشهود والممارس،

وكل الناس، ثم يأخذ منك كل ذلك بعد أن ترتبط به وتمتلكه وتحياه، وهل يوجد أكثر ظلماً وقسوة وتعذيباً لك ممن يهبك كل ذلك ثم يسترده منك بضربة واحدة؟ وما أعظم إحسان أو نبل أو ذكاء من يجعلك محكوماً عليك بالحياة، ليجعلك محكوماً عليك بالموت؟ إذا كان إعطاء الحياة إحساناً فلماذا تؤخذ، وإذا لم يكن إحساناً فلماذا تعطى؟

ولعل البشر قد أدركوا عمق الظلم والحماقة في الموت فحاولوا أن يخففوا مما أدركوا شتى المحاولات الخاطئة بشتى الأساليب، لقد حاولوا أن يجعلوا الموت شيئاً سهلاً ومعقولاً بل وطيباً لأنهم لا يستطيعون أو يجرؤون على أن يستوعبوا في أنفسهم كل هذه الفظاعة بمنطقها الصارم المرير. ولعلهم حينما تصوروا أو اعتقدوا أن الموت ليس إلا سفراً سعيداً إلى الله للقائه وللعيش والإقامة معه في عوالمه البهيجة إنما كانوا يحاولون بذلك أن يعتذروا إلى أنفسهم ويعتذروا عمن تصوروه قد فعل بهم ذلك، وأن يفسروا أقبح الأشياء أو أغبى الأشياء تفسيراً جميلاً أو تفسيراً هو أجمل من الواقع الذي يفسرون. ودائماً الإنسان يحاول أن يعاون نفسه على قبول الحقائق الكريهة التي لا تقبل بالتفاسير المقبولة. وقد يكون الهرب من الفظاعة إلى الاستحالة شيئاً مألوفاً في سلوك البشر. وكما يهرب الناس من الفظاعات إلى المحالات فإنهم يهربون أيضاً من المحالات إلى الفظاعات، ومن المحالات إلى المحالات ومن الفظاعات كذلك إلى الفظاعات، إنهم دائماً هاربون وإن كان ما يهربون منه وما يهربون إليه لا يتحدد، فقد يكون المهروب إليه مهروباً منه، والمهروب منه مهروباً إليه.

إن الذي يحيا ثم يموت إنما هو كائن يموت ويتعذب بعدد وبقوة كل الأشياء، إنه يموت ويتعذب بعدد الشمس والقمر والنجوم والأنهار والمحيطات والأيام والناس وكل الأشياء والحشرات، بقوة كل ذلك. فهل يوجد إذن أشد من ذلك عذاباً؟

ما أبشع ما يحدث الآن، ما يحدث في هذه اللحظة، ما يحدث مرة واحدة! ها هو الكون كله، كل النجوم والشموس والمرائي، كل الناس والصداقات والعلاقات والأعمال الكبيرة، كل الأشياء حتى الطيور والزهور والحيوانات التي نقتات بها والحشرات التي تقتات بنا ـ كلها تموت مرة واحدة موتة واحدة أبدية ـ لأني أنا الذي أمارسها أموت مرة واحدة!

ما أبشع ما يحدث، ما يحدث الآن، إني أموت مرة واحدة فيموت كل شيء مرة واحدة، حتى الذباب والصراصير والبراغيث التي يسحقني مرآها والتي تتحول إلى احتجاج ضخم ضد نظافة الحياة ومنطقها وكبريائها وضد انتسابها إلى الآلهة الموقرة. ولكنني أموت بموتها ـ أي بموت الذباب والبراغيث ـ أو تموت هي بموتي! ما أبشع أن يموت الكون كله، وهل يموت الكون كله؟ نعم إذا أنا مت فقد مات كل الكون. وما أبشع أن يموت الكون بعدد موتات الناس.

والآن فليقم حفل جناز على الكون، لتدق جميع الأجراس الجنائزية فقد مات كل الكون، مات لأني أموت. ولكن من يقيمون الجنازات ويدقون الأجراس وقد مات كل شيء حتى من يحتفلون بالموت ويهبونه شعاراته وطقوسه؟

ولماذا نموت؟ ولكن لماذا لا نموت لو كنا لا نموت؟ وهل هناك سر أو حكمة تمارسها الطبيعة أو شيء فوق الطبيعة في أن نحيا لكي نموت؟ ولكن ما السر والحكمة اللذان نسأل عنهما؟ إنهما لا يعنيان سوى عجزنا عن الشيء أو حاجاتنا إليه. فإذا عجز الإنسان عن الشيء أصبح فيه سر، وإذا احتاج إليه أصبحت له حكمة. ولماذا نسأل، ولماذا لا نسأل؟ إن الذي يسأل لا يسأل لأنه محتاج إلى جواب أو يبحث عن جواب، وأن الذي لا يسأل لا يترك السؤال لأنه قد وجد الجواب. فالسؤال وترك السؤال ليسا معرفة أو بحثاً عن المعرفة أو عجزاً عنها، بل هما حالة ما أو أسلوبان من أساليب التعبير عن حالة ما.

ما أروع الموكب الطويل المهيب الخالد، موكب الإنسانية الشامل السائر في طريقه إلى الموت دون أن يقاوم أو يرفض بل دون أن يغضب أو يحتج على الإلقاء به في موكب الموت الكئيب، بل السائر في طريقه إلى الموت هاتفاً مصلياً للحكمة والرحمة التي تشق له طريقه وتسوقه فيه. أية مواكب من القطعان تساق إلى المذابح بمثل هذا الهوان والغباء والصبر؟ هل يوجد كائن لا حدود لوحشيته يزداد جوعاً وتوحشاً كلما التهم من مواكب الجثث؟ هل توجد آلهة فاضلة جداً أو مريضة جداً تجد في منظر الجثث المترامية بلا انقطاع صلاة أو مسلاة أو فناً؟ إن كان الموت تدبيراً فما أعظم الذنب والغباء، وإن لم يكن تدبيراً فما أبشع آلية الطبيعة!

وإذا كان موتنا ـ موتك وموتي ـ يعني موت كل شيء حتى موت الماضي والمستقبل، موت الزمان والمكان بكل أعماقهما وأبعادهما فلماذا نفكر إذن في المجد والخلود بعد موتنا؟ وهل يمكن أن يكون لنا مجد أو خلود بعد الموت وقد مات كل شيء؟ إننا لا نبحث عن شيء ولا نفكر في شيء ولا يعنينا شيء بعد الموت، ولكن الذي يعنينا هو تصورنا ونحن أحياء للأشياء، إن الذي يعنينا ويحركنا هو تصورنا للمجد والخلود بعد الموت لا نفس المجد والخلود. والتصور يهز ويرضي ولو لشيء لا وجود له أو لشيء قد مات ولن يعود. وكل البشر ـ لولا تصورهم وهم أحياء ـ مستعدون أن يبيعوا كل أمجادهم وخلودهم بأقل الأثمان بل أن يهبوها، ولكنهم يستمسكون بتصوراتهم السعيدة. فالتصورات حياة ولو لأشياء قد ماتت أو لأشياء لن توجد أو لم توجد.

ماذا يفيدك أو يعنيك أن تسجد الشمس والنجوم وكل الأكوان فوق قبرك أو أن يقبل جثتك ويؤدي لها التحية كل ما في الحياة من جمال وعبقرية؟ إن خلود اسمك أو جثتك ليس خلوداً لك وهو لا يعنيك أو ينفعك إلا بمقدار ما ينفع الحجر أو الإله الذي ليس موجوداً أن يكون إلهاً

معبوداً، أو بمقدار ما ينفعك أن يكون لك رصيد ضخم من الذهب في أحد البنوك. إن الناس قد يتحدثون عن مجدك وخلودك إذا كان لك مجد أو خلود، ولكن ما جدوى ذلك في حساب موتك؟ إن ذلك لا يجديك ولا يكون معدوداً في حساباتك إلا كما يجديك ويحسب لك أو يسعدك أن يتعامل الناس بأموالك التي خلفت أو يتحدثوا عنها.

إن الكون بكل ما فيه ليس إلا لغات وتفاسير مختلفة أو متعددة تتحدث عن عمق الموت. وليست العبقرية أو الجمال أو الصحة أقل عمقاً أو صدقاً في حديثها عن الموت من الغباء والضعف والمرض والدمامة. إن الموت ليطالع الإنسان ويترصده بتعذيب وإرهاب، عارضاً نفسه ومطلاً بكبرياء من جمال الزهرة والحب والابتسام والسرور والصحة والقوة مثل أو أكثر مما يعرض نفسه ويطل بإرهاب وجبروت من ضعف أو كآبة الحشرة أو الحزن أو الدمعة أو المرض.

إن معنى الموت أن نتعذب بكل الوجود، لهذا كان الموت أكبر من كل معاني العذاب. وأقبح ما في الموت أن الناس يتجرعون كل قطرات الهوان والعذاب والخسة اتقاء له بل اتقاء لاحتمالاته مع أنهم على كل الاحتمالات لا يستطيعون اتقاءه وهم لا يستطيعون أن يقيموا مقارنة سلوكية بين قبول كل الهوان وقبول أعلى مستويات الموت.

وأما الحياة فهي في كل مستوياتها وتعبيراتها ليست إلا معاناة الخوف من الموت أو الاحتجاج عليه أو التفكير فيه أو الاستعداد والانتظار له أو الحديث عنه وإليه أو ممارسته بأسلوب ما أو مقاومته بشتى الوسائل، أو محاولة التخفي منه وتضليل ذكائه. إن الحياة في كل حالاتها ليست إلا رحلة إلى الموت على مستويات مختلفة من السرعة ووسائل المواصلات، حتى النجاح والشباب والانتصارات ما هي إلا وسائل مواصلات جيدة إلى الموت.

أما إذا كنت شاعراً أو نبياً فإنك حينئذٍ سوف تفسر الموت تفسيراً آخر فيه احتلام وراحة وإن لم يكن فيه حقيقة، ستقول: إن الموت بكل أساليبه ليس سوى رحلة بهيجة إلى الحياة أو تعبير وبحث عنها.

ستقول إذا كنت شاعراً أو نبياً: ليس الموت إلا أسلوباً من أساليب تطوير الحياة لنفسها، إن الحياة إنما تضحي بطور أدنى من أطوارها لكي تنتقل إلى طور أعلى - ستقول: إن الموت ليس إلا أسلوباً من أساليب الإراحة للعامل المجهد بعد أن أعطى عمله وحياته وأصبح محتاجاً إلى أن يستريح. وستقول أيضاً إن النجوم والآلهة الطيبة إنما تجري بالموت تجاربها على الأحياء لتصنع الأفضل والأكمل من مستويات الحياة ونماذجها، إنه نوع من الشوق تعبر به الآلهة والنجوم الخيرة الصديقة عن حبها ورعايتها للحياة، إنه نوع من طلب الزيارة، إن الآلهة تريد من البشر وغيرهم من الأحياء أن يزوروها شوقاً إلى لقائهم ورغبة في مجازاتهم!

إنك إذا كنت شاعراً أو نبياً فستقول: ليس الموت إلا تصحيحاً لغلطة أخلاقية أو فنية أو

تاريخية، إنه تطهير للحياة من هذه الغلطة، وليس قتلاً لها أي للحياة، وإنه نوع من الاستشهاد تؤديه الحياة تحية للآلهة والطبيعة وأسلوب من أساليب الصلاة العنيفة العميقة. إن الميت كائن يريد أن يجدد نفسه ويتجاوزها ويحتج عليها، إنه يريد أن يفارق أعضاءه ومستوياته القديمة.

ستقول إذا كنت شاعراً أو نبياً: إن الموت ليس إلا خلعاً للملابس القديمة أو هدماً للبيت القديم ليكون مكانها أو مكانه ملابس جديدة وبيت جديد. فالإنسان هو اللابس والساكن وهو لا يموت، والبدن هو الملابس والبيت وهو الذي يموت. وخلع الملابس وهدم البيت ليسا موتاً ما لم يمت اللابس والساكن، بل الخلع والهدم بحث عن الحياة في أزياء أخرى وتجديد لها في مستويات أعلى.

وهنا سيشتد حماسك لتقول: إن الموت ـ موت أي إنسان هو مزية أخلاقية ودينية وإنسانية، إنه موت لكل الطغاة والمهرجين ولكل الآلام والمظالم والدمامات والحقد والحسد والبغضاء ولجميع الهوام النفسية والعقلية، وإنه كذلك لموت للشيطان ولكل قواه الرهيبة. إذا أنا مت فقد مات كل هذا، بل ومات أكثر من هذا، مات انتظاري للموت وخوفي منه، وماتت كل سخافاتي وضعفي وهمومي وغيرتي من الآخرين وغيرة الآخرين مني، أي لو كنت في مكان من يغار منه.

إنك موجود هنا لكي تقاسي كل نفسك فإما أن تموت لتنجو من هذه المقاساة، وإما أن تبقى مخلداً مفروضة عليك نفسك ومفروضاً أنت على نفسك، لكي تظل بلا حدود تعاني هذه المقاساة مع نفسك ومع حماقاتك ونقائصك وأحزانك، كما تظل تعاني هذه المقاساة مع حماقات ونقائص كل الأشياء دون أمل في الخلاص ـ أو لكي تظل تعاني من مقاساة فضائلك ومسراتك التي لا تعني إلا أنك محكوم عليك بأن تريد وتفعل وتحتاج، ومحكوم عليك بأن ترى ما حكم به عليك هو المقياس العقلي والأخلاقي للأشياء. أليس الموت حينئذٍ هو أفضل الحلين؟ إن مقاساة الفضائل والمسرات ليست مزية، بل هي عذاب وفرار من عذاب وزحف إلى عذاب واحتجاج على عذاب. إنك تمارس الفضائل والمسرات، ولكنك بذلك تقع في الأهوال المركبة.

كم أرثي لذلك الغارق في المسرات والملذات المتعالج بها من وجوده ومن تناقضه مع نفسه ومع الآخرين ومع ظروفه! كم أرثي لذلك المقهقه الضاج ضحكاً بأعلى الأصوات، إنه ليس إلا إنساناً معذباً وهارباً يحاول أن يتعالج بالصراخ والضحك وبممارسة اللذات والمسرات من أشد الآلام، ولكنه يقع في أشد مما يحاول التعالج منه؟

إن الفظاعة ليست في أن نموت بل في أن نوجد، فالموت هو الولادة الصحيحة المريحة لمن وجد، إن أبشع الاحتمالات وأقسى أساليب التعذيب أن توجد ثم لا تستطيع أن تموت.

وعلمك بأنك لن تموت ـ لو حدث هذا ـ سيكون أقسى حكم عليك، إن البشر لم يجربوا الشعور أو الاقتناع بأنهم لن يموتوا، لهذا لم يدركوا فظاعة الشعور أو الاقتناع بذلك. إن وجودك يعني الحكم عليك بممارسة نفسك وممارسة الآخرين والكون والظروف وكل ما في ذلك من آلام وهموم وتفاهات وعبث وتعقيدات وتوريط، فإذا كنت لا تموت كان المعنى الحكم عليك بهذه الممارسة حكماً أبدياً. فكم في تصور هذا من فظاعة وهول؟

ستقول كل هذا في تفسيرك للموت إن كنت شاعراً أو نبياً، وستقول أيضاً: إن الموت ليس إلا حالة من حالات الحياة، إنه تعبير عن حياتين: عن حياة منتهية أو تريد أن تنتهي، وحياة مبتدئة أو تريد أن تبتدىء، إن الموت ترك حياة متخلفة لحياة متقدمة زاحفة، إن الحياة المتخلفة تترك المكان للحياة المتقدمة الصاعدة، أو الحياة الشائخة تترك الطريق للحياة الشابة!

ولكن الموت هو دائماً أقسى وأعمق تفسيراً من كل التفاسير حتى من تفاسير الأنبياء والشعراء، وإن همس خطاه في الظلام الصامت لأعلى صوتاً من كل أصوات كل المعلمين والمفسرين ومن كل اللغات التي تطلقها صرخات الحب أو الرهبة في كل القلوب حتى في قلوب الأنبياء والشعراء. إن الموت ليس شاعراً ولا نبياً، إنه أقوى وأصدق وأعمق تأثيراً وبلاغة من كل الشعر والنبوات، لهذا تحول كل شاعر وكل نبي إلى صلاة وغناء وبكاء وهزيمة وضعف خوفاً منه وانتظاراً أو استعداداً له، أما هو فلم يخف كما لم يحترم شاعراً ولا نبياً.

إن الكون كله بكل ما فيه لا يستطيع أن يكون تفسيراً للموت، بل لا يستطيع أن يكون خطبة واحدة للتحدث عن دمامته ووقاحته وعن سخف وعبث كل شيء إزاءه، عن سخف وعبث كل عبقرية وكل لذة وكل حقيقة وكل جمال أمام منظر من مناظره أو أمام دمعة واحدة تذرف خوفاً منه أو استقباحاً له أو تعبيراً عن انتصاره على كل جمال ولذة وحقيقة وعبقرية وحب وعلى كل حنان وأمومة وأبوة!

إن موت الوليد الوحيد في حجر أمه الملتاعة الباكية الهاتفة بكل إله وقديس، وبكل سر من أسرار الكون والغيب، وبكل خرافة وعقيدة؛ وبكل عبقرية إنسانية، طالبة العون والرحمة دون أن تجد من يستجيب أو يسمع أو من يبكي ويحزن بعيونها أو فؤادها ـ إن ذلك ليهزأ من كل حديث بليغ عن أي جمال أو منطق أو انتصار، أو عن أي معنى من المعاني لأي شيء من الأشياء فيما يمكن أن يقع تحت الرؤية أو تحت الخيال. ما أصغر وأتفه كل الأشياء أمام الأمومة الثكلى، ما أصغر وأتفه المذاهب والنظم والآلهة والشمس والقمر وكل الكون أمام ذلك!

إن الموت هو أقسى هجاء لكل الآلهة والمذاهب والحضارات والعبقريات ولكل غرور وسرور وغناء، ولكل مولود يحتفل بقدومه، ولكل معبد يشاد أو صلوات تتلى، ولكل وجه جميل وقمر يطلّ من السماء، ينثر بسماته على الحشرات والمحزونين والمحتضرين، وينظر بعيون ثلجية إلى من

يموتون، وإلى من يبكون ويحترقون حولهم، وإلى من سيصبحون أيتاماً وأرامل وضائعين دون أن يحزن قلبه أو تبكي عيونه أو تخجل أخلاقه أو أن يخفي ابتساماته المملوءة بالوقاحة والوحشية والشماتة، ودون أن يجامل بأي مظهر من مظاهر الحداد أو الاحتجاج!

أيها الموت، إن تحقيرك للأشياء لأقوى من جميع بلاغات المعلمين الخالدين المتحدثين عن عظمة الأشياء!

أيها الخلود ـ حينما تجيء لو جئت ـ إنك لأقوى تحقيراً للأشياء وتعذيباً لها من الموت!

أيها الموت والخلود، أنتما كل التحقير وكل التعذيب!

رسالة من برغوث إلى إنسان

«إن كائناً ما لم يمارس من الفقر والهوان والبلادة والخرافة والحقارة مثلما مارس الإنسان، حتى ولا البراغيث.»

*

صديقي وطعامي وسكني وثيابي. تحية وشكراً وشوقاً إلى دمك الذي منه دمي.

وبعد فلقد قضيت في ضيافتك أيها الصديق الإنسان أوقاتاً سعيدة، فيها مرح وجمال وشعر وشبع وكسل هنيء ـ كنت أنت كريماً ومتسامحاً إلى أقصى حدود الكرم والتسامح. لقد كنت بلا منٍّ تهب لي كل جسمك الضعيف المتعب كل الليل وأوقاتاً أخرى من النهار بصبر وتواضع وفدائية عجيبة، بل وعلى استحياء عظيم مني. لم تكن تثور أو تغضب أو تلعن وأنا أفترس جسمك بوحشية وجلافة طبع كأني فارس من الفرسان الأشداء الأجلاف، وأغوص داخل أردافك وأعضائك المحتشمة المحترمة المحرمة كأنما أبحث فيها عن قيمة من القيم أو عن آية من آيات الألوهية المخزونة فيك كما تزعم دائماً لنفسك، بل كأني رسول من السماء مكلف بأن أمتص من أعضائك كل ما فيها من رغبات شريرة أو أمراض مستعصية!

وكنت من فرط سخائك تصنع شيئاً عجباً، لقد كنت تتعمد أن تسترخي وتتثاءب وتنام نوماً عميقاً لكي أستطيع بلا مشقة أو إزعاج أو إحراج لي أن أسلب من دمائك كل ما أريد وأحتاج هانئاً آمناً دون أن يحتج عليّ ضميري أو يعذبني أو يلعنني لأني أغدر بمن أنزلني في بيته بل أنزلني داخل ذاته ومحرمات بدنه ضيفاً معززاً ـ كنت حريصاً حرصاً مذهلاً على أن تشعرني بالرضا عن نفسي وعن وحشيتي، لقد كنت في معاملتك لي ملاكاً يعيش بين البشر وتعيش فيه من فضيلته البراغيث. وما أجمل الملائكة التي تعيش في أعضائها البراغيث، وما أسعد البراغيث التي تعيش داخل أجسام الملائكة!

سيدي، لقد استطعت بضيافتك الطويلة المهذبة لي أن أفهمك وأفهم فيك البشر جميعاً ـ أو على الأقل لقد أمكن بهذه الضيافة الإنسانية أن تكون لي أنا البرغوث آراء عنكم أيها البشر، آراء فيها شمول وعمق ومفاجآت مذهلة لنا نحن البراغيث.

كنت أظن من بعيد أن الإنسان عظيم جداً، وحتماً جميع بني جنسي كانوا يظنون مثل هذا الظن. إن إبداعاتك الحضارية المختلفة وفلسفاتك وأديانك ومذاهبك ومزاعمك عن نفسك ومنابر زعمائك وتحدثك مع النجوم والشموس وكل الأكوان بالشعر والفكر والموسيقى، وتجاوزك بالخيال والأمل والتمني والاحتلام لما كان ولما يمكن أن يكون ـ إن ذلك كله قد يعطي عنك اقتناعاً بأنك عظيم جداً في كل أبعادك وأعماقك العقلية والنفسية والأخلاقية.

كنت أسمع زعماءك ومعلميك وشعراءك ووعاظك يتحدثون ويزعمون ويتحدون وتنطلق من أفواههم الواسعة الكلمات الكبيرة التي تبهر النجوم، المملوءة بالكبرياء والنظافة والصدق والشجاعة، المشحونة بأقوى طاقات الشعر عن الإباء واحترام النفس والرفض لكل جبن وهوان وحقارة وتلوث، فيغشاني الذهول والهول من ارتفاع مستوياتك، وأخاف التطلع اليك أيها الكون الأعظم. إن التطلع إليك ـ مجرد التطلع ـ كان في تقديري تطاولاً على الشمس ووقاحة غير محتملة لبعد مكانك عن المتطلع، مكانك في أشعارك وفي أحاديثك عن نفسك وجهارة صوتك.

كنت أعتقد أن الشمس كانت تتعذب كل يوم، كلما ولدت من جديد لأنها تضطر كل صباح تولد فيه إلى مواجهتك لترى هبوط مكانها وضآلة نظافتها وإشراقتها عن مكانك ونظافتك وإشراقك، كما كنت أعتقد أن الآلهة كانت دائماً مشغولة تصنع في نفسها الأشعار والأناشيد، مادحة عبقريتها التي استطاعت أن تبدع مثلك في سمو معانيك وتنزه كبريائك عن كل هوان ووحل وخضوع لأي شرط على الكرامة أو لأية ضرورة من ضرورات الحياة ـ كنت في اعتقادي ترفض الكرامة لو كانت مصابة بأي خدش، والحياة لو كانت مشروطة بأي شرط. لقد كنت من بعيد أعتقد أنك منطق الإله وشعره ومجده في الأرض، وأنك أقوى وأذكى تعبيرات السماء عن أعلى مستوياتها الفنية والأخلاقية، وإنك لسمو نفسك ترفض حتماً مصافحة الشمس لو تقدمت إليك ضارعة لتصافحك وفي يدها بقية من ليل أو في خطواتها تعثر من كبر ـ لقد كنت في تقديري ورؤيتي لك على بعد أعلى من كل سماء وأكبر من كل كبرياء.

أما اليوم، أي بعد أن مارستك من داخلك ورأيتك عارياً إلا من ذاتك، بعد أن رأيتك من وراء أشعارك وخطبك ومغازلتك لنفسك ومن وراء تعاليم أنبيائك وبلغائك وكل استعراضاتك الخارجية لذاتك، وبعد أن كنت أهاب النظر إليك، فقد أصبحت أشعر لك بالرثاء والاستهانة

وأخاف عليك من تفكيري فيك، بل لقد أصبحت أخاف على نفسي، على أخلاقي وشجاعتي وكبريائي وقدرتي على الغضب والرفض، أصبحت أخاف من أن أتغذى بدمائك الإنسانية خوفاً على خصائصي البرغوثية، خوفاً من أن تنتقل إليّ صفاتك المستسلمة القانعة البليدة البذيئة، خوفاً من أن ينتقل كذبك ونفاقك وضعفك وما فيك من غباء وحفاوة بالحقارات والتفاهات والطغاة الأغبياء. لقد صدمتني وأثقلتني حزناً وغروراً وإعجاباً بنفسي بعد معرفتي لك، لقد وجدتك صغيراً جداً مع شموخ إنجازاتك الحضارية ومع عظمة تعاليمك في الحديث عن نفسك.

إن شموخ الانجازات الحضارية والتعاليم والبلاغة لا يعني شموخ الذات أو شموخ الأخلاق أو النفس أو الذكاء أو الكرامة أو الحياة. لقد أصبحت أنا البرغوث أجرؤ على أن أقيم مقارنة بيني وبينك، بل على أن أرضى عن هذه لأني أجد فيها كل الفخر لي والتباهي بتفوق مزاياي. كنت أرى إنزالك لي ضيفاً مدللاً في بيتك وعلى مائدة بدنك باستسلام وبلادة نوعاً من الأخلاقية الفذة تعامل بها ضيفاً متوحشاً مثلي، فإذا بي أجد ذلك تنازلاً عن الأخلاقية أو عجزاً عنها أو جهلاً بها. لم تسلم لي فراشك وأعضاءك لأنك طيب ورحيم كريم تريد أن تطعمني لأن جوعي يعذب دينك أو أخلاقك أو إنسانيتك أو وطنيتك، بل فعلت ذلك لأنك ضعيف وجبان ومتبلد كسول، ولأن ما في الحشرات من دمامة ووقاحة وبذاءة وهجاء وتحد لك لا يزعج كبرياءك أو ذكاءك.

إنك لا تريد أن تقاوم أو لا تستطيع أو لا تعرف ذلك، إنك متبلد كسول أو عاجز جاهل ـ إن الضعف والبلادة هما اللذان أسلماك لي على هذا المستوى الذي يثير غضبي وذعري واحتقاري أنا البرغوث المستفيد من ذلك ـ إن المعتدي المفترس غاضب على فريسته محتج عليها لهوان استسلامها. فأيهما الأعجب أو الأنبل: هذا المفترس أم هذه الفريسة؟ ولست أشك أنا البرغوث في أن جميع الحشرات قد أسقطت من حسابها كل احترام وتقدير للبشر بعد تجاربها الطويلة معهم التي لم تدل على كبرياء أو نظافة أو جمال أو ذكاء أو همة.

إنك بهذا الضعف والبلادة تتقبل جميع مستوياتك وظروفك الضاربة في أبعد أعماق الأوحال والآلام والمهانات وتحت سلطان كل الحشرات. لقد استسلمت لطغاتك ضعفاً وبلادة، يأكلون رخاءك وذكاءك وكبرياءك، ويسقون بدمك ظمأهم الدائم إلى الحروب والمغامرات والمخاصمات، ويحولون كل عبقريتك وقدراتك وأعمالك الفنية والعقلية إلى أجهزة استعراضية، يعرضون بها دائماً عرضاً دائماً بذيئاً كل ما فيهم من بذاءات وهموم ونقائص وأحقاد وآفات أخرى في أساليب إعلانية لا مثيل لها في الطفولة والافتضاح ـ وإنك بهذا المستوى قد استسلمت لي أنا البرغوث بلا كرم أو كرامة. وليس رفضك الاستسلام لي أنا البرغوث ـ لو

حدث مثل هذا الرفض ـ إلا كبرياء غير مألوفة فيك حينما ترى مستسلماً بكل هذا الصبر والعجز لكل ما تلقى من الطغاة الأغبياء المتعاقبين عليك، يمسحون بكرامتك وشرفك وخبزك وبأربابك كل ما فيهم من تشوهات وأدران وذنوب وجوع تاريخي وطبقي متوحش البذاءة، ولكل ما يلقى إليك من المذاهب والعقائد والنظم المتناقضة المحاربة لك.

إن لنا أن نفخر عليك نحن البراغيث لأنه ليس لنا هذا الطابور الطويل الكئيب الذي يزداد طولاً وكآبة ـ هذا الطابور أو هذا التاريخ الثقيل الباهظ من الطغاة القتلة المجانين المرضى الذين يتعالجون من جنونهم وبذاءتهم ومشاعرهم الطبقية بتحقيرك وتجربة كل المذاهب والنظم والعقائد والتشريعات والقوانين عليك كقيود ولجم يقهرونك ويذلونك ويسرقونك بها!

*

تستطيعون أيها البشر أن تفخروا علينا بأن لكم لغة، بأن لكم لغات كثيرة جميلة، ونحن ليس لنا لغة واحدة ولو في أقل مستوياتها.

نعم أيها البشر، لكم لغات كثيرة مختلفة، تزينها أروع الأساليب البلاغية، وأعظم فنون الشعر والآداب. وهذه اللغات جهاز هائل لإطلاق همومكم وعواطفكم وآلامكم النفسية والإلقاء بها بعيداً في الفضاء النظيف أو على الآخرين، أي هي جهاز لنشر الأوحال على أوسع مدى بدل تركها في أماكنها مدفونة ومحصورة.

ولكن ماذا أعطتكم لغاتكم من مزية؟ ألستم قد حولتموها إلى بذاءات وشتائم وبغضاء وسوقية وأكاذيب وضجيج وبصاق نفسي وأخلاقي، وإلى جهاز خطير من أجهزة الدعاية للحروب والخصومات وإلى تبديد رديء ودائم لطاقات النفس وحماسها وتجمعاتها، وإلى ضياع تصنعه اللغة بالمتكلمين بها حينما يقضون أطول الأوقات، يقتاتون بالكلمة المنفلتة بلا تدبر وبالرد أو الاعتراض عليها، والتفسير لها أو الغضب منها أو الاعتذار عنها؟

ألستم قد حولتم مزية اللغة إلى رذيلة نفسية وعقلية وأخلاقية واجتماعية؟ ألم تصبح اللغة أداة فضح للإنسان؟ أليس الإنسان يتعرى حينما يتكلم، يتعرى أمام الآخرين ويعلن عن تعريه؟ أليس يلقي بتشوهاته الداخلية أمام الناس وعلى الناس؟

هل أعطت اللغات من الصدق أو الحقيقة أو المحبة أو التهذيب أو الصداقة أو المعرفة أو السلام أكثر مما أعطت النقيض؟ أليست اللغة من أبشع الأسلحة التي يحارب بها الحكام والزعماء والطغاة والمعلمون الجاهلون والماكرون المجتمعات ويسحقون بها ذكاءها وهدوءها ووقارها؟ أو ليست أداة رديئة تطلق منها الغوغاء سخفها وفحشها وغباءها وكل قيئها وسوقيتها وفنون بذاءاتها وجميع ما في جوفها من عار وصغائر ـ تطلقه على الناس في الطرقات العامة وفي كل مكان؟ أليست اللغة أداة عجيبة يستطيع بها المحزون أو المهزوم أو المتوتر أو الغاضب أو

أي متألم بأي ألم لايحمل أية عبقرية، أن يصبح كاتباً أو شاعراً أو مفكراً أو معلماً خالداً أو زعيماً بالخطابة الدائمة العالية الهياج، وأن يحول أي إنسان قادر على الكلام وجريء عليه هزائمه وأحزانه وجراحه الملوثة إلى أفكار ومذاهب وشعر وتعاليم خالدة ونبوات عالمية تطارد الاجيال المتعاقبة وتسد عليها كل طريق وتثقلها بالقيود؟

أليست اللغة هي أضخم أداة عدوانية عالمية يعتدي بها البشر بعضهم على بعض ويعتدون بها على أنفسهم؟ إنها أكبر جهاز قيء وبذاءة وسباب ابتكره الإنسان ضد نفسه وأخلاقه ونظافته وحصافته!

وعفواً يا صديقي الإنسان حين تجدني لم أتحدث عن أية مزية من مزايا اللغة بل أطلقت عليها هجوماً شاملاً بكل الأسلحة ومن كل الجهات. وقد يبدو لك هذا ظلماً كبيراً مني. ولكن قد يكون عذري عندكم أيها البشر أنكم أنتم لستم محتاجين إلى من يحدثونكم عن هذه المزايا ويذكرونكم بها أو يشرحونها لكم، بل أنتم في حاجة إلى من يشككونكم في مزايا اللغة وإلى من يستطيعون أن يضعفوا من افتتانكم بها ومغالاتكم في تقديرها وتقويمها. فأنتم مبالغون في كل شيء، ومبالغون في تثمين اللغة إلى أبعد الحدود، أنتم لم تبالغوا فقط في إضفاء المديح بلا حساب على اللغة، بل لقد وهبتموها صفات إله، لقد جعلتموها خالقة، جعلتموها خالقة التقدم والحضارات والأخلاق والإيمان وجميع القيم، جعلتموها قادرة على أن تصنع كل عمليات التغيير في الجماعات والأفراد، إنها في تقديركم لها تستطيع أن تحول التافه الغبي إلى عبقري عظيم، والمريض إلى صحيح، والعصبي القلق إلى هادىء متوازن، والحزين إلى مبتهج، والمتشائم إلى متفائل، والشيطان إلى ملاك، وضعيف البدن إلى قويه، وهكذا تحول كل شيء إلى نقيضه. ولهذا فإنكم أيها البشر تطلبون باللغة من كل مجتمع وإنسان أن يكون نقيض نفسه، نقيض ما هو كائن، إنكم تخطبون وتعظون وتحللون وتحرمون وتنهون وتأمرون وتصنعون التعاليم والشرائع والنظريات الأخلاقية والنصوص الدينية، ثم تعتقدون أنكم بذلك تصوغون الإنسان صياغة جديدة، أو تصوغونه كما تريدونه وتعلمونه ـ أي إنكم تريدون بل وتؤملون أن تصنعوا الناس والمجتمعات وأن تحولوهم إلى نقيض ما كانوا باللغة!

إذن فاللغة في تقديركم خالقة، إذن فأنتم غير محتاجين إلى من يعظونكم عن مزايا اللغات أو إلى من يرضونكم بالاعتراف لكم بهذه المزايا، بل أنتم محتاجون إلى من يعظونكم ضد اللغات والمبالغات في الاطراء لها. أنتم مرضى بالمبالغات وبتقدير اللغة فوق قدرها.

ولعل المبالغة في التقدير ـ تقدير أي شيء ـ مرض إنساني لا يمكن الشفاء منه، ولعل مرض المبالغة في التقدير أغلب وأخطر من مرض المبالغة في التحقير في سلوك الإنسان. وحمداً لله أننا نحن البراغيث معافون من المرضين معاً، بل معافون من أمراض كثيرة خاصة بالبشر.

*

وقد تجدون أيضاً أيها البشر أن من أسباب امتيازكم علينا نحن البراغيث أن لكم أعظم وأكبر المذاهب والتعاليم والعقائد والأفكار والآلهة، وأننا نحن ليس لنا شيء من ذلك. وإذن فكم هو عظيم الفرق بينكم وبيننا نحن إحدى فصائل الحشرات! إنكم قد تجدون الفروق عظيمة جداً لحسابكم.

ولكن هل درستم القضية وساءلتم أنفسكم عما صنعت لكم هذه المذاهب والعقائد والتعاليم والنظريات والأفكار والآلهة، وهل أعطتكم أم أخذت منكم؟ هل علمتكم الترحيب بالحقيقة أم الفرار منها والرفض لها والخوف منها والقدرة على هذا الرفض والفرار؟ هل ازددتم بها ذكاء ومعرفة أم غباء وجهلاً؟ وهل تحولت فيكم إلى سلوك وفضائل نفسية أم ظلت فقط ألفاظاً وشعارات تعدد وتدرس وتقضى الأوقات في تعلمها وتفسيرها والخلاف عليها، وفي شتم الآخرين ومخاصمتهم باسم الغيرة عليها والدفاع عنها ـ أم ظلت أيضاً حيلاً يصطاد بها الأقوياء الضعفاء، والماكرون الجماهير، ويقتلون أعصابها وحماسها بها؟ هل هذه المذاهب والأفكار والتعاليم والعقائد والآلهة تعلم مبتكريها كيف يتغيرون ويتسامحون ويتقدمون ويحبون الآخرين ويبحثون عن أسباب الاتفاق معهم وصداقتهم، أم أنها تعلمهم كيف يتبلدون ويركدون ويتعصبون ويكرهون الناس ويخالفونهم ويبحثون عن مسوغات العداوة والبغضاء في علاقاتهم بهم؟ ما هي القيمة لهذه المخترعات العقلية، هل القيمة في نفس اختراعها أم في عطائها؟

لقد جعلتم من امتيازاتكم هذه حدوداً فاصلة مفرقة، يرابط كل فريق منكم وراء حدوده وفي أيديكم جميعاً السلاح، وفي قلوبكم جميعاً البغض والحقد، وفي عقولكم جميعاً الغباء والتعصب، وفي أفواهكم جميعاً الشتائم والقاذورات، دون أن تهبكم أي أسلوب أو أي مقدار من أساليب الفضيلة أو مقاديرها. فكيف إذن تجرؤون على المفاخرة بهذه القيم اللفظية أو بهذه القيم المضادة للقيم؟ ولو كان لهذه الاختراعات العقلية أو اللفظية أي مغزى طيب على سلوك المؤمنين بها والمخترعين لها لكان بائعو المصاحف والأناجيل وكتب المذاهب والتعاليم والفلسفات والنظريات وناسخوها هم أكثر الناس استقامة وتقدماً وذكاء وإخلاصاً للحقيقة وقبولاً ومحبة للناس ونظافة من البغضاء والأحقاد ومن جميع الوحوش النفسية، وأكثرهم صعوداً في جو السماء!

وإذا كان التفكير مزية ـ ولو أحياناً وهو كذلك فيما نريد أن نعتقد ـ فإنه من جهة أخرى مزية مضادة ـ إن التفكير في أكثر عملياته هو تفكير لمحاربة التفكير وللانتصار عليه ورفضه وتشويهه. إنك تفكر لتقاوم أفكاراً أخرى أو لتقاوم مفكرين آخرين، أكثر التفكير ليس إلا تفكيراً ضد التفكير. إنكم تفكرون في الموت والآلام وفي توقع المصائب والعار وفي الخوف من الآلهة

والقوى الغيبية وفي الكيد للآخرين ومحاولة الايقاع بهم. إذن ما أكثر مزايا التفكير المضادة ـ ما أكثر مزايا التفكير الأليمة الهدامة!

أما نحن البراغيث فلا نفكر وإنما نعيش ببراءة وطهر، نحن كالطبيعة، كالأزهار كالأنهار، كالنجوم، نؤدي أنفسنا بلا تفكير ولكن بعبقرية وإبداع. لقد حصلنا على النتيجة التي لا تزالون تطلبون وتبحثون عنها بدون مقدماتها واقتراناتها الباهظة. إن الهدف الأعلى الذي تسعون إليه وتتحدثون عنه بحماس وجنون هو أن تعيشوا إلى أن تموتوا أو تعيشوا على نحو ما. ولكنكم لا تصلون إلى هذا الهدف الأسمى الضئيل إلا على طريق مملوء بالآلام والأوحال والفضائح والمهانات، أما نحن فقد وصلنا إليه ونصل إليه بدون ذلك، بخسائر وآلام أقل جداً؛ ولم يكن مستوى حياتنا دون مستوى حياتكم.

وإنكم كما تملكون التفكير الأليم العدواني الكئيب المتخوف والمضاد تملكون أيضاً الانفعالات الرديئة التي نحن بريئون منها ـ إنكم تملكون الحقد والبغض والحسد والأحزان والغيرة والشماتة والطمع والطموح. وقد تكون هذه الأفاعي النفسية عقاباً لكم على ما عددتموه إحدى مزاياكم وهو التفكير، كما قد تكون نتيجة من نتائج التفكير أو مضاعفة من مضاعفاته أو معنى من معانيه!

ما مزية من ينادون ويؤمنون بأقوى وأفضل النظريات والمذاهب والأرباب والمعلمين بينما تعيش في أعضائهم وشهواتهم كل الأحقاد والحسد والبغضاء والطمع والطموح والعداوات والأوحال وجميع الحشرات النفسية والأخلاقية دون أن تستطيع كل هذه القيم التعليمية أن تقتل أو تغلب حشرة من هذه الحشرات؟ ما مزية هؤلاء على من يعيشون حياتهم فقط بصدق وبراءة بلا تعاليم ولا ظلمات أو عداوات نفسية؟ ما مزيتكم أنتم أيها البشر يا أصحاب التعاليم والأفكار والمذاهب والآلهة العظيمة الجبارة ـ ما مزيتكم علينا نحن البراغيث والحشرات والحيوانات، نحن الذين لا نملك إلهاً أو مذهباً أو عقيدة ولكننا لا نحقد ولا نعادي أو نبغض أو نكذب أو نتحول إلى طغاة نقهر الناس ونسلبهم رخاءهم وكرامتهم وشجاعتهم وحريتهم باسم هذه المذاهب والعقائد والآلهة ـ أو نقتلهم تحت شعارات الدفاع عنهم؟ إنكم أنتم يا أصحاب هذه القيم التعليمية إنما تبتكرون هذه القيم وتؤمنون بها لتبرروا الخروج عليها بها!

ليتكم كنتم فضلاء دون أن تكونوا أصحاب تعاليم مثلنا نحن البراغيث، ولم تكونوا أصحاب تعاليم دون أن تكونوا فضلاء. أليست حبة القمح الجائدة بسنابلها بلا مذاهب أو شعارات أو أحقاد أكثر فضيلة من جميع أصحاب المذاهب والأفكار والعقائد والشعارات المملتئة أنفسهم وعقولهم بالظلام والمخاوف والعداوات والهموم، والممتلىء ليلهم بالأحلام والاحتلام والسهر والمكايد والغيظ لسعادة الآخرين أو لانتصارات المخالفين؟

إن الناس لا يصنعون المذاهب والأرباب والعقائد ليكونوا طيبين، بل ليكونوا غير طيبين، باسم هذه الأرباب والعقائد والمذاهب!

*

ومن الأمور التي لا يمكن وضعها تحت الشك أو الحوار أنكم أيها البشر أبدعتم حضارة صناعية وعلمية ضخمة مذهلة، وهذا تفوق لكم لا يستطاع الارتفاع إليه أو التهوين من شأنه. ومع أنه يمكن القول بأن الحضارة تبدع الناس أكثر من أن يبدعوها هم، كما أن الجمال والذكاء يصنعان الجميل والذكي أكثر من أن يصنع الجميل والذكي الجمال والذكاء إلا أن السؤال الكبير هنا هو:

هل تتكافأ هذه الحضارة مع الصغائر والآلام التي تعانون أيها المتحضرون، وهل استطاعت هذه الحضارة الهائلة أن ترتفع بمستوى أخلاقكم أو سعادتكم أو أن تخفف من تزاحم الآلام والمشاكل عليكم ـ هل جعلتكم هذه الحضارة شيئاً أفضل أو أسعد؟

لقد عالجت حضارتكم الجبارة كثيراً جداً من مشاكلكم وآلامكم وأعطتكم مزايا عقلية وثقافية من الصعب إحصاؤها. ولكن ألم تعالج آلاماً ومشاكل لتصنع مكانها آلاماً ومشاكل أخرى ـ ألم تعالج هموماً قديمة لتضع بدلها هموماً جديدة، حتى لكأن الإنسان محكوم عليه بأن يعيش في مستوى معين من الارتباك والتورط والألم لا يزيد ولا ينقص تحت كل الظروف والمستويات. فإذا ارتفع بمستواه أو عالج همومه من جانب أو على نحو ما انخفض هذا المستوى على نحو آخر أو من جانب آخر وهبطت عليه هموم أخرى، ليقف وضعه عند المستوى المعين المحتوم المحكوم به عليه، حتى لكأن للدموع والمسرات عندكم أيها البشر مقادير لا ترتفع فوقها ولا تنخفض تحتها مهما ارتفعت أو انخفضت عبقرية الابداع فيكم!

ولعل آباءكم الذين كانوا يعيشون منذ عشرين ألف عام لم يكونوا يملكون من السرور أو يذرفون من الدموع أكثر أو أقل مما تذرفون أو تملكون أنتم اليوم.

قد يكون من قانون الأشياء أن الحل للمشكلة يتحول إلى مشكلة أو يخلق ظروفاً تصنع مشكلة مساوية للمشكلة التي حلت، ولعل علاج الألم يتحول إلى ألم أو ينقل إلى ظروف تصنع ألماً مساوياً للألم الذي عولج. إن قيمة الألم والمشكلة مساوية فقط لقيمة الشعور بهما، وليست مساوية لحقيقة الألم أو حقيقة المشكلة. وهل للألم والمشكلة حقيقة خارجة عن الشعور بهما؟ والشعور بالأشياء ليس مساوياً لنفس الأشياء. والحضارة التي تعالج أشياء ضخمة وتشفي من أشياء ضخمة تخلق مشاعر وأحاسيس وتوجسات ضخمة نحو الأشياء وبلا أشياء، كما تخلق أيضاً احتياجات ضخمة. إن الذي يعطينا ويرينا كثيراً، يثيرنا ويخيفنا ويوترنا ويعذبنا كثيراً، أي بنسبة مساوية أو مقاربة.

لقد جلبت حضارتكم هذه معها هموماً رهيبة أو جعلت هذه الهموم في مستوى غير معهود من القوة والشراسة ـ لقد جلبت معها المذهبية المتوحشة والطغاة الأقوياء جداً، وأعطتهم كل أسباب الشمول والقدرة والتوتر والضجيج والانتصار، بل كل أسباب الإفساد للذكاء والأخلاق والتحطيم للشموخ الذاتي. لقد تحولت هذه الحضارة العظيمة إلى قوة للطغاة لا حدود لها، وإلى إغراء لهم وبهم تصعب مقاومته، وإلى مذهبية فيها جميع تعبيرات الغباء والهمجية المفترسة.

من الاحتمالات التعسة أن النمو الحضاري إنما يعني ازدياد قوة الطغيان والمذهبية، ولا يعني إضعافهما. فنمو الحضارة يعني الحاجة القوية إلى التجميع والهيمنة، والتجميع والهيمنة يصنعان قوة قادرة على الضرب ومحتاجة إليه وراغبة فيه، كما يصنعان المنطق القاسي القاتل، وهذا المنطق إنما يعني أقسى ضروب المذهبية. فالحضارة المتعاظمة قد تعني المذهبية والطغيان المتعاظمين. وكلما تعاظم الطغيان تعاظمت المذهبية، فالمذهبية العنيفة يصنعها الطغيان العنيف وتصنع هي الطغيان العنيف، وبلا طغيان قوي لا مذهبية قوية، وإذا وجدت المذهبية القوية وجدت الأسباب الموجدة للطغيان القوي.

وإننا نحن البراغيث لنجرؤ أن نقول: لتمت أضخم الحضارات إذا كان محتوماً أن يكون فوقها أضخم الطغيان. إن البداوة لأفضل من أعظم الحضارات التي تحكمها أثقل المذاهب وطأة وتعصباً، وأقوى الطغاة الذين يحولون كل عبقريتها ـ أي عبقرية الحضارة ـ وقدراتها وكل فنونها إلى أجهزة عرض دائم متوقح لبذاءاتهم وعاهاتهم النفسية والعقلية. ولكن غيرتكم أنتم أيها البشر على الكرامة والحرية أقل جداً من حديثكم عنهما.

إن طلعة طاغية واحد بكل تحدياتها، ووقوفه أمام أو فوق أقوى الأجهزة الدعائية والاستعراضية التي أبدعتها وتبدعها الحضارة، ليخطب ويهدد ويلعن ويبارز ويقيء كل ما في أخلاقه وتاريخه من مستويات ترابية، نعم إن طلعة طاغية واحد من هذا الطراز الباصق على عبقرية الإنسان وعلى كل مزاعمه عن الكرامة والحرية، لقادرة على أن تعاقب كل مزايا الحضارة وتسخر منها وأن تحولها إلى ذنوب وشتائم يشتم بها الإنسان كل تاريخه وكل مستقبله!

ما أعظم ما تتشوهون أيها البشر حينما تظلون في جميع العصور والمجتمعات وتحت جميع المستويات الحضارية تنتقلون بمهانة واستسلام بين كل المذاهب والنظم والتطبيقات المتناقضة، وتتعاقبون حبواً تحت سياط أشرس الطغاة المتصارعين المتعاقبين عليكم، تهتفون وتستسلمون لهذا المذهب أو لهذا الطاغية. فإذا جاء مذهب أو طاغية نقيض لما قبله هتفتم واستسلمتم لهذا النقيض بنفس الحماس والاقتناع والتواضع أو بنفس الخنوع والخوف. ومهما تعددت المذاهب والنظم والتطبيقات والطغاة فإنكم مستعدون دائماً أن تؤمنوا وتخضعوا وتهتفوا مهما كان تناقض ما يجيء أو اختلافه أو تعاديه، إنكم دائماً في انتظار ما يسقط عليكم وارداً من أي

جحيم أو منبوشاً من أي تراب لتسجدوا تحت قدميه، وإنكم لفي انتظار أي تشريع أو أوامر لتطيعوا وتصدقوا وتخافوا وتزعموا أن هذا هو أعلى مستويات العدل والمذهبية والإنسانية. إن هوانكم أيها البشر ليتسع لأن يتعاقب عليكم في العام الواحد أو الشهر الواحد عديد المذاهب والنظم والتطبيقات وعديد الطغاة لتؤمنوا بكل ذلك وتتبعوا، دون أن تعاقبوا أنفسكم بالحزن أو الغضب أو الغثيان، ودون أن تشعروا أنكم بذلك تموتون أخلاقياً وعقلياً وإنسانياً، بل دون أن يضعف ذلك من افتخاركم بأنفسكم.

في ذات ليلة ملائمة لنا نحن البراغيث جلس جماعة من شبابنا الثوريين الأحرار من ذوي المزاج الناقد والموهبة الرافضة، جلسوا يتحاورون ويسخرون منكم أيها البشر ومن خنوعكم لكل ما يفرض عليكم ولكل ما تدعون إلى الإيمان به، فقال أحد هؤلاء الشبان البراغيث ساخراً، وأعترف أنه كان مبالغاً وقاسياً إلى حد القتل في سخريته:

إني مقتنع بعد تجربتي الطويلة لأخلاق البشر أنه لو صدر قرار جمهوري أو أمر عسكري موقع باسم أحد هؤلاء الطغاة الذين يحكمون كثيراً من المجتمعات البشرية اليوم، كما كانوا يحكمونها دائماً ـ يقول هذا القرار أو الأمر العسكري: لقد رأينا أن من مصلحة شعبنا العظيم، وأن من المحافظة على مبادئنا وأخلاقنا وثورتنا أن نأمر بخصاء جميع الرجال في شعبنا النبيل حتى لا تحبل أو تلد امرأة واحدة بعد اليوم، وأن على الجميع أن ينفذوا هذا القرار بعد نشره مباشرة في الجريدة الرسمية، وقد أمرنا بإعدام كل من يخالف ذلك أو يتظاهر ضده أو ينقده، إذ إن من يفعل ذلك لا بد أن يكون رجعياً عميلاً.

نعم إني مقتنع أنه لو حدث مثل هذا لخرجت الجماهير وأساتذة الجامعات وجميع الهيئات الدينية والعمالية والثقافية والفكرية هاتفة شاكرة لزعيمها البطل نعماءه على شعبه ووطنه ودينه، بل على الإنسانية كلها وعلى كل القيم المعروفة، ولقال الهاتفون الشاكرون إذا كانوا من بلد عربي اشتراكي حيادي متحرر: إن حكمة الزعيم في هذا التكليف بالخصاء أنه يخشى على أبنائنا المقبلين أن يقعوا في قبضة الرجعية أو في أسر إسرائيل أو في دولتها لو جاؤوا، ولقال الهاتفون الآخرون إذا كانوا من مجتمع آخر في الشرق أو الغرب أو في المجتمعات التي تنادي نفسها بالحيادية: إن الزعيم قد خشي على أولادنا لو تركوا يجيئون أن يقعوا في قبضة الشيوعية، إذا كانوا أعداء للشيوعية، أو في قبضة الرأسمالية الاستغلالية، إذا كانوا أعداء للرأسمالية!

لهذا ناضل زعيمنا واحتاط لأبنائنا فحرم مجيئهم، فما أرحمه وأدفأ قلبه بالحب والإنسانية، لقد خاف على من لم يوجدوا فأي زعيم اتقى وأنقى من زعيمنا! ثم لوجدنا الناس في صباح ذلك اليوم الذي صدر فيه قرار الخصاء طوابير طوابير لكي يسهلوا تنفيذ القانون الرحيم في أعضائهم المتوحشة!

ثم استمر هذا البرغوث الثوري الناقد اللعين يقول:

لا تظنوا أيها الإخوان أني أسخر أو أبالغ أو ألقي خطاباً حماسياً تهريجياً، أو أقول شعراً أو أصدر بلاغاً رسمياً يفترض أو يجب فيه أن يكون كاذباً أو على الأقل يفترض أو يجب فيه أن يكون مخفياً لأعظم وأكثر جوانب الحقيقة ـ لا تظنوا أيها الإخوان أني من هؤلاء الزعماء العظام جداً الذين لا بد أن يكونوا كاذبين ومزورين ومبالغين وساترين للحقائق أو لأفضل أو أقوى جوانبها في خطبهم وأحاديثهم وبلاغاتهم الرسمية بقدر ما يكونون عظماء وبقدر ما يخلصون لمبادئهم ومثلهم وأوطانهم وشعوبهم بل وللإنسانية في جميع أوطانها.

مشكلتي أنا البرغوث أني أقول الحقيقة وحدها، ولا أستطيع أن أقول غيرها. ومن مزايانا أو من رذائلنا نحن البراغيث أننا لا نساوي إلا الحقيقة فقط، لا نساوي أكثر منها ولا غيرها ولا أقل منها وكذلك كل الأشياء ما عدا الإنسان ـ كل الأشياء لا تساوي إلا الحقيقة، أما الإنسان فإنه يساوي أكثر أو أقل من الحقيقة ـ يساوي الكذب والمبالغة والتمني والاحتلام والخيال ومحاربة الحقيقة والهرب منها والتغطية عليها، كما يساوي أيضاً الحقيقة وطلبها.

نحن مثلاً نساوي فيما نساوي الموت، والموت حقيقة، أما البشر فإنهم يساوون الخوف من الموت والتفكير فيه وفيما بعده، كما يساوون الموت، والموت وحده هو الحقيقة دون الخوف منه أو التفكير فيه أو الاستعداد والإعداد له.

إني برغوث صغير يفترض فيه ألا يبالي بشؤون الآخرين الذين هم أكبر منه كثيراً جداً مثل البشر، أو يفترض فيه على الأقل أن يكون مؤدباً وألا يكون وقحاً إلى المدى الذي يجعله يتجاسر على أن يكون ناقداً لهم ـ أي للبشر ـ مصححاً لسلوكهم، محاولاً أن يعلمهم الكبرياء والكرامة. ولكن البشر هم الملومون، لقد ظلوا يصدمونني بمواقفهم الضعيفة بل بمواقفهم التي أجسر على تسميتها بالمواقف الجبانة، حتى لقد حولوني بمواقفهم هذه إلى ناقد لهم متدخل فيما كان المفروض ألا أتدخل فيه وألا يعنيني أو يثيرني أو يغضبني!

إني أشاهد دائماً وأتذكر أشياء مذهلة جداً من سلوك البشر ومن هوانهم وضعفهم ـ أتذكر وقد عجزت أن أنسى أن أحد الطغاة الغلاظ المتسلطين على جماهيرهم الضعيفة المستسلمة قد أصدر ذات يوم قراراً جمهورياً بتأميم الصحف، وقراراً آخر بمنع الحج إلى بيت المقدس، لأنه كان في خصومة مع حاكم المقدس، واجتمع أيضاً ـ أي ذلك الطاغية المتسلط ـ بحاكم آخر مخالف له في الدين والقومية والعرق. فماذا حدث؟

لقد بعث رجل الدين الأكبر في ذلك البلد الذي يحكمه ذلك الطاغية القاتل للرجولة ثلاث برقيات يشكره فيها على تأميمه الصحافة وعلى منعه الحج إلى القدس، وعلى اجتماعه بذلك الزعيم الحاكم الأجنبي، واصفاً له أنه بما فعل قد نصر الدين وأعز كلمات الله!

نعم، إنه بتأميمه الصحافة وبمنعه الحج وباجتماعه بالحكام الآخرين لاستعراض ذاته وتباهيه بنفسه وإعلانه عن كبريائه، على حساب الجماهير التي يعيش فوقها واستقوائه عليها، نعم إنه بذلك قد أعز لدين الله، هكذا يقول رجل الدين الأكبر تحت رهبة الخوف والاذلال الذي يعيش فيه ذلك المجتمع الذي يعيش فوقه هذا الطاغية القاتل. ما أسوأ هذا المستوى الإنساني الذي هبط إليه رجل يعيش الله في كلماته وأعصابه وداخل زيه الجليل، وما أقبح أن تكون حياً إذا كانت الحياة تعني أن تهون كل هذا الهوان، وما أقبح أن تكون إنساناً إذا كان أعلى إنسان سماوي، أعلى إنسان يتخاطب مع السماء كل أوقاته، يخاف ويسحقه الخوف ويمسخه حتى يتصاغر ويبكي ويرتمي على التراب كما فعل هذا الإنسان السماوي الذي يعيش الله في عقله وأعصابه ويتخاطب مع السماء صباحه ومساءه!

إن النفاق هو أقسى أساليب البكاء وأمر الدموع ـ بكاء ودموع الرجال الكبار الذين يخجلون من ذرف الدموع أمام الآخرين!

إني وأنا البرغوث الصغير الذي يعيش بلا مثل أو مذهب أو شعارات أو آلهة قد شعرت بالتمزق غيظاً وغضباً، وشعرت بأن كبريائي ـ كبريائي أنا البرغوث ـ تغوص وتغوص بلا قرار، وإن كنت على حساب آخر قد شعرت بشيء من الكبرياء رضا عن نفسي واقتناعاً بتفوقي. وكما أحسست بالغيظ والغضب أحسست كذلك بالرثاء لذلك المجتمع المسحوق الذي يهون فيه رجل الله وحامل أخلاق الله وينافق حتى يهوي إلى كل هذا المنخفض وحتى يبكي بهذا الأسلوب الفاضح الذليل ويحول دموعه إلى قراءات!

ماذا لو كانت الصحافة مؤممة والحج محرماً فأصدر ذلك الطاغية قرارين بإلغاء التأميم وبإباحة الحج؟ أليس من المحتوم حينئذٍ أن يبعث ذلك الرجل الإلهي ببرقيتين إلى الطاغية يشكره فيهما على ما فعل ويزعم له، بل ويقسم له أنه بذلك قد نصر دين الله وأعز كلماته على مستوى لم يرتفع إليه الأنبياء الكبار؟

كنت ذات ليلة متوارياً في فراش أحد البشر أنتظر الفرصة المواتية لكي أغتصب مقداراً ما من دمائه القليلة، فسمعت ذلك الإنسان المتواضع أو الكادح كما يحب أن يعبر عن أمثاله بعض الكتّاب الذين يشتهون أن يوصفوا بالكتاب المتحررين ـ سمعته يعلق بمرارة على سيل البرقيات التي اعتاد أن يرسلها ذلك الشيخ الأكبر إلى ذلك الطاغية المذل في كل مناسبة من هذه المناسبات التي لا نهاية لها، وسمعته يعلق أيضاً على غير ذلك السيل المتلاحق من البرقيات مما يحدث في ذلك المجتمع من مظاهر النفاق والخنوع والهوان، ويقول في تعليقاته متحدثاً مع أحد الأصدقاء من أمثاله المتواضعين الطيبين:

إني مؤمن أنه لو صدر قرار جمهوري يقول: قد أمرنا بقتل جميع رجال الدين وبهدم جميع

المعابد وبإحراق التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وكتب الدين جميعاً، وبتحريم الصلاة وكل العبادات بل وبقتل كل من يؤمن بالله أو يصلي له ـ نعم إني مؤمن أنه لو حدث مثل هذا لأرسل ذلك الشيخ الأكبر باسمه وباسم جميع رجال الدين المحكوم عليهم بالإعدام برقية إلى الطاغية يهنئه فيها بنصرته للدين وإعزازه لكلمات الله ويشكره على ذلك بأبلغ الأساليب وأكثرها ضراعة وهواناً!

إن المجتمعات المحكومة بالطغاة لا تؤمن بطغاتها لأنها تؤمن بما يفعلون، وإنما تؤمن بما يفعلون لأنها مكرهة على الإيمان بهم. فنوع ما يحدث ليس هو الذي يجب الإيمان به أو الشكر له والثناء عليه، ولكن الطغاة هم الذين يجب الإيمان بهم والامتداح والشكر لهم مهما كان ما يفعلون ومهما كان ما لا يفعلون. ولهذا لا يحتمل أن يوجد في مثل هذه المجتمعات موازين أخلاقية أو عقلية أو وطنية أو إنسانية يفرق بها بين شيء وشيء، بل الشيء ونقيضه لا يعنيان إلا شيئاً واحداً، لا يعنيان إلا تقديس الطاغية والهتاف لعبقريته. والطاغية حينئذٍ لن يهاب أي موقف أو أي شيء، لن يخشى أن يقف أي موقف أو أن يتناقض أي تناقض. إنه يجرؤ حينئذٍ على أن يلقي بكل ملابسه وأن يمشي فوق الناس عارياً تضج من دماماته ووقاحاته كل الدمامات والوقاحات، ثم لا يخشى أن يراه هؤلاء الناس الذين يمشي فوقهم عارياً، ولو رأوه لما خشي أن يستقبحوه أو يشمئزوا منه أو يبصروا ما فيه من فجور وبذاءة وتشوهات، ولو رأوا واستقبحوا لما استطاعوا أن يتحدثوا بذلك مع عقولهم أو آذانهم ـ إنهم لن يبصروا مهما رأوا، ولن ينكروا مهما فقأت الرؤية عيونهم!

أيها الصديق الإنسان ـ ليس من المحتمل أن تقبلوا أيها البشر، أيها المعجبون بأربابهم وأنفسهم طرح أمثال هذه الأسئلة عليكم، مجرد طرحها ترفضونه ـ ترفضون حتماً بكبرياء واقتناع أن نسأل: أيهما ـ أنتم أم نحن البراغيث أعلى مستوى حياة أو أعلى ذكاء!

ماذا يعني مستوى الحياة العالي أو المنخفض، وما الذكاء والغباء؟ إن الذين حاولوا أن يعطوا الأجوبة على كل ذلك في كل التاريخ هم البشر، لا الكون ولا الحياة، ولا البراغيث ـ لقد كان الإنسان هو الذي يحكم بهذا أو هذا، ويرى هذا أو هذا، خاضعاً لمصلحته وظروفه التي كان يسميها منطقاً أو يظنها منطقاً، لا لمنطق كوني أو مصلحة كونية أو لإحساس عام من أحاسيس الحياة. ولم يجد الإنسان حتى اليوم من ينازعه اعتقاده الدائم بأنه هو وحده الحكم في هذا الكون والحكم عليه. فإذا جئنا نحن البراغيث أخيراً لنحاسبه على اعتقاده القديم والدائم، أو لنرفض هذا الاعتقاد كان حرياً به أن يتقبل وأن يستمع إلينا ـ إن تفوقه الذي يزعمه لنفسه يفرض عليه أن يتقبل ويستمع مهما كان من يحاسبونه ويناقشونه.

كيف تكونون أنتم أيها البشر أعلى مستوى حياة منا نحن البراغيث؟ إنكم تتغذون

بالحشرات والبقول والحيوانات والديدان والجيف. أما نحن فنتغذى بدمائكم يا أصحاب الدماء الحارة. وأنتم تجوعون وتجوعون في أحيان كثيرة أو قليلة، ويجوع الكثيرون منكم دائماً، وتطحنكم الأزمات والغلاء وهموم العيش والمخاوف الحاضرة والمستقبلة والمشاكل التي عاشت معكم على كل مستوياتكم التاريخية والحضارية. أما نحن فالأمر فينا مختلف، فحينما تطحنكم الأزمات والمجاعات وآلام الفقر التي لا حدود لقسوتها، وحينما تعجزون أن تجدوا أكواخاً أو خرقاً بالية مرقعة تكون حظوظنا حينئذٍ نحن البراغيث طيبة ومواتية ويكون رخاؤنا ميسوراً. إننا في مثل هذه الظروف الطاحنة لكم نجد في أكواخكم أو في ملابسكم غير النظيفة كل مأوى ملائم، كما نجد في أجسامكم الضعيفة المستسلمة كل غذاء نشتهيه، ففقركم وضعفكم ملائمان لنا كما أن قذارة حياتكم وبيوتكم أكثر ملائمة لنا!

إنكم كلما جعتم وافتقرتم ووهنت قواكم كان ذلك خيراً لنا، إذ سيكون حصولنا حينئذٍ على سكننا وغذائنا أسهل وأقرب!

ما أكثر المشاكل الغذائية والتموينية والسكنية والاجتماعية والأخلاقية والنفسية التي تواجهون، وما أكثر ما تتعذبون بهذه المشاكل، أما نحن فليست لدينا مشاكل تعذبنا أو نعذبها. وإذا كانت لنا أية مشاكل فما أقلها وأقل تحديها لنا وتحدينا لها.

نحن إما أن نكون موجودين أو غير موجودين، إذا كنا موجودين فمعنى هذا أن غذاءنا وسكننا موفوران حتماً وبرخاء، وإذا لم نكن موجودين فمعنى هذا أن انتصارنا على المشاكل لا مثيل له في القوة والحسم ـ إننا لسنا موجودين، وهذا أقوى أساليب الانتصار على المشاكل. إن الذي لا يكون موضوعاً للمشاكل لينتصر عليها تارة وتنتصر عليه تارة أخرى أو لينتصر عليها دائماً لهو أكثر انتصاراً عليها من الذي يكون موضوعاً لها وينتصر عليها!

ليس في طبقاتنا أو أفرادنا نحن البراغيث من يهبطون في ضياعهم وفقرهم وحرمانهم وآلامهم إلى المستوى البعيد الحزين الذي يهبط إليه الكثير من طبقاتكم وأفرادكم، ليس فينا من يتعذبون مثل العذاب الذي يتعذبه الكثيرون منكم حتى في أكثر مجتمعاتكم تحضراً وقوة، إن عذابكم وهوانكم لا مثيل لهما في كل الكائنات، إن حياة الإنسان هي أضخم معرض لأبشع نماذج البؤس، إن حياة الإنسان هي التي فسرت للفنون قسوة الوجود، وأعطت الفنانين صورهم وحوافز أعمالهم.

إن معلميكم العظام لن يستطيعوا أن يتصوروا كل الهوان والأهوال التي تصوروا في جحيمهم الخالد لولا ما عانوا ورأوا من مهانات وأهوال في أنفسهم وفي المجتمعات التي عاشوا فيها أو التي حدثوا عنها، لأن الخيال لا يعيش خارج الذات، والذات لا تعيش خارج ما هو كائن. إن الفظائع التي يلقاها بعضكم أحياناً والتي يحتمل أن يلقاها كلكم دائماً لتسخر من

كل حديث عن مستويات حياتكم الصاعدة، وأعني بهذه الفظائع التي يتلقاها بعضكم أحياناً ويحتمل أن يتلقاها كلكم دائماً هي فظائع السجون والمعتقلات والمحاكمات وأعمال المخابرات التي يمارسها طغاتكم ضدكم ويشوهون بها كل معانيكم الإنسانية ومستويات حياتكم.

أما الذكاء فلماذا يجب الاعتقاد بأن الإنسان أذكى من البرغوث؟ ما هو الذكاء؟ هل هو الاستقامة أو الفضيلة أو اللذة أو الانتصار؟ وهل الإنسان أكثر استقامة أو فضيلة أو لذة أو انتصاراً من البرغوث؟ وهل الإنسان في ممارسته لحياته وبحثه عن احتياجاته أو في علاقاته بنفسه وبظروفه وبالآخرين أكثر ذكاء أو حكمة من أي حيوان أو حشرة أو نبتة، هل هو أذكى أو أحكم من النهر أو النجم أو من أي شيء في مسيرته الذاتية وفي معاناته لحياته وأدائه لنفسه؟ هل يوجد في الكائنات كلها من يوزع حياته وقدراته وهمومه وأفكاره وعلاقاته بالآخرين، بل وذكاءه توزيعاً غبياً مدمراً مثلما يفعل الإنسان؟ وهل يوجد في أي من هذه الكائنات من يساق إلى الجنون والموت والحماقات الكبرى سوقاً جماعياً باسم الذكاء والعقل والمذاهب العبقرية مثلما يساق الإنسان؟

وهل يوجد من يستسلمون للقادة الأغبياء المجانين استسلاماً كله هوان وضعف غير البشر؟ أو هل يوجد من يؤمنون بالدعاة المفتضحين العراة إيماناً كله بلادة وتعصب غير الناس؟

هل يحتمل أن يكون أكثر ذكاء من البراغيث أو من أية حشرة ضئيلة هؤلاء الناس الذين لم يزالوا منذ كانوا يساقون إلى الحروب التي لا يفهمون لها معنى أو تفسيراً ليقتل بعضهم بعضاً دون أن يعرف بعضهم بعضاً، دون أن يعرف القاتل المقتول أو المقتول القاتل، في وحشية مذهبية أو دينية أو إنسانية لا شبيه لها بين أبلد الوحوش، وفي لذة وحماس وسعادة فيها رقص وموسيقى وأناشيد ضاجة بالغباء؟

إن الناس باسم الذكاء والفكر والمذهب والدين والعدل والإنسانية يتقاتلون ويفعلون كل ما يلعنه الذكاء والأفكار والأديان والعدالة والإنسانية والمذاهب ـ إنهم باسم الذكاء يفعلون أقبح أساليب الغباء. إنك تقتل أخاك الإنسان وتبغضه وتعاديه، وإن أخاك الإنسان يبغضك ويقتلك ويعاديك دون أن يعلم أحدكما لذلك أسباباً غير أن قائداً قاتلاً أو معلماً جاهلاً قال لكما ذلك أو أراده منكما أو دفع بكما إليه دفعاً. فهل في هذا شيء من الذكاء، هل فيه أقل مستويات الذكاء؟ وهل أنتما حينئذٍ أذكى من البراغيث، وهل تهبط البراغيث إلى مثل هذا الذكاء؟

إنك أيها الإنسان قد تؤمن بأن هذا الشيء هو أذكى وأفضل الأشياء ـ قد تؤمن بأن هذا الشيء نفسه هو أبلد وأسوأ الأشياء ـ قد تؤمن بأن سقوط الذباب في الطعام أو أن أنين المريض ألماً واحتجاجاً هو أعظم قصيدة دبجها فن الإله ليعبر بها بواسطة الذباب والمرض عن ذكائه

وعدله وصداقته للبشر، وقد تؤمن وتقاتل دفاعاً عن أردأ الأرباب والمذاهب والنظم والمعتقدات التي فرضت عليك أو ألقيت في جوفك إلقاءً.

إنك دائماً تؤمن بالشيء ونقيضه، لأنك قد لقنت هذا أو نقيضه، فهل في هذا أي أسلوب من أساليب الذكاء؟ أو لست مبالغاً جداً في إطرائك لنفسك حينما تصر على أنك أذكى من البرغوث أو أنك مساو له في ذكائه؟

هل يوجد وعاء تتجمع فيه على امتداد التاريخ أجهل الغباوات، ويلقي فيه جميع المخادعين والوعاظ الجهال كل ذنوبهم وهمومهم ومتاعبهم العقلية والأخلاقية دون أن يمتلىء أو يرفض المزيد غيرك أنت أيها الإنسان العبقري في ذكائه ـ هل يوجد وعاء يتقبل ويتسع لكل بصاق الباصقين المصابين بكل الأمراض دون أن يصاب بالقيء أو الغثيان غير الإنسان الذي يتكبر على مجرد التساؤل: أيهما أذكى: البراغيث أم البشر؟

إنه إذا كان الإنسان ذكياً بعض الأحيان فإنه غبي كل الأحيان أو أكثر الأحيان، إن أعظم تعبيرات الذكاء ومواقفه في الإنسان لتموت فيه أمام أردأ تعبيرات الغباء ومواقفه. إن غباء البشر فوق كل غباء مهما كان ذكاؤهم فوق كل ذكاء، وإن البشر إذا كانوا أذكى من البراغيث مرة فإنهم أغبى منها آلاف المرات.

وحتى حينما يكون محتوماً أن الإنسان أذكى من البرغوث فهل محتوم أن الأكثر ذكاءً هو أكثر فضيلة من الأقل ذكاء أو ممن لا ذكاء ولا غباء فيه؟ إن البراغيث على التقدير الأسوأ ليست ذكية ولا غبية، إنها كالنبات والحجارة ليس فيها ذكاء ولا غباء، أو على التقدير الأكثر سوءاً هي حتماً غبية، وليست لا غبية ولا ذكية، فلماذا يمكن الحكم بأن الإنسان أفضل منها على افتراضه أذكى منها؟ هل كل من هو أذكى هو أفضل؟ هل أذكى إنسان هو أفضل إنسان، هل أذكانا هو أفضلنا؟ وهل الثعلب أو الغراب أو القرد أفضل من الحمار أو الجمل أو الجواد أو الخروف لأنه أذكى منه؟ وهل كل إنسان ذكي جداً هو أفضل من النهر أو الحقل أو الشمس أو من سنبلة القمح أو من كل الحيوانات؟

لماذا يُرغب في الذكاء ويُمدح؟ أليس لأنه يعطي ويقي أكثر، فهل الذكاء الأكثر يعطي ويقي أكثر؟ هل الذي يفهم الكون والحياة والناس والمذاهب فهماً ذكياً بعيداً في ذكائه يأخذ ويتقي ويشعر بالراحة والسعادة وينتصر ويرتفع وينام أكثر وأعمق؟ هل الكائن بقدر ما يفهم يكون، وبقدر ما يعجز عن الفهم يعجز عن الكينونة؟ هل البقرة أو الحمار أذكى من الذباب أو من البرغوث لأن الحمار والبقرة يكونان أكثر؟ وهل الشمس أذكى من الإنسان أو من الشمعة لأنها تكون أكثر، أي لأنها أكبر كينونة؟

قد يكون الذكاء عدواً للبشر وأحد أسباب شقائهم وتخلفهم؟ إنه إذا كان الذكاء سلاحاً

فقد يكون سلاحاً ضد الإنسان لا سلاحاً مع الإنسان أو في يد الإنسان. ما أكثر ما تخلف الإنسان وتعذب لأنه كان ذكياً!

الإنسان مبدع وعبقري وفنان. ولكن هل هو كذلك لأنه ذكي؟ هل الطبيعة مبدعة، والجواد كريم متفوق، والحمار نبيل الخلق متدين السلوك، والطير فنان لأنه ذكي، ماذا لو كانت الشمس والبغال والحيوان والأنهار وكل وحدات الطبيعة ذكية كالإنسان أو أذكى منه جداً؟ قد يتحطم الكون وكل شيء حينئذٍ أو يتخلف ويتمزق وتفسده الفوضى والحروب والخصومات والدعايات الهدامة العدوانية التي لا بد أن يوجهها حينئذٍ بعضه إلى بعض بكل حقد وتفاهة وعدوان وبذاءة وأكاذيب، كما يفعل البشر الذين يقولون إنهم أذكياء!

*

أعتقد أن مكانتي في تقديركم أيها البشر ليست في الموضع الذي أستحقه وأتمناه. إنكم ترونني أعيش مختبئاً في شقوق المنازل والسرر والكراسي وفي طيات الفرش والملابس والأعضاء المثقلة بالأدران والروائح غير المعطرة، وترونني لا أنشط جيداً إلا في الليل المظلم متسللاً بلا شجاعة ولا كرم نفس أو خلق لأقتات بدماء النائمين من الأطفال والمرضى والشيوخ المتعبين المنهوكين الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لضعفهم أو لغباء إحساسهم. فأنا في تقديركم الظالم نموذج للجبن والضعة والعدوان والاتساخ، لهذا لا بد أن تكون مكانتي لديكم مكانة التحقير والاستضعاف.

إننا يا صديقي الإنسان لقادرون نحن البراغيث على أن نسمع بشجاعة وتسامح واعتراف بحقوق النقد كل آرائكم فينا بكل ما فيها من إهانات وظلم وكبرياء. والنقد لديكم أيها البشر ليس في كل حالاته أو في أكثرها إلا حقداً أو عدواناً أو ظلماً أو نفاقاً أو استعلاء أو جهلاً أو بغضاً أو خضوعاً للنقيض أو توتراً، أي ليس إلا حالة نفسية ذاتية يعبر عنها بأسلوب النقد، وهو في الحوافز البعيدة ليس إلا بكاءً أو حزناً أو سباباً أو تأوهاً، أي هرباً من النفس بأي تعبير. فالناقد عندكم ليس إلا مهاجماً معتدياً على الآخرين والمخالفين، أو هارباً من نفسه والنقد الذي لا يخضع للحالة النفسية المهاجمة العدوانية أو الهاربة لم يوجد بعد في أخلاقكم أيها البشر المجمعون على قيمة النقد!

نعم، نحن البراغيث مستعدون أن نسمع كل ما يمكن أن تقولوا لنا عنا مهما كنتم ظالمين أو جاهلين. فهل نأمل نحن أن نجد لديكم مثل هذا الاستعداد لسماع آرائنا نحن البراغيث فيكم وفي هذا الموضوع خاصة؟

حقاً، نحن نعيش في الشقوق، شقوق المنازل وفي طيات الفرش والملابس وفجوات الأعضاء، ولكنها شقوق منازلكم وطيات فرشكم وملابسكم وفجوات أعضائكم المحترمة، فإذا

كان في هذا هوان أو حقارة فأنتم أيها البشر السباقون إليها، إذا كان في البيت حقارة أو قذارة فإن رب البيت أولى بهذا الشرف من الضيف. نحن ضيوف عليكم أيها الصانعون للحقارات والقذارات التي تعيروننا بها لأننا شاركناكم فيها. إن مضيف الحشرة لن يكون أنبل أو أفضل أو أنظف منها، فإذا افتخر عليها كان محتاجاً إلى أن يتعلم منها ـ أي من الحشرة ـ شيئاً من الأخلاق.

ولئن كنا نحن حشرات فإنكم أنتم بهوانكم وضعفكم وقذارة كينونتكم قد أصبحتم مناخاً مثالياً للحشرات، تتجمع وتتكاثر فيه ويمنحها السمنة والرخاء، أنتم أيها البشر أجود الحقول لتربية الحشرات، وأفضل المناخات التي تجد فيها كل ما يلائمها. ولئن كان في هذا العالم من يستحق أن تصلي له الحشرات شكراً واعترافاً بالجميل، فإن الإنسان هو أول من يستحق هذه الصلاة، إن الإنسان هو معلم الحشرة وأستاذها المتكبر بادعاءاته وأغانيه، المتواضع في وجوده، حتى أنه من شدة تواضعه لا يشترط لحياته أية نظافة أو أي مستوى من مستويات الكبرياء!

أما التسلل ليلاً وفي الظلام لختل الضعفاء والأطفال والعاجزين النائمين والاعتداء على أعضائهم ودمائهم وسرقة ما فيها بلا شرف أو نبل، فهذا موضوع لا ينبغي أن يتحدث عنه البشر إلا بمباهاة وصلف ـ إنه هو فنهم الرفيع، إنه من سلوكهم بمكانة الشعر والموسيقى والرسم والعبقرية العقلية. لقد حولوا أعمال التسلل ليلاً لاقتناص العاجزين وسرقة كل ما يملكون إلى أسمى الفنون الإنسانية، صلوا لها بآدابهم وأشعارهم وأديانهم وكل فنونهم المختلفة.

إن التسلل والإغارة ليلاً على النائمين والضعفاء والعاجزين والغافلين والأطفال والشيوخ هو عمل كل البشر، عمل الثوار المنقذين والمحاربين الشجعان وكل الفدائيين والمناضلين وجميع من يسمون أبطالاً. إن البطل ليس إلا إنساناً يقتل أو يقهر من هو أضعف منه إما بقوته لأنه أقوى منه، أو بمكره وخداعه وحيلته أو بخيانته أو بظروفه المتفوقة. ولو كان البطل هو الذي يقهر أقوى منه لما وجدت كلمة بطل في أية لغة من اللغات.

إن أصدق أوصاف الإنسان أنه الكائن المتسلل في الظلام: إنه الثائر في الظلام والمغير في الظلام، والمحارب في الظلام، والفدائي في الظلام، والمدبر والمتعامل في الظلام، بل والمفكر والحاقد والكاره في الظلام، إنه كائن لا يحيا أو يعمل إلا في الظلام مهما وجد تحت النور أو بحث عن النور أو صنع النور، إن أفكاره ونياته وأهدافه وشعاراته وعقائده بل ولغاته لا تعمل إلا في الظلام مهما واجهت أقوى الأضواء، إنها تصنع الأضواء وتبحث عنها لتتخفى وراءها لا لتظهر، وإذا ظهرت فلتظهر مزورة خادعة لا صادقة.

لقد صنع الإنسان لكل شيء أقنعة عديدة من الظلمات، الإنسان هو المخترع الأعظم للأقنعة لكي يعيش وراءها في ظلام كافر، إن أديانه ومذاهبه وقوانينه وأخلاقه ونظرياته وأفكاره ليست

إلا أقنعة يراد لها أن تتحول إلى ظلام ليعيش فيه ويتسلل إلى أغراضه وفرائسه وأوحاله تحت أقنعته الساترة دون أن يراه أحد، إنه يريد أن يصطاد بها الضعفاء والنائمين والغافلين والشيوخ والأطفال والنساء دون أن يروا أنيابه وأظفاره ومخالبه، حتى ملابسه وزيناته ليست إلا بحثاً عن الظلمة!

إن كلمة «متسلل في الظلام» لا تصدق في أقوى وأشمل معانيها إلا على الإنسان صانع النور والأديان والأخلاق والقيم والصدق، والمعاقب على الكذب والخداع والتزوير، والمضيء معابده ومدنه وبيوته بأسطع الأنوار. إن الكبار جداً حينما يجتمعون تحت أبهر الأضواء في أضخم المؤتمرات ليتحدثوا في النور عن النور، ليسوا إلا متسللين في الظلام ومتآمرين تحت أكثف الأقنعة ضد كل نور، في عمليات قنص وكيد وافتراس خادع، وأسلحتهم في ذلك هي اللغة والمذاهب والشعارات والبلاغة والمبالغات والتوتر، بل والأنوار فالأنوار ليست في معناها إلا مقاومة للأنوار، أي أنها أعمال تغطية وإخفاء!

أما اتهامكم لنا بأننا نقتات بالضعفاء والعاجزين عن حماية أنفسهم فهو اتهام لا يجعلنا فقط نغضب بل يجعلنا نتعجب: كيف تخطئون أنتم أيها البشر في رؤيتكم لأنفسكم وفي رؤيتكم للآخرين على كل هذا المستوى من البعد والعمق؟ كيف ترون بقوة رؤية وقوة حساسية وقوة أخلاقية الذنوب الصغيرة التي تمارسها البراغيث أو التي تظنون أنها تمارسها، ثم تعجزون عجزاً يتحول إلى رثاء لكم عن رؤية الذنوب الكبيرة التي تمارسونها أنتم والتي تفقأ عين الشمس بجهامتها وبذاءتها؟ كيف ترون البراغيث وهي كاسية وتعجزون عن رؤية أنفسكم وأنتم عراة؟ وكيف تؤاخذون الحشرات على التقبيل والمغازلة والتمني وتغفرون لأنفسكم الممارسة الكاملة بكل تعبيراتها ورغباتها وافتضاحها؟

إن أبصاركم أيها البشر قد ركبت تركيباً خاطئاً، لقد ركبت لترى الآخرين، لتراهم مخطئين حتى حينما يكونون مصيبين، ولتعجز عن رؤية ذاتها، أو لتراها مصيبة وجميلة دائماً حتى حينما تكون مخطئة ودميمة إلى أعمق مستويات الدمامة والخطأ. إن عيونكم أيها البشر ضعيفة جداً، بل ليست لكم عيون، وإنما لكم أهواء ورغبات تجوع فتريد فتبحث فتفترس. إنكم لا ترون الأشياء كما هي في أحجامها وصورها وقبحها وجمالها، ولكنكم تريدون الأشياء أو لا تريدونها، والأشياء تتلون بإرادتكم لها وبرفضكم لها، ولا تتلون أمامكم كما هي بألوانها. إن حواسكم ليست أجهزة أمينة وإنما هي دائماً عميلة لأهوائكم وضعفكم ـ ليست حواسكم أجهزة توصيل بل أدوات تضليل.

إن المبصر فيكم لا يرى الشمس التي لا تلائمه أكثر أو أفضل مما يرى الأعمى الليل الذي يلائمه، وإن الأعمى ليرى الليل الذي يريده أكثر وأفضل مما يرى المبصر الشمس التي لا يريدها!

كل الناس مصابون بالعمى أمام خطاياهم وعيوبهم، وبقوة النظر وبعده أمام خطايا الآخرين وعيوبهم، أي إذا كان هواهم ضدهم، وكلهم مصابون بالعمى أيضاً أمام مزايا هؤلاء الآخرين وتفوقهم.

أنتم أيها البشر عاجزون أن تعدلوا في حكمكم على أنفسكم أو في حكمكم على الآخرين، وهذا العجز قد صنع منكم قضاة ومعلمين وناقدين وكتّاباً يمارسون ممارسة مكشوفة كل الفضائح والتفاهات والتناقضات التي يمارسون الوعظ والتعليم ضدها وهجاء الآخرين الذين قد يفعلون شيئاً منها.

إن أحدكم ليجرؤ على أن يقف عارياً كل العري في ميدان عام ليخطب ويلعن أولئك الآخرين المفضوحين العارين بعض العري، إن القاتل منكم لينصح ويعيب الضارب، وإن الضارب منكم لينصح ويعيب الشاتم، وإن الشاتم منكم لينصح ويعيب الغاضب بصمت، وإن الطاغية الأكبر الذي يسرق ويقتل كل ما في المجتمع من حريات وكرامة ورخاء ليصعد أعلى المنابر ليلعن ويتهم بضجيج وحماس أكثر المجتمعات حرية وكرامة ورخاء، لأنها في زعمه ـ عدوة للحريات والكرامة والرخاء. إن أكثر الناس تشنيعاً على أعداء الحرية وعلى الظلم والفساد والطغيان هم أكثر الناس ظلماً وفساداً وسرقة وسحقاً للحريات!

ماذا لو أن الناس استطاعوا أن يروا أنفسهم كما يرون الآخرين، وأن يعدلوا في أحكامهم على ما يفعلون هم وعلى ما يفعل الآخرون والمخالفون والخصوم، أو لو أنهم لا يعيبون شيئاً يفعلونه، أو لا يعيبون غيرهم على ما يفعلون هم مثله، أو لو أنهم لا يمدحون شيئاً لا يفعلونه؟ ماذا لو أن العاري كل العري لا ينكر على العاري بعض العري، أو لو أن الفاسق بكل أعضائه لا ينكر على الفاسق ببعض أعضائه، أو لو أن الفاسق بالممارسة لا ينكر على الفاسق بالنظر والتمني؟ أو ماذا لو أن المتسخة كل ملابسهم كل الاتساخ لا يعيبون على المتسخة بعض ملابسهم بعض الاتساخ، أو لو أن السارق لكل ما في المجتمع لا يلعن السارق لبعض ما في المجتمع، أو لو أن الرؤساء الثوار السارقين لكل الحرية والكرامة والرخاء لا يشنعون على الملوك السارقين لبعض الحرية والكرامة والرخاء؟

إن الزعيم، وكذا الداعية، هو إنسان ينهى الآخرين عما فيه أو عما يتمنى أن يكون فيه، ويدعوهم إلى ما ليس فيه أو إلى ما لا يريد أن يكون فيه!

إنكم أيها البشر لتحيروننا نحن البراغيث ـ هل أنتم تسعدون وتصلحون بالحماقات والأكاذيب والتناقض، أم بالصدق والوقار والتكامل والشرف ـ هل أنتم تفعلون الأفضل والأنفع؛ أم تفعلون الأقتل والأردأ، أم تفعلون فقط؟

تتهموننا بأننا نقتات بالضعفاء والعاجزين والنائمين من البشر أيها المقتاتون بالحشرات

والحيوانات الوديعة الطيبة وبالطيور الضعيفة المستسلمة وبحشائش الأرض وبالتراب وبكل ما في التراب من عفونات، أيها المقتاتون بضعفائهم، بكرامة ضعفائهم وحرياتهم ورخائهم بل وبدمائهم ـ تعيبوننا بأننا نتغذى بالبشر يا من يتغذى توتر ثوارهم وكبرياء صغارهم ومجد وضعائهم بدماء الضعفاء وبرخاء المجتمعات العاجزة عن المقاومة وبحرياتها وسلامها في جنون مغامراتهم وحروبهم ومخاصماتهم وعرضهم الدائم لأنفسهم بكل الأساليب ـ هذا العرض الذي لا أبهظ من تكاليفه ولا أغبى من تعبيراته ولا أصغر من طفولته!

إننا نحن الحشرات نهاجم ونتحدى دائماً بشجاعة وكبرياء من يبدون أقوى وأكبر منا جداً، إننا نبدو كأروع الفرسان الأسطوريين الذين لا يبارزون إلا من هم أقوى منهم جداً، ويسجدون حباً وتديناً تحت أقدام من هم أضعف منهم، إننا نبدو كهؤلاء الفرسان الذين تتحدثون عنهم بإعجاب وتتمنون في أشعاركم أن تكونوهم دون أن تكونوهم، أو تستطيعوا أن تكونوهم. أما أنتم فلا تفعلون أبداً إلا نقيض الفروسية، نقيض ما نفعل نحن. إنكم تسحقون وتدعون إلى المبارزة، وتحقرون بلا شرف أو شهامة أو رحمة كل من تحسبونهم أضعف منكم، وتصنعون من تحدياتكم الدائمة للضعفاء مجداً لكم باذخاً، فإذا واجهتم الوقحاء الأقوياء الذين ينظرون إليكم شزراً وغضباً تغيرت ملامح أخلاقكم ولغاتكم، وتواضعت توتراتكم المهددة المحاربة، وأصابكم التواضع والتدين وحب الإنسانية والتسامح، وأصبحتم مؤمنين يصلون للسلام والمحبة والصداقة بين كل البشر، ويلعنون الحروب والعنف والبغضاء!

إنكم أحياناً كثيرة تسبون الأقوياء من بعيد لتجعلوا من سبكم لهم وتحدياتكم إياهم بطولة خطابية، والبطولات الخطابية هي أحد فنونكم الرفيعة، أحد فنون الضعفاء التافهين العارضين لأنفسهم ببذاءة وطموح مصاب بالشبق.

وأنتم تسبون الأقوياء وتتحدونهم بهذا الأسلوب الاستعراضي حينما تقدّرون أن سبكم لهم لن يتحول إلى اشتباك مسلح بهم، وحينما يكون هناك أقوياء آخرون يحمونكم منهم. وقد تجعلون من سبابكم وتحدياتكم البلاغية لبعض الأقوياء رشوة وصلاة منافقة تضعونها تحت أقدام أقوياء آخرين يرضون منكم ذلك، ويدفعونكم إليه، وتأخذون الثمن شيئاً ما. وهذه بطولة من بطولاتكم البذيئة، يمارسها ويفاخر بها زعماؤكم الكبار جداً.

إنه لشيء مذهل في تصورنا نحن البراغيث أن يتقبل البشر من أنفسهم ومن الآخرين هذا الافتضاح الأخلاقي والنفسي. وإنهم لا يتقبلون الافتضاح فقط، بل يرحبون ويفاخرون به ويطالبون بالمزيد منه، لكأنما قد ألفوا طويلاً ممارسة العار حتى فقدوا كل الأحاسيس والاحتجاجات المضادة له، بل حتى أصبحت ممارسته مجداً يخطب له فوق المنابر ويصلى له في المحاريب!

*

إن من أقسى ما يغيظني في البشر رضاهم العجيب عن أنفسهم ووجودهم وعن أسباب وجودهم، وعن الكون الذي يواجههم بقسوة وبلادة وتجويع وتهديد لهم دائم وبصفاقة وجه وبذاءة أخلاق.

إن البشر جميعاً يؤمنون بأن لهم رسالة في هذا الوجود، بل يؤمنون بأنهم هم، بأن مجرد وجودهم، ليتلاعنوا ويتخاصموا مع الطبيعة والحشرات والكوارث، وليتخاصم ويتلاعن ويتحارب بعضهم مع بعض، يؤمنون بأن مجرد وجودهم هكذا رسالة لا مثيل لها في الضخامة والنبل.

إذا كانوا متدينين فإنهم يؤمنون بأن لهم رسالة دينية أو بأنهم هم رسالة دينية، وإذا لم يكونوا متدينين فإنهم يؤمنون بأنهم رسالة كونية أو بأن لهم رسالة كونية، لهم رسالة في الكون، وهم رسالة من الكون وإلى الكون، ولهم رسالة في الحياة وهم كذلك رسالة من الحياة ورسالة إلى الحياة. ونحن البراغيث لا نصاب بمثل هذا الغرور والغباء، إننا نفخر عليكم بذلك، وإن كان الفخر ضد الأخلاقية كالمجد. إن المجد لا يكون في الغالب إلا على حساب الآخرين كالانتصار والافتخار، ولهذا فإن الفخر والانتصار والمجد خروج على الأخلاقية أو بذاءة أخلاقية. وإننا لهذا لنشعر بالذنب حينما نفخر عليكم بأننا لا نصاب بهذا الغباء والغرور اللذين تصابون بهما، أو حينما نفخر عليكم بأي شيء آخر، ما أقسى وأبذأ من يفاخرون.

إن القصة كلها هي أننا نولد ثم نتلوث وقتاً ما، وقتاً هو حالة صحو بين إغماءتين، ثم نموت - هذه هي كل القصة. فليس في ولادتنا ولا في تلوثنا بالحياة معكم في شقوق منازلكم وطيات فرشكم وسرركم وكراسيكم وأعضائكم الداخلية، ولا في موتنا، أية معجزة أو رسالة من أي نوع أو مستوى، ولا من أية جهة.

وأنتم أيها البشر أليست كل قصتكم أنكم أيضاً تولدون جائعين مكرهين وغير مفسرين أو معقولين، ثم تحيون متلوثين، تحزنون وتبكون وتخافون وتنتظرون الخطر المحتوم، أو ترقصون ببلادة وطفولة، ثم تموتون بذعر وهوان ودموع دون أي عزاء؟ فأية رسالة في هذه القصة التي لم يؤلفها فنان ولا صاحب قلب كبير أو رحيم - بل في هذه القصة التي يرفض أي مؤلف مبتدىء أن تنسب إليه، أو أي فظ خارج على القوانين والأخلاق أن تتهم بها - أي بهذه القصة الفظيعة - أخلاقه؟

إن جميع اهتمامات زعمائكم الكبار أن يحولوا آلام طموحهم وكبريائهم وفقرهم من المجد التاريخي إلى أعمال استعراضية، وإلى مخاصمات وعداوات وملاعنات دولية، وإلى توتر وبغضاء، وإلى حروب أحياناً، وهذا أعلى مستويات الجنون فيهم - وإن جميع اهتمامات مثقفيكم وفنانيكم وأذكيائكم أن يحولوا موهبتهم إلى نفاق وخوف وتزكية للمذهب أو الحزب

أو النظام أو للطاغية الذي يعيشون تحت سطوته - وإن جميع اهتمامات جماهيركم أن تحول مشاكلها وهمومها إلى عبقرية ديدانية، لكي تستطيع العيش في التراب مع الديدان والحشرات على مستوى الديدان والحشرات. فأية رسالة كونية أو سماوية في هؤلاء أو من هؤلاء أو إلى هؤلاء؟

إن الإنسان لا يساوي أكثر من الإنسان، كما أن البرغوث لا يساوي أكثر من البرغوث، فكل ما للإنسان من رسالة أو نضال لا يعني أكثر من أن يحاول علاج بعض همومه أو آلامه أو مشاكله، أو أن ينقذ نفسه من أخطاء نفسه ومن غبائها وتفاهاتها، أي أن يعالج نفسه من نفسه. إن جميع ما يفعله البشر بل وكل الأحياء ليس إلا تعالجاً من الحياة أو تعالجاً من النفس. والشيء الذي لا يساوي إلا نفسه لا يساوي شيئاً - لا يساوي رسالة ما ولا أي شيء خارجي.

إن الثوب والكرسي والبيت يساوي أكثر من نفسه - إنه يساوي الإنسان لأنه رسالة إنسانية أي غرض إنساني، فهو أي الكرسي أو الثوب أو البيت قيمة خارجية أو غيرية، أي قيمة إنسانية، وهو بهذا يعني ما لا يعني الإنسان أي أكثر مما يعني الإنسان. الإنسان هو نفسه فقط، أما الكرسي فهو الكرسي والإنسان معاً، إن الكرسي رسالة، أما الإنسان فليس رسالة!

هذا الإنسان الذي لا يرتفع عن أية بعوضة في خضوعه لاحتياجاته العضوية وجوعه الجنسي - وإن كان دونها في عفوناته النفسية والعاطفية - يزعم لنفسه وعن نفسه أن الشموس والمجرات وكل الأكوان ليست إلا قصائد امتداح ومغازلة له، ويحول زعمه هذا إلى نبوات لتحكي له ذلك عن أربابه. إن الكون كله ليس إلا قصة مغازلة بذيئة يراود بها الإله المحتجب هذا الإنسان المتعري في الظلام!

إنه لا توجد قصة ملق أعجب من خلق الإله العظيم للكون متملقاً به الإنسان لكي يفرح ويرضى ويقبل أن يكون عبداً طيباً لمن غازله بكل هذه الهدايا العظيمة!

*

أدرك أن رسالتي هذه إليك قد طالت مع أني لم أقصد أو أظن أن تطول حينما بدأت الكتابة، كما أدرك الآن أني لم أقل إلا شيئاً قليلاً جداً مما أرى وأريد وأستطيع قوله. لقد امتدت أمامي آفاق القول والنقد والمناقشات بعد أن وضعتك بكل عاهاتك وذنوبك أمامي.

لا أدري هل استطبت نقدك لحاجات في نفسي أو ظروفي، كما تفعلون أنتم أيها البشر حينما ينقد بعضكم بعضاً، زاعماً كل ناقد منكم أنه لا يريد إلا تقويم المنقود وإصلاح العالم، وأن الحب وحده هو الحافز له على النقد، وليس الحقد أو الغيرة أو المنافسة أو الغضب أو القلق أو إرادة عرض الذات أو التزام الحرفة أو النفاق أو الارتباط بمذهب أو نظام أو بلد أو دين أو حاكم!

والحشرات التي نحن إحدى سلالاتها لا تملك العواطف الرديئة العدوانية التي تملكونها أنتم أيها البشر ـ إن دماءنا باردة، ليس فيها خيال لجحيم ولا شبح لإبليس، نحن كائنات طبيعية نحيا حياتنا فقط، ولا نتعذب أو نعذب غيرنا بالمشاعر الأليمة الحاقدة الغاضبة لنحولها كما تفعلون أنتم بمشاعركم إلى مذاهب وآلهة ونظم وشعارات وعداوات، نفسد بها حياتنا وأخلاقنا وحياة جيراننا. ولكن يحتمل أن يكون طول تغذينا بدمائكم قد نقل إلينا شيئاً من أخلاقكم وأصابنا بالعدوى، وجعلنا نحقد ونعادي ونتوتر كما تفعلون أنتم، ثم نحول هذه الأحقاد والتوترات والعداوات إلى نقد وعدوان وتوقح على الآخرين باسم النقد والإصلاح والاحتجاج على الأخطاء والغباوات التي تنكرها مذاهبنا وعقائدنا وأخلاقنا كما نزعم في أحاديثنا الاستعراضية، والتي تنكرها أهواؤنا ومصالحنا وارتباطاتنا كما هي الحقيقة في صميم حوافزنا. وإننا لذلك لنشعر أن من الخير لنا تغيير حياتنا، أي أن نبحث لنا عن غذاء آخر لكي نتجنب التغذي بدماء البشر لأن التغذي بها ينقل إلينا أو نظن أنه ينقل إلينا حماقاتهم وأحقادهم وتوتراتهم وأكاذيبهم المذهبية والدينية!

ونستطيع هنا الارتفاع عن الكذب لنقول:

إن من مصلحة حياتنا تغيير غذائنا، ولا نقول إن ذلك مما تفرضه علينا أخلاقنا أو شهامتنا أو مبادئنا التي لا نستطيع الخروج عليها أو المخالفة لها، كما يقول البشر كاذبين في مثل هذه المواقف والظروف. ولعلنا نستطيع أن نجد هذا الغذاء البديل وألا تكون صفات البشر قد تمكنت منا إلى المدى الذي يجعلنا لا نحترم شرفنا وكرامتنا مهما تحدثنا عنهما، ولا نبالي بأن تتلوث دماؤنا بالدماء التي تنقل إلى أخلاقنا الضعف والكذب والأحقاد والأنانيات التي تتحول إلى مذاهب وثورات ونقد، أو يتلوث خبزنا بكل ما عانى الخبز من مرارة وهوان في كل التاريخ في كل العالم، إنه لم يتعذب شيء في أي عصر أو مكان بالخسة والإذلال مثلما تعذب الخبز، لقد ظل الخبز أشقى الأطعمة وأكثرها هواناً وجبناً، لأنه كان طعام الإنسان، والإنسان هو أشقى الكائنات حظاً في حساب الكرامة وحساب الأخلاقية الفكرية!

ولأني أدرك أن رسالتي إليك قد طالت جداً مع أن مكان القول ورغبتي فيه قد اتسعا كثيراً، فإني أريد أن أصل إلى نهاية في هذه الرسالة لتكون لي إليك رسائل أخرى متتابعة في أوقات قريبة.

أولاً لأني قد شعرت بالتعب والغثيان من هول العرض الأخلاقي الذي تلاحق أمامي، ناقلاً عنك بأمانة جميع المشاهد السلوكية والنفسية والفكرية المثيرة التي تعيش فيك وتعيش أنت فيها تحت جميع الظروف والعصور.

وثانياً لأني قد شعرت بأني قد قسوت عليك كما يقسو الإنسان على الإنسان، كما يقسو

صاحب الدين أو صاحب المذهب على أصحاب الأديان والمذاهب الأخرى بحجة الغيرة على مذهبه ودينه والاحترام لهما. نعم أني أشعر أني قد قسوت عليك قسوة لا تطيقها أخلاقنا نحن البراغيث. إن ضميري ليرهقني بالإنكار والاحتجاج: يقول لي كيف تقسو كل هذه القسوة، هل أصبحت إنساناً يتغذى بالتعذيب والعذاب، ويتعالج من آلامه ونقائصه وهمومه بإيقاع الآلام على الآخرين؟ هل أصبحت إنساناً يجد في القسوة وتعذيب الآخرين عزاء دينياً ومذهبياً ومجداً ثورياً وفنوناً من النقد والأخلاق؟ أو هل انتقلت إليك فظاظة البشر لطول تغذيك بدمائهم؟

إن القسوة عليك في تقديري أنا البرغوث ليست ظلماً فقط بل وخطأ عقلي، فأنت مهما كان سلوكك وعواطفك خاضع لضرورات ذاتك وظروفك، والخاضع لضرورات محتومة طبيعية كيف يمكن أن يعد عاصياً؟ نعم إنه يمكن أو يجب وصفه أو رؤيته كما هو بكل بشاعاته ونقائصه كما يجب تصويره بالكلمات مهما كانت بشاعة الصور، ولكن هل يكون من العدل أو الحق تحقيره أو عقابه؟ إن سلوك الإنسان ومشاعره أسلوبان من أساليب الطبيعة على مستوى إنساني. فالطبيعة استجابة للظروف وللذات، وهكذا الإنسان في عواطفه وتصرفاته.

إذا آلمت الطبيعة، بأن تحولت إلى بركان أو زلزال أو قحط أو مرض أو إلى وحش مفترس أو إلى حشرة تنقل الأمراض والغثيان والقذارات فإنها توصف بما تفعل وبما فيها كما تقاوم وتقهر لقمع أذاها. ولكن هل تلام أو تلعن أو تتهم بالخبث وإرادة الشر؟ إن الذين تؤذيهم الحشرات والوحوش محكوم عليهم بأن يقاوموها بالقتل أو بغيره دفاعاً عن حياتهم، ولكن هل لهم أن يروها مخطئة أو ملومة أو شريرة بما تفعل؟ إنها تستحق المقاومة كما تستحق أيضاً التبرئة من الإثم وفعل الخطأ، إنها تقتل أو تصلح مع العطف عليها والاعتذار عنها، إنها وقاتلها كلاهما يؤدي وظيفة الحياة ويخضع لإلزامها، وليس أحدهما أفضل أو أنظف نية أو سلوكاً من الآخر، إن القاتل والمقتول كلاهما لا يستحق النار لأن كليهما إنما يطيع الطبيعة في ذاته وظروفه. وليس النبي الذي يطيعه هذا غير النبي الذي يطيعه ذاك، ليس في الطبيعة نبي وشيطان ولا طاعة ومعصية، ولا مطيعون وعصاة.

وكذلك أنت أيها الإنسان لا بد أن تنقد وتوصف بكل ما لك من سلوك وانفعالات، وأن تصور كما أنت عارياً وكاسياً، وأن توضع جميع دماماتك وتشوهاتك تحت أقوى الأضواء، كما يجب أن تقاوم وتمنع بالقهر من فعل الآلام والبشاعات والمظالم والأخطاء، أو أن تقوّم وتدفع إلى الطريق الآخر. ولكن مع هذا يجب الرثاء لك والاعتذار عنك، ولا يجوز الحقد عليك، وبغضك أو الشماتة بك، فأنت لست شريراً أو خبيثاً أو عدواً حينما تفعل الشر والخبث والعداوة، إنك خاضع لضروراتك، مطيع لحياتك. إنك كالليل والنهار، ليس أحدهما أصلح أو

أفسق من الآخر، ليس أحدهما مؤمناً والآخر زنديقاً!

من هو الشرير أو الظالم في هذا العالم؟ كل من فيه يفعل ذاته وظروفه، الحيوانات والحشرات والحوادث والآلام والبشر، كل هؤلاء يفعلون طبيعتهم وحياتهم، فأيهم الشرير الظالم، أو أيهم التقي البار؟ هل الذباب شرير وظالم أكثر من النحلة، هل النحلة أفضل نية وقلباً من الذباب، وهل الله يحترم النحلة أكثر مما يحترم الذباب؟ هل الذئب أو الكلب المسعور ظالم وشرير أكثر من الدجاجة والأرنب والحمل؟ وهل الإنسان الذي يحقد أو يحسد أو يبغض أو يشتهي شرير وظالم أكثر من الذي لا يفعل ذلك، وهل النهر الذي يفيض ويغرق ويدمر شرير وظالم أكثر من النهر المتوقر العاقل الرزين الذي يحيي ويسقي ويتأدب فقط؟ إذن من هو الشرير والظالم في هذا العالم؟

إني حينما أرى المنحرف فيكم أيها البشر أتألم له أكثر مما أتألم للمستقيم، كما أتألم للمريض أكثر مما أتألم للصحيح، وكما أتألم للأعمى الذي يسقط في الوحل أو يسقط على رأسي أكثر مما أتألم للمبصر الذي يرى الطريق والأشياء فيتقي السقوط والأخطاء.

إن الاستقامة محاباة وليست فضيلة في المستقيم، كالذكاء والقوة والصحة، هي محاباة لمن يخصون بها وليست فضائل أخلاقية. وإني لو كنت قاضياً لحكمت بالإعدام أو بأية عقوبة أخرى على القاتل أعاقبه بها، ولكني مع ذلك سوف أبكي من أجله أكثر مما أبكي من أجل القتيل أو مثلما أبكي وأتعذب من أجل القتيل. إن الضعفاء والأغبياء والمرضى والمنحرفين يستحقون الحب والاحترام تعويضاً لهم عما فقدوا أكثر ممن ليسوا كذلك. ولكن البشر ليسوا أخلاقيين، لهذا يفعلون العكس!

إننا نحن البراغيث لم نكن نرى من يحاول قتلنا منكم شراً ممن لا يحاول، لقد كنا نعذر قاتلينا دون أن نكرههم لأننا كنا نعرف لماذا يريدون أن يقتلونا ونحترم حوافزهم ونعذرهم في استجابتهم لها. ولم نكن نجد أن من لا يحاولون قتلنا أو مقاومتنا أفضل أو أنبل حافزاً.

*

وهنا وأنا أوشك أن أنهي رسالتي أطمع في أن تأذن لي يا صديقي بهذه المحاولة الأخيرة في هذه الرسالة.

هل حرية البشر أكثر من حرية البراغيث؟ إن البشر يتحدثون عن الحرية دون البراغيث، ولكن هل يعيشون الحرية أكثر مما تعيشها البراغيث؟

ومها طالت أحاديثكم أيها البشر عن الحرية ومهما كتبتم فيها من الكتب ووضعتم لها من الشعارات والأناشيد وأسمعتموها من قصائد المديح فإنكم لم تصلوا إلى تعريف لها، إنكم ترون

الشيء ونقيضه حرية، وسوف تظلون أبداً كذلك. فالتفكير ولعن التفكير، والكلام والمعاقبة على الكلام، والإيمان والجحود، والحرب والسلام، والقتل والحب، والخوف والأمن، ومصادرة الأموال وتركها في أيدي كاسبيها أو مغتصبيها، وحكم الواحد وحكم الجماعة، والمذهب والمذهب المناقض له ـ كل ذلك تدعونه حرية حيناً وتدعونه خروجاً على الحرية في حين آخر، أو في مكانين أو مجتمعين مختلفين. فأنتم لا تعرفون ما هي الحرية، ولكنكم تتحدثون عنها بحماس وروحانية وكأنكم لا تعرفون شيئاً أكثر مما تعرفونها. وهذا أحد عيوبكم الشهيرة الكبيرة.

ومع أننا نحن البراغيث لا نجرؤ على أن ندعي بأننا نعرف الحرية أو نستطيع أن نعطي عنها تعريفاً، لأننا نحن البراغيث نستطيع أن نعترف بالعجز وأن نمتنع عن الذهاب مع بعيد الأوهام والمزاعم كما تفعلون أنتم ـ إلا أننا نستطيع أن نزعم أن كل سلوك البشر ليس إلا تعبيرات مختلفة عن الهرب من الحرية. فكل العقائد والمذاهب والتقاليد والآلهة والنظم والحكومات الطغاة وكل التنظيمات والتكتلات والمخاوف، بل حتى الأفكار والملابس واللغات والصداقات وكل الارتباطات الاجتماعية ـ كل ذلك أساليب مختلفة تعني شيئاً واحداً هو الهرب من الحرية والرغبة في هذا الهرب والبحث عن أسبابه ومسوغاته!

والبشر لا يخترعون أو يأخذون أو يلتزمون من هذه الالتزامات بقدر احتياجات حياتهم ولا بقدر ما تفرض عليهم الضرورات، بل إن جميع عقائدهم ومذاهبهم وأربابهم ونظمهم وتقاليدهم وارتباطاتهم وتنظيماتهم وأحلافهم وأحزابهم ومخاوفهم هي دائماً أكثر من احتياجاتهم وضروراتهم، بل وضدها في أحيان كثيرة. إذن هم إنما يفعلون ذلك هرباً من الحرية.

إن البشر دائماً هاربون من الحرية ولا يستطيعون إلا الهرب منها حتى حينما يبحثون عنها وينادون بها ويقاتلون دونها. إن الحرية بكل أبعادها مواجهة لما لا تستطاع مواجهته، مواجهة لكل الأخطار والآلام والمخاوف والاحتمالات المضادة، مواجهة للكون بكل قسوته ووقاحته وغبائه. الحرية ضياع وانهيار وسقوط بلا مكان، لهذا لم يكن من المستطاع أن يبقى الإنسان حراً تحت أي ظرف من الظروف ـ لم يكن من المستطاع أن يبقى حراً في أفكاره وعقائده وخياله وأمانيه أو في وجوده وحياته ـ إن ذلك هو الفراغ الرهيب الذي يقتل بالخوف والوحشة والظلام.

إن الطاغية الذي يسرق من المجتمع كل حرياته وكأنه يريد أن يأخذها كلها لنفسه ليس إلا إنساناً هارباً من الحرية وباحثاً عن أقوى القيود ليضع فيها نفسه وحياته وهمومه المتوحشة وإن المواطن العادي الطيب الذي يجود بحياته تحت راية زعيمه، منشداً شعارات البحث عن الحرية والحب لها والدفاع عنها، ليس إلا إنساناً هارباً من الحرية باحثاً عن القيود والهوان، بل إن الكاتب والمفكر الذي يحمل أعظم الحملات ويصنع أقوى الأفكار نضالاً ضد العبودية

والمستعبدين وتشييداً للحريات، ليس باحثاً عن الحرية ولا تصديقاً لها أو ممارساً لها أكثر من الآخرين، ولكنه إنسان هارب من شيء أو من حرية ما، أو هارب من نفسه أو من ظروفه، أو عارض لنفسه أو مبارز ومتحد ومحارب ـ إنه لا يريد لنفسه أو للآخرين أو للمجتمع ما يدعو إليه، وإنه ليعادي الحرية التي تقتله أو تعاقبه أو تحرمه كما يعاديها الطغاة.

أما نحن البراغيث فلا نحارب حريتنا ولا نضع عليها أي قيد من هذه القيود الإنسانية الكريمة التي تضعونها أنتم على حرياتكم بمباهاة ونشوة باسم الشوق إلى الحريات والدفاع عنها، كما لا نتحدث عنها أي عن الحرية، وإنما نعيش حياتنا أي حريتنا بقدر ما نستطيع بلا مذاهب أو تقاليد أو طغاة أو مخاوف غيبية أو تنظيمات عنيفة.

إن الخوف من الموت والمرض والفقر والسقوط والعار والأزمات والمشاكل الأخرى الكثيرة، ومن الآلهة والافتضاح والضمير ـ إن الخوف من كل ذلك هو أقسى القيود على حريات الإنسان وأقوى أجهزة التعذيب له. فأي الفريقين: البشر أم البراغيث أكثر حرية؟

*

لعلك تقول هنا: عجباً، لقد أصبح البرغوث ناقداً مفكراً معلماً للإنسان! ولكن لا تسخر ولا تتعجب أيها الصديق الإنسان.

إن الناقد المفكر المعلم ليس شيئاً خارقاً أو كبيراً، إنه هو كل كائن يتألم ويرى الألم ويحتج عليه ويعدده. فإذا تألمت وأنت لا ترى الألم ولا تحتج عليه ولا تحصيه فلن تكون ناقداً مفكراً معلماً، ولكنك بدون أن تكون متألماً لن ترى الألم ولن تحتج عليه أو تحصيه. إذن أنا ناقد مفكر معلم لأني متألم يرى الآلام والدمامات والأخطاء ويحتج عليها ويعددها، لا لأني عبقري أو معجزة أو نبي مرسل من السماء. وقد أصبحت كذلك لأني عاشرتك وتغذيت بدمائك طويلاً فانتقلت إليّ العدوى. ولهذا فكم أتعجب لأنكم أيها البشر لم تصبحوا جميعاً نقاداً ومفكرين ومعلمين ومحتجين، إن كل وجودكم ووجود ما حولكم وما تعلمون وترون يصنع الاحتجاج والنقد والتفكير، لأنه يصنع الغضب.

ومع هذا فقد يكون النقد أحياناً ظروفاً وحرفة وغضباً، وليس ألماً ولا رؤية للألم أو احتجاجاً عليه أو غضباً منه.

لك مع هذا يا صديقي كل الشكر والاعتذار الصادق المكرر.

«محبك وضيفك سابقاً ـ برغوث»

بين فساد له نسب وفساد يبحث عن النسب بضراوة

يرفض الإله الكبير أن يكون له شركاء، كما يرفض الطاغية واللص الكبير أن يكون معه طغاة ولصوص آخرون ينافسونه على التفرد، لهذا يقاوم الثوار الطغاة أحياناً الفاسدين واللصوص الصغار والمتكبرين على المجتمع بحزم ودعاية. وليس الدافع لهم حينئذٍ أخلاقياً أو وطنياً، بل كالدافع لهم حينما يقاومون المفكرين والمحتجين والمقاومين لطغيانهم والرافضين للنفاق وعبادة الأصنام البازغة المولودة على فراش غير شرعي - إنهم يقاومون فساداً له تاريخ لينصروا عليه فساداً ليس له تاريخ ليكون أكثر غباء وبذاءة وفتكاً - إنه قتال بين فساد ذي نسب وفساد بلا نسب ويبحث عن النسب بضراوة - إنهم في الحالتين - أي حينما يقاومون هؤلاء وهؤلاء - يريدون أن تكون القوة والسلطان لهم وحدهم. فالطاغية الذي يريد أن يتفرد بالقوة والحرية والفساد والامتلاك قد يرى في القضاء على السرقات والمفاسد والمظالم الصغيرة المعنى الذي يراه في القضاء على جميع حريات الآخرين ومنافساتهم. والفساد والظلم اللذان يسمح بممارستهما، أو اللذان لا بد أن يكونا، يجب أن يكون هو الذي يسمح بهما، كالإصلاح والتطوير اللذين يريدهما ويوافق عليهما، أو يعمل لهما تحت أضخم الاعلانات والدعاية الضاجة - هذا وهذا وكل شيء يجب أن يكون بإذنه بل كمنحة من عنده.

إن الطاغية السارق القاتل قد يعاقب القتلة واللصوص أكثر أو بأسلوب أعنف مما يفعل المجتمع الحر. وهذا أسلوب من أساليب نفي المشاركة له حتى في عمل السوء، إنه يجد أعظم البهجة في أن يكون وحده السارق القاتل، وهذا يساوي في مشاعره أن يكون وحده البطل العبقري!

إذن فحينما نجد الطغاة يقاومون المظالم والمفاسد التي يأتيها الأقوياء المتعددون المنافسون لكبريائهم وتفردهم لا ينبغي أن نفرح بذلك ولا أن نعده عملاً صالحاً أو عملاً من أعمال العدل

والنزاهة، فليست مقاومتهم هذه إلا تعبيراً عن أنانيتهم القائمة على مقاومة كل قوة وحرية غير قوتهم وحريتهم، إنها بحث عن الانفراد بالسلطان وعن الإذلال للجميع ليكونوا هم وحدهم السادة المتفوقين، وليست بغضاً للعدوان.

إن قطع يد السارق وقطع لسان المفكر الناقد لدمامة الطغيان لسواء في حساب الطاغية الذي يريد أن يسحق جميع احتمالات المنافسة له.

وتعريف الطاغية: إنه إنسان شره سارق جداً، يريد سرقة جميع الأشياء، ويريد أن تكون جميع الحريات وألوان القدرة له وحده، حتى السرقة والفساد يجب أن يكونا له وحده، ويجب أن يتصدق بهما تصدقاً على الآخرين حينما يرى أن يسمح بهما لبعض أعوانه أو لبعض الناس لغرض من الأغراض الكثيرة، أو لأن عهد الطاغية لا بد أن يكون من أكثر العهود ازدهاراً بالفساد والسرقة. فالطاغية إذا عاقب لصاً أو قاتلاً أو مرتشياً أو مستغلاً فهو إنما يعاقب ـ في قصده ـ حرية ذلك المنافس له، ولم يرد أن يعاقب معنى الجريمة أو الفساد فيه، وإلا لقتل نفسه لأنه هو أعلى مستويات الفساد والجريمة.

إن المصحف والسجن لا يعنيان في حساب الطاغية إلا معنى واحداً.

ولم يزل الطغاة في جميع العصور يتفننون في ابتكار الحيل التي يستطيعون أن يمتلكوا بها كل أسباب القوة والنفوذ في المجتمعات. لم يكن كافياً لطموحهم القاتل أن يملكوا كل سلطان الحكم المطلق بكل أساليبه وأجهزته وكبريائه، بل إنهم يريدون أن يسرقوا من جميع الطبقات والطوائف كل ما في يديها من تاريخ ومال ونسب ومجد وكبرياء وأحزاب وأرض، بل وذكاء وتفكير وكلام وأنين وشكوى، ليملكوا هم كل ذلك، لأنهم يريدون أن يملكوا كل شيء. لقد سلبوا مجتمعاتهم جميع ما تملك من أشياء وقيم تحت شعارات العدل والإنسانية وملكية الشعب لوسائل الإنتاج وإزالة الفروق والقضاء على الطبقية. وكان قصدهم أن يمتلكوا هم كل ذلك لا أن يهبوه المحرومين والمظلومين، إنهم يأخذون من الذين يملكون، ولكنهم لا يعطون الذين لا يملكون. لقد كانوا يريدون أن يحطموا كل الآلهة الصغيرة الضعيفة المتفرقة التي تمكن مناقشتها ونقدها وتخويفها والأخذ منها، ليجعلوا منها إلهاً واحداً كبيراً طاغياً ساحقاً لا تمكن مخاطبته، فكيف يمكن نقده أو تخويفه أو الأخذ منه ـ لقد كانوا يكررون ما حدث ذات يوم في التاريخ حينما قال الناقدون لما حدث: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾. وإنه لخير للبشر أن يعيشوا في مجتمع فيه عديد الآلهة الضعيفة التي يخاف بعضها من بعض وينافس بعضها بعضاً من أن يعيشوا في مجتمع يستبد به إله واحد لا حد لقدرته.

لقد كانت عملية تجميع وتضخيم باهظة التكاليف، كانت تجميعاً لكل البنوك في بنك

واحد، ولكل الأنانيات والأحقاد في حقد واحد وأنانية واحدة، ولكل الأيدي الضاربة في يد واحدة لا مثيل لها في قدرتها على الضرب والتدمير والإذلال. إنهم يريدون أن يحولوا كل شيء إلى هبة منهم حتى العمل والقدرة على العيش.

كانوا يلعنون الطبقات القديمة ويشنعون عليها لأنها كانت تملك بعض المجتمع: تملك بعض ناسه وأفكاره وقدرته وجاهه وإنتاجه وثرواته، وتتصرف في هذا الذي تملك بالشهوة والمصلحة والاستبداد والغرور، ولكنهم قد أصبحوا بعد انتصارهم يمتلكون بأقسى وأطغى أساليب الامتلاك كل المجتمع، كل ما فيه من ثروات وإنتاج وقدرة وأفكار وعلم ومجد وكرامة وحرية وتاريخ وبشر، ويتصرفون فيه أوقح أساليب التصرف لمصلحة أهوائهم وطموحهم وتوترهم وتوكيد قوتهم ـ بالمجتمع كله يتاجرون ويغامرون ويناورون ويحاربون ويرشون ويبيعون ويشترون ويهددون، بل ويشاتمون الآخرين ويفاخرونهم ويكاثرونهم بهذا المجتمع، بكل أشيائه وناسه، يحولون كل شيء إلى معاملة من معاملاتهم التي يبحثون بها عن المجد أو عن الجنون. يفعلون كل ذلك دون أن يوجد لسان واحد يجرؤ على أن ينكر أو يسأل، أو فكر واحد يصدم أو يتململ، بل هل هتاف كل الأجهزة لهم، مع هتاف كل مفكر وكاتب وأستاذ وعالم وأديب وفنان وراقص، وهتاف كل طبقة وطائفة، بل مع هتاف كل الآلهة والأنبياء لهم من فوق المآذن والمنابر والآيات والأحاديث التي تتلى وتفسر ثناء عليهم وتأييداً لما يفعلون، حتى لقد أصبح ذلك الفساد القديم الذي هزم تحت جبروت هذا الفساد الجديد نوعاً من المثالية المرحومة في تقدير بعض الناس ونوعاً من الترف في خيال هذا الفريق وأمانيهم أن ينتظروا عودة ذلك الإثم القديم ليكون كفارة بذيئة في تقديرهم عن هذا الذي يلقون ويشاهدون من هؤلاء الطغاة المحررين!

إن شر ما في هؤلاء الثوار أنهم يجعلون مجتمعهم خائناً يتمنى الشرور والهزائم لوطنه، ويتمنى أيضاً رجوع ما كان، بغضاً لهؤلاء الثوار القساة المخربين وفراراً من المهانات والأزمات التي تجيء معهم في مواكب من الأكاذيب والدعاوى.

ماذا نجد الآن حين ننظر؟ نجد الهوان والشقاء القديمين في أعلى مستوياتهما المعهودة، يسحقان الطبقات المسحوقة، ثم لا نرى الأشياء الأخرى التي كنا نراها على الجانب الآخر من الصورة، لا نرى الحرية ولا التسامح ولا فروسية الأخلاق والتقاليد، ولا توقر الأعصاب، ولا الرخاء أو الكرامة أو الشعور بالأمان، ولا الصداقة حتى ولا من اللسان. لقد بقي كل ما كان من دمامة وآلام ومظالم وبؤس مسوغاً بالشعارات والمذهبية المتوترة العدوانية، أما ما كان من جمال وقوة وابتسام وامتياز ذاتي أو تاريخي فقد التهمه الحوت الشره الخبيث، وحوله إلى بشاعات مذهبية، لقد التهمت الأجهزة المكتبية والمباحثية والدعائية والعسكرية التي يحتمي بها

هؤلاء الثوار كل شيء، لقد اغتصبوا امتيازات الفساد القديم بمشاعر جائعة غير مثقفة ولا مهذبة، إنهم لم يتعلموا الجلوس إلى الموائد الكبيرة بأدب الكبار.

وإنه لعزاء وبيل للأشقياء والمحرومين أن يفقد الذين كانوا يجدون ما يجدون دون أن يجد الذين كانوا لا يجدون شيئاً مما ينتظرون ويوعدون. وهل يصح أن يعد الحقد وحده عزاء مذهبياً مهما كان عزاء نفسياً؟ إن أعظم عزاء قدمه هؤلاء الثوار الطغاة المنقذون للطبقات التي يثورون تحت شعار الإنقاذ لها هو أن جعلوا غير المحرومين وغير المسحوقين محرومين مسحوقين! وكم في مثل هذه المساواة من عدالة أو سعادة لمن يبحثون عن العدالة والسعادة؟

إن أهداف جميع المذاهب الداعية إلى العدالة الاجتماعية أن تأخذ من الذين يعيشون في الأعالي لحساب الذين يعيشون في الأرض، أما الأخذ من الطرف الأعلى أو إسقاطه دون إعطاء الطرف الأدنى أو إنهاضه فما هو إلا سرقة أو انتقام أو تدمير بلا عزاء أو ثمن. إذن أين يذهب ما يأخذون؟ إنه يذهب ثمناً لثياب الزفاف وتكاليف الأعراس التي يعيشها طموح هؤلاء الثوار الطغاة ورغبتهم في التبرج الفاضح الذي تسدد حساباته من طعام الأطفال وشموع الأكواخ وخصوبة الأرض وكرم الأنهار وعبقرية الإنسان.

إن تكاليف عرس واحد كبير من أعراس الآلهة لتفوق ما يسرقه الألوف من اللصوص المدربين، ربما في حياتهم كلها. ويذهب ما يأخذون أيضاً ثمناً للتخريب والعجز الذي يصيب أي عمل يسيطر عليه هؤلاء الطغاة وأجهزتهم الجاهلة المغرورة.

كم أشك في قيمة الإنسان حينما أجد هذا الطغيان الجديد قد حول كل شيء إلى فقر وهوان وتفاهة ونفاق ووثنية ـ حوّل الأغنياء الأعزة إلى فقراء وأذلة، وحوّل الأذلة الفقراء إلى أقل من فقراء وأذلة، وحوّل المفكرين إلى غير مفكرين، إلى منافقين وتافهين، وحوّل الصحافة إلى عار، وحوّل رجال الدين إلى عبدة أصنام، بل حوّل الكتب المقدسة إلى شروح للوثنية وإلى هتافات للطغيان والأكاذيب، حتى كأن الأنبياء جميعاً لم يبعثوا إلا للتبشير بهؤلاء الثوار الطغاة، وللتحدث عن مزاياهم، وكأن الآلهة لم تخلق الكون وتمارس أعمالها إلا ترحيباً بهم وتحية لهم، وحتى كأن جميع المنابر لم ترفع إلا لإلقاء الخطب الضارعة تحت أقدامهم. لقد وضع رجال الدين كل الآلهة، ووضع المفكرون والأساتذة كل التفكير والمذاهب والنظريات، ووضع العلماء كل العلم والقوة، ووضع العمال والجنود كل العمل والدماء والعرق ـ وضع كل هؤلاء كل هذا تحت أحذية هؤلاء الطغاة ليحولوه إلى جنون وطعام لأهوائهم وطموحهم الفاسق القاتل السارق.

كل الناس في كل العصور كانوا يتحدثون بكل اللغات والأساليب بلهجة الكبرياء عن

الشرف والحرية والكرامة والذكاء. ولكن هؤلاء الثوار قد تحولوا إلى تشكيك في قيمة ما يملك البشر من هذه الفضائل التي يتحدثون عنها بمباهاة تصدم التواضع.

لقد كانت في التاريخ أشياء كثيرة تسحق الإنسان وتسلبه شجاعته وتجدع أنف كبريائه، أما في هذا العصر فإن أعظم ما يسحق الإنسان هو جبروت الحكم المتعاظم مع الأيام وأجهزته العديدة الرهيبة الغبية ـ هو هؤلاء الطغاة الثوار الذين يجيئون بلا مجد يبحثون عن المجد ولو بصلب النهار وفقء عيون الكواكب.

إن طغيان الحكم في هذا العصر يشبه طغيان الألوهية في العصر القديم، والفرق بينهما أن الألوهية ليست سوى طغيان عقيدة وتصور، وأن الحكم هو طغيان جيش وشرطة ومخابرات ومعتقلات وسجون وأدوات أخرى قاهرة، وفوق ذلك يجلس جنون حقيقي رهيب نراه ونتعذب به ونجده في كل طريق من طرقنا، وليس جنون فكرة أو تصور فقط كالألوهية.

إني حزين وخائف على شرف الإنسان لأن هؤلاء الثوار الباحثين عن النسب الجديد يتساقطون على طريقه بأعداد تكفي لإغلاق كل طريق إلى الشرف. إن كرامة الإنسان معروضة للخطر، للقتل الذريع الرخيص.

أيتها النجوم الهادية للإنسان في ظلمات جهله، القارئة له حظوظه في عصور أميته، المرافقة له في رحلته الغامضة الخائفة المتسائلة، تمنحينه نوعاً من الحراسة النفسية، منذ كان ينظر فيراك فوقه تومئين له بالمحبة والنور فيطرب ويغني، احزني عليه أيتها النجوم الطيبة، بل فاسقطي مشتعلة ناراً على هؤلاء الذين يبحثون له عن العدل والشرف والحرية بسرقة شرفه وحريته ورخائه!

احزني أيتها النجوم المتهمة بالبرود في مواقف الحماس، فلقد استطاع لصوص صغار مشكوك في شجاعتهم وذكائهم أن يسرقوا من البشر كل ما كان يزعمه لهم أنبياؤهم وشعراؤهم وخطباؤهم وتاريخهم المكتوب الطويل من كرامة وحرية وشجاعة، لقد أثبت هؤلاء اللصوص الصغار أن فضائل البشر الرافضة لم تكن إلا لغة يتحدثون بها ويحولونها إلى أشعار وأناشيد وخطب، فإذا جاء لص واحد من لصوص الحرية والكرامة ركعت هذه الأشعار والأناشيد والخطب تحت جبروت هذا اللص الواحد متبرئة من مزاعمها لنفسها، وانكبت على نعاله تمسحها بكرامتها وشرفها ودينها، وتحول كتبها المنزلة إلى تفاسير لمناقب هذه النعال.

انظري أيتها النجوم الحليمة التي لا تستطيع كل دمامات الأرض أن تغضبها.

إن أحد هؤلاء اللصوص استطاع أن يصعد دون عناء كبير على كرامة مجتمع ضخم، وراءه تاريخ، وفيه جامعات وأساتذة ومفكرون وشعراء وكتّاب وفنانون ورجال يتحدثون عن أن العظمة والقوة للسماء وحدها، وعن أن العبادة للإله وحده، وفوقه إله مطلق القدرة والكمال والعلم، يرى ويسمع بأدق وأقوى الحواس ويحاسب أقسى حساب، ويرفض المنافسة ويقتل

عليها، وأمامه حضارة هائلة تهزه وتتحدى ضعفه وخنوعه، انظري أيتها النجوم الناظرة بلا رؤية إن أحد هؤلاء اللصوص جاء إلى هذا المجتمع فسرق منه بلا معاناة كل شيء، سرق منه كل زعمائه لأن هذا اللص يريد جحد هؤلاء الزعماء لأنه يرفض المنافسة، وهو يغار أن يكون لأحد سواه مكان في التاريخ، وسرق منه جامعاته وأساتذته وشعراءه وكتّابه وفنانيه ومفكريه، لقد سقطوا جميعاً تحت عتبات عرشه يهتفون ويبكون ويضرعون ويزيفون كل الأشياء إرضاءً له ولجنونه، إنه إذا أهانهم أو حاكمهم أو سلبهم أو لعنهم عدواً ذلك تكريماً منه لهم، والتفاتاً متواضعاً إليهم، وحولوه إلى عبادة له وصلوات يرفعونها إلى قدميه بضراعة وارتجاف، وإذا سرق منهم آلهتهم تحول رجال الدين إلى مؤدبين ومروضين لهذه الآلهة، يعلمونها كيف تطيع وتتوافق مع شهوات وجنون هذا اللص، وتحولوا أيضاً أي رجال الدين إلى مفسرين لهذه الآلهة تفسيراً مشوهاً كئيباً لتكون على صورة هذا اللص القاتل المشوه وعلى مقاسات رذائله!

*

حدثينا صادقة أيتها النجوم، في أية منطقة من مناطق التاريخ كان الإنسان فيها حراً وشجاعاً وذا كرامة؟ أحينما كان الكون كله أرباباً متوحشة تقتات بكل احتمالات ذكائه وكبريائه؟ أحينما كان يخاف أن يرفع بصره إلى السماء هواناً وتعبداً ويعجز عن أن يفسر خسوف الشمس والقمر بأكثر من أن الله يهدد عباده الضعفاء، ويعرض قوته وتوتراته بأسلوب يحتاج إلى الأناقة والتواضع والذكاء؟ أم حين كان يذبح في المعابد ويوضع لحمه الرخيص فوق صحون الآلهة الجائعة الآكلة للحوم البشر؟

لقد كان الإنسان في كل مستويات التاريخ يقدم طعاماً لطموح الآلهة والحكام والزعماء الطغاة والمعلمين الجهلاء، كان يقدم طعاماً سهلاً في الحروب والمغامرات والاستعراضات وفي أعمال الحراسة، وفي المعابد، وفي تعلم الغباء والطقوس الذليلة، وفي فعل الشيء ونقيضه وفي الطاعة اليوم والمعصية غداً أو العكس، وفي اتباع هذا المذهب أو الطاغية واتباع المذهب أو الطاغية المخالف له، وفي الإيمان بالنبي والإيمان بالدجال، وفي الصلاة لله والصلاة للشيطان، وفي بناء المدن وهدمها وفتح الطرق وإغلاقها. لقد كان الإنسان في كل مستويات التاريخ يقدم كذباب طعاماً سهلاً في كل هذه التناقضات والاستعراضات، كان يعامل ويساق كشيء لا كإنسان.

وإنه لا يزال حتى اليوم يعامل ويساق كذلك حتى في هذا العصر راح يطلق في المغامرات الكونية، إلى القمر والأكوان الأخرى، يطلق كما تطلق الأشياء والحيوانات، يجرب عليه الطغاة قوتهم ويعرضون على حساب سعادته ألعابهم. ويعدونه ليخوض حرباً فضائية، ضد القمر، ومن القمر ضد عبيد خصومهم ومنافسيهم.

فمتى إذن أيتها النجوم الخالدة كان الإنسان حراً أو شجاعاً أو ذا كرامة؟ لقد كانت المذاهب والنظم والناس والعقائد دائماً هي الألعاب العنيفة وأحياناً الكئيبة التي يلعبها الصغار الذين لا يكبرون، يلعبها القادة والحكام والمعلمون والكتّاب، يلعبونها أحياناً على مستوى الحرب، ودائماً على مستويات الحقد والأنانية والبغضاء والبذاءات!

أيتها النجوم المترفعة، لست أرى أنه يوجد منظر يلعن الإنسان ويتحدى شرفه مثل منظر طاغية مشكوك في شجاعته وذكائه: يصاب بالجنون أو التوتر أو بشهوة الحرب أو الاستعراض أو المغامرة أو الكبرياء أو الوقاحة، فيصاب المجتمع كله بذلك ويتحول بلا مقاومة إلى طعام شرير لهذه الآفات التي تصيب رجلاً واحداً غير معقول، لست أرى شيئاً يطعن في كرامة الإنسان وذكائه بلا شفقة مثل أن تتحول شهوات طاغية مريض إلى معبد مظلم كئيب تتجمع وتصلي فيه مواهب وطاقات وشهوات مجتمع بأسره.

إن رجلاً واحداً أو مجموعة من الرجال المتوترين أو المغامرين أو الأغنياء قد يسوقون العالم كله إلى ما لا يريد، إلى الحرب، فيخوضها وهو يغني أعلى الشعارات والمذهبية دوياً. فأين إذن ذكاء الإنسان أو كرامته أو حريته؟

إن معنى الحرب أن رجلاً أو رجالاً يأمرون مئات الملايين من البشر بأن يزحف بعضهم إلى بعض، ليقتل بعضهم بعضاً ويدمر مدنه وحقوله دون أن يعرف القاتل المقتول أو يسيء أحدهما إلى الآخر أو يدينه بشيء أو يريد منه شيئاً، وهذا كما لا يخفى أعلى مستويات الذكاء والأخلاقية!

أيتها النجوم إني أتهمك ـ أتهمك بمحاباتك لأعداء الإنسان أو بضعف ذكائك أو ببلادة غضبك. اسقطي لتكوني نبيلة وصالحة فوق هذا الفساد الباحث عن المجد بلا شرف، أو فتواري حياء وكرامة ـ اهبطي من عليائك أو فهبي شيئاً من تعاليك لهذا الإنسان الذي لم يزل ينظر إليك بلا شمم في كبريائه أو ذكائه مهما صنع الصواريخ الكونية أو حلق فوق الكون أو آمن بالآلهة والطغاة أو أسقط الآلهة والطغاة ـ إنه في كل ذلك تابع مغلوب، يعبد الأصنام ويطيع الأوامر ويفعل ما يهب أعداءه الجنون والغرور والقوة عليه والخداع له!

*

ماذا يعني القائد أو الزعيم أو الحاكم أو البطل أو المعلم؟ إنه هو إنسان ينتصر علينا أو يعجبنا أو يخدعنا بلا أية مزايا عقلية أو إنسانية أو وطنية.

وماذا يأخذ منا؟ يأخذ منا الحرية والرخاء والشرف والكرامة والذكاء والشعور بالأمن، ويأخذ منا أحياناً الحياة إذ يحولنا إلى حروب ومؤامرات وحرائق وتجهيزات لمجده الصانع للموت والفقر. ولكن ماذا يعطينا؟ يعطينا الخصومات والعداوات والبغضاء لجيراننا وأقاربنا والجميع

الآخرين، ويعطينا أيضاً البذاءات والأزمات والشعارات والمذاهب المعادية للأطفال والنساء والتسامح، ويعطينا الأجهزة الدعائية الهائلة الممتصة لوقارنا وذكائنا، ويحولنا إلى أشعار وأناشيد في التغزل بكبريائه، وإلى موسيقى حربية جارحة لشرف الأذن وسلامها، ويعطينا مكاتب مخابرات وجاسوسية لا مثيل لها في الضخامة والشمول وغلاء الثمن وفي إفساد الخلق وقتل الضمير وإرهاب المستوى الإنساني في الإنسان!

ولكن من الإنصاف أن نقول إنه يعطينا بعد ذلك وفوق ذلك انتصارات عظيمة أحياناً. وهذه لا تنكر، ولكنها انتصارات عليه هو، لا منه ضد أعداء آخرين. إن هذه الانتصارات ليست سوى تخلص منه ومن هزيمته هو للإنسان، فالانتصارات لأي زعيم ليست إلا هزيمة للزعامة التي تعيش فيه وفي الزعماء الآخرين. ذلك أن انتصار أي زعيم أو قائد أو حاكم أو معلم ليس انتصاراً مكسوباً ضد الطبيعة أو الفراغ، وإنما هو انتصار على طغيان زعيم أو قائد أو حاكم أو معلم آخر!

إذن لا يوجد انتصار، فانتصار زعيم ما إنما يعني فقط هزيمة لجبروت زعيم آخر، إذن كأن الزعماء والقادة والحكام والمعلمين لا يعطون انتصارات، ولكنهم بمجموعهم يعطون انتصارات وهزائم وظلماً، ومجموع هذه وهذه لا يساوي انتصارات فقط، بل يساوي بعض الانتصارات على بعض الهزائم والجبروت. فالزعامات إذن بمجموعها لا تعطي إلا هزائم وظلماً مهما انتصرت، لأن انتصارها ليس انتصاراً، بل إبطال لبعض مظالمها في بعض أشخاصها. ولو لم توجد أية زعامة لما وجد أي طغيان أو ظلم أو هزيمة تصيب شعباً من الشعوب، وهذا يعني أنه لا حاجة حينئذٍ إلى الانتصارات.

والانتصارات الحقيقية هي أن يصبح المجتمع غير محتاج إلى الانتصارات، أي حين لا يوجد قادة ولا زعماء ولا حكام ولا معلمون يصنعون طغياناً وظلماً وخداعاً ليصبحوا مسوغاً لمجيء قادة وزعماء وحكام ومعلمين آخرين ليصنعوا انتصارات على هذا الذي صنعه أولئك القادة والزعماء والحكام والمعلمون الآخرون، لكي يصبحوا هم أيضاً هزيمة لنا جديدة يطلب الانتصار عليها.

وانتصارات هؤلاء الطغاة ليست على كل حال انتصارات للمجتمع ولكنها انتصارات لهم هم على المجتمع، إنها انتصارات للكبرياء والطغيان.

وشيء آخر يعطوننا إياه، شيء لا تمكن منازعته على أنه هو عطاؤهم الحقيقي العظيم. هذا الشيء هو أن يكتبوا على تاريخنا وفوق معاصمنا وعقولنا كلمة «صنعه القائد» ممهورة بالسلاح والدم، ويحولون هذه الكلمة إلى نشيد مفروض على كل الأجهزة أن تحوله إلى نوع من العبادة والتراتيل الدينية المصابة بالتهيج.

إن الشعب يجب أن يفترض دائماً فيه أنه صناعة زعيم ويجب أن يمدح بهذا الافتراض، ويجب الإعلان عنه على أنه كذلك. وهذا أفضل وأضخم ما يستطيع أن يهبه أعظم قائد أو زعيم أو حاكم أو معلم لأي شعب من الشعوب.

إن الحكم وأجهزته وتكاليفه، وإن الزعامات وأجهزتها وتكاليفها لهي أكبر عدو في التاريخ ضلل الإنسان وأذله وأصاب شرفه بالجراح وسرق منه عمله ونضاله وحرياته دون أي ثمن، ثم فرض عليه أن يؤمن ويصرخ بأنه هو الذي وهبه كل نضاله وحرياته وعمله ورخائه وكرامته وعبقريته.

إن أغلب البشر لا يعرفون كم يكلفهم هذا العدو وكم يسحقهم ويصيبهم بالجنون والأخطار. ولعلهم لو عرفوا ذلك لشقوا باحتقارهم لأنفسهم واحتجاجهم عليها ورؤيتهم لها. ولكن لعل البشر مستعدون دائماً أن يغفروا لأنفسهم كل خنوعها وضعفها وجهلها ومستوياتها غير الكريمة، بل إن البشر جميعاً موهوبون الاستعداد والقدرة على أن يفسروا جميع نقائصهم بأنها فن رفيع من فنون البطولة والتدين وحب الوطن والإنسان!

*

والخطر الدائم أن جميع الناس على جميع المستويات محتاجون إلى لعب تخفق لها قلوبهم ويتزينون بها أمام أنفسهم وجيرانهم، ويتغذى بها خمولهم وضياعهم الباحث عن الضياع. وسائر الناس يجدون لعبهم في أشياء صغيرة، وأحياناً في أشياء بريئة، أو على الأقل في أشياء ليست قاتلة ولا مفقرة ولا ساحقة للإنسان ولكبريائه، ليست حرباً أو مؤامرة أو مذهباً استعراضياً.

أما الكبار جداً: الزعماء والقادة والأبطال فإن لعبهم من نوع آخر خطير جداً، فيها الجنون والموت والفقر ـ إن لعبهم هي المذاهب والحروب والثورات والمغامرات الغالية الثمن.

إن هؤلاء الكبار يريدون بجنون وطفولة غير سعيدة أن يلعبوا ويفرحوا بأنفسهم ويعرضوها في أضخم المعارض والميادين الدولية، كما أنهم محتاجون إلى أن ينفقوا اهتماماتهم وانفعالاتهم وآلامهم واختزاناتهم التاريخية انفاقاً ضخماً باهظاً قاتلاً. إذن هم حتماً محتاجون إلى الخصومات والحروب والتوترات والصراخ المسقط للوقار، وإلى المذاهب الشهيرة العنيفة، وإلى أن يحولوا البشر والمجتمعات والعقائد والآلهة وكل شيء إلى لعب ليست في فضيلة أو سهولة لعب الأطفال أو لعب الناس الطيبين ـ إلى لعب فيها كل الجنون والخطر والعذاب والامتصاص لذكاء الإنسان وعمله.

هل ترى هؤلاء الكبار يقبلون أن تموت الحروب والخصومات والعداوات والحواجز الوطنية والقومية والآلهة والمذاهب المتعادية المتلاعنة؟ أين يجدون حينئذٍ اللعب، وفي أي مكان وتحت

أية وسيلة يعرضون جنونهم وتتحدث الدنيا عنهم ويبددون طاقاتهم النفسية العدوانية الأليمة؟

ما أبشع قوماً لا بد أن تكون لهم لعب ثم لا بد أن تكون هذه اللعب هي الشعوب والأرباب والمذاهب والعداوات والحروب والمؤامرات والآلام ـ ما أبشع إذن القادة والزعماء والثوار والمعلمين والكتّاب لأنهم هم هؤلاء القوم؟

إن جميع الحدود التاريخية والتقسيمات الوطنية والقومية المتعادية المتقاتلة، وجميع الآلهة والعقائد والمذاهب والنظم التي تشقق البشر وتقيم بينهم الحواجز المصنوعة من النار والجنون والبغضاء، إن جميع ذلك لم يخترعه ذكاء الإنسان أو ضرورات الحياة أو البحث عن القيم الأخلاقية والإنسانية، وإنما اخترعه جنون هؤلاء الرجال الباهظين المفتونين باللعب بهذا الأسلوب العنيف المخرب.

وإذا وقف هؤلاء موقف المعارضة من الحرب والتوتر والتآمر والخصومات فلا ينبغي أن نفهمهم على أنهم كذلك، ولكنهم يقفون مثل هذا الموقف حينما يكون الموقف الآخر مضاداً لجنونهم، فهو موقف انتهازي لا أخلاقي ولا إنساني. ولهذا فإنهم يظلون يريدون للآخرين الشيء الذي يرفضونه لأنفسهم، إنهم حينما يقفون خارج الحرب والتوتر والجنون يتمنون أن يقع العالم كله في هذا الذي يقفون خارجه، وقد يساعدون العالم على الوقوع فيه، ليستفيدوا من الآلام التي تقع حولهم، ولينتظروا فرصتهم الشريرة السعيدة بشقاء الآخرين. إن أطيب أصناف التوتر والألم والجنون في مذاق هؤلاء القادة هو ما يصنعونه هم ويمارسونه، وإلا فما يصنعه ويمارسه الأقربون، وإلا فما يصنعه ويمارسه الأبعدون!

*

أيتها الآلهة العظيمة المطلة من فوق أكوانك ونظامك، إن الدهشة لتسحقني: كيف تستطيعين بكل وقارك ورحمتك وحكمتك وعدلك أن تنظري إلى كل ما في الأرض من مهانات وآلام وجبروت، وأن تري جنون رجل واحد يبتلع شجاعة ورخاء شعب بأسره أو شعوب بأسرها دون أن تفقأ عينيك قباحة المنظر وصدمة الرؤية!

أعيريني أيتها الآلهة هدوءك أو فاستعيري مني غضبي، أعطيني منطقك وإلا فخذي منطقي ـ أدعوك بضراعة أن تجعليني أفهمك أو أن تكوني كما أستطيع أن أفهمك.

ما أصعب موقفك حينما تكون محتاجاً إلى أن تكون غبياً جداً لكي تستطيع أن تفهم إلهك وتتناسق معه وتغفر له ما لا يمكن أن تعقل من تصرفاته، وحينما يكون مستواك الأخلاقي متفوقاً على مستوى إلهك الأخلاقي.

أركع بين يديك يا إلهي فلا تغضب علي أو تقع في اتهامي، فأنا أناقش يديك وعقلك

وضميرك وآياتك الواقفة أمامي في كونك وفي ذاتي، لأني أريد أن أحبك وأحترمك وأنزه مستواك، وأريد أن تكون أفضل مني ومن كل صوري الذهنية والأخلاقية، وأناقشك أيضاً لأني أتألم. ليست محاوراتي لك منطقاً بل ألم يتحول إلى منطق ـ ألم لا يمكن الدفاع عنه، يلقيه في طريقي فنك العظيم، كونك الكبير. والفن يا إلهي ليس ألماً، بل علاج، تقبيح، نفي للألم، تحريض عليه. لهذا تراني يا إلهي احرض على كل الآلام، حتى على الآلام الفائضة من يديك، لأني أراك وأريدك فناناً عظيماً، فناناً بلا ألم، فناناً لقتل الألم لا لخلقه ليتعب الفنانون الصغار في قتله ويشقى المبصرون برؤيته ويعجز الأذكياء عن فهمه.

أيها الفنان العظيم ـ شيء واحد يثيرني في فنك أكثر مما تثيرني جميع الأشياء الأخرى البذيئة المثيرة ـ ذلك هو الألم، ألم المرض والتعذيب والهوان، يأكل الأجساد ويسحق النفوس. إن وجود الألم والطغاة شيء يبصق على مجد الشمس ويحوّل كبرياءها إلى تواضع. إني أشعر حينما أراك تصنع الألم للإنسان أو لأي كائن حي أن جميع مزاياك تموت وانك تفقد ذكاءك وقدرتك واستقامتك وشرفك وكل فضائلك، وأنك تصغر ثم تصغر، وتضل ثم تضل، حتى لتبدو كل الأشياء وكأنها أكبر وأذكى منك، وكأنك محتاج إلى أن تتعلم منها مزاياك الجديدة.

إن كل جمالك وعبقريتك لتنتحر، تغوص في الحضيض أمام جيوش الآلام التي تسحق الشيوخ والمرضى والمعذبين وتحولهم إلى تشويهات تشكك في أريحية السماء، إن الشمس لتبدو بلا جاه أو فضيلة أو ضياء أمام الألم والهوان، وإن النجوم والأنهار والحقول المترفة لتبدو كقصائد تهجو كل شيء في هذا الكون أمام الألم والهوان، إن كل فنك ليبدو بلا ذكاء أو قيمة أمام الألم والهوان. خذ شموسك ومجراتك ومحيطاتك، خذ أزهار الربيع وزقزقات الطير محيية لتباشير الفجر، وبسمات الأطفال وصيحاتهم السعيدة، خذ كل شعر في الكون، ولكن خذ معه أيضاً الألم والهوان والسقوط النفسي والطغاة، ولا تعطنا كل شيء لتدس لنا فيما تعطينا ـ وكأنك تكرمنا ـ الألم والهوان والهزيمة والجبارين الذين يتعالجون بنا من تاريخهم وذكرياتهم وهمومهم ـ الذين يتعالجون من كآبة أنفسهم ووحشيتهم بإذلالنا وإفقارنا وتحويلنا إلى لعب يشغلون بها ويدللون طفولتهم الباهظة التكاليف، الباحثة عن الضحايا والجراح والضجيج. هل الألم والهوان والطغاة هدف في فنك أم ضرورة؟ هل أنت متهم في قدرتك أم في فضيلتك؟

إن الألم ـ ألم الجسم وألم الهوان لهو أقسى سباب يسب به جمال الطبيعة وحكمة الأرباب وإيمان الإنسان وإعجابه بنفسه وبوجوده وبمذاهبه وشعاراته المتكبرة وبأربابه المعجبين بالألم الخالقين له كأرقى الفنون في هذا العالم وأفضل الهدايا إلى إحيائه، أو العاجزين عن قتله أو منعه. إني كلما هممت أن أعجب بالآلهة أو الكون أو الإنسان، وأن أرى في ذلك جمالاً أو

فناً أو ذكاء أو معنى عميقاً يحترمه المنطق أو يسوغ به الإيمان نفسه الآلام والمهانات والجبارون المتعاقبون على الشعوب يصافحون كرامتها بأطراف أحذيتهم الغليظة، فيتحول حينئذٍ كل منظر أمامي إلى دمامة واحتجاج ودموع!

هل أنا وحدي الذي يرى الألم والهوان، أو هل أنا وحدي الذي يرى بشاعتهما ويحتج عليهما بصراخ وغضب؟ هل أنا وحدي الذي يقرأ دمامة الطغاة على وجوههم، على وجوه الناس، على جدران المعابد والبيوت، على وجوه الحيوانات والجمادات والمواد الغذائية؟ هل أنا وحدي الذي يعذبه تعاظم مجد الطغاة والحشرات؟

لماذا خصصت بعنف الاشمئزاز والاستقباح والإحساس بالألم والهوان وقبح الطغاة؟ ليتك أيها الفنان الأعظم ترى الطغاة والألم والهوان بالاستنكار والغضب اللذين أرى بهما، إذن لتغير سلوكك ومنطقك ولأصابك التوتر الذي نفقده فيك ونتمناه لك، ولفضلت حينئذٍ أن ترهن أو تبيع أو تغرق كل عوالمك على أن ترى طاغية واحداً يتحدى كبريائك وصبرك، أو ترى متألماً أو مهاناً واحداً يحتج عليك بدموعه وأنينه وتشوهاته الشاتمة لكل ما تدعيه لنفسك من فن وفضيلة!

هبني يا إلهي حساً خامداً ورؤية غير ناقدة ومنطقاً ضالاً، لكي أهتف وأرضى وأقتنع بأن الألم والطاغية والذباب مزايا كونية وإنسانية وسماوية تستوجب الإيمان والصلاة!

إنه لا حد لاشمئزازي من إذلال الإنسان والاعتداء على حدود الإباء فيه، لهذا فإنه لا حد لغضبي واشمئزازي من وجود الطغاة. إن الطغاة هم أقسى عقاب يتلقاه الإنسان في كل تاريخه جزاء له على اتهامه الدائم لنفسه بالذكاء والشجاعة، وعلى تحدثه الدائم عن كبريائه، زاعماً أنه يرفض قبول كل ما في العالم من شموس ونجوم ثمناً لموقف واحد من مواقف التنازل عن أي مقدار من الشرف والكرامة، وزاعماً أن بقول الأرض كلها لو سقيت بقطرة واحدة من قطرات المذلة لاختار الموت جوعاً على أن يأكل منها، وأنه لو رأى من الشمس أية إيماءة من إيماءات التحقير أو الإعراض لأغلق نوافذه وبصره دون كل نور!

إن الطغاة هم الذنب والعار والظلام الذي لا يستطيع أن يغفره أو يغسله أو يستره كل ما في البشر والدنيا والكون من عبقرية وبحار وشموس وأرباب وذباب يعلن عن حكمة الله بأسلوب لا مثيل له في التواضع والذكاء ـ إن جميع ما في الآلهة والعالم والحياة من جمال لا يجرؤ أن يناقش الدمامة المتجمعة بسرف لا حدود له في وجه طاغية واحد ـ طاغية واحد يقف ليتحدث بأعلى مستويات الغرور باسم كل الآلهة والشعوب والكون والحياة وباسم كل الحق والعدل والمنطق والذكاء والمذاهب، وباسم كل ما كان ويكون وما سوف يكون ـ يتحدث بأسلوب فيه من الصفاقة والتحدي والإثارة ما لو تحول إلى قوة تفجيرية لأزال كل جبال العالم وصخوره

ورماله بل وكل حقوله ومدنه، كما أزال كل ما في مجتمعه من ابتسام وذكاء وحرية وإباء ونزاهة ورخاء.

أيتها الآلهة، أيتها النجوم، أيتها الكرامة الإنسانية، أيتها الشجاعة الإنسانية، أيتها المذاهب والحضارات ـ إنسان واحد يحوّل كل آلامه وهمومه ونقائصه وتفاهاته، وتاريخه الكئيب ومشاعره المغيظة ـ إنسان واحد يحوّل كل ذلك إلى آلهة ومذاهب ونظم ومخابرات ومباحث ودعايات ضاجة، وإلى جيوش وحروب وتهديد وتآمر، وإلى حكم لا مثيل له في القسوة والشمول والغباء، تخضع له عشرات الملايين أو مئات الملايين من البشر، ويحوّل كل هذه العشرات أو المئات من الملايين البشرية، وكل تلك الآلهة والمذاهب والنظم والمباحث والمخابرات والدعايات والجيوش والحروب والتهديد والتآمر والحكم ـ يحوّل كل ذلك إلى قصائد هاتفة لجنونه وهمومه ونقائصه وتفاهاته وتاريخه الكئيب ومشاعره الجريحة المغيظة.

أيتها الآلهة، أيتها النجوم، أيتها الكرامة الإنسانية، أيتها الشجاعة الإنسانية، أيتها المذاهب والحضارات ـ إنسان واحد ولدته امرأة ساء حظ الإنسانية بها، يحوّل كل البشر، كل الآلهة والأديان والمذاهب والنظم والفلسفات والعبقريات ـ يحوّل كل ذلك إلى تدليل لنفسه المريضة الضالة لتزداد اعتلالاً وضلالاً كلما ازدادت تداوياً وزادتها الأقدار تدليلاً ـ يحوّل كل شيء إلى حرس لحياته وعبيد لكبريائه وإلى عرض لطفولته ـ إلى طعام للحيوان النهم فيه.

أيتها السماء، أيتها الأرض، أيها التاريخ، أيتها الشعوب ـ إن عدداً من الرجال المرضى بالطموح والتعب قد استطاعوا أن يدللوا بالتعاقب الرهيب على أن هذا العالم الكبير الغامض المملوء بالأسرار والقسوة لم يستطع أن يحمي نفسه من الصعاليك المتجبرين، وعلى أن جميع الآلهة والمعابد والكتب المقدسة لم تستطع أن ترتفع بضمير المؤمن عن السقوط وعن السجود بمذلة لا شروط لها تحت أقدام أقزام كانت أعظم مزاياهم أنهم متوترون وصارخون وكارهون للإنسان، وأنهم كانوا يضربون بقسوة ويتحدثون بلا صدق، ويتحركون بلا وقار أو عبقرية.

*

يا أبناءنا الذين لم يحضروا بعد إلينا، هل تستطيعون أن تسمعوا صوتاً يريد أن يناديكم، أو هل تستطيعون أن تروا هذا العالم الذي يريد أن يناديكم منه هذا الصوت النذير؟ أنتم لا تعرفون ماذا يريد أن يقول لكم هذا الصوت، كما لا ترون حتماً ما يريد لكم هذا الصوت أن تروه. ولو رأيتم وعرفتم فهل تنفع الرؤية والمعرفة في أن تتقوا وتحذروا؟ إن الذين يفعلون الخطأ والألم وهم يرون ويعلمون أكثر من الذين يفعلونهما وهم لا يرون ولا يعلمون، إن جميع الناس لم يزالوا في كل العصور يرون ويعلمون أشياء هي العبث والعذاب والخطر والتفاهة ثم يقدمون على اقتحامها بكل ما فيهم من غباء وتورط حتى كأن البصر والمعرفة ليس لهما أي عمل في سلوك

الناس أو في هذه الحياة ـ إن كل شيء يسير في طريقه مع الرؤية والمعرفة، وبلا معرفة ولا رؤية، وليس العميان أكثر سقوطاً على الأرض من المبصرين، ولا الجهال أكثر ذنوباً وآلاماً من الذين يعلمون؟

ولماذا يريد هذا الصوت الحزين أن ينصحكم، هل للنصيحة مكان تحت جبروت الشمس والطبيعة والشهوة، هل لو لم تخلق الكلمة، فلم يوجد ناصح ولم تسمع أية نصيحة لاتسعت دولة الشيطان وأصبحت أكبر مما نجدها اليوم أو أكبر مما كان يجدها آباؤنا من قبل؟

ولكن هل الناصح ينصح لأن النصيحة تخلق الفضيلة في قلوب الناس وسلوكهم، أم ينصح استجابة لحالة ذاتية ونفسية فيه، كما يحب ويبغض ويبكي ويضحك وينام ويأكل، إن الناصح ينصح حتى حينما تكون النتيجة أن يزداد المنصوح رغبة فيما نصح ضده؟ إن النصيحة نوع من البكاء أو الشماتة أو التوتر أو الكبرياء والاستعلاء.

لعل الناصح إنسان يريد أن يعالج نفسه أو يرضيها، وليس إنساناً يريد أن يصلح الآخرين أو يتعب في سبيلهم، ولعله يريد اصلاح من ينصح بقدر ما يريد القاتل الخير والرحمة لمن يقتل. وليس الناصح في موقف أخلاقي أفضل من المنصوح، ولكنه في موقف يجعله أحوج إلى أن يكون ناصحاً، فالنصيحة ليست أخلاقية ولا بحثاً عن الأخلاقية، ليست بحثاً عن شيء بل هي تعبير عن شيء.

إذن يا أبناءنا الذين لم يوجدوا بعد دعوا هذا الناصح ينصحكم وإن كانت النصيحة لا تجدي، وإن كانت الشمس لا بد أن تسير في طريقها والإنسان لا بد أن يفعل أخطاءه وآلامه وتفاهاته، لا لأنه لايعرف، بل لأن ذلك هو عمله وقدره ـ دعوا هذا الناصح ينصح لأنه لا بد أن ينصح لأن كل إنسان لا بد أن يتكلم، لأنه يحيا، وكل من يحيا لا بد أن يتكلم ويتألم ويتغذى بالعبث وبالنصائح مستقبلاً ومرسلاً.

إن الإنسان يتعامل دائماً مع ذاته لا مع الكون ولا مع الناس أو مع المذاهب والأخلاق، والفعل المتعدي ليس إلا فعلاً لازماً، وحدود ذاتك هي دائماً حدود العالم، وأن العالم مهما كانت ضخامته ليس أكبر من بيتك في سلوكك.

أيها الأبناء الذين يستعدون للمجيء، احذروا، إن الأرض التي نعيش عليها ملأى بالوحوش. لست أعني الوحوش الطيبة الإنسانية التي تسكن الغابة ولا تتكلم بصراخ عن المذهبية والثورة، والتي تأكل أحياناً إذا جاعت وهوجمت في أوطانها أجسامنا بشيء من الورع والعفة والأخلاقية بلا حقد أو طموح مريض، ثم تترفع عن أكل ما عدا الأجسام ـ وإنما أعني وحوشاً أخرى تسكن المدينة والمعسكرات وتتحدث بالشعارات والمذاهب وبالأمجاد الثورية وتمارس كل فنون الجريمة والقسوة بمباهاة وإعلان وتدين، وتأكل دائماً ولا تشبع أبداً، بل تزداد مع

الأكل جوعاً ونهماً ـ إنها لا تأكل اللحم وتعف عما سواه، إنها تأكل الكرامة والذكاء والشجاعة والصداقة والحب والرخاء والأمن.

وليست أجهزة الافتراس في هذه الوحوش المذهبية هي الأنياب والأظفار اللينة الرقيقة، وإنما أجهزة الافتراس في هذه الوحوش الغبراء هي المعتقلات والمباحث والسجون والمحاكمات والنفي والجيوش والدعايات والحروب والمذاهب والشعارات والطموح والمؤامرات والصحافة المقتولة الشرف، والمؤتمرات الاستعراضية القائمة على المغازلة والإسراف في الخلاعة والتزين والطفولة، والقائمة أيضاً على السرقة لخفقات قلوب المجتمع.

إن هذه الوحوش التي تهاجمنا وتفترس كل فضائلنا وأسباب رخائنا مسلحة بكل ما في الحضارة من قوة وعلم وفن وقدرة على الحشد والخداع والقمع والاستعلاء والانتصار والإذلال الجماعي. إن جميع ما في التاريخ من آلهة وأنبياء ومذاهب وفلسفات هي إحدى فرق هذه الوحوش المقاتلة وشهودها المزورين ودعاتها المنافقين ـ وإن هذه الوحوش لتزداد في أعدادها وقوتها وجرأتها ووقاحتها نمواً واتساعاً، وإننا نحن نزداد تحت ضرباتها المتتابعة ضعفاً واستسلاماً وخوفاً. إن جميع ما يبدعه عباقرتنا نحن البشر، جميع ما يبدعه العلماء والفنانون والمفكرون والكادحون يتحول إلى سلاح وقوة لهذه الوحوش، وإلى ضعف فينا نحن الناس، وإرهاب لشجاعتنا وسلاح نقتل به أنفسنا لنرضي هذه الوحوش ونغازل جنونها.

إن العبقري ليصنع السلاح الرهيب أو الرخاء أو المذهب أو الفنون أو الأفكار أو الأجهزة الدعائية أو الآلات العجيبة، لكي يتحول كل ذلك إلى قوة وحماية ودعاية وحلي لهذه الوحوش ليخضع هو ومجتمعه كله لقبضتها وغبائها، وإغرائها لتحطمه وتقهره وتضلل عبقريته. وليس هنالك منظر يلطم البصر كأنه غرز الإبر مثل أن نرى كل العباقرة والعلماء والمفكرين وجميع الأذكياء يتحولون إلى فيالق من الشرطة والدعاة والهتافين في جيوش هذه الوحوش، وإلى أنبياء يبشرون بمجيئها ويحللون الشهوات لافتراس فيها!

كان المفروض أن تقدم الإنسان وحضارته إنما يعنيان انتصار الحرية والعقل وقيادتهما، فإذا بهما يعنيان انتصار الطموح المريض والطغيان وقيادتهما ـ لقد تحول علم الإنسان وقوته إلى قوة لمغامريه الجهال وطغاته، لا لعلمائه. هل من قدر الإنسان أنه كلما ازداد قوة وحضارة وعلماً ازداد خنوعاً واتباعاً لمجانينه ـ هل من قدره أن يكون أوغاده وجهاله هم قادته حتى في عصر التقدم العظيم؟ في عصور الجهل كان الجهال والأغبياء يقودونه، فهل يظلون يقودونه أيضاً في عصور العلم وفي كل عصر على مستويات أكثر جنوناً وشمولاً وجهالة؟

أيها الأبناء الذين لم يحضروا بعد إلينا ليتعذبوا ويهونوا مثلنا، ليتكم تستطيعون أن تنظروا وتسمعوا، لكي تروا كيف توضع جميع المواهب والعقول والكرامات والمذاهب والثروات

والرجال تحت أقدام الطغاة، وكيف يتصرفون في كل ذلك، وكيف تهتف لهم كل الأفواه وتنافقهم كل الأخلاق وتسجد لهم كل الجباه وتمتلك أيديهم كل أسباب الحياة ـ كيف تهون الرجولة تحت كبريائهم وجنونهم وتهون الأرض، وكيف تتبلد الشموس والمجرات والأنهار والأشياء، إذ تمارس تحت مجدها أكبر الآثام والحماقات فلا تعاقب أو تغضب أو تنتحر أو ترفض البقاء والعمل، أنفة أن يفسق بها هؤلاء الطغاة الصغار المتعاقبون، أو أنفة أن ترى كيف يفسقون بالناس والمذاهب والآلهة وجميع القيم! ولكن أليس كل الناس يفسقون بالآلهة وبالمذاهب على درجات متفاوتة؟ وهل آمن المؤمنون بالآلهة والمذاهب ليعبدوها أم ليفسقوا بها؟ إن من آمن بإله أو مذهب فقد فسق به.

أيها الأبناء، احذروا، إنكم لو قدمتم لكان محتوماً أن يعيش بعضكم كل حياته في المعتقلات أو السجون أو في أقاصي الأرض نفياً، وأن يموت بعضكم طعاماً للحروب والمغامرات والمؤامرات أو على حبال المشانق، أو جوعاً بعمليات الامتصاص السارقة المفقرة التي تقوم بها أجهزة الطغاة الكثيرة الهائلة، ولكان محتوماً أن تموتوا جميعاً إذلالاً وإرهاباً وتخويفاً، أو سحقاً تحت المذاهب والشعارات، أو بكاء على الشرف والشجاعة، أو حزناً على العجز عن البكاء. والعجز عن البكاء حيث يجب البكاء هو أقوى الأساليب في التعبير عن استعداد الإنسان لتقبل الهوان بلا حدود!

إن المذهبية الشاملة القوية هي أحد الأجهزة التاريخية التي ظلت تحطم كبرياء الإنسان وذكاءه، والتي ظلت حليفاً ممتازاً للطغاة والطامحين واللصوص والأغبياء ليتكبروا ويسرقوا ويخدعوا ويجهلوا بحماس وضجيج وتأله.

إذا سرق طاغية شرفك وكبرياءك فالمفروض أن تقاوم، وإذا لم تقاوم ـ وكل الناس قد يجبنون أحياناً تحت الظروف المختلفة عن المقاومة ـ فالمفروض أن تبكي، والبكاء هو أقل ما يطلب من الرجل لكي يعد نفسه بطلاً أو مؤمناً، أو لكي يبقى على الأقل إنساناً. وهذا على افتراض ألا توجد في ظروف تقتل فيها إذا بكيت حيث يعد البكاء تحت هذه الظروف مقاومة للمذهبية والثورة وعملاً من أعمال الرجعية. فإذا لم تقاوم ولم تبك فما أنت إذن والإنسان هو دائماً شيئان: بكاء ومقاومة؟ وليس البكاء إلا أسلوباً من أساليب المقاومة النفسية!

إذن لا تقدموا أيها الغائبون، إذن اقدموا لتشاركوا آباءكم في تذوق الهوان والطغيان تحت حكم الوحوش، أو لتساعدوهم على قهر هذه الوحوش.

إذن تعالوا سريعاً لتتعذبوا كما تعذب من قبلكم، أو لتساعدوا على شفاء الأرض من جنون المذهبية والبطولة والثورات والطموح القاتل لكبرياء النهار، المذل لرجولة التاريخ.

أيها التاريخ، إنك تستحق كل ما في الكون من رثاء، فكم تحتوي في جوفك من صعاليك، فيهم كل بذاءات السلوك والأفكار والمشاعر، سلبوك كل وقارك وشجاعتك وغاصوا بشرفك وذكائك إلى حضيض بذاءتهم وفسقوا بكل ما فيك من عفة ورصانة ونظافة وسمت - إنهم أولئك الصعاليك المنتصرون عليك، الذين وضعوا أنفسهم في سجل مواليدك باسم الثوار، أولئك الثوار الذين أرادوا أن يهربوا من آلامهم الطبقية أو الاجتماعية أو النفسية أو التاريخية أو الجسمية بالعدوان عليك - لقد أرادوا أن ينتقموا من عذابهم فانتقموا منك، وأن يصعدوا فوق أنفسهم وفوقك وفوق الذكاء الإنساني فاقترفوا الثورات والمذاهب والنظم التي تنادي بمحبة قوم، ولكن لم يكن قصدها إلا كراهة قوم آخرين، لم يكن قصدهم أن يحولوا الأرض إلى سماء بل أن يحولوا السماء إلى أرض، بل أن يكونوا هم سماء ويكون كل شيء أرضاً لهم!

أنت أيها التاريخ مطعون في شرفك وشجاعتك وذكائك ووقارك، لقد ظللت تسلم نفسك لهؤلاء المتطاولين الصغار بلا زواج أو كفاءة أو شرط من الشروط، وبلا مقاومة ولا رفض نفسي أو عقلي. إن أعجب ما فيك أو أضعف ما فيك أن ينتصر هؤلاء الفاجرون بالقدر على جميع ما في البشر من عبقريات وذكاء ورفض وأخلاق وجماهير وتقاليد وتاريخ. عجباً! كيف يوجد في الناس من يقول الشعر أو ينشد الموسيقى أو يسمعهما أو من يصنع الابتسامة على وجهه أو من يطيق أن يراها على وجوه الآخرين، كيف يوجد من يتغزل بجمال القمر أو من يرى شيئاً جميلاً في هذا الكون، بينما أحذية هؤلاء الثوار المعاقبين للجمال تتهاوى فوقه وفي وجهه وفوق كل شيء يحياه وفي وجهه، فوق عظة الواعظ وقلم الكاتب وفكر المفكر وضمير المؤمن وفوق فراش النائم وجوع الجائع وثراء الثري - فوق المعابد والمتاجر والمصانع والحقول والبيوت - فوق التاريخ والحياة والبشر وكل الأشياء!

إنه لا حد لما يمكن أن يهبط إليه مستوى الذكاء والاحتجاج والرفض والغضب في البشر، إنهم قد يفقدون جميع المستويات الإنسانية المعروفة والممكنة، ثم يظلون مع هذا يتبسمون بوقاحة لأنفسهم إعجاباً بها، ورضا عن شموخ مستوياتها الرافضة أن تتعلم حرفاً واحداً في أية لغة من لغات الهوان.

ليست قمة البشاعة أن يهون الإنسان بلا حد، ولكن قمة البشاعة أن يفعل ذلك دون أن يشعر أنه قد فقد شيئاً - قمة الهوان أن تموت كل معارضة ضد الذات داخل الذات، أن تتجمع الذات وتتفق في سقوطها وضعفها دون أن يلعن بعضها بعضاً أو يحتج بعضها على بعض، حتى ولو بالبكاء والمشاعر الرافضة.

إن معارضة الذات للذات هي إحدى مزايا الإنسان القوية، كما أنها هي إحدى خصائصه الكبرى. والذي يستطيع أن يقتل في الإنسان هذه المزية سيكون أحد العباقرة في الهبوط

بالإنسان عن مستواه المحتوم.. وأقوى ما في الإنسان قد يصبح أضعف ما فيه، فأقوى ما فيه الرفض، وقد يفقده فيصبح فقده الرفض أضعف ما فيه.

أيها الكون، خذ مني بعض حزني، بعض احتجاجي، بعض غضبي، خذ مني فإني لا أطيق حمل كل ما عندي.

خذ مني وكن رحيماً أو عظيماً أيها الكون الكبير، وإلا فكن فناء.

العبقريّة بلا ذكاء

«إن الكاتب ليقاتل الناس ويشاتمهم بأسلوب النبي المريض المنتحر فوقهم من أجلهم ـــ إنه يتحول إلى عملية احتلام ذاتي لقرائه».

*

أعلى مستويات الكاتب أن يتحول إلى عذاب يعاقب تفكيرنا المتوقر، ويصدم آلهتنا المستريحة إلى جمودها وديمومتها، ويعلمها الغضب على نفسها والنقد لعبقريتها المتعبة، والخروج على تقاليدها غير المتطورة أو المتحضرة، لا أن يتحول ـ أي الكاتب ـ إلى تشجيع متكرر للانفعالات الخانقة الضاربة لذاتها، أو إلى تدليل لمذاهبنا وعقائدنا ووجودنا المصاب بالكسل والغباء.

لا يحتاج القارىء فحسب إلى أن تثار مشاعره وتستهلك، إن المثيرات لمشاعرنا كثيرة، كثيرة جداً. فمن هذه المثيرات الآلهة التي تصب كل أنهار عبقريتها في صنع العذاب والموت والحشرات والشيطان إحساناً إلى الإنسان وإصلاحاً لنفسه وأخلاقه، ومنها المجتمعات التي تتحول إلى طعام للطغاة لكي يقووا عليها، لكي تخضع لهم وتخافهم، لكي تتحول إلى توابل لجنونهم، لكي يزداد جنونهم اشتهاء كلما تغذوا بها، ومنها الحكام الذين يعلنون الحروب والخصومات على الشعوب بالشعوب دفاعاً عن الشعوب، ويسحقون الأحرار والأذكياء إيماناً بالحرية والذكاء، ويقامرون بالجماهير حماية لها، ويفقرونها بحثاً عن رخائها، ويعادون الآخرين ويشاتمونهم لأنهم أنبياء للصداقة والحب!

ومن هذه المثيرات أيضاً المذاهب والأديان والنظم التي يؤمن بها الناس لتعلمهم الصدق والنزاهة والأخوة والعقل والسلام، فتعلمهم الحقد والتعصب والتعادي والنفاق والغباء والحرب والغوغائية.

إن كل شيء يثير، لأن كل شيء محكوم عليه بالخطأ والألم والتفاهة والعبث والفناء. بعض القراءات تستنفد القارىء، تمتصه وتسرقه وتحول احتمالات الذكاء والنشاط فيه إلى هباء وغباء وحريق وضياع وإلى استمناء عاطفي. إن الكاتب يتحول إلى عملية احتلام واستمناء لقرائه، وإنه ليقاتل الناس ويشاتمهم بأسلوب النبي المريض المنتحر فوقهم من أجلهم.

كثير من الكتّاب يأكلون قراءهم. وللكاتب العظيم قدرة هائلة على تشتيت تجمعات الحياة في قرائه، أما الكاتب الرديء فهو أبهظ عقاب يتلقاه الإنسان جزاء له على اختراعه الكتابة والكلمة. إن المطلوب من الكتّاب أن يخرجوا الفكر عن مضاجع الراحة والاقتناع إلى آلام التعب والاحتجاج ـ أن يثيروا شوقه وهمه إلى الأخطار وإلى الأسفار النائية ـ ويعلموه القفز فوق الأرباب والحدود المكتوبة وفوق حراسها الأقوياء المنزهين، ويشككوه في قيمة الإعجاب بالنفس والوقوف عندها ـ مطلوب منهم أن يعلموا الفكر كيف يمل الإقامة الدائمة في المكان الواحد.

ولكن من الذي يطلب ذلك من الكتّاب، ولماذا كان ذلك مطلوباً؟

إنه من غير حركة في الزمان والمكان لا حياة، ومن غير حركة في الفكر لا حضارة. إن استراحة الفكر آفة مزمنة تصيب كل المجتمعات وأكثر الناس. وإذا استراح فكر أمة انتهى تأثيرها في التاريخ. وهل هذا صحيح حقاً؟ أليست توجد شعوب تهب أكبر العبقريات وتصوغ التاريخ صياغاته الكبرى المتلاحقة بينما هي في سلوكها وتفكيرها خانعة مثل أذل قطيع جاهل؟

الفكر كائن يعيش بالاحتمال، فهو ينمو بالمغامرات والاحتجاج، ويضمر بالوقوف والإيمان. ولكن مهما استراح الفكر وتوقف أو دعي إلى الاستراحة والتوقف فهل يستطيع أن يفعل ذلك؟ إن الاحتجاج والتفكير مفروضان على الإنسان كرهاً بلا أنبياء ولا معلمين، بل وضد الأنبياء والمعلمين، وإذا لم يفكر ويحتج إنسان ما فهو عاص لذاته لا لمعلميه وأنبيائه، أو فذاته عاصية لضروراتها وظروفها.

الشعوب العظيمة فاسقة الأفكار متدينة الأفعال، والشعوب المتخلفة فاسقة الأفعال متدينة الأفكار، وكل المجتمعات محتاجة أن تصاب بالفسوق الفكري. وفسوق الفكر هو الألم الإنساني النبيل، ألم الأنبياء والفلاسفة وكل الرافضين لبلادة الكون.

ومرة أخرى، هل هذا صحيح؟ ألسنا نجد مجتمعات تجلس فوق أعلى مستويات العبقرية، ثم هي في هوان إيمانها وطاعتها العقلية ترقد تحت أدنى المستويات، حتى لتبدو هذه المجتمعات وكأنها صيغة تحد لذكاء الإنسان وكبريائه، أو صيغة تكذيب لما يتحدث به دائماً عن نفسه من نضال في سبيل الحرية أو من قدرة على قبولها لو وهبت له؟

قد تكون الموهبة الحضارية منفصلة عن موهبة التفكير، وقد يكون الشعب المبدع المتحضر، أو الإنسان العبقري في موهبة من المواهب الكبرى ـ قد يكون بلا تفكير وبلا كرامة عقلية، بل

قد يكون بليداً بلادة مثيرة للرحمة والخجل، كما قد تكون بعض الشعوب العاجزة حضارياً أذكى وأشرف تفكيراً من الشعوب الأخرى المتفوقة حضارياً!

إن أعظم الناس عبقرية فنية أو علمية أو حضارية لا يعنى به أنه أعظمهم تفكيراً، والعكس كذلك صحيح أيضاً. إن المواهب ليست تلازماً أو تجمعاً. والموهبة التي تصنع العبقرية الإبداعية ليست هي الموهبة الفكرية، كما أن الموهبة الفكرية ليست هي كل المواهب الأخرى أو المواهب الخالقة، بل قد تكون بين المواهب أو بين الموهبة الفكرية والمواهب الأخرى خصومة أو تناقض. إننا إذا رأينا رساماً عبقرياً فلن توجد في أذهاننا صورة مفكر عبقري إلا إذا كان ذلك على سبيل التعدد أو التضاد.

إن الإبداع فن آخر غير التفكير، والتفكير فن آخر غير الإبداع ـ الإبداع فن ذاتي وتعليمي أو طاقة غبية كإبداع النحلة أو الكلب أو الثعلب أو الزهرة في تشكيل ألوانها، أو النهر في اقتحامه لمجراه وحفره له، أو النجم في اهتدائه إلى مداره، أو الماء في عمليات صعوده وهبوطه. إن أكثر الناس يبدعون عبقريتهم بلا أي تفكير بل بلا أي ذكاء أو حتى بلا أي عقل، كما تبدع النبتة عملية امتدادها ونموها فوقاً وتحتاً، وعملية اغتصابها لغذائها من قبضة التراب والوحل ومن بين الصخور وأشعة الشمس وجيوش الظلام.

إذن وجود عبقري ما، لا يعني وجود مفكر أو ذكي أو عاقل ما، بل قد يعني وجود إنسان يشبه النبتة أو النحلة أو الصخرة أو الحيوان المبدع أو الجميل أو العظيم دون أن يريد كونه كذلك أو يعرف لماذا أو كيف كان.

وقد يمكن القول بأن أعظم الشعوب إبداعاً هي أعظمها غباءً وهواناً فكرياً. إن كثيراً من الشعوب التي هي الآن فوق القمة الحضارية هو نموذج حزين للغباء والاستسلام العقلي. ونستطيع أن ننظر إلى شعوب معينة قوية ومتحضرة جداً لنقتنع بصدق هذه القضية.

إنه لا توجد مجتمعات ذكية ومفكرة ومجتمعات غير ذكية وغير مفكرة، فكل المجتمعات غير مفكرة وغير ذكية. فالذكاء والتفكير ليسا اجتماعيين، وإنما يوجد أفراد مفكرون أذكياء في بعض المجتمعات، ولا يوجد مثلهم في مجتمعات أخرى، وكذلك العبقرية في جميع أزيائها ليست من صفات الجماعات بل من صفات الأفراد، فلا توجد جماعة عبقرية أو ذكية أو مفكرة أو عاقلة، فالموهبة فردية لا جماعية. وإذا تصرفت الجماعة بذكاء أو عبقرية فهي تابعة، إن الجماعات في سلوكها أو اعتقادها الذكي غير ذكية.

المجتمعات غير قابلة لأن تكون ذكية أو مفكرة أو عاقلة، ولكن لتكون مطيعة مؤمنة مأمورة متحمسة متحركة هاتفة بصخب وجنون. وغباء المجتمعات الذليل لا يعوقها عن التقدم والقوة، بل قد يساعدها على ذلك ويهبها النظام والحركة الرائعة بقوتها وحماقتها. ولكن الذي يعوق

المجتمعات عن التقدم والقوة هو فقدها موهبة الاتباع الخلاق، وفقدها الأفراد العباقرة الذين يهبون الحياة والكينونة والأساليب والحضارات الجديدة التي تعطي المجتمعات صيغاً وظروفاً تقدمية جديدة.

وهل خسرت المجتمعات بكونها غبية غير مفكرة، وهل لو جاءت ذكية مفكرة لجاءت أفضل أو أقوى؟ وينبغي أن يكون الجواب على هذا السؤال هو الجواب لو سئلنا: هل من الخير أن تكون وحدات البناء أو أفراد القطيع أو زهرات الحديقة المتناسقة ذكية ومفكرة!

*

هل للتفكير تأثير على حضارة الإنسان أو سلوكه، وهل يمكن أن يكون الجمود أو التخلف الفكري سبباً لأية نقيصة أو آفة اجتماعية أو فردية؟ كيف يكون جمود الفكر أو غباؤه هو السبب أو بعض السبب في مرض المريض أو عجز العاجز أو قذارة غير النظيف أو في أي شيء نلقاه من مذلة أو شقاء، أو في الضعف الفني والانتاجي والاجتماعي للصانع، أو في فساد الموظف ونقص أخلاقه وقدراته وفي إهماله مثلاً؟

كيف يمكن أن يكون الفكر ـ متخلفاً ومتعصباً ـ هو السبب أو بعض السبب في عجز المجتمع العام، في عجزه الزراعي أو الصناعي أو العسكري أو الأخلاقي أو الحضاري أو في أية صورة من صوره؟ لو كان ذلك كذلك لكان التقدم الفكري أو الانطلاق الفكري في الفرد يعني تقدم الأخلاق والصحة والقوة والنجاح والجمال والثروة وإنجاب الأطفال والحب للآخرين والتوافق معهم والإخلاص لهم ورؤية القمر والزهرة الجميلة ببصر وعاطفة أصفى وأصدق وأقوى، وتذوق الطعام والحياة بشهية أكثر نهماً ـ ولكان تفوق الشمس على القمر، والأسد على الأرنب، والفيل على النملة والشجرة على الأخرى، والآلة الزراعية أو غيرها على الآلة الأخرى ـ إنما يعني تفوقاً فكرياً.

إن التفاوت بين الأشياء والناس، وهذه الآفات التي تصيب الإنسان فرداً ومجتمعاً، أو تتعداه ليكون أفضل وأقوى ـ متسلسلة عن مجموعة طويلة ومعقدة من الأسباب والظروف والاحتمالات وعوامل التاريخ والمستويات الذاتية التي ليس منها الفكر ـ قوياً وضعيفاً، متحرراً ومستعبداً. وهذه المجموعة المترابطة غير الفكرية يخضع لها ذوو الأفكار ومن لا أفكار لهم، كما تخضع الشمس وأي جهاز وأصغر الأشياء لقوانين ليست فكرية، وكما تخضع قلوبنا وكل أعضائنا، بل وأفكارنا، وتؤدي أعمالها المختلفة بقوانين ليس فيها أي تفكير لا تقدمي ولا رجعي. إن الفكر عطاء الحياة لا معطيها.

ولكن هذه المسألة قد تؤخذ أو تفسر على وجه آخر، فالإنسان إرادة وفكر وفعل ـ هو حتماً كذلك مهما كانت الشكوك في الترابط بين واحد وواحد من هذه الثلاثة وفي قيمة كل منها.

إن الإنسان يريد ولكن إرادته لا تحدده أو تحدد اتجاهه لأن الإرادة إطلاق، ليست إيجاداً، هي كمجرد وجود القدرة أو الحياة أو العضل القوي أو وجود الماء في باطن الأرض. ثم يخطو ـ أي الإنسان ـ الخطوة الثانية وهي التفكير، فيفكر في إرادته وفيما يريد، وهذا نوع من التحديد الذهني ـ إن التفكير يحدد الإطلاق الذي هو الإرادة، إنه أسلوب من أساليب وضع العلامة على الهدف. ثم يخطو الخطوة الثالثة وهي الفعل، والفعل عملية تحديد خارجي لأنه متى وجدت الإرادة والفكر المتحدد ـ لا الفكر المتوزع ـ فلا بد أن يوجد الفعل أو توجد محاولته وهي فعل أيضاً. فالفكر هو جهاز التحديد في سلوك الإنسان، وهو واقع بين الإرادة والفعل الإرادي، واصل ما بينهما، ولولاه لما قام للإنسان تاريخ حضاري.

وماذا يفعل التفكير في حياة شعب أو فرد متأخر تجمع حياته كل نقائص الحياة؟ إنه يفكر أولاً فيما يعاني، وفي أن لما يعانيه أسباباً معروفة أو تمكن معرفتها، كما يمكن الانتصار عليها، ثم يفكر في أن هناك ـ في الواقع أو الاحتمال ـ حياة أخرى أفضل، وأنه يجب بلوغها، وأن لبلوغها وسائل معلومة أو يمكن أن تعلم كما يمكن الظفر بها، بل كما يجب الظفر بها ـ كما سوف يفكر في أن من لا يريد تلك الحياة أو من لا يستطيع بلوغها فهو ناقص الذكاء أو القدرة أو الكرامة. ثم ينتقل من تفكيره فيما عنده وفيما ليس عنده، مما يجب أن يكون عنده إلى الخطوة التالية الفاعلة. بهذا التعاقب عبر الإنسان تاريخه الطويل العقيم الذي لا يعني شيئاً مفهوماً أو شيئاً محترماً، لقد عبره لأنه موجود ومفروض عليه أن يعبره كما فرض عليه أن يمرض ويشيخ ويموت ويجوع. ولم يعبره لأنه يبحث عن شيء يراه أو يعلمه أو يحترمه أو يعقله.

لماذا نقرُّ الهون والفساد والآلام النازلة بنا ونصمت عن بلادات الطبيعة وقسوتها وعما فيها من دمامات؟ إما لأننا جاهلون أو لأننا عاجزون. ونحن نكون جاهلين ونبقى جاهلين إذا كنا لا نفكر، إذ إننا حينئذٍ لن نحاول أن نعلم ولا نستطيع أن نعلم لو حاولنا، ونكون عاجزين ونظل عاجزين إذا كنا لا نفكر في عجزنا وفي أسبابه ووسائل الخلاص منه، وإذا كنا لا نفكر أيضاً في أسباب تفوق من تفوقوا وهوان من هانوا. إن الحاكم أو العدو أو الكون ليظلمنا ويسحقنا ويتفوق علينا إذا كنا عاجزين عن الرد، ومتى نكون عاجزين عن الرد؟ نكون كذلك إذا لم نعرف ما هو الحاكم والعدو المعتدي والكون، ونكون عاجزين أيضاً إذا كنا لا نحاول المقاومة، إذا كنا لا نعرف كيف نجمع قوانا للتفوق والانتصار على الهوان والضعف والظلم. وسبيل هذا التجمع هو الفكر وحده.

فالشعوب المفكرة لا يمكن أن تظل مستودعاً للظلم والهوان والهزائم والشقاء ـ لو كان ممكناً أن توجد شعوب مفكرة، لأن مثل هذه الشعوب لن تتخذ حينئذٍ من ضعفها وجهلها وهوانها أفكاراً مقدسة أو آلهة أو معابد أو مذاهب أو قدراً طبيعياً أو إنسانياً لا يمكن الانتصار عليه. إن

التفكير يرفض الغباء، إذن هو يرفض الضعف والاستسلام. أما الشعوب غير المفكرة فلن ترفض أي هوان أو شقاء، لأنها لن ترفض أي غباء، إنها سوف تركع فوق كل الأطلال تذرف العبرات وتعفر الجباه في ضراعة وانكسار وعبادة. ما الذي يمكن أن يعصمها من ذلك؟ إنه القوة والكرامة، وما الذي يصنع القوة والكرامة؟ إنه الفهم، وما الذي يصنع الفهم؟ إنه التفكير.

وهذه الشعوب المؤمنة بماضيها وبقيم تاريخها، اللابسة لأسمال أسلافها بكبرياء، ترهب وترفض أن تنظفها أو تغيرها ستصبح أعلى مستوياتها الفكرية والقومية أن تتألم وتتمنى وتنشد الأناشيد في امتداح أربابها ومعلميها وآبائها. ولن تصنع كلما تزاحمت عليها الآلام والمظالم غير أن تحول آلامها ومظالمها إلى تفسيرات تهبها الشرعية والأخلاقية لترضى عنها وتباركها.

ولكن هذا التخريج الطويل المعقد لقيمة التفكير نوع من التفكير الذي لم تثبت قيمته والذي يراد هنا التدليل على أنه ليس شرطاً في التطور أو السعادة أو الرخاء أو في أي شيء. والإنسان في حياته وسلوكه بل وحتى في عبقريته ليس معتقلاً في أية صياغة عقلية أو تعاقبية، وهو لا يمكن اعتقاله في صياغة ما لا صياغة جيدة ولا صياغة رديئة.

*

القلق هو إحدى لغات الحياة المعبرة عن احتجاجها وغضبها، والفكر هو إحدى لغات القلق. وكل أنواع القلق، كالقلق الفكري والاجتماعي والتاريخي، إنما هو ترجمات للغة القلق الذاتي، لا يمكن أن نقلق أي نوع من أنواع القلق حتى ولا فكرياً ما لم نقلق ذاتياً، فإذا مرضنا بالقلق الذاتي أصاب القلق كل شيء فينا، أصاب تفكيرنا وأدياننا وآلهتنا المريضة بمرض الوقار والصبر المثير للغيظ، فقلقنا الفكري هو قلق ذاتي. إن المرضى بأمراض تتحول إلى قلق يصيب الذات هم أسرع الناس غضباً على أربابهم وتاريخهم وعلى الحياة والنظم التي يعيشون تحتها، وأكثرهم احتجاجاً عليها ـ القلق الذاتي قد يتحول إلى قلق فكري ولكن ليس محتوماً أن يتحول كذلك. أما القلق الفكري فلا بد أن يكون قد تحول إلى قلق ذاتي.

وكل إبداع أو تطور يبلغه المجتمع أو الفرد لا يمكن أن يكون إلا تعبيراً عن اعتمالات قلق ملح مزمن. والفعل كيفما كان ـ بل والخلق ـ إنما هو معنى من معاني القلق. والفاعل، وكذا أيضاً الخالق، لن يفعل أو يخلق ما لم يكن مصاباً إصابة خطيرة بداء القلق، فالخلق حالة قلقية، والألوهية والعبقرية حالتان من حالات القلق الخلاق. ولن نتصور فاعلاً أو خالقاً ما لم نتصور كائناً مصاباً بهذا المرض العبقري.

إن القلق عذاب ولكنه عذاب خلاق، ولا خلق بدون عذاب، والخالقون هم أشد من نتصور عذاباً. فالخلق ليس لذة كما قد يظن، إنه نوع باهظ من الألم الشرير العابث، يتحمله الخالقون الذين كنا نعتقد أنهم يتلذذون ويتنزهون وهم يمارسون مهنتهم التي لا تعني أي هدف أو

مصلحة لمن يخلقون، أو أي هدف أو مصلحة لهم هم، غير أن يتخففوا من آلامهم ويتعالجوا من أنفسهم المصابة بعذاب القلق. إن عملية الخلق ليست رسالة يؤديها الخالق ـ أي خالق، ولكنها تعبير ذاتي عن المعاناة الذاتية، فالخلق أسلوب من أساليب الاعتداء على المخلوقين وليس تضحية أو فدائية يتحملها الخالقون بشهامة وحب وصداقة ومنطق من أجل الحياة أو الكون أو الناس أو الأشياء أو من أجل الفن نفسه.

لم نكن نتصور أن الخالقين يتعذبون، وأن الذين لا يتعذبون لا يخلقون. إن كل ولادة عذاب وقلق ذاتي، وليس في أنواع الولادات ما هو رسالة، كل الولادات، ولادات الفكر والإبداع والفنون وولادات الذات ـ كل هذه الولادات هي حزن وقلق وعذاب كالغضب والبغض والحقد والحسد، وليس فيها ما هو حب أو صداقة أو رسالة أو فرح. إذن لماذا يلد الناس والكائنات؟ هل هم يبحثون عن الأحزان والعذاب؟ بل هم هاربون من الأحزان والعذاب، وإنهم يلدون كما يخافون ويمرضون ويشيخون ويموتون ويكرهون الآخرين والأشياء. إن الولادة ـ أي الخلق ـ مفروضة على الكائنات كما فرضت عليها ذاتها وآلامها وتفاهاتها. إن الكثير من الحروب أسلوب متوحش من أساليب البحث عن العذاب أو الهرب منه ـ إنها تعبير عن القلق المميت، وعن اللذة.

إن اللذة نفسها ألم لأنها ضرب من القلق، فلا لذة بلا قلق، وليست لذة المتلذذ إلا مرحلة نهائية من مراحل القلق المتفجر ـ ليست اللذة إلا نضج الألم وانفجاره والتعبير عنه على نحو ما ـ إن المتلذذ جداً هو إنسان قلق ومتعذب جداً. وليست اللذة كذلك إلا هرباً ـ هرباً من الألم الذي يولده القلق الباحث عن الراحة. ولا لذة بدون ألم كما لا تفكير بدون قلق.

وقد أصاب القدماء قليلاً حين تصوروا آلهتهم وصوروهم قلقين مرضى بالغضب والسخط والحقد والتوتر، وقد تصوروهم كذلك ليتصوروهم خالقين وقاتلين ومفكرين كذلك. وأسطورة الاستراحة في اليوم السابع بعد الفراغ من عملية الخلق تعني أن الخلق كان معاناة وألماً حتى على الإله نفسه.

أما الموتى فهم وحدهم المطمئنون المستريحون، إنهم لا يقلقون ولا يتعذبون، لهذا لا يخلقون ولا يفكرون. إن أضعف صفات الإنسان ـ صفاته التي تجمع شتات مساوئه وهوانه وعجزه هي موهبة الرضا والاستقرار. وفي كل المجتمعات والناس رضا واستقرار، وبحث عنهما على مستويات متفاوتة مهما كانت الظروف والحياة التي يواجهون ـ مهما كانت ظروفهم وحياتهم رديئة وأليمة. فالرضا والاستقرار في المجتمعات وفي الآحاد حالة نفسية وذاتية، وليسا جودة ظروف أو حقارة ظروف. ولا يوجد فاصل بين الظروف التي تصنع أو التي يجب أن تصنع القلق، وبين الظروف التي تصنع الرضا والاستقرار أو التي يجب أن تصنعهما ـ ليس

هناك مستوى معين من الألم والفساد والتخلف والظلم محتوم أن تنكره المجتمعات والأفراد أو يقلقوا عنده، ولا مستوى معين من التقدم والاستقامة والعدالة والعطاء والأخذ ترضى عنده هذه المجتمعات والأفراد أو يقبلوه، لأن القلق والرضا المتضادين هما تعبير عن مستوى الذات وحالتها لا عن مستوى أو قيمة ما تواجه وتعاني الذات.

إن روح الرضا والاستقرار أو الحاجة إلى الرضا والاستقرار مفروض أن تضعف في الشعوب والأفراد موهبة النضال والمقاومة والتفكير في التغيير والرغبة فيه. وهذه الروح أو الحاجة تجعل المجتمعات المصابة بها كأنها هي في حالة تخدير صناعي ـ إنها تخنق ـ أو محتمل ـ أن تخنق فيها احتمالات التململ والاشمئزاز والتفكير المقاوم لما هو كائن.

ما أعظم قدرة المجتمعات والناس على أن يهزموا أنفسهم ويهزموا فيها معاني الاحتجاج والغضب على الآلام والمهانات والتفاهة ـ ما أعظم قدرة الشعوب والآحاد على التسامح مع من يسحقون كرامتها وشجاعتها وذكاءها وكل احتمالاتها الأخرى دون أن تغضب أو تشمئز، بل ودون أن تتألم أو تعبر عن ألمها ـ ما أعظم قدرة البشر على إذلال أنفسهم وعلى الدفاع عن آلامهم وأحزانهم وأعدائهم. إن موهبة التسامح والرضا والعجز عن القلق والاحتجاج والتفكير هي أضخم وأسخى هدية يهديها ضعف الإنسان إلى آلهته وطغاته وحكامه ومعلميه الجهال الذين ظلوا كل التاريخ يسحقون إنسانيته وكبرياءه وكل احتياجات حياته بلا أي مستوى من الشرف أو الأمانة أو الفروسية. والذين يموت فيهم القلق والاشمئزاز من الدمامات يجدون في الخمول والبلادة والإيمان بأقبح الآلهة والنظم والعقائد كل معاني الذكاء والاستقامة الأخلاقية والنفسية بل وأسمى معاني العبادة، ويذهب التاريخ يمر بهم ويتحداهم بإعراضه عنهم وكأنهم خارج عملياته وتحدياته، لا يصنعونه ولا يستجيبون له إلا ببطء وبلادة مكرهين ومحمولين بدون أن يريدوا أو يفهموا، والتاريخ أيضاً لا يصنعهم إلا قليلاً وبلا مبالاة أو احترام، وكأنه يجزيهم على الإهمال والبلادة بإهمال وبلادة أشد. وحينئذٍ يصبحون مثل القطع الأثرية غير الثمينة الموضوعة بلا عناية في أحد متاحف التاريخ خارج ملحمته المتحركة المحتدمة، ويصبحون أيضاً أسوأ الشعوب لأسوأ الحكام وأغبى العبيد لأغبى الآلهة.

إن كل إله وطاغية ومعلم وحاكم يرى في القلق وتعبيراته كالتفكير والنقد والاحتجاج عدواً لدوداً، لأن جميع الآلهة والطغاة والمعلمين بل والحكام يريدون للمجتمعات الخنوع. ولأن هؤلاء جميعاً يدركون ـ مهما كان مستوى ذكائهم وثقافتهم ـ ما في القلق وأسبابه من خطر عليهم جاؤوا جميعاً في كل العصور أعداء صادقين ومحاربين أشداء للقلق ودعاته، مبشرين بكل ما يهب الرضا والإيمان والقناعة العقلية ـ إنهم يقيمون أضخم وأقوى الأجهزة وأثقلها أعباء لكي يحولوا الجماهير إلى راضية مؤمنة، لا تقلق ولا تفكر ولا تتطلع خارج وجودها أو ظروفها.

وهؤلاء حينما يقاومون الملحدين أو الأفكار الجديدة والمخالفة إنما يقاومون القلق والتطلع، ولا يقاومون الإلحاد أو الأفكار التي تخالف أفكارهم.

ليست الحياة آمالاً تبلغ وترضى، ولكنها محاولات تقتات بالقلق والاستمرار، وليست القوة أو الذكاء أو الحظوظ السعيدة في تحقيق مستويات ما والوقوف عندها، ولكنها في السعي الدائم القلق بلا هدف وراء مستويات مجهولة كأنها هدف. وليس القلق على أهداف ضائعة أو يحتمل أن تضيع، وليس السعي وراء أهداف تلوح بإغراء وتبرج، ولكن القلق والسعي هما وظيفة الحياة وقوتها وتسويغها. لا توجد أهداف وإنما توجد حاجة إلى الشعور بالأهداف والحديث عنها والاقتناع أو الانخداع بها، لهذا فالأفكار ليست شيئاً في الحياة بل هي ضد الحياة وخصمها، ولأنها كذلك جاءت دائماً مهزومة أو عملية منافقة للحياة ـ إن الأفكار تعصي نفسها لكي تطيع الحياة وتضلل نفسها لكي تكون مخلصة في الدفاع عن العبث والأكاذيب والتفاهات.

ولو أننا شعرنا أننا قد حققنا جميع أهدافنا فماذا يمكن أن نكون ـ هل يمكن حينئذٍ أن نكون سعداء ونستغني عن القلق والاحتجاج والغضب والسعي وراء شيء لا نعرفه ولا نريده، أو عن النقد لشيء ما؟ إن بقاءنا ونشوتنا في أن نظل دائماً نبحث عن أنفسنا دون أن نجدها وأن نطارد أهدافاً لا قيمة لها دون أن نستطيع بلوغها. ولو أننا وجدنا أنفسنا وبلغنا أهدافنا لوجب أن نعتقد بأننا لم نجد ولم نبلغ. إن وجود النفس وبلوغ الهدف والوقوف عندهما انقراض. والحياة مهما بلغنا أو أخذنا منها لا بد أن تظل تريد وتطالب، وهي لا تريد أو تطالب لأنها تحتاج، بل لأنها تريد. فالإرادة غير المتحددة وغير البالغة لمراداتها هي الاحتياج الدائم للحياة، وهي التعبير الدائم عنها.

إن الآمال الكاذبة غير المدركة وغير المستطاعة نوع من التنفس الروحي، وهي طاقة غير قابلة للاستهلاك ـ أعني أنها تحرك الآلة دون أن تستعمل الآلة. إن الآمال كالحياة في أنها لا تكون إلا مستقبلاً، فنحن لا نحيا فيما مضى بل فيما سيأتي. وليس الذي بين الآتي والماضي إلا خطأً وهمياً لا وجود له، فلا مستقبل بدون أمل، كما لا حياة بدون مستقبل. إن طبيعتنا تفرض علينا أن تكون آمالنا كأيام الحياة مهما خلفنا منها وراءنا فإننا نريد أن نستقبل منها ما هو أكثر وأقوى وأشد إغراء واستحالة وتعذيباً لنا، وكأيام الحياة أيضاً في أنه لا يعنينا منها إلا ما بقي مستقبلاً، أما ما ذهب فهو كقطعة ميتة من حجارة التاريخ الذي لا يتصل بنا.

إن الأمل ـ ولا سيما الأمل الكاذب الغبي الفظيع ـ هو أكبر جهاز تكييف اخترعته الحياة لتلطف به طقسها الشرير، وهو أكبر قوة تجعل عابري صحرائها المتعبين الضالين يعبرونها وفي أفواههم وقلوبهم أناشيد الغباء والاستسلام للمهانات والآلام وللزعماء القتلة، وللآلهة الأغبياء،

وللعقائد المذلة المعادية للإنسان، وهو ـ أي الأمل الكاذب البليد الفظيع ـ حيلة من حيل التعويض. وهل كانت الحياة ذكية أو نبيلة في اختراعها إياه؟

ما أكثر من يموتون في واقعهم اختناقاً ويأساً لولا المجال الواسع الكاذب الذي يطلقون فيه آمالهم الغبية ـ التي لو تحققت لقتلتهم ـ إطلاقاً لم تستطع أقوى وأطغى الآلهة والطغاة والتعاليم والعقائد أن تضع له حدوداً في أي عصر من العصور؟

إنها لأكذوبة ومحال تلك هي أكثر الآمال، ولكنها أكذوبة صالحة، وهي أنبل جداً من أفضل الحقائق الصديقة لنا. وأمل كاذب يجعلنا نقلق خير جداً من حقيقة صادقة تجعلنا نرضى ونستقر. إن الأمل الشرير هو الذي يمنعنا من أن نحاول ونقلق، وليس هو الذي لا يعطينا ولا يصدقنا. فالأمل الباعث الذي يجعلنا نتحرك نحوه فوق النار والجنون ولا يجعلنا ننتظره انتظاراً هو أمل سعيد وإن كان كاذباً ومحالاً.

وهذا هو الفرق بين آمال من يقلقون ويفكرون ويناضلون، وآمال من يطمئنون ويرضون وينتظرون. وقيمة أي أمل هي في قدرته على تحريكنا وإقلاقنا وليست في قدرته على أن يكون صادقاً أو مرضياً أو مستجيباً لاحتياجاتنا.

وأشهى وأذكى أساليب الحياة هو ما كان طراداً بين مؤمل يريد ويسعى ويقلق بحماس، وأمل يبتسم ويتألق ويرجي بالوصال ويغازل بخداع وذكاء، ولكنه مع ذلك يتعالى على الاستسلام. إننا لا يجب أن ننتصر وننال، ولكن يجب أن نغازل ونتحرق ونفكر ونحتج ونهاجم الحدود والحصون المحروسة المنيعة، ونتعذب وراءها، وإذا فتحت أمامنا هذه الحصون والحدود وجب أن نهاجمها أيضاً لأنها فتحت، لأننا لا بد أن نهاجمها إذا كانت مغلقة لأنها مغلقة، ولا بد أن نهاجمها إذا كانت مفتوحة لأنها مفتوحة، ووجب أيضاً أن نبحث عن حصون وحدود أخرى لنهاجمها ونناضل لاقتحامها، لكي نتعذب ونقلق في نضالنا لاقتحامها ومهاجمتها.

إن الرياح لا تهاجم الأشجار لأنها تطلب منها شيئاً أو لأنه واجب أن تهاجمها، والإنسان لا يكون أو يريد لأنه يجب أن يكون ويريد، أو لأنه يطلب شيئاً، أو لأنه يبلغ إلى الكون رسالة ما، بل لأنه هكذا. إن إرادة الإنسان وحاجته لا تساويان إلا إرادته وحاجته ـ لا تساويان هدفاً كونياً أو أخلاقياً أو إنسانياً.

إن الأمل يثير فينا شعورين متقاربين: القلق والتحفز، والقلق المتحفز هو القلق المبدع. ومع أن الذين يفقدون الأمل ـ لو كان يمكن أن يوجد من يفقدونه ـ يقلقون لأنهم أحياء ولا حياة بلا قلق، إلا أن قلقهم ينتهي إلى خمود. إذن فالقلق والأمل فيهما المعنى الكبير للتلازم.

ولماذا لا يقلق الناس ولا يفكرون في الغالب ـ أو لماذا لا يقلقون ويفكرون على مستوى

واحد أو إزاء كل ما يصنع القلق والتفكير؟ وهل يحدث القلق والتفكير بالتعليم والتحريض، وهل يفقدان أيضاً بالتحريض والتعليم؟ إن سلوك الناس جميعاً حتى المفكرين الكبار جداً قد يفهم منه أن الأمر كذلك ـ أي أن القلق والتفكير يكونان ويفقدان بالتعليم والتحريض.

ولهذا فإن جميع الناس: الطغاة والدعاة والفلاسفة والتقدميين جداً هم إما ممن ينهون عن القلق ويعظون ضده ويحاربونه ويبشرون بالرضا والإيمان، وأما هم ممن يدعون إلى القلق ويحرضون عليه ويشرحون مساوىء الاستقرار والاقتناع بالنظم أو المذاهب أو العقائد أو الحياة الموجودة.

إذن فالناس فريقان: فريق يحاول أن يهدم القلق بالتعليم، وفريق يحاول أن يصنع القلق بالتعليم. فالقلق إذن وترك القلق هما تعليم في تقدير كل الناس وسلوكهم.

وهل من المفروض حتماً الاعتقاد بأن التسكين والترضية الطويلة للانفعالات قد يحدث فيها نوعاً من العجز أو الضعف، وإن الثقة والغيبية قد تضعفان رغبة الحياة في القلق والتغيير والاحتجاج الفكري على التفاهات والمظالم والدمامات التي لا يستطاع إغلاق العيون دونها ـ أو الاعتقاد بأن الفضح الدائم القوي لأخطاء الكون والحياة والمذاهب والعقائد ولغبائها قد يصحح رؤيتنا لها؟ والرؤية الصحيحة للأشياء قد تصنع الاستفظاع والاستنكار والغضب العقلي. وذلك حتماً يعني أعلى مستويات القلق.

ولكن هل للقلق قيمة بدون موهبة وظروف مواتية تحوله إلى نشاط وإبداع وذكاء؟ ألا يتحول القلق بدون موهبة وظروف ملائمة إلى تهديم وضياع واحتراق ذاتي؟

هل القلق موهبة مبدعة أو هل يخلق الموهبة المبدعة، وهل الموهبة المبدعة لا بد أن تكون قلقة أو لا بد أن تصاب بالقلق أو أن تعيش في ظروف مقلقة؟ أليس محتوماً أن تؤدي الموهبة نفسها مع القلق وبلا قلق، ومع التفكير وبلا تفكير، بل ومع الذكاء وبلا ذكاء؟ أليست الموهبة منفصلة عن خصائص النفس الأخرى، عن الخصائص العاطفية والانفعالية، وعن غيرها من الخصائص الذاتية؟ إذا كانت العبقرية لا تحتاج إلى ذكاء أو تفكير فكيف تحتاج إلى قلق أو كيف يشترط فيها القلق؟ وإذا كان الجمال والقوة يكونان بلا قلق أو لا يكونان متفوقين مع القلق فكيف لا تكون الموهبة والنضال ضد الآلام والبشاعات بلا قلق؟

ألا يحتمل أن القلق دائماً لا يعني إلا الهدم، وأن الذين يبدعون ويتفوقون ويناضلون ضد الألم والتخلف والظلم والقبح لا يفعلون ذلك لأنهم مصابون بالقلق، بل لأنهم موهوبون، ولأنهم لا بد أن يتحركوا وأن يعطوا موهبتهم بلا خيار، وإنهم لو كانوا بلا قلق لكان عطاؤهم وإبداعهم أقوى وأذكى؟

*

أكثر الناس يحولون ما يسمعون ويقرؤون إلى حقائق يختزنونها دون أن يجروا عليها أي امتحان فكري، بل يحولون ذلك إلى عقائد يتحدون بها كبرياء الشمس وجهارتها وسطوعها. إن أكثر الناس أجهزة استقبال لا ترفض أو تناقش أو تنقد أو تفهم ما يلقى فيها. والناس إذا كذبوا شيئاً لا يكذبونه لأنهم يفكرون أو ينقدون بل لأنهم يصدقون شيئاً آخر، فتصديقهم للشيء الآخر يجعلهم يرفضون نقيضه أو منافسه دون أن تكون فيهم مزايا الرفض. فالتكذيب في سلوكهم نوع من التصديق وليس نوعاً من التفكير ـ هم يكذبون المذاهب والأرباب والآراء التي تخالف مسلماتهم، لا التي تخالف منطقهم، إذ ليس لهم منطق.

إن المفكر والمكذب كلاهما يرفض، ولكن المفكر يرفض لأنهم ناقد، أما المكذب فإنه يرفض لأنه مشغول بشيء آخر، إنه جهاز مشحون بشيء ما، لهذا يرفض استقبال شيء آخر.

والذين لا ينقدون أو يفكرون ينكرون الحقيقة بالأسلوب الذي يثبتون به الخرافة ـ أو يثبتون الشيء بالمنطق الذي به ينكرونه، إنهم في الحالتين مصدقون، وهم دائماً يجمعون بعنف بين النقيضين، بين جحود أكبر الحقائق وتصديق أسخف الخرافات، يجحدون هذه ويصدقون هذه لأنهم تابعون مأمورون. وهم لا يعملون شيئاً للتدخل في توجيه حياتهم أو صياغتها، ولا يعطون شيئاً إنسانياً، ويبدون وكأنهم بلا أية مشاكل عقلية.

إنهم لا يتخاصمون أبداً مع عقولهم، هم في سلام وتوافق عقلي مع كل الأشياء التي تقتلهم أو تلعنهم أو تفقأ عيونهم بدمامتها ووحشيتها، إنهم لا يحتجون على شيء بمنطقهم، ومهما احتجوا على الأشياء بشهواتهم أو أخلاقهم أو مصالحهم فإن عقولهم في راحة وهدنة صادقة مع نفسها ومع كل الأشياء ـ إن عقولهم تدافع عما تهاجم وترفض أخلاقهم ومصالحهم وضروراتهم، فحياتهم أكثر ثورة واحتجاجاً على البذاءات والأخطاء من عقولهم، إن عقولهم لا ترى ما ترى حياتهم. والهدنة العقلية مع الأشياء الفاجرة العدوانية جداً موهبة يعيش بها الأكثرون.

أما الذين يفكرون ويحتجون بمنطقهم على الأشياء فهم دائماً غرباء وخوارج وشاذون ـ إنهم كائنات غير معقولة بل غير سارة، هم عقاب ومضايقة للأكثرين، للمجتمعات التي يعيشون فيها ـ إنهم لغة غير مفهومة في مجتمعاتهم، لغة مهجورة ومرفوضة، لا يوجد من يعرفونها ولا من يرغبون في معرفتها. ومهما تكلموها في هذه المجتمعات أو دعوا إليها فلن تفهم ولن يوجد من يحاول تعلمها أو من يرغب في تعلمها.

لماذا يفكر قوم ولا يفكر الآخرون، أي الأكثرون ـ لماذا توجد الزلازل والبراكين في مكان دون مكان، ولماذا لا توجد في كل مكان أو لا تفقد من كل مكان؟ وهل المكان هو الذي

يختار أن يكون بركانياً أو يكون غير بركاني؟ إن التفكير في قوم وفقده في قوم آخرين كالبركان في مكان وفقده في مكان آخر.

التفكير والتصديق نوعان من العادة، ونوعان من النشاط والخوف من النشاط والقدرة عليه والعجز عنه. وظروف المجتمع وخصائصه هي التي تصنع إحدى العادتين، وكذلك خصائص الفرد ومزاجه وظروفه. إن الذي يفكر كالذي يخاف ويحب ويحزن ويموت، لا بد أن يفعل ذلك حتى ولو حاول ألا يفعله، إنه لا يفكر أو يترك التفكير بالإرادة أو بالفضيلة أو الرذيلة، بل بالضرورة والإلزام الذاتي، فالتفكير حكم على المفكر وليس حكماً منه.

توجد مجتمعات تزجر التفكير وتعاقبه وتغني عنه بأن تعطي جميع الحقائق الماضية والآتية وجميع الاحتياجات النفسية والإنسانية في كتب وتعاليم وسلوك جماعي موحد مقدس مفروض على كل آحاد القطيع أن ينتظم فيه وأن يموت في مكانه منه كما يموت أي حجر في مكانه من الكتلة البنائية.

وهذه المجتمعات ترى دائماً وبثقة غير متهمة أن التعاليم والنصوص أضفى من واقع الحياة ومن ضرورات الأحياء، وترى كذلك أن حكمة الآباء وتجربة التاريخ قد تقمصت كل الظروف فوعتها وفسرتها تفسيراً شاملاً خالداً. فكل شيء مسطور ومنقول.

ولكن لماذا تكون هذه المجتمعات هكذا، لماذا قيل لها وقالت هذا، ولماذا صدقت ما قيل لها أو ما قالته لنفسها، ولماذا لا تثور ضد نفسها أو يثور ضدها الذين تريد أن تفرض عليهم هذه التعاليم؟ فالذي لا يتلاءم مع ما يقال له أو لا يريده مفروض فيه أن يرفضه.

إن الذي يصنع الغباء والذي يصدقه كلاهما غبي أو رديء، فالذي يؤمن بالغباء ليس بريئاً، كالذي يخترعه أو يدعو إليه.

وهذه المجتمعات التي لا تحتاج إلى التفكير هي مجتمعات غير متطورة، فحياتها سهلة وضيقة، ليست معقدة تعقيدات فنية أو صناعية أو علمية أو سياسية أو اجتماعية، لكي تحتاج إلى تعقيدات فكرية مماثلة. ومشاكل الإنسان الكبرى المعقدة هي التي تفرض عليه أن يكون مفكراً. ولكن هل هذا صحيح؟ إن مجتمعات كثيرة متطورة ومعقدة جداً، ومع هذا فإن هذه المجتمعات تحيا كآلات بلا أية همسة من همسات الفكر، وقد يوجد مفكرون عظام جداً في مجتمعات متخلفة جداً. والتصادم بالكون وبسخافات الحياة ومظالمها وعبثها يكفي ليجعل منا ناقدين ومفكرين جداً مهما كان مجتمعنا متخلفاً وسهلاً وبدوياً.

إن كل شيء حتى أجمل الأشياء وأكثرها ملاءمة لنا يفرض علينا التفكير والنقد، ولكننا نرفض أو نعجز أن نفكر وننقد، نرفض شيئاً كل شيء يدعونا إليه ويدلل عليه. ولو كنا نعيش في ضيافة أنبل الآلهة وأعظمها عبقرية وقوة لوجدنا في كل ما نجد ونرى ونفهم ما يفرض علينا

بإلحاح وقسوة أن ننقد ونفكر. إننا حينئذٍ سوف نرتفع فوق حصار الضيافة الكبرى، ضيافة الإله الأعظم لنرى ما لا يمكن احتماله أو الدفاع عنه. سنقول حينئذٍ مهما كان إغراء الضيافة وتأثيرها على أخلاقنا وتفكيرنا وشجاعتنا:

أيها الإله الأقدس، كيف فعلت بنفسك كل هذا، كيف وقعت في هذه الورطة، ورطة وجودك وإيجادك لهذا العالم بكل ما فيه من بشر وأشياء هي إهانة كبرى لمن هو دون مستواك في كل شيء، هل فرض عليك أن تكون أم أنت الذي اخترت أن تكون؟ وإذا كنت أنت الذي اخترت أن تكون بلا تدبر للعقبى فلماذا أيها الإله الأقدس فرضت على العالم أن يكون معك ـ هل يليق هذا بنبل إله عظيم؟ هل سألت الكون والإنسان وكل شيء قبل أن تفرض عليه الكينونة أيقبل أن يكون أم يرفض بعد أن أريته صورة كينونته كما هي بكل آلامها ودماماتها ونهاياتها؟ هل أردت أيها الإله الأقدس أن تشرك معك العالم في العذاب والعبث، هل غرت منه بعد أن ذقت وجربت شقاء الكينونة وتفاهتها وسخف أهدافها وأهوال عقباها؟ هل خلقته لتتسلى وتعبث به وبآلامه وضعفه وبكائه وافتضاحه ونقائصه الكثيرة وبصلواته ونفاقه لك؟

ثم أيها الإله العظيم كيف تستطيع أن تسعد هناك، في سمواتك، فوق النجوم والسحاب والحشرات والذباب الشرس اللئيم، بينما عبيدك المصنوعون بيديك الرحيمتين، يعانون كل أنواع العذاب والضياع مع الهوام والصراصير والأمراض وفي انتظار الشيخوخة والموت والحروب والأزمات وتعاقب الطغاة والحكام المرضى والمعتوهين عليهم، يحكمونهم ويحولون آلامهم النفسية والتاريخية وأحقادهم وطموحهم وجميع منافساتهم إلى تجارب عليهم ومغامرات بهم، ويشترون برخائهم وسلامهم الكبرياء والأمجاد العدوانية والإعلان عن أنفسهم؟ أيها الإله الأعظم هل يليق هذا بشهامتك وشرفك؟ إني مع كوني ضيفك ومحاصراً بكرمك اسمع ضجيج الاحتجاج عليك يصرخ في كل تفسيراتي وقراءاتي لك ونظري إليك.

أيها الإله العظيم إني أكاد أبكي حزناً واحتجاجاً عليك كلما تذكرت مريضاً لا أمل له في الشفاء، أو طفلاً مصاباً بأحد أمراض الطفولة اللئيمة المعقدة، أو شيخاً يهتز ضعفاً وهزالاً ويأساً خائفاً ولا ينتظر من الحياة أية تحية تجامله وتريحه أفضل من الموت.

إن كل شيء يصدم العقل ويتحداه حتى الجمال والشباب والقوة والصدق والصحة. فالجمال احتجاج على الدمامة، والشباب احتجاج على الشيخوخة، والقوة احتجاج على الضعف، والصحة احتجاج على المرض، والصدق احتجاج على الكذب والنفاق، وكل شيء يعد طيباً ليس إلا احتجاجاً على نقيضه وعلى فنائه. إنه ليس في هذا العالم من يستطيع أن يكون دائماً وفي كل المواقف صادقاً ونبيلاً.

إن أكبر وأعظم الرجال محكوم عليهم أحياناً بأن يذلوا ويصغروا وينافقوا وأن يتغزلوا بالظلام

وأن يهجوا نظافة الشمس ـ إن الكبار جداً لا بد أن يكونوا ولو أحياناً صغاراً وتافهين وعبدة قرود وأوثان. إن في باطن كل جمال أبشع الدمامات، وفي أعماق كل عظمة أتفه الصغائر، وفي انتظار كل حياة حشود المآسي والهموم، وأن في جبهة كل شمس ليلاً شديد السواد. إن كل شيء إذن يصدم العقل ويشتمه ويتحداه، فإذا لم يرفض ويقاوم وهو يواجه كل ما يشتمه ويصدمه ويتحداه فلا شيء يستطيع أن يجعله يفعل ذلك. فالعقل الذي يستطيع أن يهضم كل الكون والحياة والبشر لا يمكن أن يعجز عن هضم شيء. كيف يستطيع المنطق الذي لا يرى غباء الكون أن يرى غباء المذاهب والنظم والناس؟ إن عقلاً يؤمن بمنطقية الطبيعة يكون سخيفاً أو غير عادل لو أنكر منطقية أي شيء.

إن في طبيعة بعض الناس أن يكونوا مفكرين، كما أن في طبيعة بعض المواد أن تكون مشعة، وفي طبيعة آخرين أن يكونوا غير مفكرين، كما أن في طبيعة بعض الأجسام أن تكون معتمة. وكثير من الناس يفكرون لأنهم قلقون أو متعبون أو ميالون إلى الاستعلاء والتحدي، أو متفوقون في طاقاتهم الذهنية، أو لأنهم مهزومون، فيحاولون أن يعوضوا أو يكفروا عن هزائمهم بشيء ما، فيكون هذا الشيء أحياناً هو التفكير. إن التفكير أحياناً غضب أو اعتداء أو عناد أو خصومة مع قوم ما ـ إن التفكير أحياناً تقاتل مع الناس وشتم لهم وليس محاولة لفهمهم.

والمفكرون في كل ظروفهم ليسوا قوماً ممتازين بالفضيلة والحب، ليست رسالتهم أن يبحثوا عن النور والجمال، وإنما هم قوم يتقاتلون مع أنفسهم ومع الآخرين ومع الكون والحياة بأسلوب ما.

وتوجد مجتمعات وظروف أخرى تخلق الاحتياج إلى التفكير: تخلقه بالضرورة كما تخلقه بالتعويد، فالذين يحيون حياة صعبة وعنيفة وقوية ومهددة بالخطر، ويحيون في ظروف قلقة ومتحركة لا بد أن يكونوا مفكرين وأن يشعروا بالحاجة إلى التفكير مهما حرم عليهم أن يكونوا كذلك. والذين يعلمون أن يفكروا ألا يحتمل أن يتعلموا التفكير، فالحياة خليط من التعويد والحاجة؟

ومرة أخرى، هل هذا صحيح؟ أليس التفكير حالة ذاتية وليس حالة ظروف فقط؟ قد نكون في ظروف تفرض أن نفكر، بل في ظروف تحتاج إلى أقوى البلادات لكيلا يقتلنا التفكير، ومع هذا لا نفكر، كما قد نكون في ظروف مناقضة للتفكير ومع هذا لا نستطيع إلا أن نفكر. إن الظروف ليست كل شيء لأن الذات شيء، ولو كانت الظروف كل شيء لما كانت الذات شيئاً.

وهل يمكن أن يتعلم الناس التفكير كما يتعلمون الكتابة والقراءة واللغات والنفاق والكذب ـ أو هل يمكن أن يتعلموا العجز عن التفكير بهذه الوسيلة؟ وكما توجد مجتمعات تستغني عن

مزايا الحضارة ومهاراتها كذلك توجد مجتمعات تستغني عن أكبر مزايا الإنسان وهي الأفكار. وهل الأفكار هي أكبر مزايا الإنسان؟ ألا يحتمل أن تكون الأفكار هي أكبر رذائل الإنسان؟ وأيهما أفضل وأوجب أن نتعلم القراءة والكتابة والكلام أم أن نتعلم التفكير؟ ولكن هل تخضع الأمور للأفضل أو الأسوأ أم تخضع لذاتها فقط؟ ولو كانت الأشياء أو الناس يخضعون للأفضل لما وجد إنسان ولا شيء رديء في هذا العالم ولكان الموجود هو دائماً الأفضل. إن الأفضل والأردأ لغة إنسانية وليسا وجوداً كونياً بل ولا وجوداً إنسانياً.

جميع الناس يجدون أنهم لا بد أن يتعلموا في هذه الحياة شيئاً فهل وجدوا أنهم لا بد أن يتعلموا التفكير؟ بل إن جميع المجتمعات التي لا بد أن تتعلم وتعلم شيئاً تحرم بعض التفكير أو تخاف منه أو تمنعه بأسلوب ما من أساليب المنع ـ لا يوجد مجتمع يبيح كل التفكير بكل وسائل التعبير عنه. إن لكل مجتمع نظاماً، ولكل نظام تفكيره وفلسفته. إذن فالتفكير المضاد لهذا النظام هو شيء رديء أو خطير أو محرم. وهذا يعني أن كل مجتمع لا بد أن يقاوم بعض التفكير ببعض وسائل المقاومة. أما أن نرى نوعاً من التفكير خطيراً أو رديئاً ثم نبيحه ونبيح التعبير عنه فهذا موقف يحتاج إلى تفسير لعظمته أو لضعفه وكذبه.

إن التفكير هو تحويل الآخرين والكون من مجرد وجود مغاير إلى موضوع إنساني، ومن كتلة إلى سبب ومسبب، وإلى جمال ودمامة ومنطق وخروج على المنطق .

والمجتمعات التي ليس فيها من يفكرون يفسد كتابها ومعلموها ودعاتها وزعماؤها والأقوياء فيها، ويضلون دون أن يخشوا سقوطاً أو افتضاحاً، أو أن يقعوا تحت النظرات الغاضبة الناقدة الشاتمة. والنظرات الناقدة الغاضبة إذا لم تقتل فلا بد أن تهز وتخيف. وهؤلاء لا يخافون شيئاً مثلما يخافون الفكر الناقد المحتج لأنه هو الذي لا بد أن يسقطهم أو يغيرهم أو لأنه على الأقل لا بد أن يفهمهم ويرهبهم ويزعجهم بفهمه لهم. ولا يلعن الفاسد والضال شيئاً كما يلعنان الفكر الذي ينقد ويحتج ويفسر، ولا يباركان شيئاً كما يباركان غباوة التصديق. إن التصديق أسلوب من أساليب إلقاء السلاح والخروج من المعركة في ظروف يجب فيها القتال، وأن الفاسد والضال ليرهبان التفكير رهبة لص الليل لمصباح الشرطي وخفق قدميه.

التفكير الناقد المفسر نوع من الرؤية البعيدة الجارحة المكتشفة لما وراء الأقنعة الكثيفة المختلفة ولما تحت الظلام، المقتحمة لأبعاد الحدود والحواجز. إن الفاسدين والضالين من الحكام والزعماء والمعلمين ليرتجفون أمام الفكر الفاحص كما يرتجف البدن المتحول إلى هدف لأقوى الضربات القاتلة المسددة بغضب وحقد. النظرات الفاحصة قد تغضب أو تحرج أو تخجل، أما التفكير الفاحص فقد يقتل. والناس يتقون النظرات الفاحصة بالملابس والبيوت وأمثال ذلك، ويتقون

الأفكار الفاحصة بالمذاهب والعقائد وبكل أساليب الخداع والكذب والدعايات، وبتحريم التفكير والمعاقبة عليه وبالقوانين المختلفة.

والتفكير هو بصر الإنسان، يكتشف به طريقه ويريه ما فيه من أوحال وأخطار وحفر، وهو سلاحه الذكي الذي يقاتل به في الظلام. ولعل الصحيح أن بصر الإنسان وسلاحه شيء آخر غير التفكير وأكثر منه صواباً ونشاطاً ـ لعل الإنسان يرى طريقه ويقاتل أعداءه بالأجهزة التي يرى بها النجم مداره في الظلام فلا يخطئه، وتقاتل بها الحشرة أعداءها وتكسب قوتها ببطولة ودهاء أكثر من الإنسان أحياناً.

إن أية جماعة لا بد أن تتمرد على هوانها وشقائها لو أنها استطاعت أن تتحول من مصدقة إلى مفكرة ناقدة، فالتفكير الناقد هو النبي والقائد والصديق والرؤية البعيدة المخترقة لكل الحجب، وهو كذلك الغضب الفعال.

ولكن كلا، فالخروج من الهوان والشقاء ليس حالة فكرية بل حالة سلوكية وتعبيرية. وقد يكون أكثر الناس وأعمقهم تفكيراً هو أكثرهم استسلاماً للهوان والشقاء، أو أعجزهم عن التخطي لهما، وقد يحول المفكر العظيم تفكيره إلى نبوة يشرع بها ما يلقى من تعاسة ومهانة وما يفعل من نفاق وخنوع ـ قد يكون التفكير سلاح استسلام لا سلاح مقاومة أو رفض.

والتفكير متعب لأنه تجاوز وتعر وفراق وابتداء وتنازل ومواجهة، ومع هذا فإن الكف عن التفكير قد يكون متعباً أكثر إذا كانت حوافزه موجودة وملحة. فالذي يفكر يتعب ولكنه يتعب أكثر لو لم يفكر، لأن من يفكر لا يستطيع أن يمتنع عن التفكير إلا بالزجر، والزجر لن يمنع الشعور بالحاجة إلى التفكير، ولكنه قد يمنع التفكير أو التعبير عن التفكير. فالتفكير معاناة شاقة، ولكن الامتناع عنه معاناة أشد مشقة. فالمفكر محكوم عليه بالتعب فكر أم لم يفكر، وهو يتعالج بالتفكير من التعب مهما كان التفكير متعباً.

وكم هو مخيف وثقيل أن نحول كل حياتنا إلى تفكير، وكم هو سخيف أن تكون كل حياتنا بلا تفكير. ولكن لماذا يكون السخف شيئاً رديئاً أو لماذا نراه شيئاً رديئاً؟ كم هو جميل السخف، وكم هي قبيحة هذه الحياة لولا السخف. إن السخف شيء جميل، وأجمله ما كان منه مضاعفاً، والسخف المضاعف الذي هو أجمل الأشياء هو أن تكون سخيفاً جداً ثم تعتقد أنك لست كذلك مهما كنت كذلك، فالإصرار على أنك لست سخيفاً مع أنك أكبر سخيف هو أجمل أنواع السخف، هو أجمل الأشياء وأفضل صفات الرجل والزعيم والخطيب والكاتب والمفكر وكل إنسان. ما أعظم ما في السخف من لذة ومن احتجاج على الآلام والتفاهات المحكوم بها علينا جميعاً.

كن سخيفاً واعلم أنك سخيف وجاهر بسخفك وحاول أن تحوله إلى دين عالمي، وعامل

كل الناس بالسخف، ثم أصرر على أنك أظرف إنسان وأذكى إنسان ـ افعل كل ذلك تصبح زعيماً عظيماً أو معلماً أو كاتباً أو شاعراً أو مفكراً، أو تصبح أسعد الناس وأعلاهم صوتاً وصيتاً. كل البشر يمتلكون أنصبة من السخف مقسمة عليهم في حصص غير متساوية.

ماذا تجد لو استغنى البشر جميعاً عن السخف، أو لو لم تفرض عليهم الطبيعة أن يكونوا سخفاء؟ سنجد حينئذٍ شيئاً آخر مغايراً جداً، أو سوف نفقد كثيراً مما نجد اليوم أو مما كان يجد آباؤنا من قبلنا. لو لم يكن الناس سخفاء لاختفى أو لما وجد الكثير من هذه المذاهب والأديان والزعماء والكتّاب والمفكرين والمعلمين والفنانين، ولصمت الناس كثيراً، ولتهيبوا أن يتلاقوا ويتصادقوا ويتعاملوا، ولكان حتماً أن يسحقهم الخجل من أنفسهم ومن الآخرين، ولما جرؤوا على عرض أنفسهم وتشوهاتهم في الأسواق العامة بهذه الأساليب الإعلانية وبهذا الإصرار المتكبر المملوء بالبلاهات والوقاحات.

إن السخف وحده هو الذي أعطى الإنسان أعظم مذاهبه وأربابه وأدابه وفنونه وزعمائه ووهبهم كل هذه القدرة على التعري. كيف يستطيع الناس أن يقولوا أو يفعلوا كل ما يقولونه ويفعلونه اليوم وما قالوه وفعلوه في التاريخ لو لم يوهبوا عبقرية السخف وافتضاحاته؟ إن البشر دائماً فاضحون مفتضحون في سلوكهم وتفكيرهم وشهواتهم واحتياجاتهم وفي كل تعبيراتهم عن أنفسهم وفي عرضهم لعاهاتهم المختلفة بافتخار. ولكنهم لا يعلمون أنهم كذلك، أو لا يبالون بأن يعلموا، لأن سخفهم يحميهم من أن يعلموا ويحميهم من أن يحتجوا على أنفسهم لو علموا. إن جميع الزعماء الكبار وكل من يحضرون المؤتمرات الدولية وجميع الكتّاب والدعاة وجميع الناس يتصرفون بلا عظمة أو استتار، ويعرضون كرامتهم وذكاءهم وأعضاءهم الداخلية عرضاً فيه كل تعبيرات السخف ومعانيه وتفسيراته. وهم يفعلون ذلك لأنهم لا يرون أعضاءهم المعروضة المشوهة، ولأنهم لا يحتجون لو رأوها، إنهم سخفاء، لهذا لا يرون السخف ولا يرون بشاعته.

لو أن معجزة حدثت فوجد إنسان أو أي كائن آخر لا يعيش السخف ولا يريده أو يستطيع رؤيته، فهل يمكن حينئذٍ أن يعيش مثل هذا الإنسان أو الكائن في هذا العالم، أو هل يقدر أن يتعامل مع الناس أو يراهم؟ والبشر محكوم عليهم بالسخف لأن الطبيعة التي يمارسون الحياة فيها أشد سخفاً منهم ـ إنهم تعبير عنها أو تفسير لها أو احتجاج عليها. الطبيعة سخيفة جداً في منطقها وسلوكها وحوافزها وأهدافها وفي كل تعبيراتها عن نفسها. إن الإنسان لو حوسب على مقاييس الطبيعة لبدا شيئاً في قمة الترفع عن السخف. والإنسان بكل ما فيه من سخف ليس إلا موقفاً من مواقف الكون وتعبيراً من تعبيراته.

الطبيعة تشقى في إبداع العينين ثم تصيبهما بالعمى، وفي إبداع الأذنين ثم تصيبهما

بالصمم، وفي إبداع القلب ثم تقهره بالداء الوبيل، وفي خلق الطفل الجميل البريء ثم تقتل أبويه لتجعله يتيماً، ثم لا يشبع سخفها هذا، بل تذهب تصيبه بالسل أو الشلل لتباهي به في معرضها العام الذي يرعى الإله الإشراف عليه وتنسيقه، والذي يشرفه الإله بمشاهدته له. وهذا من قمم إبداعها فيما تعطي وتفعل.

ولكن ما هو السخف الذي له كل هذه المزايا وكل هذه الرذائل؟ هو أن يفعل الآخرون ما لا أريد، وأن أفعل أنا ما لا يريد الآخرون ـ السخف هو أن تكون الشمس أكبر مما أريد وأن تكون حرارتها وضوؤها أكثر مما أطيق.

أبشع أساليب السخف أن تكون زعيماً ليكون كل نضالك وعبقريتك أن تصنع التوتر والخصومات والجنون لكي تضطر العقلاء الأقوياء الذين يخشون الجنون إلى إسكاتك بالعطايا، وأن تجد ظروفاً دولية سخيفة تساعدك على استمرارك في هذا السخف البذيء. وقد يكون فوق أعلى قمم السخف أن أكتب هذا الذي أكتبه، وقد تكون حوافزي أشد سخافة من حوافزك أيها الزعيم العظيم الآخذ من الأقوياء العقلاء لأنك تهددهم بأن تكون مجنوناً!

*

إن غير المفكرين مفتوحة حدودهم لكل الدعايات والأكاذيب الكبيرة، تغزوها بلا حراسة ولا أبراج مراقبة. نعم، وأحياناً كثيرة يصبح المفكرون أكثر انفتاحاً أمام غزو الدعايات ـ إنهم قد يحولون أفكارهم إلى أجهزة استقبال وفرق ترحيب بالغزاة القادمين ـ بالأكاذيب والدعايات الزائفة، بل قد يكون المفكر خالق أكاذيب ودعايات سخيفة وليس مروجاً لها فقط. إن أنبياء الطغيان والظلام هم في كثير من الأحيان مفكرون، وقد يكونون مفكرين كباراً.

*

وسدنة الأوضاع ـ كل الأوضاع ـ لا بد أن يعادوا التفكير المضاد لأنه بطبعه عدو للاستقرار. والوضع ـ أي وضع ـ ليس إلا استقراراً قد تحول إلى قانون أو تقليد أو إله أو إلى عقيدة أو نظام ـ أي تجمد تاريخاً، مع أنه يوماً ما كان تفكيراً على نحو ما.

وكل مجتمع لا بد ـ كما سبق ـ أن يخشى التفكير في بعض اتجاهاته، أعني التفكير غير المتقيد لأن المجتمع نوع من الاستقرار الذي ينافيه التفكير أو ينافي التفكير، أي التفكير الذي لا يتقيد بالنظام القائم الذي لا بد أن يكون ولو أحياناً تفكيراً مضاداً. إذن لا بد أن يوجد أسلوب من الصراع القائم على التناقض بين المجتمع والفكر ما لم يصبح الفكر تملقاً للمجتمع ولنظمه وتقاليده. ولكن المجتمع القوي يستطيع أن يتحمل الصدمات الفكرية المناقضة لأنه قادر على التكيف والأخذ والهضم والمقاومة، أو هو أقدر على ذلك. وليس كذلك المجتمع الضعيف.

والحضارة كلها ليست سوى محصول تصادم بين وضع ما وفكر ما ـ أو هذا هو الذي يبدو. وقد يكون الصحيح أن الحضارة ليست إلا محصول تصادم بين حركة وحركة. وتوجد في كل المجتمعات بنسب مختلفة طبيعة المقاومة للأفكار أي الأفكار المفتوحة. والمجتمعات جميعاً محتاجة إلى هذه المقاومة، ولولاها لانهار كل مجتمع. وقبول كل الأفكار الصحيحة أو المناقضة في وقت واحد انتحار، لهذا لم يوجد مجتمع كما لن يوجد مجتمع استطاع أو يستطيع أن يتقبل جميع الأفكار الطيبة في وقت واحد ليحولها إلى نظام.

إن على المجتمعات كلها أن تتقبل الأفكار الأخرى بتدبير وإعداد واستطاعة كتناول الطعام، وهذا موجود في طبع كل مجتمع حتى أسرعها تغيراً. فالمجتمعات لا تحتاج إلى نصيحة تطلب إليها ألا تسرع في تقبل الأفكار الجديدة ـ إن في ظروفها وتأكد أوضاعها وكسلها واسترخائها ما يغني عن هذه النصيحة، بل لو كانت النصيحة تجدي لوجب أن توجه أكثر النصائح وأقواها وأخلصها إلى كل مجتمع تطلب إليه الإسراع في تقبله للأفكار الجديدة المضادة. والذي يخشى دائماً كما يلاحظ دائماً هو بطء المجتمع في قبوله للفكر لا سرعة الفكر في تغييره للمجتمع، لو كان الفكر يستطيع أن يغير المجتمع أو أن يغير شيئاً.

*

البشر دائماً يسيرون في طريق لا يبصرون نهايته، إن الرؤية ليست شرطاً في المسير ولا في الهداية، والكائنات التي تهتدي بلا رؤية أكثر جداً من التي تهتدي بالرؤية ـ إن النجوم والأنهار أكثر هداية إلى طريقها من أعظم الفلاسفة.

*

الحركة القوية أجدى من الفكرة الصحيحة. إن الفكر بلا حركة ضلال وضياع، وإن الحركة هي صانعة الفكر في جميع مستوياته. إن الذين يتحركون بقوة قد يخطئون خطأ قاتلاً، وقد يصيبون أعظم الانتصارات والتقدم، أما الذين لا يتحركون فهم مخطئون دائماً. ما أكثر الذين انتصروا بالحركات القوية الطائشة، ولكن هل انتصر أحد بالتفكير الصائب العميق؟

*

العاجزون هم الذين يظلون يبحثون عن الفكرة الصائبة خوفاً من الوقوع في الخطأ المقدام. إن البحث عن الفكر الصائب أسلوب من أساليب العجز عن الإبداع وعن القدرة في السلوك.

*

البحث عن الخطأ والصواب هو عمل الضعفاء والمعلمين ـ الضعفاء يبحثون عن ذلك لأنهم ضعفاء، والمعلمون يبحثون عن الخطأ والصواب لأنهم متألمون ومعلمون وصانعون للقيود.

*

العجز يتحول أحياناً إلى تفكير، والتفكير في بعض حالاته نوع من الفرار، فالذي لا يستطيع أن يكون قوة ضاربة منتصرة قد يتحول إلى مشاعر وأفكار ناقدة محتجة.

*

المغامرون لا يحتاجون إلى تلقي النصيحة من أحد لكي يتقدموا، إن النصيحة هي عملية تعويق وتخويف، وإنه لا يقبل النصيحة إلا الجاهل أو العاجز، ولا يسديها إلا الموظف والمتعب والعارض لذاته.

*

الأقوياء لا يتأنقون أو يتأنون في وضع الخطط الفكرية، إنهم يتقدمون بحوافز الحياة التي لا تنتظر الفكر لتسأله الرأي، وهم لا يخشون الخطأ ولا يستأذنون الآخرين إلا بقدر ما تخشى الصراصير الخطأ أو تستأذن الشمس في طلوعها على الناس وفضحها للمستترين بالظلام. إن الأقوياء يتحركون ليسير وراءهم الآخرون، ويسير وراءهم أيضاً المفكرون. والذين يخشون الخطأ لا يسيرون في الطريق الواسع، بل ولا في أي طريق. إن الخطأ موجود في كل طريق، فالذي يخشاه سوف يتوقف عن الحركة أو يضعف في حركته.

*

تنتقل بصيرة الإنسان القوي من تفكيره إلى عزيمته، أو تختلط عزيمته بتفكيره ليكونا شيئاً واحداً.

*

الفرق بين الخطأ والصواب هو مقدار الفرق بين خطوتين، والفرق بينهما فرق في الإخراج لا في التفكير.

*

ليس الخطأ والصواب أفكاراً، بل ضربات قوية وضربات ضعيفة، والضربة القوية تصبح فكرة صحيحة، والضربة الضعيفة تصبح فكرة خاطئة. ولا يوجد فكر صحيح ولا فكر خاطىء خارج الضربات. إن الفكر هو دائماً بحث عن مواقع الضرب، وليس الضرب بحثاً عن قيمة الفكر أو عن اتجاهاته.

*

القائد القوي هو الذي يجيد أن يفعل وليس الذي يجيد أن يفكر. والتفكير الرحب العميق خصم للقيادة القوية الفعالة. إن الفكر الواسع البعيد العمق، الناظر إلى كل أطراف المشكلة وأطراف المعركة وإلى كل احتمالاتها الأليمة يبدد الإرادة ويخيفها ويقتل عبقرية الحركة، لهذا

لا يكون القائد العظيم إلا ضيق الفكر متعصبه. وهذه ليست رذيلة في القائد بل فضيلة، لأن القائد المتفوق هو الخطأ المتفوق والجريمة المتفوقة، وليس القائد المتفوق هو الصواب المتفوق أو الفضيلة المتفوقة. وفي هذه الفضيلة ـ التي هي ضيق فكر القائد وتعصبه ـ تكمن احتمالات أليمة ولكن تكمن فيها أيضاً احتمالات النصر العظيم ـ أي العظيم في غوايته وفي عدوانه على كرامة الإنسان وحياته. إن كل قائد منتصر هو عدوان وشر منتصران.

وكم نتصور الإنسانية محظوظة ورابحة لو تصورناها محذوفاً من تاريخها وحساباتها وجميع انتصارات قادتها. إن جميع انتصارات القادة لم تعط البشر غير الدماء والآلام والخراب والأزمات والأحقاد والتعقيدات الدولية، وتحويل خبز الجائعين والأطفال إلى سلاح ليقاتل به الجائعون أنفسهم وخبزهم.

لقد كان القادة دائماً وفي كل التاريخ والمجتمعات صانعي ألم وخسران للإنسان ـ إنهم يمنحون حياة البشر المزية التي تمنحها إياها الحشرات، يأخذون منها ويسرقونها ويقتلونها دون أن يهبوها أي شيء نافع، كما تصنع الحشرات التي قد تكون مظلومة بهذه المقارنة، وقد تحتج عليها لو استطاعت الاحتجاج.

إن القادة هم الذين يصنعون الأزمة والمشكلة ثم يحاولون ـ في أحسن مواقفهم ـ أن يعالجوها بأزمة ومشكلة أخرى جديدة، وبالحروب أحياناً، وبالتهديد بالحروب والاستعداد لها في أحيان أفضل. وإذا صنعوا أية انتصارات فهي انتصارات على هزائم صنعوها هم، أو هي انتصارات لا تعني غير المزيد من المشاكل والتعقيدات والأزمات الدولية الجديدة، ولا تعني كذلك غير الخراب والفقر والآلام. وانتصارات القادة مهما كانت عظيمة هي انتصارات لمصلحة القادة ضد المجتمعات وليست انتصارات للجماهير أو للإنسان أو لأية قيمة من القيم ـ أي أنه لا يمكن أن يكون في انتصارات القادة أي ربح أو مزية للإنسان مهما كانت أرباح هؤلاء القادة. إن القادة لا ينتصرون على البراكين والزلازل أو على الذباب والبعوض، أو على الموت والشيخوخة والأمراض والظلام، أو على المسافات بين النجوم، أو على آلام الإنسان وأحقاده وأحزانه، إن كل انتصاراتهم في كل عصورهم وظروفهم هي انتصارات على الإنسان فقط. فإذا انتصر قائد ما، كان المعنى أنه قد هزم أو أبطل انتصار قائد آخر.

وفي انتصار هذا وانهزام هذا هزيمة دائمة للحياة وللإنسان.

إن القادة في جميع الأحوال ليست لهم أية مزية غير أن يعالجونا منهم بهم، أي أن يعالجونا هم، من أخطائهم هم، لا من أخطاء كائنات أخرى، أي أنهم يصنعون الخطأ ثم يذهبون يعالجوننا من هذا الخطأ الذي صنعوه هم، وهؤلاء هم القادة العظام المنقذون. وهذا التعالج منهم بهم يكلفنا آلاماً وتضحيات وهموماً لا حد لبشاعتها وجنونها.

إن أشد القادة شؤماً على البشر هم القادة المنتصرون في الحروب والخصومات، لأن انتصارهم هذا يوجد ظروفاً أليمة ومعقدة، ولأن مثل هذا الانتصار يصبح محتاجاً إلى انتصار آخر ليكون علاجاً وشفاء منه ـ أي أن البشر يحتاجون دائماً إلى أن يتعالجوا من كل انتصار يصيبه قادتهم، وعليهم أن يدفعوا هم ثمن الانتصار، وثمن الانتصار على الانتصار ـ أي أن البشر يدفعون ثمن القائد المنتصر وثمن القائد المنهزم، أو ثمن القائد إذا انتصر وثمنه إذا انهزم.

*

القادة لا يحتاجون إلى الأفكار بل إلى الجنون والأكاذيب والأمراض والآلام والطموح العدواني. إن الجنون في القائد أبلغ وأفضل من كل تفكير وعقل ووقار، فالعقل والوقار يقتلان في القائد موهبة الإقدام والانتصار.

*

حماقات القادة تتحول إلى أفكار، ولكن أفكار المفكرين لا تتحول إلى قادة.

*

الذين استشاروا وفكروا فأخطؤوا أكثر جداً في التاريخ من الذين أقدموا فأخطؤوا فهزموا. إن الاستشارة نوع من الجبن والتردد والهزيمة في طالب المشورة، ونوع من الفضول والكبرياء والادعاء والغباء والتقليد وعرض الذات في واهب المشورة.

*

قدرتنا على التنفيذ تشكل أفكارنا، ولكن أفكارنا لا تهبنا هذه القدرة.

*

الجماهير قوة ضاربة لا قوة واعية، إنها تضرب مأمورة لا واعية ولا آمرة ـ إن الوعي في الجماهير رذيلة، وإن جميع القادة يتحدثون عن وعي الجماهير وعن مزايا وعيها ويدعونها إلى أن تكون واعية ويزعمون أنها قد بلغت أقصى مراحل الوعي، ليخدعوها ويرشوها بامتداحهم إياها. ولكنهم يعلمون أن عدوهم الأكبر هو وعي الجماهير، ويعلمون أنها لو أصبحت واعية لرفضتهم وكرهتهم، وأنها لو أصبحت واعية وقادرة لقذفت بهم إلى الجحيم.

إن القادة ليقاتلون الجماهير لئلا تكون واعية أو فاهمة لما يقال لها.

لا توجد مجتمعات عاقلة ومجتمعات مجنونة، ولا مجتمعات عاقلة فقط، ومجتمعات مجنونة، فقط، بل كل المجتمعات مفتوحة على العقل وعلى الجنون، أو مفتوحة أمام العقل وأمام الجنون، أو مفتوحة عليها احتمالات العقل واحتمالات الجنون. والمجتمعات ليست عاقلة ولا مجنونة، وإنما هي احتمال فقط، احتمال عقل واحتمال جنون، أو هي حياد إمام الاحتمالين ـ

إنـها مستعـدة لتقبـل الحالتين بالتعاقب بقلب صادق مخلص، أو باستسلام وغباء لا قلب لهما.

إذن من الذي يجعل المجتمع عاقلاً تباركه الحكمة والوقار، أو مجنوناً يمارس أكبر الحماقات بابتهاج وتهييج وحماس؟ الذي يجعل المجتمع هذا أو هذا هم الحكام والزعماء والقادة والأجهزة العاقلة والمجنونة التي يطلقونها على جماهيرهم. إن أشد المجتمعات وقاراً لمستطيعة بخلق مفتوح أن تصبح أشد المجتمعات جنوناً وتوتراً، تقتات بالمغامرات والتصادم وتبحث عن ذلك، وأن العكس أيضاً صحيح بنفس النسبة.

فالمجتمعات المتوقرة هي مجتمعات يقودها ويسيطر عليها حكام وزعماء وقادة ومعلمون عقلاء، فيهم وفي أجهزتهم وقار وحكمة، وأن العكس كذلك صحيح بنفس النسبة. والمجتمع الواحد يصاب بهذا وبهذا لاختلاف قادته ومعلميه والقابضين فيه على احتمالات العقل واحتمالات الجنون.

ولكن قد يكون في هذا ظلم للجماهير، فقد تكون الجماهير متوقرة وتبحث عن التوقر، وأنها لا تكون مجنونة ولا تعيش الجنون إلا حينما يحكمها ويقودها قادة مصابون بالجنون. فجنون الجماهير هو عدوى تصيبها من القادة والزعماء المجانين، أما عقلها ووقارها فهما حاجتها ومزاجها اللذان خلقت بهما واللذان تحتاج إليهما.

فالقادة إذن يهبون المجتمعات جنونها ولا يهبونها عقلها. قد يكون هذا هو الصحيح والعدل في الحكم على الجماهير وعلى القادة. إن المجتمعات لا تكون ذكية ولا مفكرة، إذن لا بد أن تكون عاقلة متوقرة ما لم يسلبها عقلها ووقارها قادة مصابون بالجنون ويصيبون بالجنون.

عجباً! إن قائداً واحداً مصاباً بالجنون أو بالتوتر أو بالحماقة يستطيع أن يحول عشرات الملايين بل مئات الملايين إلى مجانين أو حمقى أو متوترين، يموتون باستبسال في معارك الجنون والحماقات بلا إيمان ولا فضيلة، بل بخضوع للمجانين الحمقى المتوترين، بل بخضوع للمجنون الواحد الأحمق المتوتر!

*

الأعمال الكبيرة لا يمكن أن تعرف كلها أو تخطط كلها وكل تفاصيلها مقدماً بالمنطق، ولكن الخطوة الأولى تهيىء للخطوة الثانية، حتى التخطيط الفكري في جميع مستوياته وظروفه لا يكون إلا بإرشاد العمل والتجربة وتعليمهما. فالتخطيط في كل حالاته ليس إلا مفسراً للحركة ولاحتمالاتها وضروراتها.

*

لم يحدث أن وجد من هندسوا التاريخ ليحدث طبق تخطيطاتهم.

*

جميع الذين صاغوا التاريخ أية صياغة كانوا يعبرون عن قانون الحركة لا قانون التفكير، حتى المفكرون الذين صنعوا أحداثاً كبرى إنما صنعوها حينما انتصر فيهم قانون الحركة على حوافز الفكر. فالمفكر لا يفعل إلا في اللحظة التي ينهزم فيها تفكيره ـ في اللحظة التي يصبح فيها غير مفكر.

التفكير هو دائماً موقف خارجي من الأشياء، وكلما تعمقنا في التفكير وعشنا داخله وعاش فينا تخاذلت حوافز الاقتحام فينا. كل أعمالنا انطلاق عن الحركة، والفكر كله مفسر للحركة لا خالق لها. وأعظم الناس حياة هم أقواهم حركة ـ وليسوا أقواهم تفكيراً ـ ليس الفرق بين أي زعيم وزعيم أو نبي ونبي أو إنسان وإنسان مساوياً للفرق بينهما في صدق التفكير وعمقه وقوته أو أصالته، إن الفرق بين هذا وهذا فرق كينونة وذات، لا فرق تفكير، كالفرق بين شجرة وشجرة. إن الفرق بين الشمس وبين أصغر ذرة فرق في مقدار الحركة والذات لا في مقدار الفكرة أو الذكاء.

ليست الشمس أقوى تفكيراً من أصغر هباءة، وليس فيها من المنطق ما ليس في هذه الهباءة منه، وليست أية هباءة أقل تفكيراً أو احتواءً للمنطق من كل ما في الكون من مجرات.

*

عصر الصراصير الزعماء

«إن الحضارة تتحدى اليوم ضميرها، إنها بانتهازية وغواية دولية تتنافس كتلها المذهبية المتعادية على صناعة الصراصير، وتحولهم إلى زعماء مذلين لشعوبهم الناشئة.

ليست القروض والمساعدات والخبرات الأجنبية إلا جيشاً أجنبياً غير منظور قد جاء ليحمي نظاماً أو طاغية متألهاً، وليعلن عنه ويخدع به وينافقه، وليمنحه مزيداً من الكبرياء والتسلط. لقد ذلت الحضارة وفقدت وقارها تحت حوافز التسابق على لثم أقدام الطغاة الناشئين».

*

قال فيلسوف حديث في كتاب له:

«إن الشعب الذي سار في طريق الحضارة قد يكفيه الأمل في الحصول على شيء ما لكي يتغلب على الجمود، أما الشعب الذي يراد منه أن يدخل في هذه الطريق ـ طريق الحضارة، ويراد منه أن ينطلق الانطلاقة الأولى فإنه يحتاج إلى أكثر من هذا، حتى ليحتاج إلى أن يكون مهدداً بالفناء بأن يظهر عند أعدائه سلاح جديد يهدده.

«ولعل الشعوب التي ظلت بدائية هي الشعوب التي لم يكن لها جيران أقوياء أو على تعبير آخر هي الشعوب التي كانت حياتها سهلة قريبة، فلم يكن عليها أن تبذل جهوداً مبتكرة، ثم لم تستطع أن تتقدم لو أرادت ذلك لأن الأوان قد فات، ولأن ثمرات الكسل قد سممتها».

*

كانت اليابان إلى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً بلاداً مغلقة على نفسها وعلى التاريخ. وفي إغماءتها هذه تلفتت فإذا هي ترى أساطيل غريبة كأنها الجان، تغزو سواحلها، وإذا هي

عاجزة عن مقاومة هؤلاء الأبالسة الغزاة. وفجأة تجد نفسها وتجد منطقها الجديد وتتمرد على التاريخ وتدخل في حوار طويل ذكي شجاع مع آلهتها وتقاليدها وتخلفها. لقد وعت هذا الغازي الظافر وعياً مباشراً متحرراً من التفاسير المكتوبة ومن الغيب والوراء والكبرياء، فأبصرت الموقف بكل معانيه ولغاته، وبكل مخاوفه واحتمالاته المواتية.

لقد أدركت اليابان سر تفوق هذا الخصم الذي انفلق عنه فم البحر الواسع الغدار ـ إن هذا الخصم يملك من القوة ما لا تملك هي، وهو يملك هذه القوة لأنه يجيد أن يفعل ما لا تجيد، وهذا لأنه يعلم ما لا تعلم، وهو يعلم ما لا تعلم لأنه يفكر لا كما تفكر، وهو يفكر هذا التفكير لأنه يستطيع أن يريد ما لا تستطيع أن تريد ـ إنه شيء آخر جديد، لا يحتمل أن تكون مثله وإلا لما انتصر، أو لكان معقولاً أن تنتصر عليه بدل أن ينتصر عليها أو أن يتساوى الاحتمالان، احتمال انتصاره عليها واحتمال انتصارها عليه. إن انتصاره يعني أن له من المزايا ما ليس لها، إذن فالسبيل هي أن تريد وتفكر وتعلم وتعمل مثله، وأن تلقي بماضيها كله في التراب، في المعركة ليجرب نفسه وكبرياءه.

بهذا التسلسل الفكري، أو بهذا التسلسل السلوكي الذي هو أعلى مستويات التفكير، أو أعلى من كل مستويات التفكير بدأت اليابان تصنع شمسها الجديدة وتنافس الغرب الغازي المتفوق الرهيب وتخيفه وتفسد عليه اقتناعه بتفوقه العرقي الدائم. فالتهديد بالكارثة هو الذي أخرجها من سكون التاريخ إلى حركة الحياة، وهو الذي وضع كل احتمالاتها الإنسانية في تجربة الحياة، وكل أربابها في معركة مع الأبالسة العظام.

لقد انتهت الحرب الأخيرة وسلمت اليابان بلا أية شروط بعد انفجارين فجرتهما أمريكا وهزا مشاعر الدنيا وأفكارها وأخلاقها ومستقبلها. وأصبحت روسيا ـ حليف الأمس وخصم اليوم ـ تدرك بحساسية لاهثة ماذا يعني هذا السلاح الكوني إذا ظلت أمريكا تحتكره. إذن لقد انطلقت أشواط روسيا المشحوذة بالخوف والحساسية، وتتابعت أنفاسها في العدو هرباً من هذا التفوق الماحق الذي تحدت به أمريكا كل العالم. فإذا بروسيا تفاجىء الدنيا وتثلم كبرياء أمريكا بسرعة ظفرها بالسلاح الرهيب الجديد. وكان شعور روسيا بالتهديد الذي يعني الكارثة هو الذي أطلق حوافز الانتصار فيها. وهكذا فعلت بريطانيا وفرنسا والصين، وهكذا سوف تفعل دول كثيرة في الغالب، أي إن لم يحدث شيء جديد في العلاقات بين الدول وشعورها بأمنها.

كذلك كان انتشار الحرية والوعي لها والإيمان بها والظروف الدولية الجديدة ووجود قوى أخرى في العالم لم تكن موجودة تنافس القوى القديمة وتكبرها وتخيفها وتكرهها على التخلي عن امتيازاتها العظمى، إذ لا يمكن ولا يقبل أن تكون امتيازات الدول الصغرى القديمة أكثر من امتيازات الدول الكبرى الجديدة ـ وكذلك كان تكاثر الدول التي ولدت من جديد تحت ضغط

هذه الظروف الدولية المواتية، وتكاثر مذاهب الحرية وتكاثر المنادين بها في أسلوب كأنه أسلوب مزايدة وإعلان ـ نعم كان كل ذلك يعني تهديد الاستعمار القديم بالفناء، كما يعني أيضاً تهديد عهود المظالم والآلام الفاحشة التاريخية بالزوال والهزيمة. لهذا لم يجد الاستعمار والظلم السارق القديم بدأ من أن يذهبا يلتمسان أساليب أخرى ملائمة يواجهان بها الروح والظروف والمذاهب الحديثة المنتصرة المتحمسة. لقد فرض عليهما التهديد بالفناء والهزيمة أن يحاولا تغيير نفسيهما والتلاؤم مع عصرهما بارتداء أزياء جديدة. ودائماً الخوف يصنع أخلاقاً ومذاهب وأفكاراً جديدة، وقد يصنع الخوف قوة وذكاء، وقد يصنع ضعفاً وغباء.

ماذا كان يمكن أن يكون العالم لو كان بلا خوف ـ لو كان الإنسان لا يخاف أو لو كان ما يخاف منه لم يوجد؟ وهل معنى هذا أن الخوف قد وجد لمصلحة العالم أو لمصلحة الإنسان؟ وإذن لماذا لا يعطيه هذا الحكيم الأعلى مصلحته دون أن يجعل الخوف واسطة لعطائه؟ أليس العطاء بلا عذاب وإذلال وتخويف أكثر دلالة على النبل والكرم؟

وكان اهتداء إحدى الدول المتحضرة إلى سلاح أو ابتكار أو صناعة أو إلى أي أسلوب جديد وقوي من أساليب الحياة قاضياً بأن تتراكض كل الدول الأخرى حتى تأخذ بذلك الشيء الجديد وإلا هزمت وتخلفت وسحقها الشعور بالضآلة. وهذا هو أحد الحوافز التي جعلت أغلب دول أوروبا صناعية متحضرة قوية عالية مستويات حياتها حتى الصغرى منها، وهذا الحافز هو أيضاً أحد الحوافز التي سوف تكون دائماً مانعة من الاحتكارات العلمية والحضارية، لأن الاحتكار العلمي والحضاري يعني أن يكون هناك قوي متحضر وضعيف متخلف. وهذا يعني معنى خطيراً في العلاقات بين الفريقين وفي العلاقات الدولية عامة.

فالتهديد بالفناء قوة مطورة، والخوف هو أحد الحوافز التي تحرك ذكاء الإنسان واحتمالات قوته وتصوغ حياته وتصنع منه كائناً متحفزاً متغيراً، أي إن لم تصنع منه كائناً هارباً جباناً ضال التفكير، باحثاً عن الأوهام والتفاسير الضالة المريحة أو التي يطلب منها أن تكون مريحة. إن الشيء الواحد قد يعطي نتائج وتفسيرات متضادة، فالخوف أو التهديد بالفناء والهزيمة قد يحرك إلى القوة، وقد يحرك إلى الضعف، وقد يعلم الذكاء كما قد يعلم البلادة. لقد عاشت مجتمعات كثيرة تحت أبشع حالات الخوف والتهديد أطول مدة دون أن يصنع منها ذلك انطلاقاً أو انفجاراً، بل لقد صنع منها خمولاً وتعوداً على الصبر المهين وعلى تفسير الأشياء الرديئة تفسيرات طيبة داعية إلى الاستسلام والرضا.

لقد ظلت الطبيعة المتوحشة تهدد الإنسان منذ كان بالفناء وبكل الآلام والمظالم. ولكن أكثر المجتمعات لم تكتف بأنها لم تقاوم الطبيعة وبأنها لم تدفعها إلى الإبداع والقوة، بل لقد تحولت تلك المجتمعات إلى دفاع بائس عن هذه الطبيعة وتفسير ورع لمزاياها ورحمتها ونبلها. ولقد

جنت هذه المجتمعات في تحقيرها لنفسها حينما حولت تهديد الطبيعة لها وفسوقها بها إلى صلوات وعبادة ورضا لا يفسده شيء من الغضب، حتى لقد زعمتها آلهة لا يمكن الاعتراض عليها ولا الشك في استقامتها. إن جميع المعابد والصلوات والأرباب والكتب المقدسة والأنبياء - إن جميع هؤلاء ليسوا إلا أساليب مختلفة من أساليب الدفاع عن تهديد الطبيعة للبشر وفتكها بهم. لقد حول الإنسان جنون الطبيعة إلى دفاع عنها، حول خطرها عليه إلى تأليه لها، وفسر اعتداءها عليه بأنه حب ومغازلة له - لقد كان الإنسان في هذا صغيراً صغيراً.

كان العلم والذكاء والدهاء والمال والسلاح والتطور والحرية - كان ذلك كله يملكه أقوام ويهددون به أقواماً آخرين، فماذا أعطى هذا التهديد، هل تحول إلى قوة وتغير لدى جميع المجتمعات الفاقدة لهذه المزايا الشريرة، أم تحول إلى غباء وتوتر وصياح وتفسيرات تسويغية فيها كل معاني التثبيط؟ إن كثيراً من الناس يواجهون تفوق الآخرين عليهم بالتحقير لذلك التفوق والتكبر عليه والاستشفاء منه باللعن له والبحث عن معايب فيه وعن احتمالات هزيمته في يوم ما.

والمهزومون المتخلفون لا يكفيهم أن يكونوا مهزومين متخلفين، بل لا بد أن يحولوا هزيمتهم وتخلفهم إلى مزايا وانتصارات لهم، ثم لا يكفيهم بأن يثنوا على أنفسهم مرة واحدة بل لا بد أن يثنوا عليها مرة أخرى بأن يحولوا انتصارات الآخرين وتفوقهم إلى رذائل - إنه لا يكفي المذنبين بأن يزعموا أنهم غير مذنبين بل يجب إلى ذلك أن يعد الآخرون غير المذنبين مذنبين - لا يكفي النفس غير الفاضلة أن تزعم أنها فاضلة، بل ويجب أن تعد النفوس الأخرى الفاضلة غير فاضلة. وهذه ليست أخلاق الصغار فقط بل وأخلاق الكبار جداً.

*

والآن تهدد كثيراً من المجتمعات أخطار كثيرة من نوع آخر - تلك هي الشركات والقروض والمساعدات الفنية والاقتصادية والسياسية الخارجية التي حولت الكثيرين من زعماء البلاد المتخلفة المستقلة حديثاً إلى قياصرة لا مثيل لهم في الطغيان والكبرياء والادعاء والتفاخر والضجيج والتطاول على الكون.

وهذا النوع من التهديد خطير لأنه عملية امتصاص ضخمة للثروات المخبوءة والموجودة في الأيدي، ولأنه تجميد للطاقات الذهنية والفنية والأدبية بل والعضلية في الشعب الذي يقتات على هذه القروض والمساعدات والخبرات والشركات، إن لم تقبل بذكاء وحذر وحكمة عظيمة وإلى أجل محدود، وإن لم تحول إلى عملية تطوير داخلي - أي إن القروض والمساعدات والخبرات والشركات الأجنبية التي تتعامل عليها الشعوب المتخلفة يجب أن تكون في حقيقتها تعليماً وتطويراً لا استهلاكاً، فإذا تحولت إلى دخل فإنها لا تهزم وتطرد موهبة الشعب المساعد فقط بل وتخمدها وتفسدها.

إن الثروات المخبوءة هي قدر المجتمع، فيها احتمالاته العقلية والحضارية، وفيها احتمالات قوته ورخائه وتطوره، وهي مثل احتمالاته الذاتية، لا سبيل إلى الحياة بدون هذه وهذه. وهل يوجد ما يقتل الموهبة الذاتية؟ إنه قد يوجد ما يضعفها أو يهزمها أو يذلها أو يغني عنها. وما يحدث اليوم في كثير من المجتمعات التي تتلقى القروض والمنح والعون الفني الخارجي الضخم قد يكون أسلوباً ممتازاً لإضعاف الموهبة وقهرها والإغناء عنها،لأن سادة هذه المجتمعات يجدون في الإمداد الأجنبي ما يشبع طموحهم وكبرياءهم، وما يكفي حاجتهم إلى أن يحموا أنفسهم ونظمهم الجاهلة العدوانية، وما يجعلهم يبدون كأقوى الأقوياء المبدعين الصانعين لأضخم المعجزات الحضارية.

وحينئذٍ لا يكتفون بأن يستغنوا عما يمكن أن يكون في مجتمعهم من احتمالات الموهبة ولا بأن يسخروا من احتمالات هذه الموهبة حينما يفكرون في الفرق بين هذه الاحتمالات وبين ما يستطيع أن يعطيه أولئك الأجانب الذين سبقوا كثيراً بخبرتهم وقدرتهم ـ بل يذهب هؤلاء الحكام والسادة يحاربون أو يضعفون الموهبة المحتملة في مجتمعاتهم وإلى تجميدها والتحقير لها، إما خوفاً منها أو لأسباب أخرى، والأسباب الأخرى هنا كثيرة.

إن هذه المساعدات والشركات الأجنبية قد تكون جيشاً أجنبياً غير منظور، أو جيشاً أجنبياً في زي آخر، فالجيش الأجنبي قد يستدعيه حاكم أو نظام ما، ليحمي به نفسه من الأخطار وليظهره قوياً مهيباً لامعاً، والدولة الأجنبية التي ترسل جيوشها لتحمي بها ذلك الحاكم أو النظام إنما تفعل ذلك دعاية أو طمعاً أو متاجرة أو سعياً وراء أغراض عسكرية أو سياسية أو مذهبية أو منافسة ومقاواة لآخرين يريدون نفس ما تريد، أو صداقة للنظام أو للحاكم الذي ترسل جيوشها حماية أو زينة أو ترضية له.

وهذه الأهداف والحوافز في حساب الحامي والمحمي التي يراد أن يحققها استقدام الجيوش الأجنبية هي نفس الأهداف والحوافز التي يراد أن تحققها القروض والمنح والخبرات والشركات الأجنبية في أكثر التقديرات تواضعاً. فالحكام الطغاة يستقوون بهذه الامدادات الخارجية ويحمون بها أنفسهم وعهودهم ويعرضون بها كبرياءهم، ويرهبون بها كذلك خصومهم، وهي أي هذه الامدادات ـ تمكنهم من أن ينفقوا ويبذخوا بجنون كأغنى الأغنياء، ومن أن يدعوا لأنفسهم ما يشاؤون من دعاوى الثراء والقوة والعبقرية والأشياء الأخرى. وهذا أيضاً ما تمنحهم إياه الجيوش الأجنبية الحامية.

ولا يمكن أن تكون أغراض الدول المقدمة للقروض والمنح والخبرات غير أغراض الدول المرسلة بجنودها إلى بلد آخر، كما أن أغراض الحكام الطغاة المستقوين بالخبرات والقروض

والمنح المستوردة، المتكبرين على شعوبهم وعلى كل الآخرين المنافسين لهم، لن تكون أفضل من أغراض الحكام المستوردين للجيوش الأجنبية.

إن الدولة المعطية تريد أن يكون من يأخذون منها عملاء وأتباعاً لها دائماً، يؤدون كل وظائف العمالة والاتباع مهما زعم غير هذا، بل إن هؤلاء الآخذين هم أفضل العملاء والأتباع في جميع العصور والظروف مهما جاءت الخطب والدعاوى مبرئة من ذلك.

والآخذون يعلمون ذلك حتماً كما تعلم المعشوقة ماذا يريد منها العاشق حينما يقدم إليها الهدايا وقصائد الغزل والحب النظيف. وحتماً سيزعم الآخذ لنفسه وللآخرين أنه يخدع المعطي، ويريد أن يفهمه الناس على أنه كذلك، وقد يظن أنهم فهموه كما يريد. ولا بد أن يعلن الآخذ والمعطي أنهما متعاشقان ببراءة أي لوجه الصداقة والإنسانية والمبادىء والمثل المشتركة. ومهما اقتنع الآخذ أنه مخدوع وعميل وخاسر شعبه بما يأخذ فلن يتخلى عن الأخذ. إن كثيراً من هؤلاء الآخذين يعلمون أنهم مخدوعون وعملاء، ومع هذا يظلون يتمنون أن يعشقهم جميع الأقوياء وأن يقدموا لهم المزيد من الهدايا وأن يغازلوهم في غرف النوم، وأن يزدادوا ارتماء في أحضانهم دون أي قيد من قيود الحشمة أو الوقار.

إن المساعدات الممنوحة لا بد أن يكون فيها خدمة لأهداف المانحين ـ لأهدافهم المذهبية أو السياسية أو الحربية أو الوطنية أو الدعائية، ولا بد أن يعرف ذلك الآخذون. وهذه الأهداف المختلفة التي يرمي إليها المعطون قد تكون ضد أهداف الذين يأخذون ـ ضد أهدافهم المذهبية أو الوطنية أو السياسية أو الدينية أو القومية، ومع هذا يستمرون يأخذون ويستزيدون. وكلما انتصرت أهداف المانحين انهزمت أهداف الآخذين المضادة أو المناقضة.

والمتعاملون على القروض والمنح والخبرات الأجنبية يرون في المتعاملين مع الشركات الأجنبية رجعية وخيانة وسرقة، مع أن التعامل مع القروض والمنح والخبرات والمساعدات الأخرى أكثر وأعمق إثماً وفحشاً، لأن الهدف من التعامل مع الشركات هو في الغالب هدف تجاري، بينما الهدف من التعامل مع النوع الآخر هو أكبر وأعظم من أن يكون تجارياً فقط. والتعامل مع القروض والخبرات والمساعدات تعامل مع الدول، مع السياسة، مع سياسة هذه الدول، أما التعامل الآخر فتعامل مع الشركات. وأهداف الدول والسياسة أخطر وأبعد من أهداف الشركات والأعمال التجارية.

ولننظر إلى دولة رجعية دكتاتورية حولت كل ملكية الرأسماليين وامتيازاتهم إلى ملكية وامتيازات لها هي ـ لننظر إلى دولة مثل هذه الدولة تأخذ من دول شيوعية وتعطيها هذه الدول الشيوعية بسخاء، ماذا يمكن أن تكون دلالة هذا الأخذ وهذا العطاء، وماذا يريد الآخذون وماذا يريد المعطون؟ الله ليس موجوداً بينهما ليتهم بأنه هو الوسيط في هذه العلاقة، والأخلاق المجردة

والمثالية ليست أيضاً موجودة لتتهم بنفس التهمة. أليس هذا أسلوباً مفضوحاً من أساليب التناقض والكذب والخداع والاحتيال يتعاطاه الفريقان كتعاطي الفحشاء علناً؟ كل من الفريقين يريد موت الآخر وهزيمته ومع هذا يساعده ويقبله بحرارة ودموع. فماذا يعني هذا؟

المجتمعات التي تعيش بالتعامل مع القروض والمنح والمساعدات الأخرى وبالتعامل مع الشركات تصبح مجتمعات مفتوحة للتآمر ضدها، يتآمر ضدها حكامها الطغاة الآخذون، كما يتآمر ضدها أيضاً الآخرون المعطون، ويؤلف هؤلاء وهؤلاء حلفاً معادياً لمصالح الناس، وطرفا الحلف كل منهما يهب الآخر القوة والدعاية والقدرة على الخديعة.

إن الآخذين للمساعدات والآخذين من الشركات قد يصبحون أقوياء، كما أن المعطين لا بد أن يبدوا أقوياء أيضاً. إذن من يكون الضعيف هنا؟ إن الضعيف هو المجتمع، إنه يضلل ويرهب ويستقوى عليه، وقد يعوقه ذلك عن التطور والتقدم السريع. وإن المعطي كالآخذ ليس نزيهاً، بل إن المعطي أبعد عن النزاهة من الآخذ. وما أبعد عن النظافة والنزاهة حكام دولة تقدمية متحضرة يهبون القوة والمساعدات لحكام طغاة فاسدين يجثمون فوق شعوب مغلوبة مقهورة مسروقة.

إن المساعدات والخبرات الأجنبية التي تضع نفسها ـ وكأنها تتآمر ضد الجماهير ـ في خدمة حكام طغاة جهال يحكمون شعوباً متخلفة لا بد أن يكون فيها ـ أي في هذه المساعدات والخبرات ـ معنى من معاني التجميد والهزيمة والإذلال أو الطرد لمواهب تلك الشعوب الفنية ـ إنها تسدد احتياجات أولئك الحكام الطغاة وتغنيهم عما في شعوبهم من احتمالات الموهبة بل وتحارب تلك الاحتمالات. والمساعدات والشركات الخارجية لا تسلب الشعب الذي تعمل فيه ثروته الطبيعية والذاتية المذخورة فقط، ولكن قد تتحول إلى عمليات إذلال وتأخير لتكامل ذكائه وقوته.

وأقول «قد» إذ من المحتمل أن يحدث العكس مهما كانت نيات الواهبين والآخذين. إن الإنسان، وكذلك المجتمع، لا يستجيب للتحديات التي يواجهه بها الآخرون أو تواجهه بها الطبيعة استجابة محددة، بل قد يستجيب للضربات والآلام المتماثلة استجابات غير متماثلة، قد يرد على التحدي الواحد بالشيء ونقيضه، إنه قد يضرب ويهان ويسرق فيستسلم ويسلم باقي جسمه وكبريائه وماله، وقد يكون محتملاً أن يضرب أو تمس كبرياؤه فيرفض ويقاوم أعنف ما يكون الرفض والمقاومة. وقد تظلمه الطبيعة وتقسو عليه أبشع قسوة فيحولها إلى إله، كله خير ورحمة وحب، أو يثور ضدها فينكر أن يكون فيها أي معنى من معاني الألوهية أو معاني الخير أو القصد الطيب، ويدأب للانتصار عليها ومنها.

إن أكثر المواقف جلباً للسخط والنقد والغضب، قد تصبح أكثر المواقف جلباً للرضا

والامتداح والاقتناع. إنه دائماً توجد أوضاع وعقائد ورجال جديرون بأن يهجوا بكل اللغات والألسنة، وأن يبغضوا بكل القلوب والعقول والأعصاب. ولكن العجيب أن هذه العقائد والأوضاع والرجال يلقون إطراء وإعجاباً لا حد لهما ـ سواء أكانت هذه الأوضاع والعقائد والرجال من ذكريات التاريخ أم كانوا معاصرين من الحكام والزعماء والمعلمين ومن العقائد والمذاهب الحديثة.

إن رضا الإنسان عن الطبيعة على امتداد تاريخه الطويل الأليم، واعتقاده الحكمة والفضيلة فيها قد أسقط كل احترام لمنطقه أو لأخلاقه أو لإيمانه وإعجابه بالأشياء والعقائد والمذاهب والآلهة والناس.

ولماذا يختلف الرد على التحديات، لماذا يرد عليها بعض الناس بالمقاومة والإبداع ويرد عليها آخرون بالاستسلام والضعف؟ وهل يمكن جعل أحد الفريقين يرد على ما يناقضه بالأسلوب الذي يرد به الآخر؟ وهل الاختلاف بين الناس في مواجهة التحدي اختلاف في التعليم والظروف أم اختلاف في خصائص الذات؟ ومهما كان الجواب الذي يمكن أن يجاوب به على هذه التساؤلات فلا يمكن أن تنكر الاختلافات الذاتية، بين الأذكياء والأغبياء والأقوياء والضعفاء وبين العباقرة وعامة الناس.

إذن فالشركات والمساعدات الخارجية تؤدي عملين باهظين أو من المحتمل أن تؤديهما، هذان العملان هما امتصاص رصيد الشعوب من الثروة الطبيعية التي وضعها القدر بذكاء وحساب دقيق عادل لا يحسد عليهما، ثم تجميد أو هزيمة الاحتمالات العقلية والفنية والعلمية التي قد تكون الطبيعة المنهوكة قد ألقت بها جزافاً وبلا أية موازين معترف بها أو معروفة على طريق أحد الشعوب التي تقتات بالمساعدات والشركات الأجنبية.

تحت بعض الظروف الرديئة قد يطمئن بعض الحكام إلى المساعدات والخبرات الخارجية أكثر من اطمئنانهم إلى أن يتطور مجتمعهم فيصنع كل خبراته التي يحتاجون إليها ـ إنهم قد يشعرون بالخطر من تطور مجتمعهم، ويشعرون بالأمان كل الأمان حين يتلقون الأمان من الخارج، كما قد يأمن بعض الحكام تحت بعض الظروف الرديئة جداً وهم تحت حماية الجيوش الأجنبية أكثر من شعورهم بالأمن وهم تحت حماية الجيوش الوطنية ـ هذه عقدة كانت على التاريخ وكان التاريخ يعاني منها، وهي عقدة لا يزال هذا العصر يعاني منها أحياناً تحت ظروف سيئة جداً.

وتحت مثل هذه الظروف فقد يفضل بعض الحكام أن يكون لهم مستشارون وأعوان أجانب على أن يكون لهم مستشارون وأعوان مواطنون. ولا حدود في الحياة للظروف اللئيمة التي تجعل الناس يضطرون إلى لعن أنفسهم وتحقيرها بأسلوب عالمي دعائي. والظروف التي تضطر

كثيراً من الناس إلى أن يلعنوا أنفسهم ويحقروها وكأنهم يؤدون واجباً أو عملاً شريفاً نبيلاً ظروف لا يمكن أن تموت في هذه الحياة ـ أو هذا هو الذي يبدو الآن.

*

هل استثمار النفط العربي في الأوان والظروف التي استثمر فيها نعمة، هل هو صواب؟ لقد أصبح النفط العربي مجداً عربياً هائلاً وتعويضاً عظيماً عن تخلف الموهبة العربية.

إن الشعوب العربية متخلفة حضارياً وعلمياً تخلفاً خطيراً، إنها لا تملك علماً ولا فلسفة ولا مذاهب إنسانية أو اجتماعية ولا ابتكاراً أو صناعة متقدمة. ومع هذا فمفروض عليها أن تعيش في هذا العصر، وأن تواجه جميع مشاكله وأن تحمي حاضرها ومستقبلها، وأن تتحدث مع الأقوياء جداً بصوت جاهر ولغة قوية ـ أن تتحدث معهم بمثل جهارة أصواتهم وبمثل شعورهم بالثقة والرضا عن النفس، بل بأكثر من ذلك. فكيف تملك كل هذا؟ إن الآخرين الذين يجب أن تتحدث وتتحاور معهم، والذين يواجهونها وتواجههم قوم يملكون الحضارة، يملكون كل الحضارة بكل قواها وجبروتها وإغراءاتها الهائلة. إذن ماذا تملك الشعوب العربية لتواجه وتبارز بغرور ووقاحة هؤلاء الذين يملكون كل الحضارة والقوة والإغراء والمنطق الحضاري ـ هؤلاء الذين يملكون كل الآلهة وكل الشياطين؟ تملك الشعوب العربية النفط.

إذن النفط هو قوة العرب الضخمة التي يستطيعون أن يواجهوا بها هذا العصر ويبارزوه، وأن يرفعوا أصواتهم فوق صوته وفوق أصوات أولئك الذين يستطيعون الصعود إلى القمر وقتل كل الحياة فوق كل الأرض في وقت ليس طويلاً جداً.

لم أسمع زعيماً عربياً يخطب بكبرياء، يلعن ويحقر بكل وقاحة أقوى الأقوياء، ويعلو صوته على أصوات الذين يتخاطبون بصواريخهم وأقمارهم الكونية مع الشموس والأكوان الأخرى ـ مهدداً منذراً ـ إلا صحت من أعماقي:

بوركت يا نفط العرب، فلقد تحولت إلى كبرياء وسفاهة وقوة لزعماء صغار جداً، فلولاك يا نفط العرب لما وجد هذا الزعيم المغرور صوتاً يرفعه، ولو وجد هذا الصوت ورفعه لما وجد آذاناً تسمعه، ولو وجدت مثل هذه الآذان وسمعته لكان أضحوكة السامعين.

نعم، بوركت يا نفط العرب وعشت مديد العمر فلقد وهبت أمثال هذا الزعيم الضعيف الوقاحة الجريئة والصوت العالي والآذان الخائفة المستمعة، حتى ولو لم تكن بلد مثل هذا الزعيم تنتجك أيها النفط العربي لأن البلاد العربية الأخرى تنتجك ـ لقد تحولت قوتك يا نفط العرب إلى قوة لكل البلاد العربية حتى للبلاد العربية التي ليس فيها نفط.

إن بلاغة أي زعيم عربي وقوة نبراته ليست إلا بلاغة ونبرات نفطية ـ حتى البلاغة العربية هي اليوم بلاغة نفطية!

فضائلك أيها النفط العربي لا تعدد وإنما يعدد منها.

من فضائلك أيها النفط العربي أنك حولت العرب إلى شعور واهتمام عالميين، فالعالم كله يشعر بالعرب ويهتم بهم ويستمع إلى صراخهم ويحس بغضبهم وتتقاطر دموعهم على خديه إذا بكوا وتلامس ضحكاتهم قلبه إذا ضحكوا، لقد تحول العرب بسببك يا نفط العرب إلى قصة غزل عالمية. إن العالم كله أصبح ينظر إلى العرب كبئر نفط عالمية.

لقد أصبح العرب نفطاً والنفط هو مجد الحضارة، إذن فالعرب هم مجد المتحضرين.

ومن فضائلك أيها النفط الصديق العزيز أنك قد منحت قومك العرب غروراً وأصواتاً عالية البذاءة وفرصاً كبيرة للمساومات، وقد راح الحكام والزعماء ـ حكام وزعماء أكبر البلاد العربية ـ يستثمرون هذه الفرص ويعبرون عن هذا الغرور بكل الأساليب غير المهذبة أو الذكية.

ومنها ـ أي من فضائلك أيها النفط الصديق ـ أنك قد أعطيت العرب مكانة لا يمكن أن يرتفعوا إليها لولاك في هذا العالم القوي الرهيب، وقد حول زعماء البلاد العربية الكبيرة هذه المكانة ـ حتى ولو كانت بلادهم غير متشرفة بحملك ـ إلى قروض ومنح ومساعدات يمتصونها من الآخرين الأقوياء الذين يخشون أن يغضبوك عليهم، كما حولوا هذه المكانة أيضاً إلى استعلاء وسباب للعالم بل ولحكام البلاد العربية المنتجة لك أيها الابن العربي العظيم إن العالم القوي المتحضر ليحتاج إلى تملق هؤلاء الحكام والزعماء غير المهذبين من أجلك، فيحولون تملق العالم لهم إلى قروض ومساعدات وخبرة وسلاح وتدلل عليه أي على العالم، إنك أيها النفط أنت مجد العرب وعبقريتهم وسلاحهم القوي في هذا العالم المسلح بكل أسلحة الحضارة والعلم والقوى المختلفة ـ أنت أيها النفط أكبر محاباة حابت الطبيعة بها العرب ـ أنت الابتسامة العريضة التي صافح بها القدر الأمة العربية في وقت غاضت فيه من حول الأمة العربية كل أسباب الابتسام.

ومن فضائلك يا نفط العرب أنك أنت وحدك واهب العرب كل ما عندهم من رخاء وتطور وحياة جديدة ومدارس وجيوش وأشياء أخرى كثيرة، حتى البلدان العربية المحرومة منك لم تبلغ مستوياتها الطيبة، والتي تكاد أن تكون طيبة إلا بك. إن هذه البلدان العربية التي لم تلدك تستفيد منك بوسائل كثيرة مباشرة وغير مباشرة حتى أنها بالاحترام الذي يحمله لك العالم استطاعت، ولا سيما الكبرى منها ذات المكانة الممتازة بتاريخها وعدد سكانها وتطورها وموقعها الجغرافي، أن تقترض وتستعطي وتبدي كل ضروب التدلل على الأقوياء باسمك وسببك، لقد حول زعماء هذه الدول العربية مكانتك العالمية إلى ديون يتقاضونها من الدول الكبرى ومن كل الدول وإلى دلال ثقيل.

كيف تقع الصورة في خيالنا لو تصورنا الوجود العربي بلا نفط ـ كيف يحيا، وكيف يعامله

العالم الذي يملك كل الحضارة والقوة والعلم والمنطق والرخاء والصعود إلى القمر؟

إذن استثمار النفط العربي في الأوان والظروف التي استثمر فيها صواب، صواب كبير. ولكن هنا عيب، عيب خطير.

في الوقت الذي بدىء فيه باستخراج النفط العربي كان العرب جميعاً متخلفين تخلفاً أليماً شاملاً، وكان من غير المستطاع أن يستقلوا باستخراج نفطهم، بل أو أن يشاركوا في العملية ـ كان ذلك مستحيلاً علمياً وفنياً واقتصادياً وتجارياً بل ونفسياً، وكان أيضاً من غير الذكاء أو المصلحة، وقد يكون من غير المستطاع كذلك أن يتركوا نفطهم ميتاً في مدافنه حتى يتقدموا ويتطوروا ويصبحوا قادرين على استخراجه بكل عملياته المعقدة والصعبة والباهظة ـ إنهم حينئذٍ سوف يظلون متخلفين زمناً أطول، إذ يبدو أن النفط كان هو الوسيلة الوحيدة التي قد تسرع بتطورهم، أو أن هذا هو الاحتمال القريب السعيد.

إذن لقد بدأ غير العرب باستخراج النفط العربي في وقت كان العرب عاجزين فيه كل العجز عن أن يفعلوا هم ذلك. وهذا يعني أمرين: أحدهما ألا يكون كل نفط العرب للعرب، وثاني الأمرين: ألا ينتفعوا بنصيبهم منه انتفاعاً يساوي انتفاعهم به لو كانوا متقدمين علمياً وفنياً وسياسياً واجتماعياً.

إذن سوف ينهب بعض نفطهم وسوف ينفق البعض الآخر انفاقاً عليه كثير من الاعتراضات القوية، أو ينفق في ظروف غير ملائمة لإنفاقه. هذا هو العيب الخطير!

واستثمار النفط ليس مثل استثمار المياه والزراعة والأشياء الأخرى المماثلة، لأن هذه لا تنفد بالاستثمار، أما النفط فينفد، إن النفط يموت بالاستثمار ثم لا يبعث. إن العرب يقتلون مستقبلهم واحتمالات قوتهم ـ إنهم يقتلون أنفسهم، ينتحرون كلما استثمر نفطهم استثماراً غير ملائم أو أنفق انفاقاً غير ذكي. إن النفط كائن ينتحر بمأساة ويموت حزيناً مأسوفاً عليه.

ولكن مع الالتفات إلى هذا العيب الخطير هل يمكن أن يكون من الصواب القول بأنه كان من الأفضل أو الخير ألا يستخرج النفط العربي في الوقت والظروف التي استخرج فيها لأنها كانت غير ملائمة؟ إن استخراجه على هذا النحو غير الملائم مهما كانت عيوبه سوف يعجل حتماً ببلوغ العرب المرحلة الحضارية التي يزحفون ببطء إليها، كما عجل بارتفاع مستويات حياتهم المختلفة. إن نفط العرب يموت بأسلوب غير صوفي ـ إنه يموت غير بطل وغير شهيد. ولكن موته هذا يصنع للحياة العربية شيئاً ويمنحها ظروفاً وأساليب ومستويات جديدة وجيدة.

قد يوجد من يقول إنه كان من الأفضل ألا يستثمر النفط العربي في الوقت الذي استثمر فيه. وهذا القول قد يكون جميلاً كشعر وحماس وخطبة وبحث عن المثالية المعزولة عن الواقع والحياة وبحث عن الأمنية بكل شروطها المستحيلة.

إنه ليس في الحياة شيء يعمل أو يتعامل معه أو يستهلك أو ينال بالأسلوب الصوفي، إنه لا شيء بكل الشروط المطلوبة والمتمناة أو المتخطية لكل النقائص. كل شيء يكون، يكون غير ملائم على نحو ما، ولا شيء ملائم على كل الاتجاهات والرغبات والمقاسات.

إن الحضارة والعلم والعبقرية والجيوش وكل البشر يستهلكون ويموتون بأسلوب ما أكثر الاعتراضات عليه ـ إن الاعتراضات الصحيحة على إنفاق هؤلاء لأنفسهم وحياتهم وقدراتهم ليست أقل أو أضعف من الاعتراضات على الأساليب والظروف التي يستثمر وينفق فيها النفط العربي. كل ما في الحياة والكون يحدث ويستهلك بأسلوب ينافي التقوى والأفكار والأماني الصالحة.

إن الاحتمالات أمام كل الأشياء كثيرة ومتناقضة، وقد يجيء زمن يصبح فيه النفط في كل العالم مثل عملة ورقية قد ألغيت. وحينئذٍ يكون المعنى أن عبقرية العرب ومجدهم قد ألغي استعمالهما ـ حينئذٍ يكون المجد العربي والعبقرية العربية قد ماتا موتاً عالمياً.

ومن العبث المعتاد أمثاله أن توجه النصائح إلى المالكين للنفط وإلى المالكين للتصرف فيه يطلب منهم بضراعة أن يستثمروه وينفقوه بروح صوفية، وأن يوجه إلى كيت وكيت ويمنع عن كيت وكيت. ولو كان للنصيحة أي تأثير تحت أي ظرف من الظروف لكان الشيطان قد مات منتحراً يأساً من أن يجد له تابعاً واحداً، أو لأعلن ـ أي الشيطان ـ اسلامه، إذ سيكون حينئذٍ أحد القديسين والنبيين قد وجه إليه في يوم من الأيام نصيحة قوية فيها كل حب الآلهة وأحزانها وإخلاصها وبلاغتها وإقناعها وارتجافاتها ـ نصيحة قوية تجعل الشيطان يركع على قدميه ويغرق كل ماضيه بدموع توبته وانكساره معلناً إسلامه.

وقد كان لغواً تقليدياً يلتزمه جميع الكتّاب والدعاة، بل يلتزمه جميع من يمارسون الكلام ـ كان لغواً تقليدياً أن يقولوا ـ وكأنهم يفعلون شيئاً كبيراً أو يؤدون رسالة خطيرة أو يصوغون العلم والإنسان صياغة مبتكرة نظيفة: «يجب علينا أن نكون كذا وكذا، وألا نكون كذا أو كذا» ـ أو: «يجب على الناس أو على المؤمنين أو على المواطنين أن يكونوا صادقين وأمناء ومخلصين وشجعاناً ومحبين للحق والعدل، ملتزمين لهما». إن أمثال هذه النصائح تشبه أن يقولوا: « يجب على الأحرار والمفكرين أن يكونوا طوال الأجسام، زرق العيون، بيضاً جلودهم، إذا لم يكونوا كذلك».

وحتى لو كان للنصائح قيمة فيما كان أي في التاريخ البعيد أي قبل اكتشاف موتها فإن قيمة النصائح الآن قد ماتت، ماتت موتاً عميقاً منذ أزمان بعيدة من شيخوختها وتقادمها وكثرة استعمالها وكثرة المبتذلين لها ومن كثرة خروج الواعظين بها عليها في سلوكهم ونياتهم. وليس

في الدنيا شيء يثير الشعور بالتناقض ووقاحة الكذب وحقارة الكلمة مثل النصائح الحزينة البليغة الباكية المنطلقة من أوسع الأفواه وأعلى المنابر وأكثر الكتب قداسة.

إن هذه النصائح تثير أعلى مستويات الاشمئزاز لتناقضها مع دعاتها ولما فيها من استحالة على الطبيعة.

وكما أنه من غير الذكاء والمصلحة ـ قد يكون أيضاً من غير المستطاع ـ ترك النفط العربي دون استثمار حتى توجد أفضل الظروف الملائمة لاستثماره، فإنه يكون كذلك من غير الذكاء والمصلحة كما قد يكون من غير المستطاع رفض المساعدات والقروض والخبرات الفنية والعلمية الأجنبية، والاعتراض على قبولها. إن في هذا وهذا تهديداً وخطراً، وعليهما اعتراضات كثيرة وقوية، ومع هذا فإن من البحث عن البداوة والتأخر رفضهما أو الاعتراض على قبولهما، بل إن رفضهما أكثر من البحث عن البداوة وعن التأخر وأكثر من البحث عن التهديد والخطر والوقوع في الاعتراضات.

لا يمكن التقدم بدون الممارسة والإلف، وأفضل الوسائل للممارسة والإلف في المجتمعات المتأخرة هي أن يعرض المتفوقون تفوقهم فيها وفوق أعصابها ويتحدوها به ويشعروها بضعفها ويضطروها إلى أن تعاني وترى وتخاف وتقلد، بل وتفتضح وتشعر بالتهديد والخطر. والشركات والمساعدات والقروض والخبرات الأجنبية قد رسم القدر بلا رحمة بأن تكون هي وسيلة الممارسة والإلف لتعليم العرب الخروج من التاريخ ولتعليمهم أشياء من الحضارة.

إن المفروض في هذا العون الخارجي أن يكون وسيلة تعليمية مثل دخول المدرسة والمعهد والمختبر، والذين يدخلون المدارس والمعاهد ومراكز التدريب يعرفون لماذا يدخلونها ويعرفون أنهم لا بد أن يخرجوا منها وأن لذلك أجلاً. إنه قد يوجد في هذه المجتمعات المتخلفة سادة وحكام طغاة فاسدون، وإن هؤلاء قد يرون أن من مصلحتهم أن يكتفوا بهذه المساعدات والقروض والخبرات الخارجية ويستغنوا بها عن تطوير مجتمعهم وعما فيه من احتمالات الموهبة، بل وقد يذهبون يحاربون تطور مجتمعاتهم كما قد يذهبون يحقرون هذه المجتمعات ويستصعبون أن تبلغ شيئاً كبيراً بمواهبها الخاصة. ولكن هذه الاحتمالات مهما كانت فظيعة فإن في الرفض من الاحتمالات ما هو أفظع. إن ظروف المجتمع وموهبته هي التي تصنع هذا أو هذا ـ هي التي ترجح هذا الاحتمال أو ذاك.

*

لقد كانت كارثة فلسطين تحمل كل أسباب ومعاني التهديد، وكان المفروض أن تحول كل شيء فينا إلى مذنب تحيط به ذنوبه وتهمه، وأن تجعلنا نقيم المحاكمات العامة العلنية في كل مكان، نحاكم تاريخنا وأوضاعنا وثقافتنا ومذاهبنا وأفكارنا وأربابنا، نلقي عليها النتائج بقسوة،

وألا نكتفي بأن ننظف مجرى حياتنا بل نغير المجرى كله. كان علينا أن ننكر جميع القيم والتعاليم التي قادتنا إلى هذه الفاجعة أو التي أصابتنا هذه الفاجعة ونحن ندين بها ـ وكان علينا أن نردم جميع الأنهار التي كانت ترتوي منها حقولنا الروحية.

إننا لم نتصور الكارثة وهذا يجعلها مضاعفة، فالعجز عن وعي الكارثة أقسى الكارثتين، إنه كارثة أخرى أو كارثة مركبة.

كيف فسرنا ما حدث؟ إننا لم نرتفع في تفسيرنا إلى مستوى ما حدث، وأبلغ مستويات الضعف ألا تفهم ما أصابك.

«نحن لم نهزم ولكننا خدعنا أو اختلفنا، فلسنا ضعفاء، وليس نهجنا في الحياة ضعيفاً، وليس لأعدائنا علينا أية مزية، فهم لم ينتصروا علينا وليسوا أقوياء وليس سلوكهم في لقاء الأحداث أو في فهمها سلوكاً أو فهماً ممتازاً».

هكذا قلنا ولا نزال نقول في تفسيرنا للكارثة. ومن التهوين أو التضليل أن نسمي هزيمتنا في فلسطين كارثة، إنها في الحقيقة أكبر من كارثة هي مهانة. ولنسمها كارثة تخفيفاً عن أنفسنا. لقد قلنا في تفسيرنا لهذه المهانة وفي الدفاع عن أنفسنا: إنهم ليسوا هم اليهود الذين أنزلوا بنا الكارثة أو المهانة ولكنها الدول الكبرى المتآمرة ـ لقد أعانت اليهود وخذلتنا ودبرت المأساة لتحدث طبق ما دبرت، كأنها قد صنعتها قبل أن تصنعها لبراعة ما حدث. إن أضعف المواقف أن نصاب ثم نخطىء في الإشارة إلى اليد التي صوبت إلينا الضربة.

ولكن لماذا خذلونا وأعانوا اليهود مع أن احتمالات احتياجهم إلينا وخوفهم منا وقدرتنا على الإيقاع بمصالحهم أقوى جداً من هذه الاحتمالات المرصودة لحسابات اليهود؟ هذا هو السؤال الذي لم نستطع أن نسأله ولم تستطع عقولنا أن تطرحه علينا ولم نستطع نحن أن نطرحه على عقولنا، ولم يستطع بعضنا أن يطرحه على بعض. إن التساؤل بمرارة وعمق أمام الحدث الأليم والمهانة القاصمة هو أقل مستويات الإنسان، فالذين لا يتساءلون في مثل هذه المواقف يتنازلون عن أقل المستويات الإنسانية. إنه لا كائن سوى الإنسان يتساءل، وإن الإنسان لا بد أن يتساءل، إنه لمحكوم عليه بالتساؤل. إذن لماذا لا نتساءل؟ إن الإنسان هو الصيغة السؤالية الوحيدة في هذا الكون ـ إنه سؤال وإن كان لا يسأل.

إن الدول الكبرى قوم من التجار، يبحثون عن الربح ويخشون الخسارة ويحاولون أن يختاروا أفضل العملاء. وهم ليسوا أعداء لنا عداوة طبيعية ودائمة، وليسوا كذلك أصدقاء لليهود صداقة طبيعية ودائمة ـ ليسوا ضدنا ولا معنا وليسوا ضد اليهود ولا معهم، ولكنهم قوم يتعاملون وهم أنفسهم دائماً. فلماذا إذن اختاروا أضعف العميلين والاحتمالين في الربح؟ وكيف لم يخشوا غضبنا وثورتنا ضدهم، ونحن نملك أشياء كبيرة وكثيرة يمكن أن نتحدى بها

أعظم الدول ونخيف مصالحها ومطامعها ـ إننا نملك ما نستطيع أن نساوم عليه وما نستطيع أن نخيف به؟

أما اليهود فلا يملكون من هذه الأشياء شيئاً ـ لا يملكون أسباب الإغراء ولا أسباب التهديد. نحن نملك ما نستطيع أن نغازل به أقسى القلوب والعيون وأكثرها جفاء وجلافة ونجعلها تركع بين يدينا بضراعة واستسلام، واليهود لا يملكون من أسباب الغزل والمساومة شيئاً قليلاً مما نملك.

يقول الساسة والكتّاب والمعلقون العرب ـ ويكررون هذا القول تكراراً إجماعياً: إن الغرب ناصر إسرائيل وأراد وجودها لتكون له قاعدة في هذه المنطقة. وقد ظل العرب يكررون هذا القول حتى أصبح الاقتناع به في قوة العقائد الدينية وقوة انتشارها.

وأكثر الناس إذا قالوا شيئاً أو قيل لهم لم يناقشوه أو يفسروه، بل يصدقونه أو يكذبونه بلا تفسير أو مناقشة، ويصبح التصديق والتكذيب عندهم نوعاً من الأخلاقية واللاهوتية، حتى أن من يشك في تصديقهم أو تكذيبهم أي فيما يصدقون أو فيما يكذبون يكون زنديقاً وخائناً وعدواً يجب التخلص منه ولو بالموت. إنهم يؤمنون بالكلمة أحياناً على أنها هي الله فقط، ويرفضونها أحياناً على أنها ضد الله حتماً ـ فيؤمنون تارة بما يقال لهم كما يؤمنون بالله، وتارة يكفرون بهذا الذي يقال لهم أو بما يسمعون أو بما يقول الآخرون كما يكفرون بالشيطان.. والفروق بين ما يقبلون وما يرفضون هي فروق في أنفسهم أو في ظروفهم وليست في المرفوض أو في المقبول.

ومع هذا فهل هم صادقون حينما يتحدثون، هل يحترمون الكلمة في تعاملهم بها لكي ينخدعوا بها حينما يعاملهم بها الآخرون؟ المفروض أن يكونوا معصومين من الكذب ومن شهوته لو تناسبوا مع مقدار إيمانهم بما يقال لهم وبالكلمة التي تنقل إليهم من منابع التاريخ البعيدة مارة بطريق طويل مملوء باللصوص والظلام والأوحال والآلام والأهواء وبالأشياء الأخرى. إن الكلمة التاريخية تمر من طريق لا يمكن ألا تصاب فيه، بل إن الكلمة في كل ظروفها لا يمكن أن تبقى نظيفة أو ذات كرامة أو شرف وهي تمر من الطريق الذي تمر منه.

كيف تكون إسرائيل قاعدة للغرب ـ هل تكون قاعدة اقتصادية أم عسكرية أم سياسية أم دينية أم ثقافية أم جنسية ـ ويعنى بالقاعدة مركز التجمع والانطلاق؟ فهل يحتمل أن تتجمع أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا أو أية دولة غربية أخرى في إسرائيل لكي تنطلق منها في أشكالها الاقتصادية أو العسكرية أو السياسية أو الدينية أو الثقافية أو الجنسية على العالم العربي؟ أليس تجمع هذه الدول أو إحداها في الجحيم لتنطلق منه على البلاد العربية يكون معقولاً ومحتملاً أكثر من أن يكون ذلك في إسرائيل ومن إسرائيل؟

إن العرب على اختلاف مستوياتهم وظروفهم يقبلون أن تتعامل معهم كل هذه الدول كل

أنواع المعاملة بالأسلوب المباشر وبالإعلان، بل ويطالبون بذلك ويلحون في المطالبة ويرجونه رجاء، وهم يفعلونه اليوم وكانوا يفعلونه قبل اليوم ـ بل إن العرب قد يقبلون أن تكون بعض بلادهم قواعد عسكرية لجيوش هذه الدول وصواريخها. وقد حدث هذا فيما كان ولا يزال هذا الذي حدث باقياً حتى اليوم.

ولكنهم يرفضون رفضاً لا يوجد أقوى منه أن يتعاملوا مع هذه الدول من طريق إسرائيل أية معاملة مهما كانت الشروط والإغراءات والمزايا، بل هم لا يرون شيئاً يماثل هذا في الكفر القومي والوطني والديني أو في البشاعة الأخلاقية، وإنهم ليقاطعون شركات ومؤسسات هذه الدول إذا تعاملت مع إسرائيل أية معاملة. إنه إذن لا يوجد أي احتمال لأن يتعامل العرب مع الغرب من طريق الدولة اليهودية. ولو قبلوا مثل هذا التعامل لكان قبولهم له بالطريق المباشر أقوى وأفضل في تقديرهم. فما الحاجة إذن إلى دولة إسرائيل على كل الاحتمالات في حسابات الدول الغربية؟

إن وجود إسرائيل سباب واتهام ودعاية وغرامة قد فرضت على الغرب، والغرب حتماً يعلم ذلك لأنه يعلم حتماً أنه لا مصلحة له في وجودها، بل يعلم ـ لأنه ليس غبياً إلى المدى الذي يتصوره كثيرون منا ـ أن وجود إسرائيل ليس إلا جهاز تحريض ضده وتنفير منه واتهام له. فالعرب يجعلون الدول الغربية مسؤولة عن وجود هذه الدولة وعن بقائها وقوتها ونشاطاتها المختلفة، لهذا لا بد أن يكرهوا هذه الدول ويلعنوها ويرحبوا بالدمار والهزائم التي تصيبها.

إننا دائماً نقول إن الغرب يخاف تقدم العرب ولا يريده ويعمل لوقفه لأنه يريد أن يظلوا دائماً ضعافاً واقعين في قبضته ـ ثم نقول إن إسرائيل وسيلة جيدة لإضعاف العرب ومنع تقدمهم. ولكن أليس الصحيح أن إسرائيل جهاز تنبيه وتطوير وتوعية للعرب لأن في وجودها تهديداً لهم وتحدياً وتجريحاً لكرامتهم وشرفهم، وهذا يصنع القوة والمقاومة أكثر مما يصنع الضعف والركود؟ بل إن وجود إسرائيل قد يكون أقوى وأفضل الدعاة إلى الوحدة العربية. وهذا شيء قاله كثير من زعماء العرب. فإذا كان الغرب يخاف ويقاوم وحدة العرب وتقدمهم فإن الوسيلة حينئذٍ هي أن يرفض ويقاوم وجود إسرائيل لأن وجودها داعية تحريض للعرب لكي يتحدوا ويتقدموا ويتخطوا خمولهم وتاريخهم المستكين.

نعم، هناك دولة أو كتلة كأنما قامت إسرائيل لتكون هدية لها من الجحيم، أو كأنما دبرت وساعدت هذه الدولة أو الكتلة بذكاء ودهاء خفيين جداً على وجود إسرائيل. هذه الدولة أو هذه الكتلة التي كأنما ساعدت ودبرت وجود الدولة اليهودية بمكر لا أبعد ولا أعمق منه هي روسيا والكتلة الشيوعية.

لقد نفذت روسيا والكتلة الشيوعية إلى العالم العربي وأصبحت عميلاً محظوظاً جداً فيه،

بل أصبحت فيه كمنقذ منزه عن السوء أو الغرض أو الأنانية. ولهذا أسباب، لعل أقواها أو من أقواها فيما يبدو وجود إسرائيل. لقد خاف العرب من قيام إسرائيل وغضبوا، وألقوا بكل حمولة غضبهم وخوفهم على الغرب، ورأوا أنه يعطيها السلاح والعلم والمال لتكون أقوى منهم، ولتهزمهم وتفرض عليهم الذل والعار. وهذا الخوف والاعتقاد جعلا العرب يتوجهون إلى روسيا والكتلة الشيوعية ـ وقد يتوجهون في المستقبل أكثر ـ بحثاً عن الأمان والقوة والحماية، وتعبيراً عن الغضب والاحتجاج.

ويفقد الإنسان المقارنات الدقيقة أو المدروسة بين ما يهرب إليه وما يهرب منه وما يحتج عليه وما يحتمي به حينما يغضب ويخاف ويحاول أن ينتقم ـ إنه حينئذٍ يفقد كل منطق وتوازن وحسابات عقلية بل أو مصلحية.

وكل غضب على الغرب وابتعاد عنه يتحولان إلى رضا عن روسيا والكتلة الشيوعية وتقرب إليها. وكانت إسرائيل كلما اصطدمت بالعرب تذكروا أن الدول الغربية هي الخالقة والحامية والمحرضة لها، فازدادوا سخطاً على هذه الدول وابتعاداً عنها، وازدادوا بقدر ذلك توجهاً إلى الجانب الآخر واعتماداً عليه وتطلعاً إلى عونه، فيخسر الغرب دائماً ويربح الشرق دائماً. والشرق يعرف ذلك جيداً فهل كان يعرفه قبل حدوثه ويدبر له؟ إنه حينئذٍ لعلي دهاء عظيم، وإنه حينئذٍ لمهندس عظيم لأحداث المستقبل. والغرب أيضاً يعرف ذلك جيداً الآن، يعرف أن وجود إسرائيل خسران له وتحريض ضده وربح للشرق ودعاية له ـ حتماً، الغرب يعرف هذا الآن لأنه ليس فاقداً لكل أسباب الذكاء والقدرة على الملاحظة، إنه يستطيع أن يرى ويفكر.

إذن هو حتماً يعرف أن وجود إسرائيل لعنة عليه، لعنة لا رحمة فيها ولا ثمن لها. إذن لماذا ساعد على وجود هذه اللعنة فيما كان، ويساعد على استمرارها الآن؟

إنه يفعل ذلك تحت أسباب أخرى ليس منها أن إسرائيل ربح له أو يمكن أن تكون ربحاً له، بل تحت عوامل نفسية وتاريخية ودعائية وشبه أخلاقية أو دينية، وأيضاً تحت تأثير النفوذ اليهودي العالمي ـ نعم لقد خضع الغرب للتأثير اليهودي وللعوامل الأخرى المشار إليها دون أن يكون في وجود إسرائيل احتمالات أي ربح له، بل وحينما كان وجودها خسراناً مضموناً يصيبه.

إني أعتقد ـ أو هكذا يجب أن تكون الحقيقة ـ أنه لو وجدت قوة قاهرة خفية لتنسف إسرائيل في ضربة واحدة ولحظة واحدة في ليلة نامت عيونها ليفاجأ العالم كله ويفاجأ الشرق والغرب بزوال هذه الدولة أو هذه العقدة الدولية، لكانت النتيجة حينئذٍ جد عجيبة، أي أن الغرب حينئذٍ سوف يسر بذلك أو يجب أن يسر ويشعر أن هماً ثقيلاً قد انجاب عنه. لقد

كانت ليلة سعيدة تلك الليلة التي نجا فيها من همه الثقيل الطويل الذي لم يكن يعرف كيف ينجو منه ولا كيف سقط عليه.

أما الشرق فإن موقفه وشعوره سوف يكون شيئاً آخر ومناقضاً جداً لما يظن ولما يتظاهر هو به، إنه لا بد أن يكتئب وأن يشعر أنه قد أصيب بخسارة كبرى، وأنه لا بد أن يحاول سراً إن استطاع مقاومة تلك القوة الخفية التي تريد أن تسلبه هذه الفرصة المركبة الأرباح: ربح الدعاية له والرضا عنه، وربح الدعاية ضد الغرب والغضب عليه.

إن الصين الشيوعية تبدو الآن أكثر من دولة عربية في هتافها لفلسطين ورغبتها في القضاء على إسرائيل، ولكنها سراً وفي الليل تناجي النجوم بضراعة صادقة تطلب منها أن تحفظ لها هذه الدولة التي هي إسرائيل لتغازل العرب بشتمها ومعاداتها الإعلانية لها وبالتخويف بها. إنها لعبة لا يخفى الرابح ولا الخاسر فيها، لا يخفى ذلك على أي مفسر للأحداث، فهل يخفى على الشرق والغرب؟

نحن، العرب، نريد أن نحار في تفسير إسرائيل وأن نتصور من وراء وجودها أسباب قوة خارقة لكي يكون خوفنا منها وضعفنا أمامها معقولين أو غير ناسفين للكرامة وساخرين من الانتساب إلى أدنى مستويات الشجاعة.

كيف يمكن أن يكون خوف العرب من إسرائيل وعجزهم عنها معقولين أو مقبولين لولا هذه الأسباب التي يفترضون ويقدرون ليغطوا بها شيئاً لا يمكن أن يكون معقولاً أو مقبولاً.

قال مرة أحد الكتّاب الأجانب:

«لو كنت عربياً لخجلت من التحدث عن الخوف من إسرائيل» يقصد بسبب الفرق العددي والإمكاني بين الفريقين. إن العرب أكثر من ثلاث عشرة دولة وعددهم مائة مليون، ينضم إليهم كل عام ـ بسبب نشاط الطبيعة الغبية ليلاً ـ أعداد جديدة لا تقل عن تعداد دولة إسرائيل. وموارد العرب المادية مذهلة إذا وضعت في حساب مع موارد الدولة اليهودية. وموارد الكويت وحدها ـ هذا الحرف الجميل الصغير المطرز بأناقة وترف في الثوب العربي الكبير ـ يخيف موارد إسرائيل مع جميع قروضها وهباتها وانتشارها العالمي. والظروف الدولية ملائمة جداً للعرب أكثر من ملاءمتها لإسرائيل كما تقدم. نعم إن كل عربي يجب أن يخجل من خوف العرب هذه الدولة ومن تحدثهم عن أخطارها.

بل إني لأشعر بما هو أعمق وأكثر من الخجل حينما تتجمع كل الدول العربية في مؤتمرات متلاحقة وعلى كل المستويات لتعتصم من خطر هذه الدولة بإعداد كل الجيوش والموارد والأسلحة والآراء والأحقاد والشعوب العربية، متجمعة متوحدة متعاونة، مستعينة بكل الحلفاء

والأصدقاء والمناورين والمساومين لتصنع من كل ذلك قوة واحدة لمقاومة هجوم إسرائيل أو للهجوم على إسرائيل.

إني لا أطيق أن أتصور أن أربعين رجلاً يجتمعون في مؤتمرات متوالية خائفة ليكونوا جيشاً واحداً، لكي يبطل عدوان رجل واحد أو لكي يهاجم ويقتل رجلاً واحداً لا يملك من الأعضاء أكثر مما يملك رجل واحد من هؤلاء الأربعين. إن في هذا ما هو أكثر من البطولة والمجد والذكاء، وفيه ما هو أكثر وأبلغ من الثناء على النفس. وما أكثر ما سوغنا لأنفسنا هذا الهوان بأن زعمنا أننا لا نخاف أن نقاتل إسرائيل بل القوى الخارجية التي تحميها وتمدها وتدافع عنها. ولكن ما أبعد هذا عن الصواب، فالقوى الخارجية التي ترى مصلحتها في أن تلقي بثقلها في جانب العرب أكثر جداً من التي تجد مصلحتها في أن تلقي ببعض ثقلها في جانب اليهود.

إن القوى التي يحتمل أن تتدخل من الخارج هي في مصلحة العرب لا في مصلحة اليهود، فاليهود كما سبق ليس عندهم ما يساومون عليه أو ما يغرون به.

إن إسرائيل لا يمكن أن تكون خطراً على العرب إذا تحضروا، أما إذا لم يتحضروا فإن عجزهم عن التحضر سيكون أشد خطراً عليهم منها. إذن إسرائيل لن تكون خطراً على العرب في جميع الحالات، لأنهم إذا تحضروا فما أصغرها وأضعفها أمامهم، أما إذا لم يتحضروا فالخطر عليهم من عجزهم عن التحضر لا منها. إن إسرائيل خطر على تخلف العرب لا على تقدمهم.

إن الذين يتخوفون من خطر إسرائيل على العرب إنما يعنون أن العرب لن يتحضروا. فإسرائيل موجودة وقوية وتهديد لنا خطير، أي أنها تستطيع أن تخيفنا وقد تقهرنا وتتفوق علينا في العلوم أو الخبرات أو في الحرب أو في التعامل الفني والثقافي والتجاري والاقتصادي مع الدول الأخرى ما بقينا متخلفين، أي ما دام أربعون رجلاً لا يساوون رجلاً واحداً. أما إذا تحضرنا فإن من أبشع أساليب التحقير للنفس، أن يخاف مائة مليون متحضر من مليوني متحضر، أو أن يخاف مائة وخمسون مليون متحضر من ثلاثة أو أربعة ملايين من المتحضرين.

إذن هذه القضية يجب أن ينظر إليها هكذا: إذا كنا سنتحضر فلا وجود لإسرائيل، وإذا كنا لن نتحضر فيجب أن يكون خوفنا من أننا لن نتحضر. وهل يدري الذين يتحدثون دائماً عن تهديد إسرائيل للوجود العربي أن تحدثهم هذا يعني ـ دون أن يدروا ـ أنهم مقتنعون ـ دون وعي لهذا الاقتناع ـ بأننا سوف نبقى دائماً في ظروف متخلفة جداً.

واليهود حينما يصرون على أن تكون لهم دولة داخل العالم العربي هم حتماً يقيمون حساباتهم على احتمالات أمن لهم يقدرونها ويفهمونها. فما هي احتمالات الأمن هذه التي يثقون بها كل هذه الثقة ويقيمون عليها مغامرتهم الكبرى؟ هل يفترضون أن العرب لن يتحضروا أبداً؟ ولا يمكن أن نتصور أي عاقل في الدنيا يطمع في أن ينتصر رجل واحد ويظل

دائماً منتصراً على أربعين رجلاً في جميع المستويات الإنسانية المختلفة إلا إذا افترضنا أن هؤلاء الأربعين سيظلون أبداً متخلفين تخلفاً يجعلهم لا يتساوون مع رجل واحد في أي أسلوب من أساليب التحضر.

وهل افترض اليهود أن العرب سيظلون دائماً مصابين بهذا التخلف وكيف افترضوا هذا الافتراض، وهل هو افتراض جنوني؟ وهل محتوم على كل الناس أن يصابوا بالجنون في بعض مواقفهم وتفسيراتهم لبعض الأشياء؟ ولعل لدى اليهود افتراضاً آخر قائماً على أن العرب سيقبلون وجود الدولة اليهودية بينهم في يوم من الأيام.

وهل هذا الافتراض أيضاً نوع من الجنون الذي لا بد أن يصيب كل الناس في بعض الأوقات تحت بعض الظروف، أو يصيب بعض الناس في كل الأوقات تحت كل الظروف؟

إني عاجز أن أتصور كيف يقتنع اليهود بأن العرب سيبقون دائماً متخلفين التخلف الرهيب الذي يجعل الموقف بين العرب واليهود دائماً هكذا: يهودي واحد أقوى من أربعين عربياً، أو بأن العرب سيسلمون بوجود الدولة اليهودية.

وإذا كان غير معقول أن ينام المنطق اليهودي فوق هذين الافتراضين ولا أن يضع جميع حساباته في مصرفهما، فعلى أي افتراض أو حساب أقام اليهود إذن دولتهم داخل العالم العربي؟ هل اليهود آلهة لا يخافون معنى الخطر، أم مجانين لا يفهمون معنى الخطر ـ هل في المسألة لغز هائل أم غباء هائل؟ هل اليهود يستحقون الإعجاب جداً لشجاعتهم التي لا حدود لها أم الرثاء والسخرية بهم جداً لجنونهم الذي لا حد له؟

إذا كان اليهود يقيمون حسابات أمنهم على الظروف الدولية فما أعجب هذا؟ إن الظروف متحركة دائماً، فإذا كانت تلائم هذا يوماً فإنها لن تلائمه دائماً، وإذا كانت تناقض ذاك في هذا العام فإنها قد تلائمه في العام القادم أو الذي بعده، وهكذا. فالقيام بالمغامرات الضخمة أو الخطيرة اعتماداً على أن تكون الظروف الأخرى ـ الظروف الخارجية ـ ملائمة دائماً شيء لا يمكن أن يتقبله المنطق السوي. ومع هذا فإن كل ـ أو أغلب ـ تحركات الناس ومغامراتهم قائمة على مثل هذه الحسابات، أي قائمة على تقدير أن تكون الظروف الخارجية ملائمة كل وقت، وعلى أنها إذا كانت ملائمة اليوم، فقد تظل ملائمة أبداً أو لا بد أن تظل ملائمة أبداً، وعلى أنها إذا لم تكن ملائمة اليوم فقد تكون ملائمة غداً أو لا بد أن تكون ملائمة غداً.

إن الأحداث ـ حتى الأحداث الكبرى جداً ـ تعيش دائماً بعيداً عن الذكاء، عن كل منطق ذكي، وإن أضخم الأحداث التي وقعت في العالم كانت خارج جميع الافتراضات العقلية قبل وقوعها، وإن العالم كله بصورته الكاملة لم يكن من الممكن أن يكون فرضاً عقلياً قبل وجوده

حتى ولو كانت كل العقول موجودة وطلب منها أن تفترض كل الافتراضات العقلية المستطاعة.

*

وبعد اكتمال هذه المأساة واشتراك جميع العرب فيها ذهب كل فريق من الشركاء ـ وهم يحاولون تبرئة أنفسهم ـ يحمل الفريق الآخر إثم جميع ما حدث ويزعم أن ذلك الفريق قد خان أو قصّر وعجز ولم يفهم، أما هو فقد كان وحده المنزه عن كل خطأ وعجز. لقد أصبحوا كلهم آثمين وأصبحوا كلهم أيضاً منزهين في مجموع رأي الفريقين في الفريقين، إنهم ليسوا كلهم مصيبين، وليسوا كلهم مخطئين.

ومن عادة الشركاء أن يتلاوموا إذا خسروا وأخطؤوا أو هزموا، ومن عادة المخطئين إذا اشتركوا في الخطأ أن يتهم بعضهم بعضاً وألا يقبل أحد أن يكون هو المخطىء بل ولا أن يكون أحد المخطئين، والمفروض حينئذٍ أن يكون المخطىء كائناً آخر لم يشترك في القضية ولا يعلم عنها شيئاً.

وإذا اتهم المشارك في الخطأ نفسه فإن هذا الاتهام أسلوب بذيء من أساليب تبرئة النفس والثناء عليها، إنه بهذا لا يكتفي بأن يبرىء نفسه بل يذهب يبرئها بأقوى أساليب التبرئة وأقوى أساليب الامتداح لها.

ومع ذلك فإن هذا الذنب نفسه لو كان صحيحاً لكان محتاجاً إلى تفسير. لماذا خان العرب أو قصروا في قضية وطنية قومية بل ودينية مثل هذه القضية؟ إن الخيانة والتقصير تعبيران شريران عن أشياء أخرى، وهذه الأشياء الأخرى لا تولد في فراغ ولا في الظروف الملائمة لنقيضها، بل في الظروف الملائمة لها. لماذا مثلاً خان العرب أو قصروا ولم يخن اليهود ويقصروا مع أن ظروف اليهود أسوأ جداً من ظروف العرب وأقرب إلى الخضوع لاحتياجات التقصير والخيانة؟ هل خان العرب أو قصروا جبناً أم فساداً وضلالاً؟ ولماذا هم أجبن أو أفسد وأضل من اليهود؟ هل فعل العرب من الضعف والخسة ما لم يفعل اليهود بسبب عرقهم وخصائصهم أم بسبب ظروفهم؟

عجباً! لقد انهزم سبعون مليوناً كان التاريخ المحابي لهم يمشي بتواضع وخنوع وراءهم، وانتصر عليهم نصف مليون من بقايا الموت والعذاب والتيه والظلم العالمي، ومن بقايا غرف الغازات الخانقة، كان التاريخ المتحامل عليهم يشيعهم بالتحقير والاتهامات البذيئة الغاضبة، الموضوعة على ألسنة الآلهة والأنبياء وكل المعلمين، المحولة إلى كتب مقدسة فيها كل بلاغة الغضب والحقد والتوتر والمرارة.

لقد كان التاريخ كله يحارب ويلعن ويطارد بكل أجهزته بكل المتعاملين معه هذا النصف

المليون الذي انتصر على سبعين مليون معهم كل التاريخ والآلهة والأنبياء والمعلمين والمتعصبين. لقد جمعنا تاريخنا بكل ما فيه من مزايا إنسانية وعرقية وثقافية وهجمنا به على النصف المليون، يحرضنا أعظم ما عرف وحمل البشر من حقد وبغض ومرارة ودعاية وحماس وإيمان وغرور - فماذا حدث؟

من أرخص الحلول والتفسيرات أن نقول إن اليهود قوم أنجاس مناكيد، ليس لله ولا للأنبياء والكتب المنزلة من اهتمام أو تدبير أو عمل أو رسالة غير لعنهم والتشنيع عليهم وشرح مخازيهم وكتابة تاريخهم المزكوم بروائحهم القذرة، ثم نغيب في نشوة عجيبة تملؤنا سكراً وتجعلنا عاجزين عن الشعور بنقائصنا وذنوبنا وعن الإحساس بالكارثة. ما أقوى ما لتحقير الآخرين واتهامهم من سحر وتضليل.

إن تحقير الأعداء والمنافسين، بل وكل الآخرين، وإلصاق النقائص بهم هو أعظم غذاء تستسيغه مشاعرنا وعقولنا وأخلاقنا، بل وتسمن وتستريح عليه. لقد ظللنا كل التاريخ نتغذى بلعن اليهود وتأليف التهم ضدهم، وكان ذلك يشبع جوعنا الأخلاقي والعقلي والتاريخي، كنا نجد في ذلك أكبر المسرات والرضا عن النفس وعن كل ما فينا من عيوب وآلام وآثام، كأن نقائص الآخرين وهزائمهم تتحول إلى مزايا فينا وانتصارات لنا. إن أردأ طعام في هذا العالم هو الطعام الذي تتغذى به مشاعر البشر المهزومة المتألمة الحزينة الغيرى. لقد كنا في لعننا لليهود وتحقيرهم وتوجيه الاتهامات الفظيعة إليهم كأنما نكفر بذلك عن حقاراتنا وضعفنا ونرد على الطبيعة عدوانها علينا وعجزنا عن الانتصار عليها.

والبشر في الأكثر يحولون فعل الطبيعة ضدهم إلى معاقبة وعدوان على آخرين مثلهم تفعل الطبيعة ضدهم نفس الشيء، ويتعالجون من ألمهم الذي تصيبهم به الطبيعة بنفس العلاج، أي بمعاقبة الآخرين والاعتداء عليهم، لعل أكثر ما يفعل البشر ضد البشر إنما كان القصد به الانتقام من الطبيعة أو إنما كان تعبيراً عن الاحتجاج على الطبيعة جاء تعبيراً عدوانياً غبياً.

إني أخشى من كثرة ما سببنا اليهود وتمتعنا بتحقيرهم وإلقاء التهم عليهم أن يقاضونا في الآخرة ويطالبونا بالتعويضات وبتوقيع العقوبات علينا أمام إحدى محاكم السماء. وإني لأخشى أن يظفر اليهود بعطف أية محكمة سماوية يعرضون أمامها قضيتهم ويسمعونها جميع ما قلناه فيهم في كل التاريخ من بذاءات ولعنات، كما أخشى أن يضعف ذلك بشاعة ما فعلته الصهيونية بالعرب الفلسطينيين في تقدير تلك المحكمة ومنطقها. إننا أحياناً نسب اليهود كعرق ونكون بذلك دون أن ندري من المؤمنين بالعنصرية وبتفاوت الأجناس مع إيماننا بأننا نحن واليهود ساميون.

لقد عجزنا في هذه القضية عن النصر فهل واجب أن نعجز أيضاً عن الفهم؟ إن الاعتراف

بالهزيمة انتصار لم يستكمل أسبابه، أو هو أسلوب من محاولات التكفير عن الهزيمة، أو هو نوع من الصلاة أمام الألم المنكر، أو هو نوع من التعهد برفض النسيان، أو هو أسلوب من أساليب الاحتجاج على الهزيمة والمقاومة لها بنضال جديد.

«إن اليهود انتصروا لأنهم أغنى وأدهى وأعلم وأقوى أخلاقاً وأوسع تأثيراً دولياً، إلى مزايا أخرى كثيرة».

ولكن كيف أصبحوا كذلك ولم نصبح نحن مثلهم أو أعظم منهم مع الفروق الضخمة بين إمكانياتنا وإمكانياتهم؟ إنه إذا كان العجز عن رد الألم موقفاً ضعيفاً ومهيناً فإن العجز عن فهم الألم أو استنكاره سيكون موقفاً أشد ضعفاً ومهانة.

*

لقد بدأت الصهيونية بدايتها الكبيرة المخيفة، بداية علمية ذكية متحضرة، ثم مضت فيها تعيش كل مزايا الاستقرار والتناسق الداخلي والفهم العميق غير المصاب بالغرور لوضعها ولما حولها ولكل الاحتمالات القريبة والبعيدة. أما نحن فقد واجهنا هذه البداية الإسرائيلية الخطيرة مواجهة كلها توتر وصراخ وغرور وعجز عن الفهم والتوازن ـ واجهناها بالحكومات والانقلابات العسكرية التي تحول جل نضالها واهتماماتها إلى المحافظة على بقائها والإعلان عن نفسها والتحدث عن أمجادها وعبقريتها، وإلى التهديد وصياغة الشعارات والتباهي بالمذهبية وإلى مخاصمة الجيران وجيران الجيران ومخاصمة كل العالمين، في ادعاءات لا مثيل لها في فقدها للذكاء والوقار والصدق.

واجهنا هذه البداية العدوانية بحكومات إرهابية تبتكر الخوف والأزمات والجنون والغباء والاستعباد والجبن وإسقاط الكرامة تحت شعارات البحث عن الرخاء والحرية والكرامة والانتصارات. لقد جاءت حكومات ثورية انقلابية يقال إنها جاءت كرد قوي ذكي على قيام الدولة الصهيونية ـ جاءت هذه الحكومات الثورية الانقلابية لتأخذ منا كل شيء حتى الحرية التقليدية لتعطينا بدل ما تأخذ منا الشعارات والمذاهب والقوانين المتلاحقة والأجهزة الدعائية الغالية الثمن الرخيصة الفهم والقيمة، التي تأخذ أعصابنا ووقارنا وذكاءنا ورخاءنا لتعطينا ـ ثمناً لما أخذت ـ الضجيج والأكاذيب والمفاخرة بنفسها وبخنوعنا لها، ولتعطينا أيضاً فيما تعطينا بغض الآخرين وتحقيرهم والتعالي عليهم.

جاءت هذه الحكومات الثورية الانقلابية لتعلمنا أن نلعن الآخرين ونكرههم بدل أن تعلمنا أن نكون أقوى منهم وأن نتفاهم معهم، وتعلمنا كيف نخاف منها بدل أن تعلمنا كيف نثق بها ونفهمها، وتعلمنا كيف نصدق بدل أن تعلمنا كيف نفهم، وتعلمنا كيف نرفع أصواتنا بدل أن تعلمنا كيف نفكر، وتعلمنا كيف نعبدها بدل أن تعلمنا كيف ننقد أخطاءها.

كم كنت أتمنى أن هؤلاء الحكام الثوار المغرورين قد جاؤوا في عصر يضع المجانين والطغاة واللصوص في السجون والمستشفيات والمعتقلات ويتركهم يسقطون مفتضحين، لا في عصر يبررهم ويدللهم ويحمي ضعفهم وجهلهم من السقوط والافتضاح ويحميهم من خطاياهم القاتلة. كان أمثال هؤلاء في العصور القديمة يجيئون فيذهبون غير مكرمين أو مبكياً عليهم، أو يبقون خراباً وعذاباً لمجتمعاتهم دون أن يسقطوا لأن العصر والظروف التي يعيشونها تكون متكافئة مع ضعفهم وتفاهتهم.

لولا أن هؤلاء الثوار قد جاؤوا في ظروف دولية محابية لهم ولنقائصهم جداً لخربوا وأفقروا كل شيء ولما استطاعوا البقاء مع كل هذه الحماقات والخطايا، ولكان محتوماً أن يفتضح عجزهم بأسلوب لا مجاملة فيه للجنون والضعف.

لقد جاؤوا في عصر القروض والمنح والمساعدات العسكرية والفنية الدولية، وفي عصر التكتلات الشرقية والغربية ـ جاؤوا في عصر الجنون العالمي، في عصر يرفع فيه أي حاكم أو ثائر لا يملك أية مزية أصبعه ويقول بأسلوب المتدلل المتكبر: أريد، فتتهاوى إلى حجره الكواكب ويسجد تحت قدميه بمذلة وتصاغر كل أقطاب الدول العظمى قائلين له بانكسار: لبيك، لبيك، وسعديك، سعديك، نحن وشعوبنا ومذاهبنا وكل ما نملك ملك يديك، لقد جئنا من السماء رسلاً مبايعين إليك.

لقد اختبأ كل جنونهم وضعفهم بالقروض والمساعدات والخبرات التي يقدمها هذا العصر المفتون بحب الصعاليك والاستجابة لرغباتهم، والمفتون أيضاً بوضع الأغطية الجميلة فوق عورات المجانين. ولو أن هؤلاء الثوار جاؤوا في عصور أخرى، لو أنهم جاؤوا قبل الحرب العالمية الثانية حيث لا منافسات مذهبية ولا منح ولا خبرات أو قروض موهوبة مجنونة لكان افتضاحهم أو سقوطهم عظيماً.

رثائي لهذا العصر، عصر الجنون والصعود إلى القمر، وعصر الصراصير الزعماء والثوار الذين يحولون آلامهم الطبقية والتاريخية إلى قوانين ومذاهب وشعارات وبذاءات لا مثيل لها في فحشها. كان الرجل في العصر القديم يضعف أمام الجنس الآخر والضعفاء والمهزومين بقدر ما فيه من فروسية وعراقة وبقدر قدرته على قهر الأقران، أما في هذا العصر فإنه بقدر ما تكون الدولة عظمى وغنية وقوية جداً تضعف وتهون ويخضع زعماؤها أمام توعد وتدلل أضعف الزعماء في أضعف المجتمعات. إنه حتى الكبار جداً لا بد أن يتخلوا عن كرامتهم إذا أرادوا اصطياد الفئران.

في الثوار دائماً جنونان. كل الحكام غير الثوار يرون أن العالم يتحرك حركة ذاتية اضطرارية لا يستطيع التخلص منها حتى لو أراد، فالتطور والتغير في الحياة والمجتمع قانونان محتومان، لا

يقال: كيف حدثا إذا حدثا، وإنما يقال: كيف لم يحدثا لو أمكن ألا يحدثا. ولهذا فإن هؤلاء الحكام الذين هم ليسوا ثواراً لا يرون أنه يجب أن تهتف لهم النجوم أو المنابر مهما حدثت الأشياء الطيبة في عهدهم لأنهم يدركون أن أشياء طيبة لا بد أن تحدث تحت كل الظروف.

أما الثوار فإنهم يفترضون بطفولة متهيجة أن الكون بطبيعته لا يتحرك ولا يتغير، فإذا حدث في عصرهم أي تغير في المجتمع أو الحياة ـ حتى ولو كان أغبى وأبطأ جداً مما يمكن أن يحدث لولاهم ـ فإنهم يملؤون الدنيا ضجيجاً ودعاية وتحدثاً عن عبقريتهم الخالقة للمستحيلات، ولهذا فإن كل شيء يقع في عهودهم يحولونه إلى حساباتهم الخاصة وهداياهم إلى الإنسانية، حتى خصوبة الأرض وغزارة الأمطار وامتلاء الأنهار وإنتاج المصانع القديمة التي كانت موجودة قبلهم، بل حتى جمال الشمس.

إن كل مدرسة ومصنع وطريق وأرض وجيش تفتح أو ينشأ أو يشق أو تزرع وتسقى أو يعد ويسلح في زمانهم يرون باقتناع ودعاية أنه لولا ثورتهم المجيدة لما حدث من ذلك شيء ـ إنهم يعتقدون بسذاجة يغبطهم عليها الأطفال أنهم لو لم يجيئوا لما أمكن الانتفاع بحرارة الشمس ولا بمياه الأنهار ولا بالفصول الأربعة ولا بالظروف الدولية الملائمة بل الظروف الدولية المحابية التي تطرق على النائمين أبوابهم لتهبهم نفسها بسخاء وافتتان.

إنهم بأساليبهم العدوانية الصارخة المرتجفة قد يعوقون عمليات التطور واحتمالاته التي كان من المحتمل أو المحتوم أن تحدث في عهود غير عهودهم على مستوى أسرع وأفضل، ومع هذا فإنهم يفرضون على كل المجتمع أن يتحول إلى قصائد امتداح وتأليه لهم وإلى دعاء واعتراف بعبقريتهم التي حولت كسل الطبيعة إلى نشاط ومحالاتها إلى حقائق وجحيمها إلى فردوس. إنهم يفترضون كل الأشياء ليس فيها قوانين تصنع التطور، وإنهم هم الذين يهبون الأشياء قوانينها المبدعة للتطور. وهم لا يستطيعون أن يفهموا أنهم هبة قوانين وليسوا واهبي قوانين ـ إنهم هم التعبير الأردأ عن القوانين التي تعطي أردأ التعابير وأفضلها.

إذا قلت أو فقدت المواد التموينية أو ارتفعت أسعارها في زمانهم فرضوا على جميع الأجهزة أن تتقدم إليهم بأعظم آيات الشكر والمديح، زاعمة أنه لولاهم لما وجدت هذه المواد البتة، ولكان محتوماً أن تموت الأنهار جوعاً وظمأ، وأن الأشياء من قبلهم لم تكن موجودة، أو أنها كانت أغلى سعراً أو أنه لم يكن يوجد من يستطيع أن يستهلكها فاقة وجهلاً وتأخراً. وقد يلزمون الأجهزة الدعائية أن تزعم أن الشمس قبل ثورتهم لم تكن تهب كل هذا النور، وأن أنوارها الوهاجة ليست إلا منحة ثورية. هذا هو جنون الثوار الأول الكبير.

أما جنون الثوار الثاني فهو إصابتهم جميعاً بمرض العرض الذاتي، إنهم يريدون أن يحولوا كل شيء، كل ذكاء، كل بلاغة، كل منبر، كل جهاز، كل حضارة إلى أداة عرض لجنونهم

المتكبر ـ يريدون أن يصبحوا صراخاً في كل مسامع الدنيا، وخناجر في كل عيونها، ورهبة في كل قلوبها، وتوتراً في كل أعصابها، وأنشودة في كل أفواهها ـ إنهم يريدون أن يتحركوا إلى لوحات لا نهاية لأبعادها، تملأ كل الفضاء وتخنق كل النجوم وتخفي كل أجرام الكون ـ أن تتحول الدنيا كلها إلى صالة عرض لثورتهم. ولهذا فإن الثوار محتاجون دائماً إلى المؤتمرات والخطب والإعلان والإثارة والتكرار والضجيج على جميع المستويات. وأفضل الأشياء عندهم هي الأجهزة الإعلانية.

إن الهدوء والوقار يقتلان سعادتهم، أما الصدق والعقل فهما أخبث أعدائهم. وهم يرفضون أن يؤمن بهم المجتمع ويصلي لهم بخشوع وصمت، بل يريدون أن تكون صلاة المجتمع لهم ضاجة سوقية، إنهم ليفضلون أن يقام في بلدهم مؤتمر كبير أو دولي يخطبون فيه ويعرضون ذواتهم أمام أعضائه وينفقون عليه كل خبز شعبهم، ويخطب فيه بين يديهم وتتحدث عنه الدنيا وعن غبائه وجنونه ـ إنهم ليفضلون مثل هذا المؤتمر على أن يقام في بلدهم ألف مشروع صناعي أو زراعي بصمت لا صراخ ولا إعلان فيه. إن الصمت المبدع هو الخيانة والرجعية والسخط على الثورة، أما الضجيج العاجز فهو الثورة والإخلاص والنضال ومقاومة الفساد ـ الصمت غباء وخمول ومؤامرة وفتور في الولاء والوطنية والمذهبية، والضجيج ذكاء ونشاط وحرية ومعاداة للخيانة.

ما أرخص الكلمة والمبالغة والغباء والأكاذيب ـ ما أرخص الإنسان في عهد الثوار، وما أغلى الصمت والصدق والذكاء والاعتدال!

إن الثوار هم دائماً التعبير الأعلى بالضجيج عن أسوأ وأضعف ما في البشر والمجتمعات من منطق وسلوك وعذاب.

ومرض العرض هذا، الذي لا بد أن يصاب به الثوار إصابات خطيرة هو أسوأ جهاز امتصاص لحياة الجماهير واحتياجاتها وتبديد لطاقاتها. ولهذا فإن الثوار مهما أعطوا ـ إن كان محتملاً أن يعطوا ـ يأخذون أضعاف ما يعطون، ولهذا أيضاً فإن الثوار هم أخطر الحشرات المعادية للإنسان والحياة مهما كانت الشعارات والمذاهب والسيوف التي يلمعون ويشحذون ويجمعون.

ولا نريد أن نخطىء، فإن جميع الحكام بل جميع الناس خاضعون ـ ولكن على مستويات متفاوتة ـ لحوافز ورغبات العرض الذاتي.

*

الصهيونية الذكية تستلهم في تفكيرها وحياتها فكر الغرب المتحضر وحياته وانطلاقاته وكل ما لديه من طموح وتوازن وذكاء وحرية وقوة وفنون واتساع رؤية وتواضع في القول والتعبير مع

شموخ في العمل والتدبير، أما نحن فنستلهم روح الشرق واعتقاداته وضجيجه ومبالغاته وتعاليمه وتفاخره بآبائه وتاريخه وأديانه وبأربابه التي قد ماتت، بل التي قد قتلها هو. نحن شامخون جداً في البلاغة وفي الحديث عن أنفسنا وعما سنصنع ونكون، ومتواضعون جداً في المعنى المقابل. أما اليهود فشامخون جداً في المعنى المقابل، متواضعون جداً في البلاغة وفي الحديث عن أنفسهم وعن قوتهم، نحن متفوقون عليهم بالتهديد والوعيد، والغرور، وهم متفوقون بالتدبير والحذر والحسابات الدقيقة. نحن دائماً نعلن أننا نريد موت اليهود وقتلهم مع احتمال أننا لا نريد ذلك أو لا نستطيعه، أما اليهود فيعلنون دائماً أنهم لا يريدون قتلنا أو موتنا، بل حياتنا ورخاءنا مع احتمال أنهم يريدون لنا ما ينكرون، وأنهم يستطيعونه أو قد يستطيعونه.

يحشد اليهود أنفسهم حشداً حضارياً متجدداً مفتوحاً فيه كل ما في الحياة من تطلع وابتكار ووقار وشك وتجربة، ونحشد نحن أنفسنا حشداً بدوياً فيه كل ما في البداوة من صهيل وغرور وانغلاق وتوتر وبلاغة لغوية واحترام للقبور والنصوص والروايات وبحث عن المبارزات والملاعنات الدينية والمذهبية. حياة اليهود عمليات طويلة من تجارب الحياة الصعبة، وحياتنا عمليات طويلة من تجارب التاريخ والموت البارد.

فرق واحد علينا أن نتصوره، ذلك هو الفرق بين المرأة اليهودية والمرأة العربية، ومن قلب المرأة تنطلق الحياة الإنسانية. والمرأة هي أول مفسر للحياة ومعبر عنها ومعط لها في بصر الطفل وتجربته وشعوره، إن المرأة هي الأنبوبة الثمينة التي تحتوي الطفل ـ الذي هو الصيغة الأولى للحياة ـ وتحدده وتعطيه وتحفظه.

إذن لقد كانت الصهيونية تهديداً لنا بالفناء، بل لقد تحولت إلى فناء لنا في موضع من جسمنا الوطني والقومي، ومع هذا فإن هذا التهديد لم يخلق فينا روحاً وأفكاراً أو تفاسير جديدة للأحداث والإنسان والحياة، ولم يضعنا على طريق الحضارة، بل لقد وضعنا ـ أو وضعنا أنفسنا مصادفة ـ في طريق البداوة ـ جاءنا بحكام يعيشون في العصر الحديث بكل أدواته وشعاراته القوية الرهيبة، وبروح العصر القديم بكل أفكاره وطغيانه ومعاداته للحريات.

هل ماتت فينا قوة الانفعالات أم أن انفعالاتنا تطلق دائماً شحناتها إطلاقاً غبياً؟ من وراء كل عمل من أعمال البشر شحنة فكرية ونفسية وذاتية، وهذه الشحنة هي التي تصوغ الأعمال وتعطيها القوة والضعف. وتغيير الوجوه والمذاهب والشعارات والأرباب والتعاليم من غير تغيير الشحنات النفسية والفكرية والذاتية يشبه تغيير غمد السيف دون تغيير السيف نفسه لكي يكون قاطعاً. والفرق بين فرد وفرد ومجتمع ومجتمع يساوي مقدار الفرق في هذه الشحنة.

*

والآن هنا خصم يقف على قمة الفكر والعبقرية والدهاء، وتتقارب تحت قدميه حواشي

الأفق المتباعدة متجمعة، وتمتد أمام بصره النفاذ شهوات الآباد، وتعج في دمائه ضربات التاريخ الأليمة المتحدية، ويطلق فيه حرصه على مجده الوليد الخطير النخوة والحساسية. فهو يدبر أمره من فوق القمة، فيرى ويعلم ويحلق بمحركاته القوية الحديثة فوق الآفاق والأبعاد، فيحيط ويحاصر. وإنه مع ذلك ليذر من كل نافذة ويتنفس كل هواء، ويعيش في كل طقس. فأما أن نصعد إلى القمة صعوده وننتشر في كل الآفاق البعيدة انتشاره، لا توهننا الفضائل الذليلة، وإلا فإن التاريخ لا بد أن يضعنا في إحدى مقابره الواسعة الحزينة، فإنه لا يزال يجد في مدافنه متسعاً لموتاه القادمين ـ لا بد أن يضيف حينئذٍ إلى حساباته القديمة حسابات جديدة، فيها كل ما عرف عنه من قسوة وشهوة وافتراس وجوع دائم.

ولئن حمتنا اليوم هذه التناقضات والظروف المثالية في محاباتها لنا ـ هذه الظروف والتناقضات المباركة التي يعيشها العالم ونعيش نحن بل ونتألق ونتكبر على حسابها، فإننا لن نجد من يعطينا ضماناً أكيداً بخلود هذه الظروف والتناقضات المشكورة لمبالغتها في محاباتنا وتدليلها لنا.

أنت غير ذكي يا صاحبي إذا ظللت تتعاطى العقاقير المنومة بينما خصمك القوي المجاور يتعاطى العقاقير المقوية.

* * *

يوجد دائماً خطأ كبير في تفسيرنا للأشياء ورؤيتنا لها. نحن دائماً نلتمس الأشياء خارج الأشياء ونفسرها كما نفسر الآلهة والأرواح والأبالسة تفسيراً غيبياً لا ذاتياً. فالإنسان، وكذا غيره، ليس هو الذات والروح بل هو الذات فقط، وليس هو الجهاز وجهاز الضبط بل هو الجهاز فقط.

نحن لا نبحث عن مصادر القوة أو مصادر الضعف في الذات القوية والذات الضعيفة، وإذا بحثنا فبلا إيمان بقيمة البحث، وإنما نبحث عنها في جهات أخرى بعيدة، في جهات قدرية خرافية. ليس الأقوياء أقوياء لأن فيهم أسباب القوة، ولا الضعفاء ضعفاء لأن فيهم أسباب الضعف.

إن أعداءنا حينما نجدهم أقوياء ومنتصرين لا نعتقد أنهم يختزنون في داخلهم قوى ذاتية، ليسوا ممتازين بمزايا جعلتهم أقوياء ومنتصرين، ونحن ـ حينما نبدو ضعفاء ومهزومين لا يكون معنى هذا أننا نختزن في داخلنا خصائص الضعفاء والمهزومين.

فاليهود والآخرون المتفوقون يغلبوننا ونعجز عن مقاومتهم، فلا يثير هذا في اعتقادنا ولا في تفكيرنا اهتماماً ولا سؤالاً لنبحث عن أسباب ذلك في وجودهم لأنهم هم لم ينتصروا لخصائصهم القوية، ولأننا نحن لم ننهزم لخصائصنا الضعيفة. هل يمكن أن نجرؤ على الاقتناع

تحت أي ظرف من الظروف بأن اليهود قد انتصروا علينا في وضع يساوي أن يكون وزن النملة فيه أثقل من وزن الفيل لأنهم يملكون مزايا أفضل وأقوى من مزايانا؟ إن مثل هذا الاقتناع في تقديرنا الديني والوطني والقومي والأخلاقي أكثر فحشاً وزندقة من الكفر بالله.

لقد انتصروا هم خطأ أو حظاً أو قدراً، أو لأنهم فسقة وكفار وناكثون للعهود وبائعون للشرف والضمير وعملاء، أو لأن الأحداث هكذا جاءت بلا تفسير، أو لسبب تافه أجرى الأمور كما يشاؤون هم وضد ما نشاء نحن. ونحن كذلك أيضاً هزمنا حظاً وخطأً وقدراً، أو لأننا مؤمنون وطيبون مستمسكون بالشرف والضمير، موفون بعهودنا، محافظون على أعراضنا وأخلاقنا، معادون للاستعمار والخيانة والرجعية، أو لأن الأقدار تصوغ الأحداث بالمشيئة لا بالقوانين المحتومة، أو لأن حادثاً صغيراً أجرى الأمور على غير ما نشتهي.

نحن لا نستطيع أن نقرأ الأحداث قراءة ناقدة، فلا نستطيع أن نفهمها أو نتأثر بها على مستويات عمقها وضراوتها وفسوقها، ونظل أوفياء لأخطائنا وآلامنا ونقائصنا، بل نحولها إلى فلسفات وأديان ومزايا ومواقف بطولية، فلا ننحرف عن النهج القديم القويم إلا بقدر لا يجعلنا منفصلين عنه أو شاكين فيه أو كارهين له.

وإذا تغيرنا تحت إلحاح الظروف الخارجية الهائلة فبالشعارات واللغة والزي فقط، حتى المذاهب والنظم التي ندعيها ليست إلا تشكيلات حركية ونداءات منبرية، أما الأعماق فتبقى كما هي وفية لكل ما ترسب في قاعها من أوثان وبداوة وأمية.

حتى الشهرة العلمية والأدبية والفنية لخصومنا ولليهود خاصة نفسرها تفسيراً يحابي ضعفنا ويخفف من شعورنا بالتخلف والهزيمة والعجز. إننا نخاف جداً على مشاعرنا الضعيفة فندللها ونرفض أن نصدمها بما يؤذيها أو يهزها، لهذا نغلق على عقولنا كل منافذ الرؤية فلا نرى شيئاً لا نريده، ونفسر كل الأشياء تفسيرات فيها كل التدليل والمجاملة لنفوسنا العاجزة عن فعل التفوق والهاربة من رؤيته عند الآخرين.

لم أر أضعف منا في إرادتنا لتحقير الآخرين المتفوقين والإصرار على إنكار مزاياهم ـ إننا نجد أفضل غذاء روحي في هذا التحقير وفي هذا الإنكار.

ولعل الضعفاء جميعاً، بل لعل كل الناس كذلك، أي لعل كل الناس يتغذون روحياً إذا حقروا المتفوقين وأصروا على جحد تفوقهم. ولكنني أجد رغبة ملحة في التركيز على عيوبنا نحن التي قد تكون هي أيضاً عيوب كل الآخرين. ولعل رغبتي هذه أسلوب من أساليب الرد والاحتجاج على مبالغتنا في إنكار مزايا الآخرين، إني أشعر أننا مسرفون ومعتدون جداً في هذا الإنكار، لهذا فقد أسرف أنا في مقاومة هذا الإسراف والتعدي.

وأذكر هنا ما لا أستطيع أن أنساه. إن كبار كتابنا يكتبون ويكررون ما يكتبون، يقولون إن

العلماء والمفكرين والفنانين اليهود الذين نالوا جوائز تقديرية من هيئات دولية إنما نالوها محاباة وكذباً، لا جدارة. وهذا الاقتناع الحاقد مركوز في عقائد جماهيرنا بل وفي عقائد الخاصة منا.

وبغض الآخرين ليس وحشية أو ظلماً أو حقداً لئيماً فقط، وإنما هو جنون عظيم. ويظهر أن البغض هو أكبر الأشياء في حياة أكثر الناس مهما تحدثوا عن الحب وعن حب الأعداء أيضاً، ومهما حولوا الحب إلى دين وأنزلوا به الكتب المقدسة. ولعل الناس لم يبالغوا كل هذه المبالغات الدينية والتعلمية والوعظية في الحديث عن حب كل الناس وكل الأعداء والخصوم وفي الدعوة إليه وشرح مزاياه إلا لأنهم كانوا يعانون من أقسى ضروب البغضاء - البغضاء منهم إلى الآخرين، والبغضاء من الآخرين إليهم هم، بلا أي نبل أو وقار.

لعلهم كانوا في حديثهم عن الحب يتمنون أو يغالطون أو يخفون أو يستغفرون لعمق شعورهم بالعجز عن أن يعطوا الحب أو يجدوه لعل شعورهم بالذنب كان عميقاً، ولعل أكثر الناس حديثاً عن الحب هو أعجزهم عن أن يعطيه أو أن يأخذه. وإذا كان جميع الناس جديرين بأن يعاملوا بالإنصاف والمحبة فإن أجدرهم بذلك هم الخصوم والأعداء، وإذا كان الإنصاف مزية إنسانية وقوة في المنصف فإن أعلى مستويات الإنسانية والقوة أن ننصف خصومنا ونبالغ في إنصافهم.

والبغض في حياة الناس هو دائماً أسلوب من أساليب الدفاع عن النفس، فالبغض يعتقد أن الذين يبغضهم خطر عليه أو على تفوقه أو على مصالحه أو على جنونه وطموحه، فيذهب يدافع عن نفسه دفاعاً شعورياً، فيكون حاقداً ومبغضاً وحاسداً ومبتكراً للتهم والإشاعات الرديئة ليوجهها إلى من يلقي عليه بغضه، ويفرح أيضاً بالتهم والإشاعات المضادة التي يبتكرها الآخرون ضد الإنسان أو الجماعة التي يبغضها.

ولهذا فإننا إذا حطمنا من نبغضهم أو تحطموا انهار بغضنا لهم لأننا لا نبغضهم لذنوبهم أو عيوبهم بل نبغضهم لاعتقادنا بأنهم خطر علينا في تصور من تصوراتنا للخطورة. ولهذا أيضاً فإن مقاومتنا الشعورية أو السلوكية لا تكون موجهة إلى الفاسدين بل إلى الأقوياء المهددين أو المنافسين أو المثيرين لنا بأي أسلوب من أساليب التهديد أو المنافسة أو الإثارة، سواء أكانوا صالحين أم فاسدين. وإذا أبغضنا الفاسدين فليس لأنهم فاسدون بل لأنهم ضدنا على نحو من الأنحاء، فنحن لا نكره الصالح أو الفاسد، بل المخيف المهدد المنافس لوجودنا أو لمصالحنا وطموحنا.

الإنسان الذي لا يشعر بالخطر والتهديد أو المنافسة من أي نوع لا يمكن أن يشعر بالبغض أو الحقد لأنه لن يشعر بالحاجة إلى الدفاع عن النفس. إن الذي يريد كثيراً ويعجز كثيراً هو أشد الناس حماساً في بغضه وحقده.

لعل أضخم الأشياء في تاريخ البشر هو البغض، أو لعله من أضخم الأشياء، لأن حاجة الناس إلى الدفاع عن أنفسهم هي أضخم الحاجات. ليس كل الناس أذكياء أو شجعاناً أو أغنياء أو لصوصاً أو قتلة أو أهل وسامة أو أهل دمامة، ولكن كلهم مبغضون حتى المعلمون الخالدون الذين يجيئون ليعلموا ضد البغض وليبشروا بالحب وبالدعوة إليه. إن البغض حشرة تعيش فوق القمة كما تعيش في الحضيض، تعيش في كل المستويات والبيئات، ولعل القمة هي أكثر المستويات ملاءمة لها. إن البغضاء ذباب إنساني يتغذى بموهبة العبقري كما يتغذى أو أكثر مما يتغذى بتفاهة التافه. ما أقل الذين نحبهم إذا عدوا بالذين نبغضهم. إن الذين يفقدون القدرة على الحب في مرحلة من مراحل حياتهم يظلون يملكون القدرة على البغض في كل مراحل حياتهم.

والبغض هو دائماً بذاءة انفعالية وليس صلاة وطنية أو دينية ـ ليس البغض إلهاً ولا وطناً. وكم أخجل وأحتقر نفسي حينما أبغض من يخالفونني في الدين أو المذهب أو الوطن أو من يعادونني أو يتفوقون علي، أو حينما أبغض من يبغضونني. فليس البغض أداء لرسالة ولا انتصاراً على شيء أو لشيء، إنه بذاءة ووحشية فقط. البغض عذاب يعانيه المبغض وليس ذنباً يرتكبه، إن المبغض مصاب بالبغض لا فاعل له، هو إنسان يتعذب وليس إنساناً يعتدي أو يقاتل أو يعاقب أو يؤدب. والذي يقع عليه البغض أشد ظلماً وقسوة من الذي يقع منه البغض.

ولماذا تسلحنا الطبيعة بالبغض؟ هل تسلحنا به لمعنى وضرورة أم لغير معنى وغير ضرورة؟ إن كان لغير معنى فما أعظم حماقتها ووقاحتها، وإن كان لمعنى فلماذا لا تحقق المعنى الذي تريده بدون هذا السلاح الضعيف البذيء؟ إن الطبيعة على الاحتمالين ليست في أي مستوى من مستويات العبقرية أو الأخلاقية.

*

«إنه لولا فساد ضمائرهم وسقوط أخلاقهم لما نجحوا أو انتصروا، أو التزموا مثلنا الصدق والنزاهة والشرف والتقوى والوطنية والمثل والإنسانية العالية لظلوا مثلنا مكروهين ومحاربين وعاجزين ـ إن النجاح لا يكون إلا على مصاعد من الخيانة والنذالة والتآمر، وإن الاستقامة هي دائماً الطريق إلى الهزيمة والتخلف».

بهذه التفسيرات ندافع عن هزائمنا وعجزنا ونهاجم تفوق المتفوقين وذكاءهم. وهذا المنطق الذي يفسر الأشياء بغير الأشياء يوجد فوضى في تخطيط الحدود بين الأشياء، بين الآلهة والإنسان، والآلهة والكون، والكون والإنسان.

إن الرأي العام في المجتمع الذي يعيش تحت هذا التفكير لا يعرف ما الذي يجب عليه أن يصنعه هو أو يكون ملوماً إذا لم يصنعه، ولا ما الذي يجب أن تصنعه آلهته أو حكامه أو

الآخرون، ولا يعرف من هو السبب أو ما السبب، ولا من هو النتيجة أو ما هي النتيجة. إذا تألم لم يعرف إلى من يوجه غضبه ولعناته ومقاومته، إلى الآلهة أم إلى الكون أم إلى الحكام أم إلى المجتمع أم إلى المذاهب والنظم أم إلى التاريخ أم إلى النفس.

الفقر والمرض والتأخر وسائر المشاكل والآلام لم يزل الإنسان يعاني منها، فمن هم الجانون لها، المسؤولون عنها، ومن هم المرجوون الملزمون بعلاجها؟ لقد ألقى هؤلاء في السوق عديد الآلهة والقوى الغيبية الغامضة، ووضعوا في قصورهم أسراراً لا حدود ولا قوانين لها تعرف أو تضبط بها. لم يستطيعوا أن يفهموا أي شيء كما هو في حدوده أو في ذاته، لم يستطيعوا أن يفهموا الحاكم أو المجتمع أو الفرد أو الكون كما هو في حدوده أو في ذاته، ولم يستطيعوا كذلك أن يفهموا أنفسهم أو الآخرين، بل إنهم دائماً يفسرون أنفسهم بالآخرين ويفسرون الآخرين بأنفسهم.

والكون الذي تطرح فيه أقوى الآلهة والأسرار والعقائد التي تنكر أن يكون الشيء هو تفسير الشيء أو سببه أو هدفه كيف يمكن أن يفهمه الإنسان أو يتفاهم معه أو يفهم نفسه فيه أو يفهم الآخرين فيه؟ لقد امتلأت السوق بالأرباب والعقائد فاختلطت الأمور على السوق وعلى المتعاملين فيها.

*

مجاورة العدو القوي المتربص تفرض الخروج من السكون والاستقرار، لأنها تفرض الخوف والشعور بالخطر. والخطر يصنع الحذر على نحو ما، والحذر يدفع إلى البحث عن النجاة، وهذا يضطر إلى ابتكار الوسائل. إذن لقد كانت جميع الابتكارات الإنسانية رداً على الخوف وعلى التهديد بالفناء أو الهزيمة، أو هذا هو الفرض والنظرية، أو هو أحد التفاسير لتطور الإنسان وبلوغه الحضارة. وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فلتتعاظم إذن الأخطار والتهديدات من كل نوع وبكل أسلوب، وليباركها الله.

وقد سلحت الطبيعة البشر بمرونة لا حدود لها، وهم بهذه المرونة غير المحدودة يستطيعون أن يبتكروا جميع الأسلحة لمقاومة جميع الظروف المضادة سواء أكانت هذه الظروف إنسانية أو كونية. ولو كانت قدرة الإنسان على ابتكار الأسلحة المقاومة للظروف المناوئة محدودة لفني الإنسان حتماً.

ولكن من الذي أراد للإنسان ألا يفنى ودبر له ذلك فأعطاه هذه القدرة على التسلح ضد الفناء؟ ولو أنه فني أو لو أنه لم يوجد البتة فهل في هذا خسران ما، ومن الذي سوف يخسر حينئذٍ أو يحزن ويموت بكاء؟ وهل في الأمر بحث عن الأفضل أم أن الأشياء تحدث بلا بحث

عن شيء، لا عن الأفضل ولا عن الأسوأ؟ ومن هو مقياس الأسوأ والأفضل، بل ما هو الأسوأ والأفضل؟ إن الأفضل والأسوأ محسوبان دائماً بالإنسان، ولكن الإنسان الأسوأ والأفضل محسوب بمن؟

ولئن كانت بعض الأشياء متعاملاً بعضها مع بعض أسئلة تجد أجوبة، فإن الأشياء مجتمعة، أو مجموع الأشياء، كانت وستظل دائماً أسئلة ملحة لا تجد ولن تجد في المستقبل أية أجوبة. ولو أننا أردنا أن نضع تعريفاً للإنسان والكون لا يمكن الاعتراض عليه لقلنا إنهما السؤالان الضخمان اللذان لن يجدا جواباً - إن وجودهما سؤال يتحدى الإنسان، يتحدى منطقه وغروره، يطلب جواباً. ولكن لا جواب، وكل حضارة البشر ومعارفهم لا تستطيع أن تجد مثل هذا الجواب عن السؤال المطل بوحشية وقسوة من كل مكان على الإنسان. وكل جواب يعطى هنا يتحول إلى سؤال أكثر صرامة وتجهماً.

ولكن لماذا نبحث عن أنفسنا خارج أنفسنا ونفسر الأشياء خارج الأشياء؟ إن العجز عن فهم العمليات السببية وعن تسلسلها أو الرغبة في العجز عن ذلك، وعن فهم المادة والطاقة وطبيعتهما هو نبي كل هذه الأوهام المتدنية. وكلما تقدم الإنسان في معرفة الأسباب ومعرفة قوانين المادة والطاقة ماتت من معتقداته وأمانيه الآلهة الأجنبية وفسر الكون والأشياء والإنسان تفسيراً ذاتياً لا خارجياً. وهؤلاء الآلهة الأجانب يتخلون عن سيادتهم على الكون والإنسان مع تزايد المعرفة والقدرة والشجاعة الإنسانية. فالآلهة يولدون ويعيشون في الظلام والضعف، ويموتون في النور وحيث توجد القوة.

وقد كان من المستحيل على الإنسان القديم أن يعرف من أين تجيء الأشياء وأين تذهب. كيف يمكن أن يعرف من أين يجيء المطر وكيف ينشأ وينزل، أو كيف يعرف لماذا تتحرك الشمس والكواكب، ومن أين تجيء وإلى أين تذهب، ومن الذي يعطيها الضوء والحرارة والحركة وكيف لا تنفد وتنطفيء.

إنه لم يشاهد قط سراجاً ضخماً معلقاً دائماً في الفضاء يعطي الضوء الدائم دون أن يوجد من يوقده ويهبه الزيت ويحميه من الانطفاء والنفاد والموت والسقوط. ومن المستحيل كذلك أن يعرف الإنسان القديم كيف يحدث الرعد والبرق والخسوف وينمو النبات وتحيا الأرض بعد موتها، وكيف تسير الأنهار في طريقها - كأنها تبحث عن شيء أو كأنها على ميعاد فيه شوق ولهفة، أو يعرف من أين تجيء ومن أين تأتيها مياهها التي لا تنفد أبداً.

كان من المستحيل على الإنسان القديم أن يفهم لغة الطبيعة أو يعي أي تعبير من تعبيراتها - كان من المستحيل عليه أن يعرف، مع أنه لا بد أن يعرف أو أن يحاول المعرفة، فهو لا يستطيع أن يبقى في موقف الاقتناع بالعجز عن المعرفة، بل لا بد أن يكون عارفاً مهما كان عاجزاً عن

المعرفة. إن الإنسان مهما كان مستواه العلمي والعقلي لا بد أن يقف موقف المفسر من الكون، لأنه لا يستطيع أن يحايد بعقله من الأشياء. ومن الصعب عليه إذا كان لا يعرف الكون أن يقتنع بأنه لا يعرفه، ولهذا فإن الإنسان كان في عصور الجهالة أكثر اقتناعاً بمعرفته للكون من اقتناعه بمعرفته له في عصوره الحضارية، أي انه كلما كان أقل معرفة كان أكثر اقتناعاً بمعرفته.

كذلك كان مستحيلاً على ذلك الإنسان القديم أيضاً أن يفهم أن الإنسان هو الإنسان فقط ـ هو ذكاؤه وأفكاره وشعره وموسيقاه وأحلامه واحتلامه وكل ظواهره العصبية والمرضية، وهو كذلك حياته وموته وذكرياته العجيبة، بل لا بد أن يكون الإنسان غير الإنسان، أكثر وأقوى وأذكى منه.

إذن فالإنسان كائن ضعيف صغير ولكنه معرض لأشياء قوية كبيرة، إنه كائن تعرض فيه نفسها الأرواح والأبالسة والقوى الغيبية الرهيبة، وتعمل هذه القوى والأرواح والأبالسة من خلاله أو بواسطته، تفعل من خلاله أو بواسطة بدنه وذاته كل قدراتها وعبقرياتها وألاعيبها السحرية الباهرة ـ حتى الإله نفسه موجود داخل الإنسان، يعبر عن مشيئته وقدرته وحكمته بواسطته. نعم، الإنسان جهاز اختاره الإله ليعبر به عن ذاته، وليفعل من خلال ذاته إرادته ومنطقه وعبقريته، ليؤدي ـ أي الإله ـ نفسه من خلال شهوات الإنسان ومن خلال ضعفه ونقائصه.

ما أحوج البشر إلى مزيد من البلادة والتواضع الذهني لكي يستطيعوا الاقتناع بعقائدهم والرضا عنها. ولكن ما هي مقاييس الذكاء والبلادة؟ أليس الإنسان هو وحده هذه المقاييس؟ إذن ما هو الذكاء والغباء، أي ما هو الإنسان، أي ما هو نموذج الإنسان؟ وهل الذكاء هو فهم الشيء كما هو، أم فهمه كما ينبغي أن يكون، وكما نريد أن نكون ونستطيع أن نفعل؟

لقد احتاج الإنسان إلى تطور كبير في تاريخ طويل لكي يصل إلى مرحلة الإيمان بالحركة الآلية في الكون، أي إلى الإيمان بالفعل أو الخلق الكوني أو الإنساني بلا آلهة وأرواح وأبالسة وقوى سحرية. لقد كان كل عمل أو خلق في العالم تدبيراً روحياً أجنبياً، ولا يمكن أن يكون آلياً.

إن الإيمان بالآلية الخالقة أو المتحركة كان طوراً متأخراً في حياة الإنسان، أي كان طوراً متحضراً جداً في الوجود الإنساني. وفي أرقى المجتمعات لا يزال الإيمان بالآلية الكونية إيماناً غير شعبي، بل لا يستطيع أن يفهم هذا الإيمان أو يقتنع به كثير من العلماء والمفكرين الكبار في أمثال هذه المجتمعات، لهذا لا يستطيعون أن يفهموا أو يقتنعوا بأن الإنسان والكون يعملان بلا أرواح، أي يعملان بآلية تحركهما وتنظم حركتهما.

ومنذ زمن قريب جداً كان في بعض بلادنا العربية قوم يرون مثلاً أن الساعة والسيارة وجهاز

الراديو وأمثال ذلك إنما تعمل وتتحرك بواسطة الأرواح الخبيثة أو الأرواح الطيبة. وحينما انتشر استعمال الساعة الحاسبة للوقت في مجتمع هؤلاء القوم احتدم نزاع كبير في جواز استعمالها وتحريمه، إن استعمالها في رأيهم إنما يعني التعامل مع الأرواح الشيطانية الموجودة في داخلها. فتدخلت الدولة وكانت ترى أو تريد أن تكون الساعة حلالاً وأن تكون الفتوى الدينية محللة لها.

وكان لا بد من هذه الفتوى الدينية لكي يؤمن ذلك المجتمع أن من وضع في يده أو جيبه ساعة فليس متعاملاً مع الشيطان، ولا حاسباً أوقاته ومواعيد عباداته بشهادة شيطان رجيم. فنهض شيخ كبير جداً من أئمة الدين مستجيباً لرغبة الدولة في الأكثر، لا لاقتناعه الديني، ليفصل في هذه القضية الدينية العلمية، وكتب كتاباً سماه هذا الاسم الذي لا بد أن يصدم كبرياء القارىء العربية والإسلامية، سماه «القول الفاصل في الساعة أسحر هي أم صناعة».

وإني لأشعر هنا أن من الواجب علي الاعتذار إلى القراء، طالباً غفران عقولهم وأخلاقهم. ولكن القراء مع هذا سينالون شيئاً من النشوة والابتهاج إذ سيغمرهم الرضا عن أنفسهم حينما يجدون أنهم قد تفوقوا كثيراً على ذلك المجتمع الذي كانت قفزته الكبرى التقدمية أن يجد فتوى من السماء أو من سكان القبور تبيح له حمل الساعة وتدلل في أقوى الرأيين على أنها صناعة وليست سحراً، وأن حاملها ليس متعاوناً مع الشيطان ولا عارفاً أوقات صلواته بشهادة الأرواح الشريرة.

غير أن هؤلاء الذين لا بد أن يشعروا بتفوقهم لأنهم لم يختلفوا في جواز استعمال الساعة هذا الاختلاف عليهم أن يدركوا أن الفضل في هذا التفوق والتجاوز راجع إلى الغزو الحضاري والفكري الأجنبي الذي أصابهم أكثر مما أصاب أولئك الذين اختلفوا في الساعة أو قبل أن يصيبهم، كما أن عليهم أن يدركوا أيضاً أن الذين يرون في داخل جسم الإنسان إلهاً أو روحاً تحركه وتهبه الحياة والقدرة والبقاء هم قوم يعتقدون بأن الساعة سحر وليست صناعة أو آلة.

وأكثر المجتمعات تطوراً وحضارة يرى أكثر من فيها أن جسم الإنسان ساعة تتحرك بالسحر، وليس آلة تتحرك ذاتياً. ولا فرق بين من يقول إن جسم الإنسان يعمل ويحيا ويتحرك بالأرواح والآلهة وبين من يقول إن الساعة سحر وليست صناعة أو آلة.

وقد طبع الكتاب المذكور في مطبعة محترمة من مطابع القاهرة. وصاحب هذه المطبعة ليس تاجراً بل صاحب مذهب، وهو أستاذ كبير شهير من أعلام الدين والإصلاح، بل انه من الزنادقة الكبار في حكم المؤمنين عليه لشدة تحرره ولتجديده العظيم في الدين والتفكير.

والبشر يوم عبدوا الطبيعة والحيوانات وكل ما يتحرك أو يخيف ـ لأنهم فهموا في كل هذه الكائنات إرادة وقصداً وتفكيراً ـ إنما فعلوا ذلك لجهلهم بالأسباب وترابطها وتعاقبها وبخصائص

المادة وما فيها من قوى واحتمالات غير متحددة، فيها كل الطاقة والحركة والنبوغ والجمال، وفيها كل الآلهة والذكاء والأحلام والاحتلام والأخلاق، بل فيها الإنسان بكل تعبيراته ومستوياته ـ فالإنسان هو المادة في حالة من حالاتها، كما أن الذكاء والجمال هما المادة في حالة من حالاتها، كما أن الحرارة والضوء والزلزال والبركان والحركة والصوت هو أيضاً المادة في حالة من حالاتها.

إن المتأخر حينما يرى الغمامة تتجمع في الأفق الصحو ثم تهطل غيثاً على الأرض الموات، كأنما تتكون وتتحرك بتدبير أفضل وأذكى قوة عاقلة تستطيع كل شيء ولا تجهل شيئاً، دون أن يدري من أين جاءت، كأنما بعثت بها أعظم قوى الرحمة، وحينما يرى النجم يظهر ثم يغيب ثم يظهر في حركة منظمة دائبة، كأنها موظف مثالي يؤدي عمله في نظام ودقة لا مثيل لهما في الضبط والتوقيت، وحينما يرى النهر يقدم من المكان البعيد ليكون حياة ورياً كأنه إله ذكي رحيم أو كأنه رسول قد بعث به أذكى الآلهة وأعظمها رحمة ومحبة وكرماً ـ نعم، حينما يرى كل ذلك وهو يراه دائماً فلن يستطيع أن يدرك القوانين المحتومة العابثة التي تجري هذه العمليات بلا ذكاء أو قصد داخل هذه الكائنات السخيفة الكبيرة، فلا بد أن يصيبه الذهول وأن يرتفع بهذه العمليات إلى ذكاء الآلهة وأيديها المطلقة القدرة والبراعة والرحمة، تؤدي براعاتها العظيمة متوارية وراء الغيوم والظلام والشموس، ووراء الآلام واللذات والحب والكره والموت والحياة وكل شيء.

وهنا لا بد أن تجد الأوهام كل الفرص وأضخم الفرص، لكي تتصور أغرب الآلهة والأرواح والأبالسة، وأن تتحدث عنها بكل ذكاء وكل غباء، وأن تكسوها بكل الأزياء والصفات والتشويهات والبشاعات وكل الجمال والروعة وفنون السحر، وأن ترى في كل حركة وضوء وتعاقب وتناسل وتغير، وفي كل شيء، إلهاً أو قلب إله أو عقل إله أو غضبه أو احتجاجه أو حبه أو بغضه أو حزنه أو بكاءه أو حيرته أو قسوته.

وفي هذا الطور يحكم الإنسان تضخم اعتقادي ثقيل مذل، حتى ليصبح لا يرى شيئاً غير الآلهة أو الإله الكبير الواحد الباهظ، يراه في كل شيء ولا يرى شيئاً سواه، وتصبح الألوهية حينئذٍ شبحاً رهيباً كبيراً يملأ جميع الآفاق والأفكار والخيالات، أعضاء هذه الألوهية وملامحها وشعرها وأغانيها وموسيقاها وأحزانها كل ما في هذا الكون من آلام ولذات وزلازل وبراكين ورعود وبروق وخسوف وخير وشر وقوة وضعف وصحة ومرض وموت وحياة وإنسان وحشرة.

وقد استطاع البشر في مراحل نموهم الحضاري والعقلي أن يضعفوا كثيراً من مجد الآلهة والأوهام التي كانت تسحق وجودهم وذكاءهم وأن يتسربوا تحت ضوء الشموع الصغيرة

والهمسات الخافتة، أو تحت إلحاح الظروف الأخرى المضادة إلى مناطق من غابات الحقيقة الموحشة المغرية. وقد شاهدوا الكثير من أربابهم وأوهامهم العدوانية تتساقط بلا رحمة أمام تطورهم، مع أن مستوى حاجة البشر إلى الأوهام لا يتفاوت، ولكنهم يسقطون آلهة وأوهاماً لينصبوا مكانها آلهة وأوهاماً أخرى. فالحاجة إلى الأوهام ثابتة لا تختلف، وإنما يختلف نوع وصفات هذه الآلهة والأوهام.

وهذه الحشود الكبيرة من الأوهام التي لا تزال تتحدث في المعابد ومن فوق المنابر بكبرياء وإعلان إنما هي بقايا من التاريخ الضخم الذي قد مات كسلوك وحياة وظل يعيش كمواعظ وإرهاب للفكر والذكاء. ونحن لا نستطيع أن نتخلى عنها ـ أي عن الأوهام ـ كتفكير ما لم تزاحمها أوهام أخرى أكثر منها حياة وسحراً.

إننا لا نزال نرى أكثر الناس يرون بعيونهم وعقولهم وعقائدهم الآلهة الطيبة الرحيمة وراء كل قسوة ووحشية كونية، ووراء كل تهديد توجهه الطبيعة إليهم، ولا نزال نرى أيضاً أكثر الناس يتحدثون بثقة عن التدبير والحكمة والرحمة تنزل مع الصاعقة والطوفان والزلزال والوباء والفيضان.

منذ سنوات قليلة حدث فيضان نهر في بعض البلاد، فأغرق نصف مدينة كانت تعيش بجوار ذلك النهر، ولم يستطع أن يغرق المدينة كلها، فكتبت بعض صحف تلك المدينة التي غرق نصفها قائلة: ما أعظم الرحمة والمحبة، فلولا رحمة الإله ومحبته وصداقته للبشر والمدن لأغرق المدينة كلها، لقد قتل بعض الأطفال والنساء والشيوخ النائمين، ولو كان قاسياً، أو لو لم يكن رحيماً وصديقاً لقتل الجميع. فعلق بعض الساخرين قائلاً:

هذه الرحمة تساوي أن يعمد جبار قوي إلى طفل يتيم، فيفقأ إحدى عينيه ويقطع إحدى رجليه وإحدى يديه وإحدى أذنيه فيقال: ما أعظم الرحمة والمحبة، فلولا رحمة ومحبة هذا الجبار لقطع وفقأ اليدين والرجلين والأذنين والعينين معاً، أو لقتله مرة واحدة!

إن الطاغية والظالم والقاتل والسارق ليس هو الذي يظلم دائماً أو يظلم في كل سلوكه أو يقتل كل الناس أو يسرق كل الأموال، فلا يوجد من يفعل كل ذلك، وإنما هو من يفعل بعض هذا بعض الأوقات لا دائماً. فإذا سرق سارق بعض مال إنسان ما، أو بعض مال المجتمع، أو قتل طاغية بعض الناس وترك بعضهم أو أكثرهم، أو مارس ظالم بعض الظلم لا كل الظلم، لم يكن صواباً أن يقال: إن ذلك الإنسان عادل أو غير ظالم أو غير سارق أو غير قاتل. ولكنه إذا فعل بعض ذلك كان حقاً القول بأنه سارق أو قاتل أو ظالم أو طاغية.

إذن فالرحيم ليس هو الذي يفعل بعض القسوة بل هو الذي لا يفعل منها شيئاً، والقاسي هو

الذي يفعل بعض القسوة وليس هو الذي يفعلها كلها، كما أن السارق هو الذي يسرق بعض المال، وليس هو الذي يسرق كل المال، والقاتل هو الذي يقتل بعض الناس وليس هو الذي يقتل كل الناس.

فإغراق بعض المدينة وقتل بعض سكانها ليس رحمة، ولكن الرحمة ألا يغرق منها شيء أو يقتل من سكانها أحد. والرحمة ليست هي نجاة بعض المدن بلا غرق، بل هي نجاة كل المدن من الغرق، ونجاة جميع المدن من الإغراق ليس رحمة، ولكن الرحمة هي ألا يوجد، إغراق في أي مكان أو زمان، ولا ألم في أي زمان أو مكان. والذي يهبنا الصحة حيناً والمرض حيناً، والفقر حيناً والغنى حيناً، والحياة حيناً والموت حيناً ليس هو الطيب الكريم، وإنما الطيب الكريم هو الذي يهبنا دائماً ما نشتهي ونحتاج إذا كان قادراً أن يفعل ولا يؤذيه أو ينقصه أن يفعل. أما فعل النقيضين فهو أقصى أساليب العجز والغباء أو الظلم أو السخف أو المصادفات التي لا قصد فيها.

إن الصحيح البدن ليس هو الذي كبده أو رئته سليمة بينما قلبه أو ضغطه مريض، بل الصحيح البدن هو الذي ليس مصاباً بأي مرض في أي عضو من أعضائه. والخالق الرحيم ليس هو الذي يعذبنا يوماً ويسعدنا يوماً آخر، أو يشبعنا شهراً ويجيعنا شهراً آخر، بل هو الذي يشبعنا ويسعدنا كل الأوقات، كما أن الطاغية ليس هو الذي يقتلنا أو يسجننا كلنا، بل هو الذي يقتل أو يسجن بعضنا، وليس هو الذي يسجننا كل الوقت، بل هو الذي يسجننا بعض الوقت. إذن فهل هو إله رحيم من يصنع اللذة والألم والصحة والمرض والشيء ونقيضه؟

*

إن المنطق الذي يرى في حياة النبات والحيوان أو في المادة حينما تتحول إلى ضوء أو حرارة أو حركة، أو يرى في أي تعبير من تعبيرات المادة ـ نعم إن المنطق الذي يرى في هذا أو في بعضه آلهة أو أرواحاً أو شيئاً غير مادي آلي هو نفس المنطق الذي يرى هذه الآلهة والأرواح في الساعة الضابطة للوقت.

إن البشر في جميع تاريخهم وظروفهم لم يروا أو يعاملوا أية آلهة أو أرواح أو أي شيء ليس مادياً أو آلياً ـ لقد كانت كل رؤيتهم وكل معاشرتهم للمادة وحدها، لم يعاشروا أو يروا غير المادة، كما كان كل حبهم وشوقهم واحتياجهم إلى المادة أيضاً وحدها، حتى حينما كانوا يعبرون تعبيرات غير مادية أو ضد المادة وحينما كانوا يبحثون عن أشياء غير مادية ـ حتى حينما كانوا يصنعون ذلك لم يكونوا يعنون أو يحسون إلا المادة فقط.

إن المادة هي شعر البشر وموسيقاهم وصلواتهم وأمانيهم المتخاطبة مع السماء، المغازلة للفراغ. وكل ما في تصورات الناس ولغاتهم وعباداتهم من آلهة وأرواح وأبالسة رهيبة أو عبقرية

لم يكن إلا تفسيراً خاطئاً للمادة ولمظاهرها الكثيرة المختلفة، أو تعبيراً من تعبيرات الاحتجاج عليها أو الشوق إليها أو الامتداح والمغازلة لها ـ إن الذي يلعن المادة ليس إلا إنساناً يغازلها بتوتر وحماس وغضب، كالذي يلعن نفسه لأنها لم تكن كما يتمناها.

لقد بالغ البشر جداً في تعظيم المادة والعشق لها حتى تحول هذا التعظيم والعشق إلى الادعاء أو الاقتناع بأن فيها شيئاً خارقاً فوق الرؤية والمنطق والاحتمال ـ لقد اقتنعوا بأن فيها إلهاً تخيلوا له أعظم وأقوى الصفات. إن الشاعر إذا جن بحب امرأة وحيل بينه وبينها زعمها شيئاً أكثر من المرأة وزعم أن فيها شيئاً ليس مادة وأسمى من المادة، وهكذا فعل الإنسان ازاء المادة حينما زعمها فوق المادة، وحينما تخيل أو رأى فيها أفضل وأعجب الآلهة والأرواح والأبالسة ـ إن جميع الآلهة والأرواح والأبالسة هي جميع الظواهر الكونية محولة إلى لغات إنسانية، إلى لغات فيها شعر وأخطاء تفسيرية ونفسية. ليس الإله في كل عقائد المؤمنين به سوى ظاهرة طبيعية عجز الإنسان عن تفسيرها وعن الانتصار عليها والتكافؤ معها.

إن مقداراً من الفحم أو النفط يحوي مقداراً من الطاقة التي يمكن أن تتحول إلى حرارة أو ضوء أو حركة، وهذا المقدار من الطاقة لا توجد قوة تجعله أكثر أو أقل، أو تبيده، ولكنه فقط يتحول. وهذان القدران من مادة الفحم والنفط بما فيهما من احتمالات متحولة يحملان آلهة وجودهما بقدر ما يحملان آلهة بقائهما، وآلهة بقائهما هي من صميم ذاتيهما، فكذلك آلهة وجودهما.

إن الطاقة الموجودة في المادة لو كانت من الإله ـ الإله بالمعنى الديني ـ لكان مستحيلاً نفادها أو تغيرها. وإذا كنا نفهم أن هذا المقدار من الطاقة أو المادة يبقى ولا يتلاشى ـ أي إذا كان محكوماً عليه بالبقاء دون أن يستشار أو يعلم أو يرضى ـ فإن من المحتوم حينئذٍ أن نفهم بنفس الاقتناع كون بقائه من ذاته، وإذا فهمنا أن بقاءه من ذاته لم يكن بد من أن نفهم ونقتنع أنه لا فرق بين بقائه اليوم وبين بقائه منذ بلايين الدهور.

وإذا فهمنا كل هذا فهمنا أن بقاءه في لحظة أو في أية لحظة من الزمان لا فرق بينه وبين بقائه في كل لحظة نفرضها من لحظات الزمان أو في جميع لحظات الزمان.

ومعنى هذا أن وجوده لا بد أن يكون كذلك في كل حلقات الزمان. ولو كان في وقت ما غير قابل للوجود لكان كل الأوقات غير قابل للوجود. إن وجوده من صميم ذاته، إذن لا يحتمل افتراض عدمه، كما أن مقدار المادة لا يمكن افتراضه بدون طاقته وبدون أبعاده وأعماقه، والطاقة كذلك لا يمكن افتراضها بدون افتراض مادة ما. وكل ما يحدث أن المادة والطاقة تتحولان وتتعاقبان، وعملية تحولهما هي التي تصنع الأعمال والأحداث، حتى الأخلاق

والأفكار وكل أعمال العبقرية ليست إلا عملية تحول في المادة والطاقة. وجميع ما يقع أمامنا لا يعدو أن يكون عملية تحول، تحول يصنع نشاطاً أي يصنع عملاً.

وقد يكون ذلك بفعلنا وذلك حين نسخر المادة لتضيء بيتاً أو تهبه الدفء أو تسير كتلة من الحديد والخشب أو تدير آلة، كما قد يكون ذلك ذاتياً، فالشمس والبحر والهواء والجاذبية والحرارة والبرودة ـ هذه العوامل تخلق السحاب وتنزله مطراً وتجعل منه أنهاراً، وهذه الأنهار تؤدي أعمالها العظيمة مع عوامل أخرى. وهذه العمليات التي تصنع سحاباً ثم أنهاراً هي مثل سائر العمليات التي تشكل صور هذا الكون وحركاته التي تروعنا، فنراها شيئاً فوق الكون، فنضع في داخلها آلهة وأسراراً. وكنا في ذلك نصوغ منطقنا وإن كنا لا ندبر هذه الصياغة أو نفطن لها هكذا: «نحن لا نستطيع أن نفهم هذا، إذن لا بد أن يكون من عمل الآلهة والأرواح» ـ إذن الآلهة والأرواح تساوي جهلنا بالشيء.

لقد علمنا القوانين التي تخلق الغمام والأنهار وتصوغ عملياتها وتحركاتها. وعلى هذا المستوى لا بد أن نعلم القوانين التي تخلق الحياة وتطورها وتعطيها صيغها المختلفة التي تبهرنا لأننا نجهلها، وكذلك القوانين التي تبدع جميع صور النشاط الكوني. والذين يعجزون عن فهم هذا وعن الاقتناع به إنما يعجزون لأنهم قاصرون عن فهم الأسباب المعقدة أو التي تبدو معقدة لأننا لا نعرفها. وكل من لا يفهم شيئاً معيناً يبدو له ذلك الشيء معقداً وباهراً، وقد يبدو له إلهاً عظيماً أو يبدو له صورة إله أو معرض إله أو ملعب إله.

إنهم يرون أشياء أمامهم تحدث وتفعل وتتغير دون أن يروا أو يعلموا أسبابها، فكأنهم يرون معجزات لا يمكن أن تفهم بالعقول ولا بالقوانين المألوفة المتكررة، إنهم حينئذٍ كمن يرون بناء قائماً في الفضاء بلا قاعدة تحمله، لأنهم لا يبصرون ولا يعلمون امتداد الأسباب وتشابكها، ولا يعلمون أن كل شيء لا بد أن يكون سبباً لشيء ومسبباً عن شيء، وأن أية قوة لا تستطيع أن تمنع الشيء من أن يكون سبباً ومسبباً. وحينئذٍ يقف هؤلاء مبهورين يشاهدون المنظر الأخير وكأنهم يشاهدون شيئاً خارقاً لا أسباب له يمكن فهمها. إنهم لا يستطيعون أن يشاهدوا تسلسل الأسباب، فيضعون بدل أو مكان هذا التسلسل كوناً روحياً عجيباً هو أبعد من كل الأشياء والافتراضات عن أن يكون مفهوماً أو مقبولاً.

إنهم يواجهون كوناً يعجزون عن فهمه، وقد يفهمونه أو يفهمون بعضه أو يكون ممكناً أن يفهموه، وحينئذٍ يذهبون يفسرونه بتوهم كون لا يمكن أن يفهموه أو يروه أو يفهموا أو يروا منه شيئاً. وهذا الأسلوب في تفسير الكون يشبه الاستعانة على رؤية وفهم شيء نراه ونفهم بعضه، أو يمكن أن نفهمه أو نفهم بعضه بشيء لا يمكن أن نفهم أو نرى منه شيئاً. إذن فالذين يعجزون عن فهم الكون فيحاولون أن يفهموه بواسطة الأرواح والآلهة هم قوم يحاولون أن يفسروا شيئاً

يمكن فهمه وشيئاً يشاهدونه بشيء لا تمكن مشاهدته ولا فهمه، أي أنهم يفسرون المعقول المرئي بغير المعقول أو المرئي.

إن الرجل الذي لم يشاهد من أدوات الحضارة شيئاً إذا رأى صندوق الفونغراف أو جهاز الراديو وسمع الأصوات المنطلقة فلا بد أن يفترض داخل الصندوق روحاً أو إنساناً أو شيئاً من السحر، ولا بد أن يمتلىء رهبة وأوهاماً في روعة وصلابة وعبوس الأوهام الدينية.

وقد كان البشر جميعاً يقفون في ذهول وإيمان سحري أمام صندوق الكون، يسمعون ويرون الأصوات والحركات والصور تنطلق منه بتدافع وديمومة، فتزخر مخاوفهم وتطلعاتهم وتفاسيرهم بالأرواح والآلهة والعقائد التي قيل إنها تعطي أحياناً أماناً وعزاء وراحة. وقد يكون الصحيح أنها تعطي خوفاً وجنوناً وتمزقاً وضياعاً أكثر من أن تعطي شيئاً نافعاً أو مريحاً ـ هذا على افتراض أن العقائد الدينية أو غير الدينية تعطي أو تأخذ. ولعل الصحيح أن العقائد هي دائماً تعبير عن حالة وليست صانعة الحالة.

هل الإنسان فيما يفعل ويعتقد يبحث عن الراحة أم عن التمزق والقلق والفناء؟ وإذا كان يبحث عن الراحة فهل يوجد جهاز يعصمه من أن يقع في التعب يبحثه عن الراحة؟ من المحتمل جداً أن الإنسان حينما سار في رحلته الطويلة يبحث عن الآلهة والعقائد العابسة الصارمة إنما كان يبحث عن القلق والتمزق والتوتر، فقد تكون الحياة بلا تمزق وتوتر وقلق شيئاً لا يطاق ولا يصنع البهجة أو السعادة.

إن الطفل في بعض مراحل تطلعه وتلفته وتساؤلاته الحادة الدائمة قد يرى النجوم مصلوبة في مداراتها كأنبياء غدر بهم جمود قومهم، وحينئذٍ قد يظنها مصابيح رشقها إنسان وأمسك بها أو ألصقها بشيء لتضيء لسكان الأكواخ المحرومة من المدنية وللسائرين المدلجين في الصحراء التي لم تتحضر ـ كما يفعل أبواه حينما يعلقان السراج في المنزل. وقد يظنها ـ أي النجوم ـ في طور آخر من حياته وتصوره كائنات حية مثله تمسك نفسها حين تمشي أو تقف كما يصنع هو، كما قد يظنها جمادات في أكف آلهة قد وظفت نفسها بتواضع في خدمة الإنسان. فإذا ارتفع عن دور الطفولة عرف أن الكون هو الذي يفسر الآلهة والأرواح، وليست الآلهة ولا الأرواح هي التي تفسر الكون. إن الطفولة الإنسانية تفسر المادة بالروح، أما الرجولة العقلية فإنها تفسر الروح بالمادة.

*

ماذا نجد؟

كون مادي ـ أو هكذا يبدو لنا ونستطيع أن نفهمه ـ يتحرك بالضرورة فتحدث عنه وفيه الصور والأفعال غير المحدودة، المعقولة المريحة لنا أحياناً، وغير المعقولة أو المريحة لنا أحياناً أكثر،

فنقول إنه ـ أي الكون ـ غير محدثها لأنه لا يستطيع أن يفعل، ولأن ما يحدث فيه يدل على الفكر، والكون المادي ليس مفكراً.

وهذا التصور أو التفسير للكون نتعاقب عليه بالتلقين والتقليد. إنه لا شيء يجعلنا نفهم أن الكون يجب أن يفسر بغير الكون وأن يبحث عنه بعيداً عنه سوى التقليد والتلقين.

والعقائد والأفكار تصاغ بالتلقين أكثر مما يصاغ أي شيء آخر، أي أكثر مما يصاغ السلوك أو الزي أو شكل البناء أو أي أسلوب من أساليب الحياة، ثم ترفض هذه العقائد والأفكار أسباب التغيير والتحرر أكثر مما يرفض أي شيء آخر. والذين يلقنون تفكيراً أو عقيدة معينة فيؤمنون بها إلى أن يموتوا دفاعاً عنها، رافضين أي تغيير فيها ـ هؤلاء لو أنهم لقنوا نقيض هذا التفكير وهذه العقيدة لآمنوا واستمسكوا به بنفس الحماس والاقتناع والتعصب، ولكان من المحتمل أن يحملوا السلاح ليقاتلوا من يدعونه إلى تغييره، وليقاتلوا الآخرين المؤمنين بالنقيض الذي يؤمنون هم به على الافتراض الآخر، أو إذا كان من المحتوم أن يؤمنوا به لو أنهم لقنوه ولم يلقنوا نقيضه.

إن الفرق بين المجتمعات في آلهتها ومذاهبها ونظمها إنما يعني الفرق بينها في عمليات التلقين وظروفه. ولكن التلقين قد يكون بالإرهاب والفرض المسلح. إن أجمل الآلهة التي نفقد وقارنا تفاخراً بها، والتي نتصور كل أهوال العذاب والجنون ولا نتصور الكفر أو الشك فيها لم تكن إلا إحدى عطايا التلقين الذي قد يكون بالإكراه. ولو أننا لقنا الكفر بهذه الآلهة بدل أن نلقن الإيمان بها لكان حماسنا للكفر بها مساوياً لحماسنا للإيمان بها.

فالذين يقاتلون دفاعاً عن آلهة أو مذاهب أو نظم لا يدافعون في الحقيقة إلا عن عمليات التلقين والإلزام التي فرضت عليهم هذه الآلهة والمذاهب، أي أنهم يدافعون عن الطغيان الذي أخافهم وغلبهم وألزمهم بشيء ما تحت ظروف الهزيمة أو الخديعة. إن إله ومذهب أي فرد أو مجتمع لا يساويان إلا قوة التلقين والإكراه التي فرضت عليه فاستسلم لها أو وجدها في طريقه فعاشها بلا فهم أو ذكاء أو خيار.

ولكن ظروف التلقين والإكراه كيف توجد وتختلف، ولماذا؟ وكيف يجيء الملقنون الملزمون، ولماذا يختلفون؟ وهل هبات التلقين ونتائجه متساوية في قيمتها؟ وهل يعني هذا أنه لا فرق بين أي إله وإله ومذهب ومذهب ونظام ونظام في القيمة والمستوى لأنهما معاً إنما اكتسبا وعرفت صحتهما بالاملاء أو الدعاية؟

والجواب أن هذه قضية أخرى، وهي غير القضية القائمة على أن جميع اقتناعاتنا المذهبية والدينية والاجتماعية لم يشيدها سوى التعليم المفروض بالتكرار والإغواء أو المحمول على شفرة السيف أو بسبب التفرد في السوق بدون منافس، فالناس يؤمنون بالأرباب والمذاهب التي لا

يوجد غيرها في السوق، كما يأكلون حتماً الطعام الذي لا يوجد سواه في مخازن الأطعمة.

أما المتمردون الذين هم الأقلون دائماً فهؤلاء هم الذين يتحدون قانون التلقين والأرباب والأفكار والنظم التي صاغها وفرضها التاريخ الذي صاغه وفرضه التعليم والتكرار والرؤية والممارسة الطويلة.

«الكون المادي لا يفعل» ـ هذه القضية تصاغ هكذا:

«لقد وجدنا الكون يفعل ويفعل دائماً، ولم نجد شيئاً غيره يفعل، فالكون إذن لا يفعل مع أننا وجدناه دائماً، والذي يفعل إذن شيء سواه».

لقد استدل على وجود الشيء وكماله بفقده أو بالعجز عن وجوده ورؤيته، كما استدل على فقد الشيء ونقصه بوجوده وقوته وبمشاهدته والسعي وراءه. هذا ما يعنيه إيمان الناس بالآلهة والأرواح لأنهم لم يجدوها، وكفرهم بالكون لأنهم وجدوه.

والحجة في تجريد الكون من سلطانه وطاقاته الفاعلة إما أن تكون حجة رؤية ومعاملة ووجدان، أو حجة منطق وتأمل وتجريد. فإن كانت الأولى فالرؤية والوجدان والمعاملة لم تكن إلا مع المادة، أي مع ما اعتدنا أن نسميه مادة، وإن كانت الأخرى فالمنطق إن كان حصيلة لمجربات واقعة فالتجربة كلها دلت على أن المادة هي وحدها الفاعلة والموجودة والمعشوقة، وإن كان محصولاً لغير الواقع فما قيمته ـ إن كان منطقنا مأخوذاً من المادة فهو لا يعرف إذن غير المادة وأخلاقها، وإن كان مأخوذاً عن غير المادة فنحن لم نشاهد أو نعشق أو نجرب أو نعامل هذا الغير، فكيف نفهم شيئاً ونحوله إلى قانون عقلي لنا دون أن نجده بأي أسلوب من أساليب الوجود؟

لقد سبق القول بأن العقل ليس إلا قانوناً قد تجمع من مشاهدات ماضية، وليس حقيقة مستقلة أزلية تصنعها السماء أو تصنعها إرادة الإنسان وأخلاقه الطيبة. إن العقل طبيعة، ولكن الطبيعة ليست عقلاً، فهو هبة المادة والكون، لا واهبهما، وهو يصنع الواقع بعد أن يصنعه الواقع، أي يصنعه بالقوانين والتجارب والقوة التي اكتسبها من الواقع. لقد كانت الأشياء قبل العقل ثم كان العقل، ولولاها لما كان، كما أنه لولا مواد البناء لما قام البيت. إن الإنسان لا يعقل ثم يشاهد ويجرب ويعلم، بل يشاهد ويجرب ويعلم ثم يعقل.

وهذه حقائق أولية بسيطة جداً وليست فلسفة أو أفكاراً عليا أو صعبة. لقد جاء الإنسان إلى هذا الوجود كما يجيء الأطفال بلا منطق لأنه قد جاء بلا تجربة، ثم راح يتعلم ويجمع عقله ومنطقه من مشاهداته وتجاربه وتصادمه وآلامه ومن حركة الطبيعة المنافية لعقله مع أنها هي التي تعلمه عقله، إلى أن صار إنساناً له عقل ومنطق مكتوب يستطاع تعلمه والتعليم به ويمكن أن يكون معلماً للطبيعة التي تعلم منها. ولو كان من الممكن أن تتعلم الطبيعة من الإنسان

بالأسلوب الذي تعلم به الإنسان منها لكان ذلك شيئاً ضخماً وعظيماً جداً. إن الإنسان يتعلم ولكنه ضعيف، أما الطبيعة فهي قوية ولكنها لا تتعلم كما يتعلم البشر، فلو أمكن الجمع بين قدرة الإنسان على التعلم ورغبته فيه وحاجته إليه، وبين قدرة الطبيعة وإمكاناتها غير المحدودة لكانت النتائج فوق كل خيال.

لقد اتهمت الطبيعة قديماً وحديثاً بأنها عاقلة أو بأن عقلاً يخلقها ويدبرها. ليت هذه التهمة صحيحة، إذن لما وجدت الآلام والنقائص والتفاهات، أو لزالت حتماً.

لقد كانت الشرور موجودة لأن الإنسان بعقله وأخلاقه، أو بإرادته العقل والأخلاق يواجه الكون الكبير الذي لا عقل له ولا أخلاق والذي لا يريد أن يكون له عقل وأخلاق، وبهذا يحدث التناقض والتصادم والألم. فالمشكلة إذن قائمة على أن كائناً صغيراً له احتمالات عقل وأخلاق، أو مفروض عليه أن يكون له ذلك أو محتاج إليه، يعايش كائناً كبيراً جداً ليس له هذه الاحتمالات العقلية والأخلاقية.

إن الإنسان لا يصنع السوء والضعف والغباء لأنه رديء أو شرير، بل لأنه ضعيف، وحتى كونه رديئاً أو شريراً أو راغباً في أن يكون كذلك وفي أن يصنع الرديء والشر إنما يعني أنه ضعيف. وأشد حالات الضعف وتعبيراته أن يريد السوء والخطأ وظلم الآخرين، أو يريد أن يكون غبياً في تفكيره. ولو كان قادراً ـ لا أعني قدرة مطلقة ـ بل على ألا يكون متألماً أو محتاجاً أو شاعراً بالهزيمة والإذلال والعار والتفاهة لما فعل السوء أو أراده أو تعالج به. فالذين لا يتألمون لا يمكن أن يريدوا الألم للآخرين، فإرادتك السوء لأي إنسان تعني أنك متألم.

وضعف الإنسان يساوي تفوق الكون عليه، وتفوق الكون عليه يعني كون الإنسان يتعلم ويفكر ويصنع الأخلاق ويحتاج إلى ذلك، ثم كون الكون ليس كذلك. إذن ما أروع هذا الاتهام وأطيبه لو كان صحيحاً، أعني اتهام الكون بأنه عاقل أخلاقي أو أن عقلاً أخلاقياً يبدعه ويحركه، إذن لاستحال وجود الخطأ والألم. فالخطأ والألم هما التعبيران العنيفان عن وجود الإنسان الصغير العاقل الأخلاقي، أو المحتاج إلى العقل والأخلاق وسط هذا الكون الكبير الذي ليس له عقل ولا أخلاق ولا يحتاج إلى شيء من ذلك.

إنه لا شيء من منطق الإنسان أو أخلاقه أو آلامه وتفاهاته إلا وهو انعكاس تعامله مع الكون المادي ورده على تحديه ومناقضته له وأخذه عنه ومحاولته التوافق معه والفهم له، فهو المعلم البليد الأبكم الذي تعلم منه كل شيء ولو بالمقاومة والمخالفة له، وهو أيضاً الخصم الذي تعلم منه الشجاعة والجبن والحذر، وهو القوة الغبية القاسية التي اضطرته إلى أن يبحث عن التفوق والعبقرية، وإلى أن يكون رديئاً وظالماً ومخطئاً.

إن الطبيعة تعلمنا الشيء ونقيضه، وليست كل مواقفنا المتناقضة إلا محاولة للتوافق معها. إن

الطبيعة لا تعلمنا التناقض ولكنها تضطرنا إليه، فالتناقض اضطرار وكذا التوافق أيضاً، وكذا جميع مواقفنا. وشيء واحد ودائم هو الذي يضطرنا إلى هذا أو هذا أو هذا، وهذا الشيء الواحد الدائم هو احتياجنا إلى أن نكون متوافقين مع هذا الصديق العدو الذي لا يقصد أن يكون صديقاً ولا عدواً ـ أي متوافقين مع الطبيعة.

*

إذن العقل هو ابتكار المادة وحدها، المادة التي ليست عاقلة، أي العقل هو خلق المادة وتفسيرها والخوف منها والبحث عنها. فكيف إذن يكون صواباً أن يزعم العقل بأن المادة لا تفعل مع أنه هو حصيلة فعلها، ومع أنه لا شيء سواها يفعل؟ كيف يعلم فيحكم أن غير المادة ـ أو غير ما ندعوه بالمادة يفعل وهو لم ير هذا الغير ولم ير فعلاً من أفعاله مع أنه هو ليس شيئاً سوى الرؤية المتكررة المحصية؟ بل كيف يتصور المادة غير فاعلة ويتصور قانونها ألا تفعل ولا يتصوره أن تفعل، وهو لم يرها إلا فاعلة ولم يتعامل معها كذلك إلا فاعلة؟ وهل المادة إلا نشاط دائم، وهل السكون الدائم إلا العدم الدائم؟ وهل يمكن تصور الوجود بدون تصور النشاط؟ وهل الوجود إلا نشاط أي إلا فعل؟

والفكرة الغريبة القائلة بأن الوجود المادي ليس فعلاً أو ليس فاعلاً بذاته هي فكرة قد فرضت على العقل الإنساني بشتى أساليب الفرض، بل هي فكرة لم تتعامل مع العقل ولم تفرض عليه وإنما فرضت على الإنسان وهو معزول عن العقل. والبشر في الغالب يتعاملون مع العقل أو باسم العقل في الوقت الذي يكونون فيه معزولين عن العقل أو هاربين منه.

وعمليات العزل عن العقل عمليات واسعة ومنظمة، تباشرها كل المجتمعات والمذاهب والنظم والأديان، بل إن العقل نفسه يتعاطى بإدمان هذه العمليات، عمليات العزل عن العقل، فالعقل في بعض الأحيان بل في كثير من الأحيان يدبر اخماد نفسه والفرار منها. إن أكثر عمليات التفكير ليست إلا مقاومة للتفكير. ومقاومة التفكير بالتفكير كانت في كل التاريخ وفي كل المجتمعات أكثر جداً من عمليات التفكير انتصاراً للتفكير أو بحثاً عن التفكير. إن أكثر المذاهب والأفكار والنظم ليست إلا أساليب مختلفة لمقاومة التفكير وسحقه والرد عليه.

وما هو الفرق بين التفكير ومقاومة التفكير بالتفكير؟ إن التفكير ومقاومة التفكير بالتفكير كلاهما تفكير، فما الفرق بين هذا وهذا؟ ما هو الفرق بين من يفكر لأنه مفكر ومن يفكر لأنه خصم للتفكير ولأنه يخاف منه ويقاومه؟ قد يكون الصواب أنه لا يوجد تفكير إلا وهو مقاومة للتفكير، وإنه لا توجد مقاومة للتفكير إلا وهي تفكير على نحو ما وبأسلوب من الأساليب.

إن النشاط الدائم في قانون المادة هو كالوجود الدائم: كلاهما من خصائص المادة غير

المنفكة. إن ما نعرفه بالمادة ليس إلا حركات مصورة ـ إنها طاقات متجمدة أو عمل متجمد أو حركة غير منظورة أو تبدو لنا بطيئة. وهذه الطاقات المتجمدة الدائمة الحركة هي التي تحدث بقوانينها وضروراتها ودأبها الدائم الأفعال والصور المختلفة فينا وفي كل الوجود.

وأكثر الناس لم يستطيعوا أن يتصوروا إلا قوة مطلقة أو عجزاً مطلقاً، وعجزوا عن تصور القوة العاجزة، أي القوة غير المطلقة، أي عجزوا عن أن يتصوروا شيئاً قادراً غير إله أو إلهاً عاجزاً. وإذا لم يكن الكون المادي قدرة مطلقة جعلوه عجزاً مطلقاً أي جعلوه غير شيء وجعلوا كل شيء فيه من خارجه، ولم يعرفوا الحدود الذاتية للقوى الفاعلة. والحياة ليس فيها إطلاق، لا في القدرة ولا في العجز ولا في أي شيء، فلا قادر بلا أي عجز ولا عاجز بلا أية قدرة. وإذا كان البحث عن الوجود المطلق وأنه لا بد من وجوده فإن هذا الكون ينفيه إذ ليس فيه وجود مطلق. فإذا كانت الآلهة والأرواح مطلقة لم يكن ممكناً افتراض هذا العالم من عملها أو إرادتها أو منطقها، لأنه أي العالم ليس مطلقاً في شيء، فإما أن يكون افتراضه من عملها خطأ أو أن تكون هي غير مطلقة أي غير كاملة.

أما ما قيل بأن في الكون تفكيراً فمن الواجب السؤال: ما هو التفكير. إن المراد بالتفكير هنا هو نظام الكون أو آليته، فيكون معنى: «في الكون تفكير» هو معنى: «في الكون نظامه أو آليته». وهل هذا النظام أو الآلية الكونية شيء عظيم ورائع إلى المدى الذي يجعله فوق أن تفعله المادة أو الكون، أو يجعله جديراً بأن يكون من عمل الآلهة وحدها؟ وإذا كان النظام أو الآلية الموجودة في الكون عظيمة جداً وكان الخيال لا يستطيع أن يتصور أعظم منها فلماذا لا تكون من عمل الكون؟ لقد وجدنا الكون يعمل شيئاً رائعاً فلماذا يجب أن نقول إن الكون لا يمكن أن يفعل شيئاً رائعاً ـ ألأننا وجدناه يفعل أشياء رائعة وجب أن نقول: إنه إذن لا يمكن أن يفعل أشياء رائعة؟

إن الحكم على الشيء بأنه خطأ أو صواب، طيب أو رديء، لا بد له من نموذج يقاس عليه هذا الحكم وهل يوجد شيء ـ أو هل وجدنا نحن البشر ـ شيئاً قبل الكون أو غير الكون لنقيس عليه الكون، لكي نعرف هل هو خطأ أو صواب، وهل فيه تفكير أو لا تفكير فيه؟ إننا نحن والكون فقط الموجودان، فإذا قلنا: الكون طيب ومفكر، ثم قلنا: إن كونه طيباً ومفكراً لا يمكن أن يكون من ذاته فما هو المقياس الذي حكمنا به على الكون فعرفنا أنه طيب ومفكر، وعرفنا به أيضاً أنه لا يمكن أن يكون طيباً ومفكراً من ذاته؟ إنه قول ضد المنطق. ولو أننا قلنا العكس، أي لو أننا قلنا: إن الكون شرير وغبي، أي ليس طيباً ولا مفكراً، وقلنا إن كونه شريراً وغبياً ذاتي فيه ولا يمكن أن يكون غير ذاتي لكان قولاً معقولاً على نحو ما، لأننا حينئذٍ نجعل أنفسنا هي

النموذج الذي نقيس عليه الأشياء.

والكون بمقياس أنفسنا وبالقياس عليها غبي وشرير جداً، إن أشدنا غباء وفسوقاً ليترفع عن الهبوط إلى مستوى الكون في ذكائه أو في أخلاقه ـ ويكون ذلك قولاً معقولاً لأننا لم نجد أو نعلم شيئاً حتى ولا أنفسنا إلا وسلوكه ومنطقه من ذاته، بل لم نجد أو نعلم شيئاً موجوداً سوى الكون ليكون من المحتمل أن تعزى صفات الكون إليه.

إن أي حكم نحكم به على الأشياء لا يمكن أن يكون له نموذج أو مثل غير أنفسنا، أما نموذج أنفسنا أو مثلها فهو إرادتنا أو حاجتنا أو تفكيرنا، أي أن أنفسنا هي نموذج أنفسنا كما أنها هي نموذج كل الأشياء. فإذا قلنا: هذا خير أو شر، ذكاء أو غباء، مفيد أو ضار، فالمقياس هو أنفسنا، وكذلك حكمنا على الآخرين بأنهم أخيار أو أشرار، مفسدون أو مصلحون، على حق أو على باطل، أذكياء أو أغبياء. فالنموذج الذي جعلناه مقياساً لهذه الأحكام هو أنفسنا، ولهذا يحكم الآخرون علينا نفس حكمنا عليهم ومقياسهم هو أنفسهم كما أن أنفسنا هي مقياسنا.

والمذهل أن أغلب البشر بل أغلب الأذكياء لا يعرفون هذه الحقيقة أو لا يفكرون فيها ـ إنهم يطلقون أحكامهم ويثقون بها وكأن لديهم مقاييس سماوية خالدة. إنهم لا يفطنون إلى أن أحكامهم ليست لها أية مقاييس غير أنفسهم، ثم لا يفطنون إلى أنهم بهذا يحابون أنفسهم محاباة ليس فيها ذكاء ولا وقار ولا أخلاقية. ولعل جميع البشر يظلون أطفالاً أو تبقى فيهم بقايا من الطفولة مهما كانوا شيوخاً وأذكياء وعظماء، ولعل العظمة لا تعاقب أو تحارب الطفولة وقد يوجد في العباقرة من مظاهر الطفولة ما لا يوجد مثله في الصغار جداً، إنه ليس للوقار أو الطفولة عمر زمني، وإن كل إنسان لا بد أن يكون صغيراً في شيء أو في أشياء دون أن يدري أو يستطيع أن يكف.

وإذا كان من المحتوم أنه لا يوجد أي نموذج للحكم على الكون غير أنفسنا فإن الكون في حكم مقاييسنا العقلية والأخلاقية رديء وغبي إلى أبعد مدى، بل إنه ليس له أخلاق ولا تفكير البتة على أي مستوى من المستويات المعروفة لنا أو المفروضة أو المطلوبة. فإذا نسبنا حينئذٍ الكون أو سلوكه إلى كائنات أخرى علوية ـ إلى آلهة أو أرواح تسكن السماء فنحن بهذا نهبط جداً في تقديرنا بهذه الكائنات ونبالغ جداً في شتمها، ولسنا نمدحها أو نحترمها أقل احترام أو مديح.

وعلى أي تقدير بهرنا منطق الكون وسلوكه حتى ذهبنا نرتفع به إلى عبقرية الآلهة ـ الآلهة التي افترضناها تعني أعلى مستويات الكمال واحتمالاته! إن معنى هذا أننا مؤمنون بأن الكون كامل كمالاً مطلقاً. وهذا يعني أن نرضى عن كل شيء في الكون وألا ننكر منه شيئاً، بل

ونؤمن به مثل إيماننا بالإله، فلا نغضب على شيء فيه أو نكرهه أو نلعنه أو نحاول تغييره أو فراقه، لأنه هو الإله أو التعبير عنه، ولأنه هو فنه وإرادته. إن بغض أي شيء حينئذٍ في الكون أو تحقيره أو تغييره يعني أن الكون ليس كاملاً، بل ليس طيباً ولا أخلاقياً أو منطقياً، وحينئذٍ تصبح نسبته إلى الإله الكامل خطأً عقلياً وأخلاقياً يوجه إلى الإله. إن كل من يغضب من الكون أو عليه أو ينكر وينقد فيه شيئاً ليسب الله حينما يؤمن بأنه خالقه ومنظمه.

إنه لا يوجد في العقل الإنساني خطأ أو تناقض أبشع من الإعجاب المنطقي بالكون حتى ليحوله هذا الإعجاب إلى عبقرية إله وفضيلة إله، ثم يظل الإنسان مع هذا الإعجاب المنطقي يحارب الكون ويهرب منه ويرفضه ويحطمه. لقد كان المفروض أن نرضى عن كل شيء في الكون وألا نقاتل أو نرفض أي شيء فيه أو نسعى لتغييره، أو أن نراه رديئاً وفاسداً ضعيفاً حتى ليكون من التحقير للإله نسبته أو نسبة شيء منه إليه. أما أن نرى الكون منطق إله وأخلاق إله وقدرة إله ثم نقاومه أي نقاوم الكون أو نبغضه فهذا أعجب وأضعف تناقض. فالذي يقاوم شيئاً في الكون أو يرفضه فهو إنما يقاوم الله ويرفض الله إن كان هو خالقه ومهندسه في اعتقاد وإيمان ذلك المقاوم الرافض الذي لم يسأل كيف يستطيع أن يجمع بين الإيمان بالشيء ورفضه.

لقد كانت ورطة عقلية، تلك هي القول بأن الكون من صنع إله طيب ذكي قادر مع مقاومة هذا الكون والغضب من الأشياء التي تقع فيه. نعم لقد كانت تلك ورطة عقلية لم يفطن إليها الإنسان إلا قليلاً. إنك إذا بكيت أو حزنت من أي شيء يصنعه الكون أو قوى الطبيعة فإنك لست مؤمناً بالإله أو لست ممجداً له. فالباكي هو في الحقيقة شاتم للإله.

*

ليس العقل إلا جزءاً مترقياً من المادة، محكوماً بقوانينها العامة. فإذا وجد في الكون فكرة فمعنى هذا أنه قد وجد فيه نفسه. إن البشر كما سبق لم يروا قط فاعلاً غير المادة، ولم يروا كذلك مادة غير فاعلة، ولا يمكن تصور مادة بدون تصور فعل، ولا تصور فعل من غير تصور مادة. وقد رأوا في جميع عصورهم كل الأحداث، ورأوا كل الأحداث تطلقها المادة وحدها. وما أفكارنا وعواطفنا وعلومنا وأخلاقنا وفضائلنا الروحية سوى مادة في صورة من الصور - ليست أجسامنا وضروراتنا إلا طعاماً وشراباً وهواءً وتركيبات ونسباً ومقاييس مادية جاءت على أسلوب معين، وليست علومنا وأخلاقنا وأفكارنا وظواهرنا الروحية سوى أجسامنا متحولة إلى تعبيرات معينة وإلى طاقات وضرورات. والطاقات والضرورات والعواطف هي التي تبدع جميع تعبيراتنا المختلفة.

إن الصلاة لله وانحدار الدموع في خلوة من خشية الله أو محبته أو الشوق إليه ليسا إلا تعبيرين ماديين منطلقين عن حوافز مادية، منتهين إلى أهداف مادية، متحركين بقوة مادية،

بمقدار ما شهوة الطعام والجنس والنوم والكسل ليست إلا مادية في حوافزها وأهدافها وقواها المحركة، بمقدار ما الاستمتاع بالاستماع إلى الموسيقى والشعر والبذاءة والسباب ليس إلا تعبيراً عن حالات مادية وإشباعاً لحالات مادية أيضاً.

ولعل هذه الحقيقة تؤذي ورع أولئك الذين يلعنون المادة بمواعظهم وتعاليمهم ويصلون لها كرهبان بكل شهواتهم وسلوكهم وأمانيهم ـ أولئك الذين يتدارسون ـ بروح تقليدية صارمة ـ كراهة المادة، ويتقاتلون بوحشية لاحتكار الاستمتاع بها، بل ويبيعون أو يرهنون كل ما يملكون من آلهة ومذاهب وتعاليم وأرواح ليشتروا بها قطعة من الأرض المادية لا تزيد في مساحتها عن مساحة أقدامهم، أي يشترون بها بقاءهم في هذه الأرض حتى ولو كانوا لا يملكون سوى مواقع أقدامهم. إن كل هؤلاء الوعاظ والدعاة الكبار ليقبلون بقاءهم في هذه الحياة على مساحة أقدامهم فقط ثمناً لكل ما يدعون إليه ويعلمونه من أرباب وروحانية وقديسين. إن هؤلاء المعلمين ليقبلون بل ليسعون إلى أن تكون رسالتهم ذم المادة ولعنها ويكونوا موظفين في ذمها ومؤجرين على ذمها لكي ينالوا أجراً مادياً ـ إنهم يذمون المادة كموظفين وأنبياء ليأخذوا ثمن ذلك شيئاً من المادة.

إن أعجب الناس هم قوم يعلمون الناس الصعود إلى السماء بينما يتعلمون هم الغوص في الأوحال ـ يعلمون الناس كيف يصعدون إلى السماوات ليأخذوا هم ثمن ذلك القدرة على الهبوط إلى أعماق الأرض.

والناس يختلفون في حياتهم وفي تعبيراتهم عنها لاختلاف حظوظهم في هذه الماديات، بل إن الآلهة والمذاهب والأفكار لتتفاوت في الناس قوة وضعفاً، جمالاً ودمامة، تعصباً وتسامحاً لتفاوت تناسقهم المادي وتناسق ظروفهم المادية. إن إله أي إنسان لتختلف صورته وأخلاقه لاختلاف حالة ذلك الإنسان المادية في ذاته أو في ظروفه.

وهؤلاء الذين يذيعون دائماً الأناشيد والصلوات في امتداح الروحانية هل يعرفون ما هي الروحانية وما حوافزها ومركباتها وأهدافها، أو هل يعرفون لماذا يصنعون هذا المديح، وما هي حوافزهم وأهدافهم والقوى المحركة لهم؟

إن الروحانية تناسب خاص بين ضرورات الإنسان المادية والشعورية وبين العالم المحيط به. وهذا التناسب هو امتلاك قدرة ذاتية وامتلاك ظروف مادية ليحدث بينهما تلاؤم ما.

إن الروحانية تعني أن يكون لك ذات مادية قادرة ومتلائمة مع نفسها ومع ظروفها وضروراتها، وأن تكون لك ظروف مادية كافية وملائمة. فالروحانية الفاضلة المنشودة هي أن تكون كل قوى الحياة في الإنسان آخذة ومعطية دون حرمان أو عجز، فإن الحياة إذا كانت كذلك جاءت سلوكاً غنائياً يسمعه الجميع ويطربون له ويجدون فيه النشوة والملاءمة.

وهذا يجعل الحياة أخلاقية بالفكر والضرورة بلا معاناة، وهذه الأخلاقية هي الروحانية. هناك زهرة أخلاقية وزهرة ليست أخلاقية، والزهرة الأخلاقية هي التي تجيء في وجودها المادي جميلة وسوية، أما الزهرة غير الأخلاقية فهي التي تجيء على نقيض ذلك، وكذلك توجد حيوانات أخلاقية وغير أخلاقية، والأخلاقية وغير الأخلاقية في الحيوانات هي كيوف مادية. إن الروحانية هي المادية في نصابها الإنساني المادي.

أما أخلاقنا المنحرفة فهي ليست إلا ضرباً من الفقد والاحتياج والشعور بالحرمان والاحتجاج عليه. إن الذي يسرق أو يخون أو يغش أو يفسق أو يلعن أو يحسد إنما هو فاقد فقداً مادياً يحتج على هذا الفقد احتجاجاً غير أخلاقي. والذي ينال كل احتياجاته المادية وتكون ماديته البدنية متكاملة لا بد أن يكون أفضل روحانية أي أخلاقية من المحروم، لأن الأخلاقية والروحانية على ما تقدم هما توافق بين الإنسان وظروفه.

وماذا رأى الناس مما يدعونه روحانية؟ هم لم يروا إلا سلوكاً وشعوراً ما، وليس هذان الشعور والسلوك إلا استجابة للمادة ودعوة لها، وإحساساً بها، وإحساساً نحوها، وإحساساً بفقدها. والذين يفقدون علاقاتهم بالمادة وشعورهم بها يفقدون الظواهر الروحية، إن الظواهر الروحية ظواهر بدنية وليست ظواهر مضادة أو نقيضة للظواهر البدنية. فالمادة هي موضوع الروحانية وبواعثها ومصادرها.

والذين يحتقرون المادية ويلعنونها ليسوا روحانيين وليسوا أكثر رفضاً للمادية من الآخرين، وإنما هم ماديون عجزوا عن الظفر بالمادة أو عن التفوق فيها فلعنوها، أو لقنوا لعنها فلعنوها دون أن يعرفوا لماذا، أو لعنوها نفاقاً للسوق التي علمت لعنها فراحت تلعنها في المعابد والقراءات وتصلي لها في معاملاتها وحياتها، بل وتتحول إلى وحوش يفترس بعضها بعضاً دفاعاً عنها وطلباً لها. إن الذين يلعنون المادة هم مثل العاشق الذي يلعن من يعشق أو يقتله لأنه لم يظفر به، أو مثل التافه الذي يلعن العبقرية لأنه لا يستطيع أن يكون عبقرياً.

وكذلك الذين يفرون من المادية ليسوا روحانيين ولكنهم ماديون ضعفاء، خافوا من التعامل مع المادة بقوة ورهبوا تكاليف ذلك التعامل ودفع ثمنه. ففرارهم منها كفرار الجبان من المعركة وكفرار الضعيف الكسول من العمل والمجد والشرف والاستقامة، لأنه لا يطيق أو لا يريد أن يدفع التكاليف الباهظة.

والذين قالوا إن المادة لا تفعل كل الأحداث التي تقع في الكون كانوا يجهلون حقيقة المادة، إنهم كالذين لا يستطيعون أن يعرفوا ما تستطيع أبدانهم أن تفعله، ولا يعرفون كيف تؤدي أبدانهم وظائفها الكثيرة المختلفة ـ ماذا تفعل الدورة الدموية أو الغدد الصماء أو الكبد أو القلب أو غير ذلك من مختلف الأجهزة البدنية، وإنهم كالذين يجهلون قدرة القنبلة النووية والعادية

على القتل والتدمير والانفجار، وقدرة الحبة على النمو والحياة، وقدرة الحياة على التطور والعمل، وقدرة الزلزال والبركان على الانطلاق ـ إنهم لا يعلمون لهذا ينكرون، والذي ينكر لأنه لا يعلم هو مثل الذي يثبت لأنه لا يعلم.

إن مجالات الحركة هي أوسع دائماً من نفس الحركة، واحتمالات الكينونة أكبر من نفس الكينونة، وقوانين المادة أعظم من معرفة الإنسان مهما كانت معرفته. والذين ينكرون نشاطات المادة وقدرتها على أن تعمل نفسها هم خاضعون للشعور الجبان الهارب الذي لا يجرؤ أو لا يستطيع أن يرى الآلهة والأشباح إلا في الظلام ومن بعيد، وخاضعون للشعور الذي يحتقر النهار المشهود ليمجد الليل الغائب، والذي يرفض أن يرى الأشياء الموجودة لكي يرى الأشياء التي لن توجد، والذي يرى أن وجود الأشياء الموجودة غير معقول، أما المعقول فهو وجود الأشياء التي لن توجد!

إذا كان صحيحاً أن التهديد بالفناء يصنع التغير والقوة فقد يكون صحيحاً أيضاً أن التغير والقوة يصنعهما غير التهديد بالفناء. إن الناس يتغيرون ويصنعون ظروفهم وحياتهم الجديدة إذا كانوا يستطيعون ذلك ويريدونه، لأنهم لا بد أن يفعلوا أنفسهم ويبذلوها، لا لأنهم مهددون بالفناء.

إن إنفاق الذات ضرورة وحاجة وراحة وليس منطقاً أو رسالة أو وسيلة ـ إن إنفاق الذات ليس تضحية بل أنانية واعتداء في حوافزه، ولكن كلا، إنه في حوافزه ليس اعتداء ولا تضحية بل ذاتية، هو استجابة للذات فقط. ومهما بدا في صورة الاعتداء أو التضحية فهو ليس هذا ولا هذا، إنه لا يكون في حوافزه عدواناً أو فدائية إلا إذا كان فيضان النهر عدواناً أو فدائية حينما يغرق وحينما يحيي.

إن جميع الأشياء تفعل نفسها وتهبها بلا تهديد أو خوف وبلا حساب لأي شيء، كما يفعل النهر والشجرة وكل شيء . ولو كان الإنسان يعيش منذ وجد بلا خوف لا من الأعداء والجيران الخصوم ولا من الطبيعة لكان محتوماً أن يتغير ويجدد حياته وظروفه ويتخطى وجوده السابق. لقد وجد بلا خوف ولا تهديد بأي شيء، وهكذا يصنع وجوده المتطور المتجدد بلا خوف ولا تهديد. بأي قانون وجد؟ إنه بالقانون الذي به وجد، به يتغير ويتجدد ويكون اليوم غيره بالأمس. بل إن انسان يتغير ويصنع الجديد في حياته ومذاهبه وأربابه وأفكاره وأدواته حينما يكون مهدداً بالفناء والعذاب إذا هو فعل ذلك، أي أن التهديد قد يكون لمنع التغير والعقاب عليه لا لصنعه أو التعجيل به، ومع هذا يتغير متحدياً التهديد والخطر لأنه لا يستطيع ألا يتغير ويبذل نفسه.

إن الإنسان يبذل نفسه في عمليات التغير كما يبذل نفسه في الأعمال الجنسية، إنه يحتاج

إلى الأكل والنوم فيأكل وينام، وهكذا يريد التغير فيتغير، ويتغير أيضاً وإن لم يرد التغير أي خارجاً على إرادته. البشر يخضعون من داخلهم لعمل التغير والتغير والرغبة فيه ولعمل التغير بلا رغبة فيه كما يخضعون من داخلهم لأعمال الجنس والرغبة فيه ولضرورات الحياة السخيفة خضوعاً ذاتياً أي بلا تهديد بالفناء وبلا أي شيء، بل وحينما يكونون مهددين بالفناء إذا هم خضعوا لذلك. إنهم يحقدون ويبغضون بلا تهديد وبلا جزاء أو انتظار جزاء، وهكذا يتغيرون.

إن المفكرين يفكرون ويبدعون المذاهب والأديان والنظم الجديدة، ويهدمون المذاهب والآلهة والنظم القديمة، إن المناضلين والمقاومين يبذلون نضالهم ومقاومتهم ـ إن هؤلاء وهؤلاء وكل الناس يفعلون دائماً ذلك بلا أي حساب للربح والخسارة أو للنتيجة، بل وحينما يكونون مهددين بالخسران أو بالموت والعذاب إذا هم فكروا أو ناضلوا وقاوموا. وقد نظن أنهم يفعلون ذلك أي يفعلون ما يهددهم بالفناء فراراً من الفناء، أي حينما يكون هناك فناء آخر يهددهم إذا لم يتغيروا ويفكروا ويناضلوا ويقاوموا. ولكن لا، إنه لو صح هذا في بعض الحالات لما أمكن أن يكون صحيحاً في كل الحالات.

كم هم الذين يفكرون والذين يتحدون ظروفهم، والذين يصطدمون بالآخرين ويقاومونهم ويبحثون عن المعارك والخصومات، وكم هم الذين يخرجون على المجتمعات المؤمنة بالتعصب المتدين بالقتل، والذين يصنعون العبقرية والطموح، والذين يجلبون الآلام والمخاطر لأنفسهم بدون أن يهددهم أي فناء أو خطر إذا لم يفعلوا، بل وحينما يهددهم الفناء والخطر إذا هم فعلوا.

إنهم لا يفعلون وجودهم أو يبذلونه فراراً من شيء ولا بحثاً عن شيء عظيم أو رديء ولا دفاعاً عن المبادىء أو الخير أو الناس، بل بذلاً للذات حتى ولو كان هذا البذل ضد كل شيء طيب. إن الذي يعطي العبقرية أو الاختراع أو المذاهب الفكرية العظيمة لا ينوي أفضل مما ينويه سارق المجتمع أو محاربه أو مضلله بالعقائد والتعاليم الرديئة الجاهلة، إن كليهما يفعل ذاته وموهبته وظروفه ورغبته، ولكن بأساليب مختلفة.

وحتى الذين يفعلون تحت الشعارات أو ضغط المصالح أو الخوف أو الحب للنفس هم في أعماق الحوافز البعيدة لا يفعلون إلا لأنهم لا بد أن يبذلوا أنفسهم ويحولوها إلى تعبيرات، ولو أنهم كانوا بلا شعارات أو مذاهب أو مصالح أو احتياج أو خوف لظلوا أيضاً يفعلون أنفسهم ويهبونها ويحولونها إلى أساليب خارجية تصطدم بالناس ويصطدم بها الناس بنفس الحماس والقوة.

إن الذين يملكون القدرة على التطور سيتطورون حتماً حتى بدون تهديد بالفناء وبدون أي هدف غير ذاتي، لأنهم لا بد أن يعطوا وجودهم أي أن يكونوا وجودهم كما يعطي أي شيء وجوده.

أما الذين لا يملكون هذه القدرة على التطور فلن يتطوروا إلا بقدر ما يملكون منها مهما هددوا بالفناء والأخطار، سوف يحولون حينئذٍ هذا التهديد إلى أفكار وتصرفات وعقائد جاهلة مقاومة للتطور ومحرمة له ومسوغة للاستمساك بالقديم الضعيف، أو يحولونه أي التهديد بالفناء إلى تعبيرات زائفة تشبه الولادة الميتة أو الولادة الكاذبة، فيها آلام الولادة الصحيحة ومظاهرها واحتفالاتها وليست فيها نتائجها. حينئذٍ تكثر الثورات العسكرية التي يقودها حكام عسكريون يتفجرون بذاءات وتفاهات وعتواً وغباء وضجيجاً، ويصيبون كل شيء بمرض التوتر والجنون والنذالة، ويبتكرون الأزمات والفقر والضياع، ويقهرون الرجولة والشجاعة، ويهزمون الذكاء والتفكير، ويعاقبون على الكرامة والشرف والصدق، ويحاربون التفوق في جميع تعبيراته، ثم يجعلون من هذا التهديد ـ وكأنه أسلوب من التآمر ـ حليفاً لهم لكي يخيفوا المجتمع ويذلوه ويسلبوه الحرية والرخاء ويزيغوا وقاره، ويلقنوه سوقية الأخلاق والهبوط بمستوى الكلمة وبكل المستويات التعبيرية.

إذن فالتهديد بالفناء قد يكون نوعاً من مقاومة التطور، إذ قد يخلق العقائد ـ أو تخلق باسمه ـ العقائد والقوى والحركات والمذاهب المعوقة، وقد يصنع باسمه التخلف، وقد تبطل هذه العقائد والمذاهب والقوى والتحركات تأثيره وتمتصه، بل وتجعله تأثيراً مضاداً أو تجعل له تأثيراً مضاداً.

لقد حكم على الإنسان ـ بل وعلى كل شيء ـ بأن يوجد بلا معنى، وهكذا حكم عليه بأن يتغير ويتطور بلا معنى حتى ولو كان التطور مفيداً له فهو بلا معنى، كما أن الحكم عليه بالوجود لا معنى له وليس علاجاً لشيء، حتى ولو شعر باللذة والاستمتاع بعد وجوده.

*

المذهبية والدعاية والثورة وحوش عالمية تفترس الإنسان

«دعاية الثوار حجارة ترجم الإنسان وتهبط بكل مستوياته، إنها جنون ذاتي يتحول إلى جنون مذهبي، وبذاءة فرد تتحول إلى بذاءة مجتمع، وحيوانية يهبط إليها ذكاء الإنسان وأخلاقه، وليست حيوانية ترتفع إلى ذكاء الإنسان وأخلاقه».

*

البشر ـ أفراداً ومجتمعات ـ أسواق مفتوحة يدخلها ويتعامل عليها جميع الراغبين والقادرين والمرضى بشهوات العدوان والقيادة. عقول البشر وعواطفهم وخيالاتهم ومخاوفهم وأمانيهم ميادين وطرق مباحة أمام جميع اللصوص والمغامرين والدعاة الكذبة، لا تستطاع حمايتها أو حراستها لا من داخلها ولا من خارجها ـ إنها دائماً مهيأة للاستقبال والتعامل على كل المستويات وبكل الأساليب مع جميع الواردين.

إن الناس جميعاً يتعاملون على السلع وكلهم محتاجون إلى استهلاك السلع، فهل هم جميعاً كذلك يتعاملون على الناس، على عقولهم وعقائدهم وشهواتهم والخداع لهم؟ دائماً ـ في كل المجتمعات والعصور ـ يوجد قوم يتعاملون على الناس، بل يصبح تعاملهم عليهم هو تعبيرهم الكامل الدائم عن أنفسهم وموقفهم من الحياة. وهؤلاء يجعلون من الناس سلعهم التي لا يتعاملون على شيء سواها، ويتعاملون عليهم بوحشية وجنون وافتراس. وحوافز هؤلاء المتعاملين على الناس ليست أفضل من حوافز المتعاملين على المواد المحرمة أو بالوسائل المحرمة، وإن كان خطر المتعاملين على الناس أكبر من خطر كل المتعاملين على ما يحرم المجتمع ويعاقب عليه.

والمتعاملون على الناس كثيرون وعلى مستويات متفاوتة في كثرة تعاملهم وعنفه واحتمالات الخطورة فيه. يتعامل على الناس الزعماء والقادة والحكام والمعلمون والوعاظ والمفكرون وكل

الكتاب، وأخطر هؤلاء المتعاملين هم الثوار وجميع المصابين بأمراض الاستعلاء وعرض الذات، والخطر أنه لا يوجد أي ضمان من أي نوع وبأية وسيلة لجعل هذا التعامل على البشر قانونياً أو أخلاقياً أو نافعاً أو لمصلحة الواقع عليهم التعامل، كما لا توجد أية وسيلة لمنع هذا التعامل. إن التعامل على الناس عملية افتراس متوحشة، توجد في كل المجتمعات وتقرها بل وتباركها جميع المجتمعات ـ إنه الافتراس الوحيد الذي تقره جميع قوانين العالم وأخلاقه وأديانه، وإنه الافتراس الوحيد الذي لا يشكو منه المأكولون، بل يهتفون له ويقتاتون به ويطلبون المزيد منه.

إن التعامل على الناس عدوان لا يمكن تحديده أو منعه أو منع بعض أنواعه وأساليبه أو منع بعض الممارسين له من ممارسته إلا بعدوان أقوى وأشد هولاً وبمجيء معتدين آخرين متفوقين في القدرة على العدوان والرغبة فيه. كل إنسان ومجتمع يعيش على عواطف وآمال وتصورات واحتياجات نفسية ومادية، وعلى أشواق إلى الأفكار والعقائد والتجمع مع الآخرين في فكرة أو مذهب أو سلوك أو في عبودية من العبوديات، إذن كل إنسان ومجتمع محكوم عليه بأن يكون فريسة سهلة يأكلها كل من فيهم شهوات الافتراس وأخلاقه ووحشيته حتى ولو كانوا لا يتقنون فنونه.

لقد كانت الدعاية بكل أنواعها وأنواع الدعاة وحشاً لئيماً يتغذى بالبشر في جميع العصور. كانت الدعاية وحشاً كبيراً حينما كان الإنسان بلا حضارة ـ فالدعاية ليست مستوى حضارياً ـ وكانت حينذاك أقوى من ذكائه ومعرفته وقدرته على رؤية الأشياء ـ كانت فيه أقوى من قراءته التاريخ وممارسته الحياة ومن فضح الشمس الدائم لكل الأكاذيب العائشة في الظلام. وقد أصبحت الدعاية وحشاً أكبر في ضراوتها وخستها وشمولها بعد أن أصبح الإنسان مالكاً ومبدعاً لكل هذه الحضارة، حتى لكأن التقدم الحضاري ليس إلا غذاء ممتازاً وملائماً جداً لوحش الدعاية. لقد أصبحت الدعاية افتراساً حقيقياً فيه حوافز المفترس وأخلاقه وأنانيته وجنونه، وله ضحاياه ولكن على مدى هائل من الاتساع والشمول والقوة. كانت الدعاية دائماً أسلوباً شريراً من القتال بين منظميها ومستثمريها وبين من توجه ضدهم وتطلق عليهم، وكذلك كانت الدعاية قتالاً بين صاحب دعاية ما وخصومه، بين أجهزة هذه الطاغية وأجهزة خصومه الطغاة الآخرين المنافسين المزاحمين له في سوق الافتراس لذكاء الإنسان.

كل إنسان ومجتمع محكوم عليه بأن يعتقد ويخاف، إذن كل إنسان ومجتمع محكوم عليه بالوقوع في قبضة الدعاة المتوحشين وفي قبضة الدعايات الباحثة دائماً عن الضحايا لتقتل وتأسر وتجرح وتستعبد. وكل إنسان ومجتمع متغير، متغيرة عقائده وأفكاره ومثله وحياته وأمانيه، وكل احتمالات التغير في الإنسان أو المجتمع إنما تعني استعداده الدائم لأن يكون سوقاً مفتوحة يتعامل عليها كل الدعاة والمذاهب والآلهة والنظم في تجارب متتابعة لا تنتهي ولا تفتضح ولا

تعرف أو تكتشف مهما كانت مفتضحة! هل توجد طريقة لحماية البشر من أن يكونوا معتقدين وعاطفيين ومتغيرين وباحثين عن التلاؤم مع الآخرين وعن السجون المذهبية الجماعية وعن الهتاف والتصفيق لمذهب أو إله في صراخ ترتله جماعة متوترة؟ إذن لن توجد أية طريقة لحمايتهم من طغيان الدعاية وفسوقها بذكائهم وأخلاقهم وأعصابهم وبكل ما لديهم من أرباب ومثل.

لماذا هذا الداعية الغبي والزعيم الفاسق، لماذا هذا الإنسان الذي يملك كل هذه الأجهزة الدعائية الرهيبة لتضفي على نقائصه ألقاب الآلهة ونظافة الشمس وقوة التاريخ، ولتسرق لحسابه وحساب بقائه وتفوقه ذكاء المجتمع ورخاءه وأعصابه وحريته؟ لكبرياء من أو لحساب من هذه المذاهب والشعارات والجيوش والمخابرات والمباحث وكل هذا الإرهاب ـ لكبرياء من أو لحساب من هذه المواكب والاستعراضات والمؤتمرات والأعياد والهتافات ـ لكبرياء من أو لحساب من هذا الضجيج والتوتر والخصومات والمشاتمات البذيئة؟

لمن يساق الناس ويحشرون ويموتون ويحقرون ويحولون إلى حشرات توطأ وتهش وتستقذر؟ ماذا يساوي هذا الإنسان الذي يصبح كل هذا بعض ما تطالب به أو بعض ما تفرضه كبرياؤه وأجهزته الدعائية؟

من ذلك الساحر الخارق الذي يطويه الموت بعد حياة كلها أوحال وأكاذيب ثم تظل قوته التي صنعتها الدعاية حية بذيئة ثقيلة لا تموت، تحكم الحياة وتنافسها بل وتهزمها من وراء أسوار الفناء وتتجدد في أوهام الإنسان كأنها الأبد؟ إن الألم والهزيمة والضعف والاحتياج والحيرة والجهل والفراغ والضياع والفرار ـ إن ذلك هو المسوغ الدائم لعقد هذه الصفقات الشريرة بين القاتل والضحية، إنه أسلوب من أساليب الاحتجاج على الحياة أن تلقي بنفسك التي لا تعرف لماذا فرضت عليك بين يدي وحش مفترس يسمى زعيماً أو قائداً أو ثائراً أو معلماً أو مصلحاً أو قديساً ليقودك إلى الموت أو إلى الهوان والعبودية والغباء والحماقات المذهبية.

إن العلاقة بين صاحب الدعاية وبين الواقع فيها تشبه العلاقة الجنسية التي تقوم بين اثنين كلاهما يبحث عن هذه العلاقة ويعشقها ويستمتع بها ويحتاج إليها بغواية فيها حماس وموسيقى وشعر وتوتر وزلزال مهما كانت ظروفه ومستوياته. وكما أن كل الناس: الأقوياء والضعفاء، الأذكياء والأغبياء، المتعلمين والجهال يركعون لغواية الجنس دون أن يهابوا أو يحترموا مكانتهم الخاصة فكذلك يركعون لغواية الدعاية بنفس الافتضاح والضعف والتواضع. إن جميع الظروف المتضادة والمتناقضة تحكم بلا خيار بأن يبيع أو يهب الإنسان نفسه لأحد الدعاة المجانين أو الكذبة الذي لا ينوي ولا يستطيع أن يفعل الفضيلة أو يسعد المستقبلين له إلا بقدر ما يفعل ذلك الحيوان المفترس حينما يأكل ضحاياه.

إن جميع البشر على اختلاف مستوياتهم وتحت جميع الظروف المتعارضة لقادرون بلا أية مقاومة من داخلهم على أن يضعوا كل قيادهم في يدي مغامر ماكر أو مريض متعب أو متعصب لجوج، يمارس بتكرار وإصرار الغناء والبكاء - يمارس وإن كان بلا اتقان مساومة المتألمين وإدماء جراحهم، ويمارس كذلك وإن كان بلا ذكاء أو صدق نفسي أن يغني آمالهم ويتباكى بين أجداثهم ويرثي أربابهم التي شنقتها أو هزمتها الأبالسة، والتي أمرضتها المعصية، ويرثي كذلك مذاهبهم المعتصرة من ذوب ضمائر الملائكة.

ويسهل استغواء الجماعات في أوقات أزماتها، بل وفي أوقات رخائها. والدعاة والمغامرون والمحتالون والحكام المستبدون القساة يرسلون إلى المجتمعات المتأخرة المتألمة الضالة في ضباب مشاكلها وأزماتها، كما يرسلون أيضاً إلى المجتمعات القوية المتقدمة المصابة بالرخاء، وقد يكون ذلك بأسلوب أعنف وأشمل وأقوى تنظيماً وضبطاً، إن الإنسان في جميع مستوياته قابل للغواية والهوان ونسيان الكرامة. والأزمة تخلق المحتال والداعية الصانع للخطر والزعيم الصارخ والروحاني الكاذب كما تخلق هؤلاء أيضاً الظروف الجيدة. والمجتمع القوي يكون وعاء ممتازاً لهذه الآفات كما يكون وعاء لها أيضاً المجتمع الضعيف. إن الزعامة القوية قد توجد في المجتمع القوي مع أن الزعامة القوية ظاهرة مرضية لأن المجتمعات مهما كانت قوية فلا بد أن تكون مصابة بحالات مرضية على نحو ما. والمجتمع القوي قد يكون أكثر وأضخم مشاكل، وحيث توجد المشكلة لا بد أن توجد أسباب الغواية والخديعة والضعف. إن وجود الزعيم القوي معناه وجود مجتمع فيه أشياء غير ملائمة، وهذه الأشياء غير الملائمة تصنع كل الاحتمالات لوجود الزعماء الطغاة المتوترين، والدعاة الكذبة الأغبياء.

ولا يحتمل أن يتقبل مئات أو عشرات الملايين أن يخضع بعضهم بعضاً لطغيان أو مغامرات رجل واحد باهظ الثمن، أو لكي يتهاووا سجوداً بعقولهم وكراماتهم تحت قدمي قديس جاهل فاسق يتعامل بكلماته مع السماء وبأعضائه وشهواته مع أوحال الأرض، إلا إذا كان هؤلاء المئات أو العشرات الملايين يحملون في صميم وجودهم آفات كبيرة. ولكن أليست أضخم آفات الموجود هي كونه موجوداً؟ وهل يمكن أن يكون الشيء موجوداً دون أن يكون مصاباً بالآفات والمشاكل والهزائم؟

إن الزعامة ظاهرة تأخرية، وكلما تقدمت الإنسانية اختفت من حياتها هذه الظاهرة المذلة، وكذلك وجود المعلمين والقادة الروحيين إنما يعني التأخر، وهم يختفون أو يضعفون مع النضج والتقدم والتكامل الذاتي الذي يمنح القدرة على مواجهة الكون مواجهة فكرية بلا حماية من المحراب أو المنبر. لقد كانت الزعامة في وقت من الأوقات مظهراً لاهوتياً، ثم راحت تتواضع وتهون مع وعي الإنسان وتكامله وقدرته على رؤية الأشياء والطبيعة رؤية عقلية حتى أصبحت

أي الزعامة في أفضل صورها حاكماً يخاف الجماعة ويتملقها لكي تهبه أصواتها، وينهض بإرادتها كما يسقط أيضاً بهذه الإرادة ـ هذا ولو في الصورة والأسلوب على الأقل أو على الأصح. أما أسوأ صور الزعامة بعد تنازلها أو بعد إنزالها عن درجات الألوهية فقد أصبحت رئيساً أو زعيماً أو ثائراً يقتل ويسحق ويذل باسم المذهب أو الثورة. وهذا الرئيس أو الزعيم أو الثائر الذي هو أسوأ صور الزعامة قد يكون تشبيهه بالآلهة انتقاصاً لقدره وقوته وهيبته.

والزعامة كيفما كانت صورتها لا تكون بدون دعاية لأنها ضرب من الإعلان والترويج، وكذلك الألوهية والمذهبية، وكذلك جميع العارضين لأنفسهم على السوق لا يكونون بدون دعاية. والدعاية ليست إعلاناً وترويجاً فقط بل هي نوع من الحرب وإطلاق الأسلحة على من توجه إليهم، إنها حرب يدفع ثمنها من يقتلون بها.

هل الدعاية ذكاء ومزية ـ هل هي تكرار ووقاحة؟ إنها ليست ذكاء وليست مزية ولكنها تكرار ووقاحة وعدوان فيه إصرار. هؤلاء الذين يصرون على أن يكونوا قادة وزعماء ومعلمين للمجتمعات أو للتاريخ كله ليسوا أذكى أو أفضل أو أشجع من الآخرين الذين لا يفعلون فعلهم ولا يصرون إصرارهم ولا يصعدون فوق الناس صعودهم. إن في هؤلاء الذين أصبحوا زعماء وقادة ومعلمين مزية فرض الذات فقط والإلقاء بها على الجماعات بأسلوب كله فضول وطفيلية غير محترمة، ولا يحتمل أن تكون طبيعة فرض الذات أو وقاحة فرض الذات فضيلة أخلاقية أو ذكاء. إن أسوأ الناس وأغباهم وأبعدهم عن المزايا الطيبة قد يتفوقون على كل الناس في فرض ذواتهم والإلقاء بها فوق السوق. إن رجلاً وقحاً بذيء السلوك يطارد امرأة بإلحاح وإصرار ليس إلا إنساناً يفرض ذاته، وقد ينتصر فيما يحاول أكثر ممن لا يفعل فعله. فهل هذا الرجل الذي يفرض نفسه على المرأة فاضل أو شجاع أو طيب النية ـ هل هو مصلح أو منقذ أو غيور على الإنسانية؟ إنه لا يمكن الزعم بأن القائد أو الزعيم أو المعلم يريد إنقاذ الإنسانية من آلامها إلا إذا أمكن الزعم بأن الرجل المطارد للمرأة إنما يريد إنقاذها من الحرمان الجنسي أو من الضياع أو من الوحدة، أو الزعم بأن الذي يفرض مشاكله وهمومه على أصدقائه أو على الناس، وبأن المستجدي الذي يفرض حاجته على المارة إنما هما إنسانان طيبان جداً ويعملان لإنقاذ البشر من متاعبهم وذنوبهم. ومثل هؤلاء الناس الذين يفرضون أنفسهم على النساء أو على الأصدقاء أو على المارة، الزعماء والقادة والمعلمون الذين يفرضون ذواتهم على المجتمعات ليكونوا زعماء وقادة ومعلمين.

الزعماء والقادة والدعاة الآخرون الذين يمارسون دعاية ما، لا يريدون من دعايتهم أن يكونوا منقذين، بل لا يريدون إلا أن ينتصروا هم، أن ينتصروا على الجماهير التي يسحقونها بدعايتهم، بل هم لا ينظرون إلى دعايتهم إلا كسلاح فاسق عدواني يضربون به الجماهير، ليخضعوها

ويخدعوها بلا رحمة أو نية طيبة. ليس الغرض من الدعاية إفادة الآخرين بل الانتصار عليهم ليطيعوا ويستسلموا، فهي أسلوب من الحرب أو القنص بين باحث عن الانتصار وباحث عن الهزيمة، أو بين مريض أو حزين يعالج نفسه بالسقوط على الآخرين والتحدث فوقهم وإليهم وباسمهم، ومريض آخر يتعالج بهذا التعالج به وبهذا السقوط عليه ـ أو هي أسلوب من الحرب بين إرادة مستعلية بلا فضيلة وبين إرادة مستسلمة، بين من يريد أن يأخذ ومن يريد أن يعطي.

وناشر الدعاية لا يريد دائماً أن يتحقق ما يدعو إليه، وإنما يريد أن يتحقق سلطانه وقوته وأن يعبر عن مستوياته وأهوائه من خلال ما لا يريد، أو يريد فقط أن يكون داعية لأنه يسعد بذلك ويجد فيه راحة، كما يريد الإنسان أحياناً أن يتكلم فقط دون أن يقصد بكلامه أن يحقق شيئاً، كما يضحك أو يبكي أو يحزن بلا رسالة. إن الداعية يتكلم عن حرية الناس وقوتهم والارتفاع بهم عن الغباء والخرافة والحاجة وعن الآلام والضلالات، مع أنه لو تحقق لهم كل هذا لسقط الداعية ولفقد أسباب وجوده وفقد مكانه وتفوقه فيهم، ولما وجدت دعايته من يكرمها بالاستماع إليها. فالداعية لا يكون إلا لأن فيمن يوجه إليهم دعايته ضلالاً وعبودية وشوقاً إلى الأوهام والدعاة والطغاة. ولعله من أجل هذا مستعد أن يقاتل لكيلا تتحقق معاني الشعارات الجميلة التي يدعو إليها لأنها لو تحققت لبطل سحره ولضاعت المسوغات التي يسوغ بها مجيئه وزعامته والخضوع له. فالدعاية لا تنتصر أو لا يستمع إليها أو لا يكون لها معنى إلا إذا كانت أسبابها موجودة، وأسبابها هي الأشياء التي يرفع الداعية ضدها شعارات دعايته. والدعاة والزعماء لا يكونون أو لا يتنصرون إلا إذا كانت لهم دعاية، إذن هم محتاجون في وجودهم وبقائهم إلى بقاء التهديد الخارجي وبقاء الضلال والآلام والمشاكل التي تجعل لوجودهم معنى كدعاة وتجعل لطاعتهم والاستسلام لهم تفسيراً كمنقذين، إن بقاء الشيطان معنى من معاني الداعية الديني.

إن أشد الناس عداوة لنضج الشعوب وذكائها وحريتها هم الزعماء والدعاة الذين يدعونها إلى النضج والذكاء والحرية ويلعنونها ويسخرون منها لأنها غير ناضجة أو حرة أو ذكية. وإن الآلهة لتلعن عبيدها لأنهم غير مفكرين أو ناقدين أو فاهمين، ولكنهم لو أصبحوا كما تقول إنها تريد لهم لقتلتهم أو ألقت بهم في النيران لأنهم لم يصبحوا عبيدها إلا لأنهم غير مفكرين أو ناقدين أو فاهمين لما يقال لهم. إنه لولا الآلام والمشاكل لما كان الزعماء ولا المصلحون ولا مدعو النبوة، إذن هؤلاء حتماً لا يريدون مجتمعاً معافى من الآلام والتعقيدات والهموم وأسباب الحيرة، إن مثل هذا المجتمع خصم لهم وهو يقتلهم أو ينفيهم بل لا يفترض أو يتصور وجودهم. إذن فالألم والجهل هما حجة الحياة وحجة الزعماء والمعلمين على أن لهم قيمة أو معنى. ولو كانوا مخيرين بين وجود مجتمع صالح ذكي يعيش السلام والسعادة والمحبة والرخاء ولا يحتاج

من أجل ذلك إلى وجود زعماء وأنبياء يضلونه ويدمرونه بحجة أنهم يهدونه ويقودونه إلى الانتصارات وبين وجود مجتمع فاسد يقتات بالشرور والآلام والأزمات ويحتاج إليهم أي إلى الزعماء والأنبياء، لاختاروا المجتمع الأخير ـ أي لاختاروا العذاب والضلال ليكونوا باسم مقاومتهما زعماء وأنبياء، ولم يختاروا السلام والرخاء لئلا يكونوا ناساً من الناس.

المحتالون والزعماء والدجالون محتاجون دائماً إلى أن يكون الناس ضالين ومتألمين ومحاطين بالأعداء الخارجيين وبالمشاكل والتعقيدات الدولية والداخلية، إنهم كالأطباء المحتاجين إلى وجود المرضى. والأطباء مع أنهم يعالجون الناس فإنهم لا يريدون أن تزول الأمراض من كل الناس. إن أشد الناس كراهة لتحرر المجتمعات من الخوف والمشاكل والأخطار والأبالسة والغباء هم المعلمون والزعماء الذين لا تفسر دعايتهم ونضالهم ووجودهم إلا على أنها تضحيات هائلة يؤدونها صابرون ومتعذبين من أجل الناس للقضاء على هذه الشرور، وعلى أن هذه الشرور لو زالت لسافروا من هذا العالم إما انتحاراً تحت أقدام الإنسانية التي يحبون ويموتون ويعيشون في سبيلها، أو ارتحالاً إلى الله لأنهم لا يريدون الحياة أو البقاء لأنفسهم، ولا يريدون الاستمتاع بشيء كما يفعل الناس، وإنما بقوا في هذا العالم مكرهين لحماية الإنسان من ذنوبه وأعدائه، وإنه لولا هذه الحماية التي قبلوا من أجلها البقاء في هذا العالم لقتلهم الشوق إلى الله أو كراهة اللذات والحياة.

*

والأوعية التي تقدم بها الدعاية نفسها هي:

أولاً:

الإسراف في إعطاء الوعود، ولا دعاية بلا وعود مسرفة في أكاذيبها ومبالغاتها. وإعطاء الوعود المستحيلة لا يكلف الدعاية شيئاً ولا يضعها في قيد من الالتزام أو في موقف محدد محرج، لأن المجتمعات تكون دائماً في حالة استغواء وانتظار. والمجتمعات لا تملك حسابات دقيقة لتقارن بين ما قيل لها وما تجد، بل لعلها لا تحاول أن تربط بين ما تسمع وما يحدث، والمطلوب هو أن تسمع وعوداً مغرية، وهذا عندها غاية وهدف. ولعل الجماهير تسمع وعود الدعاية كما تسمع الشعر والموسيقى لا كما تسمع وعوداً تحاسب وتطالب بأن تكون صادقة. إن الوعود المبالغة في كذبها ـ مجرد الوعود ـ غذاء جيد جداً لجوع الجماعات وحرمانها، وهي تبحث عمن يحسنون تقديم هذه الوعود وترحب بهم أكثر من بحثها عمن يعطونها أو عمن يكلفونها بأن تفعل الأشياء العظيمة.

في المجتمعات دائماً فراغ وقلق وبحث عن شيء وشوق إلى شيء. والدعاية تعمد إلى مواطن الضعف والغواية في الجماعة فتركز عليها هجومها، إذا كانت المجتمعات فقيرة ومستعبدة

ومسروقة فسيكون الحديث إليها عن الاستثمارات والأعمال الإنشائية المنتجة الضخمة، وعن إغناء كل فقير وإشباع جميع الجائعين، وعن إعتاق كل المظلومين والمستعبدين، وعن العدالة التي ستجعل النملة في وزن الفيل أو الفيل في وزن النملة، وسيكون الحديث أيضاً عن أولئك الأعداء واللصوص الدائمين والمتربصين الذين نشروا البؤس والظلام والآلام على امتداد التاريخ وجعلوها حالات مستعصية على العلاج، وعن أولئك الذين سرقوا وأفسدوا كل شيء وسلبوا التاريخ قدرته على الحركة والحماس.

ومهما عجزت وعود الدعاية عن أن تكون صادقة فلا محاسبة لها على كل الحالات والاحتمالات، لأن أجل هذه الوعود هو الدهر كله وليس أجلاً محدوداً بأعوام أو بدهور. ثم يمكن الدفاع عن الإخلاف مهما طال ودام بمؤامرات ومضايقات الأعداء الخارجيين أو بتعويق تركات الماضي الثقيلة المغلقة لطريق التقدم، تلك التركات التي خلفها الفاسدون واللصوص، كما يمكن الدفاع عن ذلك الاخلاف بأسباب أخرى كثيرة لا نفاد لها. والاقتناع بصدق أي دفاع عن أي شيء ليس مساوياً لقوة ذلك الدفاع، بل مساوٍ لإرادة الاقتناع والقدرة عليه ولظروف المقتنع ولاستعداده النفسي، ولهذا فقد نقتنع بأضعف دفاع وأكذبه كما نقتنع بأقوى دفاع وأصدقه، وقد نقتنع بالأكذب والأضعف ونرفض الاقتناع بالأقوى الأصدق. وفي كل التاريخ كان المقتنعون بالضعيف السخيف أكثر وأعظم حماساً من المقتنعين بالصحيح القوي، وكان أسخف وأكذب المدافعين يجدون دائماً المؤمنين والمصفقين أكثر مما يجد أصدق المدافعين وأقواهم. إن شيئاً في أية فترة من فترات التاريخ لم يُهزم أو يشعر بالحرج لضعف الدفاع العقلي عنه، فالناس لا يفرقون بين المنطق القوي والمنطق الضعيف، ولا يريدون أن يفرقوا بينهما، كما لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك. فالتمييز بين المنطق القوي والمنطق الضعيف فوق قدرة المجتمعات، ثم هو ليس غرضاً من أغراضها، وهي لا تشعر أبداً بالحاجة إلى هذا التمييز، وهي لا تتألم لفقدها القدرة على التمييز والرغبة فيه، بل لعل الجماعات ـ مهما كانت مستوياتها الحضارية ـ لا تعرف أنه يوجد منطق قوي ومنطق ضعيف، ولا تشعر أنها محتاجة إلى أي منطق. لا تحاول أن توجد لنفسك وضعاً قوياً في المجتمع بدفاعك القوي والمنطقي عن نفسك وعن مذهبك وعقيدتك وصحة سلوكك، فهذا شيء يفعله كل الناس في كل العصور، ولكنه شيء لا يعني شيئاً، فليس أفضل الناس في اقتناع الناس هو أفضلهم حقيقة ولا هو أقواهم في دفاعه المنطقي عن نفسه، كما أن أسوأهم ليس هو أسوأهم في سلوكه أو في منطقه.

والمفروض مع هذا أن الدعاية لا تحدد، إنها في الغالب تتجنب التحديد إما ذكاء وحذراً أحياناً لأنها تعلم أنها تكذب ولا تثق بما تقول بل ولا تريد ما تقول، وإما لأن التحديد لا يصنع الإثارة والحماس والغموض، والحماس والغموض والإثارة معان كبيرة في الدعاية، لهذا فالدعاية

قد تجعل الزمن كله وعاء لتحقيق وعودها، وقد تلجأ إلى مثل هذا الأسلوب: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾، ﴿اقترب للناس حسابهم﴾، ﴿أتى أمر الله﴾.

وحينئذٍ فمهما ذهبت الدهور بعد الدهور دون أن يصدق من تلك الوعود الدعائية شيء فلا عتب أو لوم أو شك أو تساؤل، لأن الزمن لم يمت كله بل لا تزال له بقية. إذن لا يمكن توجيه أي اتهام إلى هذه الوعود إلا إذا مات الدهر كله، أي لا يمكن أن يتهم الموعودون الواعدين ـ إذا كان في استطاعتهم أن يفكروا في اتهامهم ـ إلا بعد موت الجميع، موت الواعدين الكاذبين وموت الموعودين المكذوبين. وما أجمل الكذب الذي لا يُكتشف إلا بعد ذهاب كل من يمكن أن يكتشفه. وقد يقبل كل الناس أن يكونوا أنبياء كاذبين إذا كان كذبهم لن يعلم إلا بعد موت كل الناس. وحتى إذا وقع الواعدون بالتحديد ثم لم يوفوا فلن يوجد ـ وقد سبق هذا في السطور الماضية ـ خوف كبير من اكتشافهم أو افتضاحهم، وقد يكون الكذب المفضوح هو أقل الأكاذيب افتضاحاً. إن التفسيرات والتبريرات لا حدود لغبائها حتى عند أرجح وأكبر الناس عقولاً. إن دين المجتمع وتفكيره قد يكونان أقل جداً من المجتمع وقد يكونان أكبر منه جداً، فالناس لا يجيئون على مقاسات آلهتهم وأفكارهم وإيمانهم. ولهذا فقد يؤمن أعظم الناس وأذكاهم بأسخف الأفكار والأديان، كما قد يؤمن أسخف الناس وأضعفهم بأقوى الأفكار والتعاليم وأفضلها، ثم لا تؤثر هذه العظمة في هذا الضعف، ولا هذا الضعف في هذه العظمة، أي لا يضعف الأقوياء إيمانهم بالعقائد والأفكار الضعيفة، ولا يقوي الضعفاء إيمانهم بالأفكار والعقائد القوية.

وإذا كان هناك عدو خارجي أو احتمال عدو فستوجه إليه الدعاية كل أحاسيس المجتمع ومخاوفه وأحقاده. وقد يكون ذلك العدو وهماً مقصوداً، وقد تخترعه الدعاية اختراعاً وتذهب تمجد أخطاره التي لا وجود لها أحياناً أو التي هي أقل ما تشكو وتخاف منه الجماعة. إن وجود الأعداء الخارجيين ذوي الأخطار الرهيبة ـ ولو في افتراض الدعاية ـ أمل هائل من آمال الزعماء والمعلمين والدعاة. وأكثر الناس تعويلاً على هذا الأمل وإصراراً على افتراضه موجوداً وخطيراً جداً هم الثوار.

وإذا كانت هناك شكوى عامة من حالة أخلاقية فلا بد أن تجعل الدعاية من هذه الشكوى صلاة ونشيداً دائماً، وأن تلقي بكل ثقلها على تضخيم هذه الحالة وتهويلها وتأجيج الإحساس بها. والخوف من الشيء والشعور بالحاجة إلى علاجه وانتظار المنقذين المعالجين قد يضعف المقاومة وقد يزيد من الرغبة في الاستجابة للغواية. وانتظار النبوة قد يعني مجيء الأنبياء ونزول الوحي على المنتظرين المتطلعين إلى السماء. والمريض اليائس من العلاج قد يكون أقدر على الإيمان بالشعوذة. نعم إن الذين ينتظرون الوحي قد يجدون الأنبياء.

ثانياً:

الدعاية تتملق الجماعة بلا أية أخلاقية أو وقار، تتملق ضعفها وأخطاءها ونقائصها وأربابها وجميع رذائلها السلفية. إن الدعاية لا تريد أن تعالج الناس أو تعلمهم أو تنقذهم من الآلام، بل تريد أن تخدرهم وأن تضع لهم الأناشيد التي تجعلهم يصبرون على آلامهم وعلى قسوة ظروفهم، وتجعلهم يؤمنون بما يقال لهم.

وتملق الجماهير نوع من التعويض الكاذب لها في حساب القادة والمعلمين، إنهم بدل أن يعطوها احتياجاتها ويعالجوا مشاكلها وهمومها يعوضونها عن ذلك بشيء سخيف لا ينفعها ولا يتعبهم هم أو يكلفهم أو يلزمهم بأن يكونوا في مستوى ما يتحدثون عنه ـ يذهبون بسخاء لئيم يمتدحون تلك الجماهير، يمتدحون صبرها وإيمانها وشجاعتها وأديانها وأنبياءها وذكاءها ومآثرها الخالدة على الإنسانية والتاريخ وعلى زعمائها ومعلميها، ويمتدحون حبها وإخلاصها لهم وموتها بين يديهم، معترفين بتواضع كله صغار وكذب وكبرياء بأنها هي التي صنعتهم واختارتهم ونصبتهم فوق كرامتها ليذلوها ويسرقوها ويقتلوها في حروبهم ومغامراتهم. والمشرفون على الدعاية يسلكون سلوك المشرفين على شركات الإعلان، يجعلون من أهدافهم الدائمة تملق العملاء وخديعتهم بالامتداح. وقد يكون امتداح المتعاملين ولا سيما من النساء أقوى في اجتذابهم وإقناعهم بجودة السلعة وملاءمة ثمنها من جودة السلعة ورخص ثمنها حقيقة.

وإذا هويت على إنسان بالسوط وأنت تمجد شجاعته وصبره وكبرياءه فقد يمنعه ذلك من أن يبكي أو يئن أو يتألم أو يرى إساءتك إليه رؤية صحيحة أو كاملة. وهكذا يهوي القادة والحكام القساة على شعوبهم بسياط العذاب والحرمان وبالحروب والأزمات وبكل أساليب الاذلال والإفقار، بينما يعبئون كل أجهزتهم الدعائية الشريرة لتمتدح هذه الشعوب، لتمتدح استعدادها للموت جوعاً وقتلاً في المؤامرات والحروب والمبارزات مع الخصوم، وتمتدح استعدادها للتنازل عن كل حرياتها وحقوقها وشرفها، زاعمة في خداعها لها أنها شعوب تضيق عن أبعاد عظمتها كل المقاييس الأخلاقية المعروفة، إنها تهب وطنها ومذهبها وعقيدتها وزعيمها كل شيء دون أن تطالب بشيء أو تشترط لنفسها أية شروط. وهكذا تستمر السياط والعذاب تأكل الشعوب بينما تخدر مشاعرها أكذب المدائح وأرخص قصائد الملق الرديئة التي يلقيها عليها القتلة واللصوص.

ما أكثر ما خدع الشعوب امتداح طغاتها لها، وما أكثر ما سرق القتلة اللصوص حياة الشعوب وهم يغنون لها مدائح الموت والقتل في سبيل أعدائها. ما أغلاه ثمناً: أن ينشد فيك قاتلك وسارقك قصيدة مديح كاذبة كرشوة لك على قتلك وسرقتك.

ثالثاً:

تعمد الدعاية إلى نشر الذعر، الذعر من شيء ما، بل من أشياء كثيرة. هي دائماً تخلق الأشباح وتهوّل في أوصافها، وتقيم لها المعابد في مخاوف الناس وعقائدهم. تشيع الدعاية الخوف من الغيب والذنوب والنفس الأمارة بالسوء بل الخوف من الجسد ومن احتياجاته الطبيعية، كما تشيع الخوف من المذاهب والنظم الأخرى التي يؤمن بها الآخرون بل ومن الآخرين أنفسهم ومن الاحتمالات الدولية القائمة ومن الأعداء المتربصين الموجودين في كل مكان، إنها تريد بذلك أن تشعر الجماعة بالحاجة إلى الحماية ولتملأ مشاعرها بالهواجس والأوجال والأبالسة. إن الله والشيطان والأعداء المتربصين يعنون شيئاً كبيراً في حساب الزعماء والمعلمين المخوفين للمجتمعات، فالله والشيطان والأعداء يساعدون على الإلقاء بالجماهير تحت إمرة هؤلاء المعلمين والزعماء الخادعين أو الفاعلين للخديعة دون أن يملكوا موهبة الخديعة أو يقصدوها أو يفهموها. إن الدعاية محتاجة دائماً إلى خوف غير عادي لتفسد به ذكاء وتوازن الجماعة التي تتوجه إلى مخاطبتها وقهرها. ولا بد من خلق أعداء مذهبيين وفكريين ـ ولو من الأشباح ـ لتصرف إليهم اهتمام الجماعة وتوزع عليهم حقدها وغضبها ولعناتها المذهبية أو الدينية، وتصطاد بهم بغضاءها، وتحول أحاسيسها إلى حرائق ضائعة، وتدافع بهم عن تقصير وعجز الموجهين لها ـ أي للدعاية ـ بحجة انصرافهم وانصراف اهتماماتهم وتفكيرهم ونضالهم إلى مقاومة أولئك الأعداء وإبطال كيدهم وتدبيرهم. وقد تجد في هذا الانصراف بكل ما فيه من صراخ وسباب ووعيد وتوتر بطولة لا تزاحمها بطولة أخرى.

إن الخائفين يُستغوون وتتبدد انفعالاتهم فلا يتجمعون في ضربة واحدة، إن التخويف المخيف عملية تشتيت وضعضعة وإضعاف. وقد يجد الخائف خوفاً شديداً الأمان في الهوان فيهون لئلا يخاف وليشعر بالأمن. ما أبشع ما يصنع الخوف بالإنسان، ما أعظم ما يهبط بشجاعته وذكائه ووقاره وكرامته. إن الخائف جداً يفقد جميع مستوياته العقلية والأخلاقية والإنسانية ـ إنه يصغر الخائف جداً ويتنازل عن جميع الشروط التي قد يشترطها أو يشترط بعضها غير الخائفين لأنفسهم ولو أحياناً. قد يتقبل الخائفون خوفاً شديداً جميع ما يملى عليهم من مهانات وتحقير دون أية معارضة، بل ليس هناك إملاء، إذ الخائفون ليسوا إلا قلاعاً بل خرائب متهدمة.

لست أرى منظراً يلعن الإنسان ويهجو كبرياءه ويعرضه كائناً ذليلاً مثل منظر البشر حينما تستبد بهم المخاوف الكبيرة، إنهم حينذاك يبدون أشياء أقل جداً من البشر، إن الحشرات لتبدو حينئذٍ شيئاً ضخماً. ما أصغر المنظر حينما يبكي الإنسان خوفاً، أو حينما يطلب العفو والرحمة. إن الإنسان حينما يخاف خوفاً كبيراً يصبح عاجزاً عن رؤية نفسه وعن رؤية الآخرين أو أي شيء حوله، وحينئذٍ يكون عاجزاً عن أن يرى دمامة ما يفعل فلا يحتج على نفسه أو يستقبحها

مهما بدا دميماً قبيحاً، ويكون أيضاً عاجزاً عن أن يرى سخرية الآخرين أو إشفاقهم ورثاءهم أو خجلهم منه أو من أجله. وليس في الكائنات من يخاف مثل خوف الإنسان، ولا من يفتضح افتضاحه حينما يخاف. لقد كان المفروض ألا يقسو الإنسان في حكمه على الخائف، إنه محكوم على البشر بأن يخافوا، إذن لقد كان المظنون أن يرفقوا بأنفسهم فلا يقسوا في حكمهم على مشاعر الخوف كل القسوة التي قسوها حينما وضعوا تعاليمهم جاعلين من الجبن نقيصة لا يمكن غفرانها أو نقيصة لا يمكن أن يهبط إليها الرجل الكبير الذي يرى كل الآلام أطيب من موقف واحد يخاف فيه.

ولعلهم أرادوا بهذه القسوة أن يجعلوا من جبنهم شجاعة. ولكن هل الإنسان يكون شجاعاً أو غير شجاع بالتعاليم وبتحقير الجبن أو بامتداحه؟ وهل الحيوان الشجاع شجاع لأن لديه تعاليم تمتدح الشجاعة، والحيوان الجبان جبان لأنه لا يملك مثل هذه التعاليم أو لأن لديه تعاليم تفضل أن يكون جباناً على أن يكون شجاعاً؟

إن أكثر تعاليم البشر وأحكامهم لم يُرد بها أن تكون أحكاماً وتعاليم، وإنما هي أسلوب من أساليب الاحتجاج ضد النفس لسلوكها سلوكاً لا يستطيعون الارتفاع عنه ولا يستطيعون القبول له، وأسلوب من أساليب الغضب على ما لا بد منه.

رابعاً:

من أسلحة الدعاية التي تقاتل بها ذكاء المجتمع وإرادته التكرار. الدعاية تكرر نفسها بكل الأساليب، مستعينة بجميع فنون البلاغة اللفظية التي أقوى فرق هجومها الأصوات العالية والتوتر والالحاح وفقدان التوازن والبكاء واستعمال الألفاظ البذيئة والحادة، والتي تصدم الشعور دون أن تعطيه أو تحترمه ودون أن تتخاطب مع المنطق، والتي تتحدث بالغموض والإطلاق الذي لا يمكن تحديده أو تفسيره، كأنه لغة الغيب وأسراره، كأنه منطق السماء في خلقها لإرادة الكرامة في الإنسان ثم خلقها للطاغية والخوف لقتل هذه الكرامة.

وتكرار الدعاية لنفسها على مشاعر الجماعة يشبه تكرار الهجوم على القلعة التي يراد فتحها واحتلالها. تهوي علينا الدعاية بزعم من مزاعمها ثم تهوي وتظل تهوي بضراوة وفسوق وصراخ، ثم تمضي سادّة علينا طرقنا داقة مسامعنا وأعصابنا، مزلزلة لمناعتنا ومقاومتنا دون تراخ أو قنوط ودون صدق أو وقار، مكررة كل بذاءاتها وأكاذيبها وتوكيدها لنفسها وإرهاقها لمشاعرنا إلى أن تحدث الجراح المطلوبة في خطوط دفاعنا النفسية وفي تحصينات مسامعنا. وكل الخطوط والتحصينات الدفاعية قابلة لأن تضعفها الجراح المتكاثرة. والسماع المتكرر قد يخلق الآذان المستجيبة المصدقة أو المستسلمة أو المتعبة العاجزة عن المقاومة، والذين يجدون أنهم لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم إلا بالتكذيب الدائم قد يجدون أخيراً أنهم محتاجون إلى أن

يبحثوا عن الراحة ولو بالتصديق الدائم. فالتكذيب الدائم عمل شاق لأنه مقاومة دائمة، ولهذا فقد نهرب من التكذيب إلى التصديق بحثاً عن الراحة. وتكذيب المقررات التي تؤمن بها الجماهير مخاطرة نفسية وفكرية واجتماعية باهظة التكاليف، وإنها مع ذلك لمعاناة.

إننا أحياناً نشعر بلذة التحدي حينما نخالف القيم والأفكار والعقائد والنظم التي تعيش عليها الجماعة، وقد نجد في هذه المخالفة أعظم النشوات الروحية، وقد يكون ذلك هو أحد الأسباب التي تخلق المتحدين الرافضين في أكثر العصور. قد يكون صحيحاً أن الكثيرين ممن يبدون لنا أبطالاً ومغامرين وفدائيين، لأنهم تمردوا على مجتمعاتهم وعلى أصنامهم وأوهامها، إنما كانوا يعبرون عن هذه اللذة ويبحثون عنها ـ أعني لذة التحدي والمخالفة، فهم في هذا مثل الذين يبحثون عن مغامرة جنسية، إنهم ليسوا أبطالاً بل شهوانيون. وقد يقابل هذه اللذة شيء آخر هو رهبة المخالفة وأخطارها وما فيها من انفراد وخوف وعذاب ومعاناة. وكذلك قد يقابل هذه اللذة ما فينا من عجز عن إدراك الحقيقة أو عن الاستمساك أو الإيمان بأي شيء بلا سوق ولا جمهور، فالحياة بلا سوق أو جمهور عذاب ووحشة مهما كان إغراؤها. لهذا كان المتحدون المخالفون هم الأقلين دائماً في كل العصور والمجتمعات. إن تكذيب السوق تعب وتوتر وانفراد موحش مهما كان فيه من لذة التحدي، وإن تصديق السوق راحة وأمان واسترخاء مهما فقد من لذة المغامرة.

وعواطف البشر وأفكارهم ليست قلاعاً محصنة بحواجز مادية لا تُخترق لتمنع الأوهام والأكاذيب الدعائية من اقتحامها، بل العواطف والأفكار فضاء مفتوح على كل الجهات. والكلمة المقذوفة قد تخترق الأذن كما تخترق الرصاصة البدن لتجوب كل آفاق الشعور وتلتحم به أو تتوافق معه، وقد تترك كل آثارها أو بعضها فيه على معنى من المعاني. ومع التكرار تصبح هذه الآثار شيئاً أقوى، أو تصبح حقيقة تزحم المكان وما كان. وكل الناس ضعفاء أمام التكرار كما أن أية كتلة مادية ضعيفة أو لا بد أن يصيبها الضعف تحت الطرق الدائم وأضخم وأقوى المذاهب والأرباب والنظم والتقاليد إنما صاغها التكرار المتوحش. في نفس كل إنسان دائماً فراغ وجوع وانتظار، فيها دائماً مكان للواغل واستماع إلى الطارق الملح. وفي مثل هذه البيئة النفسية قد تجد الدعاية المتكررة مناخها واحتمالات الترحيب بها. وحالات البشر النفسية وغير النفسية متحركة غير واقفة ولا متحددة، إنها في صعود وهبوط وقوة وضعف وفي قبول ورفض وتناقض. وهذا حتماً يعطي التكرار فرصاً قوية للانتصار.

وقد نسمع الدعاية ونحن في إحدى حالاتنا النفسية والاجتماعية فلا تصنع في أنفسنا ولا في أفكارنا أية ندوب، بل نرفضها بقسوة، ولكننا قد نسمعها ونحن في حالة أخرى فنتلقاها وكأنها الغواية الجسدية الهابطة على الجائع إليها. إن مشاعرنا حينئذٍ مستعدة لأن تصيد الأشباح

وأن تتعامل مع أوقح الأكاذيب ـ مشاعرنا أحياناً هي كالسوق المفتوحة تتقبل كل القادمين إليها وتتعامل معهم دون أن تسألهم عن قيمة منطقهم أو نوع دينهم أو عن جنسياتهم، ولا من أين جاؤوا وأين يذهبون، ولا ماذا يريدون بما يشترون.

خامساً:

والمبالغة هي إحدى مطارق الدعاية التي تسحق بها روح الجماعة وأفكارها وتصيبها بالذهول والضلال. تبالغ الدعاية في كل شيء، تبالغ إذا مدحت أو ذمت، وفي حبها وبغضها وفي ترغيبها وترهيبها، وفي إيمانها وتكذيبها ـ تعرض كل ما تقوله وتفعله في مواكب من التهاويل وفي طوابير من الأبالسة المتوحشة. خصومها هم شر المخلوقات، ليس فيهم مزية ما، وعبيدها وعملاؤها مصبوبون من كل نبل، منزهون عن كل سوء، حتى أنهم ليهابون أن ينظروا إلى جسم الشمس بعمق خوفاً من الفتنة والشهوة، ويرفضون أن يعملوا في الليل أو أن يفكروا فيه أو يصحبوه في أية رحلة، كراهة للظلام وبحثاً عن النزاهة والنور والإشراق ـ مزاياهم أكبر المزايا، والشرور والأخطاء لا تتعامل مع أفكارهم أو ضمائرهم، وكهانها هم أعظم الكهان، هم عقل التاريخ وذكاؤه وعبقريته وإيمانه، لقد صنعوا التطور الإنساني أكثر مما صنعه أي قوم في أي عصر من العصور، والمشاكل التي واجهوا والتي يواجهون ـ التي انتصروا عليها والتي سوف ينتصرون عليها، هي مشاكل لم تواجه الدنيا مثلها، ولو واجهت أية جماعة قبلهم أو بعدهم مثلها لسقطت إعياء وخوفاً. وإنها لتتهيأ للقيام بأعمال وعبقريات سيتعلم منها التاريخ الضخامة والزعامة والانتصارات، وسيكفر بها القدر عن كل ذنوبه وأخطائه وتفاهاته، ويغتسل بها الكون من جميع أدرانه. وسوف تعالج جميع الآلام والمشاكل وتبتدع صوراً من الرخاء تحتاج الطبيعة إلى أن تستجمع كل نفسها وتستنجد بكل موهبتها لكي تستطيع أن تكون تعبيراً عنها ووعاء لها.

والمبالغة آفة قديمة وعامة، يمارسها كل الناس على مختلف المستويات، يمارسونها في كل تعبيراتهم ولغاتهم ومشاعرهم وفي كل شؤونهم، يمارسونها في حديثهم عن أربابهم وأديانهم وفي تصورهم لها، ويمارسونها كذلك حينما يتحدثون عن جمال أطفالهم وعن عبقريتهم المتخطية لكل مقاييس العبقريات المعروفة، ويمارسونها حينما ينظرون إلى المرآة، ويتصورون العلاقات الجنسية، ويحتلمون، وينظرون إلى وجه المرآة، وأمارسها أنا الآن حين أتحدث عن الذين يمارسونها!

إن المبالغة أسلوب من الاحتجاج والبكاء والرفض والتمني والسباب، فالمبالغ يعاني ويحتج ويرفض ويتمنى ويشتم قوماً أو إنساناً أو شيئاً ما، ويعبر عن كل ذلك بالمبالغات اللفظية والتصورية. إن الذي يبالغ هو إنسان يعاني من الطبيعة والآخرين والظروف ومن الذات، وهو

غاضب أو كاره أو متوتر، فيرفض ويحتج ويبكي ويشتم ويهاجم. فالذي يقول أنا أفضل الناس أو أقواهم، أو إلهي أو ديني أو مذهبي أو بلدي أو ابني هو الأفضل والأقوى ليس سوى إنسان خائف متألم عاجز متوتر غاضب. إنه لا يجد ما يريده أو ما يريحه أو يتصوره، ويجد ما لا يريد وما لا يريح وما لا يتصور ـ يواجه ما لا يُعقل أو يرضي، ويفقد ما يُعقل ويرضي، فيحاول حينئذٍ أن يرد على هذا التناقض بينه وبين الأشياء ويعالجه بالمبالغات.

والمبالغات ليست صوراً لفظية بل حالة نفسية، تعبيراً عن حالة اجتماعية أو كونية أو ذاتية، إننا نبالغ في تصوراتنا ومخاوفنا وهمومنا وآلامنا وأمانينا وكراهتنا وحقدنا، ثم نحوّل هذه المبالغات إلى مبالغات تعبيرية، بالكلمة أو بالحركة أو بالرسم أو بالصخب أو بالفكرة. وقد شوهت المبالغة كل الأشياء، إنه لا شيء يعبّر عنه بقدر ما يساوي وكما هو في نفسه، بل لا بد أن يكون أكثر أو أقل مما يساوي. كل شيء قد شوهته المبالغة، فالآلهة والأديان والأنبياء والتاريخ والحياة والموت والدمامة والجمال والأصدقاء والأعداء ـ كل ذلك قد اعتدت عليه المبالغات وسلبته الوقار والصدق والذكاء.

ماذا لو خلعنا عن أشيائنا هذه الملابس المزيفة، لو ألقينا عن أربابنا وتاريخنا ومذاهبنا وآبائنا وخصومنا وعن كل شيء نلقاه ونتعامل عليه، ماذا يبقى أو نرى لو ألقينا عن كل ذلك تهاويل المبالغات وتصاويرها اللفظية؟ لقد صنعت المبالغات تزييفاً هائلاً تحوّل إلى عقائد وقيم وبطولات وإلى كون قائم على النبل والذكاء والحب، وإلى أرباب يذوبون صداقة وعطفاً على البراغيث إذا مرضت وعلى الجراثيم إذا جاعت ولم تجد أجساماً بشرية ملائمة لها لتتغذى بها وتشبع منها، نعم تحولت المبالغات إلى تصور آلهة لا مثيل لرحمتها وحبها حتى أنها من رحمتها وحبها تجعل من أجسام البشر وطعامهم وبيوتهم ومن صحتهم غذاء وبيوتاً وصحة للحشرات والأمراض. فما أعظمها رحمة وأنبله حباً!

والبشر مستمرون في التعامل بالمبالغات، ولعلهم يزدادون تعاملاً عليها مع تقدمهم الحضاري والعلمي الهائل. لقد كان المفروض أن يهجزوا المبالغة، لقد تعاملوا بها طويلاً، عاملوا بها الآخرين وعاملهم بها الآخرون. إذن لقد كان المفروض أن يعرف الناس من هذا التعامل الطويل المتقابل أن المبالغة لا تعني شيئاً حقيقياً، وأنها ليست سوى زيف لفظي وصراخ غير وقور، وحينئذٍ كان يجب أن يرفضوا التعامل عليها أو ممارستها أو الاستماع إليها مثل فن من الفنون الإنسانية الجميلة. ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأن المبالغة في حقيقتها ليست حديثاً عن الأشياء الخارجية، وليست حديثاً إلى الآخرين، وإنما هي تعبير عن حالة نفسية، فالمبالغ يتحدث عن نفسه إلى نفسه، وهو لا يبحث في الغالب عن اقناع الآخرين أو عن الآخرين أو عن الأشياء التي يتحدث عنها، وإنما هو كالذي يحزن أو يبكي أو يضرب الأرض بقدميه أو يغتاب الناس أو

يكرههم. فالمبالغة في الأكثر ليست وظيفة اجتماعية، بل حزن أو فرح ذاتي يعبر عنه بالكلمات أو بأي أسلوب من أساليب التعبير.

ولهذا فكل الناس يمارسون هذا الحزن أو الفرح الذاتي. والذين يتخلون عن المبالغة في هذا الاتجاه أو في هذا المذهب يظلون يمارسونها في المذهب الآخر أو الاتجاه الآخر. فالذي يتخلى عن المبالغة في تقويم الآلهة والأديان يذهب يبالغ في تقويم الإنكار للآلهة والأديان، ومثله من ينتقل من مذهب إلى مذهب ـ إنه يحقر المذهب الذي انتقل منه بنفس المبالغة التي يعظم بها المذهب الذي انتقل إليه. فلا بد من المبالغة إما في الشيء أو في نقيضه، إما في الذم أو في الامتداح.

وقد اتهم الشعر قديماً ودائماً بأنه أكثر وسائل التعبير مبالغة. وهذه تهمة لم يحاول الشعر أو الشعراء رفضها، بل لعلها قد أرضتهم كثيراً. ولكن لماذا هذه التهمة؟ إن أبسط بائع في السوق ينادي على أبسط سلعة يعرضها للبيع ليطلق عليها من المبالغات ما لا يقل عن مبالغة أكثر الشعراء إسرافاً في المبالغة حينما يتحدثون عن ممدوحهم الذي تواضع فقبل أن تكون الشمس والقمر نعلين في قدميه أو الذي تقبل مبايعة النجوم له بزعامته على الكون. وإن رجال الدين حينما يتحدثون عن أديانهم وأربابهم وعن الجنة والنار والحساب والعقاب وعن عدل السماء وعن أخلاق وطهارة الأنبياء والقديسين ليتفوقون على جميع الشعراء في مبالغاتهم وفي خروجهم على كل وقار. وإن أي حاكم متهوس يقف في الناس ليتحدث إليهم عن مزايا نظامه أو عن ثورته التي تحولت إلى ثورة في الكون بل إلى ثورة في أخلاق الإله، أو عن إصلاحاته المتخطية لكل الاحتمالات المستطاعة لأكثر مبالغة وتجاوزاً للوقار من كل الشعراء.

ومع أن المبالغة ظاهرة بشرية عامة فإن أكثر الناس جنوناً بهذه الظاهرة هم الطغاة والثوار لأن المبالغة في أجهزة وحسابات هؤلاء الطغاة والثوار ليست حالة نفسية فقط. هم حتماً متوترون وصارخون بمزاجهم الذاتي وبظروفهم ـ وهذا يجعلهم ولا بد مبالغين جداً في تعبيراتهم عن أنفسهم ونظمهم وحكمهم، أي يجعلهم متفوقين في جنونهم ـ ولكن هؤلاء يرون في المبالغة شيئاً آخر، إن المبالغة في تقديرهم خطة غزو، هي أسلوب عدواني، هم يريدون بالمبالغة أن يغزوا ويقتلوا ويفتحوا! فالمبالغة في حسابهم سلاح قاتل يطلقونه على المجتمعات التي يريدون غزوها واحتلالها، ويطلقونه على الخصوم الذين يريدون قهرهم والتفوق عليهم، والمبالغة أيضاً في حسابهم سلاح تأليه وتقديس لهم وتقويم جنوني لعهودهم ومذاهبهم وثوراتهم.

والثوار والطغاة بحالتهم النفسية والعقلية وبظروفهم متوقحون بذيئون، والمبالغة أسلوب ممتاز من أساليب التوقح والبذاءة. إذن فالثوار والطغاة لا بد أن يجدوا في المبالغة ما يحتاجون إليه من

بذاءات ووقاحات، وهم حتماً بذيئون وقحون، إذن هم حتماً مبالغون على مستوى لا يمكن أن ينافسهم فيه أي منافس.

فالمبالغة لدى الثوار والطغاة ليست حالة نفسية فحسب، بل هي غزو ووقاحة وتمجيد للبذاءة إلى حد التأليه والسقوط. ما سمعت أجهزة الثوار وخطبهم وهم يتحدثون عن أنفسهم وعن خصومهم وعن الآخرين وعن الأشياء، عن المذاهب والثورات، بمبالغاتهم ووقاحتهم المعروفة بكل ما فيها من جهل وعدوان إلا شعرت أن الإنسانية تغوص وتغوص، بعيداً، بعيداً بلا وقار وفي الوحل والغباء، وإلا تخيلت كل الكلمات والصور التي تعبر عن أبشع مواقف العار وأساليبه، ثم ناديت من داخلي بكل معاني العمق والتأثر: ليمت الإنسان، ليمت الإنسان، ليمت، فالموت أفضل له من أن يهون ويجهل حتى يسمح لهؤلاء أن يتحدثوا باسمه وإليه وبلغته بهذا الأسلوب، لتمت اللغة، ليت الإنسان بلا لغة، لتمت اللغة التي تأذن لهؤلاء الفحاشين أن ينقلوا فحشهم على حساب كرامتها وأخلاقها إلى الآذان وإلى مدرسي الأخلاق والقانون والمنطق وإلى النساء والأطفال ورجال الدين ـ أيتها اللغة إني أحتقرك، أحتقرك لأنك إحدى وسائل الثوار لنقل بذاءاتهم وشتائمهم إلى الآذان والأخلاق، بل إني أرثي لك أيتها اللغة لأن هؤلاء الفحاشين يعتدون عليك ويذلونك ويظلمونك ويمسحون بشرفك كل ما فيهم من أوحال وشوق إلى التراب ـ أيتها اللغة، يا أبشع جهاز لنقل القاذورات والحماقات من الإنسان إلى الإنسان، ومن التاريخ إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى التاريخ، أيتها الهاتكة الشرف بل أيتها المهتوكة الشرف، أيتها المعتدية، بل أيتها المعتدى عليها، أيتها اللغة، كم أنت ظالمة مظلومة!

سادساً:

تُرخص الدعاية الثمن الذي تطالب به جماهيرها لكي تعدهم بكل ما يريدون. إن الطاعة والإخلاص والإيمان بالزعماء والاتباع لهم قد يكون هو أقسى وأفضل الشروط التي تشترطها الدعاية على اتباعها ليكونوا جديرين بالحصول على جميع ما في خزائن الكون من أمجاد ورخاء، إن الشرط الأول والدائم والأصعب هو الإيمان، أي الإيمان بالمذهب أو الزعيم أو الرب أو بالثائر وثورته. لا تحوج الدعاية المؤمنين بها إلى الإبداع أو الأعمال الشاقة، ولا تفهمهم أن ذلك شرط في النجاح أو الانتصار أو دخول الجنة. إنها لا تريد أن تصعب عليهم الأمور ولا أن تعلمهم أن الحياة التزام وشروط لا تُنال بالإيمان ولا بالكفر، لا بالهتاف للزعيم وبلا بالهتاف ضده، ولا بهذا المذهب ولا بنقيضه. إن الدعاية لا تسد على المؤمنين طريق التفاؤل السهل، ولا تمنعهم من الاسترخاء في انتظار الآمال الكبيرة.

والناس في العادة يعطون قيادهم لمن يعطونهم بلا ثمن أو بثمن سهل، أو لمن يعدونهم بالعطاء، ويترددون في اتباع من يأخذون منهم ومن يحاولون أن يصعدوا بهم إلى الطريق الوعر

ويشترطون عليهم الشروط التي لا بد أن تشترطها عليهم الحياة. إن شروط الحياة هي فوق كل شروط، هي فوق شروط المذهب والنظام والزعيم والداعية، ولا حياة بلا شروط وأعني الشروط هنا الالتزام. ولا شيء يستطيع أن يخفف أو يلغي شروط الحياة أي التزاماتها، فمهما كان مذهبك أو نظامك أو زعيمك أو معلمك فاشتراطات الحياة عليك سوف تبقى كما هي بلا تغيير أو تسهيل. فالدعاية إذن التي تعد وتبالغ في وعودها تحت مذهب أو نظام أو ثورة أو قائد لا تعني شيئاً. ومع هذا فالناس قد يقبلون من يكلفهم ولا يشترط عليهم أكثر من قبولهم من يشترط عليهم وإن لم يكلفهم، مع أن الاشتراطات ـ من خارج الحياة ـ لا تعني شيئاً في الحياة، فالحياة منفصلة عن الاشتراط عليها أو الاشتراط فيها.

لعل أكبر المذاهب والعقائد والأرباب في العالم أو في التاريخ لم تنتصر على ذكاء الإنسان وكرامته إلا لأنها كانت تُرخص الثمن الذي كانت تطالب به وتعظم الأجر الذي كانت تعد به، لقد كانت تعد من تخاطب بأكبر الأجور إذا هم عملوا أصغر الأعمال. كان الثمن الذي تطالب به هو الإيمان فقط أو كان الإيمان هو الثمن الأعظم أو الثمن الذي لا يُقبل شيء بدونه، وقد تُقبل أقل الأشياء معه وتغفر أسوأ الأعمال السلوكية المناقضة له. إن الطغاة والثوار والمعلمين يُرخصون جداً الثمن الذي يطلبونه من أتباعهم لكي يقفزوا بهم فوق أسوار الكون والمستحيل وفوق قيود المنطق ويبلغونهم كل ما كان الإنسان في كل تاريخه وظروفه وتحت ضجيج آلامه وصلواته يتمنى ويتخيل وينتظر وينشد على ألسنة شعرائه وبكاته وأنبيائه الذين كانوا يتخطون في خيالاتهم وأمانيهم كل حواجز الطبيعة وقسوتها ومنطقها. لقد كان الثمن الذي يلحون ويصرون على المطالبة به هو الإيمان بهم وبالمذهب أو العقيدة أو الثورة التي جاؤوا بها، وقد يغفرون لهم حينئذٍ كل ذنوبهم ونقائصهم، كما قد يرفضون جميع مزاياهم بدون هذا الإيمان. بل قد يعاقبون أضخم العبقريات التي ترفض الإيمان بهم أو بما يدعون إليه من مذاهب وشعارات عدوانية محقرة للآخرين ولما لديهم من مذاهب ومزايا وأرباب.

المفروض أن قواتنا الدفاعية التي تحمي بها حدودنا من غزو الدعايات المهاجمة لنا من كل الجهات هي العقل، ولكن العقل أو هذه القوات الدفاعية ليست مستقلة ولا تعمل لحسابها، إنها محكومة دائماً من خارجها، توهب حماسها وذكاءها ونشاطها من الخارج. وخطر الدعاية أنها توجه هجومها إلى الاحتياج والأمل والرغبة التي يعيشها دائماً كل مجتمع وإنسان، وهذه هي محطات الاستقبال العامة التي تتلقى عن جميع محطات الإرسال مهما كانت مجهولة أو مشكوكاً في صدقها أو قيمتها أو ذكائها.

لا يوجد إنسان هو فوق تأثير الدعاية لأنه لا يوجد إنسان فوق تأثير الرغبة والأمل والاحتياج والتطلع إلى شيء، ولا يوجد من لا يتغير تفكيره لأنه لا يوجد من لا يحتج ويتألم وينظر إلى

الأفق الآخر أو البعيد، ولا يوجد عقل هو فوق وسائل الإغواء إلا إذا كانت توجد شهوة وجسم هما فوق وسائل الإغراء. إن ضلال العقل عمل من أعماله كما أن افتتان الجسد عمل من أعمال الجسد. والمنطق كيفما كان لا يمكن أن يكون فوق الضلال أو الفتنة أو الغواية، إن المنطق ليس إلا شهوة بل ليس إلا غواية جاء في أسلوب تبرير وتفسير واستدلال، أي جاء في أسلوب دفاع.

إننا لا نستطيع أن نرتفع فوق غوايات الدعاية التي تجيء تخاطب فينا احتياجات الحياة واحتجاجاتها ومشاكلها المتكاثفة، ولا يمكن أن ننتصر على كل الدعايات إلا إذا كان ممكناً أن ننتصر على كل المشاكل والهموم والاحتجاج والتطلع والغضب والشوق والشهوات والضعف والحقد والبغض. إن الدعاية سهم - مهما كان طائشاً - يجد دائماً هدفه في عقل الإنسان أو في حبه أو في كراهته أو في حقده أو في ظروفه أو في مصلحته أو كبريائه أو في وضعه الطبقي أو التاريخي أو الطائفي أو في غير ذلك. وإذا كانت هذه كلها أهدافاً صالحة للدعاية فما أصعب ألا تقتل الدعاية كل الناس أو تصيبهم بالجراح - ما أصعب ألا تصيب الدعاية كل هذه الأهداف الكثيرة العارضة نفسها لكل الرماة، أو ألا تصيب منها شيئاً.

إن الأذن طريق جيد إلى العقل بقدر ما هي طريق جيد إلى العاطفة والشهوة والهوى. إن المشكلة في هذا أن أحكام الإنسان العقلية ليست منفصلة عنه إلا باعتباره كائناً مريداً مخدوعاً يبحث عن ذاته بحواسه التي إحداها أذناه. والطريقة الجيدة لحماية أنفسنا من أراجيف الدعاية وأسلحتها المسددة إلينا من كل أفق هي أن نكون معصومين من تصديق أي شيء يقال أو يكتب، أما إذا كنا دائماً مستعدين لأن نصدق ونكذب، أي لأن نصدق شيئاً ونكذب شيئاً - أي إذا كان يوجد دائماً ما يمكن أن نصدقه وما يمكن أن نكذبه فالمظنون أن البشر لن يتوصلوا إلى اختراع جهاز يعرفون به ما هو صادق وما هو كاذب، ولا متى يجب أن يصدقوا ولا متى يجب أن يكذبوا.

إن أسوأ الأشياء أن الإنسان منذ بدأ يتلقى المذاهب والشعارات قد ظل ميداناً مكشوفاً أمام التصديق والتكذيب وأمام الصدق والكذب بنسبة واحدة - ظل ميداناً لا حراسة عليه أمام جميع المعلمين والطغاة والثوار المفترسين المحاربين لذكائه. وتصديق الناس وتكذيبهم للأشياء وقبولهم للدعاية ورفضهم لها ليس خاضعاً للمنطق ولا للحق أو الباطل، بل ليس متأثراً بذلك أي تأثر. إن الناس قد يصدقون دعاية ما بنفس الاقتناع والحماس اللذين قد يصدقون بهما نقيضها، أو بنفس الحماس والاقتناع اللذين يكذبون بهما، إنهم قد يصدقون أسخف الدعايات وأكذبها وقد يكذبونها، كما قد يصدقون أفضل الدعايات وأصدقها وقد يكذبونها.

لقد وجدت في كل العصور كل الدعايات والمذاهب المؤمنين بها والمكذبين لها. وليس في

التصديق أو التكذيب لهذا أو هذا ذكاء أو غباء، فضيلة أو رذيلة، إنها ضربات قدر تتوزع متهاوية في الظلام، وضربات حظوظ غير عادلة أو ذكية تتساقط على الأشياء. إن الناس يسقطون على المذاهب والنظم والأرباب والزعماء سقوطاً كسقوط الرياح على الشجر والبيوت، ولا يهتدون إليها اهتداء، أو أن المذاهب والنظم والأرباب والزعماء هم الذين يسقطون على الناس ولا يجيئون إليهم بمنطق وتدبير وتوزيع حكيم بحثاً عما يصلحهم وينفعهم. وإذا وجد في عصر من العصور اتجاه غالب أو قوي إلى تصديق دعاية مذهبية معينة، واتجاه إلى رفض الدعايات المذهبية الأخرى المناقضة لها فالسبب الظروف والشعارات المذهبية التي تكون مقبولة ومغرية في عصر من العصور، ومرفوضة في عصور أخرى، وليس السبب هو المنطق أو القدرة على التمييز بين مزايا الدعايتين أو المذهبين. فالإنسان يدين بهذا المذهب أو المذهب النقيض بنفس مستويات الذكاء والفضيلة التي يكون بها مواطناً في هذا البلد أو مواطناً في البلد الآخر. إنك لا تكون ابناً لفلان أو مولوداً في هذا المكان لأنك ذكي أو غبي، خير أو شرير، وكذلك لا تكون من أتباع هذا المذهب أو هذا الإله أو هذا الزعيم لأنك تعرف كيف تختار أو لا تعرف، ولا لأنك أردت أو لم ترد، ولكنها ضربات وحظوظ وظروف تجيء بلا نظام أو منطق أو عدل، فتبدو لنا أحياناً جيدة وأحياناً أخرى غير ذلك.

*

لا يعني الآخرون الذين تطلق عليهم الدعاية في حساب آلهة الدعاية شيئاً أكثر من أنهم أدوات أو موضوعات لعبث ونشاط وجوع هؤلاء الآلهة. إن هؤلاء الآلهة لا يعنون حينما يطلقون أسلحة دعايتهم المذهبية على مجتمع من المجتمعات أفضل مما يعنيه صاحب القطيع حينما يذهب يغني لقطيعه أو يذهب يرعاه أو يضربه بالسوط. إن صاحب القطيع ليس نبياً أو نبيلاً حينما يحدو لقطعانه أو يسوقها أو يبحث لها عن العلف والمأوى واللجام، وكذلك صاحب الدعاية المذهبية أو الثورية ليس نبياً أو نبيلاً حينما يقدم مذهباً أو شعاراً أو إلهاً أو ثورة لمجتمع من المجتمعات لتكون له قيداً أو لجاماً أو مأوى عقلياً.

إن الدعاية عمل فردي أو شبه فردي في حوافزها وأهدافها، وهي عمل جماعي أو شبه جماعي في أسلوبها وموضوعها. والأوهام والأحقاد المذهبية والانقسامات التاريخية العظمى المستعصية على العلاج ليست إلا محصولاً شريراً لهذه الخطيئة. فالدعاية هي التي قسمت البشر تقسيماً مذهبياً ودينياً واعتقادياً، وهي التي لها اليد الطولى في زرع البغضاء ونشر الخرافة وتجميلها وتوكيدها في التاريخ وبين الناس، أو هي أحد الأسباب القوية لكل ذلك.

والذين صنعوا هذا هم آحاد، آحاد زرعوا أنفسهم في أرض الإنسان وعلى جنبات التاريخ فأنبتوا له كل هذه الآثام، أنبتوها في سلوكه وإحساسه وتاريخه، ثم أقاموا عليها حراسة هائلة

من المذاهب والآلهة والتقاليد والمثل. وهؤلاء الآحاد هم الذين يخلقون الآلام والمشاكل والأخطاء المذهبية والوطنية، ثم يسوغون وجودهم وبقاءهم والاحتياج إليهم بها - أي بهذه الآلام والمشاكل والأخطاء - إنهم يصنعون الشيء ثم يذهبون يعالجونه بمضاعفته ومضاعفة أسبابه، هم يعالجون الخطيئة بالطريقة التي صنعوا بها الخطيئة، ويعالجون ما تصنعه الدعاية أو ما يصنعه الزعماء بالمزيد من الدعاية ومن الزعماء، يعالجون الآلام والمشاكل بأن ينموها ويحركوها ويضيفوا إليها آلاماً ومشاكل أخرى. لقد خلقتهم المتاعب والأزمات ليخلقوا هم المتاعب والأزمات، إنهم يعالجون المجتمعات منهم بهم. كانت الآلام هي التي خلقت الزعماء والدعاة، والزعماء والدعاة هم ممن يخلقون الآلام. ينحدرون إلى البشر مع اليأس والعجز والقلق والخوف والبغضاء والمشاكل المستعصية لكي يكونوا أدوات جديدة وجيدة لكل ذلك. لن يوجدوا لولا الألم والمشكلة، ولن يوجد الكثير من الآلام والمشاكل لولاهم.

إن الدعاة والزعماء هم الداء الذي يراد منه أن يكون دواء، وإنهم هم العدو الذي يزعم لنفسه أنه الحامي من الأعداء. ليسوا أطباء تخلقهم الضرورة، بل هم مضاعفات وأعراض لما لا بد أن تعاني منه كل المجتمعات لأنها مجتمعات، وليسوا احتياجاً ولكنهم استغلال للاحتياج.

هل هم أذكياء وأقوياء، هل هم أغبياء وضعفاء؟ إن كانوا أغبياء وضعفاء فكيف إذن انتصروا وتفوقوا وحكموا وخلدوا؟ وإن كانوا أذكياء وأقوياء فويل للإنسانية إذن من الأذكياء الأقوياء. ولكن ألا يمكن أن يكون في هؤلاء المخربين المتعبين ما يقدم الحياة أو ينفع البشر؟ إننا مطالبون بأن نحارب الغباء والألم والخطأ والضعف أي ما نعتقده كذلك، ومع هذا أفليس من الممكن أو المحتوم أن يكون في بعض ذلك أي في بعض الغباء والخطأ والألم ما يبني الحياة ويهبها قوتها وتفوقها؟ أليس في ذلك ما يهب الحياة ألوانها ومذاقاتها وقدراتها على الحركة والاحتجاج والإبداع؟ أليست الحياة ألماً وجنوناً وخطأً كما هي لذة وعقل وصواب؟ أليست تناقضاً ونزاعاً واشتباكاً دائماً كما هي ليل ونهار؟

أو ليس الطغاة والمعلمون المضللون الذين يعذبوننا ويطلقون فينا الاشمئزاز والغضب والاحتجاج يصنعوننا ويصنعون الحياة كما يصنع الأخيار أو أكثر؟ ليس الخطر هو وجود الطغاة والمعلمين الأغبياء المنافقين، بل الخطر هو أن ينتصروا علينا ويخدعونا ويهزموا فينا الشجاعة والذكاء، ونصبح لهم أعواناً ودعاة وعبيداً مخلصين بالخديعة أو الخوف. ولعل الحياة من غير أشرارها الكبار تساوي الحياة من غير أخيارها الكبار.

في بعض الآلام الكبرى من القدرة على تحريك الموكب الإنساني أكثر مما في كثير من اللذات. والبشر في كثير من وثباتهم مدينون لأخطائهم وهمومهم الشجاعة الخلابة. إن الحماقة النابضة الجريئة أفضل في حساب التطور من الحكمة المحتشمة المستلقية بوقار على فراش الذكاء

والتأني المهذب، إن حاجة الحياة إلى مجاديف وإلى أيد تجدف بقوة، فالذي يعطيها هذا هو الأفضل. لقد ركبت الحياة تركيباً ليس أخلاقياً ولا منطقياً بل ولا ذكياً، لهذا فالشرور والأخطاء تصنعها وتطورها وتحركها كما يصنعها ويطورها الخير والصواب.

ومع هذا فالذي يجب علينا شيء آخر.

*

أما في هذا العصر فقد أصبحت الدعاية غابة رهيبة، تسكنها وحوش مدربة على الافتراس والقتال، لا حدود لقدرتها وبذاءاتها.

إنه ليجب أن نتعجب كيف أمكن أن يبقى للناس شيء من العقل أو الوقار أو الاحترام لشيء أو الإيمان بشيء، كيف أمكن أن يظلوا يجدون أنفسهم ويعرفونها ويرونها حينما نستمع إلى كل هذه الأجهزة الضاجة المتحاربة بكل هذه الدعايات المتناقضة المنطلقة من كل بلد، متحدثة عن كل مذهب بكل لغة، بكل أسلوب، بكل صراخ، بكل جنون، بكل بذاءة، بكل إغراء، بكل حجة ومنطق؟ كيف لم يصب الناس جميعاً بالجنون؟ هل هي بلادة أم قوة أم رفض لكل شيء؟ أليس من المحتمل أن قوة الدعاية قد تحولت إلى ضعف فيها؟ لعل الناس جميعاً قد رفضوا التأثر بها واحترامها لما جربوا عليها من صفاقة ومضايقة وإلحاح وعذاب لهم، ولكثرة ما وجدوا فيها من تناقض وفحشاء وأكاذيب ونفاق. لعل الدعاية قد تعاظمت حتى صغرت وهانت.

لو كان قد بقي للإنسان عقل يتأثر بأي شيء فكيف يمكن أن نتصور هذا العقل وكل الخصومات والمذاهب والشعارات والدعايات المتعارضة المتقاتلة تهاجمه من كل مكان، وعلى كل الأبعاد، في كل الأوقات، بكل الأساليب، بأعلى الأصوات؟ وهل يمكن أن يبقى إنسان ما حياً لو أن جسده قد أصبح هدفاً قريباً مكشوفاً تطلق عليه كل الأسلحة، من كل الأنواع والأحجام، من كل الجهات، في كل الأوقات، على كل الأبعاد، بكل الأيدي الضاربة البارعة؟

قد تكون الحقيقة أن الناس قد توزعوا على المذاهب والدعايات والنظم كتوزعهم على الأرض والأديان، فمن وقع منهم في قبضة دعاية أو مذهب أو دين أو نظام أصبح مغلقاً دون المذاهب والدعايات والأديان والنظم الأخرى المضادة، وهذا يجعل الدعاية شيئاً لا يعني شيئاً. إن كل دعاية ومذهب ونظام ودين يحمي نفسه والمؤمنين به من نقيضه، إذن كأن كل دعاية تساوي لا دعاية، أي كأن كل دعاية لا تأثير لها البتة ولا خطر أو خوف منها، لأنها سوف توجه إلى قوم خاضعين لدعاية أخرى ومشغولين بمذهبهم أو عقيدتهم أو نظامهم أو زعيمهم أو إلههم عن أي نقيض آخر، فلا قيمة حينئذٍ لذلك النقيض أو لتلك الدعاية التي سوف تحاول

التبشير بذلك النقيض أو البديل. ولهذا فإن كل شيء مستقر في مكانه مع كل ما في الأرض من تفجرات دعائية رهيبة ودائمة.

ولكن هل هذا صحيح؟ إذن لماذا نجد الناس دائماً وفي كل العصور والمجتمعات ينتقلون من مذهب وعقيدة إلى مذهب وعقيدة أخرى، ولماذا نجد مذاهب وآلهة وعقائد ونظماً كثيرة تولد من جديد وتنتصر وتطرد الآلهة والمذاهب والنظم والعقائد التي كانت قبلها، ولماذا تتعدد هذه الآلهة والعقائد والنظم والمذاهب، ولماذا تموت على مر التاريخ؟

ولكن لعل الناس لا ينتقلون في الغالب من مذهب إلى مذهب ولا يستجيبون لأية دعاية مهما بدا أنهم يفعلون ذلك، ولكنهم يلقون إلقاء في المذاهب والدعايات كما يلقون في المقابر، أو لعلهم يجدون أنفسهم فيها كما يجدون أنفسهم في زمانهم وظروفهم ومجتمعاتهم وهمومهم. ولعل الذين يؤمنون بمذهب من المذاهب لا يؤمنون به لأن دعاية قد أطلقت عليهم، بل إنهم سيؤمنون بما آمنوا به بلا دعاية، بل يؤمنون به حتى ولو كانت الدعاية ضد الإيمان به، كما أن الذين يستحدثون مذهباً أو إلهاً ما، يستحدثونه قبل أن تكون له أية دعاية.

وإذا كان للدعاية خطورة فإن أخطرها هي دعايات الثوار والطغاة وأصحاب المذاهب المتعصبة، إن الدعاية عند هؤلاء أسلوب مثالي من أساليب الجنون والوقاحة والعدوان والبذاءات والكذب والتوتر والافتضاح العقلي والأخلاقي. إن الأجهزة الدعائية لدى الثوار والطغاة والمذهبيين المتعصبين أجهزة مقدسة، يرخصون كل شيء لحسابها ويعولون عليها كل التعويل لخديعة المجتمع ولقهر الخصوم المنافسين، ويتعرون أمامها بكل ما فيهم من عيوب وتشويهات ورغبة في الافتضاح، إن هؤلاء يعولون على الدعاية كما يعول قائد الجيش المحارب على ما لديه من جند وسلاح وقسوة وجنون ومكر لسحق الأعداء، ولا حساب للصدق أو الكرامة أو العدل أو النبل أو الأخلاق في البحث عن الهدف والانتصار. إن الدعاية في سلوك هؤلاء وحسابهم حجارة تلقى وتضرب وتحطم، إنها نوع من الحيوانية البذيئة، هي حيوانية يهبط إليها ذكاء الإنسان وأخلاقه، وليست حيوانية ترتفع إلى ذكاء الإنسان وأخلاقه. إن دعاية الثوار والقادة والمذهبيين المتوترين حجارة ترجم ذكاء الإنسان وكرامته وتهبط بكل مستوياته، إنها جنون ذاتي يتحول إلى جنون مذهبي، وإنها بذاءة فرد تتحول إلى بذاءة مجتمع.

*

كل الدعاية في كل التاريخ في كل المجتمعات إلى كل المذاهب والعقائد والنظم والأرباب والزعماء لا تعني إلا مدح الشيء وذمه، والتدليل على المذهب وعلى المذهب المناقض له، وهدم البيت وتشييده، وتشييده وهدمه، وجرح الجسم ومداواته، ومداواته وجرحه، والقتل والإحياء، والإحياء والقتل في وقت واحد لشيء واحد، إنها الشيء وضده. معنى الدعاية أن يقوم خطيبان

في مكان واحد وزمان واحد أحد الخطيبين يدعو إلى الشيطان والآخر يدعو إلى الله، أحدهما يمدح الله والآخر يذمه، أحدهما يذم الشيطان والآخر يمدحه.

إذن فالدعاية أبهظ عملية لا تعطي شيئاً، تأخذ شيئاً كثيراً ثم لا تعطي ولا شيئاً قليلاً. أنت مثلاً تمدح هذا المذهب وتدعو إليه، ومخالفك يذمه وينهى عنه، ويدعو إلى مذهب نقيض له، والذم والمدح، أي الشي ونقيضه موجهان إلى إنسان واحد أو إلى الإنسانية كلها. إن أفضل وأعقل من ذلك ألا تمدح أنت وألا يذم مخالفك، ألا تسمع الإنسانية الدعاية إلى الشيطان والدعاية إلى الله، أو ألا تسمع مدح الله وذمه أو ذم الشيطان ومدحه.

وعلينا هنا ألا نخدع أنفسنا بأن نزعم أن الدعاية حينئذٍ تصبح شيئاً واجباً ونافعاً جداً لأننا من خلال الدعايات المتناقضة سنستطيع أن نعرف أفضل المذاهب والعقائد والأرباب والنظم، فالدعاية لا تجعلنا نعرف ولكنها تقهرنا أو تفرض نفسها علينا أو ترهقنا، فنؤمن بها تعباً وفراراً من المقاومة، حتى الذين يؤمنون بأفضل المذاهب والعقائد والنظم والآلهة لا يؤمنون بها لأنهم عرفوا مزاياها من الدعاية، بل لأنها فرضت عليهم فرضاً أو وجدوا أنفسهم فيها أو سقطت فوقهم أو سقطوا فوقها.

وهنا نصل إلى السؤال الخطير: «هل يمكن أن يحيا الإنسان بلا دعاية»؟ نعم يمكن أن يحيا وأن يحيا أفضل. فلو أن كل الأجهزة الدعائية في كل الأمم ولدى كل الزعماء ولكل المذاهب وفي كل التاريخ قد ألقي بها وبمن يعملون من ورائها إلى الجحيم لما خسرت الحياة أو الإنسانية شيئاً بل لربحت شيئاً كثيراً. وأي ربح لك أو لي أو للإنسانية في أن تمدح مذهبك وإلهك وتشتم مذهبي وإلهي، وأن أفعل أنا نفس الشيء؟ إن الدعاية في كل ظروفها لا تعني إلا أن تفضل نفسك على الآخرين، أو أن تمدح نفسك وتذم الآخرين. وليس في هذا فخر لأي إنسان.

*

هل الشرف ضد الحياة أم الحياة ضد الشرف

«الشرف هو أن تحتقر زعماءك ومذاهبك وتعاليمك لأنها تعلمك البغض والتعصب والوحشية ـ هو أن تقتل إلهك المعتدي دفاعاً عن إله خصمك المعتدى عليه ـ هو أن تقبل الموت مصلوباً على صليب مات فوقه جميع أبنائك ولا تقبل أن تقول أو تسمع كلمة نفاق في طاغية ماتت كل الحريات مصلوبة فوق جبهته البذيئة، أو كلمة غزل ديني في خالق ذباب أو في معلم يتحدث بورع ونبوة عن الجمال والحكمة والرحمة والقيم الإنسانية المخبوءة في خلق الذباب ـ هو أن ترفض الجلوس إلى مائدة تحوم حولها ذبابة مهما قتلك الجوع، وأن تعجز عن الابتسام والمسرة ما دام يوجد فوق الأرض بل أو فوق النجوم كائن واحد يبكي ويتعذب ويظلم ويعاني من الشعور بالحقارة والضياع، وما دام يوجد في أي مكان من العالم إنسان واحد متسلط تتغذى كبرياؤه وأحقاده بآلام المجتمع وهوانه ـ هو ألا تستطيع الأكل من مائدة عليها لحم أي إنسان، أو أن تصافح أية يد ضربت وجهاً وأمسكت سوطاً، أو أن تعيش في وطن يحكمه صعلوك من صعاليك المذاهب، تسجد له الجباه والعقول، وتمجد أخطاءه وحماقاته جميع المنابر والمعابد، وتصلي له جميع المصاحف والأناجيل بلا إيمان أو طهارة.

فهل يوجد إنسان واحد يرتفع إلى هذا المستوى ليكون شريفاً؟ وهل يستطيع أي إنسان أن يجمع بين الشرف والخبز في وجبة واحدة؟».

*

كيف حدث هذا أو لماذا حدث ـ كيف أو لماذا حدث إن كان جميع الناس في جميع العصور تحت جميع المذاهب والعقائد والنظم يدعون إلى شيء يفعلون دائماً نقيضه، ويفعلون دائماً شيئاً يدعون إلى نقيضه؟ كيف أو لماذا هم جميعاً يمجدون فضائل الصدق والنزاهة والحب والإيثار والشرف وكل الفضائل الأخرى التي لا يفعلونها ولا يشتهونها، ويلعنون الرذائل المقابلة التي يفعلون ويشتهون؟ كيف حدث ويحدث هذا في كل عصر ومجتمع؟ لماذا كان هذا التناقض والانشقاق داخل الذات وداخل المجتمع محتوماً؟

هل من المستحيل أن يفعل الناس ما يعتقدون، أو أن يعتقدوا ما يفعلون؟ هل من المستحيل أن يكون الإنسان صادقاً أو فاضلاً إذا كان مستحيلاً أن يكون الاثنين معاً، أي إذا كان مستحيلاً أن يكون فاضلاً وصادقاً؟

ما هي الأسباب الدائمة لهذا التناقض الدائم بين الناس وتعاليمهم، أو بين حياتهم وتعاليمهم؟ هل الحياة محتاجة دائماً إلى الرذائل، مستغنية عن الفضائل، أو هل ما يسمى فضيلة هو رذيلة وما يسمى رذيلة هو فضيلة؟ ولماذا سمى الناس الشيء باسم نقيضه؟ وهل هذه التعاليم خارجة على احتياجات الأحياء وضروراتهم، والتعاليم لا تستطيع أن تنتصر على الاحتياجات الطبيعية أو أن تغني عنها أو أن تلغيها أو تضعفها؟

إذن كيف ولماذا جاءت هذه التعاليم، كيف ولماذا جاءت تعاليم لا يمكن العمل بها لأنها ضد الحياة، وما هي إذن بواعث التعاليم والأخلاق؟ إن كانت بواعث التعاليم والأخلاق هي الاحتياج والضرورة فكيف إذن جاءت مقاومة للضرورة والاحتياج؟ إن كانت الفضائل من ضرورات الحياة فلماذا لا تتقيد بها الحياة، وإن كانت ضد الحياة فلماذا جاءت ومن الذي أوحى بها، وهل الإنسان ضد الحياة، وإذا كان ضد الحياة فلماذا يحيا وكيف يحيا؟

هل الفضائل والتعاليم ضد البشر أم البشر ضد الفضائل والتعاليم؟ إذا كان الأمر هذا أو هذا فلماذا دعوا إليها أي إلى الفضائل والتعاليم؟ لماذا يدعون إليها إذا كانت ضدهم أو كانوا ضدها، هل البشر ضد الحياة أم الحياة ضد البشر؟

وإذا كان الناس جميعاً محتاجين إلى الخطيئة، ولا يحيون أو يسعدون إلا بها فلماذا يجمعون على تحريمها وتحقيرها، وإن كانوا محتاجين إلى الاستقامة فلماذا لا يستطيعون أن يستقيموا؟ كيف لا يتوافق البشر مع احتياجاتهم، ولماذا جاءت تعاليمهم ضدهم أو ضد احتياجاتهم؟ ولماذا يحتاجون دائماً إلى أن يقيموا سدوداً من الكذب بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين حقيقتهم؟ هل هم يخجلون أم ينافقون، وممن يخجلون ولمن ينافقون؟ كل الناس يدركون ولو بالسلوك والتجربة أنهم لا يستطيعون أن يعيشوا أو ينتصروا أو يتوافقوا مع حياتهم إلا بالرذائل التي يحرمون ويلعنون، وكلهم يفعلون تلك الرذائل على مستويات عالمية مفضوحة، يفعلها أطهر قديس كما يفعلها أصغر إنسان يكسب حياته من الوحل والتراب المبلول بأحزان التقوى. فلماذا إذن يتناقضون فيحرموها ويجعلوها رجساً يتعلمونه ويتعلمون كيف يعلمونه؟ هل هم محتاجون إلى أن يخجل بعضهم من بعض وينافق أو يخدع بعضهم بعضاً؟ وهل يخجل العراة بعضهم من بعض إذا كانوا كلهم قد ولدوا عراة وعاشوا عراة ولم ير بعضهم بعضاً إلا عراة، وولدوا جميعاً من آباء عراة؟ وهل توجد أحاسيس الخجل من شيء يفعله الجميع دائماً جهرة وفوق أعلى المنابر وفي السوق والمعبد والبيت وأمام كل الناس، ولا يستطيع أحد أن

يستغني عنه؟ وهل للنفاق في مثل هذه الظروف ثمن أو رسالة أو وظيفة؟ إن النفاق لا يكون معقولاً أو واهباً شيئاً إلا إذا كان يستطيع أن يخدع أو يرضي من يستعمل ضده أو من يستعمل له. ولكن هل يوجد من يمكن أن يخدعه النفاق عن جهل به؟

إن من يوجه إليه النفاق هو أيضاً ينافق، إذن لا بد أن يعلم أن الآخرين هم مثله أيضاً ينافقون، وكل الناس ينافقون وهو يعلم أنهم ينافقون، ينافق بعضهم بعضاً، كل يفعل النفاق وكل يفعل به النفاق، كل الناس منافق منافق به، ليس في الناس منافق فقط أو منافق به فقط، بل الجميع منافق منافق به. إذن لا بد أن يعرف كل إنسان مهما كان حظه من الغباء عظيماً أن الآخرين ينافقونه هو أيضاً حينما يعرضون أنفسهم أمامه، كما ينافقون الآخرين، وكما ينافق بعضهم بعضاً وكما ينافقهم هو حينما يعرض نفسه أمامهم.

ثم كيف يمكن أن يكون النفاق بادعاء الفضائل مقبولاً أو مريحاً حتى ولو أمكن تصديقه والانخداع به؟ إن النفاق في معناه عملية مجاملة وترضية وامتداح الآخرين وإن كان في ظاهره عملية خداع. فهل يمكن مجاملة الناس أو استرضاؤهم أو امتداحهم بفعل الفضائل أو ادعاء فعلها، كالنزاهة والعدل والصدق والشجاعة والشرف والاستقامة؟ إن هذه المزايا هي ضد الناس، أي ضد حياتهم وشهواتهم ومصالحهم ومسراتهم، فالاستمساك بها لو حدث يغضبهم ويؤذيهم ويدمر مصالحهم. فكيف يسترضون بفعلها أو بالوعد بفعلها؟ إننا لو عاملناهم بها لأصبحنا شر أعدائهم المهددين لهم. ونحن لا نتوافق مع الناس إلا بالخروج على الفضائل والتعاليم، وهم كذلك لا يتوافقون معنا إلا بالخروج عليها.

إذن كأن النفاق لا يعني شيئاً مهما تعامل به الناس، وكأنه لا يعني أكثر من أن يقول المنافق للآخر الذي يوجه إليه نفاقه: أنا أنافقك بلا معنى وأنت تقبل نفاقي لك وتحترمه وتفرح به بلا معنى أيضاً، وأنت كذلك تفعل نفس الشيء معي ومع الآخرين. كأن الناس لا يبحثون عن الصدق في النفاق بل عن دلالته، كأنهم يريدون من يقول لهم: أنا أخافكم أو أرجوكم أو أهابكم وأحترمكم، لهذا أنافقكم، ولا يريدون من يقتنعون بصدقه حينما ينافقهم. إن المنافق يقول لمن ينافق له: أنا أخافك وأرجوك وأبحث عن رضاك. وهذا هو الذي يجعل النفاق شيئاً مطلوباً، وليس شيئاً مطلوباً لأنه يخدع أو يقنع.

إن النفاق نوع من التحية بكلمات أخرى، أي بكلمات أقوى وأكثر ترضية، فالذي ينافقنا يرضينا أكثر من الذي يطلق علينا تحياته، لأنه يخافنا أو يرجونا أو يسترضينا أو يبحث عنا أكثر. بل النفاق نفاق بأسلوب آخر، فإذا نافق إنسان إنساناً أو مجتمعاً فكأنه يقول: أنا لست صادقاً فيما أقول ولكني أريد أن تفهم أني محتاج ومتودد إليك وباحث عن رضاك. إن من ينافق إنساناً فهو يمدحه في المعنى أو يريد أن يمدحه أو يريد أن يتظاهر بمدحه وإن كان غير صادق بل

وإن كان لا بد أن يرفضه لو كان صادقاً. إن في جميع البشر طفولة، وهم يتعاملون بهذه الطفولة مهما شاخوا وأصبحوا عظماء. والراضون بالنفاق، الباحثون عنه، الجازون عليه أطفال صغار وإن شاخوا وكبر شأنهم جداً.

إذا التقى زعيمان كبيران لدولتين عظيمتين وتحدثا طويلاً وببلاغة عن الصداقة والفدائية التي تجمع بينهما وبين بلديهما الذائب كل منهما عشقاً مذهبياً أو إنسانياً في الآخر، وعن التضحيات المخلصة التي تقوم بها كل منهما من أجل الأخرى بلا أي غرض من الأغراض الأنانية أو السياسية، وإذا تعانقا وأطالا العناق، ثم أصدرا بياناً مشتركاً تحدثا فيه عن النزاهة والحب والملائكية والبراءة العالمية ـ وإذا وقف زعيم ما على منبر دولي ليتحدث عن صداقته للبشر وعن حبه للصدق والعدل والسلام والصراحة، مقسماً بكل أساليب القسم أنه لا يريد أي مغنم لنفسه أو لبلده على حساب الآخرين ـ وإذا بكى حاكم أو قائد ما وهو يخطب في وجوم ملائكي من شدة إخلاصه لمبادئه وحبه لشعبه وفنائه فيه وسهره على مصالحه ونضاله ضد الآلام التي يخشاها عليه ـ وإذا بكت الآيات والأحاديث والمنابر رحمة بذلك الواعظ الذابل الضامر الباكي من خشية الله وحبه لعباده واتباعه لأوامره واجتنابه لاحتمالات غضبه ومواقعه.

إذا حدث ذلك فماذا يفهم الناس أو المتخاطبون أو المخاطبون به منه؟ إن أحداً ما مهما كانت كثافة غفلته لا يمكن أن يصدقه كما هو بحروفه وتوكيداته وبلاغته إلا إذا كان هو يريد لحالة نفسية أن يصدق حتى ولو لم يسمع شيئاً. إذن لماذا يقول هؤلاء هذا الذي يقولون ويبالغون في إعلانه وترديده والتذكير به؟ هل الأمر مجرد شيء يثير أعظم مشاعر التعجب؟ لعل الناس لا يكذبون أو ينافقون لأنهم يصدقون أو يخدعون أو لأنهم يؤملون أن ينالوا هذه المكانة، ولكنهم ينافقون ويكذبون دون أن يكون في قصدهم أن أحداً سوف يصدق كذبهم ونفاقهم، بل كما يتكلمون، بل إنهم يتكلمون، فالذي يكذب وينافق هو إنسان يتكلم، والمتكلم لا يعني دائماً حينما يتكلم أن يقول شيئاً أو ينال شيئاً، بل هو يعبر تعبيراً ذاتياً حينما يبدو أنه يتكلم كلاماً لا يقصد به إلا معناه القريب، معناه اللفظي بلا مجاز أو مبالغة أو ذاتية.

*

إن الكاتب أو الواعظ الذي يسيل قلمه ولسانه بأكبر وأخطر الزواجر، وتفيض عيناه بالدموع وفؤاده بالمحبة ويستحم بدنه بالعرق التقي، حماساً للحق ودفاعاً عن النزاهة والشرف والإخلاص ومحبة الآخرين والوفاء لهم، وعن العدل، وتقبيحاً للأنانية والخداع والنفاق والخنى والكذب والظلم ـ إن ذلك الكاتب أو الواعظ لا يستطيع أن يتعامل إلا مع ألفاظه فقط كأنه معلم لغة، وكأن العلاقة بينه وبين مواعظه وأفكاره ليست إلا علاقة لغوية، والحماسة التي يطلقها هي

حماسة بلاغية لا حياة فيها. وهو لا يستطيع أن يكون أفضل من ذلك مهما بلغت مواعظه وتعاليمه من البلاغة والذكاء والحماس.

إن خير الدعاة لا يمكن أن يكونوا في التزامهم لما يقولون واجتنابهم لما يقبحون، لا في سلوكهم ولا في أهوائهم أو قدرتهم النفسية، أفضل من سماسرة يتعاملون في السوق بالسباب والصراخ والأيمان المغلظة الكاذبة. إن البائعين للمذاهب والآلهة والعظات والمتعاملين مع السوق بالتعاليم، لا يستطيعون أن يكونوا خيراً أو أقوى طاقة نفسية من البائعين للبقول والملابس القديمة في حي تسكنه الخاطئات، بل لا يمكن أن يكونوا خيراً من المتاجرين بالملابس الداخلية لهذه الخاطئات.

وقد كان لي رأي سابق يذهب إلى أن الناس يفعلون ما يشعرون بالحاجة إليه متى كانوا قادرين عليه ولم يخشوا عقاباً كبيراً، ويدعون ما يعجزون عنه أو ما لا يشعرون بالحاجة إليه، ولا سلطان للتشريع عليهم، لا سلطان للتحليل أو للتحريم، والتشريع نفسه إنما جاء استجابة لقدرتهم وأهوائهم، لا نقيضاً لها أو خروجاً عليها. وكنت أقول: ماذا لو جاءت التعاليم بعكس ما جاءت به ـ ماذا لو جاءت تأمر بالفساد وتنهى عن الاستقامة، تأمر بالظلم والقتل والسرقة ـ هل كان يمكن حينئذٍ أن يتغير الوضع، هل كان يمكن أن يكون الناس غير ما كانوا؟ أو لو أن الأنبياء والمعلمين والمصلحين والخطباء قد جاؤوا أكثر مما جاؤوا، أو لو جاءت بلاغتهم أقوى مما جاءت، أو لو كانت تعاليمهم وكتبهم المنزلة أكثر أو أطول أو أشد حماسة، هل يجيء التأثير حينئذٍ أقوى ويرتفع الناس إلى السماء أكثر مما ارتفعوا، ويستقبحون مذاق التراب أكثر مما استقبحوه؟ إنهم حينئذٍ لا بد أن يفعلوا عند القدرة والاحتياج والملاءمة ولو نفسياً ويتورعوا عند العجز والاستغناء والتنافر. بل قد يتغير الموقف على نحو آخر، فقد يكون شوق الناس إلى ما ينهون عنه أصدق وأعنف، ولعلهم يشتهون ما يحرم عليهم أكثر من اشتهائهم لما يلزمون به، قد يكون النهي والتحريم من أدوات التحريض والإغراء، وقد يكون اقتحامنا لما ننهى عنه أسلوباً من أساليب إثباتنا لأنفسنا ومحاباتنا وتدليلنا واسترضائنا لها، قد يكون الإقدام على المحرم المنهي عنه نوعاً من التحدي والعصيان، وكل الناس يحتاجون أحياناً إلى التحدي والعصيان مهما هانوا وأطاعوا واستسلموا. إن كل إنسان لا بد أن يتلمس ـ ولو أحياناً قليلة ـ قدرته وشجاعته، وأن يجرب نفسه ليطمئن إلى أنه لم يمت بعد. ولهذا فلن يوجد إنسان لا يعصي القوة التي تحكمه وتسحقه أو يفكر في عصيانها في وقت من الأوقات بأسلوب من الأساليب.

إن كثيراً من الأشياء لا تحرك انتباهنا أو أشواقنا، ولكنها قد تصنع ذلك لو حرمت علينا وخوفنا منها وقام فينا المعلمون الفصحاء المتوترون، ينهوننا عنها ويلعنوننا لو فعلناها ويفسرون لنا ما فيها من إغراء وفتنة. ولعل الشجرة التي حرمت على أبوينا آدم وحواء البائسين فأكلا منها

متحديين لنظرات الله المحدقة فيهما، القريبة منهما لم تكن لتقدر على أن تحرك لهما شهية لو لم ينهيا عنها. إن شجرة تثير اهتمام الإله وخوفه منها حتى يحرمها ويزجر عنها لجديرة بأن تثير أعمق الأحاسيس والشهوات نحوها. لقد كان نهي الله عن تلك الشجرة في مثل تلك الظروف التي جاء فيها النهي والتي كان يعيش فيها آدم وحواء تحريضاً لا مثيل له على الأكل منها والافتتان بها. وكم كان في الجنة من الأشجار، لقد كانت الأشجار والأشياء الأخرى كثيرة وجميلة جداً في الجنة إلى المدى الذي كان يستحيل معه أن يلتفت أبوانا المفتونان إلى تلك الشجرة الحزينة لو لم ينبها إليها بالنهي عنها. ولعل الإله لحكمة بالغة كان يريد أن يأكلا منها، لهذا نهاهما عنها، لأنه كان يعلم أن من المستحيل أن يفطنا إليها أو يباليا بها لولا هذا النهي الذي هو بمعنى الأمر والتحريض.

إن تحريم الأشياء يغير مشاعرنا نحو تلك الأشياء، فتحريم الشيء يعني الاهتمام الكبير به. إن الناس لو نهوا عن سلوك طريق لا يحتاجون إليه، وأمروا بسلوك طريق يحتاجون إليه ويسلكونه لكان محتملاً أن يتغير إحساسهم نحو الطريقين وأن يجدوا حافزاً يلح عليهم بأن يجربوا ويتحرروا من الأوامر والنواهي. إن للمعصية إغراء يهون عنده ابتلاع شفرات السيوف، ومذاقاً يستطاب من أجله اقتحام النيران. لقد كان البشر في جميع العصور يتحدون الخوف من الآلهة والجحيم وكل عقاب تحت بريق المعصية وأمام ابتسامة الشيطان الآمرة الملهمة. لعل الملاءمة بين الناس وبين ما ينهون عنه أكثر من الملاءمة بينهم وبين ما يؤمرون به، ولعلهم خلقوا عصاة أكثر مما خلقوا مطيعين، ولعلهم لو لم ينهوا عن طاعة الشيطان ـ بهذا التكرار والحشد والتجنيد التاريخي العالمي ـ لكان حظه فيهم وفي طاعتهم له أقل جداً. إن النهي عن الشيء تذكير به وشعور بالحاجة إليه. وهل يمكن أن ننهى عن شيء لا نشعر نحوه بالإغراء؟ إنه لا تحريم لشيء بلا شوق إليه. إذن فالذين يعلموننا اجتناب المعصية ويدعوننا إلى اجتنابها إنما يعلموننا البحث عنها، أو يدللون على أن هذه المعصية حاجة لهم ولنا!

لماذا جاءت إذن المواعظ والتعاليم والمعلمون؟ هل جاؤوا لينهوا أم جاؤوا ليأمروا، أم جاؤوا فقط بلا معنى أو قصد؟ وهل جاؤوا وهم يعرفون ماذا يعني ويعطي مجيئهم؟ ليست القضية أن هؤلاء المعلمين لا يستطيعون أن يحولوا تعاليمهم ونبواتهم وفلسفاتهم إلى سلوك للبشر، بل القضية أن تحويل هذه التعاليم والنبوات والفلسفات إلى سلوك إنساني هو ضد الحياة والإنسان وضد المعلمين والمشرعين والأنبياء أنفسهم. إذن لماذا جاؤوا يعلمون ويشرعون، وهم أولاً لا يقدرون أن يصنعوا في حياة الناس أو في أهوائهم شيئاً، وهم ثانياً لو كانوا يقدرون لكان ذلك خطراً على الإنسان وعلى حياته؟ ولكن هل هم يعلمون هذه الحقيقة؟

لعلهم بغرور كبير يحسبون أنهم هم الذين يصوغون الحياة الإنسانية بكل أبعادها وصورها،

وإن كانوا يعلمون تلك الحقيقة فلعلهم لم يكونوا يعنون بتعاليمهم شيئاً، ولعلهم وهم يعلمون الناس لا يخاطبون الناس وإنما يخاطبون أنفسهم بصيغة الخطاب للناس، وقد يكونون في ذلك كالذين يخاطبون النجوم والرياح والأنهار والبحار وديار الأحباب وآثارهم، إنهم لا يريدون بذلك أن يسمعوا أحداً أو يعلموه، ولكنهم قوم يعبرون عن أنفسهم أي تعبير، ويطرحون مشاعرهم وهمومهم في الطريق لتقاتل وتخاصم قوماً ليسوا أعداء ولا خصوماً، ولعل تعليمهم للناس نوع من مشاتمتهم ومضاربتهم، أي لعله مجرد اشتباك بهم ومبارزة لهم.

إن الداعية حينما يقول: أيها الناس اصدقوا ولا تكذبوا، أو أحبوا الآخرين كما تحبون أنفسكم، أو أحبوا أعداءكم، أو اعدلوا، أو ضحوا بأنفسكم، اجتنبوا الأنانية واشتهاء الحرام، هو كالذي يقول: أيها القمر كن شهماً نبيلاً، وكن حراً ثائراً، وارفض بكبرياء عملك المهين ـ إني لألعنك أيها القرص البليد وأحتقرك حين أجدك معتقلاً في سمواتك بلا مقاومة، تبتسم ببلادة إلى كل هذه الآلام والمظالم والعبث والتفاهات التي تقترف كل وقت تحت ضوئك المسروق، وتحت ابتسامتك النائمة المحابية لغباء الكون وفسوقه، كأنك لا تغار ولا تغضب ولا تفهم أيها القمر، كم أنت ذليل أو حكيم، إن حقارة الطغاة لا تثيرك، فكم أنت حليم أو عميل متؤامر مع الطغاة والطبيعة ضد الإنسان وضد الفضيلة.

إن الذي يقف في الطريق العام ليلاعن الناس ويقاتلهم بيديه هو كالمعلم والداعية الذي يذهب يقاتل المجتمعات ويشاتمها بتعاليمه وعظاته، فالمعلمون والدعاة قوم يقاتلون الناس ويلعنونهم بأسلوب آخر، ولكن بالحوافز نفسها. لست أعلم أنه يوجد أي شك في أن أي مفكر أو أديب أو معلم يضع كتاباً يبكي فيه على القيم والأخلاق الضائعة، ويعلم فيه أعلى المستويات الإنسانية لا يعني أن يتحول ما كتب إلى سلوك للناس بل ولا يفكر في ذلك، كما لا يعنيه أو يرضيه، بل إنه لا يفكر هل يمكن أن يكون لكتابه أو فنه أي تأثير، وهل لو التزم الناس ما يدعو إليه ارتفع بحياتهم أو هبط بها. إن ذلك المفكر أو الأديب أو المعلم ليس له من هدف أو رسالة أو اهتمام أكثر من أن يكتب ويقول ما قال وما كتب ـ إنه ليس إلا إنساناً ذاتياً يبكي أو يغني لنفسه بصوت يسمعه الآخرون أو يريد أن يسمعه الآخرون. ولا يوجد فرق في النية أو الوظيفة بين من يغني أو يبكي وبين من يعلم، لا يوجد فرق في الحافز أو في النتيجة بين المغني والباكي والنبي والداعية، كما لا يوجد فرق في النتيجة أو الحافز بين من يغني حيث يسمعه الناس ومن يغني حيث لا يسمعه أحد، أي بين من يغني بلا صوت أو بهمس ومن يغني بأعلى الأصوات.
إن تعليم المواعظ والنصائح ليس إلا بكاء أو غناء جاء في صيغة الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم. والذين يستجيبون للتعاليم الأخلاقية ـ أي حينما يبدو أنهم قد استجابوا لها ـ هم قوم يفعلون الضرورة لا الفضيلة، ويستجيبون لظروفهم وحالاتهم النفسية والاجتماعية لا لتعاليمهم.

فالذين يصدقون أو يدافعون عن الحرية والعدالة أو يضحون بأنفسهم في موقف نعده نبيلاً لا يفعلون شيئاً من ذلك لأنه فضيلة أو واجب، ولكن لأنه احتياج وضرورة، أو موقف نفسي. ومن المحتوم أن يفعلوا هذا الذي يفعلون حتى ولو حرم عليهم ونهوا عنه حينما تكون الظروف مماثلة، إنهم يصنعون الكذب والخديعة والنفاق والظلم بالمشاعر التي يفعلون بها الفضائل المضادة.

من الممكن افتراض هذه التعاليم أمنية لا تعاليم، ولكن من الذين يتمنونها ولمن يتمنونها؟ وهل نتمناها لأنفسنا أم للآخرين؟ إن كنا نتمناها لأنفسنا فلماذا لا نحافظ عليها، وهل نخاف على أنفسنا مما نتمناه لها؟ والجمع بين التمني والترك لا يكون إلا حين العجز ولا عجز هنا. وأما إن كنا نتمناها للآخرين فكيف نتمنى للآخرين ما لا نتمنى لأنفسنا؟ إذن كأن التمني هنا لا يعني معناه، وكأن التعاليم حينئذٍ نوع من السلاح يقاتل به الدعاة والمعلمون أتباعهم، وكأن كلمة «علم أو وعظ» لا تعني إلا ما تعنيه كلمة «حارب أو آذى»، وكأن كلمة «علمت الناس» لا تعني إلا معنى كلمة «علمت ضد الناس».

وهنا أجدني أعود إلى ما سبق لكي أتساءل هذه التساؤلات:

أولاً:

إن كانت التعاليم الأخلاقية في مصلحة الحياة فلماذا لا تتقيد بها الحياة، وإن كانت في غير مصلحتها فمن أين جاءت ولماذا جاءت، ومن هم الأحياء الذين يبتكرون تعاليم مناوئة للحياة؟ وكذلك إذا لم تكن التعاليم لا في مصلحتها ولا ضدها فلماذا جاءت وكيف جاءت؟

وحتماً سيوجد من يقولون هنا: إنه دائماً توجد أشياء كثيرة هي في مصلحة الحياة ومع هذا لا تفعلها الحياة ولا يفعلها الأحياء بل يفعلون نقيضها. إن من مصلحة الحياة مثلاً اجتناب السكر والحقد والحسد والبغضاء، غير أن الحياة تفعل السكر وكل هذه الرذائل على مستوى عالمي. ولكن هل صحيح أن اجتناب السكر مثلاً مصلحة للحياة؟ ما هي مصلحة الحياة ومن الذي يقررها ويقدرها؟ إذا كان ذلك كذلك، أي إذا كان اجتناب الخمر مصلحة للحياة فلماذا تتعاطى الحياة الخمر وتبحث عنها بلهاث وتدين، وهل يوجد داخل الحياة قوة معادية لها تدفعها إلى أن تفعل نقيض مصلحتها؟ لو قال قائل: إن من مصلحة الحياة أن يعيش هذا الإنسان سبعين عاماً ثم قال قائل آخر: إن من مصلحة الحياة أن يعيش تسعين عاماً لما استطعنا أن نحكم بأن القول الأخير هو الصحيح. ولو قال قائل إن مصلحة الحياة في أن أعيش مائة عام بدل خمسين عاماً لما استطعنا أن نعرف صدق قوله، ولو قال قائل: إن من مصلحة الحياة أن يكون لي عشرة أبناء بدل أن يكونوا خمسة لما استطعنا أن نعلم صواب هذا القول.

بل لو قال قائل إن مصلحة الحياة أن أكون عبقرياً بدل أن أكون مزارعاً أو عاملاً بسيطاً، أو

لو قيل: لقد كان من مصلحة الحياة وجود الإنسان ولم يكن من مصلحتها وجود الحيوان والنبات فقط لما أمكن أن يعرف صدق هذا أو هذا. وهل يكون حقاً أن يقول قائل إن من مصلحة الحياة أن أنتحر أو إن من مصلحتها ألا أنتحر، أو أن تكون المجموعة الشمسية أكثر عدداً أو أكبر حجماً، أو أن يكون عدد الحشرات الموجودة أضعاف ما هي.

نعم، نحن نريد هذا دون هذا، فإذا كانت الإرادة تساوي المصلحة فإننا إذن حين نريد السكر أو الغش أو الكذب أو الحرب أو الضلال يكون معنى هذا أن ذلك هو المصلحة. إنه لا أحد يعرف مصلحة الحياة سوى الحياة نفسها. ولكن كيف تعرف الحياة مصلحتها وكيف تعبر عن مصلحتها وكيف نعرف أنها عرفت مصلحتها؟ والعقل لا يستطيع أن يعرف إلا ما تلقنه إياه الحياة، فهو لا يستطيع أن يكون حكماً في هذا الموضوع، إنه يتلقى عن الحياة ويبحث عما تريده الحياة، فهو لا يريد إلا ما تريد ولا يعلم إلا ما تعلمه.

وما هي المصلحة في لغة الحياة؟ لا يمكن أن تعرف الحياة ذلك، كما لا يمكن أن يعرفه العقل الذي يتلقى عن الحياة. إن الحياة تكون فقط، تكون على جميع المستويات والأساليب والاتجاهات، والناس هم الذين يسمون هذا مصلحة أو ضد المصلحة. وما من شيء يراه أو يدعوه قوم مصلحة إلا ويراه ويدعوه قوم آخرون خروجاً على المصلحة. والناس يحكمون على الشيء هذا الحكم أو نقيضه بالإرادة والشعور والعادة والخوف، ولا يوجد منطق علوي يحكمون به على الأشياء. فإذا قال إنسان إن من مصلحتي أو من مصلحة الحياة أن أكون مهذباً أو نشيطاً أو تاركاً لممارسة التدخين فكما يقول: إن من مصلحتي أو من مصلحة الحياة أن أكون منافقاً أو جباناً أو غشاشاً أو خادماً للطغاة: كلاهما يعبر عن حاجته ورغبته وخوفه لا عن تفكير سماوي ولا عن مصلحة الحياة.

وثانياً:

هل الناس يكونون بالحاجة والإحساس والقدرة والظروف والتلاؤم أم يكونون بالتعاليم؟ إن كان الأول فما فائدة التعاليم، وإن كان الثاني فلماذا يصنعون إذن جميع المعاصي النفسية والأخطاء السلوكية مع أنهم يعلمون ضدها ويعرفون أنها محرمة؟

وثالثاً:

المفروض أن الغرض من هذه التعاليم هو أن ينتصر الناس على أهوائهم ورذائلهم، فإذا انتصرت عليهم أهواؤهم ورذائلهم دائماً فما هو الغرض حينئذٍ من هذه التعاليم؟ ولا يوجد في البشر من ينتصر على هواه ولا مرة واحدة، بل هواه هو الذي ينتصر عليه في كل المواقف. وإذا بدا أنه قد انتصر على هوى من أهوائه فالذي حدث أن هوى من أهوائه قد انتصر على هوى

آخر من أهوائه وترك رغبة لرغبة أخرى هي أقوى. وهذا يكون بدون تعاليم. فالهوى هو المنتصر دائماً.

ورابعاً:

لو لم توجد هذه التعاليم هل سيكون سلوك الناس حينئذٍ أكثر سوءاً وخروجاً؟ إن أي إنسان لا بد أن يصدق حينما يكون الصدق مصلحة أو هوى من أهوائه، كما سيكذب حتماً حينما يكون الكذب هوى أو ضرورة من ضروراته سواء أحرمت الأخلاق هذا أو هذا أو لم تحرم شيئاً. إن النهر والسحاب يكون طيباً أو غير طيب، أي يكون ملائماً لنا أو غير ملائم بالضرورة والذاتية لا بالتعاليم، وكذلك الإنسان وإن كان أسلوب الضرورة والإحساس بها والاستجابة لها مختلفاً.

وخامساً:

لو كانت هذه الوصايا تتدخل في تصرفات الناس وأهوائهم لكان أكثر الناس حظاً من الوصايا وأكثرهم قراءة وحفظاً لها هم أكثرهم فضيلة، ولكانت الألواح التي تكتب عليها تلك المحفوظات من الوصايا أقرب إلى فعل الفضيلة واشتهائها من ضمير النبي ومن أحزان الإله.

*

عجباً! كيف أجمع الناس على ذلك؟ إنهم جميعاً يتحدثون عن الشيء وكأنهم لا يحيون إلا به ولا يشتهون سواه، ثم يصنعون نقيض ذلك الشيء وكأنهم أيضاً لا يحيون إلا به ولا يشتهون شيئاً سواه. فمتى يكون فيهم الصواب، أحينما يتحدثون أم حينما يفعلون؟ هل الشيطان هو المعلم النافع؟ إذن لماذا يلعنونه؟ أم هو المعلم الضار؟ إذن لماذا يتبعونه؟؟

هل النبي هو المعلم النافع؟ إذن لماذا يعصونه؟ أم هو المعلم الضار؟ إذن لماذا يؤمنون به ويمتدحونه؟

إن التعاليم والسلوك يشبهان دائماً جيشاً مقاتلاً فوقه علم، التعاليم هي العلم المرفوع فوق الجيوش والمعابد والمنابر ودور التعليم وفوق كل شيء، أما السلوك فهو الجيش المقاتل، المقاتل في كل مكان حتى في المحاريب وفي قلوب أكبر الدعاة والقديسين وفي بيوتهم.

الشرف ليس فقط شيئاً غير موجود بل غير ممكن أن يوجد، ووجوده مخالف لطبيعة الحياة بل ومفسد مضعف لها. وكل ما نعده موقفاً رائعاً من مواقف الشرف ليس إلا موقفاً منكراً من مواقف الخروج على الشرف توافق مع مواقفنا التي خرجنا فيها على الشرف. فأضخم مواقفنا في المحافظة على الشرف والتضحية في سبيله هي أضخم مواقفنا في الخروج على الشرف والتضحية به. إن الفرق بين الشرف والخروج عليه هو الفرق بين موقف تتوافق معه وموقف

يتنافر معك، إن الشريف في تقديرك هو الذي يقف موقفاً تتوافق معه إرادتك المنافية للشرف، وغير الشريف هو الذي يقف موقفاً يعارض إرادتك مهما كان متلائماً مع الشرف.

الشرف هو أن تقف مع تعاليمك ومثلك ضد ظروفك وحياتك ورغباتك، هو أن تقتل إلهك المعتدي انتصاراً لإله خصمك المعتدى عليه، هو ألا تتردد في أن تقبل الموت مصلوباً على صليب مات فوقه كل أبنائك ولا تقبل أن تقول أو أن تسمع كلمة نفاق في طاغية صلبت كل الحريات فوق جبهته البذيئة، أو كلمة غزل ديني في خالق ذباب أو في معلم يتحدث عن الجمال والحكمة والرحمة المخبوءة في خلق الذباب. ليس الشرف هو أن تختار موقفك وأنت تساوم على عدة عمليات حسابية بين عدة أشياء، ليس هو أن تقارن بين مغانم وأخطار صغيرة ومغانم وأخطار أخرى كبيرة، ليس هو أن تقف موقفاً واحداً شريفاً أو موصوفاً بالشرف أو عدة مواقف موصوفة بذلك لكي تقف كل حياتك أو في أكثر حياتك ضد الشرف، ليس هو أن تكون كتاجر يعمل تحت إلحاح المساومات التجارية وتحت ظروفها.

إن النبي الذي يكذب ولو مرة واحدة لا يمكن أن يبقى نبياً، وإن الإله الذي يخلق الخير مرة والشر مرة أخرى، ويخلق الزهرة والحشرة والعدل والظلم واللذة والألم بمنطق واحد ولهدف واحد، لن يكون حكيماً ولا إلهاً طيباً. وكذلك الإنسان الذي يقف تارة مع الشرف وتارة ضد الشرف لا يكون شريفاً. إن الإنسان لا يستطيع أن يجمع بين الشرف والخبز في وجبة واحدة، وإن الشريف لا يمكن أن يأكل من مائدة عليها لحم أي إنسان أو يصافح أية يد ضربت وجهاً أو أمسكت سوطاً، أو يعيش في أي وطن يحكمه صعلوك من صعاليك المذاهب تسجد له كل الجباه والعقول وتمجد أخطاءه وحماقاته جميع المنابر والمعابد وتصلي له المصاحف والأناجيل بلا إيمان أو طهارة، ويتعامل على مذهب يتحول إلى تعصب وكبرياء، ويفضل نفسه وأتباعه ومذهبه على اتباع الآخرين وعلى الآخرين وعلى المذاهب الأخرى، أو أن يكون جندياً في عالم يحول زعماؤه خبز الناس وملابسهم وبيوتهم إلى جيوش وسلاح، ويحولون ذلك إلى أسلحة وجيوش تحول الأطفال إلى أيتام، والأزواج إلى أرامل، والحقول إلى حرائق بلا ثمن أكثر من أن يصنع هؤلاء الزعماء لأنفسهم أمجاداً مسحوبة من صحة الأطفال والشيوخ ومن ابتساماتهم، أو أكثر من أن ينفسوا عن أحقادهم وبغضائهم العدوانية، أو يدافعوا عن كبريائهم المتوحشة.

إن من شروط الشرف أن ترفض الجلوس إلى مائدة تحوم حولها ذبابة وأن تعجز عن الابتسام والسرور ما دام يوجد فوق هذه الأرض، بل فوق أي كوكب آخر إنسان واحد يبكي ويتعذب ويظلم ويعاني من الشعور بالحقارة والضياع، وما دام يوجد إنسان واحد متسلط تتغذى كبرياؤه بكل ما في المجتمع من كبرياء ورخاء وذكاء حتى ليموت كل تعدد في التفكير والقدرة والتعبير والضمائر المتعددة إلى أن تصبح ضمائر «أنتم وهم ونحن وهو» إنما تعني في جميع صيغها

ضمير «أنا». ويتعاظم ضمير «أنا» حتى يصبح التفسير الدائم والكامل لكل ما في المجتمع من تعابير وأشياء وأحداث وجنون حتى لو قيل «الربيع في هذا العام جميل» لكان المعنى «أنا جميل»، ولو قيل «الذباب في هذا الموسم كثير وثقيل ومفترس» لكان المعنى «أنا مناضل ضد الاستعمار والرجعية والخونة، أنا مقصود بالتحدي الموجه من كل الناس ومن كل شيء حتى من الطبيعة لأني مكافح ضد الاستغلال وفساد التاريخ وجهل الطبيعة الموالية للرجعية والرجعيين».

فهل يوجد إنسان واحد يرتفع إلى هذا المستوى ليكون شريفاً؟

إن جميع مدرسي الأخلاق وجميع الوعاظ والمادحين في كل العصور في جميع ما قالوه وكتبوه وفي جميع مدائحهم وأوصافهم لم يكونوا يسجلون موضوعات أخلاقية، بل يعبرون عن ظواهر نفسية. فالظاهرة الأخلاقية هي تحويل الحالة النفسية الأنانية إلى سلوك.

إن الإله نفسه لا يفعل إلا ذاته ومواقفه وحالته النفسية حينما يخلق الأشياء والناس، وهو ـ أي الإله ـ لا يريد أن تكون تلك الأشياء أو يكون الناس، وإنما يريد أن يكون هو فقط، ولهذا فإنه لا يخلق الأشياء أو الناس كما يريدون أو كما يجب، بل كما يريد هو. وكذلك النبي ـ أي نبي ـ لا يعني أن يهدي الناس ويصوغهم صياغة جديدة ويرتفع بهم من هوان الإثم وحضيض الأرض إلى مستوى السماء وكبرياء الطاعة حينما يجيء إليهم معلماً، مبشراً ومنذراً، وإنما يعني النبي ـ أي نبي ـ أن يكون هو نفسه وأن يستجيب لنفسه، أي يعني أن يكون نبياً، أي يعني أن يعلم وأن يبشر وينذر، أو يبكي ويغني، ولا يبالي بالناس كناس أو موضوعات أو أشياء أخرى غيره، ولكن يبالي بهم كتعبير عن ذاته أو كطريق إلى ذاته أو كتفسير لذاته. إن الناس بكل ما فيهم من عبقريات ومزايا لا يعنون أو يساوون في حساب أي إنسان أكثر من أن يكونوا تفسيراً لذاته وتعبيراً عنها.

والناس ـ كل الناس ـ لا يحتمل أن يكونوا خير من الإله أو الأنبياء، فالناس أيضاً لا يمكن أن يفعلوا إلا ظروفهم وذواتهم، إنهم حينما يضحكون ويغنون أو يبكون ويحزنون لا يضعون في حسابهم الآخرين إلا كأدوات أو مجالات يطلقون منها أو عليها أنفسهم. إن الذين يضحكون ويسرون لا يفعلون ذلك لأن الآخرين مسرورون وضاحكون، ولا لأنهم يريدون أن يجعلوا هؤلاء الآخرين يضحكون أو يسرون، وكذلك هم لا يحزنون أو يبكون لأن الآخرين محزونون متألمون، ولا لأنهم يريدون أن يجعلوا هؤلاء الآخرين يحزنون أو يبكون. إن الآخرين لا حساب لهم كآخرين بل كموضوعات ذاتية لنا، إن الآخرين لا وجود لهم في تفكيرنا أو مشاعرنا إلا كمرايا وأجهزة عرض لنا.

إن المهندس حينما يقيم جسراً أو مصنعاً أو بناية لا يتعامل البتة مع الجسر أو المصنع أو البناية بل مع نفسه فقط، وبنفس المنطق لا يتعامل المهندس مع الناس الذين سوف يمرون فوق الجسر

أو يعملون في المصنع أو يسكنون البناية ـ وكذلك الطبيب الذي يعالج المرضى، هو لا يتعامل معهم ولا يعالجهم، وشعوره نحوهم ليس أفضل أو أكثر محبة أو فدائية من الجلاد الذي ينفذ بلا بكاء أو رحمة حكم الموت في ضحاياه، وكذا الصيدلي الذي يصنع ويبيع الأدوية لا يحمل عاطفة أكثر إنسانية أو محبة من بائع الأكفان أو حفار القبور.

إنه لو وجد من يعملون الفضيلة ـ لا الضرورة والأنانية أو ضد الضرورة والأنانية لفقدوا وجودهم، فكل شيء لا يبقى إلا لأنه أناني لا فدائي. ولو أن الحجر استطاع التخلي عن الأنانية لفقد وجوده، ولو أن أية نبتة أو حيوان مفترس فقد الأنانية لفقد ذاته وحياته. ولكن هل يمكن عمل الفضيلة بلا ضرورة وأنانية أو بالخروج على الضرورة والأنانية؟ إن الإنسان بل إن كل شيء لا يستطيع أن يعمل أو يفكر أو يتحرك لو أمكن أن يكون بلا ضرورة وذاتية. إن كل ما ندعوه فضيلة ليس إلا ضرورة جاء في أحد تعبيراتها الكثيرة. والإنسان الفاضل جداً هو إنسان خاضع للضرورة جداً، إن الطبيعة في الإنسان وفي كل شيء ضد الفضيلة بل ترفض وجودها وتجعله مستحيلاً.

وهنا أجد نفسي عند السؤال الأول الذي تكرر كثيراً، وهو: «إذن لماذا جاءت التعاليم». ولكن لماذا هذا السؤال، وهل الأشياء تجيء لمعنى غير مجرد مجيئها؟ إن مجيء الأشياء هو سبب مجيئها وغايته ومنطقه.

لماذا يجيء الإنسان، ولماذا يبقى، ولماذا يبحث عن التناسل وعن عملياته المحقرة لدعاوى البشر عن أنفسهم؟ ولماذا يجيء الموت ـ لماذا تجيء الحياة إذا كان لا بد أن يجيء الموت، ولماذا تجيء النبتة ثم تجيء الحشرة القاتلة لها، ولماذا يجيء الكون؟ وكل جواب عن «لماذا يجيء كل هذا» يكون جواباً عن «لماذا جاءت التعاليم». وإذا كان الإنسان قد جاء سؤالاً بلا جواب فكذلك قد جاءت تعاليمه أسئلة لا أجوبة لها، بل ليست حتى ولا أسئلة لأن الأسئلة لا تتحول إلى أسئلة، فالناس برضاهم واستسلامهم وغفلاتهم الطيبة يحولون أكبر وأعنف الأسئلة إلى صمت واقتناع. إن جميع الأشياء لا يعني مجيئها سوى مجيئها. وسوف يظل كل شيء سؤالاً بلا جواب، بل سؤالاً بلا سؤال. والبحث عن الأجوبة هو أيضاً لا يعني شيئاً غير مجرد البحث عن الأجوبة. ومن المستحيل أن يكون للأشياء ـ كل الأشياء ـ أي تفسير أكثر من مجرد وجودها. ولو كان للأشياء تفسير غير مجرد وجودها لكان معنى هذا وجود منطق خارجي ووجود أشياء أخرى غير الأشياء المفترضة. ولو كان ذلك كذلك لكان ذلك المنطق الخارجي والأشياء الأخرى ليس له وليس لها من تفسير أكثر من وجودها. وهذا ينتهي إلى أنه ليس للأشياء ـ كل الأشياء من تفسيرات أو منطق غير كونها موجودة، إن الجواب هو السؤال وإن التفسير هو نفس الشيء.

وكما جاءت وتجيء التعاليم بلا تفسير، كذلك تجيء المقاومة للتعاليم والاحتجاج عليها بلا تفسير أيضاً. وقد تكون الدعوة إلى التعاليم ومقاومتها أسلوبين من أساليب الغضب الذي لا يعني غير مجرد الغضب من شيء ما، فالذي يدعو إلى التعاليم والذي يقاوم التعاليم لا يعنيان غير أن يغضبا ويعلنا غضبهما وتألمهما من شيء ما، من شيء قد يكون بعيداً عن التعاليم.

*

هل يوجد ضمير؟ ولكن ما هو الضمير؟ وإذا كان موجوداً أو يمكن أن يوجد فهل هو طاقة أخلاقية تعمل منفصلة عن قانون الربح والخسارة وإلحاح الأنانية، أم هو تحفز ذاتي تطلقه الذات بحثاً عن الذات تحت عوامل لا يمكن أن تكون أخلاقية؟ هل للناس ضمائر أم لهم انفعالات واستجابات متحركة بالخوف والرجاء والتعويد والتعليم والتلاؤم والالف بالأحاسيس الخاصة؟

إننا جميعاً نتحدث بنشوة وغرور وثقة عن الضمير ونكاد نشير إليه بل نكاد نمسك به في أيدينا فيما نظن دون أن نراه أو نتعامل معه أو نلتقي به في أي مكان أو في أي سلوك من سلوكنا أو سلوك الطبيعة أو في سلوك أية قوة يمكن أن تكون من فوقنا أو من فوق هذا الكون. وأكثر من يتحدثون عن الضمير ـ وكأنهم يعايشونه في منازلهم ويتعاملون عليه حتى حينما يمارسون تلك العملية البذيئة غير الوقور التي تنجب الأطفال، هم المعلمون وأصحاب الرسالات الأدبية والروحية والأخلاقية. وهؤلاء في حديثهم عن الضمير لا يعنيهم منه أكثر من إجادة الكلام فيه، فهم لا يعرفون أو يسألون ما هو الضمير أو هل يمكن أن يكون هناك ضمير أو هل كلامهم عنه ودعوتهم إليه تخلقه أو تصوغه أو تؤثر فيه، كما لا يبالون أن يكون لحديثهم أي قارىء أو فاهم أو مفسر أو مستفيد. وبأقوى من عجز الناس عن فهم الضمير جاء عجز الضمير عن التأثير في سلوك الناس أو في أهوائهم.

وإذا جاء قوم خيراً من قوم فليس ذلك بسبب الضمير ولا من عمله، بل بسبب أشياء أخرى هي أقوى جداً من الضمير. إنك قد تغضب أو تحتج أو تقاوم حينما ترى ضعيفاً يظلم أو بريئاً يقتل، قد يحدث هذا وقد تعد عملك هذا إملاء من ضميرك. ولكنك في ظروف أخرى قد تقتل أنت البريء وتظلم الضعيف وتعمل مخلصاً تحت رايات الطغاة الأقوياء لظلم الضعفاء وقتل الأبرياء ونهب الأموال والحريات والحرمات دون أن يقف منك ضميرك أي موقف حوار أو عتاب، بل قد تفعل كل ذلك بإرشاد وإغراء من ضميرك ـ قد تفعل جميع هذا وتفعل ما هو أشد بشاعة وقباحة تحت إملاء وإغراء عقيدة أو مذهب أو شعار وطني أو عرقي أو قومي بل أو إنساني. وقد تعد أعمالك هذه استجابة لنداء ضميرك أو دون أن يعارض فيها ضميرك. إنك قد تفعل ما يعد أنبل الأعمال ثم تظن أو يظن لك أنك تستجيب لأنقى وأقوى ضمير يسكن فيك، كما قد تفعل أسوأ الأفعال باسم الضمير أيضاً. إن أبشع الآثام التاريخية قد اقترفت تحت قيادة

الضمير، لقد كان اقترافها كأنه استجابة نبيلة للضمير، وكان الذين اقترفوها قوماً من أكثر الناس تحملاً لتبعات الضمير وإحساساً به وحديثاً عنه. لقد كان الشيء ونقيضه في جميع العصور يرتكبان باسم الضمير أو باسم ما يسمى ضميراً أو ما يعبر عنه بالضمير أو ما يتحول إلى ضمير. ما أكثر وأعظم الحماقات والمظالم التي فعلت تحت راية الضمير، وما أقل وأتفه العدالة التي فعلت تحت راية الضمير.

إن أي إنسان يمكن أن يصبح أكبر مجرم قاتل مجنون باسم الضمير، كما يمكن أن يصبح فاضلاً جداً باسم الضمير أيضاً، وإن أي مجتمع قد يمارس أبشع الجرائم والقسوة تحت قيادة الضمير أو دون أن يمنع ذلك أو يحتج عليه، كما قد يتجنب هذه الجرائم والقسوة ثم يزعم أن ذلك هو الضمير. وهذا يعني أن الضمير ليس شيئاً ولكن الناس يفعلون الأشياء أو يكفون عنها باسمه. وليس الذي يدفعك إلى اتخاذ أحد الموقفين المتناقضين هو الضمير، بل أسلوب ذاتك في استجابتها لظروفها وتاريخها وتقاليدها وعقائدها وقوتها وضعفها.

إن الضمير لا ينبت ذاتياً في مشاعرنا وأخلاقنا كما تنبت أسناننا في أفواهنا أو أعضاؤنا في أجسامنا، ولكنه حركة من تحركاتنا النفسية التي تطلقها حياتنا دفاعاً عن حياتنا. وهو ـ أي الضمير ـ مركب بلا نظام من عواطفنا العامة الأولى التي لا تعد خيرة ولا شريرة، والتي لا تسير في طريق مرسوم ولا في مستوى واحد، وهو حصيلة ما ترسب في وعينا ومخاوفنا واحتياجاتنا من زواجر وتعاليم وتلقينات طويلة.

«يوجد ضمير، لا يوجد ضمير» ـ كلاهما صحيح إذا اختلف التفسير. يوجد ضمير إذا كان ذلك يعني أن فينا قوى أدبية وفكرية تستنكر وتوافق وتقاوم أحياناً ولكن بأسلوب وحوافز غير أخلاقية، ولا يوجد ضمير إذا كان ذلك يعني أن فينا عضواً أخلاقياً يفرز الفضيلة كما تفرز الغدد الصماء إفرازاتها الثمينة في حياة الإنسان. إنه لا توجد في الإنسان أعضاء أخلاقية، ولكن هل توجد فيه أعضاء غير أخلاقية؟ جميع الأعضاء في جسم الإنسان أعضاء غير أخلاقية إذا فسرت الأخلاق كما يفسرها المعلمون والوعاظ. إن ما ندعوه ضميراً أو فضيلة ليس شيئاً موجوداً في ذاته وإنما هو محصول التناقض أو التوافق بين إرادتنا وقدرتنا، هو مجموع الحيل والمنازعات التي تأتيها شهواتنا ومخاوفنا لتتقي الاصطدام بظروفنا ولتتحاشى الآلام وتصيب الراحة. فالضمير فراغ ومخاطبته فراغ، ولهذا فمن العبث أن نتوجه إلى إيجاده أو مخاطبته، بل المطلوب إيجاد المناخ الاجتماعي والنفسي الذي يوجد الحالة التي تسمى ضميراً.

المفروض أن الكتاب والمعلمين وجميع العاملين في أجهزة الكلمة هم الذين يصنعون الضمير أو ما يظن ضميراً، والمفروض أنه لن يوجد أو يبقى أي تفسير لوجود هؤلاء الباصقين أنفسهم كلاماً إذا لم يكونوا يستطيعون أن يخلقوا للمجتمع الذي يعيشون فيه هذا الملاك الجميل الطاهر

المسمى ضميراً والساكن في أعماقنا بجوار الشيطان الساكن أيضاً في أعماقنا لينهاه ويضعفه ويقيد سلطانه وحركاته. إن رسالة هؤلاء المشتغلين في أجهزة الكلمة هي ـ فيما يزعمون لأنفسهم وفيما نزعم نحن لهم ـ أن يصنعوا لنا ضميراً تقياً قوياً يأمرنا ويزجرنا ويحرم علينا النظر إلى الشمس إذا لم يكن في أيدينا إباحة صريحة منه. وهؤلاء الذين يصنعون لنا ضمائرنا من يصنع لهم هم ضمائرهم إذا كان الضمير لا بد أن يصنع من الخارج؟

*

هل للكلمة ضمير؟ إنه قل أن يوجد إنسان واحد بلا ضمير أو ما يدعى ضميراً، ولكنه قد يكون ضميراً معطلاً أو مهزوماً أو ذليلاً من كثرة المعارك غير المتكافئة التي خاضعها فقهرته وأهانته حتى أصبح عاجزاً لا يستطيع أن يحارب أو يقاوم أو يتحول إلى أمر ونهي، بل ولا إلى احتجاج وغضب، بل ولا إلى محايد لا يأمر ولا ينهى ضد نفسه.

إن جميع المعلمين والمتعاملين على المجتمع بالكلمة ـ حتى أكثرهم تواضعاً في معاملة الفضيلة والإحساس بها ـ يصرون على التوكيد بأن لهم ضمائر مقدودة من الصخر في قوتها وصلابتها، ويؤكدون جميعاً ـ وكل منهم يشير إلى نفسه ـ انه ليس فيهم من هو مستعد لشراء الشمس وتوابعها بخيانة واحدة لشرف الكلمة التي هي شرفه. إن البحث عن الوضع الملائم وعن التلاؤم مع الظروف وعن النجاح والأمن هو القوة التي تحرك الناس جميعاً وتصوغ ضمائرهم وتوجه خطاها. ودفاع المتعاملين على المجتمع بالكلام عن المذاهب والنظم والآراء والدول والأشخاص وإيمانهم بها، وكذا هجومهم عليها وابتعادهم نظرياً عنها خاضع لهذه الحسابات المتوحشة، إنهم دائماً يبحثون عن أنفسهم بين أشياء كثيرة متناقضة ومناقضة لهم. وحيث يجدون المكان الملائم لهم تكون ضمائرهم وتتحرك. والمأساة أن ضمائر المعلمين تخلق وتعيش تحت ظروف هي ضد تعاليمهم. وإذا وضعوا أنفسهم لحساب مذهب أو عقيدة أو نظام أو دولة أو شخص. يدافعون عنه ويفسرون مزاياه وتفوقه على كل نقيض ومخالف له، فالمعنى أنهم هنا قد وجدوا أنفسهم ووجدوا المكان الملائم لهم، وحينئذ لا بد أن يجدوا ضمائرهم حيث يجدون أنفسهم. إن وظيفة المعلم أن يهب تعاليمه وضميره للمجتمع، ولكن من الذي يهب المعلم تعاليمه وضميره؟ إن الذي يهبه ذاك هو المجتمع نفسه بخوفه إياه وحاجته إلى التلاؤم معه وامتصاصه وجوده منه وإيحائه إليه. وإذن فمن المعلم ومن المتعلم ـ هل المعلمون هم الذين يعلمون المجتمع أم المجتمع هو الذي يعلم المعلمين؟

لقد كان المظنون دائماً أن البشر يخسرون لأنهم لا يستطيعون أن يطيعوا التعاليم، ولم يكن من المفترض على أي حساب أنهم يربحون كثيراً لعجزهم عن طاعة التعاليم. إن أكثر المعلمين في أكثر العصور بل في كل العصور زائفون ضالون، وكاذبون منافقون، ورجعيون يعلمون ضد

المعرفة والتقدم والذكاء. فكيف يكون وضع البشر، وكم يخسرون ويظلون متأخرين وأعداء للفهم لو كان من المستطاع أن يطيعوا معلميهم ويقفوا عند تعاليمهم؟ لقد تغير البشر وتقدموا وألقوا بالكثير من الأوهام والمظالم وراءهم بلا رحمة أو رثاء لأنهم كانوا يعصون المعلمين، لقد كان التأخر كله تعليماً، وكان الظلم والجهل وكل الأوهام والسخافات والبداوة تعليماً. كان ذلك كله تعليماً على مستوى الآلهة والأنبياء والقداسة والوطنية، وكان الخروج عليه أو على شيء منه خيانة وكفراً وموتاً. ولكن الإنسان تجاوز كل ذلك لأنه كان يعصي التعاليم كما كان يعصي الآلهة. وحينما يطيع التعاليم الطيبة أو النافعة فهو لا يطيعها في الحقيقة وإنما يطيع ظروفه وحياته، كما أن كل شيء في الكون يطيع، وكل الأشياء الكونية التي لا بد أن تطيع إنما تطيع ظروفها ووجودها وحياتها لا تعاليمها، لأنها بلا تعاليم. إن الذباب يطيع ظروفه ووجوده بلا نبي أو زعيم أو قائد أو واعظ. وليس الإنسان أكثر طاعة لظروفه واحتياجاته وحياته من الذباب أو من أية حشرة أخرى. ولو كان الإنسان بلا أية تعاليم من أي نوع لأطاع الضرورات والشهوة والخوف والحاجة والذات كما يطيع الذباب ذلك. وهل يمكن أن يكون الإنسان أقل من الحشرات والحيوانات والجمادات، أي هل يمكن أن تطيع هذه وجودها وحياتها بلا تعاليم ثم نفترض أن الإنسان لا يمكن أن يطيع بلا تعاليم؟

*

وأسوأ وأكبر معلم يواجهه البشر اليوم، ويمكن أن يضلل ذكاءهم ويعوق تقدمهم ويفسد رؤيتهم للأشياء هي الصحافة، أي لو كان ممكناً أن يخضع البشر لأي معلم أو يتقيدوا بأية تعاليم.

سنفترض الصحافة عدواً عالمياً لكل المجتمعات قد وزع نفسه على جميع الجبهات المختلفة المتعددة المتناقضة ليحارب كل الناس في كل البلدان تحت كل المذاهب والنظم والعقائد. إنه عدو يحارب الشيء ونقيضه ويدافع عن الشيء ونقيضه أيضاً ـ يحارب ـ بأسلوب التوزيع والتعدد ـ كل إله ومذهب ونظام، ويدافع بنفس الاقتناع أو الخداع كل إله ومذهب ونظام، تختلف ألوان الأشياء وأحجامها وقيمها أمامه لاختلاف المكان الذي ينظر منه أو يعمل فيه. إن الإله الواحد موجود وغير موجود، طيب ورديء، ذكي وبليد في حكم هذا العدو ـ أي الصحافة ـ لاختلاف الظروف التي يفكر ويعمل فيها، لا لاختلاف منطقه، وإن منطقه ليختلف لاختلاف إرادته، وإن إرادته لتختلف لاختلاف ظروفه ومكانه وطغاته.

وليست الصحافة وحدها هي التي تقاتل الإنسان بهذا الأسلوب الشامل المتوزع، ولكن الصحافة هي أوسع جبهة وأسرع وأكثر طلقات. إن إله الصحافة هو الربح والنجاح أو الخوف من الطغيان الذي تعمل تحت سطوته، إن الصحافة نوع من البغاء الحديث، إنها بغاء عالمي.

إذا وقفت صحيفة أو صحف وكأنها في ميدان قتال تذود عن مذهب أو نظام أو عن حاكم أو زعيم أو عن أي رجل قوي أو عن حكومة أو كتلة من الكتل فعلينا أن نقف لنشك وننظر بعمق وتحديق، إن أقل مستويات الذكاء حينئذٍ ألا نصدق، وأن نقول إن من وراء موقفها هذا شيئاً غير نبيل، لا بد أن يكون هذا الموقف المختار هو نتيجة الحسابات التجارية أو النفسية أو الاجتماعية التي أجراها القائمون عليها، والباحثون عن النجاح والربح أو الانتصار، والذين يقدرون، ولو في حسابهم الخاطىء، أن هذا الموقف لا بد أن يكون هو طريقهم إلى أنفسهم ورضاهم عنها وإلى المكان الملائم الذي يبحثون عنه ولو بالخضوع لأسباب الخوف.

لقد توزع الصحفيون بين كل الجبهات المتناقضة المتقاتلة، توزعوا بين كل الطغاة والنظم والمذاهب، وارتبطوا من غير صدق وإخلاص بهذا أو هذا أو هذا، يدافعون عن كل أخطاء وأكاذيب من ارتبطوا به وعن حماقاته وجنونه، ويختلقون له أعنف المزايا والعبقريات، محاولين بكل قدرتهم على الكذب أن يخدعوا به السوق العالمية أو المحلية، وأن يصنعوا منه إلهاً مبرأً من كل عيوب الآلهة القديمة، ثم يذهبون بلا شيء من العدل أو الوقار يلقون على الآخرين، أي على خصوم طغاتهم ومذاهبهم جميع الذنوب والعاهات وأنهم أحياناً ليهبون يشعنون على الباطل في حماس يجعلهم يبدون وكأنهم صادقون، لا لأنهم أعداء لهذا الباطل أو لأي باطل، ولكن لأنهم يريدون التعاون معه، إنهم يبحثون عن حبه وصداقته والولاء له بأسلوب الهجوم عليه، وإنهم لينتصرون أحياناً للفضيلة حتى ليظهرون في روعة الفضلاء، لا لأنهم أصدقاء لتلك الفضيلة أو لأية فضيلة أخرى، بل لأنهم يقصدون مغازلة الرذيلة وإغضاب حميتها. إنهم يشنعون على الباطل ليحرجوه لكي يمد كلتا يديه إليهم، وينتصرون للفضيلة ليثيروا غيرة الرذيلة وحماسها.

ومع هذا فالعدل أنهم ليسوا أشراراً كما أنهم ليسوا أيضاً أخياراً، بل هم قناصة يبحثون عن النجاح والربح والأمان والانتصار والوضع الملائم لوجودهم الواقع والمتحرك بين أشرس التناقضات المذهبية والنفسية والتاريخية والشخصية. وقد يهاجمون الموقف الواحد أو المذهب الواحد ويدافعون عنه في وقت واحد وظروف غير مختلفة، لأن الذين وقفوا ذلك الموقف فهاجموه أو دافعوا عنه مختلفون. إن كثيراً من الصحف والأقلام تهاجم بعض الدول، بل لقد هاجمتها لأنها قبلت وتقبل قروضاً أو منحاً أو خبراء من بنوك ودول أجنبية، زاعمة أن القروض والمنح والخبرات الخارجية قيود وسطو على السيادة الوطنية وإذلال لها، بل إنها في زعمها شروط غير منطوقة أو مكتوبة، وقد تكون الشروط التي لم تكتب أو تنطق أقوى من التي كتبت أو نطقت كما قد يكون الحب الذي تحسه النفوس ويتوهج في العيون والأعصاب بلا نطق أو كتابة هو أقوى من الحب الذي يتحول إلى قصائد ودواوين شعر وإلى كتب مطبوعة. ثم في

أعداد أخرى من تلك الصحف نفسها تعد الحصول على المنح والقروض والخبرات من تلك البنوك أو الدول أو الدولة نفسها بنفس الشروط والظروف وطنية وشجاعة وانتصاراً وذكاء وقفزاً في طريق التقدم والقوة والاستقلال.

والسبب في هذا الاختلاف أن الآخذ للقروض والعطايا والخبراء الأجانب في الحالة الأولى دول تستفيد تلك الصحف من مهاجمتها أو لأنها مكرهة على مهاجمتها، وإن الآخذ لذلك في الحالة الثانية دول تستفيد من الدفاع عنها وامتداحها، أو لا تستطيع إلا الدفاع عنها والامتداح لها لأنها واقعة في قبضة طغيان مذل قاهر. إنها مرتبطة بتلك الدولة أو المذهب أو النظام أو الرجل أو الحاكم الطاغية، إذن لا بد أن ترى جميع ما يفعل صواباً وفضيلة وعبقرية. وإذا كانت مؤمنة بالدين فستحول الله وأنبياءه وكتبه المنزلة إلى شعراء ومنشدين وإلى حجاب صغار متواضعين لذلك الذي ترتبط به من مذهب أو نظام أو طاغية. أما إذا لم تكن مؤمنة بالدين فإنها سوف تحول الكون وكل ما فيه إلى صفات وقوانين لذلك المذهب أو النظام أو الحاكم الذي ترتبط به وتخضع له تحت أقسى أساليب الإذلال.

وقد يمتدحون الحكم المطلق في أحد البلاد، وقد يرون فيه معنى عظيماً من معاني الألوهية القوية المتوحدة التي لا تستقيم الحياة مع تقييدها أو مع مشاركتها في سلطانها، لأن امتداحهم للحكم المطلق في ذلك البلد يعطيهم أرباحاً ونجاحاً، أو لأنهم مكرهون على امتداحه. ثم يشنون على الحكومات المطلقة في بلدان أخرى أو شبه المطلقة، أو على الحكومات الديمقراطية بحجة أنها مطلقة، كل ما يستطيعون من هجاء وهجوم بذيء، لأنهم لا يستفيدون من الثناء على تلك الحكومات وعلى حكمها المطلق أو الديمقراطي، ويستفيدون من مهاجمتها، أو يكرهون عليه.

كل الناس: التجار والعمال وأصحاب الحرف والمهن، يبحثون بأعمالهم عن الربح والنجاح والانتصار والتلاؤم مع حياتهم واحتياجاتهم وظروفهم، وهم لا ينكرون ذلك أو يتسترون عليه، والجميع يعرفونه لهم ويقرونهم على نياتهم وسلوكهم ولا يرون في ذلك خطراً أو فساداً. ولكن أصحاب القلم ليسوا كذلك فيما يرون لأنفسهم وفيما يرى الناس لهم، بل إن الناس وحتى حملة الأقلام لا يتصورون بشاعة أو فساداً أعظم من افتراض المعلمين والدعاة والكتّاب كالتجار وأصحاب الأعمال والحرف والخبازين والباعة، يبحثون عن الربح والنجاح والانتصار والتفوق فقط بتعاليمهم ودعاياتهم وأفكارهم.

إن الناس جميعاً لا يستطيعون أن يفترضوا في المعلمين والدعاة والكتّاب إلا أنهم رسل من السماء أو من الكون العظيم، إنهم رسل منزهون، يضحون بالنجاح والربح بل وبأنفسهم، إن عملهم لا يكون إلا تضحية ولا يفترض إلا تضحية. وافتراضهم تجاراً أو رجال أعمال أو قوماً

يبحثون عن النجاح أو الأمان أو القوة أو الانتصار الشخصي، افتراض يعدونه هم ـ كما يعده لهم الناس ـ أسوأ هجاء، ويعدونه هم ـ كما يعده أيضاً لهم الناس ـ خطراً وفساداً عظيمين، إنه افتراض يرفضه الجميع لأنه فظيع، مع أن هذا الفظيع هو الذي تمارسه جميع المجتمعات، إن فريقاً من الناس يمارس هذا الشيء الفظيع، وإنه يمارس ضد الفريق الآخر من الناس. إنه شيء يعيشه كل البشر ويمارسونه جميعاً كل أوقاتهم على جميع المستويات وبكل الأساليب، ومع هذا يرفضون التفكير فيه كافتراض من الافتراضات لبشاعته. ما أطول المسافة الفاصلة بين الإنسان وبين آرائه في نفسه وعن نفسه، ما أبعد المسافة بين الإنسان الذي يعيش، والإنسان الذي يتمنى ويتحدث عن نفسه، ما أعظم الفرق بين الإنسان الذي يعاني ذاته واحتياجاته، والإنسان الذي يقرأ نفسه ويقرأ لها من بعيد، ما أعظم الفرق بين ما تعطي الطبيعة من حقائق، وبين ما تعد به من أحلام.

وإرادة الربح والنجاح أو إرادة الأمن المظلوم الذليل هي التي جعلت الصحافة دائماً تقف هذا الموقف المفتضح بين الشعوب وحكام الشعوب الطغاة، بين الشعوب الضعيفة المغلوبة والحكام الأقوياء الغالبين، إن هذه الصحافة قد اختارت لنفسها أن تقف دائماً مع الحكام لأنهم أقوياء ونافعون، أو ساحقون قاهرون لها، وأن تقف مع مطامعهم وطغيانهم ومكاسبهم الكبرى المسروقة ضد شعوبهم، وضد كل كرامة وذكاء وصدق، وتسوغ لهم كل المظالم والفساد والاستبداد أو تنكر وجود ذلك، بل وتذهب تنتحل لهم من المزايا المكذوبة بقدر ما تستطيع أن تكذب وتنتحل. وإذا لم تقف مع الطغاة والأقوياء ضد الجماهير وضد الصدق والذكاء والحقيقة فليس ذلك إلا أسلوباً من المغازلة أو الضغط أو الغضب أو الاحتجاج والمعاتبة أو النفاق، إنها تريد أن تكون العلاقة بينها وبينهم أقوى. وإذا وقفت مع المجتمع أحياناً فلأنها رأت ربحها ونجاحها في ذلك لا لأنها تحترم العدل والحق، ولهذا فإنها أحياناً تظلم الحاكم كما تظلم المجتمع.

وشر ما في المادحين أنهم يمدحون بقدر ما يستطيعون أن يمدحوا وينتفعوا ويقبل منهم الممدوحون مديحهم، لا بقدر ما يحتمل أو يعقل أو يليق أو يفيد الممدوحين أو يصدق، ولهذا فإنهم يمدحون حتى يصبحوا ذامين لا مادحين، أي حتى يتحول امتداحهم سباباً وافتضاحاً لا يصدقه أحد ولا يخدع أحداً ولا يفيد ممدوحاً. إن هؤلاء ليمدحون ويكذبون بكل قوتهم دون أن يضعوا أي حساب لاحتمالات التصديق والاستحالة والاشمئزاز والإساءة والإيذاء لأحاسيس ووضع الممدوح نفسه. وإنه لشيء صعب أن نتصور كيف يستطيع الممدوحون الذين تكذب فيهم هذه المدائح الفاضحة أن يتحملوا كل ذلك وكيف يتصورونه مديحاً لا هجاء، ودفاعاً عنهم ودعاية لهم، لا هجوماً عليهم ودعاية ضدهم، وكيف يقبلون كل هذا التحدي

لأعصابهم وأخلاقهم. إن الزعماء والحكام الذين يتقبلون كل هذا المديح الذي يهاجمون به ليحتاجون إلى بلادة حشرة وأخلاق ذبابة لكي يستطيعوا أن يسعدوا بسماع ما يقال فيهم، ولكي يستطيعوا أن يخرجوا للقاء الناس وعرض أنفسهم عليهم وهم يحملون كل هذه البذاءات على أخلاقهم وجلودهم ووجوههم.

إن الامتداح في أغلبه عملية تشهير بذيئة، بل إنه أسلوب من أساليب العدوان. فالممدوح في الأكثر أو في الحقيقة مظلوم معتدى عليه مهما كان ظالماً معتدياً، إنه مظلوم ومعتدى على أعصابه وسمعته، ومتهم في ذكائه، ومحكوم عليه بالطفولة، وموضوع في ظروف كلها توريط وإحراج. إن وضع هؤلاء الحكام والزعماء الملقاة على كبريائهم وكرامتهم وحيائهم واحتشامهم كل هذه المدائح البذيئة يشبه وضع إنسان مشوه الجسم قد تعرى من كل ثيابه حينما يشار إليه في ميدان عام ويقال: انظروا كم هي جميلة وجديدة ملابسه، وكم هو جميل وسويّ تكوينه! إنه نوع من الإعلان المضاد القاسي في وقاحته ووحشيته.

ومن الصعب أن يفهم لماذا يرحب الناس بأن يمتدحوا، هل يرحبون بالمديح لأنه يشعرهم بالأمان ولو خطأ، فالحاكم الذي يمدح يشعر على نوع ما أن الناس راضون عنه ومعترفون له بنوع من المزايا، وهذا قد يعني في حسابه زيادة الاحتمالات في بقائه وبقاء حكمه وبقاء الطاعة والإخلاص له، أو انه إذا مدح اقتنع المجتمع بقيمته وفضيلته، وهذا أيضاً يهبه مزيداً من احتمالات بقائه حاكماً محبوباً مطاعاً؟ ولكن الحقيقة هي نقيض هذه التفسيرات تماماً، فالامتداح لا يدل على الرضا أو الاقتناع، كما أن الامتداح لن يصنع الرضا أو الاقتناع، بل إنه يصنع العكس ويدل على العكس.

والحكام المغضوب عليهم، المكروهون، الفاسدون، الحريون بالسقوط هم أكثر الحكام ظفراً بالمدائح المحرمة، لا أحد يمدح علناً ودائماً وبمبالغات مخجلة مثل هؤلاء الحكام والزعماء. إن الامتداح في الأكثر نوع من التحذير والإنذار بالسقوط، وهو في الأغلب ذو دلالة مضادة. إن الذي يمدح أكثر عليه أن ينتظر مصيراً أكثر تجهماً ـ هكذا علمنا التاريخ وأحداثه المتعاقبة. والامتداح يزيد في أسباب الغضب على الحاكم الممدوح والكراهة له والإثارة ضده.

إذن لماذا يرحب الناس ولا سيما القادة والحكام بالمدائح التي تصب عليهم ويعاقبون ويلعنون بها؟ إن المنطق يفترض أن يرفض الناس جميعاً الامتداح ولا سيما الزعماء والحكام. ولكن الجواب عن هذه التساؤلات حتماً يجب أن يكون:

إن الناس لا يريدون أو يرفضون أو ينفعلون بالمنطق، كما لا يوجدون أو يستمسكون بالوجود، أو يعملون، بالمنطق. إن المديح قد يكون في معناه إلزاماً أو التزاماً، وقبوله هو حتماً في

معناه نوع من الالتزام. إن المادح كأنه يقول للممدوح: أنا ألزمك أو المجتمع يلزمك بأن تكون كيت وكيت، أو نحن نطالبك أو ننتظر منك أن تكون كذا وكذا، أو أن المفروض فيك هو ذلك، أو أنت لن تكون شيئاً طيباً إلا إذا كنت على مقاس المدائح التي تزف إليك. أما الممدوح الذي يقبل المدح ويستمع إليه فكأنه يقول متعهداً: أنا ألتزم بكل ذلك. والناس في الغالب يحاولون الفرار من الالتزام والالزام، كما يحاولون الفرار من التضحيات والإعطاء من الذات، ولا يقبلون ذلك إلا تحت ضغوط هائلة، إنهم لا يفعلون ذلك إلا تحت شروط نفسية وفكرية واجتماعية باهظة. أما الالتزام أو قبول الالزام بلا نية للوفاء أو لاحتمالات الوفاء فهذا أقوى وأسهل أساليب البحث عن الموت وعن الهجاء.

كم يتعاظم اقتناعي بضآلة الإنسان حينما أتصور رجلاً كبيراً في مواهبه العقلية أو العلمية أو الأدبية أو في مكانته الاجتماعية، أو زعيماً أو حاكماً أو معلماً كبيراً يطالب الناس بامتداحه أو يفرح به أو يدفع ويأجر عليه، ويعاقب على اجتنابه أو التهاون في الحماس له إذا كان حاكماً طاغياً مطلقاً، ويجزي عليه بالهبات أو بالمناصب أو بالشهرة. إن هذه حالة مرضية خطيرة وليست فساداً أو استهتاراً فقط. فهل حاول أو يحاول العلم أن يجد لها علاجاً؟ لو أن كاتباً كتب عن حاكم أو زعيم يقول له: أيها الظالم، أيها الفاسد، أيها المغرور المريض، لكان ذلك أرق هجاء من أن يكتب عن أي قائد أو حاكم قائلاً: أيها العبقري، أيها المعلم الأعظم للتاريخ، أيها الثائر الذي تعلمت منه الطبيعة معنى الثورة، أيها الواهب للقدر ذكاءه واتزانه، أيها الواضع في الزهرة ألوانها وشذاها، أيها الجاعل للكون والحياة معنى وتفسيراً، إنك ثائر، والثائر هو الذي أعطى الأرض خصوبتها، والشمس ضخامتها وحرارتها وطلعتها، والإنسانية حضارتها، والحشرة نظافتها، وأعطى الذباب فروسيته وجرأته وصفاقته.

وليس في الكائنات كائن واحد يطلب المديح ويعطيه غير الإنسان. وأيهما نشأ أولاً: رغبة الإنسان في أن يكون ممدوحاً أم موافقته على أن يكون مادحاً؟ وهل إعطاء المديح هو الذي صنع الرغبة في طلبه أم طلبه هو الذي أوجد من يعطونه؟

ما أكثر ما جنى البشر على آلهتهم وأفسدوها بالمدائح التي شوهوها بها، لقد أرادوا مدحها فوصفوها بأسوأ أوصاف الذم، وأرادوا أن يصلوا لها فلعنوها وحقروها بما وجهوا إليها من صلوات فيها كل بلاغات الهجاء وإساءاته.

وأيهما مارس الإنسان أولاً: الذم أم المدح؟ المفروض أن الذم أسلوب من أساليب التعبير عن الغضب أو الاحتجاج أو الاستبشاع أو الألم أو الحزن، وأن الامتداح تعبير عن الارتياح أو الإعجاب أو الرغبة أو التوافق أو الشهوة أو السعادة. ولكنهما معاً ـ أي الذم والمديح ـ قد تشوها وتشوهت حوافزهما وتشوه المستعملون لهما وتشوه من يستعملان ضدهم.

إن المادح ليس إلا إنساناً باكياً أو خائفاً أو محتجاً أو لاعناً أو سارقاً أو مقاتلاً أو كارهاً جداً.

*

لقد كانت حسابات الصحافة في مواقفها المتناقضة والمتوزعة حسابات مكتبية وذاتية، ولم تكن فيها أية حسابات أخلاقية أو وطنية أو إنسانية أو فكرية. إن انتصارها للصدق أو الحقيقة أو العدل في حكم حساباتها الذاتية والمكتبية لن يعطيها حظوة ولا مالاً ولا رسوخاً أو أماناً، بل المفروض أن يعطيها الموت أو الخراب أو الفقر أو المطاردة والمصادرة والمحاكمات والسجون. أما انتصارها للكذب القوي أو للفساد الغني الغبي فإنه يعطيها كل ما تبحث عنه ويقيها الشرور والأخطار التي تخاف. ولم يكن من الممكن أن تركب فيها وفي القائمين عليها ضمائر أنبياء أو ملائكة لتختار العذاب أو الخوف النبيل على الأمان والمزايا المغرية المحرمة. وهل الأنبياء والملائكة سيختارون غير ما اختارت الصحافة لنفسها لو كانوا في مثل ظروفها ومواقفها وشهواتها؟ وهل يوجد كائن هو أنبل أو أفضل من كائن آخر، أم يوجد كائن هو غير كائن آخر؟ وهل يمكن أن تختار الموت في المعبد والدفن مع النبيين في مقبرة واحدة مجاورة للآلهة على النجاح والربح والانتصار والحياة الطيبة في قصور الأبالسة مع منادمة الأبالسة؟

وهذه الحسابات المكتبية التي يجريها الصحفيون فوق مكاتبهم هي التي جعلت الكثيرين يبيعون أنفسهم بلا أية شروط لكل طاغية قوي أو فاسد غني. ماذا يربحون ويخسرون إذا مدحوا القادرين والطغاة والمالكين لكل شيء، وماذا يربحون ويخسرون إذا قاوموا هؤلاء ماذا يربحون إذا وقفوا مع الصدق والذكاء، وماذا يخسرون إذا مدحوا القادرين والطغاة والمالكين لكل شيء، وماذا يربحون ويخسرون إذا قاوموا أو رفضوا الزور والكذب والغباوات القادرة؟ من أظلم وأقبح ما اختار كثير من الصحفيين لأنفسهم وقوفهم مناصرين لطغاة يحكمون بلاداً أخرى أو بلاداً مجاورة لبلادهم. لقد حسبوا لأنفسهم فوجدوا أنهم إذا مدحوا هؤلاء الطغاة ربحوا وأخذوا ولم يخسروا أو يعطوا شيئاً، أما لو ذموهم أو قاوموهم فإنهم يخسرون ولا يأخذون شيئاً، إنهم يأخذون من امتداح هؤلاء الطغاة ولا يعطون، يأخذون رضاهم، وفي رضاهم كل الاحتمالات المرغوب فيها، ولا يعطون شيئاً لأنهم ليسوا رعايا لهؤلاء الطغاة الذين يبيعون أنفسهم لهم بيعاً، ليسوا مواطنين في هذه الشعوب المقهورة ليفقدوا كرامتهم وحريتهم وشرفهم بلا ثمن، إنهم يريدون أن يبيعوا ذلك بيعاً وقد وجدوا المشتري. ولأنهم من جهة أخرى إذا عاونوا هؤلاء الطغاة الأقوياء على سلب حرية وشرف مجتمعهم صاروا جزءاً من الجهاز القوي المسيطر السالب لحرية الآخرين وكرامتهم، وهذا يشعرهم بالقوة والرضا عن النفس.

كنت كثيراً ما أقول لكتّاب بلد عربي فيه حرية وليس فيه فضيلة الحرية: إنكم تدعون إلى مائدة ترفضون الأكل منها وإلى دين ترفضون الإيمان بأربابه وأنبيائه! وكان هؤلاء الكتّاب

يبشرون بأنظمة مجاورة لهم فيها أقسى أساليب الطغيان والإذلال لشرف الإنسان وفكره، بينما يرفضون ـ أي هؤلاء الكتّاب ومجتمعهم ـ أن يكون لهم شرف الدخول في فردوس هذه النظم أو دخولها هي عليهم بلدهم، إنهم يمدحون هذه الأنظمة وطغاتها لجيرانهم ويخافونها على أنفسهم، فكانوا في هذا من أظلم الناس وأشدهم بذاءة أخلاقية. وما مثلهم إلا كمن يساعدون على شب الحرائق في بيوت جيرانهم وأصدقائهم إذا كانت هذه الحرائق لن تصل إلى بيوتهم هم. لقد كانوا ـ مع دعايتهم الضاجة لهذه الأنظمة ولطغاتها ـ لا يطيقون أن يتصوروا وقوعهم في قبضتها ولو احتمالاً من الاحتمالات.

وكان هؤلاء الكتّاب يباهون أحياناً أو يستشعرون المباهاة بالحرية التي يعيشها وطنهم بين أوطان كلها معادية للحريات فكنت أقول لهم: أيهم أعظم فضيلة، قوم حرمت عليهم الحرية أم قوم يملكون حرية يبيعونها لأعداء الحرية؟ ذلك لأن هؤلاء الكتّاب ـ كتّاب البلد الذي فيه حرية لا يحترمون حقوقها ـ قد باعوا أنفسهم بالتوزيع وأحياناً بالتعاقب للحكام المجاورين لوطنهم الذين طهروا أوطانهم من وساوس الحرية وشرورها وفوضاها، فكان لكل حاكم من هؤلاء الحكام نصيب من هؤلاء الكتّاب يضعون كل ما فيهم من موهبة وقدرة على الكذب والنفاق في خدمة طغيان هذا الحاكم وجنونه ومظالمه، لا يحاسبونه على شيء منها، بل ولا يشعرون بأي احتجاج على أنفسهم حينما يجعلون كل ما يقول أو يفعل ذلك الحاكم الذي باعوا له هوانهم، النموذج الأعلى في النضج والذكاء والعبقرية.

وهؤلاء الطغاة المعادون للحريات الذين باع لهم هؤلاء الكتّاب هوانهم يحاربون كل قيد قد يوضع على حرية التعبير في ذلك البلد الذي اشتروا حريته، ويناضلون لكي تبقى له كل الحريات التي سحقوها في مجتمعهم، وذلك لكي يستطيعوا شراءها، إذ لو وجد في ذلك البلد من يسحق حرياته كما سحقوا هم حريات بلدهم لما وجدوا حرية بذيئة يشترونها. وهذا أسلوب ممتاز من الأخلاقية الثورية التي يتحدثون عنها دائماً، ويباهون بها العالمين، ويتكبرون بامتلاكهم لها على التاريخ.

والكتّاب الذين يبيعون بذاءاتهم بهذا الأسلوب الذليل لا يرون حتماً ضخامة الافتضاح والبشاعة والدمامة التي يتزيون بها حينما يذهبون يشنون الحملات الهائلة الغاضبة على حكومتهم لو أنها حاولت أن تمس الحريات التعبيرية بأي قيد من القيود، إنهم حينئذٍ سيصلونها أضخم الهجمات بحجة الدفاع عن الحرية والغضب لها، ثم يباركون بحماس ذليل كل عمليات القتل التي يمارسها أولئك الطغاة الآخرون ـ أولئك الطغاة الذين باع الكتاب حياءهم لطغيانهم بلا شروط أو تحفظات.

ومع هذا فإن هؤلاء الكتاب يزعمون لأنفسهم ـ وقد يزعم لهم المجتمع ـ أنهم رسل لا

غرض لهم إلا أن يموتوا بشرف وتضحية في سبيل رسالتهم إن من أروع ما في البشر قدرتهم العجيبة على التعامل بالخداع ثم يبدون وكأنهم يتعاملون على أعلى مستويات الصدق.

*

هذا هو حساب الكاتب حينما يستل قلمه للدفاع عن رذائل وضع مستبد فاسق.

وأنا لا أريد أن أستنكر زيغ الصحافة، ولا أنوي نصحها أو طلب الهداية لها من الله أو من ضميرها. فالصحافة لا ترشد أو تضل ولكنها تستطيع أو لا تستطيع، تكسب أو تخسر ـ وكذلك جميع الناس. ولو رجونا منها أن يكون لها حافز غير إرادة النجاح والربح وغير الخوف والأنانية لرجونا منها أن تكون حية ميتة أو أن تكون حية بصفات ميت، ولو تخلصت من هذا الحافز الذي تعده مذاهبنا الأخلاقية ضالاً وشريراً لما كان ممكناً أن توجد أو تبقى أو تفعل الخير. إننا بالحوافز الشريرة ننتصر على الحوافز الشريرة، وبالأنانية نتخلص من الأنانية. ونحن بغير الحوافز الشريرة والأنانية لا نستطيع أن نفعل ما يتوافق مع احتياجاتنا وما يبدو وكأنه خروج على الأنانية والحوافز الشريرة.

إننا لو وعظنا الصحافة بأن تتخلص من الرذيلة التي تعطيها المجد والمال والحياة لتفعل الفضيلة التي تعطيها الفقر والهزيمة والموت لكنا وعاظ أموات لا وعاظ أحياء يموجون بالرغبات، ويتحركون بالجنس واللذة والخوف، ويقتاتون بحشرات الأرض وديدانها وهمومها. إن الناس لا يمكن أن يتركوا الرذيلة ليفعلوا الفضيلة التي لا تعطيهم مزايا الرذيلة. إن الفضيلة في كل حالاتها هي بحث عن المزايا لا عن أنبل سلوكين.

ومع هذا فمن المحتمل أن يكون للصحافة ضمير، ومن المحتمل كذلك أن يكون هذا الضمير هو المجتمع القوي الذكي المتكامل لو أمكن أن يوجد مثل هذا المجتمع. فالصحافة النظيفة هي التي تجد نجاحها في نظافتها وهي التي تخسر وتموت إذا تلوثت، إنها لا تختار سلوكها بل يفرض عليها، يفرضه عليها المستوى الإنساني والاجتماعي والتاريخي الذي تعيش فيه، وتفرضه على نفسها لأنها ليست حرة في أن تكون ضالة فاسدة، ولأنها لا تستطيع أن تكون رديئة. إن الجيد والقوي والذكي والعظيم لا يستطيع أن يكون رديئاً وضعيفاً وبليداً وتافهاً، كما أن الرديء الضعيف البليد التافه لا يستطيع أن يكون جيداً وقوياً وذكياً وعظيماً. وإذا استطاعت الصحافة أن تختار نفسها وكينونتها وخلقها وطريقها كان معنى هذا أن تضل أو كان محتملاً جداً أن تضل، والاختيار بين موقفين متناقضين طريق جيد إلى الزلل، بل الاختيار بين شيئين معناه العجز عن أحدهما، أي عن أفضلهما، فالاختيار بين الذكاء والغباء معناه العجز عن الذكاء. وهل هو عجز عن الغباء أيضاً؟ إن الذي يستطيع أن يختار سلوكه، أي يستطيع أن يكون رديئاً ويكون فاضلاً لن يستطيع أن يكون دائماً فاضلاً أو لا بد أن يكون رديئاً ولو أحياناً

كثيرة. والذي يستطيع أن يختار ذاته لن يختارها على نحو معقول أو لن يستطيع أن يختارها بالأسلوب الذي نريده أو بالأسلوب الذي يتوافق مع ما نريد.

وأرقى المستويات الاجتماعية والتاريخية والذاتية هي التي تبلغ طور الجبرية ـ الجبرية التي يفرضها السلوك الجيد والمستوى الناضج. والمجتمعات المتخلفة والمنحلة والضعيفة ليس فيها جبر لأنه ليس فيها نضج ولا قوة ولا مستويات إنسانية أو اجتماعية متقدمة. إن هذه المجتمعات تستطيع أن تضل وتذل وتشقى لأن مستوياتها لم تتكامل لتلزمها بالجبرية الذاتية أو الاجتماعية. ووجود حرية الفساد يؤدي حتماً إلى الفساد.

والجبرية التي تفرضها الحرية المتكافئة ويفرضها النضج الاجتماعي والتاريخي والذاتي هي الشوط الأعلى لتقدم الإنسان وتكامله. والفرق بين الأخيار والأشرار أن الأخيار يختارون سلوكهم اختياراً جبرياً أو يجبرون عليه جبراً حراً، أما الأشرار فيفعلون سلوكهم بجبر ذاتي وحرية اجتماعية، أي أن المجتمع يمنحهم الحرية في أن يكونوا أشراراً ولصوصاً وجهلة ومهرجين لأنه لا يستطيع ولا يعرف كيف يجعلهم مجبورين ذاتياً واجتماعياً على أن يكونوا أخياراً. إن الرجل الصالح في المجتمع المماثل لا يستطيع أن يختار بين سلوكين. وجبرية حاكم من الحكام في أوضاع ديمقراطية ناضجة أكبر وأقسى من جبرية جماهيره.

إن المستهلكين للسلع هم الذين يحددون ـ أو هم أحد من يحددون ـ سلوك التجار والمنتجين، ويلونون سماتهم الأخلاقية لأنهم هم الذين يحددون ـ أو بعض من يحددون ـ علاقاتهم بالربح والخسارة والنجاح والسقوط. وإذا استطاع التاجر أو المنتج أن يعطينا سلعاً رديئة لنعطيه الثمن الذي يريد ويطالب به دون أن نعلم ونكتشف ودون أن نحاسبه أو نسقطه فما الذي يحمله على أن يكون غير ذلك؟ هل هو الضمير أو الدين أو الشرف؟ ما أكثر ما تعرض هذه السلع الثلاث في الأسواق كلها كعملة دولية، ولكن لا يوجد مصرف واحد يقبل التعامل عليها تحت أي شرط من الشروط أو ضمان من الضمانات ـ أو هل هو الحق الذي يزعم كل الناس في كل العصور والمجتمعات أنهم يقتلون أنفسهم عشقاً له وسعياً إليه ودفاعاً؟ ولكن ما هو هذا الحق، هذا الصديق المجهول؟ أي يوجد ومع من يوجد وما صفاته وما هي جنسيته؟ إنه أنشودة يغنيها الجميع بطرب وارتجاف دون أن يوجد أي راهب من أي دين في أي دير أو معبد يقبل أن يزوجه من نفسه. إن التحدث عن الحق والأناشيد التي ترتل في جماله وحبه نوع من الصلوات التي تتلى على الموتى. والبشر جميعاً عاجزون عن اتباع الحق والاحترام له بقدر ما هم عاجزون عن معرفته.

إن الحق كائن غريب طريد شريد منذ بدأ الإنسان يتحدث عنه، ولم يجد منذ ذلك التاريخ من يمنحه جنسية وطنه، أو يقبله مواطناً ضعيفاً في بلده مع ادعاء الجميع له وسجودهم جميعاً

تحت عرشه الذي يجب أن يظل دائماً بعيداً ومجهولاً وطريداً وإلا وجب شنقه!

إذا كان التجار والمنتجون يعلمون أن متاجرهم وأعمالهم سوف تغلق وتصادر إذا اتقنوا وصدقوا، وأنهم سوف يظفرون بأعظم الأرباح والمزايا والقوة والأمان إذا أساؤوا وكذبوا وسرقوا وزوروا فماذا نرجو أن يصنعوا أو ماذا يمكن أن يصنعوا؟ والصحافة في كثير من المجتمعات تعمل تحت ظروف يقتلها فيها الصدق والنزاهة والشرف. ولهذا فإنه من المستحيل أن توجد صحيفة واحدة في أي مكان تستطيع دائماً أن تكون صادقة شريفة نزيهة مهما كانت رغبتها في أن تكون كذلك وبقدر ما هو مستحيل أن تطلع الشمس حيث يجب أن تطلع، وأن تكون بقدر ما يجب أن تكون، وأن تعامل الناس والأشياء كما يستحقون، فإنه مستحيل أن تكون صحيفة واحدة في أي مجتمع على مقاييس الصدق والنزاهة والشرف الذي تتحدث عنه وتدعو إليه. وكل الأشياء ـ والصحافة هي أحد هذه الأشياء ـ محكوم عليها بأن تعمل في ظروف معادية لها، أو لا يمكن أن تعمل تحت ظروف مصادقة لها دائماً.

إن خلق المجتمع ووعيه هما أحد العوامل التي تصوغ أخلاق المتعاملين معه وتحرك ضمائرهم. والضمير نفسه ليس إلا شهوة من الشهوات المتحولة المتحركة. والصحافة هي إحدى القوى العاملة في المجتمع المتعاملة معه، فالمجتمع لا بد أن يكون صانع الضمير الصحفي والسلوك الصحفي أو مشاركاً في صنعهما، فإذا كان المجتمع قوياً ومتطوراً ونظيفاً فإن ضمير الصحافة لا بد أن يكون متأثراً بذلك، وسيكون سلوكها باحثاً عن التوافق مع نضج المجتمع وقوته ونظافته. ولأن الصحافة حرفة وليست نبوة فإنها مضطرة إلى أن تستقيم وتنظف ثيابها الخارجية إذا كانت الظروف تكرهها على ذلك مهما عجزت عن تنظيف ضميرها وملابسها الداخلية. واستقامة الصحافة خضوع وتلاؤم وليس فضيلة. أما إذا كان المجتمع متخلفاً وفاسداً وعاجزاً فإن الصحافة ستكون حينئذٍ أكثر فساداً وتخلفاً وسوءاً، فالصحافة لا تكون خيراً من الذين يتعاملون معها والذين تعمل فيهم، والضمير الصحفي هو إحدى صيغ المجتمع، وليس هو الذي يصنع صيغ المجتمع، أي أن المعلم لا يكون أفضل من الذين يحاول أن يعلمهم، وأن النبي ـ أي نبي ـ لا يكون خيراً من الذين يجيء لهدايتهم بالحافز أو الضمير أو الخلق!

والفرق بين صحافة وصحافة يساوي الفرق بين مجتمع ومجتمع، والفرق بين مجتمع ومجتمع يساوي الفرق بين حالة وحالة ومستوى ومستوى وتاريخ وتاريخ.

إن القارىء والمعلن والكاتب ليقاسمون الصحيفة الرديئة جريرتها وأخطاءها بل وغباءها إذا تعاملوا معها، وهم يستطيعون أن يسقطوها أو يرتفعوا بها لو كانوا واعين وطيبين. والمتعاملون مع الصحف الخاطئة هم أكثر خطيئة من أصحابها لأن أصحابها ينتفعون بخطاياها أكثر من المتعاملين معها، فلهم من العذر أكثر مما لأولئك. وإن الذي يأجر على الرذيلة أسوأ من الذي

يؤجر عليها. ومع هذا فمن الممكن أحياناً أن يكون بعض المتعاملين على الصحف الخاطئة أكثر انتفاعاً بها من أصحابها. وهل يمكن أن يتعامل مع الصحف الخاطئة وغير الخاطئة من لا يستفيدون منها؟

إن القارىء قد يكون هو وحده المسؤول عن الصحافة الرديئة والصحافة الجيدة أكثر من مالكيها ومن المنتفعين بها، الخالقين لها، لأن القارىء لو رفض قراءة صحيفة ما لما وجدت من يعلن فيها ولا من يرغب في أن تكون خادمة عميلة له، وحينئذٍ لا بد أن تسقط وتموت جوعاً وخمولاً. إن القارىء يستطيع بتصرفه نحو الصحافة أن يحدد اتجاهاتها ويصوغ أخلاقها ويجعلها صالحة أو طالحة، معه أو ضده دون أن يخسر شيئاً. فالصحافة لا تتعامل مع الفراغ ولا مع نفسها، إنها لا تعشق نفسها ولا تتزوج بجمالها، هي تبحث عن الأخدان وتعيش فيهم ولا تعيش في ذاتها وعلى حساب ذاتها مهما عاشت لذاتها.

إن الصحيفة المنافقة أو الغبية أو المضللة لا تستطيع أن تكون كذلك إلا بمساعدة من توجه إليهم نفاقها وغباءها وتضليلها، فلو أنها كانت غير مقروءة ـ كما سبق ـ لما اهتم بها القادرون الفاسدون، ولما خصوها بنعمائهم ورضاهم، ولما أعلن فيها المعلنون. إذن فالذين يقرؤونها هم الذين يصنعون كل أسباب نجاحها وبقائها، وهم في الواقع الذين يهبونها الاعلانات والتأييد الذي يخصها به القادرون الفاسدون. إذن فالمجتمع هو الكائن الفاسد الذي يرشو الصحافة الفاسدة ويهبها القوة والبقاء، وهو كذلك التاجر الذي يعلن فيها لأنه هو الذي يقرؤها.

ولكن هل أريد هنا أن ألوم المجتمع أو أنصحه لأنه يخلق الصحافة الشريرة أو لأنه لم يسقط مثل هذه الصحافة؟ إن نصح المجتمع وملامه ظلم وعبث ـ نصيحته عبث لأن النصيحة لا تفيد. وإذا لم يستطع ـ أي المجتمع أن يفهم ضلال صحافته الضالة، أو يتصرف إزاءها لو استطاع أن يفهم فكيف نرجو منه أن يفهم صدق هذه النصيحة لو قرأها أو يتصرف كما ينبغي لو قرأها وفهمها؟ إذن النصيحة هنا عبث، كما أن الملام هنا ظلم، إذ كيف يجوز أن نلوم من لم يستطع أو من لم يعرف أن يدفع أعداءه أو ينتصر لنفسه؟ إن المطلوب هو الرثاء لمثل هذا، لا اللوم.

إن المجتمع لم يرد أن يحارب نفسه حينما تصرف تصرفاً جعل الصحافة الفاسدة تعيش وتصيب القوة والمجد. المجتمع لم يحاول أن يعادي نفسه ولكنه لم يستطع أن يعرف كيف يحمي نفسه أو يدافع عنها أو يثأر لها. والعجز دائماً هو إما في القدرة أو في المعرفة، وليس في الخلق. والعجز في الخلق هو عجز في القدرة أو في المعرفة. فالضعيف الخلق أو المنحرف الخلق هو إنسان عاجز في قدرته أو في معرفته. وهذا العجز نسميه ضعفاً في الخلق، وهي تسمية غير دقيقة. وقد كان المعلمون والوعاظ والكتاب ظالمين وقساة وعابثين في كل التاريخ حينما كانوا يشنون الحملات الجارحة الغاضبة من النصائح والتقريع والزجر للمجتمعات التي لم تستطع أن

تكون في قوتها ومنطقها ومشاعرها وجميع سلوكها طبق التصور الذهني أو الخيالي الذي تصوروه جزافاً لها. لم يدرك هؤلاء الناصحون والمعلمون اللوامون أن المجتمعات لا تكون إلا ظروفها وذوات أفرادها واحتياجات وطاقات هؤلاء الأفراد، وإنها لا خيار لها في أن تكون ذلك أو في ألا تكونه. لم يدركوا أن المجتمعات تحشد وتدفع أو تندفع فتكون خيراً أو شراً، قوة أو ضعفاً، أي أنها توضع في الظروف وضعاً أو تجد نفسها في الظروف الملائمة أو المضادة، فتتحرك فيها بكل احتمالات قدرتها المتحركة، ولكنها لا تكون هذا أو هذا بالدعوة أو الملام. إن المجتمعات تنتظر من يحركها ويدفعها ويفرض عليها أن تكون، ولا تنتظر من يدعوها أو يلومها أو يصنع لها أجمل النصائح الغالية البليغة. إن كل المجتمعات قد تكون بلا نصائح ولكن أي مجتمع لن يكون بالنصائح.

لم تكن المجتمعات في أية فترة من فترات التاريخ هدفاً أو رسالة يؤديها المعلمون والأنبياء والمصلحون ضد أنفسهم وراحتهم واحتياجاتهم، بل لقد كانت المجتمعات في كل التاريخ وسيلة تعبير، ولغة ذات، ومكان عرض يتعرى فيه المعلمون والدعاة والمصلحون بجرأة ونشوة كأنهما جرأة ونشوة التعري أمام الوظيفة الجنسية، ويطلقون عليها ـ أي على المجتمعات ـ كل ما يعانون من آلام وهموم ونقائص وحاجة إلى الصياح والبكاء والسباب. إن الحاجة إلى السباب والاتهام هي أحد الأسباب التي تصنع المصلحين والدعاة والمعلمين والكتّاب، إنهم محتاجون إلى أن يسبوا ويتهموا، فيتحولون إلى دعاة ومصلحين وكتّاب، لكي يجدوا مسوغاً، لكي يؤدوا احتياجهم إلى السباب والاتهام تحت أسباب مشروعة أو مقبولة.

إن العاملين في أجهزة الوعظ والإصلاح قوم يتحدثون إلى أنفسهم بأعلى الأصوات باسم الحديث إلى المجتمعات، لقد ظلت المجتمعات في كل العصور يضحى بها بحجة التضحية من أجلها، ويسبها ويتهمها ويقتات بلحمها المفترسون المتوحشون والجائعون من البشر بحجة الغيرة عليها والعمل من أجل انقاذها وهدايتها. فالمعلمون الذين يلومون المجتمعات وينصحونها بتوتر وغضب، لا يفعلون ذلك لأنه عدل أو نبل أو لأنه مفيد، بل لأنهم هم محتاجون إلى أن يصنعوا من أنفسهم قذائف ورصاصات يطلقونها على الآخرين بلا رحمة أو غيرة، ومحتاجون أيضاً إلى أن يعرضوا أنفسهم في الأسواق العامة المزدحمة بالهموم والآلام.

لقد كان الحوار مع المجتمع والحديث إليه هما أفضل وسائل الحوار مع النفس والحديث إليها. ولم تكن جميع النبوات إلا حديثاً عن النفس ومع النفس وإلى النفس بواسطة المجتمع، ولم تكن حديثاً إلى المجتمع أو مع المجتمع أو عن المجتمع بواسطة النفس.

*

وكما اني لا أريد أن ألوم المجتمع فإني كذلك لا أريد أن ألوم الكتّاب، بل قد أتصور أحياناً

أن لهم عذراً لا يحتاج لقوته ووضوحه إلى تزكية، وقد أشعر نحوهم بالرثاء بدل الغضب. ولكني مع هذا قد أقتنع بأن الذي يسرق ليعيش قد يكون أخف ذنباً من الكاتب أو المعلم أو المصلح الذي يكذب ويضلل ليعيش. وما أقبح الخيار بين أن نسرق لنعيش وبين أن نكذب ونخدع لكي نستطيع أن نعيش. وهل الحياة هي دائماً خيار بين ضلال وضلال، أو ألم وألم، أو كذب وكذب، أو هوان وهوان، أو تفاهة وتفاهة؟

والمشكلة الدائمة أن المجتمعات قد تتقبل وترحب بالمعلمين والدعاة والكتّاب الذين يعيشون بالكذب عليها والخداع لها وتضليلها في الدين أو السياسة أو المذهبية أو الوطنية أكثر مما تتقبل أو ترحب بسرقة واحدة، ما لم تكن هذه السرقة محللة بالتعاليم المختلفة. والتعاليم هي إحدى وسائل التحليل الكبرى للسرقات والمظالم والحماقات.

إن أخطر ما في الصحافة أنها لا تعمل لمصلحة من تعمل فيهم أو معهم، بل تعمل لإرضائهم أو خداعهم أو اقتناصهم والانتصار عليهم، وهذا يجعلها دائماً مضللة لا معلمة، وإذا علمت فبإرادة التضليل لا التعليم.

*

وهذا الاتهام للصحافة مقصود به كما هو ظاهر الصحافة المملوكة للأفراد أو التي تعمل تحت النظام المعروف بالنظام الحر أو الديمقراطي. أما الصحافة التي تملكها وتفكر لها وتكتبها الدولة أو الحزب الواحد أو الحاكم الفرد الذي تجمعت فيه كل الدولة وجميع أجهزتها فالأمر فيها أبشع وأخطر من كل ذلك. إنها حينئذٍ ليست صحافة ولكنها أوامر عسكرية بوليسية وقصائد مديح فيها كل أفانين الغواية. إن الصحافة في مثل هذه الظروف فرق من الجيش والبوليس في شكل كلمات وأوراق لحماية الحاكم أو الحكم أو النظام أو الحزب، وللدفاع عنه والخداع به بكل الأساليب القتالية، ولتزوير المزايا لأولئك المسيطرين والإعلان عنهم ومحاولة الإقناع بهم بأسلوب إملائي لاهوتي كئيب المنطق والبلاغة والصوت والأخلاق!

إن الصحافة وأجهزتها في مثل هذا العهد أقل من أن تتهم ببيع الشرف والذكاء والحرية، إنها لا تملك شيئاً لتبيعه، إنه لن يبقى لها شرف أو ذكاء أو حرية خاطئة لتباع في مثل هذا العهد، إن كل شيء فيه يغتصب اغتصاباً، وألذ عمليات الاغتصاب إلى شهوات هؤلاء المغتصبين هي عملية اغتصاب الشرف والذكاء والحرية. إن الصحفي في عهد الحرية المذنبة يبيع شرفه وهو يشعر أنه يملك شيئاً يبيعه ويساوم عليه ويستطيع أن يوقف عملية البيع ويرجع عنها ويجعلها موقتة أو جزئية، كما يستطيع أن ينقلها من مشتر إلى مشتر آخر، وأن يقارن بين هذا المشتري وذاك، ويستطيع أيضاً أن يتوب منها ـ أي من عملية البيع ـ وأن يضع لها شروطاً وألا تكون مفتضحة ومهينة كل الافتضاح والإهانة.

إن المشتري لا يكون في مثل هذه الظروف مالكاً لكل الموقف، ولا قادراً كل القدرة، ولا فاجراً كل الفجور، ولا مستبداً كل الاستبداد، أي أن البائع حينئذٍ لا يزال موجوداً له شيء يقبله وشيء يرفضه وشيء يجادل عليه أو يتستر عليه، وليس محكوماً عليه بأن يلقي بكل ذاته في أوحال العار والهزيمة. أما في عهد امتلاك الدولة أو الحزب أو الحاكم المطلق للصحافة فإن الصحفي لا يملك حينئذٍ شيئاً من هذه المزايا الأليمة، أي إنه لا رأي له في ذاته، ولن يستشار أو يرفق به في الحكم عليه والإلقاء به مفضوحاً عارياً أمام النظارة والمارّة، إن الصحفي حينئذٍ رقيق بقسوة ووحشية.

الصحفي في الحالة الأولى مثل المرأة التي تبيع نفسها أو بعض نفسها لمن تريد، لهذا أو هذا، أو لهذا وهذا وهذا، وتستطيع أن تسترد البيع في أي وقت، أو تنقله إلى عميل آخر وبشروط أخرى. أما الصحفي في الحالة الثانية فإنه يشبه المرأة التي تغتصب كل عفتها بالقهر والخوف من غير بيع أو تثمين أو مساومة، ومن غير تجزئة ولا قدرة على الرفض أو الهرب، ومن غير أية شروط من أي نوع، إن من لا تختاره أو تشتهيه يقتات بعفتها ويفرض عليها نفسه ووحشيته بكل قسوة ووقاحة. إن الصحفي في مثل هذه الحالة يشبه المرأة التي ينتهك عرضها بلا شهوة ولا أجر. وهل يوجد أقسى إذلالاً وظلماً لأية امرأة من أن تفقد حصانتها بلا حب وبلا ثمن، ثم تقهر على أن تبدو كعاشقة مجنونة بعشقها؟ والصحفي في عهد الطاغية القاهر مثل هذه المرأة، والأجر الذي يأخذه ليس أجراً، وإنما هو طعام السخرة ليبقى عاملاً في أجهزة الطغيان.

تحت سلطان الطاغية تتحول الصحافة إلى راهب جبان كذاب، يقيم الصلوات الضارعة المنافقة لشهوات هذا الطاغية وأكاذيبه وجرائمه برهبانية ذليلة من غير انتظار لجنة أو لثواب بل خوفاً من النار، والمفروض في الآلهة القديمة أن تتكافأ رهبتها مع الرغبة فيها أو تتغلب الرغبة، يتكافأ الخوف من نيرانها مع الطمع في جناتها أو تنتصر جناتها على نيرانها. أما هؤلاء الطغاة فلا شيء يتكافأ مع الخوف منهم، أو يتكافأ مع ضخامة نيرانهم.

إن الصحفي في عصر الطغاة راهب يصلي بخوف وخنوع عظيمين، ولكن بلا إيمان أو طهارة أو أمل أو انتظار ثواب.

ولن يوجد عدو للحقيقة والذكاء والصدق والشرف والناس مثل الصحافة الخاضعة لاستبداد حاكم مطلق استطاع بوسائل شيطانية أن يسحق جميع القوى المعارضة، وأن يحول كل وسائل التعبير إلى أجهزة صلاة وتسابيح لحماقاته.

وإذا كان الجيش ـ أي جيش ـ هو عدو الإنسان الأول في عهد الطغيان فإن الصحافة هي عدوه الثاني في مثل هذا العهد، أو هي على الأقل أحد أعدائه الكبار. إن الصحافة هي إحدى قوى الحضارة الكبرى الرهيبة التي يمكن أن تكون قيادة هادية، كما يمكن أن تكون ضلالاً

كبيراً. والخطر على الإنسان أن احتياجاته التي تخلق جنته هي نفس احتياجاته التي تخلق ناره!

*

إنه يوجد الآن احتمال كبير كئيب، معنى هذا الاحتمال أن الكتّاب والمعلمين والدعاة والمفكرين سيكونون في المستقبل هم أكثر الناس مذلة وتعرياً وافتضاحاً وعبادة للأوثان. ذلك لأن هؤلاء هم الأجهزة الدعائية، والطغاة يزدادون على الأيام، ويزدادون ضراوة وتوحشاً وإخضاعاً للمجتمعات، لهذا فهم محتاجون حتماً إلى إخضاع الأجهزة الدعائية بكل قسوة وجنون. إذن فالمستقبل يعني أن يسقط جميع العاملين في أجهزة الكلمة والدعاية والفكر والمذهبية سقوطاً لا مثيل له في الهوان والبشاعة والنفاق، سيكون الكاتب والعامل في الدعاية هما أحقر من في المجتمع، سيكون المعنى: «هذا منافق، هذا ذليل، هذا تافه، هذا ساقط، هذا بلا شرف، هذا عدو للصدق والذكاء والناس» ـ حينما يقال: هذا كاتب، هذا صحفي، هذا يعمل في الإذاعة أو في أي جهاز من أجهزة الدعاية.

*

وإذا كانت الصحافة خاطئة تحت كل نظام وفي كل الظروف ـ مع استثناء أعلى المستويات في أعلى المجتمعات، وهو استثناء لا يمنع التعميم أو يصدمه لضآلته العالمية ـ فمتى إذن تكون الصحافة غير خاطئة؟

قد يكون الجواب عن هذا السؤال: إنه لا معنى لانتظار توبة الصحافة وتطهرها إذ لا أمل في أن تتوب أو تتطهر، والتوبة والطهارة ليستا ضرورتين من ضرورات الحياة والمجتمع، كما أنهما ليستا ضرورتين في اخضرار الحقول ونضج الثمار.

إن المفروض كما سبق أكثر من مرة أن الكلمة هي تعبير عن الذات من خلال الآخرين أو بواسطتهم، وليست تعبيراً عن الآخرين بواسطة الذات، إذن فالصحفي ـ وكذا كل معلم وصاحب رسالة ـ إنما يجد في المجتمع وفي كل شيء وسيلة أو أداة للتعبير عن ذاته، فالناس ليسوا إلا أشياء في حساب أنبيائهم ومعلميهم وكتّابهم، يتعاملون عليها وفيها، لا من أجلها. وهذا يعني أن يكون هؤلاء الأنبياء والكتّاب والمعلمون هم دائماً في الحوافز والأهداف نقيضاً أو منافسين أو مفترسين لمن يعملون فيهم أو من أجلهم على ما يظن ويقال، أي أنهم قوم يريدون أن يأخذوا وينتصروا على حساب المجتمع الذي يحاولون إصلاحه ويموتون في سبيله. هم إذن أناس يغزون المجتمعات ويحاربونها بأسلوب الوعظ والتعليم لها، إنهم خصوم ومقاتلون في زي أصدقاء ومدافعين،، إنهم آخذون جاؤوا بصيغة واهبين!

ماذا يريد التاجر وصاحب العمل والمنتج من المجتمع في النظام الرأسمالي الحر؟ إنه بقدر ما يريد التجار وأصحاب الأعمال والمنتجون في هذا النظام أن يخدموا المجتمع ويسعدوه بالتضحية

بأنفسهم وبسعادتهم، يريد أن يفعل مثل ذلك المعلمون والكتّاب وأصحاب الرسالات الإنسانية. وإذا كانت الحوافز والأهداف لا تختلف فإن النتائج ووسائل التعبير وأساليبه تختلف حتماً أشد الاختلاف بين الفريقين. فالتجار وأصحاب الأعمال والمنتجون يبحثون عن الربح والنجاح فقط، ويعطون المجتمع قيماً مادية حقيقية، أما الكتّاب والمعلمون وأصحاب الرسالات فهم لا يكتفون بالبحث عن الربح والنجاح، بل هم يريدون أن يتعالجوا بالمجتمع، بل ويشاتموه بكل ما في وجودهم وتاريخهم من آلام وأحزان، ويريدون أيضاً أن يحولوا المجتمع إلى معرض لعاهاتهم وآهاتهم، يريدون أن يحزنوا ويبكوا ويقهقهوا ضاحكين بعيون المجتمع وأعصابه، فوق محاريبه وفي معابده وصلواته وفي جميع أدوات تعبيره، ويريدون أن يخدعوه وينتصروا عليه ويسلبوه ذكاءه وحريته وكرامته بحجة تلقينه المذاهب والعقائد والآلهة. وهم لا يعطونه قيماً مادية بل ولا قيماً أدبية، وإنما يجربون عليه أنفسهم ويصعدون فوقه بتعليمه قيماً زائفة، إنها غواية يبحث عنها النبي وأتباعه، ويستمتعون بها!

وهنا لا بد أن نستثني أعلى المستويات في أعلى المجتمعات. ونحن لا نستثني هذه المستويات من حيث الحوافز والأهداف، بل من حيث أسلوب التعبير عن هذه الحوافز والأهداف. ونبل الحافز أو الهدف ليس قيمة من قيم الحياة ولا موضوعاً من موضوعاتها، والحياة والمجتمعات لا تتعامل على هذا النبل المنتظر. إن الحياة، وكذا المجتمع هما تعامل أسلوب مع أسلوب وتوافق تعبير مع تعبير، وليست الحياة أو المجتمع تعامل حافز أو هدف نبيل مع حافز أو هدف مماثل.

إن الأهداف والحوافز النبيلة لا حساب لها في الكون أو الحياة أو المجتمع، لأنه لا وجود لها لا في الكون ولا في الحياة ولا في المجتمع. إن الشمس والقمر والأرض لا تتعامل أو تتوافق بالحوافز والأهداف، وإن الأنهار والأمطار لا تتعامل مع الحقول والمراعي بالحوافز أو الأهداف ـ وهكذا كل شيء، وهكذا الإنسان. فالإنسان لا يتعامل مع أهداف الآخرين أو حوافزهم، بل مع تعبيراتهم وأساليبهم. إن البشر لو كانوا لا يتعاملون إلا بالحوافز والأهداف المتوافقة أو النبيلة لهلكوا ولما تعاملوا على شيء، لما تعاملوا مع أنفسهم ولا مع الآخرين ولا مع الأشياء. ماذا يحدث لو كان هذا الزعيم والزعيم الآخر، أو لو كان هذا البائع والتاجر، أو لو كان الإنسان والنهر أو الطعام لا يتعاملان إلا بتوافق الحوافز والأهداف أو بنبلها؟

لقد كان البشر في جميع العصور يعملون الأعمال المتوحدة بنيات مختلفة، بل بنيات متناقضة أو متخاصمة أو متقاتلة، ولم تكن العلاقة بين النية والعمل، أو بين العمل والحافز علاقة محبة أو توافق، بل لقد كانت دائماً علاقة مناورة ومراوغة وخداع. ولو وقع التوافق بينهما لكان توافقاً غير مشترط وغير مقصود.

*

هل الصرصار اشتراكي

«إن الصرصار يحيا كل حياته ويناضل ضد أن يموت أو يجوع أو يستسلم للأعداء، ويمارس أسمى الأخلاق أو ما ندعو مثله بأسمى الأخلاق حينما نمارسه نحن، دون أن تكون له ـ أي للصرصار ـ لغة فيها بلاغة وتعقيد وفوضى، ليحول هذه اللغة إلى شعارات وأكاذيب عقلية، ودون أن يكون له أي مذهب، أي دون أن يكون اشتراكياً أو رأسمالياً، ودون أن يعلن بمباهاة وتفاخر يثيران الاشمئزاز والغيظ أنه محايد وليس منحازاً كما انحاز الخونة الرجعيون أمثال أمريكا وحلفائها وروسيا وحلفائها، وأمثال جميع المتحضرين في العالم. إن الدولة المتنقلة بانتهازية بين الدول والكتل تصنع الخطر واحتمالات الحرب أكثر مما تصنع ذلك الدولة المرتبطة بكتلة من الكتل، كما أن المرأة المتنقلة بين الرجال تصنع بينهم الشر أكثر من المرأة المرتبطة برجل واحد.

... لو تصورنا هذا الكون الذي عبر فوقه الإنسان من وجوده القديم إلى وجوده الحديث ـ لو تصورناه من إخراج مهندس ما، لكان محتوماً أن نتصور هذا المهندس ضخم الجثة قويها، يملك ثروة هائلة من الموارد الطبيعية التي لا يعرف لها معنى ولا حساباً ولا يخشى عليها نفاداً ـ ثم لتصورناه بعد ذلك ضعيفاً جداً في الرياضيات والمبادىء الاقتصادية وفي فهم العلاقة بين الشيء والغرض منه، أي بين العمل والوظيفة.

هل أقيم هذا البناء أي الكون للزينة أم للإعلان والتباهي بالذات وعبقريتها أم للسكن؟ ومن هو الساكن حينئذٍ؟ هل هو الباني نفسه أم ضيف من ضيوفه أم هم البشر والحشرات؟ لو كان سكناً لكان أسوأ سكن يمكن أن يخطر على البال، ولو تصورناه للزينة أو التباهي بالذات لكان عاراً. لقد بالغ مهندسو هذا الكون في تضخيم جرمه على حساب ذكائه، وقد كان المنطق أن ينقصوا جداً من جسمه ويزيدوا جداً من حكمته. وهل يمكن أن يكون الفيل هو المثل الأعلى لوضع أكبر ما يمكن من العبقرية في أصغر ما يمكن من المساحة؟».

يأتي البشر إلى الحياة وفي تصميم وجودهم إلزام لم يعرفوه أو يختاروه، يفرض عليهم أن يكونوا ما هم كائنوه، فيكونون ما فرض عليهم أن يكونوا، دون أن يعرفوا أو يختاروا أو يستطيعوا ألا يفعلوا، ولكنهم في كينونتهم لا يجيئون متساوين لا أفراداً ولا جماعات. وفي الأغلب يكون هذا التفاوت الفردي والاجتماعي في الكينونة تفاوتاً متوحشاً لا منيل له في القسوة والظلم.

وبقدر ما فرض على البشر أن يجيئوا إلى هذه الحياة وأن يكونوا ما فرض عليهم أن يكونوا دون اختيار أو معرفة للحكمة في ذلك، فرض عليهم ألا يتساووا وأن يكون التفاوت بينهم متوحشاً وأليماً.

لماذا يصنع الناس الحياة، أو لماذا يصنعون أنفسهم ويصرون على الاستمساك بها، ولماذا لا يصنعون الموت، أي لماذا لا يريدون أن يصنعوا الموت، أعني لماذا لا يريدون أو يتعمدون أن يتوقفوا عن الحياة وعن عمل أي شيء يصنع الحياة أو يبقيها ـ ثم لماذا يتفاوتون فيما يصنعون وفي كينونتهم؟ لقد أصبح للناس جواب متقادم يقول: إنهم يفعلون ذلك بقانون الإرادة للبقاء. ولكن لماذا يريدون البقاء؟ إن إرادة البقاء شيء أو قانون أو ظاهرة أو حدث، فمن أين جاءت وتجيء، ولماذا جاءت وتجيء؟ إذا كانت الإرادة تخلق الإرادة فمن خلق الإرادة الأولى أو مجموع الإرادات أو كيف تخلق أو لماذا تخلق؟ وهل كل الأشياء تحدث عن أسباب إلا الإرادة فإنها تحدث بلا أسباب وتحدث نفسها دون أن يحدثها شيء ـ أو أن الإرادة هو السبب المستغني عن كل الأسباب؟ لماذا يريدون البقاء ولا يريدون الفناء مع أن البقاء توريط وافتضاح وعبودية وخوف ونضال بلا موضوع أو هدف، وسقوط في قبضة الطغاة والدعاة الأغبياء وتصادم دائم بالدمامات والأوحال والهموم الترابية، بينما الفناء نجاة وحرية واستقرار وارتفاع عن كل ما يمس النظافة أو الأخلاق أو الشرف والمثل، وعن كل حقد وحسد وبغضاء؟ إن الفناء هو الصديق الطيب المتسامح الذي قد كان والذي سوف يكون، أما البقاء فهو الضعيف الغادر المفارق الحزين الخؤون الكئيب.

إننا نريد التناقض، نريد الحركة والسكون، والوحدة والاجتماع، والنوم واليقظة، والإقامة والارتحال، والنور والظلام معاً، إننا نريد الشيء ونقيضه، لا نريد أحد النقيضين فقط، فلماذا إذن لا نريد الفناء كما نريد البقاء، ولماذا لا نريد السفر كما نريد الإقامة، ونريد النوم كما نريد اليقظة، ولماذا لا نريد الصمت كما نريد الكلام؟ إن الإرادة هنا ليست حرة وليست صانعة نفسها ولا السبب الأول، إن شيئاً ما أقوى منها وفوقها يصنعها ويصوغها ويحركها إلى كل اتجاهاتها المختلفة الغامضة البليدة.

الإرادة شيء فيه معنى الضرورة والإلزام والتفسير والتعبير عن شيء ما. نحن نريد الشيء

لأننا نحتاج إليه، ولأنه جزء منا، ولأن شيئاً ما يجعلنا نريده، ولا نريد أي شيء أية إرادة. إننا لا نريد فقط، ولا نريد شيئاً ما فقط، بل نريد على نحو ما شيئاً ما. إن الإرادة لا يمكن أن تكون مبدأ لكل الأشياء ولا جهازاً يضبط نفسه أو يوجه نفسه، إن الإرادة تابعة مهما بدت قائدة، إنها تابعة في الوقت الذي تكون فيه قائدة. ولماذا نريد البقاء مع أنه لا يمكن أن يكون احتياجاً من احتياجاتنا؟ البقاء ليس احتياجاً بل هو الذي يصنع الاحتياج ويديمه، وهو لا يسدد أو يغطي الاحتياج، بل هو الذي يفتح الاحتياج ثم هو الذي يتركه مفتوحاً. لا يوجد أحد ولا شيء يكون محتاجاً إلى وجوده قبل وجوده، إذن فالاحتياج لا يمكن أن يكون سبب الوجود، إننا ننطلق من البقاء ولا ننطلق إليه. الاحتياج تعبير عن البقاء، ولكن البقاء لا يمكن أن يكون تعبيراً عن أي احتياج. إن المنتحر والهارب من المعركة النبيلة ـ أي التي تدعى نبيلة ـ يتصرفان كلاهما بقانون وإرادة واحدة. والفرق في الخطة والأسلوب فقط.

*

لماذا يعمل النبات والحيوانات والأطفال والأجنة ـ لماذا يعملون الحياة ويتجهون بها اتجاهاً واحداً نحو التمسك بحياتهم وأنفسهم، ولماذا تصنع الجمادات وكل الكائنات غير الحية وجودها ونشاطاتها مطورة نفسها بلا ذكاء أو إرادة؟ ليست إرادة البقاء هي التي تجعلها تفعل ذلك، إنها لا تعرف معنى البقاء ولا وسائل المحافظة عليه ولا إرادته، لأنها كذلك لا تعرف معنى الفناء ولا وسائله أو وسائل الفرار منه. والإنسان طور أعلى من أطوار هذه الوجود، فيه كل قوانينه وصفاته. والفرق ليس إلا في الدرجة.

إذن ما هو القانون العام الذي يسوق الإنسان وكل شيء إلى أن يوجد ويدافع عن وجوده ويلتزم به،وإلى أن يحيا ويدافع عن حياته ويلتزم بها، وإلى أن يعمل ويفنى في عمله حتى ولو كان في وجوده وحياته وبقائه وعمله كل معاني السقوط والهوان والافتضاح وكل الآلام والطغاة والشيخوخة والمرض والكذب، دون أن يعرف لماذا يفعل، ولا ماذا يريد ولا ماذا يستفيد، ولا إلى أين يسير، ودون أن يجرب النقيض الذي يهرب منه ويرفضه ليعرف أنه ليس أفضل مما يفعل؟

إن الشمس والصرصار لا يوجدان أو يعيشان أو يناضلان بالمذهب أو العقيدة أو بالاختيار أو بالفضيلة أو بالمعرفة أو بإرادة البقاء، بل ولا بالخوف من الفناء، ولكنهما يفعلان ذلك بطاقة الاستمرار التي لا يعرفانها ولا يفكران فيها، ولم يختاراها أو يرغبا فيها ـ وهكذا الإنسان بنفس طاقة الاستمرار هذه يوجد ويحيا ويناضل بلا هدف مذهبي أو أخلاقي، وبلا ثمن أو اختيار أو إرادة.

إن الإنسان ومعه الوجود الحي كله يبقى ويعمل على مستوى أبله وتحت ظروف صرصارية

بطاقة الوجود والحياة معاً، أما الوجود الجمادي فيبقى ويعمل بطاقة الوجود وحدها. فالشمس مثلاً تعمل جميع نشاطاتها الكبيرة البلهاء بالطاقة، والإنسان يعمل كل نشاطاته السخيفة بالطاقة أيضاً. وكما تهب الشمس حرارتها وضوءها وشرفها ونفسها لكل كائن بلا حصانة أو كرامة بقانون الطاقة على الاستمرار، ثم تبقى كذلك متعالية في كبريائها غير رائية للمتألمين المسحوقين الناظرين إليها باسترحام وانكسار ـ كذلك يهب الإنسان أعماله الفكرية والأخلاقية والمادية بهذا القانون نفسه، لا بالإرادة ولا بالمذهبية أو الأخلاقية، دون أن يفكر هل وجوده أو أعماله هذه ستهبه السعادة أو تهب المجد للأرض أو للحشرات الضعيفة البائسة التي تنافسه على التراب والتي تعذبه ويعذبها في معاركهما فوق الوحل وتحته وبين شقوق المنازل المحكوم عليها بالموت.

ومن المحتوم أن نتصور أن أفكارنا ورغباتنا ومثلنا ومذاهبنا هي التي تصوغ نشاطاتنا وتوجهها وتهبها النظام وهي التي تأمرها وتنهاها. وهذا تصور لا بد منه، غير أن للحقيقة بقية أخرى أو تفسيراً آخر. فإذا رأينا أن مذاهبنا ومثلنا وأخلاقنا وإرادتنا هي التي تصنع كل نشاطاتنا كان علينا أن نسأل: وما الذي يصنع تلك المذاهب والمثل والأخلاق والإرادات، بل وما الذي يجعلنا نصمم على الاستجابة لها، ثم ما الذي يجعلنا نستطيع هذه الاستجابة؟ إن المذاهب والنظريات والمثل ليست شيئاً ولكنها تعبير عن شيء، إنها هي أناشيد الإنسان وقصائده ولغاته وتعبيراته عن ضروراته. إن المذاهب والنظريات والمثل هي التعبير عما في الإنسان من جوع وضعف وأنانية وعدوان وخداع وحتمية، وليست تعبيراً عما فيه، أو عما يتعشقه من نبل ونزاهة وصدق وفدائية وترفع عن أخلاق البراغيث ومشاعرها وضعفها واحتياجاتها. إن المذاهب وكل النظريات والعقائد حتى الآلهة قد تعبر عن الإنسان على نحو ما تعبيراً ما، ولكن الإنسان لا يعبر عنها أي تعبير، هي محكومة به وهو لا يحكم بها، إنه لا يخضع لها أو يحترمها إلا بقدر ما تخضع لها وتحترمها الصراصير حينما تسقط عليها مكتوبة على أوراق فيها بقايا طعام يطيب مذاقه لمجتمع الصراصير.

لماذا يضع الناس المذاهب والعقائد إذا لم تكن إحساساً أو شرطاً أو وجوداً أو حاجات في حياتهم؟ إنهم يضعونها لتكون إعلاناً عما يريدون ويستطيعون، لا لتكون قيوداً عليهم، إنهم يريدون أن تعيش فيهم لا أن يعيشوا فيها، وأن تطيعهم لا أن يطيعوها. إن المذهب أسلوب من أساليب رفع الصوت إعلاناً عما نريد لا عما نحترم أو نلتزم. الناس يجيئون وهم لا يعرفون اللغة ولا الكتابة ثم يتعلمونهما، ليس لأن اللغة أو الكتابة تعني معنى نبيلاً أو معنى منزهاً في حياتهم، ولا ليخضعوا لهما سلوكهم ورغباتهم، بل ليخضعوهما لضروراتهم وبذاءاتهم وليعبروا بهما عما فيهم من توتر وحاجة إلى التعري. وكذلك الناس يجيئون بلا مذاهب أو نظريات ثم

يتعلمونها لا لأنها تعني في تقديرهم قداسة أو معنى هو فوق الجوع والشهرة والرغبة في مخاصمة الآخرين وكراهتهم والدخول معهم في معارك من الملاعنات تحت شعارات مذهبية أو إنسانية.

إن الصرصار يحيا كل حياته ويناضل ضد الجوع والموت والأعداء، ويمارس أسمى الأخلاق أو ما ندعو مثله بأسمى الأخلاق لو مارسناه نحن، دون أن تكون له ـ أي للصرصار ـ لغة فيها الكثير من البلاغة والتعقيد والضوضاء والغموض، ليحول هذه اللغة البليغة المعقدة إلى شعارات وأكاذيب عقلية، ودون أن يكون له ـ أي للصرصار ـ أي مذهب، أي دون أن يكون اشتراكياً أو رأسمالياً، أو يعلن بمباهاة وتفاخر يثيران الغيظ والاحتقار أنه محايد وليس منحازاً كما انحاز الخونة والرجعيون والعملاء أمثال روسيا وأمريكا وتوابعهما وأمثال جميع المتحضرين في العالم نعم إن الصرصار لا يشتم ـ باسم المذهبية والحيادية ـ جميع العالم المتحضر ـ لا يشتم أمريكا وروسيا وكل أوروبا وكل المبدعين للحضارة الواهبين لها، لأنهم مشتركون في أحلاف، ومنحازون إلى كتل شرقية وغربية، ولأنهم ليسوا حياديين، كما يشتمهم هؤلاء الصغار الضعاف الذين لم يرتبطوا بتكتلات، لكي يتنقلوا بانتهازية وصولية نفعية دعائية بين التكتلات، ولكي يتحولوا إلى أدوات تحريش وتحريض ومساومات وتصادم بين الكتل المتحالفة، ولكي يكونوا في شرف ونزاهة المرأة التي تعرض نفسها على هذا وهذا وهذا، وتثير غيرة هذا وهذا وهذا، بالتقرب إلى هذا وإلى هذا أو إلى هذا، بدل أن ترتبط برجل واحد ارتباطاً شرعياً معلناً بالتزام أخلاقي تؤدي واجباته كما تبحث عن حقوقه. وإن المرأة التي توزع نفسها بانتهازية بين الرجال تصنع بينهم الحرب والشر أكثر من التي تكون لرجل واحد.

وإن الإنسان مثل الصرصار يحيا ويعمل ويناضل ضد الجوع والموت بالحوافز والقوانين التي يحيا ويعمل ويناضل بها الصرصار، والفرق بينهما أن هذا يعلن عن نفسه وعما يريد ويصنع بلا مذاهب ولا أخلاق ولا لغات ـ يعلن عن ذلك بالمذاهب والأخلاق واللغات، وأن الآخر لا يستطيع مثل هذا الاعلان.

البشر يستطيعون أن يحيوا حياتهم ويمارسوا كل عبقرياتهم وأعمالهم بلا مذاهب أو شعارات أو نظريات، كما يستطيعون أن يفعلوا ذلك بلا خصومات أو بغض أو حقد أو كذب أو تفاخر وسباب، وكما يشيدون البيوت والمصانع ويلبسون الأزياء المختلفة ويأكلون الضفادع والديدان والبقول ويذلون ويفقدون وقارهم أمام طغيان الجنس، ويغيرون أساليب الجلوس على المائدة بلا مذهب أو إله أو نبي، بل كما يكرهون الآخرين ويتعصبون ضدهم ويحبون أنفسهم ويتعصبون لها بلا كتب مقدسة تأمرهم بذلك، بل بالعصيان للكتب المقدسة التي تنهى عن

ذلك وتعاقب عليه بكل أصناف الوعيد. إنه ليس الفرق بين هذا الزي والبناء والمدينة وبين النقيض أو المخالف هو المذهب أو الدين أو الإله أو النظرية، بل المستوى والقدرة والتنظيم.

نحن نفكر ونريد ونضع الشرائع ونتألم ونغضب ونتحول إلى صيغ أخلاقية لأن فينا طاقة تخلق أو تكون وتعبر وتخرج نفسها دون أن تقصد معنى، ولهذا فإننا لا نكون كما نريد بل كما لا بد أن نكون. وستظل هذه الطاقة المفروضة علينا تكون نفسها حتى ولو حرم عليها أن تكون، لأنها لا تكون لأنه يجب عليها أن تكون، أو لأنها تعني أن تكون، بل لأنها لا تستطيع ألا تكون. إن كينونتنا وكينونة جميع الأشياء ليست فضيلة أو رذيلة، بل كينونة فقط.

*

كان الإنسان خاماً إنسانياً معتقلاً يتحفز في مناجم التاريخ لا يعرف نفسه ولا يعرفه أحد، لا يستطيع أن يرى الصورة التي ستكون صورته ولا يستطيع أن يتخيلها أو يختارها. ولو أنه رآها لكان محتوماً أن يهوله المنظر، ولو أنه كان مختاراً لها لكان محتوماً أن يختار كينونة وصورة أخرى مغايرة جداً. فمن المبدع العظيم أو الطاغية المتوحش أو صاحب المصلحة المجهول الذي أخرجه هذا الإخراج وجعله يتقبل ويعاني كل ذلك العذاب، ليعبر كل تلك المسافات من الفراغ، كي يصل إلى مكانه الممتاز أو مكانه العقيم الأليم الذي يجلس عليه اليوم بين حشود الحشرات والتفاهات والآلام في هذا الكون الكبير بلا وظيفة أو تدبير، الذي يبهر في قراءته ورؤيته ويصغر جداً في تفسيره، ويتعاظم في ضخامته ويتضاءل في منطقه، ويتكبر في مبناه ويتواضع في مستواه، ويتعب في فهمه ولا يعني شيئاً في حقيقته؟

إننا لو تصورنا هذا الكون الذي مر فوقه الإنسان هارباً من وجوده القديم إلى وجوده الحديث ـ نعم إننا لو تصورنا هذا الكون من إخراج أي مهندس لكان محتوماً أن نتصور هذا المهندس ضخم الجثة قوياً، يملك موارد هائلة من الثروات الطبيعية التي لا يعرف لها معنى ولا حساباً ولا يخشى عليها نفاداً، ثم لتصورناه بعد ذلك ضعيفاً في فنه الهندسي وفي مبادىء علم الاقتصاد وفي فهم العلاقة بين الشيء والغرض منه، أي بين العمل ووظيفته. ماذا يمكن أن نفهم من منطق المهندس الذي افترضناه في تصورنا المذكور مبدعاً لهذا الكون الضخم الجثة بلا معنى أو وظيفة أو هدف أو منطق؟ لقد أقام ذلك المهندس العجيب بناء ضخماً جداً تموت في تخيل اتساعه جميع أشواط التصورات، وألقى فيه من مواد البناء ومن كل الأشياء ما لا تستطيع كل العبقرية الحسابية أن تفهمه أو تحصيه مجرد فهم ومجرد إحصاء، ولكن دون أي فن أو حكمة أو منطق، بل دون أي مستوى من مستويات الذكاء. عجباً! كيف يستطيع المهندسون وعلماء الاقتصاد والمؤمنون بالجمال والباحثون عنه والمتذوقون له ـ كيف يستطيع هؤلاء النظر إلى الكون أو

التفكير فيه ثم لا تقتلهم البشاعة والاستفظاع والدمامات المتوحشة المفترسة لعيونهم ولتفكيرهم وخيالهم؟

هل أقيم هذا البناء ـ أي الكون ـ للزينة، أم للتباهي والإعلان عن الذات وعن عبقريتها، أم أقيم ليكون سكناً؟ ومن هو الساكن حينئذٍ؟ هل هو نفس الباني أم هو ضيف كبير من ضيوفه، أم هم البشر والحشرات؟ إن هذا الكون لو كان سكناً لكان أسوأ سكن وأغباه، إنه لا يتكافأ مع الحاجة ولا مع الراحة ولا مع الضرورة أو النظام المفترض والمطلوب، ولا مع المبادىء الاقتصادية ولا مع أي منطق هندسي، ولا مع منطق الساكن أو مشاعره أو ضآلته وصغر حجمه. ولو تصورناه للزينة والتفاخر وعرض الذات لكان تصوراً ممتلئاً بمشاعر العار. ولو أن جميع المهندسين وعلماء الاقتصاد والجمال والخبراء في فن التجميل في كل العالم في كل العصور طلب منهم أن يقيموا بناء لكي تسكنه الآلهة أو ضيوف الآلهة أو يسكنه البشر أو الحشرات والوحوش، أو بناء للزينة وعرض الذات وللتباهي بعبقريتها العلمية في أسمى ابداعاتها بل في أدنى مستوياتها، لما وجد أي احتمال لأن يتصور أحد منهم هذا الكون نموذجاً ولو مبتدئاً جداً لما طلب منهم. إن كل علوم الإنسان ومستوياته ونظرياته لتسخر من افتراض الكون سكناً لأي ساكن، ومن افتراضه عرضاً لزينة أو لعبقرية أو لذات مهما كان العارض.

إذن لو تصورنا الكون من ابداع أي مهندس لتصورنا هذا المهندس كائناً غريباً جداً، فيه كل الضخامة والثراء والإسراف وقوة البدن، وليس فيه أدنى مستوى من مستويات الذكاء أو المعرفة أو التوازن. إن مهندسي هذا الكون ـ أي على افتراض أن له مهندسين ـ قد بالغوا جداً في تضخيم جرمه على حساب ذكائه، وقد كان المنطق أن ينقصوا جداً من جسمه ويزيدوا جداً من حكمته. وهل يمكن أن يكون الفيل هو النموذج الصحيح لوضع أكبر ما يمكن من العبقرية في أصغر ما يمكن من المكان، أو أن يكون الجبل هو التصميم الأذكى للسكن الأفضل؟ إن الكون على افتراضه سكناً ليس أفضل من الجبل مفترضاً سكناً، وعلى افتراضه عبقرية ليس أفضل من الفيل مفترضاً أسمى احتمالات العبقرية. إنه إسراف لا مثيل له في الجسم، وتقتير لا مثيل له في العقل والمعنى حتى جاء أشوه جثة يمكن تصورها واحتقارها والتعجب من بلاهتها التكوينية.

ذلك هو الكون الذي خطا منه الإنسان إلى نفسه بلا هاد غير الظلام والألم والضرورة الغامضة الغبية. وكيف خطا الإنسان مرتفعاً من أعماق ذاته المدفونة في أعماق التاريخ وظلماته ليصعد إلى هذه الشرفة التي يحتلها اليوم تحت ضجيج متعال من مواكب الأقمار والأكوان الصناعية؟ لقد وجد الإنسان لقصة كينونته المتغيرة تفسيراً اطمأن إليه، إذ قال إنه قانون التطور، لقد صعد إلى مستواه الجديد وسوف يستمر يصعد ويصعد بالتطور.

ولكن التطور حركة فمن محركها؟ هو حدث من ورائه قوة تحدثه فما هي هذه القوة؟ إن كلمة التطور في تعبير الناس تشبه كلمة لاهوتية فيها حسم اللاهوتية وغموضها. وهم لا يسألون ما هو التطور أو لماذا يحدث، وإنما يقتنعون به ما يقتنع المؤمنون بالمعتقدات الدينية دون تساؤل أو شكوك أو تفاسير مفهومة، ويتناقلونها بعضهم عن بعض دون أن يضايقوا أنفسهم أو يضايق بعضهم بعضاً بالشك أو بالأسئلة المتعبة والمحرجة أو المفسدة لروعة الاقتناع.

إن التطور في كل أشكاله لا يعني أكثر من نشاط الطاقة وتراكم الذوات. فالحديث عن التطور مثل الحديث عن العمل لا يقصد به إلا أنه قوة مخلوقة لا خالقة، ولو كان خالقاً فمن خالقه أو يخلقه هو؟ إن كل عمل أو حركة خالقة هي مخلوقة. ولهذا فإن التطور لا يجيء على درجة واحدة، ولكن يجيء متفاوتاً لتفاوت الطاقات التي تحركه وتخرجه، إنه يجيء متفاوتاً لأن الخالقين له متفاوتون. والقول بالطاقة الآلية العشوائية يعطي تفسيراً لظاهرة التفاوت في عمليات التطور في الناس والأشياء. أما القول بالتطور فقط فإنه لا يعطي أي تفسير لهذه الظاهرة. فالناس والأشياء يجب أن يجيئوا متساوين إذا كان التطور هو الذي يصنعهم ولا شيء سواه. أما إذا كانوا يصنعون أنفسهم أو يتطورون بالطاقة فكيف يتساوون ما لم تتساو طاقاتهم وأنفسهم.

إن الناس والأشياء حتماً يتطورون، أو بتعبير آخر هم حتماً يتراكمون، ولكن الطاقة هي التي تصنع هذا التطور أو التراكم وتمنحه صياغاته المختلفة.

*

إن المعذبين الراكعين على جبين الأرض يصافحونها بجباههم، ويمسحون كرامتهم بأوحالها، ويبلون ترابها بدموعهم وعرقهم، ويشقون الصخور بأيديهم المتعبة الواهنة بعبودية لا بقوة ولا بحث عن الأفضل، ويقبلون الحشائش الجافة بجوع لا محبة، وبصلاة لا شجاعة، ويواجهون الشمس والصقيع بهوان لا كبرياء، ويصرون على البقاء وعلى السير في الطريق الطويل المسدود بالأوحال دون أن يعرفوا معنى ما يفعلون أو يسألوا لماذا يفعلون، إن هؤلاء يفعلون كل ذلك بالقانون الذي تنمو به النبتة الضعيفة في مصلى الفيضان، وتشيد الحشرات والطيور أوكارها وأعشاشها الواهنة فوق ضمير العاصفة. إن هذه النبتة وهذه الطيور والحشرات لا بد أن تنمو وأن تبني بيوتها وأوكارها لأنها حياة ولأنها لا بد أن تعبر عن نفسها وتطلق طاقاتها، لا لأنها تعرف مصيرها أو تحترمه أو تؤمن به، أو لأنها تشعر بأن من الواجب عليها أن تفعل.

لماذا أكتب؟ إنه سؤال طالما سأله السائلون وطالما أجابوا عنه بالجواب الذي يرضيهم أو الذي يجعلهم يبدون محترمين لأنفسهم، لا بالجواب الذي يقنعهم أو الذي يفهمونه. قد أقول هنا جواباً عن هذا السؤال الذي يصرخ بقسوة ووقاحة في وجه كل من يقبض على القلم وإن كان

في الغالب لا يسمعه، قد أقول: إنني أكتب لأني مضطر إلى تصدير نفسي وإن لم يطلبها أو يرغب فيها أحد لا شراء ولا هبة، ولأني مضطر إلى الإلقاء بها - أي بنفسي - على الآخرين عدواناً مني ووحشية غير مهذبة، وطفيلية أدبية دون أن يطلبوا مني ذلك أو يريدوه أو يحتاجوا إليه، إني أكتب لأني أبحث عن الخروج من ذاتي لأني لا أطيق البقاء فيها ولا اعتقالها داخلي ولا مواجهتها منفرداً، إن الانفراد بالذات والعيش معها بلا آخرين وبلا هجرة عنها هو العذاب والجنون. إني هارب حينما أكتب، إني هارب إلى بيوت الآخرين وإلى عقولهم ومشاعرهم وإلى أعصابهم وإثارتهم.

ولكن لماذا أحتاج أو أضطر إلى تصدير نفسي والهجرة منها بهذا الأسلوب العدواني الذي لا خلق فيه ولا احترام للنفس، ولماذا أجني على الآخرين بالسقوط فوقهم وباقتحام منازلهم وعقولهم ونفوسهم بلا دعوة منهم بل وبلا استئذان؟ وهل يحدث أن أحداً يعرض نفسه أو يلج بيوت الناس بهذا الأسلوب؟ وهل تهون أية امرأة لتلقي بنفسها على الرجال وفي طريقهم بكل هذه البذاءة والتعري؟

ويقال أيضاً جواباً عن السؤال الساحق: إني أكتب لأني أطلب مكسباً ما. ولكني قد أكتب حيث لا أرجو أو أنتظر مكسباً، بل حيث أتعرض للخطر أو الموت أو الخسارة الكبرى، وأكتب أحياناً حيث لا شيء إلا العبث والضياع والتعب.

لماذا يهب العلماء والمكتشفون والمخترعون كل حياتهم واحتمالات راحتهم وسعادتهم للأعمال التي فيها الموت والعذاب والقلق والخوف واحتمالات الهزيمة؟

يقال إنهم يفعلون ذلك لأنهم يعبرون عن أنفسهم أو يطلبون لها المجد والشهرة، أو يريدون نفع الإنسانية أو نفع أمتهم ووطنهم، أو لأن في طبيعتهم حب المعرفة أو البحث عن التحدي للأشياء، أو الرغبة في عرض الذات.

ولكن هذه كلها تفسيرات جزئية وظاهرية لا يمكن أن تكفي تفسيراً كلياً وحقيقياً لظاهرة هذه التضحية البشرية الهائلة، أو لهذه الحماقة أو السخرة الأليمة المهينة التي يمارسها كل الأحياء دون شعور بالمهانة أو المرارة، ودون رؤية للدمامة العظمى. كان معقولاً أن يرفض البشر ممارسة حياتهم وأعمالهم. ماذا يصنعون بعبقريتهم إن كانت أعمالهم مفسرة بغير أعمالهم؟ إن العبقرية لا تعني شيئاً لولا أنها ضرورة لا وسيلة، ولولا أن كل الحياة وكل الوجود ضرورة أيضاً لا وسيلة.

إن العبقرية وكل الأعمال العظيمة والكبيرة تعالج حتماً مشاكلنا، أي تعالج مشاكل كوننا موجودين وأحياء. ولو لم نكن موجودين وأحياء لما أصابتنا المشاكل، ومن غير مشاكل - أي من غير كوننا موجودين وأحياء - لا يكون للعبقرية ولا لأي عمل عظيم أية فائدة. ولكن لماذا نحن

موجودون وأحياء ومصابون بالمشاكل؟ إن الحاجة إلى العبقرية وإلى العمل هي نتيجة لوجود العبقرية والعمل. نحن محتاجون إلى العبقرية لأن لنا مشاكل وضرورات، ولنا مشاكل وضرورات لأننا أحياء أو لأننا موجودون، ونحن موجودون وأحياء لأننا نرفض أن نفنى ولأننا نعمل ما يجعلنا نبقى أحياء. ولماذا نرفض أن نفنى ونصر على أن نعمل ما يجعلنا محكوماً علينا بالحياة أو بالبقاء، أي لماذا نعمل ما يجعلنا محتاجين إلى العبقرية؟ إن معنى هذا أننا نعمل العبقرية لكي نظل محتاجين إلى العبقرية، أي نعمل الشيء لكي نظل محتاجين إلى الشيء، أو نعمل لكي نظل محتاجين إلى أن نعمل!

ولماذا نعمل لكي نظل محتاجين إلى أن نعمل؟ نحن لا نرفض الفناء فراراً من الألم، إننا نرفض الفناء حتى حينما يكون بأسلوب لا ألم فيه، بل حتى حينما يكون بأسلوب كله نشوة وراحة ولذة، ونرفض كذلك الفناء حتى حينما يكون البقاء مشهداً كئيباً من مشاهد جهنم في قسوته ودمامته وهوانه، وحتى حينما يكون الفناء هو وحده المهرب النبيل المخلص من كل ما نخاف ونشكو دون امتنان أو شروط أو عواقب حزينة. وإذا متنا فالمعنى أن طاقة البقاء أو الحياة قد نفدت كما هو المعنى في فناء أي شيء أو توقفه عن العمل والحركة.

هل نحن نريد العمل أم نريد الاحتياج؟ لماذا نريد الاحتياج؟ وبدون الاحتياج لماذا نريد العمل؟ وبدون العمل لا يوجد احتياج لأننا لا نكون موجودين. إذن العبقرية والعمل ليسا وسيلة إلى شيء بل هما الوسيلة والنتيجة، إنهما وسيلة إلى ذاتيهما فقط، أي إن الوسيلة والنتيجة شيء واحد دائماً، أي أننا نعمل العبقرية من أجل أن نعمل العبقرية، لا لأنها حاجة لنا، فالعبقرية تساوي فقط العبقرية. إن البشر من أجل ما يعملون، وليس ما يعملون من أجلهم، إنهم يعملون أعمالهم لكي يظلوا محتاجين إلي عملها، وهم لا يستطيعون ألا يعملوها. إذن العبقرية وكل الأعمال ضرورة وليست حاجة لأنها هي التي تصنع الحاجة إلى نفسها، إنها كالوجود، كوجود الإنسان ووجود أي موجود، إن كل وجود هو ضرورة وليس حاجة. فأنا وأنت والقمر والبرغوث وكل شيء موجود بالضرورة لا بالحاجة، فأنا مثلاً قبل أن أوجد لم أكن محتاجاً إلى أن أوجد، ومع هذا فلقد وجدت. لقد أوجدتني إذن الضرورة لا الحاجة، وهكذا كل الأشياء. وبعد أن أوجد أصبح محتاجاً، فهل وجدت لكي أصبح محتاجاً، ولماذا؟ ومن الذي يدبر وجودي قبل وجودي لكي أصاب بالاحتياج إلى وجودي وإلى ضرورات وجودي، ومن الذي يستفيد من هذه العملية؟ وهل يوجد منطق يخلق الذباب والصرصار لكي يجعلهما بعد وجودهما محتاجين إلى التغذي بطعام الناس وبصحتهم وبالوقوع على وجوه الأطفال؟ وهل الذي يخلق الصرصار والذباب ليفرض عليهما هذا الاحتياج يكون محسناً إليهما أو محسناً إلى الناس والأطفال؟ إذن وجودي يساوي وجودي فقط، وأعمالي تساوي أعمالي، ولا تساوي

أعمالي أهدافها أو منطقها، ولا أهدافاً ما أو منطقاً ما، والعبقرية لا تعني شيئاً أكثر من العبقرية. إن العبقرية توجد كما توجد المستنقعات والصخور والأمراض والتشوهات البدنية والعقلية، أو كما توجد الأزهار الصحراوية الجميلة، أو كما توجد النجوم البعيدة الجميلة دون أن تكون محتاجة إلى أن توجد أو يكون شيء محتاجاً إلى وجودها.

إن الإنسان يصنع الحضارة ويشيد الأعمال الكبيرة ويسير في الطريق الطويل الشاق، وينطلق من صفوفه رجال الأعمال يقيمون الصناعات الكبرى ويعاقبون أنفسهم بخلق الثروات التي تمزق أعصابهم وأخلاقهم وسعادتهم، والتي لا يمكن أن تكون احتياجاً من احتياجاتهم، كما يحزنون ويمرضون ويحقدون ويخاصمون، دون أن يكون شيء من ذلك حاجة من حاجاتهم. والذين لا يجدون ما يعملونه خارج أنفسهم يرتدون إلى داخلها يمارسون أعمالهم ضدها. وليست الانفعالات الرديئة المختلفة وتعذيب الذات بالأوهام والأماني والاحتراق الداخلي إلا أساليب لهذه الأعمال داخل الذات أو ضد الذات ـ كذلك ليس الكثير من الحروب والخصومات العدوانية غير طاقة متراكمة لم يمكن تصريفها كما ينبغي فصرفت كما لا ينبغي. ولكن ما هو الذي ينبغي وما الذي لا ينبغي، وما هو الفرق بينهما، وما هو المقياس الذي يقاس به هذا وهذا؟

الناس يعملون لأن فيهم طاقة لا بد أن تصرف بلا هدف بل لا بد أن تصرف ضد الهدف، إنهم ينطلقون في أعمالهم كما تنطلق الأنهار والرياح والشهب، أو يتفجرون كم تتفجر الزلازل والبراكين، ويتعالون حينما يصنعون ويتفجرون كما تتعالى الأشجار والغبار والدخان إلى أعلى دون أن يكونوا باحثين عن شيء أو عاشقين للنجوم أو للقاء الآلهة المحتجبة وراء النجوم، ودون أن يكونوا في ذلك محاولين التعالي فوق الأوحال والتفاهات والضعف. إن أي شيء يحدث ليس له من تفسير غير أنه طاقة الحياة والوجود تعبر عن نفسها تعبيراً ما، فعمل الحياة وعمل كل الوجود لا يمكن أن يفسر بغير نفسه، فأسباب الحياة في الحياة وأسباب الوجود هي الوجود. إن كل شيء هو السبب والنتيجة والتفسير والمفسر والحافز والهدف والنص والفكرة ـ كل شيء لا يساوي إلا نفسه، وكل شيء يحدث لأنه لا بد أن يحدث ولا يستطيع ألا يحدث، لا لأنه ينبغي أن يحدث أو لأنه واجب أن يحدث.

*

يفسر المفسرون العلاقات الجنسية بأنها هي التعبير الأعلى البذيء عن إرادة الإبقاء على النوع، إن هذه العملية الفضاحة السعيدة هي في رأي هؤلاء المفسرين الحيلة الذكية النبيلة للإبقاء على الإنسان والحيوان وعلى الحشرات المقاتلة للإنسان أيضاً! كأن الكون لا يكون جميلاً أو كاملاً أو شيئاً مفهوماً أو مستساغاً إلا بوجود البشر والحيوانات والحشرات، وكأن

الكون لا يكون مقبولاً إلا إذا كان جميلاً وكاملاً ومفهوماً، وكأنه توجد فوق هذا الكون قوة عصبية ومحافظة ومن طراز متدين جداً يجعلها لا تستطيع أن تقبل أية صيغة كونية ما لم تكن هذه الصيغة هي أعلى مستويات الكمال والجمال واحتمالاتها.

هل صحيح أن العلاقات الجنسية قد دبرت تدبيراً أعلي، احتيالاً على الاحتفاظ بالنوع؟ أليس الصحيح أن هذه العلاقات ليست إلا تعبيراً متوحشاً عن طاقة الحياة، تعبيراً فيه أعلى مستويات النشوة والتنازل عن الوقار والرصانة والسمت المطلوب، وفيه أقسى أساليب التشكيك في كبرياء الإنسان وقيمة غروره وشموخه على الديدان والبراغيث؟

إرادة من تلك الإرادة النبيلة الشاملة التي تذهب تهيىء بنبل عجيب لهذه العلاقات بين الجنسين لكي تتحقق بهذه النشوات الراقصة، وبهذا الأسلوب المتوتر المنوحش الذي يتساوى في أدائه المذل المبتذل أصغر الناس وأقلهم شأناً والتفاتاً إلى نفسه مع من لا يستطيعون من كبريائهم وأمجادهم المفترسة أن ينظروا بقليل من عيونهم واهتمامهم إلى الشمس إلا بتصغير وتحقير؟ هل هي إرادة الجنسين من البشر والحيوانات والحشرات والنبات؟ إن كل هؤلاء لا يدرون شيئاً عن هذه الإرادة إلا القليل جداً من البشر. أم هي إرادة الحياة، وهل الحياة شيء غير الأحياء؟ إن البشر حينما يكونون رافضين للتناسل ومعادين له أو عاجزين عنه يخضعون لهذه العلاقات بنفس العنف والافتضاح والتعري، بل وحينما يكون من مصلحة الحياة ألا يوجد هذا التناسل لأسباب خاصة بالمتناسلين تؤدى هذه العلاقات بنفس الرهبة والحماس والجنون.

أم هي إرادة أجنبية تتخذ من هذه العملية الفريدة في وقاحتها ونشوتها مشهداً شائقاً فيه كل الافتضاح والبذاءة والتعري على مستوى عالمي؟ وهذه الإرادة الأجنبية المسرفة في فضيلتها إذا كان قصدها أن تحافظ على النوع فلماذا تحافظ إذن على النوع القاتل للنوع الممتاز لديها الذي تحتال للمحافظة عليه لماذا تحافظ حينئذٍ على إبقاء أنواع الحشرات الضارة والمميتة للإنسان؟ كيف تحاول تلك الإرادة الأجنبية النبيلة أن تحافظ على الشيء ثم تخلق ما يدمر ذلك الشيء؟ ثم إذا كان هذا هو قصد تلك الإرادة الخارجية أفلا توجد وسيلة أفضل وأقوى للإبقاء على النوع المراد الإبقاء عليه؟

إن الذكورة لتلتقي بالأنوثة كما يلتقي النهر المزدحم بالماء بالحقول الظمأى المستقبلة له بالعناق والتبرج والانجاب، وإن كل الأشياء يستقبل بعضها بعضاً بالأسلوب الذي تستقبل به الحقول الأنهار ويستقبل الذكر الأنثى، دون أن تكون هنالك إرادة للإبقاء على النوع أو على أي شيء. فالشاطىء يستقبل الموج، والأرض تستقبل المطر والنيازك والأموات، والجسم يستقبل المرض والشيخوخة والموت والهموم، والكون كله يستقبل بعضه بعضاً ويتعانق ويتفاعل ويتخاصم ويتحارب ويتنافر ويعطي بذلك كائنات وأحداثاً جديدة، كما يفعل الرجل والمرأة بلا

أي تفسير لذلك أكثر من نفس العملية التي تحدثها الضرورة وحدها. فالعلاقات الجنسية لا يمكن أبداً تفسيرها ولا تفسير نتائجها بالتدبير أو الإرادة، بل بالضرورة، كما لا يمكن تفسير الموت أو المرض أو الشيخوخة أو وجود الحشرات التي هي ضد فكرة الإبقاء على النوع إلا بالضرورة أيضاً. ولو كان القصد من هذه العملية البذيئة السعيدة هو هذا الذي ذكر لكان من الممكن إيجاد أساليب أخرى هي أفضل وأذكى وأنظف لإعطاء هذا الغرض. والفكرة التي تريد الإبقاء على الحياة بهذه الوسيلة التي تضطرها إلى أن تبتذل نفسها وتتعرى تعرياً دولياً، أما أنها لا تستطيع أو لا تعرف أو لا تريد وسيلة أخرى. فإن كان هذا أو هذا أو هذا فما أهجى من يبحثون عنها لها.

ولماذا يراد الإبقاء على حياة الإنسان أو على أية صورة من صور الحياة؟ وهل نتصور أنه يوجد من يستفيد من ذلك أو يفرح به؟ حتى ولو كان يمكن أن يوجد من يستفيد من هذه اللعبة غير النظيفة فأي عدل أو أخلاقية لهذا المستفيد حينما يذهب يرضي شهوته أو مصلحته أو يتملق نفسه المصابة بالشذوذ بالجناية على الإنسان أو على الحياة كلها بإيقاعه أو إيقاعها في هذه الهوة الملأى بكل الاحتمالات الكئيبة بل بكل الفضائح والتفاهات؟

ماذا تساوي الحياة؟ هل تساوي الحياة الحياة، أم تساوي الفناء؟ إن كل حياة تساوي الفناء وتساوي إلى ذلك كل الآلام والحقارات، فمن وهب كائناً ما الحياة فقد وهبه الموت حتماً ووهبه مع الموت كل احتمالات الألم والخطر والضياع والدموع والعار والكذب والنفاق والجبن والهزائم ـ لقد وهبه كل ما سوف يلقى من عذاب وافتضاح وجنون في كل حياته.

وحتماً سيقول هنا قائل: بل إن من وهب كائناً الحياة فقد وهبه الحياة ووهبه مع الحياة اللذة والسرور والغناء والعلاقات الجنسية والانتصار والشجاعة وكل أنواع الصداقات والحب والنوم والتطلع إلى الشمس والنجوم المستلقية بوقار على ذراع القمر، ووهبه كذلك رؤية الجمال في شتى صوره ولغاته وقصائده، ووهبه أيضاً جمال المذاهب والتفكير والعقائد والإحساس بالآلهة، ووهبه روعة الخصومات والحوار والخلاف مع الآخرين بعنف وحماس وشتائم.

ولكن ما الحياة؟ ليست الحياة في كل حدودها وأعماقها شيئاً غير الطريق إلى الموت، ليست شيئاً أكثر أو أعمق من هذا الطريق ـ طريق الموت ـ الذي قد يكون طويلاً وقد يكون قصيراً. كل الحياة هي حالة من حالات السير إلى الموت، هو يحيا، إذن هو يسير إلى الموت، لا توجد أية حياة ليست سيراً إلى الموت. ومهما انحرف السائر في حياته فإن جميع انحرافاته تعني طرقاً مختلفة إلى هذا الوحش المنتظر لكل سائر في كل طريق من طرق حياته. ليس هنالك طريق واحد يمكن أن يؤدي إلى غير الموت أو يمكن أن يكون غير زحف إلى الموت. وكل ما يظن لذات في الحياة ليس إلا أسلوباً من أساليب السير في طريق الموت أو من أساليب الاحتجاج

على الموت وعلى الآلام والتفاهات. إن السرور والضحك ليسا إلا احتجاجاً على الحزن والبكاء وتعبيراً من تعبيرات الهرب منهما، وإن الصحة والقوة ليستا إلا نشيداً عالياً من أناشيد الموت!

*

إن الناس لا يعملون لأن العمل واجب أو شرف أو فكرة أو حاجة أو سعادة، بل يعملون لأنهم موجودون، وهم ليسوا موجودين لأن الوجود مدبر أو مراد أو منطق، أو لأنه يوجد من يريده أو يستفيد منه، ولكنهم موجودون لأنهم موجودون، وهم موجودون بالطاقة مثلما يكونون موتى ومرضى وشيوخاً. إنهم لا يعملون لينالوا السعادة التي يتخيلون ويتمنون، وإنما يعملون أيضاً بالطاقة لأنهم لا يستطيعون ألا يعملوا كما لا يستطيعون ألا يوجدوا. ولو أنهم بلغوا السعادة التي يتمنون ويتصورون، وكان بلوغها يعني ألا يعملوا وألا يجدوا ما يعملون، لراحوا يدمرون السعادة التي ظفروا بها أو يهربون منها لكي يعملوا بحثاً عن الظفر بها مرة أخرى، أي بحثاً عن نفس العمل باسم البحث عن السعادة أو عن شيء ما، عن الله أو عن العقيدة الصحيحة أو عن الحق أو عن العدل أو عن تدمير ذلك. فالسعادة ليست هي أن نجد أو ننتظر، إنها ليست مستوى من مستويات الوجود والكينونة أو الحياة أو الأخذ. إنه لو كانت الشمس بكل ضخامتها كائناً حياً، وكانت أصغر شمعة كائناً حياً كذلك لما كانت احتمالات السعادة في الشمس أكثر من احتمالاتها في الشمعة، ليست أكبر الأشياء هي أسعد الأشياء لأن السعادة ليست حجماً في الموجود. إن السعادة لغة وليست حالة اجتماعية، وهي تصور لا كينونة، إنها شعور فرد لا حياة جماعة. قد تكون الجماعة أو الفرد في أعلى مستويات الحياة، ثم لا يرى أنه سعيد، وقد يكون في أدنى مستويات الحياة ثم يشعر بأنه أعظم مالك للسعادة بل أعظم محتكر لها، أو ثم يعيش أضخم مشاعر السعادة. إذن ما هي السعادة؟ إنها لغة وحالة من الأماني. إذن فالعمل ليس بحثاً عن السعادة، وإنما هو بذل للطاقة وللحياة بلا هدف. لقد فرضت علينا أنفسنا بلا حاجة إليها وبلا منطق، ونحن محتاجون إلى التخلص منها بتوزيعها على كل الجبهات، لا لأن توزيعها يعني شيئاً بل لأن اختزانها عذاب وشيء غير مستطاع. لقد ألقي عليّ شيء دون أن أفهم لماذا، لقد ألقيت على نفسي دون أن أطلب أو أريد أو أحتاج أو أستفيد، وأنا لا أستطيع أن أسعد بهذا الذي ألقي علي. إذن لا بد أن يصبح كل نضالي أساليب مختلفة تعني معنى واحداً هو محاولة الإلقاء بعيداً عني بهذا العبء الذي ألقي علي من غير أن يكون لي أي هدف طيب أو رديء سوى مجرد الإلقاء بنفسي في مكان ما، أو بتعبير ما بعيداً عني.

إن الأطفال إذا لم يجدوا ما ينفقون فيه فضل طاقتهم ذهبوا يقيمون المنازل واللعب من الطين والورق، ثم كروا عليها يهدمونها ليشيدوها من جديد، وكأنهم بذلك يشيدون السعادة

ثم يهدمونها، كأن خطة ما تحركهم حينما يبنون ويهدمون. وإنهم لا يقصدون إلا ما تقصده الطبيعة حينما تبني وتهدم، وحينما تخلقهم وتقتلهم، وما يقصده النهر حينما يفيض، والسحاب حينما يهبط مطراً، إنها عملية تخلص من الذات بلا أية فكرة أو بحث عن الشيء.

وحركة الكون بعضه حول بعض وحول نفسه تعبر عن فيض هذه الطاقة كما يعبر الإنسان عن نفسه حينما يعمل ويتزوج ويجيء بالأولاد الذين لم يطلبوا منه أن يجيء بهم، والذين لم يستأذنهم قبل أن يحكم عليهم بالمجيء إلى هنا. وقد يكون هذا من أبشع أساليب العدوان والظلم مع أن يحكم بالمجيء إلى هنا. وقد يكون هذا من أبشع أساليب العدوان والظلم مع أن الاعتقاد الدائم بأن ذلك هو أفضل أساليب الرحمة والحب. وحركات الكون هذه لا تعني أيضاً إلا ما يعنيه الموت والحياة، وما يعنيه الأطفال حينما يقيمون البيوت واللعب من الطين والورق ثم يهدمونها. ودورة الأرض حول نفسها حركة من هذه الحركات الذاتية الاضطرارية التي لا تعني أفضل أو أكثر مما تعنيه الدورة البشرية المتكررة بغباوة فظة في عمليات التناسل العقيمة الكبرى. وقد يقنعنا غرورنا أو الحرص على محاباة أنفسنا أن الأرض إنما تؤدي هذه الدورة لكي تمكننا من الانتفاع بالشمس ومن المرور بها على فترات لنتزود من حرارتها وضوئها وما فيها من دفء وجمال.

إن الوجود حركة لأنه طاقة لا لأنه مذهب أو حاجة أو فضيلة. والمادة طاقات تصرف على شتى الأساليب والتعبيرات، تصرف بقانون الطاقة لا بالإرادة أو الواجب أو العقيدة أو الحاجة. نحن نفكر ونتعلم ونضع النظريات الأخلاقية والسلوكية لأننا طاقات، ونحن لا نكون طاقات لأننا مفكرون ومتعلمون وأصحاب نظريات في التربية والتهذيب.

كلنا نعمل الحياة لأننا خاضعون لها ولقوانين وجودنا، لا لأننا نفهمها أو نحترمها، إننا نعمل في الحياة لا للحياة. والحياة غير محتاجة إلى حوافز ترغيب لتعمل، فهي تعمل بالقوة لا بالتأديب أو التشجيع، والحياة هي التي تعمل حوافزها، وهي لا تعملها لأنها لا تنشط إلا بها بل لأن عملها لها نوع من القانونية والضرورة. إن الحياة لا بد أن تغني لنفسها، وحوافزها نوع من غنائها لنفسها. والحافز لا يوجد العمل ولا الطاقة، فهل يوزعهما؟

إن الشمس وكل المجرات والأكوان لو تحولت إلى أنبياء يأمرون الحياة وينصحونها بأن تتوقف عن الحركة ويضمنون لها جميع احتياجاتها واهتماماتها إذا هي أمرت أجهزتها بالتوقف عن الدوران لكان محتوماً أن تعصي وأن تعجز عن الطاعة لو أرادت أن تطيع. العمل يصبح واجباً لأنه ضرورة، ولا يكون واجباً لأنه واجب، أو ضرورة لأنه واجب.

والحياة التي لا تكون عظيمة في عطائها ليس معنى عجزها أنها لم تجد الحوافز والمنشطات التعليمية والأدبية، بل معناه عجز طاقتها، والحياة العاجزة في طاقتها لا يمكن أن تخلق منها

الأوامر والتعاليم المحفزة عملاً عظيماً. فالتعاليم لا تحول العاجز إلى قوي، كما لا يحول فقدها أو ضعفها القوي إلى عاجز. إن الحديد تبقى فيه طاقة الحديد حتى وإن لم يرسل إليه أنبياء ومعلمون يعلمونه أن يكون حديداً، وأن التراب يبقى تراباً مهما جاء إليه الأنبياء والوعاظ يحدثونه عن مزايا الحديد وفضائل القوة، أو يأمرونه بأن يصبح حديداً ويفسرون له ما فيه ـ أي ما في الحديد ـ من قوة الإله وأخلاقه. إن التعاليم قد تتخاطب مع ما في الحياة من طاقات وقد تتلاءم معها أحياناً، كما قد تهزها وتتحول إلى أغنية لها وتفسر نفسها لها تفسيراً يطربها، وقد تصبح التعاليم منشداً للحياة يسير بين يديها، يراقص حماسها وكبرياءها، ولكنها لن تصنعها أو تهبها ما ليس فيها. إن التعاليم مهما كانت قوتها لا يمكن أن تحول ضعف الحياة إلى قوة أو تفاهتها وغباءها إلى عبقرية، كما لا تفعل أيضاً العكس.

وهذا التراث الضخم الرهيب من الأخلاق النظرية والثقافات والتعاليم الأنيقة المكتوبة ليس هو الذي يعطي أيدينا وأفكارنا الرغبة في العمل أو القدرة والتصميم عليه. لقد خلقت حياتنا ثقافاتنا وجميع تعاليمنا لأن الحياة خالقة، ثم صار عمل الثقافة والتعاليم أن تتفاهم وتتخاطب لا أن تخلق. فالحياة ـ أي طاقة الحياة ـ تخلق الأشياء، أما التعاليم فتنشدها وتخاطبها. لهذا ليس من المتوقع أن نتساوى في حياتنا وفي إعطائنا للحياة والصعود بها مهما تساوت تعاليمنا ومذاهبنا ونظمنا. ومع هذا يوجد كثيرون جداً يعتقدون وينتظرون أن يتساوى الناس بالتسوية بينهم في المذاهب والتعاليم. إن الحياة القوية في طاقتها تعطي أفكاراً وثقافات وتعاليم وأخلاقاً قوية، كما تعطي أعمالاً قوية، أما الحياة الضعيفة فلا تستطيع أن تعطي شيئاً من ذلك. وكذلك تختلف الحياة القوية والضعيفة في القدرة على التعامل مع تلك المعطيات.

يتفاوت نشاط المادة والحياة في جميع تعبيراتهما تفاوتاً يساوي الفرق بين أصغر ذرة وأكبر شمس كونية. وبين حياة الخلية الواحدة وحياة الإنسان، ولا يمكن إزالة هذا التفاوت بالتعاليم. ولا تفسير لهذا التفاوت غير التفاوت في مقادير الطاقة. وليس الفرق بين الشمس وأصغر هباءة فرقاً في التعاليم، كذلك ليس الفرق بين الإنسان والخلية الواحدة فرق تعاليم، كما أن الفرق بين أصالة الجواد وبلادة البغل، وبين شجاعة الأسد وجبن الأرنب ليس في أي تعليم من التعاليم. وإذا كان صحيحاً أن الحياة وكل شيء يعمل بالطاقة، وأن الطاقة متفاوتة المقادير في الكائنات كلها كان معنى هذا أن البشر أفراداً وجماعات لا بد أن يتفاوتوا مهما تساوت أربابهم وتعاليمهم وأنبياؤهم.

إن الآحاد الجمادية والحيوانية من فصيلة واحدة مختلفة جداً في نشاطاتها وصفاتها الذاتية، والاختلاف في ذلك بين الفصائل المختلفة أعظم. إن حجرين أو شجرتين أو حصانين أو قذيفتين لا يتساويان في إمكانياتهما وصفاتهما، والطبيعة ليس فيها وحدانية أو مساواة أو عدل، فالقول

بالوحدة أو بالمساواة خروج على الطبيعة، ومثل هذا القول هو أمنية وليس تفكيراً أو رأياً، لأن الرأي والتفكير يجب أن يؤخذا من الطبيعة، أي من الوجود الكائن كما هو.

والفروق في الطاقات هي التي تصنع الفروق بين سلالات الخيول والكلاب وفسائل النباتات وأنواع الجمادات جميعاً فيما تستطيع أن تعطي من نشاط ومزايا. وهذه الفروق لا يمكن إزالتها بإيجاد ظروف متساوية للحياة التي تحياها السلالتان أو الوحدتان المختلفتان إلا إذا أصبح الأحياء - وعلى رأسهم الإنسان - يصاغون في قوالب على مقاسات موحدة كما يصاغ الطين والخشب. إن هذه الفروق قد خلقتها عمليات تاريخية وطبيعية طويلة عميقة، فزوالها يحتاج إلى مثل هذه العمليات في الطول والعمق.

ومن الحظوظ الرديئة أن البشر لا يمكن أن يصاغوا في قوالب على مقاس واحد كما تصاغ وحدات الطبيعة في المصانع، وقد يكون ذلك من الحظوظ الحسنة. ولعل جميع الآلهة والمعلمين في جميع العصور كانوا يظنون أنه من المستطاع بل من السهل جداً وضع البشر في صيغ معينة محددة ونسقهم على مقاسات هذه الصيغ في نموذج واحد، وهذه الصيغ في تقديرهم هي المواعظ والتعاليم والنصوص الآمرة الناهية وكانوا يؤمنون إيماناً عجيباً بقدرة هذه التعاليم والعظات على صياغة الإنسان، صياغة أعضائه وأهوائه وشهواته، بل وقدراته وأفكاره على ما يشتهون ويفكرون. ولعلهم لم يكونوا يرون لتعاليمهم أي معنى لو لم يكونوا مؤمنين بقدرتها على ذلك الخلق.

وقوالبهم هذه التعليمية التي كانوا - ولا يزالون - يرونها خالقة لم يكونوا يضعونها بحسابات دقيقة أو ذكية، بل كانوا يطلقونها إطلاقاً فيه كل جنون المبالغة والحماس الجاهل المتوتر، ثم يصرون على أن البشر - كل البشر - مفروض عليهم أن يدخلوا أنفسهم فيها بكل ما فيهم من فروق وخلافات وعبقريات وتفاهات وضخامة وضآلة وقدرة وعجز، ومفروض عليهم ألا يكونوا أصغر أو أكبر منها، فوقها أو تحتها، أذكى أو أغبى منها. وهم يهددون كل من لا يستطيعون أن يكونوا على مقاس هذه التعاليم، كل من يكونون أعظم أو أحقر منها، بكل أنواع العقاب والقسوة والتشهير. والمعلمون والمذهبيون الذين لا يؤمنون بالعقاب أو الحساب الأخروي يعدون من لا يخضعون أنفسهم لهذه القوالب المذهبية خونة ورجعيين، يشرعون لهم أبهظ العقوبات، ويصفونهم بكل الأوصاف الشريرة الآثمة، ويطلقون عليهم جميع الأجهزة الدعائية لتلقي بهم في قرارات الجحيم والهوان.

إن كل المعلمين والمذهبيين في جميع العصور، من يؤمنون بالغيب ومن لا يؤمنون به، يحاولون بلا ذكاء أن يصبوا مجتمعاتهم بل كل المجتمعات في نصوص وصيغ مذهبية أو دينية دون أن يشعروا أن في هذه المحاولات محالاً أو ظلماً أو جنوناً أو تشويهاً للبشر، لو كان ممكناً

أن يكونوا ما يطلبه منهم المعلمون وصناع المذاهب. ولعل أحداً من هؤلاء المعلمين والدعاة لم يفطن إلى عقم ذلك أو فساده أو إلى ما فيه من عدوان ومحال. ولهذا فإنهم كلهم يدعون كل البشر بدعوة واحدة ليكونوا شيئاً واحداً وعلى مستوى واحد من الفهم والنظافة والقدرة على الاستجابة والإيمان وعلى الخضوع لهم. كل البشر يجب أن يطيعوا التعاليم والمذاهب ويفهموها بعقل واحد وقدرة واحدة وإيمان واحد وعلى مستوى واحد ـ على مستوى ما يقول ويفهم ويأمر ويريد معلموها وأنبياؤها وإلا فلهم النار أو عقوبة الخيانة والرجعية. ولكن كان مستحيلاً أن يفعل البشر ذلك أو يفهموه أو يستطيعوه مهما أرادوا أن يكونوا ويفهموا، ومهما كان إخلاصهم، لأن الناس لا يستطيعون أن يتحولوا إلى قوالب.

وقد يرى قوم أنه كان من الخير للبشر أن يكون من المستطاع صبهم في صيغ محددة معينة بالتعاليم والأوامر والمذاهب، لأنه يكون حينئذٍ من الممكن جعلهم جميعاً عباقرة وأتقياء ومنزهين عن جميع العيوب والتلوث والضعف. إنه لعظيم جداً أن يصنع الناس بالصورة والمستوى الذي يراد لهم، إن صانعهم حينئذٍ سوف يجعلهم فوق كل ضعف وألم ونقيصة، سيجعلهم شيئاً ضخماً جداً! كم في تخيل هذا من روعة وجمال.

ولكن قد يكون في ذلك الشر كل الشر والخطر كل الخطر، إذ لو كان ممكناً صياغة البشر بهذا الأسلوب لصاغهم الطغاة والمعلمون الجهلاء والفاسدون والأنبياء الكذبة الضالون أبشع صياغة وأغباها ليجعلوا منهم عبيداً مطيعين أغبياء لا يستطيعون أن يفهموا أو يعصوا، كما لا يريدون أن يعصوا أو يفهموا أو ينكروا أو يناقشوا. إنه لو كان من المستطاع وضع البشر في قوالب لكان من المحتمل أن يضعهم الأقوياء في قوالب غبية وقوية لا يستطيعون الخروج منها.

ولأن التفاوت بين كل الكائنات متقرر في مشاهدات البشر المستمرة وفي منطقهم فإنهم قد لجؤوا ـ لتحسين ما لديهم من الحيوان والنبات ـ إلى عمليات التهجين والتزويج والاستبدال القائم على الانتخاب أو الاختيار الصناعي، أي على نقل طاقة حيوانية أو نباتية متفوقة بدل طاقة أخرى أقل، ليظفروا بسلالات ومزايا أقوى وأفضل. وهذا الاختلاف بين شتائل الكون الجمادي والحيواني وبين آحاد هذه الشتائل ناشىء عن الاختلاف في الطاقة.

وهنا يتقدم سؤال قد يهاب الإنسان إطلاقه أو يتورع عن التفكير فيه. فالبشر مصابون بالحساسية بل وبالجبن والنفاق والضعف المهين إزاء أنفسهم وإزاء التفكير فيها، إنهم في الغالب يهابون النظر إلى أنفسهم بعمق وصدق، إنهم لا يريدون أن يروا أنفسهم وذواتهم كما هي، ولو استطاعوا ألا يروها البتة لفعلوا. هم يريدون أن يتخيلوا ويتصوروا ويقتنعوا ويقولوا الشعر في أنفسهم وذواتهم، لا أن يبصروها بكل ما فيها من جمال وقبح. إنهم لم يخترعوا المرآة ليروا أنفسهم كما هي بل ليروها كما يريدون.

هذا السؤال الذي قد يرهب الإنسان إطلاقه أو التفكير فيه هو:

وهل الإنسان كذلك مثل الحيوان والنبات والجماد، مختلف في طاقات سلالاته وطاقات آحاده ـ هل كل شعب مثل أي شعب، كل فرد مثل أي فرد في مقادير الطاقات التي تصنع القوة والضعف والتقدم والتخلف، وهل الفروق هي في الظروف الحضارية والاجتماعية فقط، بمعنى أن أضعف شعب وأضعف إنسان لو أعطيا الظروف الملائمة التي يحياها أقوى شعب وأقوى إنسان لتساوى الشعبان والفردان ـ هل الفروق بين البشر هي فقط فروق ظروف ومذاهب وتعاليم وآلهة ونظم، أو فروق طبيعية كونية لا فروق طاقات ومواهب بشرية؟ ومن الذين يصنعون الظروف المتقدمة والمتخلفة؟ أليسوا هم الناس الذين يصوغون لأنفسهم ظروفهم الحضارية والمذهبية؟ فلماذا إذن يصنع قوم لأنفسهم ظروفاً جيدة ويعجز الآخرون عن صنع مثلها؟

هل يمكن أن نختار أنه ليس بين البشر فروق، وهل يمكن الذهاب إلى مثل هذا الزعم في الآحاد، فنزعم مثلاً أن طاقة أضعف إنسان تساوي طاقة أعظم عبقري، وأن الفروق بينهما ليست إلا في الظروف الإنسانية أو الطبيعية، أو هل يمكن أن تسلم الفروق بين طاقات الآحاد وتنكر بين طاقات السلالات ـ أو هل توجد الفروق التاريخية والطبيعية في جميع الكائنات الحيوانية والنباتية والجمادية التي انحدر منها الإنسان، ثم لا توجد في الإنسان نفسه؟ وكيف تتفاوت فروق الطبيعة التي يحياها الإنسان ويحيا فيها ولا تتفاوت فروق نفس الإنسان؟ المفروض دائماً أن الكائنات كلما ترقت تعاظمت الفروق بين آحادها وسلالاتها. إن الفروق بين إنسان وإنسان أو بين مجتمع ومجتمع على أساس سلالي أعظم جداً من الفروق بين بغل وبغل أو فأرة وفأرة أو ثعلب وثعلب أو بين مجتمع ومجتمع من البراغيث والنمل.

أما إن كان ممكناً أن نختار القول بالفروق بين سلالات الإنسان وآحاده، فماذا يمكن أن تكون النتائج؟ لو كان هذا صحيحاً لكان معناه أن الفروق في التقدم والتأخر وفي جميع التعبيرات الحضارية ستبقى دائماً موجودة بل ومتعاظمة بين مجتمع ذي سلالة ومجتمع من سلالة أخرى مخالفة، ولكان معناه أيضاً أن إيجاد ظروف متساوية لن يزيل هذه الفروق إلا إذا استطاع العلم في المستقبل أن يتحكم في تكييف وخلق الاحتمالات والطاقات الوراثية وفي تطويرها تطويراً صناعياً علمياً.

إذا وضع شعب أو فرد في ظروف جيدة أمكن أن تستثمر هذه الظروف إمكانياته وأن تغيره لتجعل منه كائناً أفضل، ولكنها لا تستطيع أن تهبه إمكانيات أخرى ليست فيه.

فإذا تساوى هو والمتفوق عليه في ظروفهما تغيرا معاً ولكنهما يظلان مختلفين بقدر اختلاف الطاقات الكامنة والموروثة فيهما، كما تظل وحدتان ذاتا سلالتين من الحيوان أو النبات أو المادة

مختلفتين مهما وضعتا في ظروف متماثلة. وحينئذٍ يكون معنى هذا أن فرض ثقافة الأقوى وأفكاره وحضارته ومزاياه النفسية والأخلاقية على الأضعف لن تجعله مثله. إن هذا سيغير الأضعف ويصوغه ويجعله أحسن، ولكنه لا ينقله إلى الطور الأعلى، أي إلى طور صاحب المزايا المتفوقة والمبدعة. فالظروف الجيدة تعمل في الموجود ولكنها لا توجده، إن الظروف تصنع وتغير ولكنها لا توجد. إن وضع الحيوان في ظروف الإنسان لن يصنع منه إنساناً أو عبقرية إنسان، وكذلك وضع الإنسان الأدنى في ظروف الإنسان الأعلى لن يخلق منهما مساواة إنسانية مهما خلق من تغييرات.

وكما يعجز الضعيف عن أخذ كل موهبة القوي وعن مساواته فإنه يعجز أيضاً عن صنع حضارة فكرية أو فنية أو مادية متفوقة أو مساوية، إنه عاجز في أخذه وفي عطائه. وتغيره حين وضعه في الظروف الجيدة لا يعني أنه قادر على أن يساوي المتفوق في إبداعاته وفي التعبير عنها، فالتغيير محتوم حين تغير الظروف، ولكن التغير أو التأثر بالأفضل لا يعني التساوي معه كما لا يعني الموهبة العظيمة، لأن التغير والتأثر تستطيعهما كل الكائنات ويستطيعهما الإنسان مهما كان تخلفه.

ومع أن هذه احتمالات كريهة وكئيبة ومذلة فإن عرضها والتحدث عنها يجب أن يكون شيئاً مقبولاً بل ومحتوماً. وهذه الاحتمالات ليست حقائق مفروغاً منها، وإنما هي موضوعات تطرح بلا رفق تحت التساؤل والشك والمناقشة. وقبح هذه الاحتمالات ليس في تحويلها إلى دراسة أو تساؤلات، بل قبحها في أن تكون صحيحة. وإذا كانت صحيحة فإن إبعادها عن التفكير فيها ومناقشتها لن يحميها من هذا القبح، وإذا لم تكن صحيحة فلن يستطيع التفكير فيها أن يهبها قبحاً أو يحولها إلى قبح. والذين يخشون على أنفسهم وعلى قيمهم وأفكارهم السابقة والثابتة من مواجهتها بالآراء الأخرى المخالفة، قد يعطون الحجة لمن يقولون بأن البشر متفاوتون في طاقاتهم وفي مزاياهم النفسية والفكرية ومزاجهم الحضاري، لأن ذوي الطاقات المتفوقة لن يخافوا أبداً مثل هذه المواجهة، بل هم يرحبون بها ويصنعونها.

والناس لا يكرمون أنفسهم أو يدافعون عنها أو يطورونها بالخوف عليها من جعلها موضوعاً علمياً لا مجاملة فيه. والأقوياء لا يضعفون إذا تحدثوا عن احتمالات ضعفهم، كما أن الضعفاء لن يصبحوا أقوياء إذا كفوا عن مثل هذا الحديث، كما أن الدميم لن يصبح جميلاً إذا رفض النظر في المرآة، والجميل لن يصبح دميماً لو نظر إلى وجهه في كل مرآة أو مرآة كاذبة ترى الجميل دميماً، بل إن الأقوياء هم أكثر من الضعفاء تحدثاً عن مواطن واحتمالات الضعف فيهم، كما أن الضعفاء هم أكثر اقتناعاً بكمالهم وبراءتهم من كل عيب، وأكثر تحدثاً عن هذا الكمال وهذه البراءة من العيوب. ولن يتحول الأسد إلى أرنب ولا الأرنب إلى أسد لو صور كل منهما

على جبهة الآخر. ولو نقشت أعظم قصيدة تشيد بالقوة على جلد الأرنب، وأعظم قصيدة تشيد بالضعف على جلد الأسد، لظل الأسد أسداً بكل قوته ومزاياه، ولظل الأرنب أرنباً بكل ضعفه وخوفه.

إن كل الأفكار العظيمة محتاجة إلى أن تصقلها المحاريب والأسواق وتهبها الروعة والقوة والجمال والانتصار بالشتائم والاتهامات. ولم توجد في التاريخ أفكار طيبة وصادقة لم تقاومها الأفكار السابقة الكاذبة باللعنات، إن اللعنات وقود ممتاز للأفكار القوية، وإن الأفكار الرديئة قد تلعنها أيضاً الأسواق والمحاريب، إذن ما الفرق بين هذه وهذه؟ إن الفرق لا يجب أن يكون موجوداً أو معلوماً، ولا يمكن أن يكون كذلك، والإنسان لا يحتاج لكي يحيا ويرضى عن نفسه إلى أن يعرف هذا الفرق. والمحتوم أن توجد الأفكار والأرباب والأشياء مختلطاً بعضها ببعض، غير محروس بعضها من بعض. إنه لا يوجد حارس على الكون أو من الكون!

إنها الحياة، لا توجد فيها حدود دولية أو عقلية تعزل قسوتها عن رحمتها، وكذبها عن صدقها، ودمامتها عن قسامتها، وتضع على دجاليها علامة تميزهم عن أنبيائها.

إنها الحياة، لا تعني شيئاً ومع هذا فهي كل شيء، لا يوجد فيها منطق ومع هذا فهي كل المنطق.

الذباب على عيون الأطفال يؤكد اخلاقية الكون

«إن الحشرات هي أسعد الكائنات في المجتمعات المتخلفة، وأسعد هذه الكائنات السعيدة هو الذباب، إن الذباب في مثل هذه المجتمعات لأعظم حظاً من الإنسان وأعلى مستوى حياة، إن الذباب فيها هو سيد الموقف، إنه قيصر، إنه حاكم مطلق، وزعيم عملاق، إنه أسعد وأقوى مواطن، له أضخم الحقوق والامتيازات والحريات، إن له كل البيوت والحدائق والموائد المحرمة، والوجوه الجميلة المنيعة، والأنوف الشامخة المتكبرة، يتنقل بينها ويستقر فوقها بلا أي خطر أو خوف أو زجر. كم هو خليق بأن يحسد الذباب ويحقد عليه ويتمنى أن يكون مكانه في المجتمعات المتخلفة كل الجائعين والمحرومين والمطاردين حينما يرونه متشامخاً ومتنقلاً بين وفوق أشهى الأطعمة وأجمل الوجوه وأشمخ الأنوف كدكتاتور ساحق متربع فوق العقول والكرامات، بعد أن صلب في مجتمعه كل احتمالات الغضب والاحتجاج، وبعد أن فقأ فيه كل احتمالات الرؤية، حتى أصبح لا يستطيع أن يرى أو يكره أية دمامة أو بذاءة أو ذبابة. لا يوجد أذل منظراً من إنسان متحضر يجلس الذباب على أنفه وطعامه ويظل هو ساكناً ينظر إلى ساعته الأنيقة ويتحدث عن جمال الكون والإنسان والأرباب الخالقة النظيفة المعبرة عن نفسها وعن نظافتها بالذباب. إن أوقح مشهد يمكن أن نتخيله أو نراه هو منظر طبيب يتربع الذباب على وجهه الوسيم، أو يشاركه طعامه دون أن يرتجف ارتجافة يسقط بها عن قمة ذاته! ما رأيت الذباب على طعام أعمى إلا أخذتني الرجفة رثاء للمنطق الذي يؤمن بحكمة وأخلاقية هذا الكون».

*

ليست الحياة أفكاراً أو مذاهب أو أخلاقاً، بل هي قدرة وعبقرية، أو فقد للعبقرية والقدرة، إنها حركات متوافقة توافقاً زمانياً ومكانياً. إن الذي يتدحرج في طريقها بلا ذكاء أو فضيلة نفسية أو إنسانية قد يتوافق معها ومع قوانينها الحركية وينتظم في دروبها أكثر من أعظم فيلسوف وأعظم مفكر، يصوغها بمنطقه ويحاكمها بعبقريته الفكرية.

ومن مزايا الحياة ـ وقد يكون ذلك من رذائلها ـ أنها ليست ذات باب أو طريق واحد، بل إن أبوابها وطرقها تتعدد بتعدد السالكين إليها وفيها، والسالكون إليها وفيها يكيفون أوضاعهم فيها بسلوكهم الخاص، إنها بلا مثل أو أخلاق أو مذاهب، لهذا تتعامل مع المتعاملين معها بقدر ما تستطيع ويستطيعون بلا أي نموذج من الأخلاق أو التقدير والاحترام، إنها تتعامل مع كل أحد بلا احترام أو تمييز بين فاضل ورديء، إن سلوك المتعاملين معها هو المظلة التي يستعملونها للهبوط على أهدافهم ذات الوسائل والحوافز المختلفة. والذين يخطئون في المنطق ويصيبون في الحركة، أو يملكون القوة ولا يملكون الخلق هم أفضل في التعامل مع الحياة من الذين يفعلون العكس، بل هم الذين تقبل التعامل معهم وحدهم.

لا ينبغي أن نتعجب إذا رأينا التافهين والأغبياء والفاسدين والساقطين يصيبون من مزايا الحياة والانتصار فيها أكثر مما يصيب الآخرون والواقفون على الطرف الآخر بمزاياهم المضادة، بل إذا رأينا أولئك هم وحدهم الذين تهبهم الحياة كل حبها ومزاياها. فأولئك التافهون الساقطون الأغبياء قد توافقوا مع الحياة توافقاً مكانياً كما يتوافق الحجر مع الحجر أو مع الأحجار الأخرى، فيأخذ مكانه المناسب منها، وإن لم يتوافقوا معها توافقاً عقلياً أو أخلاقياً. فالحياة كما ذكر ليست سلوكاً أدبياً أو فكرياً، ولكنها قوانين زمانية ومكانية، هي طاقة وحركة وليست فضيلة. وبهذا يمكن الحكم عليها بأنها شيء يستطاع التعامل معه بالحركة والتوافق، ولكنها ليست شيئاً يستطاع التعامل معه بشرف أو نزاهة. إن الحياة وجود له قوانينه الجارحة، وليست صداقة لها مزاياها الذكية.

إن الناس جميعاً منشطرون انشطاراً وحشياً في سلوكهم ورغباتهم عن مثلهم وشعاراتهم. فلماذا هم كذلك؟ هل لأنهم سيئون يرفضون أن يكونوا كما يريدون لأنفسهم ويتحدثون عنها وإليها؟ إن الأمر ليس كذلك، ولكنهم وجدوا بالتجارب الطويلة الدائمة إنهم محتاجون إلى التوافق مع الحياة، ثم وجدوا أن التوافق معها يكلفهم ثمناً باهظاً، يكلفهم أن يرفضوا بسلوكهم ما آمنوا به من مثل وأخلاق وأرباب، فراحوا يوفقون بين الأمرين المتناقضين توفيقاً سهلاً بسيطاً، هو أن يتركوا مثلهم ونظرياتهم للكتب والخطب تتحدث عنها بإسهاب وكبرياء ومبالغات وبلاغة بلا أي حرج، إذ لا قيد هنا، فالبلاغة والفصاحة لا قيود عليهما، إنهما تستطيعان أن تحطما كل قيد وتتجاوزا كل حاجز طبيعي، ثم يتركوا سلوكهم ونفوسهم للحياة وضروراتها غير الكريمة أو الرحيمة تعبث بها وتشوهها كيف شاءت. إذن لقد جمعوا بين النقيضين: بين ما يستطيعون وما يتمنون، بين أن يكونوا أفضل الكائنات وأسوأ الكائنات بسهولة.

وقد يكون معنى هذا أن يصبح الأذكياء والعظماء والمعلمون هم أكثر الناس خروجاً على الفضائل المكتوبة وانقساماً بين السلوك والفكرة، وهذا لأنهم أشد إدراكاً للتناقض بين ضرورات

الحياة والأخلاق الموضوعة، وأشد إحساساً بهذا التناقض ووقوعاً في قبضته، ولأنهم أكثر حاجة إلى التوافق مع الحياة غير الأخلاقية، لأنهم أكثر حياة وترابطاً مع الحياة. وبقدر ما نكون في الحياة نكون خارج الأخلاق، نحن نحيا ونحيا كثيراً، إذن نحن بلا أخلاق، كما نقول هذا بحر، إذن هو بلا أخلاق. ولم يزل البشر في كل العصور يلاحظون ـ وإن كانوا لا يعرفون لماذا ـ أن الرذائل كانت دائماً تتجه صوب القمم ـ قمم الحياة، وأن قمم الحياة لا ترتفع إلا فوق الرذائل، وبقدر ما تكون القمة صاعدة وضخمة تحتاج إلى مكان مساوٍ من الفضاء، كذلك بقدر ما تكون الحياة قمة وضخمة تحتاج إلى الخروج على الأخلاق وإلى التعامل مع الرذائل.

وقد كان من المحتوم أن يرى البشر انتصار الحياة بكل قسوة على ما يتحدثون عنه من أحلام ومثل أخلاقية. ولكن هذه الرؤية الدائمة لم تمنعهم من أن يظلوا يحلمون بالفلسفات المثالية المشحونة بكل ما في النفس من قوة التمني والخيال، وأن يتحدثوا عن ذلك بانفعال وبلاغة يشبهان الصدق والحقيقة، وأن يدعوا إلى كل ما تأمر الحياة وتلزم بنقيضه دون أن يحاسبوا أنفسهم على ما يقولون ويرون، أو أن يتواروا من فحش التناقض بين مثلهم وحياتهم، كأنه يوجد اتفاق لا يحدث الإخلال به أبداً بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين الآخرين، وبينهم وبين الحياة، وبينهم وبين الآلهة والتعاليم، يقضي هذا الاتفاق بأن يكونوا دائماً غير ما يتحدثون ويتعلمون ويؤمنون.

ولكن لماذا لا يكونون ما يعتقدون ويتعلمون؟ لأنهم لا يستطيعون، ولماذا يعتقدون ويتعلمون ما لا يستطيعون، أو لماذا لا يعتقدون ويتعلمون ما يستطيعون فقط؟ لأنهم يتمنون ويحتجون، والتمني والاحتجاج تمرد على الحياة وعلى الإنسان نفسه وتجاوز لهما وحكم ضدهما، فالإنسان المتمني خارج على نفسه رافض لها بحدودها وظروفها الحاضرة. والاحتجاج والتمني ليسا أوامر يصدرها الإنسان إلى نفسه، ولكنهما عصيان محتوم.

إن الناس لا يحتجون على أنفسهم وعلى ما يجدون، ولا يتمنون، لأنهم يريدون أن يحتجوا ويتمنوا، وإنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون ألا يفعلوا، إنهم يصفقون وجودهم وظروفهم والكون الذي حكم عليهم بمعاشرته بصقاً روحياً وعقلياً بلا خيار، لأنه يتحداهم ويصدم كبرياءهم وأعصابهم وذكاءهم، ويخرق عيونهم بما فيه من نقائص وذنوب وتفاهات وآلام لا يحتاج إليها أحد. لقد وضع الإنسان وضعاً رديئاً وأليماً، وضع بحيث لا يستطيع أن يغفر للكون، ولا يستطيع ألا يراه، ولا يستطيع ألا يواجهه، لا يستطيع أن يغفر مع المواجهة والرؤية، ولا فرار من الرؤية والمواجهة، إنه كون لا يمكن نسيانه، ولا يمكن احتماله، لهذا لا يمكن غفرانه. إذن العقائد والتعاليم والأماني ليست إلا احتجاجاً على نقائص الكون وأخطائه.

إن البشر لن يشفوا من التناقض بين إيمانهم وسلوكهم إلا إذا شفوا من التمني والاحتجاج،

وهم لن يشفوا من الاحتجاج والتمني إلا إذا أصبحوا أقوى من الكون ومن الحياة وضروراتها، فالذي يواجه شيئاً أقوى منه لا بد أن يحتج ويتمنى، والاحتجاج والتمني يعنيان أنه يوجد واقع هو أقل من الاحتياج والإرادة، ومعنى هذا الانشقاق في الذات الواحدة أن العجز هو الذي يصنع جميع الأخطاء والتناقضات والمثل والعقائد التي لا يمكن الالتزام بها، والتي هي قمة التعبير عن التمني والاحتجاج. إن القادر قدرة مطلقة ـ لو كان يوجد مثل هذا ـ تتوحد ذاته، أي عقائده وشعاراته وسلوكه، أما العاجز فلا بد أن تصاب ذاته بالانشقاق، وحينئذٍ لا بد أن يتناقض ويخطىء ويكذب ويصبح إنساناً ينادي بأفضل العقائد أو ما يظنه أفضل العقائد، ويلتزم أقبح السلوك أو ما يعتقده أقبح السلوك.

ليس لأي موجود معنى أكثر من مجرد كونه موجوداً ما عدا الإنسان، فكل شيء ليس إلا وجوده فقط، أما الإنسان فهو أكثر جداً من وجوده، إن وجوده هو مركز انطلاقه أو مبدأ انطلاقه. إن الإنسان دائماً يريد ما ليس موجوداً وأكثر مما هو موجود، ويتخيله ويتمناه ويسعى وراءه ليوجده، أو يظل بلا نفاد صبر ينتظره، إن شكواه أو آفته، إن إرادته أكبر من الوجود كله بما فيه من شموس وسموات وآلام وغباء، لهذا يظل يتعذب ويحتج ويتمنى، ولهذا أيضاً يظل يكذب ويتناقض ويخلق المثل والتعاليم التي لا يمكن أن يلتزم بها والتي هي ضده وهدم له.

إن جميع عقائدنا وأحلامنا الأخلاقية المستحيلة التطبيق ليست سوى أسلوب من أساليب الاحتجاج على الذباب. إن وقوع الذباب على طعام وثياب وعيون الأطفال الذين لا يعرفون ولا يستطيعون مقاومته يتحول إلى أفضل النظريات الأخلاقية، إن عدوان الذباب وانتصاره بهذه الوحشية والفوضى والقذارة والبساطة على البشر يلعنني ويتحداني، يلعن ويتحدى عقلي وأخلاقي وكرامتي واحترامي لنفسي وللحياة والكون والناس، ويجعلني أصرخ محتجاً مشمئزاً هارباً. ما أفظع المنظر حينما أرى ذباباً واقعاً على طعام أعمى، ما رأيت ذباباً فوق طعام أعمى إلا أخذتني الرجفة رثاء للحكمة التي تصوغ وتدبر وترعى الكون وتحب الناس، ما رأيت هذا المشهد إلا أحسست بالحاجة إلى البكاء غضباً ورحمة للآلهة التي لا وظيفة لها غير حماية الإنسان منها أي من الآلهة، ولا وظيفة للعلم غير الانتصار عليها أي على الآلهة.

وهذا الاحتجاج والاشمئزاز والهرب هو الذي يتحول إلى معتقدات وأرباب وتناقض محتوم بين ما نستطيع وما نتعلم. إنه لولا ما في الحياة من ذباب يثير غضبنا، ومن آلام وتفاهات وعجز لما احتجنا إلى أن نعتقد ونتمنى غير ما نستطيع ونكون، أي لما احتجنا إلى أن نهرب من أنفسنا هرباً عقلياً وعقائدياً، إن الذباب هو الذي يلهمنا أعنف عقائدنا ومثلنا الروحية وأفضل أربابنا!

ولكن كيف تصرف الإنسان أمام احتجاجه وغضبه على غباء ووحشية الكون الذي يخلق الذباب ويعطيه القدرة الخارقة على التناسل والتكاثر ليحارب به عيون الأطفال وصحتهم

وطعامهم؟ لقد كان معنى الذباب عند الإنسان أن الكون جميل وفاضل ومملوء بالآلهة الطيبة الذكية، ومدبر تدبيراً عقلياً لا مثيل له في ذكائه وحكمته. ولقد كان المظنون أن يقول منطقه غير ذلك. إن وجود الذباب في منزل الطبيب وعلى وجوه أطفاله لا يدل على قيمة علمية أو أخلاقية فكيف يدل وجوده في الكون على قيمة غيبية أو على قيمة من أي نوع؟ كيف يلام الطبيب على قبول الذباب ولا تلام العبقرية التي تدبر وتخلق هذا الكون على خلقه؟ لقد أراد الإنسان أن يستدل بشيء على شيء وأن يفسر شيئاً بشيء ففعل نقيض كل منطق.

روى أحد الرواة أن رجلاً وزوجته أرادا الاحتفال بجماعة من أصدقائهما الكبار، فوجها إليهم دعوة إلى حفلة عشاء. وبعد أن تم إعداد المائدة الشهية وجلس المدعوون الكبار إليها أحضرت الزوجة المثقفة حداً طبقاً مملوءاً بالخنافس والذباب والفئران وبأنواع أخرى من الحشرات الحية والميتة، ورشتها باهتمام وعناية بمساعدة زوجها المثقف أيضاً جداً على أطباق الطعام المختلفة، ثم قالا ـ أي الزوج والزوجة ـ للمدعوين: تفضلوا، كلوا هنيئاً مريئاً! فضج السامعون لهذه القصة، وأنكروا على راويها بلادة وبذاءة مزاحه وسخفه. فقال الراوي للمنكرين الضاجين مدللاً على صدق ما يقول وعلى أنه معقول جداً، بل معقول على مستوى أخلاق السماء ومستوى آدابها وتهذيبها: انظروا أيها المنكرون، إن الإله الأعظم قد خلق أصناف الفاكهة والأطعمة الأخرى الكثيرة وبسطها موائد أمام الإنسان ودعاه إليها ثم ألقى عليها جميع أصناف الحشرات، وأعطاها القدرة والذكاء والوقاحة لكي تقاتله وتزاحمه وتغالبه عليها بكثرتها ووقاحتها وبراعة أساليبها في الهجوم والكر والفر والانتصار! حتى أن هذه الحشرات في كثير من المجتمعات الكبيرة جداً هي أفضل حظاً من الإنسان وأقدر منه على الاستمتاع بطعامه والحصول على الراحة والاطمئنان والأمان في بيته!

إن أغلب الناس في هذه المجتمعات ليذادون عن الاقتراب من مخازن الطعام ومتاجر الفواكه ومن المطاعم، بل وعن رؤيتها من قريب، بينما الحشرات ـ وعلى رأسها الذباب تتنقل بينها وتسكن فيها وتجلس بوقار فوقها بحرية لا يحدها أي قانون أو تعاليم أو أخلاق أو أية مقاومة من قوى الشرطة ولا أي نوع من أنواع الحراسة. إن أي طفل يتيم جائع سوف يضرب أو يحاكم ويسجن لو مد يده ليأخذ لفمه شيئاً من هذه الموائد المعروضة المباحة بكل سخاء للذباب ولغيره من الحشرات، لتصبح لها غذاء وسكناً ومكان استعراض دائم.

إن الحشرات هي أسعد الكائنات في المجتمعات المتخلفة، وأسعد هذه الكائنات السعيدة هو الذباب، إن الذباب في كثير من المجتمعات لأفضل حظاً من الإنسان وأعلى مستوى حياة منه. إن الذباب هو سيد الإنسان في هذه المجتمعات، إنه قيصر، حاكم مطلق، إنه أسعد وأقوى مواطن، له أضخم الحقوق والامتيازات والحريات، له كل البيوت والحدائق والموائد والوجوه

الجميلة والأنوف الشامخة، يتنقل بينها ويستقر فوقها بلا حظر أو خوف أو زجر. كم هو خليق بأن يحسد الذباب ويحقد عليه ويتمنى أن يكون مكانه في المجتمعات المتخلفة كل الجائعين والمحرومين والمطاردين حينما يرونه متربعاً ومتنقلاً بين وفوق أشهى الأطعمة وأجمل الوجوه كدكتاتور ساحق متربع فوق كل العقول والكرامات بعد أن قتل في مجتمعه كل غضب واحتجاج، وبعد أن فقأ كل بصر فيه، حتى لا يستطيع أن يرى أو يكره أية دمامة أو بذاءة.

قال القاص الذي حكى حكاية المائدة التي رشها الداعيان بالحشرات: فإذا كان الإله الطيب النظيف الصديق جداً يضع الحشرات على المائدة التي يدعو إليها عباده ويقيمها لهم فكيف يكون منكراً أن يفعل ذلك إنسان محترم على مائدة يقدمها لأصدقائه، فاعلاً نفس ما يفعل الإله الطيب النظيف الصديق جداً؟

والحديث عن الحشرات والذباب يثير دائماً هذا السؤال الذي يكرره في جميع المناسبات أحد المؤمنين قائلاً: كيف يمكن الاقتناع بأن خلق الذباب متمم لحكمة الإله وجمال الكون وسعادة الإنسان، وإن هذا الكون لو كان قد خلق بدون الذباب لكان الإله غير حكيم أو غير كامل الحكمة، ولكان الكون غير جميل أو غير بارع الجمال، ولكان الإنسان غير سعيد أو غير تام السعادة؟ أي إله هذا الإله الذي لا يعد حكيماً أو لا يستطيع أن يؤمن بحكمته لو أنه قد خلق كل شيء، لو أنه قد خلق العالم بكل ما فيه من شموس ومجرات وأنهار ومحيطات وبشر ونساء جميلات وأمراض وطغاة وموت وتفاهات وغباء بدون أن يتوج ذلك كله ويزينه بالذباب؟ إن الذباب إذن كائن يجب أن تسجد تحت قدميه الجبارتين السموات والأرضون ومن فيهن.

عجباً! كيف أمكن أن يوجد من يقول مثل هذا، أو كيف أمكن أن يوجد من يقتنع بمثل هذا؟

لست أعتقد بأن شيئاً ما جدير بأن يطلق فينا كل تعبيرات الاحتجاج والاشمئزاز وطاقات الغضب مثل أن نرى إنساناً متحضراً أو يعيش في ظروف حضارية يجلس الذباب على أنفه أو طعامه أو ثيابه باستعلاء واسترخاء وغناء، ثم يظل ذلك الإنسان ساكناً جامداً لإلهه الطيب الجميل الحكيم الرحيم، يأكل طعامه بشهية وهدوء، وينظر إلى الساعة الأنيقة الغالية الثمن في يده، ويتحدث مع الآخرين الواقعين مثله تحت الذباب عن جمال الكون والإنسان والأرباب الخالقة النظيفة المعبرة عن نفسها وعن نظافتها بالذباب! إنه لا يوجد منظر أبشع من منظر طبيب يجلس الذباب على وجهه مستقر دون أن يرتجف ارتجافة يسقط بها تحت ذاته!

كيف ألف الإنسان منطقه؟ لقد كان الكون ذات وقت وجوداً فقط، أي حركة لا منطق لها غير نفس الحركة، إذ لم يكن هناك شيء أكثر من مجرد الوجود المتحرك، حتى جاء الإنسان

فراح يحاول أن يفهمه بفكره وأن يحوله فكراً. فالحركة إذن هي البدء، أي هي الإبداع الأعلى، ولم تكن الكلمة هي البدء، لقد جاءت الكلمة وكل شيء من الحركة. ولم تجيء الحركة من الكلمة ولا من أي شيء آخر. ولو كان الإنسان فكراً مجرداً لفهم الكون على حقيقته، أي لفهمه حركة لا عقل لها. فالعقل أو المنطق حاجة أو حالة من حاجات وحالات الإنسان، لا حركة من حركات الكون ـ العقل أو المنطق تعبير إنساني عن موضوعات إنسانية وليس موضوعاً كونياً. وحينما افترض البشر الكون أو الطبيعة أو الحياة عقلاً كانوا يفسرون أنفسهم، لا الكون ولا الحياة ولا الطبيعة. لقد كان أمام البشر طريقان: أن يفهموا الطبيعة والحياة كما هما، أو يفهموهما كما يريدونهما، وقد اختاروا الطريق الأخير لأن الطريق الآخر يخيفهم ويسحقهم أو يعجزهم.

لقد كان الوجود حركة ثم ترقى في ذات الحياة فاكتسب الشعور، ثم ترقى الشعور في ذات الإنسان فاكتسب التفكير، ثم ترقى التفكير في ذات الضرورة فاكتسب الأخلاقية أو ما يسمى أو يظن أخلاقية. فالمشاعر والأفكار والأخلاق والبلاغة واللغة هي الشوط الأخير أو الأعلى للحركة أي للوجود، والعكس لا يكون صحيحاً أبداً على أي احتمال، ومهما بدت هذه واهبة فهي موهوبة، حتى قدرتها على أن تهب هي موهوبة.

ولقد وجد هنا منزلق كأنه فكري، لقد أراد الإنسان أن يفهم الكون كما يفهم نفسه وأن يخضعه للقوانين المنطقية والأخلاقية التي يخضع هو لها في تصرفاته الموصوفة بالذكاء، محولاً له إلى إنسان ـ أي لقد أراد أن يفسره كذلك ـ فغرق في لجج من المحالات. لقد ذهب يرى أن ما يجب ويستحيل عليه هو، يجب كذلك ويستحيل على الكون، وأن ما يقصده هو ويعنيه بتحركاته يقصده ويعنيه الكون أيضاً بنفس النسبة بل بنسبة أعلى. فكل حركة من حركات الكون لم تحدث إلا بالأسلوب والقصد اللذين يحدث بهما فعله هو ـ أي بالشعور والفكر والإرادة والتدبير الخير. فإذا وجد من أخلاق الكون ما ينافي ذلك، أي ما ينافي المنطق الإنساني الذي فرضه عليه أو افترضه فيه ـ وكل الأخلاق الكونية تنافيه ـ كان محتوماً عليه أن يتهم نفسه بالعجز والغباء والضآلة، وأن يشنق عقله بالتفاسير الغبية. ولقد أضاع الإنسان طاقات لا حد لها من ذكائه ووقته وكرامته الإنسانية في تلمس هذه التفاسير المهينة وابتكارها.

إن الإنسان ليبدو في التاريخ كائناً مهيناً، كأنه لا اهتمام له أو لا رسالة لوجوده غير الدفاع عن أرباب هذا الكون بتبرير غباواتها وأخطائها وتحويلها إلى أسمى مستويات الذكاء والحكمة والنبل، بانتحاله الشروح المحقرة لعقله وشرفه، حتى لقد سجل على نفسه أضخم وأغبى تركة تفسيرية هي حصيلة دفاعه عن أرباب هذا الكون التي لا يمكن الدفاع عنها. وهل يستطيع الإنسان أن ينظر إلى هذه التركة ويفكر فيها ليعلم أنها مستقطرة من ذكائه وحياته دون أن

يصاب بالذعر ويشعر بالعار إلا إذا كانت قد قتلت فيه موهبة الغضب على الذنب والبلادة؟

لقد كان من الممكن أن يسلك الإنسان طريقاً آخر مضاداً في فهم وتفسير هذه القضية، ذلك بأن يزعم أن أحداث الكون ليس فيها قصد ولا عدالة ولا منطق، وكل شيء في الكون يؤيد ذلك، فإذا وجد شيئاً قد يفهم منه ما يناقض هذا المذهب استمسك بمذهبه واتهم نفسه ازاء هذا الشيء المناقض بالغباء والعجز والضآلة والتزم التسليم، مثلما يفعل حينما يأخذ بجانب الدفاع عن الكون وعن أشباحه المتوارية. إنه حينئذٍ سوف يخرج من دائرة الالتزام بالدفاع عن الذباب وعن القيمة العقلية والأخلاقية لوقوعه على وجوه الأطفال وطعامهم.

وعجز الإنسان عن أن يفهم أن الكون ليس إنساناً هو الذي جعله لا يجد فرقاً بين ما يصنعه هو وما يحدث في الكون، إنه هو يشيد البيوت ويقيم الجسور ويشق الطرق ويستنبت النباتات بحافز وهدف وفكرة مدبرة، والكون يصنع الأنهار والشموس والمعادن الكثيرة والذباب ليلوث به الطعام وينقل الأمراض بهدف وحافز وفكرة فيها أقوى معاني التدبير.

إن الإنسان لم يستطع أن يدرك الفرق بين ما يحدث حدوثاً كونياً وما يحدث حدوثاً إنسانياً. إن ما هو إنساني فقط مثل أدوات المنزل وزينة النساء وأحذيتهن لا يمكن أن يحدث حدوثاً كونياً، ولا يمكن أن يصنعه أحد غير الإنسان، إن الإنسان هو وحده الذي يصنع حاجات الإنسان. أما ما هو كوني فإن الإنسان لا يمكن أن يصنعه بالمنطق الكوني، فالإنسان لا يمكن أن يصنع شمساً أو قمراً أو نهراً أو بحراً أو مرضاً أو قحطاً أو صحراء أو ذباباً بالأسلوب والمنطق اللذين يصنع بهما الكون هذه الأشياء. إن أعمال الكون تحدث بقانون الحركة بلا أي تصميم ولا وفق أية حاجة أو رغبة وبلا انتظار لأية نتيجة، أما أعمال الإنسان فلا يمكن أن تتخلص من الرغبة أو الحاجة أو التصميم أو البحث عن نتيجة ما.

إن الإنسان لو صنع بأسلوب الكون لكان شيئاً لا حد لفجوره وجنونه، وإن الكون لو صنع بأسلوب الإنسان لكان شيئاً لا حد لعبقريته وتقدمه.

لقد وجد الإنسان الكون والحياة مذنبين دائماً، أي وجدهما خارجين على كل التعاليم والنظريات والأخلاق التي يتعلمها ويعلمها، ووجدهما فاجرين بمقاييسه النظرية إلى أقصى احتمالات الفجور، فلم يؤاخذهما على ذلك، بل لقد ذهب يقدسهما بسبب هذا الفجور والخروج، ويفسرهما كتعبيرين سماويين عن إرادة روح سماوية تحركهما لا مثيل لها في الاستقامة والحكمة والمحبة. كان المفروض أن يقف البشر من الكون والحياة موقف الغاضب المنكر المخطىء لهما، لخروجهما على جميع القيم التي يعرف ويتمنى ويتعلم، ولكن المفاجأة أن حولوا ما ينبغي أن يكون سبب سخط ونقمة إلى سبب رضا وتنزيه بل وتأليه.

كان من أعظم المفاجآت أن تصبح أخطاء الكون والحياة ومظالمهما وغباؤهما وما فيهما من

عبث وقسوة وأمراض وذباب دليلاً لا يناقش في منطق الإنسان على إله لا حد لرحمته وعدله وكماله وعبقريته وحبه للبشر. إن البشر يحاسبون أنفسهم، أي يحاسب بعضهم بعضاً على أصغر الأخطاء والذنوب بلا غفران، بل قد يحولون في هذه المحاسبة غير الذنوب إلى ذنوب عظيمة. إن البشر لن يغفروا لمن يقتلون أبناءهم أو يصيبونهم بالأوبئة والمجاعات أو لمن يطلقون الحشرات في بيوتهم أو الذباب على طعامهم، ولكنهم يغفرون كل ذلك بتدين للحياة والكون، بل ويفسرونه كأبرّ نعم الإله وإحسانه وكرمه. إن البشر يظلمون إخوانهم البشر ويقسون عليهم، ثم يحابون الطبيعة ويصفحون لها عن كل إساءاتها وعدوانها. لقد ظل التأليه لحماقات الكون والحياة من أشهر مواقف البشر ضد الذكاء.

ولكن الإنسان قد جمع ـ بلا تدبير ـ بين عبادة الشيء ومقاومته، فهو بقدر ما يدافع عقلياً ودينياً ومذهبياً عن أخطاء الكون يهرب سلوكياً منها ويناضل ضدها ويراها لعنة تجب مطاردتها، وهو يفعل ذلك دون أن يعي موقفه المتناقض. فهو إذا كان يرى الفقر والذباب إلهين بارين أو هديتين أو رسولين من هدايا ورسل إله رحيم ذكي فإنه يهرب منهما ويلعنهما ويلعن مهديهما وخالقهما بسلوكه دون أن يحترم رأي عقيدته فيهما، ولهذا يقاومهما أحياناً أو على الأقل لا يحترمهما، أو لا يتهم بالزندقة من يقاومونهما. حتى الذين كفروا بآلهة الكون والحياة ذهبوا باقتناع وحماس أكبر يرون فيهما ـ أي في الكون والحياة ـ معنى الآلهة وقصدها وذكاءها وأغراضها البارة الرحيمة، لهذا فهما ـ في رأي هؤلاء المؤمنين الكافرين ـ يعملان بذكاء وحرص شديد لتحقيق السعادة والنظام والتطور بحكمة وقصد لا يقلان عن حكمة الإله وقصده.

هل توجد مصلحة أو ضرورة عقلية أو نفسية أو اجتماعية تفرض على الإنسان أن يجمع في تناقض حاد بين تأليه ما في الكون من ألم وذباب وتفاهة وبين الهرب منه والنضال ضده بكل الأسلحة المستطاعة وغير المستطاعة؟ لقد كان المفروض أو المتوقع أو المعقول أكثر أن يرى الكون على حقيقته وأن يوحد موقفه منه ـ كان المفروض أو المعقول أكثر من الاحتمال الآخر أن يرى في الكون كتلة مادية ضخمة بذيئة وسخيفة، فيها حشرات وفوضى وعبث وجنون، وفيها أنهار وحقول ونجوم وحياة تعني الموت وموت يعني القسوة بلا هدف أو مصلحة، وفيها سرور هو احتجاج على الحزن أو فرار منه أو تناقض معه أو لغة من لغاته أو تحقير للإنسان وعرض له لا يرفعه كثيراً، ولكن ليس فيها ـ أي في كتلة الكون ـ أرواح ولا محبة أو عدل أو ذكاء. كان المعقول المفروض أن يرى الإنسان في الكون وجوداً ضخم الأبعاد يمكن التعامل معه ومعرفة أخلاقه الخارجة على الأخلاق، ولكن لا يمكن التعامل معه باحترام أو شرف أو اقتناع بقيمة هذا التعامل أو هذا العميل. وحينئذٍ يصبح الإنسان أكثر ذكاء وتلاؤماً مع نفسه وظروفه وسلوكه.

لقد كانت أكثر أخطاء البشر أخطاء لا ثمن لها ولا حاجة إليها. إذن كيف ولماذا جاءت؟

وهل الحياة تبحث عن الثمن والحاجة! ثم ما الثمن وما الحاجة؟ وهل نفس وجود الحياة حاجة أو له ثمن لكي تكون في سلوكها ملزمة بقانون الحاجة وبالبحث عن الثمن؟ إن الحاجة والثمن منطلقان عن الوجود، والوجود ليس منطلقاً عن شيء، بل الوجود منطلق عن نفس الوجود. إن أي وجود لا يساوي أكثر من نفس الوجود مهما كان حاجة من حاجات وجود آخر، إن نفس وجود الحاجة ووجود المحتاج لا يساويان غير مجرد الوجود.

الرضاعة العقلية من الاثداء الميتة

وأغلب الناس يعيشون كل حياتهم في رضاعة عقلية ونفسية وأخلاقية لا يريدون الفطام منها ـ وإنهم ليفضلون الرضاعة من الأثداء الميتة!

*

إذا شككنا في إله أو زعيم أو مذهب من المذاهب، وتحدى منطقنا وأخلاقنا فماذا نصنع؟ هل نبتلع شكنا وغيظنا؟ وإذا لم نستطع ابتلاعهما فهل نحتبسهما في حلوقنا وأفواهنا أم نبصقهما كلاماً ونقداً بأصوات عالية، كما يبصق المعلول فضل علته وكما يبصق الجرح نزيفه والخراج محصوله الأليم؟ إن اختزان الشك في الأرباب والزعماء والمذاهب نوع من اختزان الغضب والاحتجاج عليهم، إن الاختزان للمشاعر المحتجة يؤذي أصحاب هذه المشاعر من جهة كاختزان القيح، ومن جهة أخرى يجعل مشاعرهم ازاء هؤلاء الأرباب والزعماء والمعتقدات لا تشفى أو يبطىء شفاؤها.

حينما تسوء آراؤنا ومشاعرنا في مذهب أو إنسان أو شيء من الأشياء، فنعطي أنفسنا الفرصة والحرية لكي تعبر عن ضيقها وسخطها نجد أن عداوتنا لتلك الأشياء وآراءنا فيها قد تبدلت أحياناً أو ضعف توقدها، فأصبح من الممكن النظر إليها والحكم عليها بمشاعر وآراء أخرى بريئة من الكبت الحاقد والعداء الغاضب ومن الاحتجاج على الولاء المفروض بالخوف.

إن كراهتنا وحقدنا على الأشياء، على المذاهب والأشخاص، كثيراً ما تكون تعبيراً عن كبرنا وأنانيتنا المسحوقة أو المهانة، وكثيراً ما تكون أسلوباً من أساليب الدفاع عن النفس والكرامة. وهل يمكن أن يكون الحقد والكرامة غير دفاع عن النفس أو عن الكرامة؟ عجباً! إن هجومنا على الشيء وانتصارنا عليه ونقدنا له قد يجعلنا نحبه ونحترمه ونؤمن به لأن ذلك قد يشفينا من الحقد عليه والبغض له، إننا حينما نشعر بأننا ملزمون بالولاء والدينونة والاتباع لعقائد أو رجال لا نعقلهم أو نقتنع بهم إلزاماً يفرض علينا بقوة الخوف والتاريخ والأمر وقانون التوريث، دون أن

نرضى أو نستشار تنطلق فينا ـ وهذا كثير حدوثه وإن لم ندركه جيداً ـ مشاعر مضادة ومقاومة لذلك الالزام، وهي مشاعر المقاومة والدفاع عن العقل المهان المستعبد، وقد تتطور تلك المشاعر المضادة المقاومة حتى تصبح إنكاراً لجميع المزايا، وقد تكون أكثر من ذلك.

إن المفروض أن نقاوم الإذلال النفسي والأخلاقي والاجتماعي، فكيف لا يكون مفروضاً كذلك أن نقاوم الإذلال العقلي؟ قد نقاوم أو على الأقل نكره من يذلون أخلاقنا ومكانتنا في المجتمع فكيف لا نقاوم أو نكره من يذلون عقولنا دون مقاومة أو رفض؟ إننا إذا أعطينا كبرياءنا الفرصة لتحتج وترفض وتثأر من الشعور بالإلزام والإملاء، وتركناها ـ أي تركنا كبرياءنا ـ تقول وتنكر وتلعن وتشك في تلك العقائد والزعماء والآلهة والتقاليد المفروضة علينا أو التي ورثناها عن القبور، فإننا بهذا نساعد أنفسنا على الشفاء من آلام الشعور بالإكراه الذي يصنع الكره.

إن الذين يشكون في أربابهم وقادتهم الروحيين والسياسيين وفي مذاهبهم وجميع قيمهم العقلية والتعليمية، ثم يحولون شكهم إلى هجوم من الغضب والنقد القاسي المعلن، يجرحونهم تجريحاً هو أكثر وأقسى من مستوى شكهم، لن يكونوا أقل ولاء واحتراماً لهم من الذين يحرم عليهم الشك حتى ولو كانوا عاجزين عن اجتناب الشك، ثم يحرم عليهم الحديث عن الشك مهما كان موجوداً، أي ثم يحرم عليهم أن يبصقوا البلغم ويفرزوا الصديد وينظفوا الجراح!

إن المفروض أن يأمر جميع الزعماء والحكام في العالم بأن يهاجموا وينقدوا بقسوة، وأن يجزوا من يهاجمونهم وينقدونهم ـ أو على الأقل ـ المفروض أن يرحب كل الزعماء والحكام بذلك وألا يضعوا عليه أي قيد من القيود، إنهم حينئذٍ طراز جديد من الزعماء الأذكياء الخبثاء، لأنهم حينئذٍ إما أن يكونوا محبوبين أو مكروهين، إن كانوا محبوبين ازداد الناس لهم حينئذٍ حباً وتقديراً وامتنعوا عن مهاجمتهم ونقدهم، بل وذهبوا يثنون عليهم. أما إن كانوا مكروهين فإن الهجوم عليهم والنقد لهم سيخففان من كراهتهم، بل إن مجرد شعور الناس بحريتهم في نقدهم والطعن فيهم سيضعف حتماً من هذه الكراهية، وقد يحولها إلى تقدير وعطف.

ولا أدري هل يوجد أي شك في أن زعيماً أو حاكماً معيناً سيكون محبوباً ومحترماً حينما يبيح للناس أن يعارضوه ويهاجموه بل ويلعنوه، وحينما يفعلون ذلك بحرية ليس أمامها أي قيد من الخوف أو المنع أكثر من أن يكون محبوباً ومحترماً حينما يأمر بامتداحه ويثيب عليه. إذن لماذا لا يفعل الزعماء والحكام ما يوجبه عليهم الذكاء وما تفرضه عليهم مصلحتهم وحبهم لأنفسهم؟ هم لا يفعلون ذلك لأنهم ليسوا دائماً في مستوى الذكاء الذي يجعلهم ينتصرون على كل مستويات الغباء، ولأنهم من جهة أخرى لا يواجهون تصرفاتهم ومواقفهم بالعقل بل بالعاطفة، وهم بالعاطفة يريدون المدح والتأليه ويرفضون الذم والتخطئة. وتحت هذه العاطفة يتعاملون مع أنفسهم ومع الآخرين معزولين عن المنطق والأخلاقية عزلاً تاماً أو جزئياً.

إن أبعد الناس عن التعامل مع علم النفس هم الحكام والزعماء الذين يحولون مجتمعاتهم إلى مادحة مؤلهة لهم، ويرفضون أن تكون رافضة لهم محتجة عليهم. إن الذين لا يستطيعون أن يغضبوا بعقولهم واحتجاجهم على أربابهم ومعتقداتهم، ولا أن يشكوا ويعلنوا شكهم إذا شكوا، لا بد أن يغضبوا عليها بسلوكهم وأهوائهم واحترامهم ولو في يوم من الأيام.

إن أي شيء نتعامل معه ولو بعقولنا وعواطفنا كالآلهة والعقائد مثلاً لا بد أن يغضبنا ويثيرنا يوماً ما وعلى نحو ما، لأنه لا بد أن يتصادم ويتناقض معنا بأسلوب من الأساليب، فإذا لم نحول هذا الغضب والتناقض إلى شك ثم إلى نقد فلا بد أن نكون في عدائنا أكثر من الشك والنقد، أو ألا نكون بشراً يتعاملون مع الأشياء بعقولهم ورؤيتهم، فيقبلون ويرفضون، يفرحون ويساؤون. إننا إذا لم نشك في حكامنا وأربابنا وفي النظم التي نرتبط بها، ولم نحول شكنا إلى غضب ونقد واحتجاج مسموع، فنحن حتماً تحت أدنى مستويات الذكاء، أو أدنى مستويات الشجاعة، أو تحت أدنى مستويات الرفض النفسي للدمامات أو الاحتجاج على التناقض الحاد الدائم التحدي لعقولنا وكرامتنا وشرفنا ونظافتنا.

إن البشر لا يجدون فرقاً كبيراً بين أنفسهم وبين المواقف والأشياء التي يختارونها لها أو يلتزمون بها، فاحترامهم لهذه المواقف والأشياء أسلوب من أساليب احترامهم لأنفسهم، ولهذا فإنهم يغارون عليها ويدافعون عنها بغضب وحقد وبلا عدل كما يفعلون ازاء أنفسهم. وقد يشعر الناس أنهم هم المهانون إذا أهينت المذاهب والنظم التي التزموا أو آمنوا بها. وهذا هو التفسير لعواطفهم نحو الموافقين وضد المخالفين في الأديان والمذاهب والأوطان والأرباب.

إن الذي يشتم الشمس أو الكون أو الإنسانية بالتعميم لا يغضبنا مثلما يغضبنا من يشتم وطننا وحده أو قومنا وحدهم، مع أن الذي يشتم الشمس أو الكون أو الإنسانية أعظم شتماً وجريرة من الشاتم المخصص. والذين تقاتلوا في التاريخ والذين سوف يتقاتلون لأنهم كانوا مختلفين، لا يحتمل أن يكون تقاتلهم بسبب خلافاتهم، بل دفاعاً عن أنفسهم ومصالحهم، لأن مذهب كل فريق قد أصبح يعني وجودهم ومصالحهم، إن مذهبهم قد أصبح هو إياهم لا شيئاً آخر يؤمنون به أو يحترمونه. فالناس لا يهتمون بالأشياء الموجودة ولا يحترمونها، وإنما يهتمون بالأشياء التي يعيشونها أو يعيشون معها أو ينتسبون إليها، ويحترمونها. إن اهتمامنا بالكوخ الذي نسكنه وبالرغيف الذي نأكله، ودفاعنا عنه أعظم من اهتمامنا بأكبر مجموعة شمسية لا نعيش فيها ولا معها ولا نراها، ومن دفاعنا عنها، لو وجد من يريد تدميرها أو سرقتها!

ما أكثر ما يكون سبب الإيمان هو العطف على من نؤمن له وعلى ما نؤمن به. ولعل عطف المؤمنين الأولين على أنبيائهم ودعاتهم ـ لما كانوا يعانون من أحزان وعذاب وظلم وبكاء، هو الذي جعلهم يؤمنون بهم ويرون معجزاتهم ويقتنعون بها، ولعل إيمانهم بهم كان نوعاً من الرثاء

لهم ولدعواتهم المردودة المجرحة التي كانت تعرض نفسها على السوق في ضعف وهوان وبكاء، ولعل إيمانهم بهم كان أسلوباً من أساليب التعويض عليهم والاعتذار إليهم. إن الرثاء للضعفاء والمعذبين قد يتحول إلى فداء وبطولة، لأن قوة الأقوياء قد تتحول إلى نوع من التحدي لنا، قد تصبح في تقديرنا تحدياً موجهاً إلينا وحدنا.

وإذا كان من المفروض الدائم أن القوة تخدعنا وتغرينا وتفسد منطقنا وتقديرنا واحترامنا لأنفسنا وللأشياء، وتسوقنا في موكبها الضاج الأعمى، لنكون أدوات غبية مقهورة في جهازها الرهيب المحطم للأعصاب والذكاء وللشخصية، أي لنكون وحوشاً غير مهذبة في هذا الجهاز الوحشي ـ نعم إذا كانت القوة تفعل كل ذلك فإن العطف قد يخلق فينا مقاومة وإيماناً، لأن عطفنا على الشيء يشعرنا بالرضا عن أنفسنا وبالكبرياء التي لا يوجد في البشر من يستغني عنها، لأن هذا العطف، الذي نمنحه شيئاً أو إنساناً يضعنا في مكان المتفوق المتفضل بدون أن نصاب بأية خسارة متحددة.

إن العطف على الناس وعلى الحيوانات والأشياء هو أرخص وأكثر أساليبنا في العطف على أنفسنا وفي مجاملة حاجاتنا إلى الغرور وإلى الاقتناع بأننا كائنات لا تقل عن الشمس والنجوم صعوداً وسطوعاً وضخامة وخلوداً ونظافة.

إننا لهذا لخليقون بأن نعود لنهب عطفنا واحترامنا للشيء الذي نفرغ أنفسنا عليه هجوماً وقسوة، إذا تلقى قسوتنا وهجومنا بالصبر والتسامح اللذين لا بد أن يمسحا عن أفكارنا ومشاعرنا كل توتر وغضب. وإذا تسامحنا مع رغبتنا في الهجوم بلا أية قيود على التقاليد والمقدسات والآلهة والزعماء الروحيين والسياسيين فما أسرع ما تنهزم هذه الرغبة، وما أسرع ما ينهض مكان الرغبة في الهجوم رغبة في العطف والصداقة والتماس المزايا. إن العطف هو أقصر الطرق إلى الإيمان والاحترام، وإن قبول الهجوم والنقد هو أقرب الطرق إلى الظفر بعطف المهاجم الناقد.

من المحتمل أنه لو كان آباء البشر الروحيين الذين جاؤوهم بالرسالات الكبرى من الأقوياء والسادة المترفين الذين لن يصل عطفنا عليهم ورثاؤنا لهم إلى موضع أقدامهم لعلو مكانهم، لما آمنوا بهم وساروا وراءهم وناضلوا دونهم ووضعوا حياتهم تحت أقدامهم، إنهم لن يمنحوهم حينئذٍ عطفهم، فعطف البشر دائماً مع المظلومين لأن الظالمين يتحدون كبرياءنا.

فالظالم وإن كان يظلم سوانا لا بد أن يشعرنا أحياناً أن ظلمه موجه إلينا. واستعدادنا للإيمان بالضعفاء الصابرين أكثر من استعدادنا للإيمان بالأقوياء القاهرين المتكبرين ما لم نقهر قهراً على الإيمان بهم، وما لم يسحق الإغراء والضجيج اللذان يملكهما الأقوياء القاهرون قدرتنا على الاشمئزاز والاحتجاج. إن الأقوياء المتكبرين هم أوقح تحد للكرامة الإنسانية. ولكن المشكل أن

الكرامة الإنسانية ليست شيئاً يمتنع على الهوان والسقوط والإغراء والقمع، إن كل مجتمع وكل إنسان قد يفقد كرامته دون أن يشعر أنه قد فقد شيئاً، ودون أن يموت أو يبكي حين يشعر أنه قد فقد أعظم شيء. إن في الإنسان قدرة لا حدود لها على الصفح والهوان والسخف والبلادة، وفي قليل جداً من أفراده قدرة لا حدود لها أيضاً على الرفض والتحدي وعلى الموت بحثاً عن الرفض والتحدي. ولكن متى توجد هذه القدرة، أو كيف توجد دون تلك؟

ليس من الممكن أن نتعامل مع شيء ما معاملة فكرية وعاطفية ومادية طويلة دون أن تتصارع وتتناقض وتتفاوت مشاعرنا وأفكارنا فيه ما لم نمت موتاً، وإننا لنتعامل كل أنواع المعاملات مع إيماننا وتقاليدنا وأربابنا وتاريخنا الروحي كله ولو معاملة نفسية وفكرية، فمن المستحيل حينئذٍ أن يستقر في ذلك تفكيرنا أو شعورنا على حالة واحدة، بل لا بد أن نعاني من الصعود والهبوط والقبول والرفض. وإن من الخير إذن إطلاق أفكارنا ومشاعرنا لتعبر عن تناقضاتها واحتجاجاتها وصراخها تعبيراً كاملاً، أن تعبر عن شكها وإيمانها وعن حبها وبغضها، قابلة رافضة بكل ما تستطيع من صراخ وقتال.

وإذا كان لا بد من التعبير ـ ولو شكاً وهمساً مع النفس بلا لغة ـ فإن التعبير الخارجي باللغة وموجهاً إلى الآخرين وإلى الفضاء أفضل من التعبير الداخلي، أفضل من مخاطبة النفس وحدها ومن تسديد كل الأسلحة إليها في أضيق مكان. أليست القنبلة التي تنفجر خارج البيت أقل ضرراً من التي تنفجر داخله، والخراج الذي ينصب خارج الجسم أفضل من الذي ينصب إلى داخله؟ إننا إذا اعتقلنا انفعالاتنا واحتجاجاتنا الرديئة والمضادة أو الخاطئة في تجاويف أنفسنا فليس معنى هذا موت هذه الانفعالات والاحتجاجات.

إن السخط والإنكار والتعبير عنهما أسلوبان من أساليب الإيمان والاعتراف الساخطين المحتجين، فالذي يهجو زهرة أو عبقرياً ليس إلا إنساناً ساخطاً محتجاً معترفاً في سخطه واحتجاجه، والاعتراف المحتج ضرب من الحركة، والذي يتحرك حول نفسه خير من الذي يتحرك فيها.

ونحن حينما نتحرك هذه الحركة الفكرية والنفسية حول إيماننا وعقائدنا ندلل بلا تدبير أو قصد على عمق شعورنا وتأثرنا بمذاهبنا وآلهتنا التي نحتج عليها وننكر بعض منطقها وسلوكها. فالذي يحركنا حركة فكرية وعاطفية ـ ولو جاءت بأسلوب السخط والاحتجاج ـ لا بد أن يكون عظيماً في تقديرنا وتأثيره علينا، والذي يحركنا كيفما كان تحريكه هو الذي يصنعنا ويغيرنا. وإن الإيمان الذي يحركنا إلى الرفض والاشمئزاز ليهبنا السعادة والقوة والنشوة أكثر من الإيمان الخامل الخامد المستقر ببلادة في الغرف المهجورة من وجودنا.

إن العقائد والأفكار التي قوبلت بالسخط والشك والرفض هي التي صنعت التاريخ والرجال

ونفسها والانطلاقات الكبرى دون المعتقدات المسلمة المتوقرة ـ أعني لو كانت العقائد تصنع شيئاً أو تغير شيئاً.

إن الإفراز من الداخل إلى الخارج علاج وضرورة وراحة، وإن بصق الشك الفكري بواسطة اللغة والنقد والرفض المعلن لراحة لنا واحترام لأربابنا وزعمائنا ومذاهبنا ولمن نشك فيه ولما نشك فيه.

إنه لكي يصبح محتملاً أن نؤمن بالشيء جداً يجب أن يوجد من يكفرون به جداً، ولكي ننهض للدفاع عن مذاهبنا وأربابنا دفاعاً قوياً يجب أن يوجد من يهاجمونها هجوماً قوياً، ولكي نشعر بالحماس لأية فكرة ونهبها المزيد من الاهتمام والتأمل وعمليات الانضاج يجب أن يوجد من ينكرون أن تكون لها قيمة أو قدرة على الانتصار في أية تجربة. إنه لشيء نافع للمعتقدات والمذاهب وللمؤمنين بها أن تثار التناقضات الحادة حولها، إن إيثار الإيمان بها والإنكار لها. إن الإيمان والإنكار حينئذٍ يؤلفان حقيقة واحدة، هي حقيقة الفكر الإنساني المتكامل باتجاهاته المختلفة، وحقيقة الحياة التي تحتاج إلى التمرد والجحود بقدر احتياجها إلى الإيمان والتسليم، أو التي لا بد أن تكون تمرداً وجحوداً كما لا بد أن تكون إيماناً وتسليماً. وهذه الإثارة للتناقضات الحادة حول عقائدنا وأربابنا ومذاهبنا إن لم تفد إيماننا فإنها لا بد أن تفيد تفكيرنا وتنشط حماسنا، وتستهلك فائض ضياعنا وانفعالاتنا الضارة الحائرة.

إنه لا يمكن أن توجد كلمة «أؤمن أو أقبل» أو أن يكون لها معنى بدون أن توجد كلمة «أرفض وأنكر» وبدون أن يكون لها معنى. إن الكلمتين «أؤمن وأكفر» لتفسرهما الحياة بمعنى واحد، وإن إحداهما لتفسر الأخرى وتهبها معناها!

إن كل إيمان يعني كفراً، وإن كل كفر يعني إيماناً، وليس المؤمن أكثر إيماناً من الكافر، ولا الكافر أكثر كفراً من المؤمن. إن كل مؤمن كافر، وكل كافر مؤمن، إذن أيهما المؤمن وأيهما الكافر، أو أيهما الكافر المؤمن الطيب، وأيهما المؤمن الكافر الرديء؟ الإنسان مهما كفر واحتاج إلى الكفر فإنه لا بد أن يظل مؤمناً وأن يحتاج إلى الإيمان، كما أنه مهما آمن واحتاج إلى الإيمان فلا بد أن يكون كافراً وأن يكون محتاجاً إلى الكفر. فلا كفر بلا إيمان، ولا إيمان بلا كفر، إن وجود أحدهما يعني حتماً وجود الآخر. ولو وجد من يكفر كفراً مطلقاً بلا إيمان لكان معنى هذا وجود من يؤمن إيماناً مطلقاً بلا كفر.

وكيف يكون هذا؟ إن معناه أنه لا إيمان ولا كفر ولا شيء، فلو آمن إنسان بكل شيء لكان كافراً بكل شيء. إن الكافر يعني أنه مؤمن بالنقيض، وإن المؤمن يعني أنه كافر بالنقيض، ومعنى هذا أنه لا يوجد كافر ومؤمن، وإنما يوجد شيء ونقيضه. والمسألة كلها ليست إلا مسألة انتقال من النقيض إلى النقيض لا من الكفر إلى الإيمان، ولا من الإيمان إلى الكفر، ولا تتغير حقيقة

الإيمان أو حقيقة الكفر، ولا الحاجة إلى هذا أو إلى هذا،ولا عنفه أو ضعفه، وإنما الذي يتغير هو مكانه وموضوعه.

إذا كفر إنسان بالكائن الجالس في السماء ينظر إلى آلام الحياة وتفاهة الأشياء وعقم الهدف بصمت وتثاؤب يثيران الغضب والشك والانصعاق العقلي فلا بد أن يؤمن بالكون والحياة والإنسان والقوانين والاحتمالات المخبوءة فيها، لأنه لا بد من الإيمان بأحد النقيضين، ولا يستطاع الإيمان بهما معاً، بل الإيمان بأحدهما رفض للآخر.

وإذا كانت هذه الكائنات وقوانينها إنما هي التعبير الأعلى عن قدرة الخالق وفنه العظيم ـ كما يقول المؤمنون ـ كان معنى هذا أن الذين يكفرون بوجود الإله ويؤمنون بأعماله الكبيرة ما مثلهم إلا كمثل من يؤمن بأعمال الفنان والمهندس العظيم دون أن يعلم بوجودهما أو بمكانهما أو يعرف شخصيتهما أو ذاتيهما. وليس موضوع الحياة هو ذات الفنان أو المهندس بل إبداعاتهما. ولم يصنع هؤلاء الذين آمنوا بأعمال الخالق وأنكروا وجوده أكثر من أنهم آمنوا بكل عبقرياته وأنكروا ذاته، أو لم يستطيعوا رؤية ذاته. والإيمان ليس بحثاً عن ذوات بل عن موضوعات ـ ليس الإيمان معرفة لباني المعبد أو بحثاً عنه، ولكن الإيمان احترام للمعبد أو دخول إليه أو صلاة فيه، إن الإيمان ليس عبادة لمعبود ما، وإنما هو عبادة فقط. والمواطن الصالح هو الذي يرفع الوطن ويطيع قوانينه، وليس هو الذي يعرف واضع القوانين أو يؤمن بالحكام ويحترمهم. وأغبى الحكام وأكثرهم فساداً هم الذين يركزون على الإيمان بهم والالتفات إليهم والتفكير فيهم، لا على الإيمان بالقوانين والأوطان والنهوض بها.

إن المؤمن هو الذي تمتلىء نفسه بالإيمان، وليس هو الذي تمتلىء نفسه بالآلهة. ليكن إيمان وإن لم تكن آلهة، فالإيمان هو المطلوب وليس الآلهة. وكذلك المواطن الصالح هو الذي تمتلىء نفسه باحترام الوطن وقوانينه، وليس هو الذي تمتلىء نفسه برهبة الحكام واحترامهم وبالإيمان بهم. وقد يكون الانصراف عن الذوات، أي قد يكون الانصراف عن الاهتمام بذوات الآلهة حافزاً على الإبداع وعلى الاهتمام بما تريد تلك الذوات والآلهة، كما أن الانصراف إلى ذوات الآلهة وإعطاءها الكثير من الوقت والالتفات قد يضعف الحماس للأعمال والقدرة عليها ويعوض أو يشغل عنها.

إنه لا يوجد تشويه للإنسان أبشع من أن تحول نفسه إلى متحف كئيب موحش يزدحم بالآلهة الغاضبة المتوحشة، وبالمذاهب والعقائد المتعصبة الداعية إلى البغض والقسوة، وبالدعاة والقديسين الكالحين الذين لم يتحضروا، والذين صاغت الجحيم أخلاقهم وبلاغتهم. ويحقر الله من يظنون أنه يريد من الناس أن يؤمنوا به وأن يشغلوا بالتفكير فيه وبوضع صوره المنتقاة في أكياس جميلة داخل أنفسهم أو داخل غرفهم وحول مخادعهم، كما توضع صور الطغاة

والفاتنات من الفنانات. إن الله الذي يعظمه أن يتخيلوه هو الذي يريد أن يؤمن الناس بالأشياء التي يتعاملون عليها ومعها ويحتاجون إلى الملاءمة بينهم وبينها، الله الذي يعظمونه بإيمانهم به هو الذي يريد من الناس أن يؤمنوا بالكون والحياة وبأنفسهم ويحتجوا بعقولهم ولغاتهم على الكون والحياة وعلى أنفسهم، على الدمامات والعبث والآلام التي تنافي كل ذكاء وعبقرية وأخلاقية.

إن الله الذي يجب أن يتصوروه هو الذي يريد الشامخين بعقولهم وأخلاقهم، الذين يرفضون ويحتجون وينكرون ويعاقبون أربابهم ومعلميهم وحكامهم ومذاهبهم ويقسون عليهم ويحاسبونهم أقسى مما يحاسبون الخصوم وكل المتعاملين معهم. كيف يكون جمال الإله في أن يريد من يؤمنون، ولا يكون جماله في أن يريد من ينكرون ويقاومون؟ كيف تكون كلمة نعم أجمل في سمع الإله وأخلاقه من كلمة كلا؟

إن إيمان البشر لهم وليس للآلهة ولا للدعاة والزعماء والمذاهب، والإله الذي يحاسب على الإيمان به هو كالطاغية المريض الذي يحاسب على الإيمان به والولاء لشخصه. والفقراء والضعفاء والفاسدون هم الذين يطلبون من الآخرين أن يعطوهم من ذواتهم. الذين يطلبون أن يعطوا إيماناً أو تمجيداً أو عبادة ليسوا أقل بذاءة من الذين يطلبون إعطاءهم مالاً. لقد كان تصوراً غير ذكي ذلك التصور الذي تصور الآلهة مشغولة بخلق الناس وإعدادهم لعبادتها والإيمان بها وبالبحث في عقولهم وضمائرهم لمحاسبتهم على ما فيها من إيمان أو رفض ومن اقتناع أو شك. إنه تصور يعبر عن مستوى تاريخي وحضاري وثقافي وفكري متخلف جداً.

إنه إذا كان كل كافر مؤمناً، وكل مؤمن كافر فإن المؤمنين حينئذٍ لن يجدوا ما يفخرون به على الكافرين لأن الجميع كافرون، لأن المؤمنين هم أيضاً كافرون كما أن الكافرين مؤمنون. فلا فضل لأحد على أحد لا بالإيمان ولا بالكفر.

إن الذين يكفرون بأنين الوعاظ ونعيبهم فوق المنابر وفي المحاريب قسوة على الإنسان وتهديداً له ورفضاً لإبداعاته وضروراته، لا بد أن يؤمنوا بضرورات الحياة وابتساماتها وبهمومها ودموعها الذاتية، والذين يكفرون بهذه يؤمنون بتلك. فأيهم المؤمن، وأيهم الكافر؟ فإذا كان الله هو الذي خلق دموع الوعاظ وضعفهم وغباءهم، وخلق كذلك مسرات هذا الوجود وقوته واتساعه وقوانينه فإن الكافر حينئذٍ قد آمن بأجمل وأفضل ما خلق الله، أما المؤمن فقد آمن بأقبح ما خلق الله. لقد آمن المؤمن بهؤلاء الوعاظ وبما يقولون من جهل ودمامة، أما الكافر فقد آمن بالكون وبما يفرض من حقائق كبيرة وقاسية وصحيحة مؤلمة. لقد عبر كل منهما بأسلوب، هذا وجد أن الوعاظ هم أسلوبه إلى المعرفة والاقتناع، وذاك وجد أن الكون بحقائقه وتفاهاته هو الأسلوب، إنهما أسلوبان لذكاءين ووجودين مختلفين.

وحينما يرفض قوم أن يأخذوا شرائعهم وأفكارهم وحياتهم عن الآخرين الذين قد ماتوا حتى لقد مات فيهم الموت لقوته وتقادمه، ويؤمنون بأن عليهم أن يأخذوا ذلك من استبشاعهم واستنكارهم أن يولد طفل بريء ليصاب بالشلل قبل أن يجرب الحياة، ثم يرى آخرون العكس، فمن الذين آمنوا، ومن الذين كفروا من الفريقين؟ فريق آمن الإله عابراً إليه الألم والخطأ والعجز والتناقض والدمامات كأقوى البراهين، وفريق آمن بالكون حينما رأى ذلك مستفظعاً أن يكون ـ أي ما رأى ما آلام وأخطاء وتناقضات ودمامات وقسوة ـ من عطاء إله عظيم ـ فريق يستدل بالذنوب على الإله المنزه، وفريق يرفض هذا الاستدلال، فريق يهرب من تجربته ورؤيته ليكون مؤمناً، وفريق يعيش بكل رؤيته وأحاسيسه واحتجاجاته هذه الرؤية والتجربة ليكون مؤمناً. فأي الفريقين أذكى وأفضل إيماناً؟

إن الإيمان على المستوى الديني والتاريخي اعتداء على الإله وتوريط وعقاب له إننا نؤمن بالإله أو بالزعيم أو بالمعلم أو بالمذهب لنسقط عليه، ولكي يكون عقله وأخلاقه مسؤولة عن كل ما فينا من ضعف وهوان ونقائص، لنكون نحن بريئين من ذنوبنا، إننا نؤمن به لنلوث جسمه وثيابه بكل عرقنا ونزيفنا وأدراننا، إننا نتهمه لكي نبرىء أنفسنا، إننا نلقي به تحت آلامنا ونقائصنا بلا شرف أو محبة أو احترام له. فالإيمان فسوق بالآلهة والزعماء والمذاهب، إن المؤمن إنسان غير أخلاقي وغير متحضر، إنه يلقي بذنوبه وهمومه وكل غباواته على كائنات أخرى قد تكون بريئة ومظلومة، ثم يزعم أنه بذلك يعظمها ويحترمها. إذن الإيمان على المستوى الديني والتاريخي ضد الأخلاق والإنسانية، والمؤمن ليس إلا إنساناً معتدياً نفسياً وفكرياً ودينياً على من يؤمن بهم وعلى ما يؤمن به. إن المؤمن إنساناً يتقايأ رذائله وأحزانه على أربابه وزعمائه وأنبيائه ومذاهبه!

إن البشر الأقوياء الأخلاقيين هم الذين يتعبون في تحصيل ذواتهم وعقائدها وصفاتها، وليسوا هم الذين يركعون على الأعتاب، يطلبون وينتظرون أن تصنع لهم ـ أي العقائد والصفات والذوات ـ ويؤمروا بها أمراً، وتلقى في عقولهم مع لفائف ولادتهم وأكفانهم إلقاءً. إن أردأ الناس في وجدان الحياة ووجدان الآلهة هم الذين يكسلون عن تحصيل عقولهم أو يعجزون، إن هؤلاء لأردأ من الذين يكسلون أو يعجزون عن تحصيل حياتهم وأرزاقهم. وأيهما أشد كفراً، الذي يستوهب عقله أم الذي يستوهب رزقه وحياته؟ أليس أغلب إيمان الناس أسلوباً بذيئاً من الكسل والاستعطاء؟

إن الإيمان هو أسوأ أساليب الرضاعة النفسية، وما أقل من يريدون أن يتخطوا سن الرضاعة العقلية. أغلب الناس في كل حياتهم يعيشون في رضاعة عقلية ونفسية يرفضون تجاوزها! كم هم الذين أرادوا أو قبلوا أن يفطموا عقلياً في كل التاريخ؟

إذا كان واجباً على البشر أن يصنعوا وينتجوا ثيابهم وبيوتهم وأرزاقهم وجميع مستويات حياتهم، فكيف لا يكون واجباً عليهم أن يصنعوا عقائدهم وأفكارهم وكل مستويات حياتهم الروحية؟ وإذا كانت الاتكالية في طلب العيش بلادة وعجزاً فكيف لا تكون الاتكالية في العقيدة والعبادة كذلك؟ إن أكثر الناس يؤمنون بالتقليد لأنهم أنانيون ولصوص وخاملون ومتضعون، يهربون من المعاناة، ويقتاتون بضعف الآخرين، ويسرقون طعامهم الفاسد الرديء، ويلقون بأنفسهم عليهم وبين يديهم في مهانة واتضاع رهيب، ولا يؤمنون لأنهم أذكياء أو فضلاء أو مؤدبون مع الآلهة والتاريخ والسلف الصالح.

إن الفرق بين المؤمن والمتمرد يساوي الفرق بينهما في مستوى الخمول والنشاط وفي مستوى الإباء والضعة، ويساوي أيضاً الفرق بينهما في الاستعداد للاحتجاج على ما يصدم رؤيتنا وتعاليمنا ومنطقنا وجميع قيمنا وتفاسيرنا للآلهة وأخلاقها وللعدل والذكاء الكونيين، وللإنسان ومزاياه الروحية والأخلاقية. إن أي إنسان يملك أي مقدار من القدرة على الاحتجاج العقلي والعاطفي ضد ما يرى ويعلم ويعاني لا بد أن تتهاوى من كل افتراضاته وخيالاته جميع احتمالات القداسة والأخلاقية والخالقية من هذا الكون.

لقد ظل الإنسان يملك في الأغلب مناعة مذهلة ضد الاحتجاج، بل ضد الرؤية لما أمامه ولما يعيشه، لهذا استطاع أن يبتلع في عقله وعقائده ولحساب أربابه وزعمائه الروحيين والسياسيين أبلد الأخطاء والمظالم والجهالات والدمامات، وأن يغفر لهم كل ذلك بسهولة، واهباً لها أفضل التفاسير العقيمة، لقد كان الإنسان في عجزه عن الاحتجاج والرفض وعن الرؤية أيضاً عبقرية، وإنه لا يزال يعيش هذه العبقرية، وقد يظل أزماناً طويلة يعيشها، وقد يعيشها أبداً. وتحت حماية هذه العبقرية عاشت أسوأ الآلهة والطغاة والمعلمين والعقائد دون أن تصلب أو تموت خوفاً أو شعوراً بالذنب والعار والخجل. ولم يكن ممكناً أن تعيش أو حتى تولد لو كان الإنسان يراها بكل ذنوبها بكل ذكائه وغضبه ونفوره.

وقبول الأشياء ورفضها عقلياً ليسا مرتبطين بالذكاء والغباء، إن من نعدهم أذكى الأذكياء ومن نعدهم أغبى الأغبياء قد يتساوون في قبول أكبر الحماقات، بل إن الأذكياء العظام جداً في ذكائهم هم الذين وهبوا التاريخ أبشع غباواته الخالدة، وإن الأغبياء العظام جداً في غبائهم ليسوا إلا أتباعاً يتعلمون الغباء والإيمان به من الأذكياء الكبار.

وهل كان محتوماً أن يؤمن البشر بكل عقائدهم ومذاهبهم وأربابهم ويفعلوا جميع حماقاتهم لو لم يقدمهم إليها دعاتهم وقادتهم الموصوفون بأعلى مستويات الذكاء؟ هل الناس ـ أي في أعلى مستوياتهم ـ أذكياء، أو هل هم أغبياء؟ وما هو الذكاء، وما الغباء؟ يوجد في البشر حتماً عبقرية وإبداع، ولكن هل العبقرية والإبداع ذكاء؟ قد تكون العبقرية خروجاً على الذكاء

وضده، وقد يكون العبقري طفلاً غبياً جداً في عقائده وأفكاره وسلوكه الاجتماعي. وهل يكون عبقرياً لأنه كذلك، أي لأنه طفل في إيمانه وسلوكه؟ قد يكون العبقري بلا أي مستوى من مستويات الذكاء المعروفة التي تتعامل عليها المجتمعات. وما هي الأشياء التي تعد عبقرية وإبداعاً، وما الأشياء التي لا تعد كذلك؟ وهل البشر عادلون ومصيبون في أحكامهم على العبقرية والإبداع ونقيضهما؟

إذن ما هو الذكاء؟ قد نقول إن الذكاء هو اجتناب الغباء والتفوق عليه، وحينئذٍ ما هو الغباء؟ قد نقول إن الذكاء هو الارتفاع على السخف والتفاهة والعبث والشر، قد نقول إنه هو ألا نفعل ما تفعله السوق وألا نلتزم ما تلتزم، هو ألا نفعل شيئاً لا نفعله إلا لأن الآخرين يفعلونه، وألا نعتقد ونفكر ونحب ونبغض ونلعن ونتكلم ونعادي ونصادق ونحارب ونسالم بالاتباع والتلقين والسير في الطريق القديم الذي يسير فيه القطيع، وحينئذٍ يصبح من الصعب أن يوجد في العالم ذكي واحد. إن من يحسبون أشد الناس ذكاء قد يكونون هم أكثر الناس التزاماً لهذا الغباء.

ومن الاحتمالات الكبيرة أن الناس مهما تقدموا وتحضروا فإن عمليات الغباء في مشاعرهم وتفكيرهم وسلوكهم ستبقى كما هي، بل المحتمل أن تزداد عنفاً واتساعاً وضراوة. وغباء المتحضرين الأقوياء هو أكثر وحشية وخطراً. إن الغباء كما يعيش في الأكواخ والغابات وفي المعابد والأحياء المزدحمة بالأطفال الذين جاؤوا كاحتجاج على الحياة يعيش أيضاً فوق النجوم والأقمار والصواريخ. ولعله يوجد مستوى معين من الغباء أو من الذكاء يقف عنده البشر لا يرتفعون أو ينخفضون عنه، ولعل هذا المستوى لم يتغير في جميع مراحل الإنسان الحضارية.

إن مهندسي الصواريخ والأقمار الكونية وقائديها وراكبيها يمارسون الغباء ويعطفون عليه ويشعرون نحوه بالحنان والاحترام، ويفكرونه بالقدر الذي كان آباؤهم يفعلون منذ آلاف السنين. إن نوع الغباء قد يختلف بل هو يختلف حتماً، ولكن هل يختلف مقداره أو مقدار الحماس له؟

وإذا طرح علينا هذا السؤال: هل ازداد الناس ذكاءً على مر التاريخ، أو هل سيزدادون ذكاء في المستقبل كان من غير الذكاء أن يكون الجواب «نعم».

ومن أجل توضيح هذه القضية نرى أن نضع السؤال في هذه الصيغة: هل ازداد الناس أو هل سيزدادون رفضاً للحماقات والسخف والتعادي الباهظ الثمن وللصراخ والخضوع والبذاءة وجميع أساليب الجنون والغرور والطفولة أو رفضاً للتقليد ولاتباع العقائد والمذاهب والآلهة والقادة الأغبياء القتلة المتعصبين؟ إن الأذكياء جداً ليضعون ذكاءهم دائماً في خدمة أغبى الطغاة والأهداف والأساليب المنطلقة عن أغبى الحوافز. إذن فالغباء غباء، أما الذكاء فلا بد أن يتحول

إلى غباء أو لا بد أن يهبط في حوافزه وأهدافه وسلوكه وكبريائه إلى أدنى مستويات الغباء.

وحتى ما نعده ذكاء إنسانياً هل امتلكه الإنسان بالذكاء أم بالطبيعة والضرورة كما امتلك الفيل ضخامته والزهرة جمالها وألوانها؟ لقد كان الإنسان موجوداً قبل أن يصبح ذكياً أي قبل أن يبلغ الطور الذي نسميه ذكاء، فكيف بلغ هذا الطور، أي كيف دبر لنفسه الذكاء حينما كان محروماً من الذكاء الذي يمكن أن يدبر به أو الذي زعم أو ظن أنه لا يستطيع أن يدبر إلا به؟ إن الذكاء هو أحد معطيات الحياة، وهو في كل عملياته عميل للحياة، لا يفعل أو يريد غير ما تأمره به أو تريده، وهي لم توجد ولا تبقى أو تعمل بالذكاء، فكيف يكون ذكاء ما لا يفعل إلا غباء؟

كيف يكون الإنسان الذي لا معنى له أكثر من أن يطيع ما لا معنى له وأن ينفق كل ذكائه وعبقريته في هذا الذي لا معنى له ثم يموت بلا معنى ـ كيف يكون ذكياً؟ كيف يكون الإنسان ذكياً وهو لا اهتمام له غير أن يخنع ويعطي ويقتل كل وجوده ومواهبه وأفكاره في هوان ونفاق وغباء لخدمة أضخم الغباوات وهي الحياة؟

إذا كان الإنسان ذكياً وهو لا شيء أكثر من أن يطيع الحياة بكل تفاهاتها بكل قدرته ثم يموت دون أن يكون في موته أي تفسير لأي شيء في الكون أو في الغيب فإن الذباب حينئذٍ ذكي كذلك، لأن الذباب أيضاً لا معنى له أكثر من أن يطيع الحياة بكل تفاهاتها، بكل قدرته ثم يموت بلا تفسير.

وأسلوب الذباب والإنسان في محافظة كل منهما على كرامته ليس مختلفاً اختلافاً كبيراً!

*

نحن نفكّر لنعاقب ونشتم لا لنعالج

«المفكر هو إنسان يبكي ويحزن بصراخ أمام الناس ويشتم الناس والحياة بحجة الغيرة عليهم وعليها، كما أن القائد أو الثائر هو إنسان يطارد الحريات ويعاقبها ويفني الشعوب في المؤتمرات والاستعراضات والحروب ويسرقها رخاءها ووقارها وأخلاقيتها بحجة حمايتها من الأعداء والظلم والفساد والاستغلال والرجعية والخيانة، أو بحجة الانتصار للمبادىء والقيم والمثل التي هي أقوى وآصل أعدائها.

إن التفكير سوط يضرب به المفكر ظهور الناس وهدوءهم، فإذا لم توجد ظهور فهل يمكن أن يوجد سوط أو حامل سوط ـ التفكير طغيان يمارسه إنسان ضد شيء ما، وهل يمكن أن يوجد طاغية لو لم يوجد مجتمع يمارس ضده طغيانه؟»

*

نحن نفكر لنحول أفكارنا إلى أسلحة نطلقها على الأشياء وعلى الآخرين، ونحن لا نفكر لنقتات بأفكارنا، فالمفكرون لا يستهلكون أفكارهم في الصلوات أو في ممارسة الأخلاق. إننا نتناقض مع الأشياء ومع الناس ونحتج عليها وعليهم، لهذا نفكر كمعاقبين ومحاربين لا كمعالجين. والمفروض أن التفكير والتعبير عنه هما عملية واحدة، أو هما عمليتان متلازمتان. إن الولادة عملية انفصال، وكذلك التفكير، والذين لا يستطيعون أن يصدروا أفكارهم ويحولوها إلى أسلحة مقاتلة هل يستطيعون أن يكونوا مكاناً جيداً وملائماً لإنتاج الأفكار، والذين لا يستطيعون أن يلدوا هل يمكن أن يحبلوا؟

إن الذين يحرمون علينا أن نعبر عن أفكارنا وأن نصدرها ونقاتل بها هم في المعنى أو في النتيجة يحرمون علينا عملية التفكير نفسها، كما أن الذين يحرمون على من يحبلون أن يلدوا هم في الحقيقة يحرمون عليهم أن يحبلوا. إنني أفكر لأني أتألم وأتعامل مع الأشياء والمذاهب

والتاريخ والناس باشمئزاز وغضب، وأحياناً أتعامل بشهوة، إذن فتفكيري أسلوب من أساليب المقاومة والملاعنة والتشهير. فإذا لم يكن من المستطاع أن أفجر أفكاري كأسلحة ضاربة فوق الأشياء والمذاهب والنظم والتقاليد وفوق الناس، لأغيظهم وأغضبهم وأتحداهم وأشاتمهم وأهرب إليهم من مواجهتي لذاتي ومن شعوري بالتناقض بيني وبينهم ومن شعوري بأنهم يتحدونني ويقفون في طريقي ويقاومون رغباتي أو طموحي أو بحثي عن التفوق، فهل يمكن أن يستمر تفكيري يعمل بكل طاقاته واحتمالاته؟

إن التفكير إذا لم يكن سلاحاً يحارب ويقتل في قصد المفكر وسلوكه فهو لا بد أن يكون أسلوباً من أساليب الغناء، أي لا بد أن يتحول إلى أصوات عالية. وهل يمكن أن يبقى عملية ذاتية فقط ـ أي أن يبقى تخاطباً مع الذات دون أن يتحول إلى أصوات تتخاطب مع المذاهب والتقاليد والآلهة والتاريخ والمجتمعات؟ فإذا كنت تملك احتمالات مفكر عظيم ثم تحت ظروف ما لم تستطع أن ترفع صوتك وتحول احتمالاتك الفكرية الكبيرة إلى سياط تجلد بها ظهور الآخرين بشهوة كشهوة الانتقام ولذة كلذة الجنس وقسوة كقسوة الموت، فهل من المحتمل أن تصبح ذلك المفكر الذي يثوي في احتمالاتك، والذي كان من المحتوم أن تكونه لو لم تمت صمتاً وهمساً مع نفسك؟

إن كل إنسان لا بد يستهلك حياته في تعبير ما، أي في أصوات ما ولو كانت أصوات حركة أصوات كلمة أو فكرة، فالبشر جميعاً لا بد أن يتحولوا إلى أصوات، وهم لا يستطيعون أن يتحولوا إلى صمت أو سكون داخل ذواتهم، إنهم لا بد أن يحيوا ويموتوا بالتصادم بالأشياء وبالآخرين في أسلوب أفكار أو حركات مسموعة. إن الحياة والتفكير لا يمكن أن يكونا صمتاً لأنهما سقوط على الأشياء والناس وتصادم بهم، أو إنشاد وهتاف وصلوات معهم.

كل الناس لا بد أن يتحولوا إلى هرب في شتى التعبيرات، فالإنسان ذو الاحتمالات الفكرية العظيمة الذي لا يستطيع أن يتحول إلى تعبيرات فكرية ـ أي إلى تفكير مسموع مقاتل ـ لا بد أن يتحول إلى تعبيرات أخرى وأن يستهلك حياته في أصوات أخرى أو في تصادمات وحركات مسموعة من نوع آخر، لأن كل إنسان لا بد أن يكون شيئاً مسموعاً، فإذا لم يستطع أن يكون تفكيراً مسموعاً فمن المحتوم أن يكون شيئاً آخر مسموعاً.

والبشر جميعاً قابلون للصرف على كل العملات، على عملات الذهب والفضة والورق، وعلى العملات الصعبة والنادرة وعلى العملات الأخرى، إنهم قابلون لكل عمليات البدل على أنفسهم ـ أو هكذا يظن.

إذن هل توجد قوة تستطيع أن تمنعنا من أن نفكر؟ نعم توجد قوى طاغية وجاهلة كثيرة تمنعنا من أن نحول تفكيرنا إلى لغة مقروءة أو مسموعة، ولكن هل توجد قوة من هذه القوى

تمنعنا من أن نفكر مع أنفسنا وفي داخلنا وتستطيع ذلك؟ إذا كان التفكير منفصلاً عن التعبير ويستطيع أن يظل منفصلاً، أي إذا كنا نستطيع أن نفكر لأنفسنا ونفكر بلا لغة ونفكر دون أن نحول تفكيرنا إلى سلاح نطلقه على المجتمعات والكون والأشياء وعلى أنفسنا لنعاقب ونتحدى وننتقم ونستريح من كبت الغضب والاشمئزاز والحب والبغض ـ إذا كنا نستطيع ذلك فإنها لن توجد قوة من أي نوع تستطيع أن تمنعنا من التفكير كما نشاء وبكل ما نستطيع. أما إذا كان محتوماً أن يتحول التفكير إلى تعبيرات فما أكثر الذين يستطيعون أن يمنعونا من أن نعبر ويعاقبونا عليه. وفي كل المجتمعات والعصور كان يوجد ـ على درجات مختلفة ـ منع من التعبير وعقاب عليه، وفي كل العصور والمجتمعات كذلك كان الناس يخضعون لهذا المنع، وقليل جداً هم الذين كانوا يتحدون هذا المنع ليتلقوا العقاب أو ينتصروا عليه.

إن الكائن الحي مهما كان موضوعه أبداً هو ذاته وحدها فإن مجال هذا الموضوع لا يكون إلا خارج الذات، فالكائنات الحية لا بد أن تحيا وتتنفس خارج ذواتها مهما كانت ذاتية الحوافز والأهداف. إن الحب والخوف والأمل وغير ذلك من المشاعر، وكذا العقائد والأفكار والمذاهب، مجالاتها دائماً خارج ذواتها، إنها تعمل حول ذواتها لا فيها. إن المجتمع هو الوعاء الذي تتحرك فيه وتتكيف عواطفنا وأفكارنا وذواتنا، ونحن حينما نفكر أو نشعر أو نعمل لا نعبر إلا عن أنفسنا ولا نتعامل إلا معها، ولكن أين مكاننا وطريقنا بكل ما فينا من مشاعر وأفكار وأشياء أخرى؟

إننا ننطلق من ذواتنا إلى ذواتنا حتى حينما نكون هاربين منها جداً، وما بين ذواتنا المنطلقة وذواتنا المنطلق إليها هو أيضاً ذواتنا، غير أنه ليس لانطلاقنا هذا المحصور المحبوس بين ذواتنا الهاربة وذواتنا المهروب إليها إلا مجرى أو طريق واحد، ذلك هو الوجود الذي حولنا والذي هو خارجنا ـ ذلك الطريق أو المجرى هو المجتمع والكون الذي لا حيلة لنا في الخروج منه أو رفضه أو تجاهله. فهذا المجتمع والكون هما اللذان يحولاننا إلى صيغ فكرية وأخلاقية واجتماعية ومذهبية. نحن نحيا لأنفسنا ولكن خارج أنفسنا، أو نحيا مع أنفسنا بواسطة الآخرين وبواسطة الأشياء الأخرى. إننا لا نستطيع أن نكون صيغة من الصيغ الإنسانية والمذهبية بدون الناس وبدون الوجود الآخر. حتى النبي والمصلح، إنهما ليسا إلا رجلين يتخاطبان مع نفسيهما بواسطة المجتمع وبواسطة الوجود الآخر، أي بواسطة الكون والأشياء الأخرى التي لا يستطيعان الهرب منها أو الاستغناء عنها أو العجز عن رؤيتها وعن الإحساس بها.

ولو كانا ـ أي النبي والمصلح ـ لا يستطيعان أن يصرخا بالناس ويحولا احتجاجاتهما على الحياة والكون والناس وعلى مشاكلهما وهمومهما الخاصة والذاتية إلى نصوص وصلوات

وألواح مقروءة، يصفعان بها أعصاب المجتمعات وتقاليدها وأربابها وكبرياءها، لما رأيا الملاك ولما نزل عليهما بالنبوة والتعاليم.

إن الرسول أو المصلح أو المفكر هو إنسان يبكي ويحزن بصراخ أمام الناس، وهو كذلك إنسان يشتم الناس والحياة بحجة الغيرة عليهم وعليها والحب لهم ولها، أما القائد أو الثائر فهو إنسان يطارد الحريات ويعاقبها بكل أسلوب وسلاح، وهو كذلك إنسان يفني الشعوب في الحروب والمؤامرات والمغامرات ويسرقها كل رخائها ووقارها وأخلاقيتها بحجة حمايتها من الأعداء أو الظلم أو الفساد أو الاستغلال أو التأخر أو الخيانة، أو بحجة الانتصار للقيم والمبادىء والمثل التي هو أخبث أعدائها. إن الإنسان يريد دائماً أن يكون معرضاً مفتوحاً ويرفض أن يكون متحفاً مغلقاً. والذي لا يستطيع أن يكون معبداً عاماً مفتوحاً هل يستطيع أن يتحول إلى مخزن للآلهة مغلق؟

إن جميع المفكرين يفكرون بحوافز نفسية ذاتية وبقانون التصادم بالأشياء وبالآخرين، كما يحسون نحو الأشياء والآخرين ويتألمون منها ومنهم أو يرتاحون إليها وإليهم حتماً من داخلهم وإن لم يعبروا عن عواطفهم هذه تعبيراً اجتماعياً مسموعاً أو مقروءاً أو مرئياً. ولكن التفكير لن يرتفع إلى مستوى التفكير الاجتماعي ما لم يستطع أن يتحول إلى تعبيرات اجتماعية، أي ما لم يتحول إلى عقاب للآخرين وهجوم عليهم. وإذا كان من المستحيل أن يكون للإنسان مهنة اجتماعية أو أخلاق وتقاليد ولغات بدون آخرين فهل يمكن أن يكون له أفكار أو أديان أو مذاهب بدون هؤلاء الآخرين، أي بدون أن يتخاطب بأفكاره وأديانه ومذاهبه مع مجتمع يعايشه ويوزع عليه أفكاره ومذاهبه وأديانه ويقاتله بها، أو يصافحه بها مصافحة مفترس أو هارب أو خائف ـ كما يوزع التاجر ومنتج السلع بضائعهما.

إنه لا تاجر ولا منتج سلع بلا سوق أي بلا مستهلكين، وإنه لا بائع أكفان ولا حفار قبور بلا موتى، فهل يحتمل أن يوجد منتجو أفكار أو مذهب أو أديان أو آلهة بلا سوق، أي بلا نشر وتعبير وحديث وحرية وبلا مستهلكين عقليين لهذه المذاهب والأفكار والأديان والآلهة؟

إننا إذا انتظرنا وجود أفكار عظيمة بلا تعبير عنها أو احتمالات تعبير، أي بلا مجتمع تصدمه هذه الأفكار بقسوتها وحريتها وبذاءتها، ويقاومها هو بغضبه وغبائه وضجيجه، أو يتقبلها برضاه وتصفيقه وهتافه وبغبائه أيضاً، كنا كمن ينتظر من نبتة أن تنطلق في الفضاء حيث لا فضاء ـ كنا كمن ينتظر بائع أكفان بلا أموات!

إذن فالطغاة والأغبياء الذين يحرمون علينا أن نقول أفكارنا بصراخ هم في الواقع يحرمون علينا أن نكون مفكرين، أن تكون لنا أفكار من داخلنا، أي انهم يقتلون في الإنسان قواه

واحتمالاته الفكرية، أي انهم أبشع القتلة! إن أكبر مفكر في الدنيا لو كان وحده ولم يشك في أنه سوف يبقى دائماً وحده وأنه لن يجيء بعده أحد يقرؤه ويتوجه إليه بالحديث ويتقاتل أو يتعانق معه عقلياً، أي لم يشك في أنه لن يتحول في وقت من الأوقات ولا في فترة من التاريخ إلى تعبير يهز أو يغيظ، يسعد أو يؤلم ـ نعم لو وجد مثل هذا المفكر في مثل هذه الظروف فهل يحتمل أي احتمال أنه قد يصبح مفكراً؟ إنه حينئذٍ لن يتصور من يكتب له أفكاره ولا من يقرؤها عليه أو يهبه إياها. إن الحياة مهما كانت أنانية في حوافزها فإنها لا تكون إلا عطاء في تعبيراتها، ومهما كانت شديدة البخل في طبعها فإنها عظيمة السخاء في صيغتها.

إن الإنسان كوكب يدور حول نفسه لا في نفسه، وآلة تعمل من أجل نفسها في غير نفسها، وإن التفكير سوط يضرب به المفكر ظهور الناس وهدوءهم، فإذا لم توجد ظهور أو لم يوجد ناس فهل يمكن أن يوجد سوط أو حامل سوط ـ إن التفكير طغيان يمارسه إنسان ما ضد عقول وعقائد وأفكار أخرى وضد قوم ما، فهل يحتمل أن يوجد طاغية ما لم يوجد مجتمع يمارس ضده الطغيان؟ إن التفكير طغيان فيه كل معاني وحوافز العدوان ولكنه طغيان كطغيان الجمال الذي يذلنا بدون أن يكون مذنباً أو ينوي أن يكون مذنباً. ولكن أليس التفكير ينوي أن يكون مذنباً وكذا الجمال، مثلما ينوي أي طاغية أن يكون مذنباً؟ إن العملية واحدة.

*

التفكير الجاهر أسلوب من التحدي أو البحث عن الموت بالسقوط فوق الآخرين، ولا يمكن أن نفكر لولا أننا نتحدى شيئاً ولولا أن شيئاً يتحدانا، ولولا أننا نبحث عن وسيلة عنيفة لنموت بها فوق الآخرين موتاً جهيراً شهيراً. وجيمع أعمالنا العظيمة، أي التي تعد عظيمة، هي إما هذا أو هذا. إنه لا يوجد من لا يتحدى مهما هان، ولا من لا يبحث عن الموت بالسقوط على شيء. والحرب هي أبشع أساليب الانتحار بالسقوط فوق الآخرين.

إذن فالطاغية أو المجتمع الذي يقتلنا أو يطاردنا أو يشنع علينا إذا فكرنا بالجهر هل يستطيع أن يمنع أفكارنا الكبيرة الأصيلة المحاربة من أن تبقى تحدياً أو بحثاً عن الموت بالسقوط من أعلى؟ إن مثل ذلك الطاغية أو المجتمع قد يصبح تحريضاً لنا ولأفكارنا القوية على أن تزداد تحدياً ورغبة في الانتحار المتحدي.

إننا قد نكون نحن الذين نمتنع عن التفكير الجاهر لأننا نخافه أو نعجز عنه، وحينئذٍ نستسلم لتخويف الطاغية والمجتمع ونبرر بهما، ونوجدهما ثم نبررهما. وليس التخويف الخارجي هو الذي جعلنا نرى في وقوع الذباب على عيون الأطفال وفي طعام الأعمى تدبير أفضل الآلهة ومزية أقوى العقائد، ونرى كذلك في سقوط النجوم وطغيان البحر أو النهر على المدينة المجاورة له النائمة على صدره بمحبة وإيمان أعظم الأخلاق الكونية أو الغيبية، بل الذي جعلنا نرى ذلك

هو عجزنا الذاتي وخوفنا من أنفسنا ومن أن نواجه الكون وأنفسنا كما هو وكما نحن. وهذا العجز والخوف هما اللذان يصنعان الطغاة والمجتمعات البليدة المتعصبة.

وهل الطغيان يساوي الطاغية وحده أو يساوي المجتمع الذليل وحده، أم يساويهما معاً؟ لو وجد من يملك أبشع وأقوى احتمالات الطغاة ولم يوجد مجتمع يتقبل ذلك، أو لو وجد مجتمع فيه كل احتمالات الهوان ولم يوجد فوقه من يملك صفات الطاغية المهين فهل يمكن أن يوجد الطغيان؟ هل المجتمع الخانع يستطيع أن يعطي حاكمه الضعيف أو الإنساني أو الرقيق المشاعر والأخلاق خصائص الطاغية الفاتك؟ وهل الطاغية الفاتك ـ باحتمالاته ـ يستطيع أن يجد دائماً المجتمع المستسلم الضعيف؟ إذا كان الطاغية وحشاً فهل الناس سواء أمام الوحش وهل يستطيع الوحش أن يفترس كل الناس؟

إنه لا بد من وحش ومن كائن مهزوم مستسلم لكي تكون هناك فريسة. إن الوحش وحده، أو الكائن الضعيف المغلوب وحده لا يكفي لكي توجد الفريسة.

*

خطاب مفتوح إلى المادة

«كيف يمكن تصور الشيء بلا بداية أو تصوره ببداية، أو تصوره بنهاية أو تصوره بلا نهاية، وكيف يمكن تصور البداية والنهاية وكيف لا يكون محتوماً تصورهما؟ كيف يوجد الشيء من لا شيء أو من شيء وجد من لا شيء؟

أيتها المادة أنت موجودة دون أن تستطيعي كونك غير موجودة، وموجودة بلا ميلاد، وموجودة بلا موت أو انتحار، ومفروضة عليك ذاتك لا تقدرين على فراقها أو الاستبدال بها، وموجودة وحدك، وموجودة دون أن تعرفي لماذا أنت موجودة ولا من فرض عليك وجودك، وموجودة بلا نموذج سابق تجيئين على مثاله. هل تطيقين ممارسة الحزن؟ إنه عذاب، هل تطيقين ممارسة المسرات؟ إنها تفاهة وطفولة وافتضاح.

إن الإنسان لا يشوه نفسه ولا يعرضها شيئاً صغيراً مثلما يفعل بها حينما يمارس أنواع السرور. إن ممارسة الأحزان لتهبنا الوقار والرصانة والقوة، أما ممارسة المسرات فتهبنا شيئاً آخر مغايراً جداً.

أيتها المادة، لماذا يكون الموجود موجوداً أو غير الموجود غير موجود ـــ لماذا لم يكن ما وجد غير موجود ـ وما لم يوجد موجوداً، ماذا يحدث لو حدث هذا؟ لماذا نسأل؟ هل السؤال شيء في الشيء الذي نسأل عنه أم شيء فينا نحن؟ لماذا نبكي ونحزن ونغضب؟ هل البكاء والحزن والغضب في أعصاب الكون ومنطقه أم في أعصابنا؟ لقد حكم علينا أن نسأل حيث لا جواب وحيث لا يوجد من نوجه إليه السؤال.

ما أسخف أن نسأل حيث لن يوجد جواب، وما أسخف ألا نسأل حيث نواجه ما لا نفهم، ما أسخف أن نظل نحن نسأل دائماً وأن تظلي أنت دائماً صامتة دون أن نرتوي نحن من السؤال أو ترتوي أنت من الصمت. إن صمتك الطويل لم يجعلنا نكف عن السؤال، وإن إلحافنا في السؤال لم يحملك على أن تهبينا

جواباً. كأن وظيفة وجودنا نحن أن نسأل دائماً ووظيفة وجودك أنت ألا تردي علينا أبداً.

أيتها المادة الموقرة، لا تغضبي من شاتميك، إن شتائمهم صلوات لك ومبالغة في تمجيدك. أنت كالشيطان، كل الناس يلعنونه وكلهم يعبدونه. ما أجمل أن تكون معبوداً ملعوناً».

*

وجدت أوراق قديمة يظن أنها من كتاب لأحد أنبياء العصور القديمة الذين لم يتركوا وراءهم أدياناً ولا أتباعاً ولا شرائع عنيفة كما فعل الأنبياء الآخرون. وقد يكون السبب أن هذا الذي يظن أنه أحد الأنبياء القدماء جداً قد تكلم بلغة لم يكن يوجد في تلك العصور من يستطيع أو يريد أن يفهمها، وإن كان الجميع يعيشونها دون أن يتكلموها. ومن بين هذه الأوراق رسائل موجهة إلى وحدات هذا الكون، إلى الشمس والقمر وبعض النجوم، وإلى الرياح والأنهار والبحار. وفيها رسالة موجهة إلى المادة، وهي رسالة فيها شعر وفيها من الحقيقة أكثر مما فيها من الشعر.

يقول في أول الرسالة وكأنه شاعر يخاطب محبوبته بكل ما يستطيع من بلاغة وعاطفة:

«أيتها المادة، أيها الخالق المخلوق، طالما تحدثنا عن غيرك ومجدناه ونحن نريدك أنت، ونسبنا عبقريتك وصفاتك إليه ونحن لا ننظر إلا إليك، وتعبدنا بهجائك وتحقيرك ونحن لا نحترم أو نعبد إلا إياك، واتهمناك بالبلادة والعجز ونحن لم نر سوى قوتك وذكائك، وسقنا نسبنا ونسب العالم إلى سواك بينما أنت كل النسب وأنت الناسب والمنسوب إليه. هل وجدنا سواك، هل رأينا نوراً تفجر عن غير مصباحك أو حركة تولدت إلا عن ذاتك، أو طاقة استجنت إلا في أحشائك، أو حياة اهتزت إلا عن مخاضك، أو قوة لم تكوني أنت طاقتها وجهاز توليدها، أو فضيلة لم تبدعيها وتعلميها وتأمري بها وتصنعيها أنت؟

إن ذواتنا وكل قوتنا وحياتنا وأفكارنا وذكاءنا، بل وعواطفنا وأخلاقنا وذكاء عقولنا وحماس قلوبنا وبريق عيوننا ـ إن ذلك كله منك أيتها الأم والأب والحياة والروح القدس.

لقد أبدعت ذواتنا بالأسلوب الذي أبدعت به شموسك وأقمارك، وأطلقت فينا الحياة بالقانون الذي أطلقت به أضواءك، ووهبتنا القوة بمقدار ما وهبتنا من ذراتك وما أودعت في هذه الذرات من تناسق ومن أشياء أخرى تفعلينها دون أن تعرفي ما تفعلين، وفرضت علينا طبيعة الإحساس أو آلام الإحساس مؤلفة ـ أي طبيعة الإحساس أو آلامه ـ من شعرك وغنائك ومن صحاريك وحقولك وبراكينك وأمطارك، ومن سرورك وبكائك وقسوتك وضعفك ومن أفعالك وانفعالاتك وتناقضاتك المتحاربة المحاربة لنا.

أما أفكارنا التي نبالغ في تقديرها وفي الارتفاع بها فوقك مثل شيء قد وفد علينا من وراء الكون فهي ليست إلا جهازك الراصد وآلتك الحاسبة وعدادك الأنيق المشكوك في مستواه الفني والأخلاقي ـ إنه جهاز الارسال والاستقبال الذي صنعه خبطك العشوائي في حياتك الحافلة بالتفاهة والعبقرية، بالخطأ والصواب. نحن نفكر، وقد نفهم ونعلم، ولكن ليست أفكارنا وأفهامنا ومداركنا غير عمليات رصد لحركاتك وضرباتك وسيرك الطويل في الظلام والتيه بلا هاد غير ضروراتك التي لا تفهمينها ولا تختارينها. إن مداركنا موجودة فيك، مأخوذة عنك، لا كما يجب أو نريد أن يكون بل كما أنت، إن أفكارنا تجيء كما تجيئين لا كما نحتاج أو نتمنى أن تجيء. وما تفكيرنا بكل صوره: خطئه وصوابه، قوته وضعفه إلا محاولة مقهورة لرصد أعمالك الماضية ولمعرفة أعمالك الآتية، ومحاولة للتلاؤم معك والوصول إليك ولنيل رضاك. وإن أعقلنا وأصدقنا فكراً وفهماً هو أقدرنا على معرفتك وعلى التوافق معك وعلى فهم قوانينك وتصرفاتك وأساليبك في تناقضاتك وعبثك، ثم وضع تلك المعرفة في نصوص فكرية وبلاغية تخضع لك ولا تخضعين أنت لها، فأنت منطق تلك القوانين الفكرية والبلاغية وليست منطقك. أما أغبانا فهو أجهلنا بك وأعجزنا عن مصالحتك. إن من عرفك فقد عرف كل ما تستطاع وتراد معرفته، ومن جهلك فإن شيئاً لا يمكن أن يجعله يعرف شيئاً.

فمعارفنا إذن ليست نوراً أو إلهاماً تهبنا إياه النجوم التي أتعبتها رحلتها الطويلة الغامضة التي لا تبحث عن هدف معلوم ولا عن هدف مجهول، ولكن معارفنا هي معاناتنا لك واصطدامنا بك وتحطم صخورك فوق رؤوسنا وعلى أقدامنا ـ هي معنى خوضنا في أوحالك وفي زهورك المبتسمة بشراسة وكآبة.

وعلومنا ما هي؟ إنها ليست سوى تجاربنا عليك وتجاربك علينا وتجاربك في ذاتك وعلى ذاتك. إن علومنا هي تدوين تحركاتك وتصادماتك المتناقضة في ذاتك ومع ذاتك، ليست كل العلوم سوى معرفة جهلك وأخطائك وقسوتك، فالعالم جداً هو الذي يعرف جداً غباواتك ونقائصك وضروراتك العابثة الأليمة.

واختراعاتنا ما هي؟ هل هي إلا أن نأخذ منك أشياء ونضعها إلى أشياء أخرى هي منك أيضاً، فاعلين فعلك، لكي تفعل ذاتك في ذاتك، ليكون لنا اختراع ما. إن أعظم اختراعاتنا هي أن نتعلم منك أعظم ما فيك من جنون ـ إن تقليدنا لك في أخطائك وحماقاتك هو أفضل وأذكى وأقوى اختراعاتنا. ليس هنالك عطاء لك، بل هنالك دائماً أخذ منك.

وأما أخلاقنا وعواطفنا فليست غير الخضوع لمشيئتك العشوائية وأخلاقك الفظة، وليست سوى محاولاتنا لاتقاء التصادم بك واتقاء ضرباتك المتهاوية بلا شهامة. إن أخلاقنا هي أن

نحاول الوقوف أمامك والعيش معك دون أن نموت، دون أن تفتكي بنا ـ إن أخلاقنا هي اصطدام ضعفنا ورغبتنا بقوتك، وقوتنا بضعفك، وحياتنا بما فيك من وحوش مفترسة ـ إن أخلاقنا هي كل محاولاتنا الخضوع لفسوقك، ليست أخلاقنا وعواطفنا سوى محاولاتنا الطويلة الأليمة المستسلمة للالتقاء بك والاستجابة لشروطك والتعايش معك تحت جميع املاءاتك وفروضك القاسية في جبن وهلع وبكاء، خوفاً منك لا محبة لك، وضرورة لا احتراماً ـ إنها ـ أي أخلاقنا هي سجل تجاربنا معك وتجاربك علينا وفينا. أيتها المادة المبدعة بلا ذكاء والمبدعة بلا إبداع، والمخربة بلا هدف، إن احتياجاتك فينا وضروراتك فيك وفيما حولنا هي الواضعة لأخلاقنا وعواطفنا، الملزمة بها من غير فضيلة. إن أخلاق من يتغذون بك في صيغة لحوم ليست مثل أخلاق من يتغذون بك وأنت في صيغة نبات، وإن انفعالات من يبتلعون ضياء القمر وهم فوق هامات السحاب الشامخة ليست مثل انفعالات من يبتلعون جراثيم المستنقع المصاب بالتدرن والهموم، وإن الاستجابة النفسية والأخلاقية لمختلفة جداً لدى من يعيشون مع أشعة الشمس فوق كتف القمر ولدى من يعيشون تحت الأرض في قبضة الهوام والقبور.

إننا نستطيع أن نشاهد كل وقت بناءك لنا، بناءك لذواتنا وحياتنا وقوتنا ولأخلاقنا وعواطفنا، كما نشاهد على نحو آخر هدمك لنا، هدمك لكل ذلك. إن معانيك كلها من فكرية وأخلاقية وعاطفية هي إحدى تعبيرات احتراقك فينا، إنك تتحولين في ذواتنا إلى أفكار وأخلاق ومشاعر وإلى شعر وغناء وإلى كراهة للأرباب وعشق للأبالسة وإعجاب بهم، كما تتحولين إلى صوت وحرارة وضياء وحركة وغيرها من نشاطاتك الكثيرة المتحولة.

والذين يرفضون أن تكوني أنت واهبتنا ظواهرنا الروحية والعقلية، وواهبتنا استقامتنا وانحرافنا وجميع أخلاقنا حتى استجابتنا لإرادة الشيطان ورفضنا الاستجابة لما يدعو إليه معلمونا الكبار الخالدون، هم كالذين يرفضون أن تكوني أنت صانعة الصوت والحرارة والضوء والحركة، أو صانعة ما في العيون من وحشية وغواية وإرهاب واستسلام وغموض وتعبير وبلاغة، وما فيها من شعر وموسيقى صامتين تقصر عنهما كل الفنون المسموعة والمرئية والصامتة. أيتها المادة العظيمة التافهة، لو أنك امتنعت علينا في أحد أشكالك كهواء أو ماء أو غذاء أو راحة وصحة فهل يمكن حينئذٍ أن توجد أو تبقى لنا روح أو قوة أو شعور أو تفكير أو أخلاق أو شعر أو موسيقى أو إيمان أو جحود؟ أو ليست جميع الظواهر التي نبالغ في تقديرها وفي تفضيلها عليك وفي الارتفاع بنسبها إلى ما وراء الشمس ووراء الليل والنهار إنما هي دائماً صناعة علاقاتنا بك وإتقان مجاورتنا لك أو إفساد هذه المجاورة والعلاقات؟ ليست تعبيراتنا المنطقية والروحية والنقدية والشعرية والموسيقية غير تعبير من تعبيراتك في معاملتك لنا وظهورك فينا وعرضك لموهبتك في ذواتنا بالأسلوب الذي تعرضين به نفسك في صورة زهرة أو حشرة

أو بركان أو محيط عابث بليد تظل أمواجه وشواطئه تتقاتل فيه وعليه دون أن ينتصر أو ينهزم أو يتعب أو يعقد صلحاً أو هدنة أو يبحث عن صلح أو عن هدنة؟

من ذاتك أيتها المادة تصنعين ذواتنا ووجودنا، ومن حركاتك المتناقضة المتصادمة تصنعين أفكارنا وأخلاقنا ومعارفنا وكل تطورنا، بل وتصنعين أرواحنا.

أنت أيتها المادة وجود متحرك، لا تستطيعين أن تتوقفي عن الحركة مهما أعياك التعب، إنك محكوم عليك بعذاب الحركة الدائمة التي لا تفهمين لها معنى ولا تقصدين بها رحلة أو هدفاً نفسياً، والحركة تطور وقوة وخلق لا يعنى به هدف أو مصلحة، بل ويجيء ضد المصلحة والهدف. عن حركتك الذاتية الاضطرارية انطلقت كل أطوارنا. إنه لا حركة بدون تجديد، تجديد شيء ما ولو لم يعن شيئاً، ولا تجديد بدون حدث، ولا حدث بدون فعل، ولافعل بدون قوة، ولا قوة بدون تطور، لهذا لا مادة بدون تطور، لأنه لا مادة بدون حركة، ولا تطور بدون مادة إذ لا حركة بدون مادة. فأنت إذن أيتها المادة المتحركة، وإذن أنت فاعلة خالقة، ولا قدرة لك على أن تكوني غير فاعلة خالقة، فأنت الخالقة العاجزة.

ما هي الأفعال والأحداث؟ بل ما هي الآداب والفنون والأخلاق؟ ماكل شيء وما أي شيء؟ إنه لا شيء غير الحركة، وإن الحركة هي كل الشيء. فالحركة خلق والخلق حركة، فكل ما هو متحرك لا بد أن يكون خالقاً على شكل من الأشكال، وكل خالق محكوم عليه بأن يكون متحركاً بأسلوب من الأساليب دون أي معنى من المعاني.

إن كل ما في هذا الكون من شموس وأقمار وأنهار ومحيطات ووديان وجبال وبراكين ونباتات ـ إن كل ذلك من صنع يديك المصابتين بالحركة الدائمة بقدر ما ذكاؤنا وأخلاقنا وعقولنا وأدياننا وأحزاننا وضحكاتنا من صنع هاتين اليدين المتحركين أبداً. ما هذا النهر الحافر مجراه بقدمي عملاق وموهبة إله، وما هذا الطريق الذي يسير عليه في الظلام والتيه أو بين الجبال والتعاريج والذي كأنما اختار مكانه وشقه أكبر مجمع من المجامع التي تضم أكبر مجموعة من عباقرة المهندسين، وما هذه الحياة التي تتبختر على جانبيه ـ أي على جانبي النهر ـ في دلال وكبرياء، وما هذه التوزيعات المائية التي يعبث بها هنا وهناك من قلبه وذاته ويديه بأسلوب يشبه الرحمة والذكاء أحياناً، وبأسلوب يشبه الجنون والانتقام والعبث في أحيان أخرى ـ بأسلوب يبدو في بعض الأحيان كأنه يدا إله طيب متحضر ممدودتان بالرخاء والنعماء إلى المحتاجين والمستغيثين، ويبدو في كل الأحيان وكأنه حماقة طاغية يوزع ضرباته ويعرض ذاته بكل أعمال التدمير والتبذير والعدوان والتعري ومشاعر الجنس بدون أي هدف خارجي، كما يفعل الطفل المصاب بأقسى حالات الانحراف والتوتر:

ما هذا كله؟ إنه جميعاً من إبداع الحركة أو من جنون الحركة.

لقد أنكرك ابنك، هذا المشاغب الإنسان لأنه لم يستطع أن يتصورك قوة مقيدة أو قوة محكومة بالقوانين، إذ إن الأشياء في تصور هذا الابن المتفوق العاق إما أن تكون مطلقة القوة والتصرف والذات أو لا قوة، وهو من جهة أخرى ميال إلى الإيمان بالغائب وتضخيمه وإلى رفض الحاضر المشهور والتقليل من شأنه، لأن الغائب والغيب نوع من الخيال والظلام، والظلام يعطي من الخيال والمبالغة المفتقر إليها أكثر مما يعطي النور، وهو ـ أي الظلام ـ يهب التصور أبعد الفرص لكي يذهب إلى أبعد الحدود. إن النور هو أشد تقييداً وبخلاً وأقرب حدوداً من الظلام، إننا لا نرى أعظم الجمال إلا في الظلام، وإن الأشياء لا تبدو في أروع صورها وأفضل ابتساماتها إلا حينما تكون مدفونة في الظلمات. فالنور هو ألد أعداء الجمال والاقتناع والفضيلة. والبشر دائماً أو في الأغلب يعشقون الامتداد والضخامة ويكرهون الانكماش والضآلة ولو في أبهر الأضواء. إن البشر لا يريدون أن يروا، وإنما يريدون أن يقتنعوا ويرضوا عن أنفسهم وعن الأشياء. إن المشاهدة قيود وحدود ودمامة، وإنهم لينفرون من التقييد والتحديد والرؤية المؤذية في أمانيهم وتصوراتهم كما ينفرون من الموت والفقر والعقاب والسقوط. العقائد تريد دائماً أن تعيش في الضباب ووراء الرؤية، لا تطيق أن تكون رائية أو مرئية، إنها تهرب من رؤيتها لنفسها بقدر ما تهرب من رؤية الآخرين لها ـ المعتقد لا يريد أن يرى عقائده ولا يريد أن يراها الآخرون.

لهذا فإن العقائد تمتاز دائماً بشيئين: المبالغة والاستمرار الكاذب لأنها تعيش في الظلام بعيدة عن الرؤية، فالرؤية والنور يضعان العقيدة في قيد من الدمامة والضآلة.

ما أعجبك أيتها المادة القادرة العاجزة، إن في عجزك لقدرة ونظاماً بل وبقاء، فلو كنت قادرة قدرة مطلقة لما أمكن الاطمئنان إليك ولا الإيمان بقوانينك ولا الثقة بوعودك وأخلاقك ولا العيش معك لا في حرب ولا في سلام. كيف يمكن مثلاً أن نحيا فوق هذه الأرض أو نثق بها لو لم نكن نعلم أنها محكومة مقيدة بقوانين ذاتية لا يمكن اختراقها، فالعجز ضمان والقدرة غير المحدودة جنون وخوف وموت وفوضى. لو كان للأرض أو للشمس قدرة على أن تخرج على آليتها وخضوعها لنفسها مثل القدرة التي يملكها الحارس الحامل للسلاح على أن يستعمل سلاحه في كل الاتجاهات فلن يستطاع أبداً الاطمئنان إليها أو الحياة معها. إن القدرة المطلقة التي لا يضبطها أو يحركها إلا المشيئة والانفعال غير المحكوم ولا يمكن أن تكون في نتيجتها قدرة، بل لا بد أن تكون دماراً وعجزاً. ومثل هذا النوع من القدرة غير ممكن أن يوجد في الواقع، وإنما يوجد أحياناً تصوراً أو تمنياً غير واع. والقدرة المبدعة متكونة دائماً من شيئين: من القدرة ومن العجز، فالعجز المطلق لا يفعل، والقوة المطلقة لا تفعل ولا توجد. والعجز هو حافز القدرة غير المطلقة على أن تفعل أو هو الذي يجعل فعلها شيئاً متوازناً، ومفيداً ومطمأناً إليه. ولا

شيء يمنع القوة الماضية في عملها من أن تظل ماضية، لتكون هدماً وموتاً وفوضى. لا حياة ولا بناء ولا نظاماً، غير عجزها.

وحتى هذا صحيح، فالذين يفعلون منا القوة لا يفعلونها إلا لأنهم ضعفاء، أي إلا لأن قوتهم غير مطلقة، ولو كانوا مطلقي القدرة وفوق كل ضعف في جميع معانيهم لما فعلوا قوة ولا شيئاً. فالفاعلون لا يفعلون لأنهم أقوياء بلا ضعف، بل لأنهم أقوياء وضعفاء.

وما الحرب ـ وهي فيما يظن ـ أعظم مظاهر القوة إلا تعبيراً أليماً من تعبيرات الضعف. فالذين ليس فيهم ضعف من أي نوع لا يمكن أن يريدوا الحرب ولا أن يحاربوا، كما أن الذين ليس فيهم قدرة لا يمكن أن يحاربوا أو يريدوا الحرب. إن الحروب في كل ظروفها إحساس وحالة من حالات الضعف وأحاسيسه تستجيب لهما حالة وإحساس من حالات القوة وأحاسيسها، إنها مستوى من مستويات الضعف يتحول إلى مستوى من مستويات القوة. ولهذا فإن الذين يبدؤون بشن الحروب ليس محتوماً بأن يكونوا هم أقوى الناس، كما أن الذين لا يحاربون ليس محتوماً بأن يكونوا أضعف الناس. ولكن هل يمكن أن يحارب أضعف الناس أو أقوى الناس؟ لننظر مثلاً إلى المجتمعات، سنجد أن أفضلها وأكثرها تناسقاً وعدالة هي المجتمعات التي لا يكون القوي فيها مطلق القوة، ولا الضعيف فيها مطلق الضعف، بل يكون القوي ضعيفاً والضعيف قوياً. وماذا لو أن إنساناً أو طائفة من الطوائف كانت قدرتها في مجتمعها غير محدودة ولا مهددة بالتحديد؟ إن معنى هذا وجود أعظم الفساد والطغيان في ذلك المجتمع. ولو تصورنا حاكماً قد بلغت قدرته السلوكية والنفسية والعقلية أن أصبح في مجتمعه لا يخشى أو يهاب شيئاً ولا يعجز عن شيء لما أمكن أن نتصوره إلا حاكماً فاسداً طاغياً، بل لما أمكن أن نتصوره إلا حاكماً عاجزاً. إن العجز الفكري والعاطفي ـ أي النفسي ـ نوع من العجز، فمن كان عاجزاً عجزاً نفسياً أو فكرياً فهو عاجز مهما بلغ من القوة ومن احتمالاتها. والعجز النفسي والعقلي هو الذي يجعل كثيراً من القادرين عاجزين ومتورعين عن كثير من السلوك الرديء والظالم.

إن القوة هي دائماً تعبير العجز ومهربه، والعجز هو دائماً سبب القوة والمحرض عليها المشرع لها والقدرة بلا عجز تساوي العجز بلا قدرة، كلاهما يؤدي إلى الفناء والعجز، وهما مجتمعين يؤلفان تناقضاً حاصله ما يسمى الخلق والتطور والفضيلة. ومثلاً لقد اشتركت القدرة والعجز والقصور الذاتي والتناقض بين القوى المتعارضة المنطلقة من وحدات الكون على أن تجعل الأرض دائرة معتقلة في مدارها عاجزة عن الخروج عليه والتجاوز له وعن أن تسير بسرعة غير محدودة. وماذا لو كانت القدرة هنا مطلقة، أو لو كانت محكومة بيد من قدرته مطلقة؟ وماذا

يمكن أن يحدث لو أنه وجد في هذا العالم بحر أو بركان أو ذباب أو إله لا حدود لوجوده أو لذاته أو لقدرته ورغباته؟

فالذين جهلوك فأنكروك لأنهم وجدوك مقيدة بنفسك ووجدوا قدرتك خاضعة لعجزك، إنما فعلوا ذلك لأنهم لا يدركون معنى القدرة الخالقة الكائنة في الحركة، ولا يدركون كذلك معنى الوجود المتحرك، ولا يدركون معنى القدرة الطبيعية الذاتية المقيدة، وإنما يتصورون المطلقات التي تسمح لهم عقلياً ونفسياً أن يتمنوا ويتخيلوا وينتظروا بلا حدود أو حواجز أو معارضة عقلية.

لقد كانوا يتصورونك سكوناً لا حركة ويرون أن الأصل في الموجودات أن تكون ساكنة وإن كانوا لا يعرفون لماذا يكون الأصل هو ذلك، ويرون أن الحركة موهوبة للموجود من الخارج لا عمل أو طبيعة فيه من الداخل وإن كانوا لا يعرفون كذلك لماذا، ويرون أن مجرد انتقال الكون من حالة السكون إلى حالة الحركة نوع من الخلق الخارجي، والخلق في تقديرهم هو دائماً عمل خارجي، ويجدون في هذا الانتقال ـ أي الانتقال من السكون إلى الحركة ـ ألوهية مدبرة كاملة، إنهم يجدون في هذا برهاناً كاملاً على وجود الإله الكامل وعمله. ورسوخ عقيدتهم في أن الوجود بطبعه وأصله سكون يبدو أن سببه أنهم يرون كثيراً من الأشياء المادية ساكنة، ولأنهم لا يشعرون بالأمن والراحة إلا في السكون وإلا إذا كانت الأشياء ساكنة، فالسكون وقار، والحركة خوف وتعب وخطر. أليس البيت والكرسي الساكنان يمنحان الثقة بهما دون الكرسي والبيت المتحركين!»

ثم يتابع ذلك النبي القديم خطابه المثير الممتلىء بالحماس والصدق والشعر المفكر في أول محاولة إنسانية للاعتذار إلى المادة عن البشر الذين ظلوا في كل تاريخهم يهجونها ويظلمونها بكل تعاليمهم وأديانهم ومواعظهم وحيائهم الكاذب. لقد ظل الإنسان في كل تأريخه يحقر المادة ويلعنها ويصق عليها بفلسفاته المختلفة ويرميها بكل الشناعات وينسبها إلى غير نفسها قاصداً إهانتها، ومثبتاً الكمال والعبقرية التي لا حدود لها لكائنات غائبة لا يمكن أن ترى أو تعلم ـ بينما ظلت المادة بوقار وهدوء أعصاب وسخاء نفس تمنحه كل شيء عنده حتى قدرته على تحقيرها وهجائها، وحتى البلاغة والمنطق اللذين يحولهما إلى سلاح يقاتلها به ويستعين به على إعطاء فضائلها ورذائلها لسواها، أي لتلك الكائنات الغائبة التي لا يمكن أن تكون معلومة أو مرئية ـ.

يقول في متابعته لخطابه الاعتذاري المفتوح:

«لقد تحاور عالم وفيلسوف في قضية الكون ووجوده ـ الذي هو أنت هل وجوده من ذاته أم هو موهوب وجوده. لقد ذهب العالم يشرح ما في الكون والحياة من أسرار وضخامة وانتظام وقوانين ومن رهبة ترى في الليل أكثر مما ترى في النهار. ثم انتقل من هذا إلى الاستدلال على

أنه توجد قوة خارجية لا حدود لقدرتها ولا لفضيلتها، منفصلة عنه، قد صنعته ودبرته ووضعت فيه جميع أسراره وقواه، وإنه لا يمكن فهمه أو احترامه أو تفسيره أو تسويغ ما فيه بدون هذه القوة الخارجية الكاملة والفاعلة لما لا يستطاع الإيمان أو الاقتناع به أو تبريره. فرد عليه الفيلسوف بقوله: كل قيل وما يمكن أن يقال في هذه القضية: أن الكون كبير ومحير في فهمه ومشحون بما تراه معارفنا القليلة وقدرتنا الشعورية أسراراً وألغازاً أو عبقرية تتحدى طاقتنا على التفسير والمواجهة والاحتمال، وإنه لذلك قد يبدو محكوماً بقوانين ثابتة ومنتظمة أو بسلوك ثابت منتظم.

ولكن المسألة ليست هذا، بل هي: وكيف دل هذا على وجود قوة أخرى مبدعة غير كونية. إن ها هنا قضيتين: إحداهما وجود كون واسع ضخم يحيرنا بأسراره وسلوكه، أي يحيرنا بجهلنا به وبكونه شيئاً لا يمكن أن يكون معقولاً أو مسوغاً، وثانية القضيتين الادعاء أن هذا الكون بجثته الضخمة ومعانيه التي لا تفهم أو تستساغ موهوب وجوده وسلوكه الكبير التافه، وليس وجوده أو سلوكه منه أو فيه. ولماذا نزعم هذا الزعم وكيف نستطيع التدليل عليه؟ هل يستطيع العلم أن يدعي مثل هذه الدعوى، وهل الانتقال من مشاهدة الكون وممارسته ومعرفة تصرفاته أو ضروراته إلى الإيمان بخالق أجنبي له سلوك علمي ـ وهل الحكم بأن الكون الموجود موجود من ذاته أو من غير ذاته حكم علمي أو حكم يجرؤ عليه العلم، وهل يرى العلم مثل هذا الحكم ـ سواء أكان بهذا أم بهذا ـ من وظيفته أو مما يقدر عليه؟ إن العلم قد يدرس الذباب ويفهم كل أسراره وخصائصه وتصرفاته وما يعطي الحياة وما يأخذ منها وما يصنع بها أو لها ـ كذلك يستطيع أن يفعل بكل كائن موجود تحت قدرته. ولكن هل يستطيع العلم أن يحاول فهم الحكمة في خلق الذباب أو من خالقه أو أين يوجد هذا الخالق ومتى وجد أي ذلك الخالق وما لونه وجنسه وصفاته وما عدد أصابع يديه ورجليه؟ إن الذي ينتقل من هذا إلى هذا هو المنطق والتفكير والفلسفة وليس العلم. إن إثبات الوجود الآخر الغيبي الصانع لهذا العالم ونفيه ليسا ـ أي النفي والإثبات ـ موضوعاً علمياً، بل موضوع فلسفي فكري. إن موضوعات العلم هي التجارب على الموجود ودراسته ذاتياً لا خارجياً، وهل الانتقال من رؤية الكون ومعاناة ما فيه من أسرار وقوانين وضخامة عابثة إلى الإيمان بقوة خارجية منفصلة عنه مدبرة له، أو إلى نفي هذه القوة مما يقع تحت التجربة أو مما يعد منهجاً علمياً؟

إن وظيفة العلم غير وظيفة الفلسفة والتفكير، لهذا فقد يكون العالم الكبير جداً ضعيفاً جداً في تفكيره ومنطقه، وقد يؤمن بأتفه وأصغر الخرافات. وليس لنا أن ننتظر من العالم الكبير أن يكون مفكراً كبيراً أو أن يرتفع في عقائده ومنطقه وتفاهاته الذهنية فوق مستوى الجماهير كثيراً. وقد يكون التخصص العلمي عائقاً عن كل المستويات الفكرية، بل قد يكون المتخصص

في أحد الفروع العلمية مغفلاً جداً لا يستطيع أن يتكون أن يتكون فكرياً أي تكون. وقد يكون العالم مفكراً كما قد يكون غير العالم مفكراً، وكون العالم مفكراً لا صلة له بكونه عالماً.

إن العلم يدرس الموجود بعد أن يوجد، ولا يمكن أن يدرسه قبل أن يوجد، بل لا يمكن أن يجد له قبلاً. وهو يبحث الموجود بأسلوب: ما هو، ولا يدرسه بأسلوب: من أين هو، ما لم يكن ممكناً خضوعه للاختبار، فالعلم مشاهدة وليس استنتاجاً عقلياً. وليس من موضوعات العلم البحث عن الأسباب الروحية أو العقلية لوجود الأشياء، بل إن طبيعة العلم لا تعترف بالأسباب الروحية أو العقلية لوجود الموجودات، ولو أنه حاول التناول لهذه الأسباب لخرج عن طبيعته. إن العلم لا يقول: لماذا وجد هذا ومن أوجده، وإنما يقول: هذا موجود فواجب علي أن أعرفه وأخضعه لمشيئتي. والعلم لا يتصور خلق الموجود من العدم، إنه لا يستطيع أن يتصور أن الشيء يتولد من لا شيء أو أن توجد الحياة من الموت. فالوجود والحياة طاقة، وهل في العدم والموت طاقة؟ والوجود دائماً عمليات توليد، وهل يمكن التوليد مما لا وجود له؟ إن وظيفة العالم أن يعرف الموجود ما هو وكما هو وكيف هو، ولكن ليس من وظيفته أن يعرف لماذا هو ولا لأية غاية هو، ولا أن يبحث عن ذلك. وإذن فسواء أكان الكون عظيماً وذا نظام، أم كان تافهاً وعقيماً ومشوشاً، في حساب هذه المسألة. ذلك أنه إن كان هبة من نفسه لنفسه فهو هبتها على كل حال، هبتها وإن افترضناه عظيماً وعبقرياً، وإن لم يكن هبة نفسه إلى نفسه فهو مصنوع على كل الأحوال، مصنوع من الخارج مهما كان ضالاً سيئاً ضئيلاً. فالسيىء العقيم الضئيل الضال قد يكون له صانع من الخارج، والعظيم الكبير قد يكون هو صانع نفسه. وإذا أمكن أن يصنع التافه نفسه أمكن أن يصنع العظيم نفسه بنفس النسبة، وإذا لم يستطع العظيم أن يخلق نفسه لم يستطع التافه بنفس النسبة أن يخلق نفسه.

فالذين يريدون أن يدللوا على عمق الكون وأسراره وضخامة وجوده لينتقلوا من ذلك التدليل إلى الإيمان بكونه مصنوعاً من خارجه، لا يفعلون شيئاً ذكياً، وهم في هذه المحاولة يشبهون من يحاولون التدليل على سعة المحيطات وعمقها وضخامة أسرارها وثرواتها وما فيها من رهبة وشاعرية وموسيقى ليدللوا بذلك على أنها من صنع الإنسان. إنه لا فرق بين المجموعة الشمسية وبين أصغر نجيم هارب من أرجاء الكون وهارب من الرؤية لضآلته في أنهما ـ أي المجموعة الشمسية وذلك النجيم ـ إما أن يكونا قد صنعا نفسيهما أو صنعتهما قوة أخرى خارجة عنهما. فإذا استطاع النجيم الصغير أن يخلق نفسه استطاعت المجموعة الشمسية خلق نفسها، وإذا لم تستطع المجموعة الشمسية ذلك فلن يستطيعه النجيم.

وبقدر ما تستطيع التفاهة أن تكون ذاتية أي من ذات التافه نفسه تستطيع العبقرية أن تكون ذاتية ـ أي من ذات العبقري نفسه. والذين ينتقلون من الإيمان بعظمة الكون إلى الإيمان بأنه ـ

أي الكون ـ من غير ذاته هم كالذين ينتقلون من الإيمان بعظمة الخالق إلى الإيمان بأنه ـ أي الخالق ـ من غير نفسه، أو ينتقلون من الاقتناع بأن هذا الإنسان عبقري إلى الاقتناع بأن عبقريته قد وضعت فيه من خارجه. وإذا كان الخالق عظيماً ومن نفسه فلماذا لا يكون الكون عظيماً ومن نفسه بنفس المنطق والاقتناع؟ إن العلم يقحم إقحاماً في قضايا الإنسان الخاضعة لظروفه وتاريخه واحتياجاته ولهمومه، إن العلم لذلك محكوم عليه بأن يستدل به على الشيء ونقيضه، وعلى الاثبات والانكار في موضوعات لم تختلف، وإنما اختلفت القدرة على الاستنتاج والحاجة إلى الاقتناع. لقد قيل مثلاً: إن الحياة عظيمة وهذا دليل على عظمة موجدها، وقيل إنها عظيمة وهذا دليل على عظمة امكانياتها هي ـ كما قيل إنها سخيفة وهذا دليل على سخف فكرتها وموضوعها، كما أنه دليل على العجز. وهذه الاستدلالات زائدة على نفس الشيء خارجة عنه، وهي ليست في عقل المؤمن ولا في تركيب البرهان ولا في بصر الرائي ولا في ذات المرئي، وإنما هي في إرادة المؤمن الرائي وتقديره وحاجته وظروفه وتعاليمه.

إن البشر لا يمكن أن يكونوا محايدين من أنفسهم ولا من الأشياء، لأن هذه الأشياء إما أن تكون ملائمة لهم أو ضدهم على نحو ما، ولو في الرؤية أو الحالة النفسية، إذن هم لن يكونوا محايدين حينما يحكمون أو يقدرون أو يقتنعون بل وحينما يبصرون، إن عيونهم غير محايدة، حتى العلم لا يستطيع أن يكون محايداً. إن الحياة لا تحايد، بل إن كل شيء محكوم عليه بأن يكون منحازاً، والكائن المنحاز لا بد أن يكون كل شيء فيه منحازاً حتى رؤيته وسمعه وحتى الأشياء التي يراها ويسمعها ويمارسها.

إننا لا نرى الشمس أو الليل أو نسمع الموسيقى بقدر ما هي أو بقدر ما هو فقط، بل وبقدر ما نحن. وكذلك لا نرى الإله في الكون بقدر ما يعمل فيه، ولكن بقدر ما نريده أن يعمل فيه أو بقدر ما لقنّا أو بقدر ما نستطيع أن نراه. أما الحياد في الدول فيعني الفرار من الالتزام مع الانحياز، أو يعني الانحياز المتحرك المتنقل بسرعة لا وقار ولا أخلاق فيها، أو يعني بيع المواقف المختلفة بيعاً لا قيود فيه من الشرف أو الصدق أو الشجاعة. إذا اشتجرت أو احتربت دولتان فكيف تستطيع دولة ثالثة أن تحايد من الدولة التي على مذهبها ونظامها ومن الدولة المضادة لمذهبها ونظامها؟ إن ها هنا كذباً لا مثيل له، أو جبناً لا مثيل له، أو انتهازية لا مثيل لها.

إن ترك الانحياز إلى كتلة أو دولة في سلوك بعض الحكام والزعماء إنما يعني في قصد أصحابه انحيازاً لئيماً إلى دولة أو كتلة أخرى.»

ثم جمع الفيلسوف كل نفسه في هذه الكلمة التي انطلقت من عقله وإيمانه:

«عجباً! كيف تكون قوة الشيء دليل ضعفه، كيف تكون قوة الكون واتساعه وعجائبه الكثيرة دليلاً على أنه مصنوع موهوب عاجز نبحث له عن خالق واهب من خارجه، ونبحث له

عن طبيعة فوق طبيعته ـ كيف يمكن الاقتناع بأن قوة الشيء دليل على ضعفه؟ وهل يمكن أن يكون علم العالم دليلاً على جهله، وقوة وجود الموجود دليلاً على أنه ليس موجوداً، وإن الموجود هو كائن آخر؟ لقد سرنا في طريق طويل من الأغلاط، فلقد اعتقدنا وقلنا إن الكون لا يصنع نفسه لأننا رأيناه دائماً يصنع نفسه ولم نر شيئاً آخر يصنعه، وقلنا واعتقدنا أن الكون موهوب ولا يكون إلا موهوباً لأننا لم نجده إلا واهباً، ولم نجد غيره أو نره لا واهباً ولا غير واهب، وقلنا واعتقدنا بأن الكون عاجز دائماً ولا يكون إلا عاجزاً لأنه حاضر، لنفترض غيره قادراً لأنه غائب، كأن فينا رغبة دائمة تفرض علينا أن نؤمن بالغائب ونعظمه ونكفر بالحاضر ونحقره. إن الحضور افتضاح والابتعاد احترام واحتشام.

إن مقدسات البشر لم تصبح مقدسة ولم تظل مقدسة إلا لأنها كانت بعيدة غائبة، ولو أنها ظهرت لهم وعاشت معهم أو حيث يرونها ويتعاملون معها لماتت في أنفسهم ولما ظلت شعراً غنائياً في خيالاتهم ـ إنها حينئذٍ لا بد أن تتحول إلى حجارة وتراب وضرورات بذيئة وإلى هموم. كم أرثي للبشر حينما يفجعون برؤية كائناتهم الغائبة المقدسة إذا كان من الممكن أن يعاقبوا برؤيتها يوماً ما.

إن الكون الروحي اشتراط والتزام أخلاقي وعقلي، أما الكون المادي فوجود فقط، وجود بذيء، وجود بلا أي اشتراط أو التزام من أي نوع. وهل نجد في العالم ـ في أي سلوك له أو وحدة من وحداته ـ اشتراطاً أو التزاماً؟ أليس كل شيء فيه وجوداً فقط؟ إنه لا روح بدون أخلاق عقلية، وإنه لا أخلاق عقلية فيما هو موجود، حتى أخلاق الإنسان ليست أخلاقية ولكنها وجود فقط، أي وجود بأسلوب ما. فأخلاقية البشر ليست سوى وجودهم على نحو ما.

لقد تخيلنا الكون الروحي بحثاً عن الوجود المشروط الملتزم، وهرباً أو خوفاً من الوجود المطلق الذي لا شروط ولا التزام فيه، ولكن تخيلنا هذا ليس شيئاً أفضل أو أكثر من الاحتلام. إنه لو كان الكون روحانياً أو لو كان يحكم حكماً روحياً ـ أي يحكم بالأرواح ـ أو لو كانت فيه روح قادرة كبيرة لكان محتوماً أن نفهمه ونفسره فهماً وتفسيراً روحانيين أخلاقيين، ومعنى هذا أن يكون الكون عادلاً وقادراً ورحيماً وصديقاً للبشر والأشياء على أعلى المستويات الخيالية، أن يكون كذلك بلا حدود، بل وألا يكون خاضعاً لنظام آلي ثابت، فالقدرة والأخلاقية خروج على الآلية السلوكية. إن الفيضان والصاعقة والوباء خاضعة لسلوك آلي منظم، لهذا فهي ليست أخلاقية ولا قادرة على أن تكون غير ما هي كائنة. إن الشمس والنهر خارجان على الأخلاق مهما أعطيا ونفعا، لأنهما آليان وسلوكهما خاضع للآلية، وإن أي إنسان مهما كان بلا أخلاق لهو أكثر منهما ـ أي من الشمس والنهر ـ أخلاقية. ويرهق البشر

عقولهم وعقائدهم حينما يحاولون التدليل أو الاقتناع بأن الكون والحياة أخلاقيان أو روحيان أو محكومان بقوة أخلاقية أو بقانون أخلاقي.

وإذن فإن الإيمان بقوة تحكم هذا الكون الذي هو ليس أخلاقياً اتهام وإساءة لتلك القوة لأن وجودها فوق ما ليس أخلاقياً خروج على الأخلاقية. والذي يثبت شيئاً ليكون محكوماً عليه بالخروج على الذكاء والأخلاق هو أسوأ من ذلك الذي لا يثبت ذلك الشيء ومن الذي ينفيه، إن المثبت حينئذٍ لأكثر اتهاماً من النافي، بل النفي لا يحمل معنى الجريمة أو قصدها كما لا يحمل معنى الاحتقار ـ أي نفي الوجود عن الشيء. إذا قلت: هذا الشيء ليس موجوداً فأنت لا تعني الطعن فيما نفيت أنه موجود، وإذا لم تعلم أن لصديقك أخاً فنفيت أن يكون له أخ لم تكن مجرماً أو مسيئاً أو محقراً لذلك الصديق أو لأخيه المنفي وجوده. ولكنك تكون مسيئاً ومحقراً لو أثبت له أخاً ثم ألقيت عليه بأوصاف الذم والحقارات. وإذا وقعت سرقة من متجر أو بنك ثم نفيت وجود الشرطي في ذلك المكان الذي وقعت فيه السرقة كنت مدافعاً عن ذلك الشرطي، ولكنك تكون متهماً ولاعناً للشرطي لو أثبت أنه كان موجوداً حيث وقعت السرقة! فإذا نفيت الروحانية عن الوجود لم يكن نفيك إساءة أو تحقيراً أو جحوداً، بل إن نفيك حينئذٍ يعني رغبتك في التنزيه والتوقير والاحترام. إن الايذاء والتحقير والاتهام هو دائماً اثبات لا نفي.

إنك إذا آمنت أن الكون محكوم بالروحانية فمعنى هذا أنك تحمل الروحانية كل الأخطاء والآلام والتفاهات التي كانت والتي سوف تكون، وكم هو عجيب أن يقبل أي إنسان بأن يتهم بمثل هذا الإيمان أو يفاخر به أو يعادي الآخرين الذين لا يؤمنون مثل إيمانه! من الممكن أو من المحتوم تقبل كل ما هو كائن بكل وقاحاته وهمومه ونقائصه على أنه لا يعني ولا يفسر غير نفسه وحتميته الأليمة التي لا تعني قداسة ولا تدبيراً علوياً عقلياً، ولكن من الصعب جداً أو من الجنون والهوان الفكري والنفسي قبوله أو التسامح في رفضه إذا افترض هدية من مثل أعلى، أو صورة لمثل أعلى منزه عن كل ضعف وغباء وانحراف.

ومن السهل أيضاً أو من المحتوم قبول أية وقاحة وغباوة على أنهما فضائل قوم من الأغبياء الوقحاء، غير أنه من الصعب أو المستحيل قبولهما إذا افترضناهما نموذجين للنبل والعبقرية. كلنا مضطرون إلى أن نقبل أحياناً المرض والظلم على أنهما مرض وظلم، ولكن كيف نقبلهما على أنهما أعلى مستويات العدل والصحة. وكلنا نقبل الكون على أنه الكون فقط، على أنه الكون الآلي البذيء العقيم الذي لا يعني عقلاً ولا أخلاقاً ولا معنى من المعاني المقصودة، ولكن كيف يمكن أن نقبله على أنه أطهر روح وأكمل وأشرف إله، وعلى أنه أعظم تدبير من أعظم مدبر، وأكبر هدية من أكبر مهدٍ؟

إن كون الشيء موجوداً ليس فضيلة أو خيراً من حيث الاطلاق. ما أكثر الوجود الذي هو

جريمة وحقارة وهوان. ليس كل إثبات وعمل هو مزية وعمل صالح، رب نفي وكف عن العمل هو الفضيلة والذكاء. أنت لا تكرم كل من أثبت، ولا تهين كل من نفيت، ليس كل موجود محترماً ولا كل مفقود محقوراً. فالذين يثبتون الروحانية في هذا الكون لا يحترمونها بل يحقرونها ويلوثونها بغبائهم وأنانيتهم، والذين ينكرونها لا يسيئون إليها بل يحاولون الارتفاع بها فوق الشرور والحقارات والغباء. ما أكثر المؤمنين الذين هم أعظم إساءة لأربابهم وكفراً بها من الكافرين.

إن العلم قائم على ذاتية الكون، أي على كون ذاته وقوانينه فيه، وعلى أنها لا يمكن أن تعطى له أو تؤخذ منه، بل إن العلم قائم على أن الكون نفسه من ذاته: فيه وجوده وبقاؤه وقدمه. فالعلماء يدرسون كل شيء: الذرة والهواء والجاذبية والبخار والكهرباء والفلك والحياة والتربة وجميع الأشياء حتى الشعور والفكر الإنسانيين معتمدين على حقيقة آمنوا بها قبل أن يخطوا خطواتهم العلمية، ولولاها لما خطوا إلى العلم أية خطوة ولما آمنوا به. وهذه الحقيقة هي أن الوجود فيما كان وفيما هو كائن وفيما سوف يكون يحكم ويفهم ويقرأ من داخله، من ذاته وضروراته وقصوره ونقائصه، لا من قدرة الآلهة أو طهارة الملائكة.

بهذا الإيمان القائم على هذه الحقيقة صنع العلماء قوانينهم العلمية وأجهزتهم ومختبراتهم واثقين بها، واخترعوا واكتشفوا وأقاموا الحضارة الإنسانية الشامخة. بل على هذه الحقيقة آمن البناء البسيط بالحجارة التي يقيم عليها بيته وبالطين والأخشاب التي يضعها في بنائه، وآمن المزارع الذي لا يعرف القراءة أو الكتابة بالأرض والبذور والماء وبالفصول المتعاقبة بلا اخلاف أو اختلال أو تدخل من أية قوة فوقية، وآمن كل من يتعاملون مع الوجود والحياة بأساليب تعاملهم معهما. إن وجود الروحانية أو أية قوة خارجية مطلقة هدم لكل احتمالات العلم.

هل كان يمكن أن يقام أي بناء أو يوثق به لو كان ممكناً أن يكون داخل حجر البناء إله أو روح تستطيع أن تدمره متى شاءت أو انفعلت أي انفعال بالرضا أو الغضب، بالحب أو البغض؟ وهل كان يمكن مثلاً دراسة نبتة أو أي مرض من الأمراض أو أية ظاهرة طبيعية، أو دراسة قوانين الحركة أو الثقل أو الجاذبية، أو صناعة بندقية أو السيطرة على الطاقة الذرية ـ هل يمكن شيء من ذلك لو كانت توجد مشيئة فوق هذا العالم أو روح كبيرة نبيلة تحكمه بنبلها وفضائلها المطلقة غير المحدودة بأي قانون أو ضعف؟

عبث لا مثيل له أن نحاول دراسة الشيء وضبطه بقوانين علمية مؤكدة أو مرجحة لو كان يوجد في هذا العالم شيء غير المادة وقوانينها الآلية غير الأخلاقية. ولو كان ذلك الشيء ـ أي المفترض فوق العالم وغير المادة ـ موجوداً لكان الواجب حينئذٍ دراسته هو ودراسة أخلاقه وأهوائه وحماقاته ومذاهبه لمعرفة المادة الخاضعة له إن كانت دراسته ممكنة، ولكن المفروض ألا

تكون دراسته ممكنة لأنه كائن مطلق لا يلتزم أي قانون عقلي أو أخلاقي. والكائنات الفاضلة جداً، الملتزمة فكرياً وأخلاقياً لا يمكن الاعتماد عليها كقانون آلي. إنه لو كانت المادة، أي لو كانت النجوم أو الأرض أو الأنهار أو الكراسي والبيوت التي نجلس عليها ونسكن فيها تتعامل معنا ومع نفسها ومع ما حولها بالأخلاق والتفكير ـ وكانت قادرة مطلقة القدرة ـ لما أمكن أن ننتفع بها، بل لكان محتوماً أن تقاومنا وتدمرنا تحت ظروف ونظريات وانفعالات لا بد أن تمر بها وتخضع لها. لقد كان ممكناً أن نعيش في هذا الكون الذي هو أكبر وأقوى منا جداً لأنه لم يكن روحاً ولم تكن فيه روح أخلاقية متدينة قادرة تستجيب لتحريضات العقل والنبل والغيرة والقانون والمذهبية. إنه لو كان الكون روحاً أو تحكمه روح ما، لقام فيه ثوار ومذهبيون متوترون ومنافقون يدمروننا ويسلبوننا الحرية والرخاء باسم المذهبية والثورة ومقاومة الرجعيين والعملاء.

إننا نعيش بسلام بجوار الجبل والنهر لأنهما ليسا روحين ولا محكومين بالأرواح، وإلا لثارا ضدنا وبطشا بنا.

إنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بالإرادة الفاعلة المطلقة المنفصلة وبين الإيمان بالعلم وبعلمانية الكون إلا على احتمال واحد، هو أن تلك الإرادة قد أصبحت غير فاعلة، أصبحت لا تفعل ولا تستطيع أن تفعل، وليست فقط لا تريد أن تفعل. وهذا الاحتمال نوع من السخرية التي لا جمال أو ذكاء فيها. إن هذا يعني إحالة تلك الإرادة إلى مخازن الموت، إنها حينئذٍ لو ماتت لما تغير شيء ولظل الكون كما هو مستغنياً بذاته وضروراته عن كل القوى الخارجية الفاعلة. وحينئذٍ لا يعني الإيمان بما سوى الكون المادي شيئاً لأن تركيز الإيمان دائماً على المستقبل لا على الماضي ـ أي إن الناس يؤمنون إيماناً ينتظرون أن تكون نتائجه مستقبلية ومحتملة، ولا يمكن أن يؤمنوا إيماناً يعلمون أن نتائجه قد صارت منتهية.

إن البشر يؤمنون بمن يستطيع وبمن سوف يستطيع ـ أي بمن يظنونه كذلك ـ ولا يؤمنون بمن استطاع ثم صار لا يستطيع ولا يمكن أن يستطيع. وإذا لم يكن ممكناً أن تفعل تلك المشيئة فلماذا يهتم بها الناس ويقدمون لها صلواتهم وقلوبهم وقرابينهم، وماذا يمكن أن يصيبهم إذا أهملوها أو جحدوها أو لعنوها؟ وهل إيمان الناس نوع من الوفاء الكريم للأموات أو من العطف الأليم على أعزة قد ذلوا؟

ولا يمكن تكوين تلك الروح المزعومة خارج الكون ـ أي لا يمكن جعلها كوناً ـ أي الهبوط بها من شيء مطلق قادر حر مستقل إلى قانون محكوم مربوط بغيره، عاجز لا يفعل ولا يستطيع، ولكنه يتأثر ويتحرك بالضرورة والتبعية ـ أي لا يمكن جعل تلك الروح المفترضة شيئاً لا يقدر أن يكون ولا يقدر ألا يكون، لا يقدر أن يكون غير ما كان ولا يقدر ألا يكون ما سوف يكون، يكون بدون أن يريد، ويريد ولا يكون، أو لا يريد ولا يكون، ينمو ويحيا بالكره منه،

ويصيبه الشحوب والموت والشيخوخة بالكره منه أيضاً. والبراعات والأسرار المنسوبة إلى الكون مقدرة بقيمة جهلنا بها، فكل ما لا نعلمه، أو ما لا نعلمه إلا بمشقة ننسب إليه البراعة ونراه ذا أسرار عالية أو معجزة. فجهل الجاهل هو الذي قد يعطي الأشياء التقديرات المبالغ فيها ويضفي عليها الرهبة والوقار، وأتفه الأشياء وأكثرها دمامة وشحوباً قد يراها الأعمى جميل: ورهيبة، والقصيدة السخيفة جداً قد يجد فيها قوم معجزة فنية. وبين أيدي البشر وفي محاريبهم كلام مشهور ومقدس جداً مع أنه لا مثيل له في الضعف والركاكة والبداوة العقلية والأخلاقية، وقد عده الناس ولا يزالون يعدونه معجزاً لكل البشر في جميع العصور. والبشر ضعفاء جداً في أحكامهم على الأشياء بل وفي رؤيتهم لها، إنه لا توجد أية حدود بين الخطأ والصواب والمبالغة والصدق. والذهن الإنساني هو أكذب وأخدع جهاز فحص واختبار في العالم.

إن الظلام يضخم المرئيات التي لو سقطت تحت الأضواء لبدت تافهة ضئيلة أو شيئاً لا وجود له، فالظلمة تهب موجوداتها البريق والجمال والقوة، والخيال يتغذى دائماً بالمبالغات. فالكون عظيم وذو أسرار لأننا نعيش في الظلام ولأننا صغار وعاجزون في رؤيتنا وفي تقديرنا للأشياء. وعظمة الكون الصناعية والهندسية موجودة فينا نحن لا في ذات الكون، موجودة في عجزنا لا في البناء الكوني ولا في فكرته. ووجود شيء كبير معناه وجود شيء صغير يدخل في مقارنة معه، ووجود المعجز معناه وجود العاجز، ووجود العاجز ليس معناه وجود الإعجاز بل وجود العجز. والبشر مع كل ما بلغوه من حضارة وتقدم ومستويات علمية وثقافية لا توجد لديهم مقاييس معروفة أو متفق عليها للاستحسان والاستقباح والقبول والرفض، لا في الأشياء المعنوية ولا الحسية ـ إنهم لا يملكون أجهزة ضبط أو تقدير يضبطون بها أفكارهم وعواطفهم لتكون على مقدار الشيء الذي يريدون الحكم عليه بعقولهم أو الشعور نحوه بعواطفهم».

ثم يمضي صاحب الخطاب المجهول في اعتذاره إلى المادة عن إساءة البشر إليها في تاريخهم الطويل، وعما وجهوا إليها من لعنات وتشنيعات في تعاليمهم وأديانهم وصلواتهم:

أيتها المادة الموقرة: إن عليك مع هذا ألا تشعري بالغضب أو بالحقد على الإنسان أو بأنك قد ظلمت كثيراً، بل إن لك أن تشعري بالرضا والافتخار والانتصار، فالبشر مهما ذموك أو تبرؤوا منك فوق منابرهم وعلى ألسنة أنبيائهم ووعاظهم فإنهم بسلوكهم وأهوائهم وصميم تكوينهم الطبيعي لا يطيعون أو يحترمون أو يريدون سواك، بل إنهم لا يوجدون إلا فيك ومنك، ولا يحاربون أو يسالمون، يصادقون أو يعادون إلا عليك ـ أنت كل رغباتهم وآلهتهم وأنبيائهم وكل جناتهم ونارهم وهمومهم ومسراتهم، أنت صلواتهم ونشيدهم وخوفهم وأمنهم وشجاعتهم وخنوعهم ـ أنت بطولتهم وكرامتهم وخيانتهم واستقامتهم ـ أنت كل شيء في

حياتهم بل وموتهم. فماذا يضيرك إذن أن يلعنوك أو ينكروك؟ إن لعنهم لك وإنكارهم إياك نوع من المغازلة والاستسلام لك والاعتراف بك والشعور بسلطانك عليهم، إنهم حينما يفعلون ذلك إنما يلقون بين يديك أبلغ قصائد الامتداح والافتتان بك.

إن لك أن تشعري بأعظم المسرات حينما يقسو عليك الاتقياء والمعلمون بسبابهم واتهاماتهم، إنهم بذلك يحيونك ويبايعونك ويعترفون بأسلوب منافق أنك أنت وحدك الموجودة في داخلهم ـ إن هؤلاء الأتقياء والمعلمين اللاعنين لك هم أكثر البشر صداقة وطاعة وولاء لك، إنهم ليبيعون ويرخصون كل أربابهم وقيمهم الخالدة ثمناً لابتسامة غادرة منك، أو للقاء تعدينهم به دون أن تصدقي. إن الله وجميع الفضائل الأخلاقية والدينية لتتوارى في نفوسهم خجلاً وعجزاً وخوفاً من الدخول معك في مباراة على ضمائرهم الورعة أو على سلوكهم. وما هجومهم عليك في تعاليمهم ومواعظهم إلا أسلوب من التكفير أو التستر والتغطية المفضوحة، أو الشعور بالهزيمة أمامك أو العجز عن الظفر بك أيتها المعبودة الغادرة والمحبوبة المنتقمة ـ أيتها المعشوقة العالمية. كم أنت محظوظة في أن تعبدي وتلعني، وما أجمل العابد اللاعن ـ كم أنت محظوظة في أن تخضع لك كل الرقاب والأعضاء والقلوب ثم تلعنك كل الأفواه ـ ثم تنكرك وتحذر منك كل المنابر المصنوعة من جسمك، المرتفعة على كتفيك، الممسكة بقوانينك وبتناسبك ونسبك والتناسب معك!

لعل الشيطان هو أسعد الكائنات حظاً وأكثرها رضا عن نفسه لأن جميع البشر يلعنونه ويتهمونه ـ لأن جميع الآلهة والأديان والتعاليم تلعنه، ولكن جميع المؤمنين والمتدينين والمعلمين يعبدونه ويتبعونه ويعلنون عن قوته ومجده ويتحدثون عنه بحماس وتوتر. إن الشيطان سعيد ومحظوظ مرتين: مرة لأنه قد تحول إلى أغنية عالمية دائمة تغنيها جميع الحناجر واللغات بحجة اللعن له والغضب عليه، ومرة لأنه تحول إلى إله دولي تعبده وتطيعه برهبانية وإخلاص كل الشعوب. فكوني أنت مثل الشيطان أيتها المادة لأنك لم تزالي الإله المعبود المطاع الملعون بحرارة واستسلام، وسوف تظلين إلى الأبد الإله المعبود المتبوع بحرارة واستسلام كذلك».

وفي آخر الخطاب أطلق ذلك النبي القديم من ذهنه وشاعريته هذه الكلمات التي كأنما تجمعت فيها كل حيرة الإنسان واحتجاجاته على نفسه وعلى كل الكون حوله وكل تساؤلاته التي تفجرت على لسانه في كل تاريخه أو اعتقلتها داخله عقائده وأربابه ومخاوفه البليدة الرهيبة:

أيتها المادة هل أنت وحدك المحكوم عليه بالوجود، هل أنت كل شيء، ولماذا؟ أليست وحدانية الوجود هي أقسى عقاب يوجه إلى موجود حكم عليه بأن يكون موجوداً وبأن يكون

وحده الموجود؟ أي تخصيص بالعذاب أكبر من هذا؟ وهل هربك من الوحدانية ورهبتك منها هو الذي جعلك تخلقيننا نحن البشر، وتخلقيننا كوجود آخر مغاير لك لتشعري أنك لست وحدك الموجود المتعذب بوجوده؟ لعلك قد قسوت علينا وظلمتنا إذ صنعتنا كائنات حياة مفكرة حزينة محتجة قادرة على رؤية الدمامات والنقائص ـ أي لعلك قد خلقتنا مادة محكوماً عليها بالحياة والشعور والتفكير والهموم لكي تقتنعي أنك لست وحدك، بل إن معك وجوداً آخر هو وجود الإنسان المغاير لك بأحزانه وتفكيره وحياته واحتجاجاته، لكي يتعذب بالمذاهب والعقائد والخلافات والأحقاد والحروب وبالطموح والطغاة والثوار وبالأكاذيب الدينية وغير الدينية وبحماقات القومية والوطنية وعدوانهما؟ هل أنت أيتها المادة أزلية أبدية؟ وهل يوجد تعذيب وتوريط للموجود أشنع من أن يكون أزلياً أبدياً وأن يعرف ذلك؟

هل تطيقين أن تتصوري أنه ليس لك مبدأ وجود ولا يوم ولدت فيه تعرفينه وتؤرخين به نفسك، هل تتصورين أنك هكذا كنت بلا بداية وبلا تاريخ بدأ منه وجودك وبلا عمر يعد بالأعوام أو الدهور أو الأحقاب؟ هل تطيقين أن تتصوري أنك لا تستطعين أن تموتي أو تنتحري أو تفارقي نفسك بالسفر أو البدل أو تستريحي بأي أسلوب من معاناة الكينونة ومن البشاعة والتفاهة الكائنة في مواجهة الذات التي لا مهرب منها، وفي الممارسة الأبدية للحماقات والدمامات والضرورات المحكوم بها على كل موجود لأنه موجود ـ هل تطيقين ممارسة الحزن؟ إنه عذاب، هل تطيقين ممارسة المسرات؟

إن ممارسة المسرة تفاهة وطفولة وافتضاح. إن الإنسان لا يشوه نفسه ولا يعرضها شيئاً صغيراً مثلما يفعل بها حينما يمارس أنواع المسرات، إن ممارسة الأحزان لتهبنا الوقار والرصانة والقوة، أما ممارسة السرور فتهبنا شيئاً آخر غير ذلك.

كيف يمكن تصور الشيء بلا بداية، ويكف يمكن تصوره ببداية؟ كيف يمكن تصوره بلا نهاية، وكيف يمكن تصوره بنهاية ـ كيف يمكن تصور البداية والنهاية، وكيف لا يفرض علينا تصور البداية والنهاية؟ كيف يوجد الشيء من لا شيء، وكيف يوجد الشيء من شيء وجد من لا شيء ـ كيف يكون الشيء موجوداً فقط؟ وكيف يكون موجوداً بلا يوم ولد فيه؟ وما معنى وجود الشيء ولماذا يوجد وما وظيفة الوجود والموجود؟ كيف يوجد شيء بلا تدبير إيجاد، وكيف بوجد بتدبير إيجاد؟ وكيف يوجد مدبر الايجاد؟ ما معنى أن يكون الشيء موجوداً؟ لو لم يكن الشيء الموجود موجوداً ـ أي لو لم تكوني أيتها المادة موجودة فماذا يحدث ومن ذا يخسر وماذا تخسرين أنت؟ وبعد أن أصبح الشيء موجوداً ـ أي بعد أن أصبحت أنت أيتها المادة موجودة فماذا حدث ومن ذا ربح وماذا ربحت أنت؟ وكيف يوجد الشيء بدون أن يطلبه أو يستفيد منه أو يدبره أحد؟ وكيف يوجد من يدبره أو يطلبه أو يستفيد

منه قبل وجود أي شيء، أي قبل وجود كل موجود؟ وما يعني كون الشيء موجوداً في ذاته ولذاته فقط؟ هل يمكن فهم هذا وهل يمكن فهم نقيضه!»

*

«هل يحتاج الشيء إلى وجوده قبل وجوده، ولماذا يوجد لكي يصبح محتاجاً إلى وجوده؟ أنت أيتها المادة موجودة دون أن تستطيعي كونك غير موجودة، وموجودة بلا ميلاد، وموجودة بلا موت أو انتحار، أنت محرومة من الموت والانتحار؛ ومفروضة عليك ذاتك، لا تقدرين على تغييرها أو الاستبدال بها، وموجودة وحدك بلا رفيق، وموجودة دون أن تعرفي أو تسألي لماذا أنت موجودة ومن فرض عليك وجودك، وموجودة بلا نموذج سابق تجيئين على مثاله. فأية وحشية وتعذيب أقسى من هذا! لماذا أنت موجودة بهذه الصيغة دون كل الصيغ الأخرى؟ وهل هذه الصيغة التي جئت فيها هي أفضل الاحتمالات لكينونتك؟ وكيف يمكن أن يجيء شيء ما بصيغة معينة وهو لم يسبق بأي وجود ولا بأية صيغة أخرى لتكون نموذجاً له؟

ماذا تعني شموسك المحرقة، وبراكينك وزلازلك المدمرة، ورياحك العاصفة، وأنهارك وبحارك المغرقة الغاضبة، وفصولك المتغيرة، وأحداثك الحمقاء الحانقة الضاربة بعصبية وغضب؟ لعل هذه كلها ليست سوى دموعك وأحزانك وحرائق عواطفك واحتجاجاتك التي لا تعرفين أو تجدين من تلقين بها عليه. لعلك إنما أبدعت الإنسان ووهبته كل هذه الدموع والأحزان والعيون والأعصاب الجبانة المتوقحة والقدرة على الرؤية والاحتجاج، لكي يبكي ويحزن ويحتج بصراخ بديلاً عنك، لتشعري أنك أنت التي تبكين وتحزنين وتحتجين وتصرخين بلغة من اللغات، لعلك قد أردت التعبير عن آلامك ورفضك بلغة إنسانية فخلقت البشر وخلقت فيهم القدرة على البكاء والحزن والخوف وعلى ابتكار المذاهب والنظم والقوميات والعداوات والحروب والزعماء والثوار الذين وهبتهم أعظم القدرة على ابتكار الآلام والمخاوف والأخطار والهوان الرهيب.

أيتها المادة، لماذا يكون الشيء الموجود موجوداً ويكون غير الموجود غير موجود؟ لماذا لم يكن ما وجد غير موجود وما لم يوجد موجوداً؟ ماذا يحدث لو حدث هذا؟ ولكن لماذا نسأل؟ هل السؤال شيء في الشيء الذي نسأل عنه أم هو شيء فينا نحن؟ لماذا نبكي ونحزن ونغضب؟ هل البكاء والغضب والأحزان في أعصاب الكون ومنطقه أم في أعصابنا؟ لقد حكم علينا أن نسأل حيث لن يوجد جواب، وحيث لن يوجد من نوجه إليه السؤال، فأي عذاب وعبث أقسى من هذا العذاب والعبث؟

ما أسخف أن نسأل حيث لا جواب، وما أسخف ألا نسأل حيث نواجه ما لا نفهم ـ ما أسخف أن نظل نحن نسأل دائماً وأن تظلي أنت دائماً صامتة دون أن نرتوي نحن من السؤال

أو ترتوي أنت من الصمت! إن طول صمتك لم يجعلنا نكف عن السؤال، وإن إلحافنا في السؤال لم يحملك على أن تهبينا جواباً، كأن وظيفة وجودنا نحن أن نسأل دائماً ووظيفة وجودك أنت ألا تردي علينا أبداً!».

هل الحريّة كسب للإنسان أم للّصوص

إن حرية النقد هي حليف دائم للأقوياء أكثر مما هي حليف للضعفاء. إن الكلمة خصم غير شريف للضعفاء وسلاح ضال ينطلق من أفواه وأجهزة القادرين الكذبة ليفقأ أبصار الباحثين عن النور والعدل والصدق ويحطم أعصابهم. إن الكلمة مثل كل الأشياء تتحول إلى امتلاك بالقدرة.

إن الكلام مثل السلاح حارس للقوة لا للحقيقة. إن الضعيف في المجتمع الحر حر بدون معنى الحرية أو استعمال لها أو انتفاع بها، أما الأقوياء فإنهم أحرار في قول الحرية وفي استعمالها وفي القدرة على الانتفاع بها. إن حرية الضعيف كحرية مقطوع الرجلين في أن يمشي ويلعب كرة القدم.

إن الحرية خطر وكآبة وأسلوب من الفحش، ولكن فقد الحرية ليس أكثر جمالاً وبهجة وتهذيباً، ليست الحرية تطلعاً شعرياً إلى القمر المغازل للنجوم بفسوق وافتضاح. إن الحرية خطو فوق الأوحال والهموم والخناجر وتعامل مع النقائص والتفاهات والغباء وبحث بذيء عن العار والعيوب. لا يوجد في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والثوار أعظم صبراً أو بلادة من آذانها، كيف تستطيع أن تتحمل كل هذا الامتنان؟ إنهم يجرحونها كل ليلها ونهارها تجريحاً متواصلاً مهيناً، يحدثونها بكل وقاحة وغرور بكل الأساليب والفصاحات اللفظية عما وهبوها من حريات وأمجاد.

ما أقوى أعضاء السمع في هذه المجتمعات، كيف لا تقتلها الإهانات والوقاحات والبذاءات المرتلة من فوق كل المنابر ـ كيف لا تموت الآذان في عهد الثوار والطغاة؟ إن الأذن هي أشهر جهاز في التاريخ لاستقبال الزور والتحقير والسباب والفحش والادعاء. هل العبودية غير الحرية، وهل الحرية غير العبودية؟ أليست الحرية فقداً للحرية، وفقد الحرية نوعا من الحرية؟ إذا كان النهر حراً في أن يسير في مجراه فإنه ليس حراً في ألا يسير. إنه في حريته فاقد لحريته، وإذا كان الإنسان حراً في أن يموت ويمرض ويحب الجنس الآخر وفي أن تصيبه

الشيخوخة فإنه ليس حراً في ألا يكون كذلك.

إني حينما أفكر وأريد أن أكون حراً غير حر، حراً في أن أريد وأفكر وغير حر في ألا أريد وألا أفكر، وحينما أطيع الطاغية في منعه لي من النقد والاحتجاج أكون حراً وغير حر، حراً في أن أطيعه غير حر في أن أعصيه ما لم أقبل الموت أو العذاب. ما أوقح وأرخص الزعامات، إنها تتعذب وتموت فداء لمن يتعذبون ويموتون بوجودها، لمن يموتون ويتعذبون رفضاً لها! إن الزعامة بغاء بالإكراه أو السؤال والبكاء، يتعذب به الفريقان».

*

في المجتمعات الديمقراطية أي التي تسمى ديمقراطية والتي يباح فيها لأي حامل لسان أن يتكلم وينقد كما يباح له فيها أن يجوع ويتألم، والتي يباح فيها لكل إنسان أن يغالب غيره ويتفوق عليه إن استطاع بذكائه أو خبثه أو دناءته وسقوطه، بقدر ما يباح لكل من سواه أن يصنع نفس الشيء إذا كان يستطيع، بل كما يباح له أن ينقد أو يلعن هذا الوضع أو النظام الذي يحياه ويتألم منه أو يتفوق ويسعد فيه، وأن يطالب بتغييره أو يحاول تغييره ـ في هذه المجتمعات تنطلق الأحقاد والأهواء وكل أعمال الاستغلال وأساليب التضليل والخداع، كما تنطلق الشتائم والاتهامات والأكاذيب وشعارات التمزق، معبرة عن نفسها أقصى احتمالات التعبير، غازية لمشاعر الجماعة وأفكارها وأخلاقها ومصالحها ووحدتها غزواً حراً مباشراً فيه كل معاني الوحشية والافتراس، مختلطة بالحقائق والنيات النظيفة وبالأفكار والآمال والمصالح الصحيحة للجماهير، أو مغطية لها مفسدة لذكائها. فتنشأ حينئذٍ حالة أليمة من الصراع الداخلي بين الأخيار والأشرار، الصادقين والكاذبين، الظالمين والمظلومين. وهو صراع بعيد جداً عن التكافؤ. ويكون معنى هذا أن تتحول مقادير هائلة من طاقات الشعب وانفعالاته وأفكاره لتكون وقوداً وبيلاً لهذه المعركة الذميمة ـ لهذه الحرب الذاتية التي تأخذ من المجتمع ثم لا تهبه إلا المرارة والحقد والبغضاء والبذاءة ـ تأخذ أفضل ما فيه وهو الحماس والاهتمام وتحوله إلى أدوات لقتال غير مشروع ـ لقتال يتجند فيه الأقارب والمصلون في معبد واحد لإله واحد، بعضهم ضد بعض باسم وطن واحد وتحت علم واحد.

وفي كل المجتمعات توجد دائماً فرص كثيرة تمكن للخديعة والفساد والكذب من الانتصار والرواج والحرية المتكبرة، ولا يوجد مجتمع يستطيع أن يغلق نفسه دون كل غواية واستغلال وفساد وظلم وكذب.

إن الحرية الفردية بمعناها القديم تعني حرية التضليل والخيانة والسرقة والعدوان، وتعني أيضاً إعطاء كل شرير ماكر أو لئيم غير كريم النفس أو الفكر الحماية القانونية والظروف المواتية الكاملة ليكون مفسداً ومهرجاً وسارقاً وساقطاً وبذيئاً كيف شاء وبقدر ما يستطيع أن يكون.

أليست هذه الحرية القائمة على التغالب الفردي تشبه حرية العضل الفردية أي أن تترك العضلات والأيدي القوية تبطش بالعضلات والأجساد الضعيفة، ثم تترك هذه لتدافع عن نفسها بقدر ضعفها دفاعاً فردياً حراً، بل وتدعى إلى هذا الدفاع؟ وأية وحشية أو همجية أعظم من هذا؟

إن فساد الهيئات والأحزاب والصحافة وأصحاب الدعوات المختلفة متولد كله عن هذه الحرية التي هي حرية الحيوان ـ أو أن هذا الفساد مباح التعبير عنه والتعامل عليه وتحويله إلى سلاح ضارب بشريعة هذه الحرية بد أن يترك مخزوناً خزيان في أنفس أصحابه وضمائرهم لتستهلكه وحدها لحسابها الخاص. ولا يوجد أي فرق بين أن يعطى القاتل والمتاجر بالمخدرات الحرية وبين أن تعطى للمخادعين والمحتالين والمتاجرين بالمذاهب والشعارات والنظريات وبالام المتألمين وجهالة من في السوق واستعدادهم للغواية. وكيف يمنع الاحتيال على الأموال ويباح على الأفكار والمذاهب والعقائد ـ أو كيف يحرم الاحتيال باسم الاحتيال ويحل باسم الأفكار والعقائد وباسم الدفاع عن العدل والحق؟ وكيف تحرم سرقة الدجاجة وتحل سرقة العقيدة والذكاء ـ أو كيف تحرم سرقة الدجاجة باسم السرقة ثم تحل سرقتها باسم العقيدة والمذهب والإله؟ وإذا كانت الحرب الأهلية محرمة وفظيعة أفليست الحرية الفردية حرباً أهلية بكل مجانينها ومجرميها وشهدائها وآلامها وأضغانها وهمومها؟

كل الناس يتكلمون عن الحرية وينشدون لها وفيها الأناشيد، ممجدين مجدها مهما كانوا خصوماً لها. ولكن ما هي الحرية، هل لها تفسير أو تحديد معروف أو متفق عليه؟ لست الحرية هي فقط أن يقول الإنسان، بل وأن يكون، فهناك حرية التفكير والتعبير، وهناك أيضاً حرية الكينونة التي هي هدف جميع الحريات وأفضل منها كلها. فإذا كنت حراً في أن تفكر وتعبر عن تفكيرك بكل الوسائل القولية فأنت حر حرية فكرية وتعبيرية ولكنك ليست بذلك حراً حرية الكينونة ما لم تكن كل ما تريد، فالحرية ليست هي أن تقول ما تريد بل وأن تكون ما تريد، أي تفعل كل حياتك بكل حدودها واحتياجاتها وآمالها، وأن تعبر عن كل ذلك بالسلوك القادر. وحتماً لا يوجد في الدنيا ـ بل لا يوجد في الكون ـ من يستطيع أن يقول ويفعل ويكون جميع ما يريد وجميع ما تحتمل حياته وتتمنى. إذن فالقول بأن هنا حرية أو ليس هنا حرية يراد بها حرية ما على مقاسات معينة أو متوهمة، ولا يراد بها الحرية بكل تفاسيرها اللغوية والسلوكية.

وإذن فليس صحيحاً ذلك الزعم المشهور الذي يكرره ببلاغة وكبرياء كثير من الزعماء والخطباء والمثقفين والمنادين بالإصلاح ـ ليس صحيحاً ذلك الزعم الذي يقول بتكرار: إن الحرية لا تتجزأ. بل إن الحرية تتجزأ، ولا توجد إلا حرية متجزئة، ولو وجدت الحرية غير المتجزئة

لفقدت الحرية كلها: المتجزئة وغير المتجزئة. إن حرية الشمس لو كانت مطلقة لكان معنى هذا أن وجودها مطلق، ولو كان وجودها مطلقاً لفقد كل وجود، أي لفقدت كل حرية.

وهل الحرية الفكرية والتعبيرية من أجل حرية الكينونة أم من أجل ذاتها؟ وهل هي غاية من غايات الحياة الإنسانية لا وسيلة أو طريق؟ وسواء أكانت هذا أم هذا فمحتوم أنها لن تغني عن حرية الكينونة ولن تكون بديلاً عنها، ومحتوم كذلك أن حرية الكينونة غاية إنسانية وليست وسيلة إلى شيء، أي أنها هي الشيء نفسه لا الطريق إليه، أي أنها لا تعني شيئاً غير ذاتها كما أن الإنسان أو الوجود الإنساني لا يعني شيئاً غير نفس الإنسان أو غير مجرد الوجود الإنساني، أي أنه لا يعني شيئاً.

وهل توجد أية قيمة لأن تكون حراً في أن تلعن آلامك ونقائصك وهمومك وتحتج عليها وتدلل بكل منطق باهر على أن من العدل والرحمة والاحترام للحياة والكون والإله أن تزول هذه الآلام والنقائص والهموم؟ أليست القيمة كلها في أن تستطيع التخلص منها؟ ولعنك لآلامك لا يعني زوالها أو المساعدة على زوالها، بل قد يعني التراخي في مقاومتها والكره لها، إذ قد يصبح لعن الألم بديلاً عن معالجته أو مخففاً من الشعور به والغضب عليه والنضال ضده. والذين يعانون الآلام والمشاكل مع استمرارهم في إنكارها بالتفكير والنقد واللعن قد يستمرون هكذا، قد يستمرون يلعنون ويعيشون ويعانون، وقد يستطيبون ما يصيبهم مع الصراخ ضده. قد يصبح لعن الآلام تكفيراً مقبولاً عن تحملها واعتذاراً إلى النفس والبدن لكي يصبرا ويغفرا وينسيا.

وتغيير الوضع الرديء إلى وضع طيب لا يحتاج إلى هجوم بالكلام والتفكير على الوضع الرديء الذي يراد زواله، كما أن القضاء على المرض لا يحتاج إلى لعنه. إن جميع الأطباء في العالم يعالجون الأمراض أو يحاولون علاجها دون تأليف الكتب في لعنها ونقدها. إذن فلعل حرية الكلام والنقد لا تعني شيئاً سوى التهاون في مقاومة ما يشكى منه. إن جميع اللصوص والفاسدين والطغاة والقتلة ليرحبون بأنه يوجه إليهم المجتمع كل ما يستطيع ويعرف من نقد وتهم بليغة بل ومن سباب مهين، إذا كان ذلك يعني أن يتركوا يمارسون ما ينقدون ويسبون عليه.

أنت حتماً مستعد أن تقتل كل الشموس والنجوم وأن تسرق جميع الأنهار إذا كنت تستطيع ذلك وتريده وكأن الثمن الذي سوف تدفعه هو فقط أن تعد مخطئاً وفاسداً وأن تسب علناً بكل بلاغة وتوتر، ثم تكون لك مع ذلك كل أجهزتك الدعائية المضادة المدافعة عما تفعل، والمثنية عليك لما تفعل، كالذي يحدث في المجتمعات التي تعيش هذه الحرية الفردية التقليدية

التي تمنحك حرية الفساد وحرية الدفاع عنه ثم تمنح الآخرين حرية الهجوم عليك ونقدك ولعنك والحرية في أن يفعلوا مثلك.

وحرية التعبير والنقد ليست عادلة ولا وسيلة من وسائل العلاج والتقويم وطرد الفساد، بل إنها سلاح خطير، سلاح إذا كان من الممكن أن يقتل لك ويساعدك على أعدائك فإن احتمالات أن يقتلك ويساعد أعداءك عليك أكثر. إن الأقوياء وأصحاب المصالح المضادة لك أقوى على الاستفادة من الحرية المباحة للجميع من استفادتك أنت منها، فإذا كانوا هم أحراراً في أن يقولوا ما يستطيعون قوله وكنت أنت أيضاً حراً فإنك أنت حتماً الخاسر المغلوب المغبون لأن فرصهم وقدرتهم على أن يقولوا ويصبحوا صادقين أكثر وأقوى جداً من فرصك وقدرتك أنت.

فالقدرة على الكينونة هي دائماً قدرة على حرية القول، وهي حرية بأن تكون مصدقة في السوق، كما أن العجز عن الكينونة عجز عن حرية الكلام وعن الانتفاع بها. فأنت إذن في مثل هذا الموقف حر بدون معنى الحرية أو بدون استعمال للحرية أو انتفاع بها، أما الأقوياء وأصحاب المصالح المضادة لك فإنهم أحرار في قول الحرية وفي استعمالها، وهم القادرون على الاستفادة منها.

إن حرية النقد هي حليف دائماً للأقوياء أكثر مما هي حليف للضعفاء، بل هي خصم دائم للضعفاء. إن الكلمة هي دائماً كذلك، هي دائماً سلاح ضال ينطلق من أفواه أو أجهزة الكذبة القادرين ليفقأ أبصار الباحثين عن النور والعدل والحقيقة ويحطم أعصابهم. إن الكلمة مثل كل الأشياء تتحول إلى امتلاك بالقدرة، الكلمة يملكها الأقوياء كما يملكون الأشياء الأخرى. فالذين يملكون أشياء المجتمع وامتيازاته هم الذين يملكون كلماته القادرة، لأن الكلمة شيء من الأشياء، يوجد دائماً من يرغب في امتلاكها ومن يستطيع أن يفعل رغبته.

إن العلم والمال والسلطان والقانون والجيوش ملك للأقوياء في المجتمعات الحرة، ومثلها الكلمة ملك لهم أيضاً. وإذا كانت الجيوش وقوات الأمن الداخلي هي لحراسة الأقوياء وحراسة مصالحهم وامتيازاتهم وحراسة عقائدهم وأفكارهم فكذلك الكلام، إن الكلام حارس للقوة والأكاذيب القادرة وليس حارساً للعدل أو الصدق. لقد خدعت الإنسان الكلمة ـ ولا تزال تفعل بأساليب أقوى وأشمل ـ وقاتلته وكذبت عليه وظلمته أكثر مما قاتلت دونه أو صدقته أو أرشدته أو انتصرت له. أليس الأقوياء في كل مجتمع هم أقوى أدوات التعبير فيه؟ ثم أليست حرية القول في أي مجتمع هي إحدى وسائل التعبير فيه؟

ثم بدون نقد، ما أكثر الضالين الأغبياء الذين يبحثون عن الغواية لأنفسهم وللآخرين بلا ثمن، وهؤلاء يستفيدون من الحرية أكثر مما يستفيد منها خصومهم لأسباب كثيرة. ولو أننا

نظرنا الآن إلى أكثر المجتمعات التي تعيش هذه الحرية لهالنا المنظر، إننا سنجد حينئذٍ الحرية في خدمة الفساد والكذب والخرافات والمظالم والجهل - إننا سنجد حينئذٍ هذه الحرية هي أقوى وأشرس خصوم الحرية. إن كثيراً من البلاد الحرة لتمارس اليوم الحرية بأسلوب هو أقسى هجاء للحرية ونهي عنها. وهل يوجد فرق بين إعطاء الحرية لخداع الآخرين والكذب عليهم وسبهم والتشهير بهم وبين إعطاء الحرية لقتل الآخرين وضربهم وسرقتهم والاعتداء عليهم بكل أساليب الاعتداء؟

*

هذه أسباب للغضب على الحرية أو للتشكيك في قيمتها. وهي أسباب قد يكون أكثرها أو كثير منها صحيحاً. ولكن سواء أكانت أسباباً صحيحة أم كانت غير صحيحة فالظاهر أنه لا يوجد بديل عنها، إن البديل عن هذه الحرية المتهمة بكل هذه التهم القاتلة قد يكون أعظم سوءاً أو أكثر جلباً لهذه الشرور التي اتهمت بها حرية التعبير بالكلمة والنقد. وهكذا الحياة أو كل ما في الحياة هو أو هي خيار بين الرديء، والأكثر رداءة، وليس في الحياة خيار بين كامل ورديء، ليس فيها ما هو خيار بين ما فيه كل الألم وبين ما لا ألم فيه، أو بين ما هو ملائم كل الملائمة وبين ما هو مناقض كل المناقضة.

إن المجتمع الذي يعيش بلا حرية ليس إلا مجتمعاً فيه كل الحرية للأقوياء، وحينئذٍ يحولونها كلها إلى المحافظة على قوتهم ومزاياهم المغتصبة أو المأخوذة بالافتراس أو الحيلة أو بقوة التاريخ والاستمرار، وحينئذٍ أيضاً يستغلون كل رذائل الكلمة أو رذائل الحرية دون أن يتعففوا عنها بأخلاق الفروسية. فالحرية لا تفقد إلا بوجودها، أي لا تفقد من المجتمع إلا بوجودها لدى طبقة أو طائفة أو طاغية ما في المجتمع. إنها - أي الحرية - لا تموت ولكن تقتل، وقاتل الحرية يكون هو حراً جداً أي حراً في التعامل ضد الحرية وفي التعامل برذائل الحرية.

فإذا كان منع الحرية لا يعني منعها وإنما يعني احتكارها فإنه لا يمكن الهرب إذن من الحرية على افتراض الهرب منها فضيلة، ولكن الذي يمكن هو الهرب من توزيعها على الجميع لتجميعها في أيدي طائفة أو طبقة أو رجل فرد، وهذا التجميع هو أسوأ جداً من كل احتمالات التوزيع وأخطاره. إن أي مجتمع لا يمكن أن يكون بلا حرية، فأما حرية عامة أو حرية محتكرة، إذن فالحرية قدر على جميع المجتمعات، لا يستطيع أي مجتمع أن يطرد الحرية وراء حدوده. والفرق بين مجتمع ومجتمع في موضوع الحرية هو فرق في توزيعها لا في وجودها أو مقاديرها، ومقادير الحرية في المجتمعات لا تختلف أو تتفاوت، ولكن الاختلاف والتفاوت في امتلاكها. والذين يحرمون الحريات أو يرفضونها لا يفعلون ذلك لأنها ضارة أو مفسدة، بل يحرمونها رغبة في احتكارها، إنهم يحرمونها لأنهم يريدونها لهم، لا لأنهم يخشونها على

الآخرين أو على الأخلاق أو على الدين. حتى رجل الدين حينما يخشى الحرية ويعلم ضدها ويوعد المتعاملين عليها بالجحيم إنما يفعل ذلك لأنه يريدها له وحده، أي يريدها لعقائده وأربابه وتعاليمه التي يعني انتصارها انتصاره هو. إن رجل الدين يعلم أو يشعر أن وجود الحرية عند الآخرين غير التابعين لتعاليمه إضعاف لحريته هو، وإن حرية الآراء الأخرى انتقاص لحرية آرائه هو، وإن انتقاص حرية آرائه انتقاص لحريته هو.

وإذا كانت حرية التعبير لا تعني حرية الكينونة، وهذه لا قيمة لها بدون هذه، فهل فقد حرية التعبير يعني الظفر بحرية الكينونة، أي هل الناس يكونون ما يريدون إذا كانوا لا يستطيعون أن يقولوا ما يريدون، أو لأنهم لا يستطيعون أن يقولوا ما يريدون، وإنهم لو ملكوا هذه لفقدوا تلك؟ لو كان الأمر كذلك لأمكن على أحد الاحتمالات أو على كل الاحتمالات أن يكون فقد الحرية الفكرية والتعبيرية مشروعاً أو ثمناً باهظاً قد يقبله بعض الناس أو كل الناس لفقدهم هذه الحرية في مقارنة قد يجدونها محتومة لا خيار فيها. إن فقد حرية الفكر والكلام لا يعني وجود حرية الكينونة ولا يساعد على وجودها، إذن ماذا يجدي فقد الحرية الفكرية والتعبيرية؟

فكل الأخطار والرذائل المتوقعة حينما يكون المجتمع حراً هي محتومة أو على الأقل متوقعة حينما يكون المجتمع غير حر، أي حينما تكون الحرية احتكاراً أو امتيازاً لطائفة أو لطبقة أو لفرد طاغ أو لعقيدة أو لإله، بل إن الرذائل والأخطار تكون حينئذٍ أضخم وأكثر وحشية وعدواناً.

ولماذا أتكلم عن الحرية وأعظ بمزاياها؟ هل امتداح الحرية والاقناع بقيمتها يخلقانها؟ وهل ذمها والاقناع بشرورها يقتلانها؟ إنه إذا وجد من يريدون قتلها واستطاعوه فلا وجود لها حينئذٍ مهما وعظ بها الواعظون، وإذا لم يوجد هؤلاء ووجدت الظروف القاضية بوجودها فلا بد من وجودها مهما جاءت المواعظ والتعاليم ضدها.

إذن فأنا لا أتكلم لأخلق الحرية أو لأساعد على خلقها، بل لأني لا بد أن أتكلم لأني محتاج إلى الكلام، لأن روحي وأعصابي تعيش به وتتعذب بالصمت، فالكلام مفروض لأنه ضرورة ذاتية لا لأنه وظيفة اجتماعية أو أخلاقية. إن الكلام والتفكير والنقد والحرية تعبير عن مجاعات نفسية لا لأنها طريق إلى شيء أو تهب شيئاً، إنها مثل النوم والمرح والضحك والعلاقات الجنسية، نحن لا نفعلها لنخدم بها المجتمع أو الكون أو الإله بل استجابة لذواتنا بلا تفسير أو مذهب أو قيمة أو أخلاقية. بل لو كانت هذه الضرورات الذاتية ضارة - أو لو كان الكلام والتفكير والنقد والحرية ضارة وصانعة للخطر والخسائر - لكانت مع ذلك جميلة وجميلة أكبر التضحيات ثمناً لها.

ما أجمل أن نكون أحراراً لا نخاف شيئاً، ننقد ونهاجم بأفكارنا المتوحشة البذيئة في قوتها وعنفها وحريتها، أن نهاجم بأفكارنا المدربة على الهجوم كل القيم والمذاهب والأرباب والنظم والحكام والطغاة وكل الأشياء دون أن نخاف قتلاً أو محاكمة أو مطاردة أو نبذاً وبغضاء. كم هو رائع أن نفعل ذلك دون أن يكون لنا أي هدف مذهبي أو أخلاقي أو ديني، ودون أن تقيدنا أو تعاقبنا أو تهددنا المذاهب والأديان والأخلاق والطغاة المحتكرون، إن ذلك هو الذي يصنع القيم والأخلاق والسعادة والذكاء والحب الإنساني والشمم النفسي والعقلي، إن ذلك هو القوة الإنسانية، إن ذلك هو اللغة العالمية التي يعبر بها الإنسان عن غثيانه وبكائه. وما أقبح أن نعجز عن ذلك أو نمنع منه مهما كان الثمن، إن ذلك هو القتل والاختناق والتشويه الفظيع.

إن الإنسان قد يستطيع أن يعيش بلا حرية ولا تفكير ولا نقد، كما يستطيع أن يعيش بلا عدالة أو صحة أو ذكاء أو تعليم أو حضارة، ولكن كم في ذلك من القبح والبشاعة.

*

إن أحقاد البشر ومصالحهم وأهواءهم المتقاتلة وقدراتهم هي التي تحرك عمليات الحياة فيهم وتهبها الحماس، وإن التصادم المتناقض بين هذه المزايا أو الرذائل هو الذي يوجد الموازنة بينها ويصنع الصيغة الاجتماعية أو يساعد على ذلك، وإن التعبير عنها هو الذي يحولها من شعور إلى حركة ومن جنين إلى كائن يواجه أخطاء الحياة وأخطارها وحماقاتها، أو لعل هذا هو الافتراض العقلي أو الاعتقاد المشهور.

إن الديمقراطية ـ أعني ما يدعى بالديمقراطية التي يسميها خصومها بالديمقراطية الفاسدة أو المستغلة ـ هي التعبير الأعلى عن تناقضات المجتمع وعن التناقضات بين المجتمع والكون وبين المجتمع والإنسان، وبين ما نريد وما نجد، وبين الفكرة والقدرة. والتناقض والتعبير عنه محتومان في تطور الحياة والحضارة والأخلاق والأفكار الجديدة، بل محتومان في وجودها، بل وفي تهذيب الشرور والآلام، وفي تهذيب التناقضات نفسها. إن التناقض مثلاً بين حرية الحاكم وطموحه وشهواته وقدرته وذنوبه وبين حرية المجتمع وطموحه وشهواته وقدراته وذنوبه والتصادم بينها والتعبير عن كل هذا بكل أدوات التعبير قد يؤدي بالتتابع والاستمرار إلى وجود أفضل، وكذلك قد يفعل التناقض بين حرية ومصالح طائفة وطائفة وفرد وفرد ومذهب ومذهب ونظام ونظام وإله وإله آخر. والتناقض بين أجرام ووحدات هذا الكون في عملياتها ومداراتها هو الذي جعله كوناً كأنه محكوم بالمنطق والمذهب والأدب، وجعله وعاء للحياة وحماه من التساقط والتحطم. ولولا التناقض بين قدرات هذا الكون وحماقاته وعمليات التجاذب فيه لما وجدت صيغته هذه التي يبدو فيها التهذيب والتي وهبته الوقار وعصمته من أن يتهاوى ويموت منتحراً كما يفعل كل من عجز عن ضبط خطواته المتحركة بين الموت والحياة، والمنطلقة من الموت إلى

الحياة إلى الموت بلا منطق غير منطق التناقض بين الرغبات والرغبات والتعبير عنها بالاستمساك بما لا هدف ولا تفسير له.

ماذا لو كان في أي مجتمع من المجتمعات أو لو كان في كل المجتمعات شهوة واحدة أو قدرة واحدة أو فكر يعمل وحده ويعبر عن وجوده وحده، وله الحرية وحده؟ ليس من الممكن أن يوجد مثل هذا المجتمع أو مثل هذه المجتمعات، ولو وجدت لما كان ممكناً أن تكون مجتمعات صالحة ولا أن تتطور بالمستوى أو السرعة التي تتطور بها المجتمعات المتناقضة المعبرة عن تناقضها بكل قسوة وبلا أخلاقية. إن الفضيلة هي الاصطدام بالرذيلة، هي محصول الاشتباك بين إرادات وحركات وحريات متناقضة، ليست الفضيلة في جميع أزيائها سوى التعبير عن التناقض، إنها ليست هي نفس التناقض بل هي التعبير عنه. ولن توجد فضيلة بلا رذيلة مناقضة لها إلا في اللغة والافتراض العقلي. والإنسان الفاضل جداً ليس إلا إنساناً شريراً أو ليس إلا إنساناً فقط لا فاضلاً ولا شريراً ـ اصطدمت حريته وقدرته بحريات وقدرات أخرى استطاعت هي أن تعبر عن نفسها تعبيراً ما.

والإنسان المتفرد وحده بشهواته وقدراته ووجوده وفي تعبيره عن ذلك ـ لو كان ممكناً وجود إنسان متفرد ـ لا يمكن أن يكون فاضلاً، فالفاضل هو جندي يقاتل في معركة تزخر بالخصوم والمتناقضات، يقاتل لا دفاعاً عن شيء أو احتراماً لشيء أو غضباً من شيء بل بحثاً عن التلاؤم مع نفسه ومع الأشياء المناقضة له، والتوافق هو نهاية عمليات التناقض. ولأنه لا بد من التناقض لوجود الفضيلة ولكي يكون الموجود فاضلاً لم يكن محتملاً أن يكون الإله المتفرد فاضلاً، ولا أخلاقياً بالمعنى المعروف للأخلاق والفضيلة. لقد تصور المؤمنون آلهتهم متفردة، لهذا تصوروها بلا فضيلة أو أخلاق، حتى عدوا خروجها على الأخلاقية هو أعلى مستويات الأخلاقية.

إن أفضل المجتمعات هي أقدرها على التعبير عن تناقضاتها، لأنها أقدر وأجرأ على علاج هذه التناقضات والتوفيق بينها. والمجتمعات التي لا تعبر عن تناقضاتها ليست مجتمعات بلا تناقضات بل هي مجتمعات محرومة من التعبير تحت ظروف معينة، وهذه المجتمعات هي أسوأ المجتمعات. ولا يمكن أن يوجد مجتمع لا يعبر عن تناقضات أي تعبير، ولكن أساليب التعبير ومستوياتها تختلف، ولو كان ممكناً أن يفقد أي مجتمع كل تعبير بأي أسلوب على أي مستوى لكان محتوماً أن يموت مثل ذلك المجتمع بالصمت الرهيب.

والاشتباك العنيف بين أهواء المجتمع ومصالحه وأفكاره بل بين رذائله وأخطائه دليل على قوة الحياة وتفاعلها فيه. ولا يفقد أي مجتمع التناقضات إلا إذا فقد التناقض بينه وبين الطبيعة التي تواجهه بضراوه ووحشية، وإذا كان المجتمع لن يفقد التناقض بينه وبين الكون فلن يفقد إذن التناقضات من داخله مهما كان مذهبه ونظامه.

والتناقض داخل المجتمعات أو بين المجتمعات أو بين الناس هو التعبير عن التناقضات مع الطبيعة، ولولا هذا التناقض لما وجد أي تناقض، ولكن البشر يفقدون أحياناً الشعور بالتناقض الذي يعيشونه بكل قسوة. ويحدث أحياناً أن تكون أقسى المجتمعات تناقضات هي أقلها شعوراً أو علماً بها أو احتجاجاً عليها، فالشيء لا يساوي وجوده فقط، بل يساوي العلم به أو الشعور ضده أو نحوه أو التعامل عليه. وقد يفقد الناس الشعور بالتناقض الذي يعانونه تحت سلطان الإرهاب أو العقائد أو الإلف الطويل أو البلادة الموهوبة.

إن الرجل الرديء في المجتمع المحتج بحرية ليخدم الفضيلة ويوجدها حينما يهب بتحريض من رذائله المنتصرة بكل قسوة على كل مثله، يشنع على الخصوم ويكذب عليهم ويرميهم بكل عيوبه النفسية والسلوكية، وحينما ينهض يعتصر الدموع الباردة الجافة عن عينيه المغازلتين لكل ما في الأرض من عفن وتراب وظلام، بكاء على الفضيلة التي تصلبها طلعته الوقحة، وعلى الحق الذي عرشه تحت قدميه، بينما الحديث عنه في فمه كأجمل أنشودة وأقوى قصيدة ـ هذا الرجل الرديء يخدم الفضيلة ويصوغها أكثر مما يفعل أصدقاؤه الفاعلون لها بشهوة واستمتاع دون معاناة أو مشاعر مضادة. والملائكة الذين يفعلون الفضيلة بلا رغبة في الخطيئة ليسوا أكثر تشييداً وتعليماً للفضائل من الأبالسة الذين لا عمل لهم إلا تعليم الناس فن الخطايا وهدايتهم إليها.

وإساءة الاستعمال للحرية هي أفضل عمل يؤديه الأشرار المخطئون إلى قضية الحرية، إن هذه الإساءة قد تزيل الحرية وقد تشفيها من عيوبها، والأمل المنشود هو إما في هذا أو في هذا، إما في وجود حرية نظيفة وإما في زوالها. والخصوم والأشرار الذين يتقاتلون ويتخاصمون في أوضاع ديمقراطية دفاعاً عن أهوائهم وأفكارهم الذاتية الضالة والأنانية يطورون المجتمع أكثر وأعمق مما يطوره وضع استبدادي يتحدث عن مزاياه وعبقريته بجنون وطفولة ويعتقل جميع الشهوات والأهواء والأحقاد والأفكار في قوالب وأوامر وشرائع صارمة متجمدة من أوامر الفضيلة والمذهبية وشرائعها وقوالبها التي ماتت فيها الشهوات والنزوات والأخطاء، أو التي يراد لها أن تموت وأن تكون عاجزة.

والذي يفرض على الناس فضيلة جاهزة بلا شهوة أو رغبة فيها هو أقوى عميل للرذيلة، كما أن الذي يفرض على العقول الإيمان بعقيدة أو بمذهب نهائي مطلق يقيني هو أفضل معلم للخطأ والغباوة.

إذا وجدت الحرية فلا بد أن يوجد الخطأ والفساد والانحراف على نحو ما لأن الحياة معارضة دائماً، فحيث توجد الحياة تصبح حتماً ألماً ومضايقة وخطأ وتحدياً في حساب حياة أخرى، أي تكون معارضة لها، بل إن الفساد والانحراف والأخطاء هي هبات الحياة وليست

هبات الحرية، فالحياة هي وعاء جميع الشرور، لا الحرية. فإذا لم توجد هذه الحرية أو أية حرية أخرى فلن تفقد أو تضعف هذه الشرور والمساوىء إلا إذا فقدت الحياة نفسها أو ضعفت، لأن هذه المساوىء والشرور أو التي نعدها مساوىء وشروراً هي عمل الحياة وليست عمل الحرية. وبقدر ما تكون الحياة قوية تكون الشرور والأخطاء قوية. إن الحرية هي التي تعبر عن المساوىء وتكشفها وتعلن عنها، وليست هي التي تصنعها. فالمجتمع غير الحر يحمل المساوىء التي قد نراها خاصة بالحرية ولكنه لا يستطيع التعبير عنها، بل يحمل مساوىء أكثر لأن التعبير يضعف الألم أو الشعور به، وقد يخففه ويبدده ويوجد احتمالات أفضل للشفاء منه. إن المجتمع غير الحر يحتكر التعبير فيه عن المساوىء الطغاة والأقوياء الذين سلبوه كل حرياته، يعبرون عن هذه المساوىء أبذأ وأسوأ تعبير، ويفعلون الذنوب والأخطاء بكل شهواتهم وقدراتهم.

فالوضع غير الديمقراطي يحمل إذن المساوىء نفسها ولكنها مساوىء لا تتحول إلى فضائل ولا تحمل احتمالات الفضائل لأنها ممنوعة من التعبير على مستوى غير احتكاري، والفضيلة لا تكون إلا تعبيراً. ولكن هذه المساوىء الممنوعة من التعبير قد تظهر بأشكال غير أشكالها التي تظهر بها حينما يكون المجتمع حراً في تعبيره عن أخطائه ورذائله وأهوائه. إننا لا نستطيع أن نعرف رذائل الحرية إلا بالحرية نفسها، فالفضل لها في الكشف عن نفسها. والأحرار يخطئون ويكذبون ويظلمون بتفكيرهم وتعبيرهم وبسلوكهم أحياناً، أما من ليسوا أحراراً فيمارسون كل الذنوب والآثام والنقائص السلوكية والشعورية والعقلية بنياتهم وأمانيهم وشهواتهم وبكل أعضائهم.

إن جميع الناس يخطئون ويكذبون ويحتاجون إلى الأكاذيب والأخطاء ولكنهم يختلفون في أساليب التعبير، إنهم جميعاً يحتاجون إلى الخطأ لأنهم أحياء بل لأنهم موجودون، فكل حي، بل كل موجود يحتاج إلى أن يخطىء كما يحتاج النهر والحجر والنبات إلى الخطأ والظلم والتصادم مع الأشياء والرغبات الأخرى. فإذا كنت في مجتمع يمنعك من أن تفكر وتحتج وتخطىء، وتعلن عن تفكيرك واحتجاجك وخطئك بأسلوب حر لا خوف فيه فهل هذا المجتمع يستطيع أن يمنعك من أن تحتج وتخطىء وتعبر عن ذلك بأسلوب آخر من أساليب التعبير على نحو من الانحاء؟ في مثل هذا المجتمع هل تعجز عن التفكير أم عن الخطأ في التفكير مع التفكير، أم تعجز عن التعبير؟ إن كان العجز عن التفكير فما أبشع هذا، وإن كان عن الخطأ في التفكير مع التفكير فما أعظم استحالة هذا، وإن كان العجز عن التعبير فما أسخف هذا، أي ما أسخف أن يكون الخطأ موجوداً في تفكيرك ثم تمنع من التعبير عنه!

هل الذين يمنعون من نقد الطاغية والاحتجاج على طغيانه بل ويكرهون على امتداحه وعلى الصلاة لجرائمه يستطيعون أن يؤمنوا به، أو يتحولون بذلك إلى مؤمنين به، يرون فيه إلهاً طيباً،

لأنهم منعوا من نقده ومن الاحتجاج على حماقاته وأكرهوا على الصلاة له؟ إن أقوى هجاء للفساد هو الاضطرار إلى مدحه والإكراه عليه، كما أن أضخم دعاية تعبأ لتمجيد حاكم تافه فاسد متأله متخبط في أشد المغامرات ظلاماً وجنوناً، أو لتأييد مذهب سخيف أو عقيدة غبية لن تستطيع أن تقتل أو تخمد احتجاجات العقول وغضب المشاعر على هذا الحاكم أو المذهب أو العقيدة أو تمنع من رؤيتها لها كل الزمن، بل إن هذه الدعاية المعبأة الكاذبة قد تتحول إلى دعاية مضادة قوية جداً. والبشر قد يرون بشاعة الدمامة الممدوحة أكثر مما يرون بشاعة الدمامة المسكوت عنها، ولعل الفساد المعلن عنه بالمدح يثيرهم ويتحداهم أكثر مما يثيرهم ويتحداهم الفساد المحقر المذموم أو المغضى عن ذكره. ولم تستطع أكبر الأكاذيب وأعلاها صوتاً في امتداح الطغاة والحكام الفاسدين وفي امتداح المذاهب والعقائد والعهود الفاسدة والآلهة الغبية العريقة في التاريخ مع تدبير أضخم وسائل القمع لمنع نقدها أو الاحتجاج عليها أو رؤية ذنوبها، لم يستطع كل ذلك أن يتحول إلى إيمان دائم بها، أو يمنع من الاحتجاج والغضب والخروج عليها، ولو من الداخل ثم من الخارج على أعنف الأساليب.

وليست مساوىء الحرية إلا ضرباً من العجز عن بلوغ الحرية، فالمجتمع الرديء هو مجتمع لم يبلغ أن يكون حراً، ومجموع أخطاء الإنسان أو المجتمع هي مجموع محاولاته أن يكون حراً وحاصل عمليات بحثه عن الحرية. فالخطأ هو دائماً من عمل المعركة في سبيل الحرية لا من عمل الحرية نفسها. ولا يمكن أن يوجد صواب بدون حرية مخطئة، والأحرار المخطئون هم الذين اكتشفوا جميع الحقائق الموجودة حتى الحقائق الموجودة عند المعادين للحرية والخائفين منها. والمعادون للحرية الذين يريدون إكراه الناس على صواب ما، إنما يريدون إكراههم على صواب وهبتهم إياه الحرية، والذين يريدون صواباً من غير خطأ هم كالذين يريدون اكتشافاً أو حقيقة من غير تجربة، والذين يحاولون أن يمنعونا من تجربة الحرية خوفاً علينا من أسباب الغواية ما مثلهم إلا كمثل من يحرمون علينا أن نتنفس الهواء لحمايتنا من الجراثيم المنتشرة فيه.

إن الحرية خطر وكآبة ودمامة وأسلوب بشع من الفحش، ولكن فقد الحرية ليس شيئاً أكثر جمالاً وبهجة وتهذيباً، ليست الحرية تطلعاً سعيداً إلى القمر المغازل للنجوم بفسوق ومجاهرة. إن الحرية سير فوق الأوحال والخناجر والهموم وتعامل مع النقائص والتفاهات والغباء، وبحث بذيء أليم عن العار والعيوب. إن الحرية ممارسة فيها عذاب وغثيان وافتضاح، وليست عشقاً فيه عطور وأزهار وصداقات. والمسؤول عن كل هذا هو نفس الحياة، المسؤول عن هذا كله هو كوننا موجودين لا كوننا أحراراً، والنجاة في أن نكون غير موجودين وغير أحياء لا في أن نكون غير أحرار.

سيكون ذلك سخفاً عظيماً لو كنت هنا أحاول امتداح الحرية أو تبيان مزاياها، إن هذه

المحاولة سوف تكون حينئذٍ نوعاً من الطفولة غير السعيدة. إذن أنا لا أحاول ولا أريد امتداح الحرية أو الدعاية لها أو الإقناع بفضيلتها، فهذا سخف أرجو أن أعجز عن الهبوط إليه. وإنما أريد بما أكتب هنا أن أسفه نفس الحياة والوجود، فهما اللذان يقضيان علينا بالمساوىء والأخطاء والآلام حتى مساوى الحرية وأخطاؤها وآلامها، حتى الحرية ـ وكذا فقد الحرية كلاهما مقضي به علينا لأننا أحياء وموجودون.

إننا لو كنا موجودين أو أحياء فقط بلا أية حرية مثل النباتات والصخور والبراكين والحشرات والوحوش لكنا أيضاً مخطئين وظالمين، بل مخطئين وظالمين أكثر.

إن الحر الذي يستعمل حريته في بتر أعضائه وتشويهها أو في قتل نفسه لهو خير من العبد الذي لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنه لا يستطيع أن يختار. الحياة كلها ليست إلا تجربة مخطئة، مخطئة بحرية ومخطئة بدون حرية. ومتاعب البشر وآلامهم ليست راجعة إلى أنهم يخطئون، بل راجعة إلى عجزهم عن الخطأ وخوفهم من ممارسة أسبابه بقوة ونضج، وإلى عجزهم عن التكافؤ مع الخطأ والانتصار عليه. وليس الفرق بين الأكثرين والأقلين ألماً هو أن الأولين أكثر خطأ أو حرية، بل الفرق أن أولئك أجرأ على الحرية والخطأ وعلى التكافؤ معهما والتفوق عليهما. إن صراخ الطفل يصنع حياة الطفل ويدل من حوله على اهتماماته واحتياجاته، ويثير التفاتهم إليه واهتمامهم به ويجعلهم يضطرون إلى الاستجابة له، ويخلق لهم وعياً جيداً في فهم طبيعته وتفسير صرخاته واضطراباته، واستعداداً لتلبية ما يريد. وتوجعات المريض وآهاته تعطي انطباعاً واستجابة أفضل مما يعطي صمته واستسلامه ونومه. وإن الأنين ليتحول أحياناً إلى انتصار وهزيمة ـ إلى انتصار للمتألمين وهزيمة للطغاة والقساة وللمشاعر المتجمدة البليدة. وصراخ الحرية في مجتمع من المجتمعات ـ مهما كان هذا الصراخ ضالاً وكاذباً ومزعجاً ـ لن يكون أقل في اعطائه للنتائج من صراخ الطفل وآهات المريض.

إن تعبيرات الحرية الملحة المختلفة لتخلق وعياً في نفسها وفي بيئتها وطوائفها وفي نفوس الطغاة والأقوياء والمعلمين الذين يعادونها ويخافونها، وتصنع في جميع هذه المجالات استجابة أو تهيؤاً أو عجزاً عن المقاومة أو ضعفاً فيها، إن أقسى وأفجر طاغية، وإن أغبى وأجهل معلم لتهزهما أو تغيرهما أو تحركهما أو تؤثر فيهما ـ وإن لم يريدا أو يعلما ـ تعبيرات الحرية وصرخاتها الدائمة المزعجة، وقد تصوغ أحاسيسهما وأفكارهما وذكاءهما هذه الصرخات والتعبيرات على نحو ما، وقد تهزم أو تضعف أو تغير بالاستمرار أبلد العقائد وأقوى الأرباب التي وضع التاريخ على هاماتها أكبر وأقدس التيجان.

إن أية طائفة أو طبقة ظالمة ومتكبرة سارقة لحرية بأن تخلق فيها طرقات الحرية روح الهزيمة أو الخوف أو التغيرات المتلاحقة المحتومة. إن الإنسان كائن مستمع منخدع، يخاف ويتأثر ويتغير،

وهو جهاز استقبال حساس، وهو لا يعرف كما لا يستطيع أن يحمي نفسه من عوامل التغيير والتأثير والانخداع والخوف والاستجابة، وإن البكاء وتعبير الحرية ليؤثران فيه، وإنه ليستقبلهما بمختلف حواسه بالكره منه دون أن يريد ذلك أو أن يكون فاضلاً، كما تؤثر فيه الموسيقى والشعر، وكما يستقبلهما كأفضل جهاز استقبال. إذن فتعبيرات الحرية وطرقها القوي الدائم للأفكار والمشاعر قد تخلق حالة من الوعي أو التغير أو الاستجابة أو الخوف والانهيار. إن الذين يستجيبون لتأثيرات الحرية وإلحاحها قد يستجيبون دون أن يقصدوا الاستجابة أو يعرفوا أنهم استجابوا.

أما تحريم الحرية بكل تعبيراتها المحتجة المنذرة، وسوق المجتمع كله في طريق واحد مفروض، وصبه ـ أي المجتمع ـ في إحساس واحد متكرر، وإخفات جميع الهمسات والاحتجاجات العارضة والناقدة، فإن هذا قد يخلق حالة خطيرة من البلادة والاستساغة والعجز والاستعداد لعبادة كل هوان، والانحناء لكل سوط دون غضب أو معاناة، وحينئذٍ سوف يستسيغ الطغاة ممارسة طغيانهم والإصرار عليه والتجديد فيه دون أن يعانوا أية مكدرات أو منغصات أو أي إزعاج. ومهما كان هؤلاء الممارسون للطغيان فضلاء بل مهما جاؤوا كثوار على الفساد والطغيان فإنهم في مثل هذه الحالة سيتحولون إلى أفسد الحكام وأطغاهم وأكثرهم انحداراً في مهاوي الانحراف إذا ظل كل من تحت أقدامهم يعيشون بصمت بل بهتاف لما يحدث لهم، لا ينقدون أو يبكون أو يشعرون بالغثيان ويعبرون عن غثيانهم.

*

إن من أقوى ما في الحرية أنه لا يمكن علاج أخطاء الطغيان أو اكتشافها إلا بالحرية، وإن الطغيان لا يجد وسيلة يحمي بها نفسه ويستر عيوبه غير نفس الطغيان، أي غير مقاومة الحرية، وإن الانطلاقات التي تبدو طيبة أو كبيرة والتي تجيء في عهد استبدادي ليست في كثير من الأحيان إلا تعبيراً منحرفاً من تعبيرات الحرية في احتجاجها وغضبها على نفسها، أو نوعاً من المنافسة للحرية أو من المقاومة لها بالتسلح بمثل سلاحها، أو أخذاً عنها وتقليداً لها. إن الاستبداد لا يمكن أن يفعل ولا يستطيع أن يفعل إلا بقدر ما فيه من حرية، بل إن مقاومة الحرية لا تكون إلا بأسلوب من الحرية.

وقد يخطو النظام المستبد أحياناً خطوات أسرع وأجرأ وأكثر إثارة وشاعرية، وقد يبدو لذلك أحياناً أنه يعطي أكثر مما يعطي النظام الحر، وقد يقوى حينئذٍ الانخداع به والكذب له. ولكن هذا الذي يبدو أسرع وأجرأ ليس إلا صورة خادعة، فما يفعله الاستبداد ليس إلا استنفاداً لما كان موجوداً، إنه نوع من استهلاك أو إنفاق أو استغلال الرصيد القديم المجتمع في أسلوب واحد وغرض واحد مع ضجيج من الدعاية الهائلة التي يحسنها أو يهتم بها ويكثر منها الحكام

المستبدون، أو هو نوع من إنهاك الجواد في رحلة واحدة وطريق واحد.

إن الاستبداد يعمد بأسلوب مسعور إلى جميع ما يجد أمامه مما صنعه كل التاريخ الطويل في كل خطواته المتتابعة وسيره الوئيد الممل الممزق وما خلف وراءه في آلامه العظمى البائسة وفي معاركه الغبية ضد نفسه وضد ظروفه، متجمعاً في مستنقع ضخم من التجارب والمشاعر والهموم والعداوات والأحقاد، وأيضاً من الأفكار والفنون والعبقريات وكل ألوان النشاط والإبداع الإنساني - يعمد إلى كل ذلك ليستهلكه في مهرجانات عظيمة من الضجيج والدعاية والتفاخر، بعد أن يدعيه في أضخم وأجرأ أكذوبة لنفسه. وما مثله إلا كمثل من ورث ثروة طائلة قد جمعت بذكاء وتعب وهموم ونذالة في عصور طويلة، فراح يبددها أو يعرضها أو يعلن عن نفسه بها على نحو لم يكن جامعوها وخالقوها التعساء يفعلونه أو يتصورونه أو يريدونه، لكي يبدو أعظم وأقوى وألمع منهم. ولهذا فإن نهاية الوضع المستبد الفناء أو الإفلاس أو الضعف المذل أو الأزمات الخانقة مهما بدا في أوله كحسام مارق يشق حده العبقري صدور النجوم والعقبات والمخاوف.

إن الاستبداد عملية استهلاكية فاحشة حمقاء، وإذا لم يصب الاستبداد إصابة قاتلة أو مذلة منهكة فلا بد أن يكون في الأمر شيء أعظم من مزايا الاستبداد وعبقريته. إن كثيراً من النظم والمذاهب والحكام والرجال في كثير من العصور يوهبون الحماية والقوة والنصر والبريق، بل والوقاحة والبلاغة البذيئة العدوانية من الخارج حيث لا يوجد من الداخل إلا كل أسباب الموت والهزيمة والانهيار.

وما مثل الذين يلعنون الحرية ويخشونها، لأن الأقوام الرديئين قد يستفيدون منها، إلا كمثل من يلعنون الشمس ويودون اغتيالها أو انتحارها لأن الحشرات واللصوص والخصوم والأعداء قد يحيون عليها أو يرون طريقهم بها وهم ذاهبون إلى ممارسة أعمالهم وخطاياهم، ولأن الفسقة قد يغازلون تحت ضوئها عيون النساء المبشرة بمزايا الحب والموحية بالغواية إلى أعضاء الأتقياء، ولأن الزنادقة قد يقرؤون كتبهم أو يكتبونها بما تهبهم من إشراق ودفء ونشاط ومرح يوحي بالتمرد والتفوق على عقائد المحاريب العائشة في الظلام.

إذا وجدت الكرامة والحرية في مكان لم يحتج أهل ذلك المكان إلى التحدث عنهما، فالناس لا يحتاجون إلى أن يتحدثوا ويدللوا في خطابات سياسية أو في مقالات دعائية ضافية على وجود العار والهوان وعلى وجود الكذب والغباء لدى بعض الناس في بعض العصور، أو على وجود الغباء والكذب في جميع العصور لدى جميع الناس تحت جميع الظروف، وعلى أن الأتقياء والفضلاء هم الذين يتحدثون بإسراف وحماس عن التقوى والفضيلة ويعظون بهما أو ينافقون بارتكابهما، وليسوا هم الذين يفعلونهما أو يحترمونهما أو تعشقهما أهواؤهم

وأعضاؤهم، وعلى أن الثوار هم الذين يتحدثون عن الحرية والمحبة، وليسوا هم الذين يعطونهما أو يتهاونون في قتلهما أو في حرمان المجتمعات منهما أو في التنكيل بمن يطالبون بهما إذا ثبت أنهم صادقون في مطالبتهم، وعلى أن الناس جميعاً يقسمون كاذبين أنهم أبداً لا يكذبون. إن الناس لا يحتاجون إلى أن يثبت لهم شيء من هذا بالأساليب الدعائية لأنهم جميعاً يعرفونه ويشاهدونه بحيث تصبح محاولة الاقناع به عبثاً سخيفاً.

أما إذا فقدت الحرية والكرامة فإن الحديث عنهما قد يصبح حينئذٍ أسلوباً من أساليب التعويض والتعزية والرثاء لميت كريم عزيز، أو من أساليب الشعور بالذنب. لهذا فقد يتحول التبشير بالحرية والكرامة والامتداح لهما وتوكيد وجودهما والولاء لهما ضرباً من العبادة الكاذبة إن لم يكن ضرباً من الصلاة على الموتى. وكما أن الجائعين يتحدثون عن الطعام كثيراً فكذلك تتحدث أجهزة الطغاة في المجتمع المحروم من الحرية والكرامة عنهما بإلحاح وتوكيدات بلاغية تثير الاشمئزاز والسأم.

وتحدث الطغاة، وأجهزتهم عن الكرامة والحرية إلى مجتمعاتهم التي سلبوها إياهما وعاقبوها على أنها كانت يوماً ما تعيشهما، بذاءة تشبه بذاءة من يتحدث إلى أشد الجائعين جوعاً عن مزايا وكثرة الطعام الذي يقدمه لهم حتى أضرت بهم التخمة، أو بذاءة من يتحدث إلى أكثر النساء دمامة وشيخوخة عن جمالها وشبابها، مقدماً إليها المرآة، طالباً إليها بحماس خطابي أن تنظر لتصدق وترضى عن نفسها، أو بذاءة من يتحدث عن ثائر ما، مثنياً على مستوياته الأخلاقية والنفسية الرفيعة النظيفة!

الشعوب التي تعيش الحرية والكرامة لا تحتاج إلى أن تنفق أبهظ النفقات على الأجهزة الدعائية لتدلل على أنها حرة وكريمة ولتفخر على العالم بحريتها وكرامتها، أو لتؤلف الأناشيد الغوغائية في امتداح نفسها على مستوياتها الصاعدة في الحرية والكرامة وعلى حظوظها الوافرة منهما ـ ولا تحتاج كذلك إلى أن تشعر بأن لأي زعيم عليها منة وفضلاً في ذلك، أو أن لأي زعيم أو حاكم الحق أو القدرة على المفاخرة والدعوى بأنه الواهب المحرر، أو أنه يستطيع أن يفعل ذلك. إن مثل هذه المجتمعات لا تتصور بأن من الجائز التحدث عن أنها موجودة أو التفاخر بوجودها، أو بأن من الجائز وجود من يمنون عليها أو يباهون كل العالمين بأنهم هم الذين أوجدوها. والوجود هو أحد أساليب الحرية ومعانيها.

أما الشعوب الذليلة الفاقدة للحرية والكرامة فكم هي محتاجة إلى الصبر الجميل الطويل لكي تستطيع أن تستمع دون أن تموت غيظاً وغضباً وغثياناً إلى ما يقال لها عن فضائل الحرية والمجد والكرامة وعن مزايا المحررين الواهبين، وعن زعمائها الصاغة الذين وهبوا الإنسانية كل صياغاتها الجديدة! صياغاتها المذهبية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية والتاريخية. إنه مفروض

على هذه الشعوب أن تلعق كل أطعمة الهوان والتجويع، ثم مفروض عليها ألا تجد في تذوقها إلا مذاقات الحرية والمجد والرخاء، ولو وجدت غير هذه المذاقات لكان محتوماً عليها أن تقتنع بأنها خائنة ورجعية وعميلة للأعداء، وعلى أن تصر أنها لم تذق سوى الحرية والمجد والكرامة والرخاء. إن حرية وكرامة مثل هذه المجتمعات يجب أن تتحولا إلى ألوان من الموسيقى العسكرية الضاجة ومن السخرية والشتائم الموجهة بكبرياء إلى المجتمع بأسلوب الواهب المنان.

لا أعتقد أنه يوجد في المجتمعات التي يحكمها الثوار والطغاة أعظم صبراً أو بلادة، ولا أحق بالرثاء من حاسة الاستماع فيها، كيف تستطيع أن تتحمل أعصابها وكرامتها وذكاؤها كل هذا الامتنان عليها. إن الطغاة والثوار يجرحون آذان مجتمعاتهم تجريحاً متواصلاً مهيناً أليماً، يحدثونها بوقاحة وغرور وصلف بذيء كل ليلها ونهارها بكل الوسائل والأساليب والفصاحات اللفظية عما وهبوها من حريات وأمجاد لم تكن معروفة قبلهم، وعما ابتكروا لها من فنون الحياة ومستوياتها، وكيف حولوا العالم كله إلى حاسد لها وإلى ناظر إليها بتصاغر وخوف وخنوع، كيف فعلوا لها وفعلوا بها، وكيف جعلوا التاريخ كله يجثو بين يديها كطفل خائف، وكطفل يريد أن يتعلم، وكطفل يبحث عن الحماية والأمومة والأبوة وعن الأستاذ، كيف يسمعونها عن نفسها ما لا تجد أو تستطيع أو تعلم أو تريد.

أما أقوى أعضاء السمع في هذه المجتمعات أو ما أشد بلادتها وما أحقها بالرحمة، كيف لا تخرق أو تجرح أو تؤذي أكبر الإهانات والوقاحات حاسة السمع؟ إذن ما وظيفتها ولماذا هي ؟ وإذا كانت الآذان تحيا بالموسيقى والشعر فكيف لا تموت بالإهانة والوقاحة والبذاءة المقروءة المرتلة من جميع الأجهزة المتوترة؟

عجباً! كيف لا تموت الآذان في عهد الثوار والطغاة؟ إن الأذن هي أشهر جهاز في التاريخ لاستقبال الفحش والتحقير والسباب والادعاء والأكاذيب، إنها أكبر وأشهر وعاء ومصب يلقى إليه كل ما في الحياة والكون والإنسان من تفاهات وضعف وكذب، متحولاً إلى كلمات، إنه ليست للأذن أية وظيفة أخلاقية أو دينية أو إنسانية. ماذا نجد لو أن جميع ما ألقي في أذني إنسان واحد كل حياته من فحش وسوء قد تجمع وتحول إلى وجود مرئي؟ إنه لتصور بشع مخيف. لعل أسوأ أعضاء الإنسان حظاً أذناه، إنهما أسوأ حظاً من عينيه وقدميه ويديه وكل أعضائه، إن الأذنين هما الممر الكريه الذي تمر منه كل التفاهات والوقاحات والآلام إلى الإنسان لتصب فيه بكل وحشية، إن حاسة السمع هي أفظع مستنقع في العالم تتساقط فيه جيف الكلام والأخلاق، ويتزاحم عليه أضعف ما في البشر من خبث وقذارة وغباء، وإن الإنسان لهو أكبر جهاز مرور في الكون ـ إن جميع الأشياء الكونية والإنسانية بل والأشياء التي ليست كونية ولا إنسانية تمر بقسوة وتعذيب من خلال ذاته في صور أفكار وعواطف.

ما أبشع الإنسان لو تحول إلى صور، أي لو تحولت أفكاره ومشاعره المنقولة إليه عن الكون والحياة والأشياء وعن نفسه إلى صور، كيف يستطيع أن يعيش أو يبتسم، كيف لا يتمزق وجميع الأشياء البذيئة الدميمة حتى الذهنية تتساقط فيه، في عقله ومشاعره؟ هل هذه قوة أم ضعف؟ ما أكبر التشويهات التي تصيب وجهه وتعبيراته وحياته وأفكاره مما يتجمع فيه من الصور الكئيبة الأليمة الفاضحة الحزينة العارية! كيف يبقى فيه شيء من الوسامة والابتسام، وكيف لا يتحول وجهه إلى صخور وبراكين ونيران وخناجر ولعنات وبصقات، وإلى كل ما في العالم من آلام وجراح ومظالم وكآبات وحروب وآهات ومخاوف من خلال تصوره وتفكيره وحياته بفظاظة وإلحاح وتكرار وتضخيم وتهويل؟ إن الحياة هي أبشع مشوه للإنسان، ليست الأخاديد والكلاحات المحفورة في الوجه الإنساني إلا طرق الأشياء الحادة مارة من خلال مشاعره وأفكاره وحياته بأنياب وأظفار مفترسة!

لنتصور قوماً من الجياع يقوم بينهم وقح قد أجاعهم ليتحدث بمباهاة وإعلان عما أصابهم به من ترف واتخام وتسمين إلى حد التشويه، ثم يشير إلى بطونهم وأجسادهم المحتجة بهزالها وسغبها وإلى موائدهم المكتظة بالحرمان والأكاذيب وبالأغاني الجميلة المتحدثة عن ضخامة الرخاء، ثم يحرم عليهم أن يلمسوا بطونهم أو ينظروا إلى المرآة ليتحسسوا ضخامة البطون ويروا سمانة الأجسام ويتأكدوا من وقاحة الادعاء، ثم لا يؤذن لهم أن يقولوا لواهبيهم: شكراً جزيلاً، لا نحب أن تتعبوا وتموتوا كشهداء غير مشكورين من أجلنا، فكفوا عنا عطاءكم وأنقذوا أنفسكم من الموت في سبيلنا مع بالغ الاحترام ـ إننا نرثي لكم أعظم الرثاء، فإذا كنتم تحبوننا فأريحونا من تعذبنا رثاء لتعذبكم بحثاً عن إسعادنا. إنكم إذا تركتمونا ربحتم أولاً راحتكم من التعذب والموت من أجلنا، وربحتم ثانياً إنقاذ مشاعرنا من تعذبها من أجلكم، وربحتم ثالثاً أن تكونوا مشكورين جداً لأنكم أعفيتمونا من مننكم الجسام، وربحتم رابعاً أنكم قد خرجتم بنا من بشاعة الكفران والجحود حيث إنكم تهبوننا أفضل الأشياء وأعظمها ثم لا نستطيع أن نعترف لكم بذلك أو نشكركم عليه! ما أرخص الزعامة، إنها تتعذب وتموت فداء لمن يرفضونها ولا يشكرونها، إنها وقاحة.

الحاكم الطاغية يسلب مجتمعه كل حرية وكرامة ورخاء ثم يعبىء كل الأجهزة ووسائل الدعاية في الدولة لإذاعة أمجاد الحرية والرخاء والكرامة والتدليل على شرف ذلك وعلى ما فعل من أجله وعلى أنه لم يقبل أن يشرف الله بتواضعه حينما سمح له أن يكرم نفسه وعبقريته بخلقه له إلا لكي يعلم هذا الكون معاني الحرية والكرامة والرخاء، ولكي يحميها ـ أي يحمي هذه المعاني ـ من الزعماء والمعلمين الكذبة الذين يصلبونها تحت شعارات الدفاع عنها. وكلما اشتط الطاغية في قهر الحريات وأحاسيس الكرامة تحمس في إطلاق الأجهزة الدعائية للتحدث

عن مزاياها وعن إيمانه بها وعما فعله في سبيلها لكي تصبح سلوكاً وأخلاقاً عالمية، وأسرف كذلك في إطلاق الوعود إسرافاً يفسد الكلمة ويجعلها غير مسؤولة أي نوع من أنواع المسؤولية، لا الأخلاقية ولا الفكرية ولا التفسيرية، بل ولا البلاغية واللغوية.

وبقدر ما يكون الحكم مطلقاً وقاهراً يذهب يدعي بحماس ووقاحة أنه ليس إلا حكماً شعبياً ضعيفاً مغلوباً مقهوراً لإرادة الشعب وتدلل الشعب، ويدعي بإلحاح ومبالغة أنه لا يملك ولا يحكم، وأنه لا أمر له حتى ولا في حكمه لنفسه ـ إنه محكوم مغلوب، والحاكم الغالب المالك المطلق القاسي هو الشعب وحده، صاحب الجلالة وصاحب الفضل والأمر والنهي والكبرياء.

وسيقول مع هذا ذلك الطاغية الكريه الذي يقف بكل ذنوبه فوق مثل هذا الحكم: إنه لا يحب ذاته أو حياته أو أولاده أو شيئاً في هذا الكون إلا احتراماً وتمجيداً وطاعة لشعبه، وإنه لم يقبل الحكم بل ولا الحياة إلا لأن الشعب يريد ذلك منه ويكرهه عليه إكراهاً بلا رحمة أو رفق به أو بصحته وضعفه أو برغبته في الترك والخمول. ولعله إذا قتل أو اعتقل قال ـ في تواضع وبكاء ـ : لقد أمرني شعبي العظيم بأن أقتل وأعتقل، لقد أراد شعبي أن أصنع له بذلك الحياة والمجد والحرية والكرامة، وقد فعلت ما أمر ـ وقد يقول: لقد أمرني هذا الشعب الرحيم الواعي الباسل بأن أكون له سيافاً وقد أطعت، ولو طلب مني أن أكون سيافاً ضد نفسي أو ضد أولادي لما وجدت أية رغبة في العصيان. وقد يبالغ جداً في شاعريته أمام إرادة شعبه حتى لمحتمل جداً أن يقول في بعض قصائده التي ينشدها امتداحاً وعبادة لشعبه: باسم الشعب أقتل الشعب، باسم الشعب أعتقل الشعب!

إن جميع القوانين والتشريعات والإجراءات البوليسية والمباحثية التي يتخذها الطاغية ضد شعبه وكرامته وشجاعته وحريته ليست إلا للمحافظة على كرامته وحريته وشجاعته ولإنمائها والتعويد عليها! إنه لا يقتل أو يفقر ـ حينما يصنع الموت والفقر ـ وإنما يصنع الحياة والرخاء في مقاييس ثورية جديدة متفوقة. وإنه لو قتل كل الناس لكان بذلك إنما يهيىء لإنسانية جديدة مقبلة متفوقة في مزاياها الإنسانية سيخلقها هو مكان الناس الذين قتلهم كلهم.

إنه لا يوجد أوقح حباً ومغازلة من الطغاة والثوار، إنهم يفرضون أنفسهم بل يلقون بها فوق المجتمعات وفوق المذاهب والنظم بكل أساليب ووسائل القهر والاغتصاب والارتماء والتهافت، ثم يزعمون بكل فحش وكذب أنهم مغتصبون مكرهون على الحب، وأن شرفهم وعفافهم قد ثلما وأخذا بالإكراه، وأن كل شيء قد تحول إلى قصائد مغازلة ذليلة لهم، وأنهم هم لا يريدون أن يكونوا عشاقاً أو أخداناً أو أزواجاً وإنما قبلوا ذلك رحمة بدموع العاشقين المولهين الساقطين تحت أقدامهم بلا وقار. لقد رحموا الشعوب والمذاهب والنظم والثورات المجنونة بحبهم ومغازلتهم والبحث عنهم فقبلوا ـ بتضحية لا مثيل لسخائها ونبلها وعذابها ـ أن يكونوا

معشوقين مستجيبين للهفات وآهات المجتمعات والثورات والمذاهب والنظم التي افتضحت وفقدت كل وقارها في الحب لهم والبحث عنهم وفي مغازلتهم!

الطغاة يحرمون على الناس جميع تعبيرات الحرية ومستويات الكرامة والكبرياء ثم يكرهونهم على أن يتحدثوا بافتضاح وهوان عن الحرية والكرامة والكبرياء التي يعيشونها، والتي لم يسبق أن جرب البشر لها مثيلاً في كل وجودهم وتجاربهم، والتي سوف تصبح أعظم معلم للتاريخ، إنهم يسلبون الإنسان حريته وكرامته بكل قسوة ثم يحرمون عليه أن يقبل ويرضى ويصمت عما أصابه، بل يوجبون عليه أن ينكر أن ما حدث قد حدث، وأن يثني على كل ما حدث. وحتى الحديث عن الحاجة إلى الحرية والكرامة وعن مزاياهما لا يمكن في تقدير الطاغية أن يكون من حق المجتمع بل من حق الطاغية نفسه ووحده.

إن أي طاغية ليجد لذة مثل لذة الجنس حينما يجد أنه هو وحده الذي يتحدث ويستطيع أن يتحدث عن احتياجات المجتمع وأمانيه دون أن يستطيع المجتمع نفسه ذلك، إن التفرد بالحديث عن أماني الناس واحتياجاتهم متعة يغرق الطاغية في نشوتها وسكرها الأثيم، هو يجد في هذا التدليل والاقتناع على أنه هو وحده القادر الفاعل الحر المالك لكل شيء حتى للكلام والتعبير عن الأماني والهموم والآلام التي تعيشها الجماهير الضارعة المؤمنة.

إن الذين يعدون يشعرون بالسعادة حتى ولو لم يعطوا لأن الوعد نوع من الاستعلاء والكبرياء والقدرة والامتلاك والعدوان على الآخرين، فالذي يقول: أعدك أن أفعل كأنما يقول: أنا أقدر وأفضل منك، وأنا أملك التصرف لك والتصرف ضدك. إن الذي يملك أن يعد يملك أن يوعد ويملك حرية الآخرين، إن الوعد نوع من الوعيد أو يحمل معنى الوعيد، والوعيد في معناه قوة وتفوق، أي إذا كان وعيداً يحمل معنى التنفيذ والوعي للموقف، إن الوعد ألوهية وطغيان وكبرياء. ووضع الواعد هو دائماً وضع المتفوق الأقوى، لهذا يحس إذا وعد أنه يؤكد سلطانه ويعلن عن قدرته. إن الواعد ليشعر بنشوة كلها طفولة كلما راح يلقي بوعوده على الجماهير المصدقة المنتظرة المغلوبة.

إن وعود الأقوياء والزعماء نوع من الإهانات والشتائم يلقون بها على رؤوس الموعودين وعلى كرامتهم وكبريائهم، وإن الموعودين ليسوا إلا أطفالاً أو عبيداً أو ضعفاء مغلوبين يتلقون الحكم عليهم بالطفولة والعبودية والضعف والغلب من مستعبديهم وغالبيهم الواعدين، إن الواعد إنسان يتحدى كرامة الموعود وحريته، وإن الموعود إنسان يتنازل عن كرامته وحريته، وإن الآلهة دائماً واعدة، وإن العبيد دائماً موعودون، والله هو دائماً الوعد الحق، الوعد الأعظم. والناس لم ينكروا أن ينقسموا إلى واعدين وموعودين، كما لم ينكروا في العصور القديمة أن يكونوا سادة وعبيداً، مع أن المعنى واحد في التقسيمين.

إذن الحرية والحديث عنها يجب أن يكونا امتيازاً للحاكم الطاغية القوي. وتحدث الطاغية عن الحرية والكرامة وعن حقوق الإنسان فيهما مستوى بعيد من مستويات التكبر والكذب والبذاءة والاستعباد. فالحاكم الطاغية الذي يمني شعبه بالحرية والكرامة ويعده بهما ويعترف بأن له حقاً فيهما ويفاوضه على هذا الحق يؤكد بذلك أنه طاغية وأن شعبه مستعبد مهين، لا يملك إلا أن يوعد فيفرح ويطيع وينتظر ويهتف ويصلي لإلهه أو لطاغيته.

وفكرة تحرير الشعوب وفكرة الزعماء المحررين فكرتان فيهما كل معاني الهجاء والكذب، فحرية الإنسان لا تجيء من الآلهة أو الزعماء أو القادة أو المعلمين والدعاة، بل هؤلاء ـ مجتمعين متضامنين ـ هم سارقو الحريات ومذلو الإنسان، إن كل تحرير إنما يكون منهم لا بهم. وكل إله وزعيم ومعلم لا يساوي إلا ما يأخذه من حريات الإنسان وكرامته، وكل محرر للحياة الإنسانية إنما يسترد من هؤلاء بعض ما أخذوا. فزعامة الزعيم لا تساوي ذات الزعيم، وتعاليم المعلم لا تساوي ذات المعلم، وألوهية الإله لا تساوي ذات الإله، وإنما تساوي هذه الزعامة والألوهية والتعاليم ما يطرح من حريات الجماهير وكرامتها واستسلامها وصلواتها وهتافها.

إن أي شعب من الشعوب لا يمكن أن يحرره أحد، لأن الحرية حيثما وجدت أو لو وجدت ليست إلا ظروفاً تاريخية وحضارية واجتماعية ومزايا ذاتية وإنسانية، وليست الحرية محاولات أو رغبات خارجية أو داخلية، لا جماعية ولا فردية، ولأن الذي يستطيع أن يحرر يستطيع أن يستعبد، والذي يستطيع أن يستعبد لن يستطيع أن يحرر، لأنه سيختار أن يكون مستعبداً على أن يكون محرراً لو كان يستطيع أن يكون ذلك. وحينما تكون ظروف الحرية موجودة فهل يمكن أن يوجد حينئذٍ من يستطيع أن يستعبد، وحين تكون ظروف العبودية موجودة فهل يمكن أن يوجد من يستطيع أن يحرر؟

إن الذي يستطيع أن يستعبد لن يكون قوياً أو شريراً إلى المدى الذي يجعله يحرر غيره ليفقد هو حريته، أو لن يكون ضعيفاً وطيباً إلى المدى الذي يجعله يفعل ذلك. إن الذي يحررون الآخرين ـ لو كان مثل هذا يحدث ـ هم قوم قد فقدوا حريتهم في حرية أولئك الآخرين. فالحاكم المطلق معناه حاكم حر قد فقدت الجماعة حريتها في حريته، والحاكم الديمقراطي معناه حاكم غير حر قد فقد حريته في حرية الجماعة، والبشر لن يكونوا منحرفين أو ضعفاء أو غير أخلاقيين ليقبلوا ـ مختارين ـ أن يفقدوا حريتهم في حرية الآخرين حينما يستطيعون الاحتفاظ بحريتهم على حساب حرية الآخرين!

إن القتال بين السادة البازغين والسادة القدماء ليس قتالاً بين سارقي الحرية وواهبي الحرية، بل هو قتال أو نضال بين سارقين قدماء وسارقين محدثين، والمحدثون لا يقاتلون القدماء ليطلقوا الحرية من الاستعباد، بل لينقلوا امتلاكها إلى أنفسهم.

وانتصار سيد جديد على سيد قديم لا يعني انتصار حرية على عبودية أو صدق على كذب أو مبدأ على نقيض لمبدأ، وإنما يعني انتصار إنسان قوي جائع متوحش متوتر على إنسان آخر قد شاخ وشبع ووهنت قواه أو وهنت رغبته في الافتراس. وحتماً سيكون السيد الجديد المنتصر أقوى وأجرأ على سحق الحرية والكرامة وأكثر وحشية ورغبة في الإذلال والانتقام والتجبر من السيد القديم الذي لا بد أن يكون التاريخ والتقادم والمعاناة والإلف الطويل والتقاليد قد أصابته بالإعياء أو التبلد أو الكسل أو الخوف أو الاحترام للنفس وللآخرين أو بالاطمئنان على نحو ما إلى المستقبل. وهذا كله قد يصنع حالة من الأخلاقية أو من رهبة الافتراس الذي لا تقاليد له.

وإني لأبصر سحباً من العار والهوان كلما سمعت أصوات وأجهزة زعماء مصابين بأعراض الألوهية، يمنون على الشعوب بأنهم قد وهبوها حريتها وأمجادها التي اقتطعوها لها من أعضاء الشموس، وأنهم سوف يهبونها المزيد من ذلك، إن هذا أولاً غير ممكن، وإنه ثانياً إهانة قد جاءت بأسلوب تفضل ووقاحة قد جاءت في صورة بطولة. وإني بمشاعري الإنسانية أو بضعفي وغروري ومنطقي الإنساني لأحس معتقداً أن العبودية المفروضة التي تشعرني بالمعاناة النفسية والفكرية والأخلاقية وبالغضب والرفض أفضل جداً من الحرية الموهوبة التي تجعلني أرضى وأستقر وأهتف وأصلي بأخلاقي ومنطقي ولساني للواهب العظيم.

إن شر مستعبد هو الواهب، وإن شر الواهبين هم واهبو الحرية والكرامة لو كان ممكناً أن يوجد من يهبهما. إن الشعب المستعبد بالكره والغضب منه الذي يظل يتألم ويحتج ويرفض ويناضل ويفكر للخلاص لأفضل وأعظم من الشعب الذي يمن عليه زعيم منان بالحرية، ويظل يلطم ويهين كبرياءه وأحاسيسه وتفكيره بالتحدث المتكبر عما أعطاه وصنع له، وعما سوف يعطيه ويصنع له، وكيف وجده نملاً فحوله شعباً، وصحراء فحوله حقولاً تفيض بالخصب، ورجعياً فصنعه تقدمياً، وخاملاً فجعله ثورياً يعلم الدنيا كلها الثورات، وكيف وجد التاريخ لا يعرفه فجعل التاريخ لا يعرف الآخرين إلا به، بل جعل التاريخ لا يعرف نفسه إلا به، وجعل معرفة التاريخ له هي أفضل معارف التاريخ.

الشعب الأول يكبر ويتطور بالمحاولة والتفكير والرفض والغضب وبالمقاومة الأخلاقية، أما الشعب الثاني فيتعلم الهوان والعبودية والطفولة والانتظار والرضا، وتتضخم فيه مشاعر العبيد وأفكارهم وأخلاقهم، ويرهق موهبته وإنسانيته تواتر الشعور بالمنة والضعف والاقتناع بأنه مخلوق موهوب، كما يرهق أخلاقه طول الهتاف والصلاة. والأخلاق بل والمشاعر اعتياد وتكرار، بل الأفكار نفسها يصوغها التكرار والتعود. إن التكرار والتعود قانون يصوغ كل الناس والأشياء، وقوة تحكم كل الناس والأشياء، وخديعة قد تضلل كل العقول وتعجزها عن التفكير

والاحتجاج، وإنهما - أي التكرار والتعود - لطعام قد تستسيغ مذاقه كل الأفواه وجميع الجائعين، وإنهما لأقوى من كل منطق، ولعل الفرق بين أفكار قوم وقوم أو إنسان وإنسان وبين مذاهبهم ونظمهم وقبولهم ورفضهم واقتناعهم وشكهم يساوي مقدار الفرق بينهم في التعود المتكرر.

إن أظلم الحكام والزعماء هم الذين يفكرون لشعوبهم ويختارون لها ويعطونها - لو كان ممكناً أن يفعلوا ذلك، كما أن أظلم الآباء وأغباهم هم الذين يجربون الحياة ويمارسون احتمالاتها ويواجهون كل أخطار الحرية ليحموا أبناءهم من كل ذلك. لو أن أي زعيم أو حاكم أو معلم أراد أن ينظر ويسمع بدل شعبه فحرم على شعبه أن يمارس وظيفة عيونه وآذانه خوفاً عليه من خطأ الرؤية والسمع لما كان أكثر جنوناً أو طغياناً أو قتلاً من زعيم أو حاكم يمارس التفكير والحرية بدل مجتمعه.

إنه لو كان للبشر إلهان: إله يفكر ويشعر لهم وعنهم ويتلقى وحده دونهم أعباء الحرية وهمومها ومتاعب المخاطرة وممارسة الإثم والخطأ ليريحهم فلا يتعبون أو يخطئون، وإله يتركهم وحدهم يتلقون عذابهم ويعانون همومهم، ويتعبون ويخطئون ويصيبون ويحملون كل نصيبهم الباهظ من الحرية والألم، ويصارعون الأبالسة بلا أية حماية، لما حدث أي شك في أي الإلهين أكثر براً وذكاءً وإصلاحاً للإنسان.

إن أخطر الأشياء على حياة الإنسان هي الآلهة الطيبة المتفضلة، ولهذا فإنه لو كان للبشر أقوى الآلهة وأفضلها وأكثرها عدداً لوجب عليهم أن يناضلوا ضدها بلا مجاملة لفضائلها كما يناضلون ضد جميع الآلام والأبالسة والأعداء. وقد آمن البشر بالآلهة الكثيرة القوية، ولكنهم مع إيمانهم هذا الذي كان يبدو قوياً جداً، ولو في الحديث عنه ومخاصمة الآخرين عليه، ظلوا يعيشون كل تاريخهم بلا آلهة، أو يعيشون وكأنهم بلا آلهة. وهذا لأنهم لا يستطيعون معايشة الآلهة مهما آمنوا بها لأنها ضد حريتهم وعبقريتهم وحياتهم.

والإنسان لا يعتقد إلا ما يريد أو يستطيع أو يعلم، ولو اعتقد ما ليس كذلك لسار في طريقه - أي في ما يريد ويستطيع ويعلم - تاركاً اعتقاده الذي ليس كذلك وراءه شيئاً ميتاً مهجوراً. ولهذا فمهما اعتقد البشر من عقائد مضادة لهم فلا تأثير لها على سلوكهم أو أفكارهم، فهم يفعلون ما يريدون ويستطيعون وما يلائمهم، لا ما يعتقدون، بل رافضين لما يعتقدون، بل هم لا يعتقدون إلا ما يريدون ويستطيعون ويتلاءمون معه. ولكن العقائد قد تنتقل إليهم انتقالاً كما تنتقل إليهم أسماء آبائهم وبيوتهم وملابسهم بعد موتهم ثم تبقى هذه العقائد بقانون الاستمرار والإملاء التاريخي والاجتماعي وبقوة التلقين دون أن تكون ملائمة أو مرادة أو مستطاعة.

وحينئذٍ لا يمكن أن تكون لهذه العقائد المنتقلة أية قيمة أو تأثير في حياة معتقديها بالانتقال والاستمرار.

*

للشعوب دائماً في كل تاريخها ثلاثة أعداء: قوة التقاليد وقوة العقائد وقوة الحكم، وهؤلاء الأعداء أو الخصوم الثلاثة يؤلفون دائماً معسكراً واحداً متحالفاً يواجه الإنسان ليحطم قوته وذكاءه ومقاومته، ولكي ينتصر ويتفوق عليه، وحياة الإنسان محكوم عليها أن تخوض معارك نضالية دائمة ضد عقائده وآلهته وتقاليده لتضعفها وتكبح من طغيانها أو لتنتصر عليها، ولكنها قد تكون معارك غير منظورة. ومهما بدا الإنسان محترماً جداً لآلهته وتقاليده وحكامه وعقائده ومطيعاً لها جداً فإنه في الحقيقة يخوض ضدها المعارك المختلفة المستويات في عنفها، إن الإنسان أبداً يخوض هذه المعارك مهما جهل ذلك، ومعارك البشر التي يجهلونها أكثر وأدوم من معاركهم التي يعرفونها أو يشعرون بها.

ولولا المعارك المجهولة وغير المنظورة لما قامت المعارك المنظورة المتعمدة، فهذه هي نتيجة تلك، إن احداهما تعد للأخرى إعداداً دائماً قوياً خفياً، فالبشر يحاربون أعداءهم وما لا يلائمهم دون أن يعلموا أو يقصدوا، كما تفعل الطبيعة. وبقدر ما تكون الجماعة ذكية وقوية ومفكرة ناقدة تكون تقاليدها وحكوماتها وآلهتها بل ومذاهبها معروضة للضعف والهوان أو الافتضاح، ولا يمكن أن يقوى الإنسان دون أن يضعف خصومه، أو يقوى خصومه دون أن يضعف هو. والحلفاء الثلاثة هم دائماً خصوم للمجتمعات، يقتاتون بمواهبها وحرياتها وشرفها وبكل ما في وجودها من احتياج، إنهم يتغذون بكل احتمالات الحياة البشرية، إنه لا يوجد أي غذاء للعقائد والأرباب والتقاليد والحكومات غير حياة الإنسان، إن الزعيم السمين جداً ليس إلا وحشاً إنسانياً قد أكل كثيراً جداً من لحوم البشر حتى أصبح زعيماً سميناً قوياً، ولهذا فإن أبشع الزعماء هم الزعماء السمان الأقوياء، كما أن الزعماء هم دائماً أعداء للإنسان على نحو ما ومهما كانوا، أي إذا حكم عليهم مجتمعين متكافلين مسؤولاً بعضهم عن بعض.

وهؤلاء الحلفاء الأعداء الثلاثة متلازمون ومتعاونون في وجودهم ونشاطهم، فلا يمكن أن توجد حكومة قوية إلا حيث توجد عقائد وتقاليد قوية، ولكن نوع هذه العقائد والتقاليد ليس متحدداً، فقد يكون الشيء ونقيضه، وإذا وجدت التقاليد والمعتقدات القوية فمن أضعف الاحتمالات ألا تكون فوقها حكومة قوية ولو بدون قوة حقيقية، وإذا ضعفت إحدى هذه القوى فالمفروض أن يصيب الضعف القوتين الأخريين، إن المجتمع القوي ينتصر على جميع أعدائه، والضعيف ينهزم أمام جميع أعدائه.

وأخطر ما يتحدى المجتمع قوة الحكم فيه، إن قوة الحكم في القديم والحديث وفي التاريخ

كله كارثة إنسانية، فالحكم القوي يتحول بأجهزته الهائلة إلى أداة قمع وإذلال واغتصاب وامتصاص وتحقير وإفقار، وإلى مغامرات ومبارزات وحروب أحياناً، وإلى استعلاء وكبرياء تسرق كل ما في المجتمع من كرامة وحرية ورخاء وشجاعة، وقوة الحكم تعني دائماً ضعف الناس، أي ضعف المحكومين، إن الحكم قوي لأن شيئاً آخر ضعيف، وهذا الشيء الآخر هو الإنسان. وقد أصبح الحكم قوياً لأن الإنسان قد تحول فيه إلى قوة ضد نفسه، وأصبح قوياً أيضاً لأن الإنسان قد ضعف أمامه.

وقوة الحكم أو أجهزة الحكم لا تعني قوة الدولة أو الشعب أو المجتمع، كما أن ضعفه أي ضعف الحاكم أو أجهزة الحكم لا يعني ضعف المجتمع أو الشعب أو الدولة، إن حكاماً كثيرين أقوياء جداً قد يحكمون شعوباً ضعيفة جداً، وإن حكاماً ضعفاء جداً قد يحكمون شعوباً هي فوق القمة في القوة والعلم والغنى.

ولكن هل يحدث أن تكون الدولة والحاكم معاً قويين، أو أن يكونا معاً ضعيفين؟ نعم يحدث أن يكونا قويين معاً أو ضعيفين معاً في مواجهة الأعداء الخارجيين لا في مواجهة أحدهما للآخر، ففي مواجهة أحدهما للآخر لا بد أن يكون أحدهما ضعيفاً إذا كان الآخر قوياً أو قوياً إذا كان الآخر ضعيفاً. أما في مواجهة القوى الخارجية فقد تعني قوة الحكم تعبئة المجتمع وتسخيره وإخراجه في صيغة واحدة وضربة واحدة ليكون وحشاً هائلاً ليصنع انتصارات خارجية عظمى، أو ليحطم غزواً خارجياً رهيباً، كما قد تعني قوة الدولة أو الأمة أو المجتمع الذي يكون الحكم فيه ضعيفاً نضج هذه الدولة أو المجتمع أو الأمة وارتفاع مستوياتها العلمية والصناعية والاجتماعية. وهذا يعني قدرتها على أن تهزم الأعداء المغيرين وأن تكسب انتصارات لامعة. إن كثيراً من الانتصارات قد تصبح شراً على المنتصرين من الهزيمة، وذلك حينما يكون فوق هؤلاء المنتصرين حكم قوي طاغ، لأن هذه الانتصارات سوف تتحول حينئذٍ إلى مزيد من القوة والإغراء لهذا الحكم القوي الطاغي، لكي يزداد اذلالاً للمنتصرين وتمكناً من القبض عليهم بكل أساليب ولغات الوحوش. وقد يكون المجتمع ضعيفاً أمام حكامه، أو الحكام ضعفاء أمام مجتمعاتهم، ثم تكون المجتمعات والحكام معاً ضعفاء أمام الأعداء الخارجيين.

والطبقة أو الطائفة القادرة في أي مجتمع هي نوع من الحكم، فالقوانين والأخلاق والعقائد والتقاليد لا تكون في الغالب إلا تعبيراً عن مصالح هذه الطبقة أو الطائفة وعن عقائدها وتاريخها وتقاليدها وأهوائها، أو خاضعة لها على نحو ما. والأجهزة التنفيذية لن تكون إلا كذلك.

*

هل توجد صيغة هي الأفضل لحياة الإنسان أي هي الأقدر على تطوير حياته وعلى إعطائها

أكثر وأفضل ما يمكن من الاحتياجات واللذة؟ قد يرى قوم أن الطغيان القوي هو الأفضل أي الأقدر على الإعطاء، لأنه الأقدر على الحشد والسوق والتجميع والامتصاص لكل ما في المجتمع من طاقات وذكاء وحياة وتحويلها إلى قوة وإبداع وكبرياء، وأحياناً إلى مغامرات منتصرة. وقد يرى قوم آخرون أن الحرية هي الأفضل والأقدر لأنها تطلق وتترك جميع المواهب تتفتح وتجرب كل احتمالاتها وتتعامل مع نفسها وظروفها في طقس جميل ملائم لا خوف فيه ولا تحديد، والموهبة ليست إلا انطلاقاً. وقد تؤيد أحداث التاريخ الرأيين معاً، فقد يوجد في التاريخ أن بعض المجتمعات قد قفزت وخطت أشواطها الكبرى تحت أبشع حكم طاغ قاهر ساحق لكل الحريات. قد يكون للطغيان المتطور مزية القدرة على التسخير الشامل، وقد يكون البشر قطيعاً يعطي بالاستسلام والطاعة ويحشد بالسوط ويتكاثر بلا حرية أو كرامة. كما قد يوجد أن مجتمعات أخرى قد تطورت وصنعت تقدمها الحضاري والإنساني الهائل تحت ظروف ديمقراطية متسامحة إلى حد الضعف حتى لكأنها تعيش بلا حكومة ولا قوات أمن ولا قانون من تسامحها ومن وفرة حرياتها الفردية.

وقد يرى أن الموهبة والظروف الملائمة هي التي تطور الحياة وتصنع القوة والتقدم، فالمجتمع الذي يملك مثل هذه الموهبة ويعيش في مثل هذه الظروف سيكون مجتمعاً متطوراً وقوياً سواء أكان يعيش في أعلى مستويات الحرية أم في أبشع مستويات الطغيان الخبيث المذل. والمجتمعات التي لا تجد الموهبة ولا الظروف الملائمة لن تكون شيئاً عظيماً مهما كانت أخلاق الحكم أو الفكر الذي يحكمها. ولعل موهبة الإنسان تعطي نفسها، أي تعيش احتمالاتها تحت كل النظم والعهود المتناقضة، تحت الكبت والحرية، وتحت الأمن والخوف.

وقد يصبح الضغط والطغيان بالتكرار والممارسة شيئاً مقبولاً بل شيئاً مألوفاً وطيباً، قد يصبح بالممارسة الطويلة نوعاً من الشهوة أو العبادة أو الصداقة، كالصلاة وغيرها من العبادات التي حولها الالف الطويل إلى شهوة وحب وجمال. إن الإنسان يملك موهبة هائلة، هي قدرته غير المحدودة على التكيف بالأشياء التي يمارسها والتي تفرض عليه، وهذه القدرة أو الموهبة قد تعد فضيلة إنسانية كما قد تعد رذيلة وضعفاً.

ولكن ما هي الحرية التي نتحدث ويتحدث عنها جميع المتحدثين وكأنها شيء يعرفه ويجده جميع الناس، كأنها شيء يمكن أن يشار إليه أو يقبض عليه؟ هل توجد حرية؟ إن الأوضاع المتناقضة في كل العصور والمجتمعات المختلفة تضفي عليها ـ أي على الشيء ونقيضه ـ ألقاب الحرية أو فقد الحرية، إن أي مجتمع قد يرى أن النظام الذي يعيشه هو أسمى احتمالات الحرية، بينما قد يرى المجتمع الآخر المناقض له نفس الرأي والدعوى في نظامه. وكل المجتمعات

المتناقضة ترى هذا الرأي المحابي في نظامها وترى الرأي المضاد المسفه في نظام جيرانها أو في نظام الآخرين المخالف لنظامها، كل الناس يفكرون هكذا كأطفال صغار يتنافسون على الافتخار بآبائهم! إذن أي النظم هو الحر وأي الناس هم الأحرار وأي الزعماء هم الواهبون للحرية؟ مع أن الحرية ليست شيئاً غير تقدير الإنسان وحكمه وأحاسيسه ـ ليست الحرية وجوداً بل رأي وشعور.

هل يوجد مجتمع يعيش كل الحرية أو مجتمع يفقد كل الحرية؟ إن المجتمع الحر جداً، أو الذي نعده حراً جداً، مجتمع فيه قيود هائلة، وإن المجتمع المستعبد جداً مجتمع فيه كثير من الحرية. إذن لا مجتمع بلا حرية ولا مجتمع فيه كل الحرية. وإذا كان كل مجتمع حر فيه عبودية، وكل مجتمع عبودي فيه حرية، أي إذا كان كل مجتمع فيه حرية وفيه عبودية فما هو الحد الفاصل بين المجتمع الحر والمجتمع العبودي؟ إن أي حد نضعه أو نفترضه يصبح من الصعب علينا الاقناع والاقتناع به، إنها لا توجد حدود علمية أو دولية للحرية ولا للعبودية. إذن كيف يمكن معرفة هذه من هذه؟

هل الحرية شيء غير العبودية، وهل العبودية شيء غير الحرية؟ أليست الحرية فقداً للحرية، وفقد الحرية نوعاً من الحرية؟ إذا كان النهر حراً في أن يسير في مجراه فإنه في هذه الحرية ليس حراً في ألا يسير، أي إنه في حالة حريته فاقد لحريته، وفي ممارسته الحرية ممارسة للعبودية، وكذلك إذا كان الإنسان حراً في أن يموت ويمرض وتصيبه الشيخوخة وفي أن يحب فإنه ليس حراً في ألا يكون كذلك. وما الفرق بين حرمانه من الحرية في هذا وحرمانه من الحرية في أن ينكر نفسياً أو عقلياً على الطبيعة أو على الإله أو على المجتمع أو على الحاكم أو على النظام كونه ذا قيمة أو منطق أو أخلاق، لكي يحول هذا الانكار النفسي أو العقلي إلى احتجاج ونقد ومهاجمة وغضب؟ أليس الذي يكون حراً في أن يفكر لنفسه ويعمل لحياته ولحمايتها من الجوع أو الألم أو الموت يكون مستعبداً لظروفه التي تحتم عليه أن يفكر ويعمل لحياته والتزاماتها، ويكون فاقداً لحريته في ألا يفكر ويعمل؟ وما الفرق بين هذا الاستعباد وبين أن تستعبدك اللاهوتية أو الطغيان الذي يمنعك من أن تنكر أو تنقد أو تحتج أو تفكر في غير ما يريد أن يفرض عليك؟

إني حينما أفكر وأريد أكون حراً وغير حر، حراً في أن أريد وأفكر وغير حر في ألا أريد وألا أفكر، وحينما أطيع الطاغية في منعه لي من التفكير والاحتجاج أكون أيضاً حراً وغير حر، حراً في طاعته، أي أجد الحرية في أن أطيعه، ولكني لست حراً في عصيانه إلا إذا قبلت الموت والعذاب. والطاغية نفسه في ممارسته الطغيان، أي في ممارسته لنفسه حر وغير حر. وأنا الآن لست حراً في ألا أمقت الطاغية وأنكره وأراه ذنباً وعاراً تشتم بهما الأرض والسموات

والإنسانية في كل عصورها، إني لا أستطيع أن أحب الطغاة أو أن أشفي مشاعري وأفكاري من التركيز على ذنوبهم ونقائصهم وجرائمهم.

إذن أنا لست حراً في اختيار موقفي النفسي والفكري من الطغاة! إني مستعبد لأفكاري ومشاعري الرافضة لهم المشمئزة منهم. إن الطغاة إذن يستعبدونني بكراهتهم وبرؤيتي الحادة لما فيهم من بشاعات وإذلال، إني أراهم ولا حيلة لي في ألا أراهم!

إن الحرية والعبودية متداخلتان، والحياة لم تصنعها هذه دون هذه، ولا تفسير بل لا معنى لإحداهما دون الأخرى. ولا يوجد من يستطيع أن يقول: أنا حر، إذا أراد أن يكون صادقاً، أو يكون صادقاً، ولا من يقال له: هو غير حر، إذاً أريد الدقة في الصدق والتعبير. إنه توجد مجتمعات متحضرة وفي رخاء كبير وتعيش تحت النظام الذي نسميه ديمقراطية، بينما توجد مجتمعات متخلفة وبائسة وتعيش فيما نسميه استبداداً، كما توجد أيضاً مجتمعات متقدمة جداً وتعيش بلا حرية، ومجتمعات متخلفة وتعيش كذلك بلا حرية. وقد يكون من المجازفة الفكرية أن نزعم أن التقدم هنا والتأخر هناك ناشئان عن الحرية أو عن فقد الحرية. وقد يكون الصواب أن المجتمعات المتقدمة وهي ديمقراطية ستكون حتماً متقدمة حتى ولو كانت غير ديمقراطية، وأن المجتمعات المتأخرة وهي غير ديمقراطية ستبقى أيضاً متأخرة حتى ولو كانت ديمقراطية ـ قد يكون هذا هو الصواب.

والذين ينادون بالحرية ويبحثون عنها لا يفعلون ذلك لأنهم عاشقون للحرية عشقاً سماوياً ولا لأنهم مقتنعون بأنها هي الأفضل والأنفع أو بأنها شرف يجب أن يموتوا فداء له، ولكنهم يفعلون ذلك كما يفعلون كل ما في حياتهم من سلوك وأهواء، يفعلونه كما يفعلون الحقد والحسد والغضب والمشاتمة، وكما يحزنون ويتألمون ويبكون ويغنون ويقولون الشعر بلا أي هدف إنساني أو اجتماعي أو أخلاقي، بل يفعلون ذلك، أي يبحثون عن الحرية وينادون بها كما يبحثون عن العبودية وينادون بها.

وكل الناس على مستويات مختلفة وبأساليب مختلفة يبحثون عن أنواع العبودية أو يمارسونها، إنه لا يوجد من لا يمارس بعض أنواع العبودية وبحث البشر عن العبودية ورغبتهم في ممارستها على نحو ما هما اللذان شادا لهم أمجاد أربابهم وعقائدهم ومعابدهم ومعلميهم وطغاتهم وكثيراً من قوانينهم وتقاليدهم. والذين يتحولون إلى قديسين وأبطال ليموتوا كي يحققوا للبشر الحرية هم يصنعون ذلك بالحافز الذي به يتاجرون وينافسون الآخرين ويبحثون عن الطعام والجنس أو عن الزعامة والشهرة، أو يتعالجون من الضيق والملل، أو يهربون من أنفسهم ومواجهتها، أو يستعبدون الآخرين.

إن الذي يموت ليعطي المجتمع الحرية ليس أفضل حافزاً من الذي يموت ليستعبد المجتمع. إذن

الذين يموتون دفاعاً عن الحرية لا يفعلون ذلك لأنهم يؤمنون بالحرية أو يعشقون مزاياها وأخلاقها الإنسانية، ولكنهم قوم يعرضون أنفسهم أو يعبرون عنها أو يعالجونها من همومها وخمولها وضياعها، أو يلعنونها أو يقاتلون الآخرين. إن بعض من يموتون دفاعاً عن الحرية إنما يقصدون أن يلعنوا أنفسهم، كما أن بعضهم يقصدون بذلك أن يلعنوا الآخرين الذين يريدون أن يعطوهم الحرية أو الذين يريدون أن يأخذوا منهم الحرية. إن الناس يتحركون بحوافز الأنانية أو الوحشية أو الاعتداء تحت شعارات الحب والمثالية والجمال.

وقد نطالب بالحرية لأننا نستفيد منها أي من وجودها أو من مجرد المطالبة بها، ولا نطالب بها لأننا نريدها للآخرين أو لأنها كائن جميل نعشق جماله، ولا لأننا أحرار، ولا لأننا مؤمنون بمزاياها. إن كثيراً من العاملين في معسكرات الهتاف للحرية، في عداوة الناس ومشاتمهم من أجلها هم أقل الناس فهماً لها وإيماناً بمزاياها، بل هم أكثر الناس عداوة لها وخوفاً منها وتناقضاً معها وجهلاً بها. كم هم الكتاب والدعاة والزعماء الذين يقتلون أعصاب الكون ويصمون مسامع من فيه دعوة إلى الحرية ولعناً لأعدائها، بينما هم أشد خروجاً عليها من جميع أعدائها، لم تكن الدعوة إلى الحرية في جميع الأوقات والظروف تعني الرغبة في احترامها أو الالتزام بها سلوكياً. قد تكون الدعاية للحرية عملاً من الأعمال أو حرفة من الحرف كالحدادة والنجارة وبيع البشر واسترقاقهم، كما كان التاريخ القديم يصنع.

وقد تكون الدعوة إلى الحرية مناورة يراد بها الهرب منها أو مقاومتها أو بغضاؤها، وقد تكون الدعوة لها كراهة لقوم وتحدياً لهم أو سباقاً على الخداع.

*

ومهما كانت قيمة الحرية وحوافزها والعجز عن تحديدها ومعرفتها فإننا نريدها على كل احتمالاتها ومستوياتها، نريدها لنا ونريدها لكل الناس. ومن الممكن أننا لا نريدها في الحقيقة وإنما نريد الدعوة إليها فقط لأننا نستريح بذلك ونعرض أنفسنا، أو لأننا نعاقب قوماً بالدعوة إليها ونتحداهم، أو لأننا لا نستفيد من تحريمها، أو لأننا غاضبون من المحرمين المالكين لها، كارهون لهم، فدعوتنا إلى الحرية إنما هي انتقام منهم وتشنيع عليهم ودعاية ضدهم ـ من الممكن أن الأمر كذلك، كما أن من الممكن أيضاً أننا صادقون في دعوتنا إلى الحرية ولكن حوافزنا أنانية، هي أننا نريدها لأنها تلائمنا لا لأنها حاجة إنسانية أو حاجة حضارية. وهل أفضح نفسي أو أفضح البشر جميعاً لو قلت إن تفسير حوافزي في دفاعي عن الحرية أو مطالبتي بها بأحد هذه الاحتمالات هو التفسير الذي أرجحه كثيراً؟ لهذا فإني أتمنى الموت للطغيان في كل مكان مهما قيل عن منافعه وقدرته على حشد المجتمع ليصنع القوة والابداع والرخاء والانتصارات العظمى.

إني أتمنى للطغيان الموت لأنه في كل تعبيراته وتاريخه تحقير مهين لذكاء البشر وكرامتهم ورجولتهم، ولأنه اعتصار لرخائهم وحياتهم، ولأنه أيضاً كبرياء وجنون، ولأنه ضجيج ووقاحة وأكاذيب، ولأنه مغامرات وتآمر وحروب أو حديث عن الحروب أو شهوة من شهواتها أو معنى من معانيها أو ظرف من ظروفها أو قصيدة في مغازلتها.

أتمنى للطغيان الموت لكل هذه الأسباب، ولأنه أيضاً يحرمني من أعظم شهواتي واحتياجاتي، يحرمني من أن أحول همومي وآلامي الخاصة واحتجاجاتي على نفسي وعلى ظروفي إلى نقد وصراخ وبكاء وعرض لذاتي، إن الطاغية يحتكر وحده كل عمليات العرض لذاته ويحرمنا جميعاً من هذه المتعة العدوانية الممتازة، وهذا من أبشع ما تعاقب وتعذب به المجتمعات. وإن الطاغية الذي يحرم على جميع الناس أن يعرضوا ذواتهم في تفكير أو نقد أو رفض أو عصيان أو في أي تعبير من تعبيرات الحرية لهو أشد خطيئة وعدواناً على الناس من المجنون العجيب الذي يحرم عليهم ممارسة العلاقات الجنسية، أو الذي يحرم على أية امرأة أن تقف أمام المرآة أو أن تعرض نفسها أمام المجتمع أو أمام نفسها أو أمام صديقاتها أو أمام من تتمنى أن يكون فتاها المنتظر. إن الناس جميعاً في جميع ما يفعلون ويريدون ويفكرون ليسوا إلا متغذين بالناس وبالأشياء أو باصقين لأنفسهم أو عارضين لذواتهم، وفي عهد الطاغية يراد أن يكون الطاغية هو وحده المتغذي العارض الباصق!

أتمنى الموت للطغيان لأني لا أطيق أن أرى الناس يصغرون ويصغرون حتى أراهم أصغر وألصق بالأرض من النمال، كما لا أطيق أن أرى رجلاً واحداً يكبر ويكبر حتى يملأ كل الفضاء ويتنفس كل الهواء ويرى وحده كل الأشياء ويملك وحده كل التفكير وكل الذكاء والحب والبغض والرضا والسخط والصداقة والعداوة والمذاهب والعقائد والحق والباطل والحرب والسلام والتآمر، وحتى يصبح وحده هو كل الماضي والحاضر والمستقبل وكل شيء.

أتمنى للطغيان الموت لأني أرفض أن يتحول كل المجتمع إلى صلوات وقصائد وأناشيد وهتافات بلهاء تكررها كل الأجهزة والحناجر، مادحة لتفاهة ولغباوة ولأكذوبة ولمعصية ولبذاءة ولجنون باهظ، أي مادحة لرجل واحد هو كل هذا.

إننا نريد الحرية دون أن نبحث لها عن ثمن أو نعرف لها ثمناً، نريدها كما نريد أن نسمع الموسيقى والشعر والفكر الجيد، وكما نريد أن نشم الرياحين ونراها ونرى البحر والأفق والشمس والقمر والسحاب والجمال الإنساني دون أن يتحول شيء من هذه الرؤية والشم والسماع إلى خبز ـ بل نريد الحرية بلا ثمن كما نريد السرور والمحبة والصداقة وجمال السلوك والشخصية، وكما نريد أنفسنا وأبناءنا. إننا نريد الحرية لذاتها حتى ولو لم يكن لها أي ثمن كما نريد الحياة. إن الحياة هي ثمن الحياة، وكذا الحرية هي ثمن الحرية. والأشياء العظيمة لا

تكون من أجل أي شيء بل هي من أجل نفسها فقط، إن الثمن هو دائماً أقل من المثمن في تقدير المشتري أو في حاجته وظروفه. والحياة والحرية هما اللتان تثمنان كل الأشياء وليس في الأشياء ما يمكن أن يتحول إلى ثمن لهما، إن كل الأثمان أقل منهما.

الإنسان لا يمكن أن يكون ثمناً لشيء بل كل الأشياء هي ثمن له، وهو ثمن نفسه، وهكذا الحرية أيضاً، إنها ليست ثمناً لشيء ولكنها هي الشيء والثمن معاً، أما الطغاة فإننا نكرههم ونرفضهم حتى ولو لم يكن لرفضهم وكراهتهم أي ثمن، إن أجمل ثمن للطاغية هو رفضه وكراهته. إننا نكره البشاعة والأوحال والوقاحة والمناظر الكئيبة والروائح الكريهة والأحزان والموت والألم والفحش كرهاً ذاتياً أي لذاته دون أن نبحث عن ثمن لهذه الكراهة، وهكذا نكره الطغاة ونرفضهم كرهاً ورفضاً ذاتيين، كما نكره العار والدمامة والنذالة والسقوط. ليست كل كراهة تبحث عن ثمن، هناك كراهات تعبر عن مستوى الإنسان الأخلاقي والعقلي لا عن الثمن، وكراهة الطغاة تعبير عن المستوى الإنساني، عن مستوى الكرامة والرفض الإنسانيين وليست تعبيراً عن مصلحة من المصالح المتغيرة. إن الناس يلعنون الأشياء الذميمة والدميمة حتى ولو كانت معطية لهم، وهكذا نلعن الطغيان حتى ولو كان معطياً، فكيف والطغيان لا يكون إلا آخذاً ومخرباً ومفقراً إفقاراً شاملاً؟

وحتماً لا يمكن أن نعرف مع هذا بالاقتناع ما هي حدود الحرية أو حدود الطغيان، ولا ما الفاصل بينهما الذي يجعل أية حركة أو انتقال من هذا الجانب إلى الجانب الآخر انتقالاً من الشيء إلى نقيضه. إن كل من يتحدثون عن الحرية ويخاصمون الآخرين عليها لا يعرفون مقاساتها، كما أن كل من يتحدثون عن الطغيان ويلعنونه لا يعرفون أيضاً مقاساته.

ولكن هذا ليس مشكلة أو ليس أكبر مشكلة أو المشكلة الوحيدة، إن جميع الناس والمجتمعات تتعامل على أشياء وتناضل لأشياء وتخاصم وتسالم عليها هي لا تعرف حدودها ولا متى تكون داخل حدودها أو خارج حدودها. ولو كان التعامل لا يكون إلا على ما عرفت حدوده بالاقتناع، وأيضاً لا يكون الحديث عنه ما لم يكن كذلك ـ نعم لو كان الأمر كذلك لامتنع الحديث عن كل شيء وامتنع التعامل على شيء والنضال من أجل شيء.

إذن ليس ضلالاً أو عجيباً أن ننادي بالحرية ونناضل في سبيلها ونصر على أن نعيشها وإن كنا لا نعرف ما هي ولا ما حدودها، وأن نلعن الطغيان ونرفضه ونتمنى له الهلاك ونستشعر العار والفقر والسقوط والجبن والموت والخيانة حينما نتحدث عنه وإن كنا لا نعرفه ولا نعرف حدوده! إن المعرفة ليست شرطاً في شيء!

*

لست حراً لأنك تحيا

«إن الطبيعة ـ أي الكون. هي أشد معارضة ورفضاً لحريتنا من جميع الطغاة والمعلمين والتقاليد. إن هؤلاء يقاومون حريتنا تحت ضغط الطبيعة، ونحن تحت ضغط الطبيعة أيضاً نخضع لهم ونفقد حريتنا. فالطبيعة هي المذنب الأول والأكبر، وهي الصانعة لذنوب جميع المذنبين. ولكن من يصنع ذنوبها هي؟ وما هي الذنوب؟ أليست لغة ومقاييس إنسانية؟

إن حريتنا هي التعبير الأقوى عن فقدان الحياة في أعلى مستوياتها لكل حرية تحت ضربات الطبيعة وتحدياتها وتناقضاتها غير الحرة، وتحت ضرورات الحياة نفسها وتناقضاتها الداخلية. فالحرية وفقدان الحرية كلاهما فقدان للحرية، أو كلاهما حرية تعني فقدان الحرية، أو حرية في التعبير، فقدان للحرية في التفسير».

*

الحرية هي القدرة، فأنا حر في أن أكتب حينما أكون قادراً على الكتابة، والقارىء حر في أن يسمع حينما يكون قادراً علي السماع، ولسنا أحراراً في أن نسمع أو نكتب إذا لم نستطع ذلك مهما كان جائزاً أو واجباً في القانون أو الأخلاق أو التعاليم، وتشريع المنع أو الإباحة والإلزام لم يكن إلا بحثاً عن القدرة أو تعبيراً عنها مهما كان الخطأ أو الاستغلال والاستغفال في ذلك.

ليست الحرية معنى من معاني القدرة ولا شرطاً من شروطها أو تفسيراً لها، بل هما شيء واحد، القدرة والحرية شيء واحد. والتاريخ للحرية والبحث عنها لا يعنيان إلا التاريخ للقدرة والبحث عنها، فالرجل الذي فقد حريته في السجن أو الموت أو المرض أو لأنه يخاف ويرجو ليس إلا إنساناً قد فقد قدرته على نحو ما، أي فقد قدرته بمقدار مساو لما فقد من حريته. والشعب الذي فقد حريته تحت حكم طاغية أو تحت غزو أجنبي هو شعب قد فقد قدرته،

والشعب الحر ـ ولو في التصور ـ هو شعب قادر قدرة مساوية لحريته، والحاكم الحر في استبداده هو حاكم يملك من القدرة أكثر مما يملك المجتمع الذي فقد حريته لأنه فقد قدرته، لأن الطاغية الذي يحكمه يملك حريته أي قدرته على أن يسلب مجتمعه حريته أي قدرته.

نحن الآن، أي في هذه اللحظة لسنا أحراراً في السفر إلى القمر أو المريخ ولا في أن نقضي على جميع الأمراض والجهل والمظالم والآلام والنقائص، لأننا غير قادرين أي في هذه اللحظة على أي معنى من معاني القدرة، ولكننا ـ أي في هذه اللحظة ـ أحرار في أن نحاول ونؤمل لأننا قادرون على المحاولة والتأميل.

وإذا حرم مجتمع على نفسه بعض أنواع الحرية كان معنى هذا التحريم أنه فاقد بعض أنواع القدرة، فالذين يحرمون حرية المرأة أو حرية التفكير والتخطي لبعض التقاليد والعقائد والأوضاع والقبور التاريخية هم قوم عاجزون عن إيجاد ظروف تلك الحرية ولو ظروفها النفسية أو الفكرية، أو عاجزون عن مواجهة تلك الظروف أو مواجهة تلك الحرية، أو عن التكافؤ معها، وإذا أوجدوا حالة الحرية فقد أوجدوا الحرية نفسها. ولا توجد حرية بدون وجود حالتها، ولا توجد حالتها بدون وجودها. وفقدان الحرية حالة وجودية وليس حالة فكرية فقط، والفكر نفسه ليس إلا تعبيراً عن حالة وجودية حتى في وضعه الخالق أو المهيىء.

والناس لا يصرون على الإيمان احتراماً لإيمانهم بل عجزاً عن الانتقال أو تهيباً، ففقد حرية التفكير في ذنوب الآلهة والعقائد والمذاهب وحرية التخطي لها هو حالة من حالات العجز، والعجز قد يكون رهبة أو خمولاً أو كسلاً. إن رفض الحرية نوع من الرفض للحركة والانتقال، والرفض للحركة والانتقال عجز، أو عجز عن دفع ثمن الحركة والانتقال، أو رهبة، والرهبة عجز. إن المؤمن لا يؤمن لأنه يحب أو يحترم الأرباب والمعتقدات، أو لأنه يقدرها أو يعرفها أو يعرف مزاياها الإنسانية أو الأخلاقية أو الكونية، بل يؤمن لأنه لا يستطيع ـ ولو نفسياً أو فكرياً ـ أن ينكر ويقاوم ويصنع لنفسه أرباباً وعقائد أخرى، ولهذا فإن العاجز مثل هذا العجز بهذا المعنى من العجز وبأسبابه لا بد أن يؤمن بأي رب وبأية عقيدة تلقيان عليه، أو يجدهما في قبور آبائه وفي ملابسهم البالية، غير مشترط فيهما ـ أي في الرب والعقيدة ـ أية شروط من أي نوع وعلى أي مستوى. وإذا تخطى الإنسان العجز عن اختيار الأرباب والعقائد وعن إبداعها فلن يهاب تحطيم أي إله وأية عقيدة مهما علم فضائلها وخلودها، ومهما ورثها عن أمجاد التاريخ وأمجاد الآباء المحترمين أو المخيفين.

وإذا كانت توجد دائماً حاجة إلى الخطأ فهذه الحاجة لن تكون غير العجز عن إيجاد الصواب والتحمل لتكاليفه ولما فيه من قسوة ورهبة ودمامة أحياناً أو دائماً. إن كثيراً من الناس يعجزون عن النظر إلى وحشية الحقيقة ودمامتها فيهربون منها ويلعنونها، إنهم قوم عاجزون عن

رؤية الدمامة المتبرجة بتحد في وجه الحقيقة في أكثر الأوقات أو في كل الأوقات. إن الرؤية ـ مجرد الرؤية ـ تحتاج إلى مستوى من القدرة والشجاعة، وليس كل الناس يستطيعون أن يروا كل منظر أليم أو كريه على مستوى واحد من الجرأة والقدرة.

والإنسان مثل كل وحدات الكون يعمل بالقدرة لا بأي شيء آخر، والفرق أن وحدات الكون تعمل بالقدرة وحدها دون إرادة أو تفكير. ولكن إذا كانت قدرة الإنسان تعمل تحت إشراف إرادته وتفكيره وضغطهما أو بمشاهدتهما وحضورهما فإن هذه الإرادة والتفكير خاضعان للقدرة ومتعاملان معها تعامل التابعين المخلوقين الأذلاء.

وقد سميت قدرة الوجود ـ غير الإنسان ـ حركة ولم تسم حرية، أما قدرة الإنسان فقد سميت ـ سماها هو ـ حرية ولم يسمها حركة، وكأنه أراد أن يرتفع بها على قدرة الجمادات والكائنات الأخرى ويميزها كما يميز نفسه بذلك على كل وجود آخر. إن أعماله تسمى حرية، أي في لغته هو، أما أعمال الطبيعة كلها فتسمى حركة.

إذن لقد كان الإنسان محابياً لنفسه، أو لعله فعل ذلك لأنه لم يدرك حينما وضع لغاته أن الحرية ليست شيئاً غير القدرة، ولعله ظن الحرية شيئاً سامياً جداً، شيئاً فوق القوانين والضرورات المادية، لعله ظنها شيئاً مقدساً يخضع لنفسه أو لمعان مقدسة أو لقوة مقدسة ولا يخضع لما تخضع له الطبيعة، ولهذا فإنه يطالب بالحرية حيث لا توجد القدرة ويطلب إلى غير القادرين أن يكونوا أحراراً، يطلب إليهم أن يكونوا أحراراً وكأنهم لا يخضعون لقوانين القدرة والعجز ولقوانين الألم والخوف أو لقوانين الحياة والوجود، وإنه كذلك ليطالب بالحرية أكثر مما يطالب بالقدرة أو دون أن يطالب بالقدرة من يطالبهم بالحرية. وبلوغ الإنسان الطور الذي يستطيع به أن يفسر نفسه يعني بلوغه طوراً عظيماً في أشواط التقدم الطويلة. إن البشر يعجزون أو يخافون من تفسير أنفسهم أكثر مما يخافون أو يعجزون عن تفسير الكون أو الطبيعة، إنهم على هذا أجرأ وأقدر.

الإنسان قدرة تستطيع أو لا تستطيع، هذه هي حدوده وتعريفاته. وكل ما فيه من غيب وأسرار وقداسة لا يعني شيئاً غير هذا، غير كونه يستطيع أو لا يستطيع. وإذا أردنا البحث عن حريته كان علينا أن نبحث عن وضعه هذا، أي عن وضعه مستطيعاً وغير مستطيع، وكذا إذا أردنا البحث عن كرامته وشجاعته ونزاهته وكل احتمالاته السلوكية والنفسية والفكرية.

لقد حاول المفكرون والباحثون في جميع العصور أن يضعوا تعريفات للحرية وأن يعرفوا ما هي وما حدودها ومتى تكون موجودة أو غير موجودة وهل الإنسان حر، وكيف يكون حراً ونحن نجده غير حر، ونحن نجده خاضعاً لأقسى وأكثر القيود والضرورات، القيود والضرورات الذاتية والكونية ـ وكيف لا يكون حراً ونحن نجده حراً، نجده يقبل ويرفض ويستقيم وينحرف

ويكون شيئاً عظيماً وشيئاً تافهاً، ويسالم ويصادق ويتهذب إذا شاء، ثم يحارب ويعادي ويكون سفيهاً إذا شاء، بل نجده يفعل الطبيعة وينتصر ويتفوق عليها ويخضعها لإرادته، لذكائه أو لحماقاته، نجده يفعل كل ذلك دون أية قيود منظورة أو غير منظورة؟

إن القائلين بحرية الإنسان إزاء الطبيعة وإزاء نفسه يجدون الأدلة الكثيرة والقوية على أنه حر، إن المنكرين لحريته يجدون الأدلة الكثيرة القوية أيضاً على أنه ليس حراً. إننا حينما نتعمق في التفكير أو النظر إلى الطبيعة المفروضة على الإنسان والموضوعة في طريقه ـ طبيعة ذاته وطبيعة عالمه وظروفه، نجد حينئذٍ أن القول بحريته ليس إلا شيئاً من العزاء والرثاء له، ونجد أن حريته ليست إلا حرية لغوية، كحرية النهر في فيضانه وفي مجيئه من المكان البعيد، مع الفروق الهائلة والأليمة بين حرية الإنسان وحرية النهر، فالإنسان يفعل عبوديته أو يفقد حريته بمعاناة نفسية وفكرية وبوعي أو شعور بالتناقضات التي تسحقه، وليس كذلك النهر. إننا حينما سنعطف على الإنسان بدل أن نلعنه حينما نتصور كل الضرورات والضغوط المختلفة التي ترفض بكل قسوة ووحشية أن يكون حراً أو نزيهاً أو صادقاً أو شجاعاً أو عفيفاً أو ذكياً أو رافضاً لعبادة الأصنام والتفاهات وللتغذي بالأوحال وبكل أصناف الخوف والضعف والسقوط؟

إنني حر في أن أكون حزيناً وفي أن أرفض الحزن وفي أن أطيع أحاسيس الجنس وأوامره وفي أن أعصيها، وفي أن أرفض جنون الطاغية وفي أن أسجد له مع الساجدين بلا مقاومة. إذن لماذا أحزن وأطيع الجنس وأعاني منه ولماذا أسجد للطاغية؟ هل لأني شرير أم لأني ضعيف وغير قادر على العصيان ولو في مشاعري وتفكيري؟ وهل الفرق بين من يفعل هذا ومن يفعل النقيض فرق في الأخلاق والحرية أم فرق في القدرة؟ إني وأنا أكتب هذا الكلام أبدو وكأني حر في أن أكتبه وفي ألا أكتبه، ولكني أصر على أن أكتبه أو أختار كتابته. فإذا كنت حراً في أن أكتب وفي ألا أكتب كل الأوقات حرية متساوية وكانت الحرية شيئاً غير القدرة أو فوق القدرة، فلماذا أختار هذا الاتجاه في وقت، وأختار الاتجاه المناقض له في وقت آخر؟ إن كان لهذا الاختيار أسباب انتقل السؤال والاشكال إلى هذه الأسباب وكيف تحدث وهل تحدث حرة أم غير حرة، وإن لم يكن للاختيار أسباب فكيف حدث ويحدث هذا دون نقيضه؟ إذن لا يمكن أن أكون حراً إلا كحرية من يموت في أن يموت حينما يموت.

هل للحرية حدود، ومن يضع هذه الحدود، وكيف يمكن الاتفاق عليها؟ إنه لا يمكن القول بأنها من غير حدود إذ لا شيء بدون حدود، أما القول بأنها بحدود فهذه مشكلة، إذ كيف يمكن معرفة هذه الحدود أو الاتفاق عليها. وإذا كان مستحيلاً افتراض الحرية بلا حدود فإن هذا الافتراض يصنع مشكلة، إذ لو وجد ما ليس محدوداً لكان مستحيلاً وجود شيء آخر سواه، لأنه لو وجد سواه لما كان هو حراً حرية مطلقة، فالحرية المطلقة هي الحرية في الزمان والمكان

والقدرة والفكرة، وهذا هو معنى كون الحرية بلا حدود. إنه لو وجد شيء حر بلا حدود لكان معنى هذا أن يملأ الزمان والمكان والخيال والفكرة والقدرة، ولكان معنى هذا استحالة وجود شيء آخر.

لقد كانت الحرية في تقدير الباحثين فيها وعنها معنى زائداً على وجود الذات وقدراتها وظروفها، كانت في تقديرهم شيئاً نقبله ونرفضه بالإرادة والاختيار والفضيلة والفهم، غير محكومين بضغوط الطبيعة أو بأحكامها، ولم يقدروا أنها هي نفس الذات بكل صفاتها وظروفها وقدراتها.

إن الباحثين لم يختلفوا مثل هذا الاختلاف في النسب الموجودة بين قوى الكون المادي وحدوده، وفي الفروق بين قدرة مادية وقدرة مادية أخرى، ولم يختلفوا كذلك في معنى حرية الشمس والقمر، ومتى يكونان حرين أو غير حرين، إنهم لم يختلفوا في أن الأرض ليست حرة في أن تفارق الشمس وتتخلص من التبعية لها، وفي أن الشمس أيضاً ليست حرة في أن ترفض تبعية الأرض لها وأن تقضي عليها بالنفي والطرد، إن الأرض تابعة بالإكراه وإن الشمس متبوعة بالإكراه كذلك، ولا يمكن أن يوجد أي تشريع نبيل حر يعطي الشمس أو الأرض الحرية في أن تتخلص إحداهما من الأخرى. إن التابع والمتبوع هنا كلاهما فاقد حريته، إنهما متساويان في مقدار عجزهما عن الحرية وعن رفض الآخر.

إنهم لم يختلفوا في تحديد القدرات، فالقدرة تكون موجودة أو غير موجودة، والشيء يكون قادراً أو غير قادر فقط، وهي - أي القدرة - إما أن تكون ضعيفة أو تكون قوية. ولم يختلفوا في تفسير ذلك لأنهم لا يختلفون هل يستطيع هذا الضعيف البصر أن يقرأ الحروف التي أمامه أو لا يستطيع، وهل يستطيع هذا المقعد أو المشلول أو المريض أو الطفل أن يمشي أو لا يستطيع، مثل اختلافهم في معاني الحرية وحدودها. أما الحرية فقد اختلفوا فيها وعليها ولم يكن ممكناً أن يتفقوا لأنهم لا يعرفونها بأنها هي القدرة، ولو أنهم عرفوها كذلك لما اختلفوا فيها هذا الاختلاف.

ومهما وضع البشر للحرية من تعريفات وحدود، ومهما اختلفوا في هذه الحدود والتعريفات فإنهم يعيشون الحرية بالممارسة لا بالنظرية ولا بالقانون، إن الحرية حالة وليست تعريفات أو حدوداً، أي إنها قدرة لا رغبة، والقدرة تصبح التزاماً لا خيار فيه، فالقدرة إذن تعني فقد الحرية، إذ القادر ليس حراً في أن يكون غير قادر كما أن الأذن القادرة على السمع ليست حرة في أن تكون غير قادرة على السمع.

كان إنسان الغابة حراً أكثر من حرية إنسان العصر الحديث في علاقاته بالآخرين وبالمجتمع لأن قدرته كانت أوسع، فلقد كانت وطأة المجتمع القديم وتقاليده الاجتماعية والأخلاقية

وعمليات الضبط فيه وظروف حياته وتكاليفها والتزاماتها أضعف كثيراً من وطأة المجتمع الحديث وتقاليده وهمومه الاجتماعية والنفسية وأساليب الضبط فيه لأفراده وجماعاته، فكان الإنسان القديم أوسع حرية لأنه كان أكثر قدرة. ولكن ذلك الإنسان القديم كان مع ذلك أقل حرية لأنه كان أقل قدرة في مواجهته للطبيعة وتعامله معها. أما إنسان العصر الحديث فهو نقيض الإنسان القديم في قدرته وفي عجزه، فالإنسان القديم كان أكثر حرية من الإنسان الحديث إزاء الآخرين والمجتمع لأنه كان أكثر قدرة، أما الإنسان الحديث فإنه أكثر حرية من الإنسان القديم إزاء الكون والطبيعة لأنه أكثر قدرة إزاءهما، وكل منهما أضعف من الآخر فيما الآخر أقوى فيه.

ومع هذا فقد يكون في هذا الموضوع شيء من الخلاف، قد يقال على نحو ما: إن الإنسان القديم كان أكثر خضوعاً لإلزام المجتمع ولتقاليده وغباواته وأربابه وأوهامه، وكان أقل قدرة على تحديها أو فهمها أو الخروج عليها، قد يقال هذا، ومهما كانت الحقيقة فالقضية المطروحة لا تختلف وهي أن الحرية هي القدرة.

إن الحرية إزاء المجتمع ليست متكافئة دائماً مع الحرية إزاء الكون، فقد نتقدم جداً في السيطرة على الطبيعة ثم نخضع لأقسى القيود والالتزامات الاجتماعية بل والنفسية والفكرية، فالمجتمع هو الذي يلد ويصوغ قيوده وهمومه الاجتماعية، وقد يلد المجتمع قيوداً وهموماً صعبة وقوية ومحكومة بأعنف المذاهب والنظم. وقد يكون التطور العلمي والحضاري طريقاً إلى إرهاق الإنسان بالالتزامات العنيفة التي قد تكون إحدى نتائج هذا التطور في معرفة الكون والانتصار عليه.

والحياة القوية هي دائماً التزام قوي، واتساع الذات يعني اتساع المشاكل والهموم وازدياد احتمالات التصادم بالكون والأشياء وبالذوات الأخرى. والجسم الكبير يحتاج إلى فراغ أكبر ويحمل من حتمية التصادم أكثر مما يحمل الجسم الصغير، وإبداع الإنسان يتحول إلى تبعة ترهقه، وقد يتحول إلى قيود ومتاعب ثقيلة. وقد يكون معنى هذا أن مستقبل الحرية في العالم ليس مستقبلاً سعيداً، فالمجتمعات جميعاً تتطور وتتعاظم في جميع مستوياتها، وهذا يعني أن تتعاظم التعقيدات والتبعات والمشاكل تعاظماً مساوياً لتعاظم المجتمع ولنموه الحضاري، وحينئذٍ لا بد أن تشتد الحاجة إلى التنظيم والضبط والهيمنة. إن الحياة القوية تحتاج إلى تنظيم قوي، وهذا يحتاج إلى جهاز مماثل ليشرف على هذا التنظيم ويهيمن عليه بقدرة كافية، ويوفق بين الاتجاهات المختلفة المتناقضة ويعصم من التصادم المحتوم في مثل هذه الحياة الكبيرة، ويجعل حركة المرور شيئاً ممكناً وغير باهظ التكاليف.

ولكن هل يمكن هذا دون الاعتداء على الحريات والأخذ منها والضغط عليها؟ إنك في الصحراء قد تكون أكثر حرية منك وأنت في القرية، وإنك في القرية قد تكون أكثر حرية منك وأنت في المدينة، وإنك في المدينة المتخلفة قد تكون أكثر منك حرية وأنت في المدينة الحديثة النظيفة المتخمة بالناس والسيارات ووسائل المواصلات المرهقة المحكومة بالنظام والرقابة الدقيقة وبالقوانين المنفذة الصارمة. إذن قد يكون المعنى أنه بقدر ما يسيطر الإنسان على الطبيعة يفقد أو تضعف حرياته الاجتماعية، أي حرياته في التعامل مع نفسه، وأن المستقبل يعني شيئين: ازدياد حريات البشر في تعاملهم مع الطبيعة وتناقص حرياتهم في تعاملهم مع أنفسهم. ولكن قد يكون في القضية شيء آخر غير هذا الافتراض، فالشيء الذي يعطي نتيجة ما أو يفترض فيه أن يعطي نتيجة ما، قد يعطي نتيجة مضادة، إن النتيجة ونقيضها قد يصدر عن سبب أو عامل واحد، أليس الخالق الواحد يخلق الشيء ونقيضه؟

والحرية لا حرية فيها، فأنت إما حر بلا حرية أو غير حر بلا حرية أيضاً، إنك لست مختاراً أو لست حراً في أن تكون حراً وأن تكون غير حر، فالحرية مفروضة بقدر ما يكون فقدها مفروضاً كذلك. أنت حينما تكون حراً لست حراً في أن تكون غير حر، وحينما تكون غير حر لا تستطيع أن تكون حراً لأنك إذا كنت قادراً فلست حراً في أن تكون غير قادر، وإذا كنت غير قادر فلست حراً في أن تكون قادراً. إن الكتلة من المادة لا بد أن يكون لها وزن وحجم وصورة وأبعاد وطاقة، وهي ليست حرة في أن تكون غير ذلك بل ولا أن تكون ذلك، إنها تكونه بلا حرية، وإن النملة ليست حرة في أن تكون صغيرة أو كبيرة، في أن تكون حجمها أو تكون غيره، وإن الحشرة السامة ليست حرة في أن تكون سامة أو تكون غير سامة، إنها سامة بلا حرية، بل بالإكراه. وإذا كنت غير حر فالمعنى أنك غير قادر، وليس الذي عليك حينئذٍ البحث عن الحرية بل محاولة تحصيل القوة. والقوي لا يحتاج إلى أن يتعلم الحرية، والضعيف لا يحتاج إلى أن يتعلمها إلا بأن يتحول قوياً.

والاختلاف في تحديد معنى الحرية ليس راجعاً إلى صعوبة معناها اللغوي بل راجع إلى التناقضات بين المستعملين لها وبينهم وبين الطبيعة وبين المستعمل للحرية ونفسه، إن كل كائن حي يتناقض أحياناً مع نفسه كما يتناقض مع الآخرين ومع الأشياء التي يعيش فيها ويعيش حولها، إنه يتناقض مع الحجر الذي يقف في طريقه ومع الطعام الذي يأكله، والذي قد يكون ضاراً بصحته أو يكون غير ملائم، أي يكون غير ملائم كل الملاءمة لمتناوله والمحتاج إليه، فالذي يستعمل حريته أي قوته يجد أمامه قوى الآخرين الذين يريدون أيضاً أن يستعملوا حرياتهم أي قوتهم، ويجد الطبيعة التي ترفض أن يكون حراً أي أن يكون قوياً كما يريد، ويجد ذاته التي تتناقض مع حريته ومع رغبته في أن يستعمل حريته. والتوفيق بين هذه القوى أو الحريات دون

تصادم قاتل مشكلة أبدية أزلية، وإيجاد مجال لكل قوة من هذه القوى نوع من التنظيم لحركة مرور لا مثيل لها في أي ميدان من الميادين!

ولا يوجد فراغ يمكن أن تعمل فيه أية حرية ـ أي أية قدرة ـ من غير أن تنازعها وتناقضها حريات أخرى ولو في الشعور والفكر والاحتمال، إنه لا يوجد من يتنفسون الهواء وحدهم ولا من يعيشون الفضاء كله ولا من يشعرون أنهم يستطيعون أن يتحركوا كل الحركة في كل الزمن في كل الاتجاهات، وأن لهم كل الحرية أو كل التفكير أو كل الوجود حتى ولا الآلهة، بل إن حريات الآخرين والأشياء الأخرى هي موضوع حريتنا. فنحن نعمل الآخرين والأشياء الأخرى أو نعمل فيهم وفيها أو معهم ومعها أو في طريقهم وطريقها، أو نعمل في أفكار ومشاعر هؤلاء الآخرين، ونحن لا نعمل وحدنا أبداً، حتى ذواتنا وأنفسنا لا نستطيع أن نعملها أو نتعامل ونتفاهم معها أو فيها أو ننظر إليها وحدنا، إننا لا نستطيع أن نشعر أو نفكر أو ننظر وحدنا، إننا محكوم علينا بأن نخطو ونعيش في زحام لا مثيل له في قسوته.

هناك من يعرفون الحرية بأنها هي أن تتحرك بكل جسمك في مجال لا تصيب فيه أجسام الآخرين المتحركين حولك مثلك، أي إنهم يعرفون الحرية بأنها هي أن تكون كل ذاتك ويكون الآخرون كل ذواتهم بشرط ألا يقع تصادم بين ذات وذات. ولكن هذا التعريف هو تعريف الفراغ لا الحرية، فالحرية لا تكون إلا تصادماً ولو بالفكر والشعور والاحتمال، والحرية في تفسير الحياة أو في تعريفها هي أن تقوى على التصادم بغيرك من الناس والأشياء في التفكير والعاطفة والحركة. وإذا عجزت عن هذا التصادم فأنت لست حراً، إن الحرية هي أن تكون زاحماً مزحوماً وصادماً مصدوماً.

وليس المطلوب في الحرية أن تجنب التصادم بل القدرة عليه. إن شيئاً ما ـ أي شيء ـ لو أراد أن يجتنب التصادم كل التصادم لما كان عليه أن يموت فقط بل لكان عليه أن يكون غير موجود، فالوجود هو التصادم والموجود لا بد أن يتصادم، لا بد أن يتصادم بالأشياء وبنفسه، حتى الآلهة لا بد أن تصادمها مخلوقاتها وأن تصدمها، كما لا بد أن تصادم مخلوقاتها. والإله الذي يريد ألا يصدم شيئاً وألا يصدمه شيء فإن عليه ألا يخلق شيئاً، ولكنه حينئذٍ لا بد أن يصطدم بنفسه، أي بأفكاره وعواطفه وهمومه الذاتية. وإنه لن يوجد أكثر حزناً وضيقاً من الآلهة لكثرة وعنف تصادمها بالآخرين أي بمخلوقاتها وبنفسها المتناقضة مع نفسها!

والمجتمعات كلها قائمة على الصدمة والرد عليها، والكون كله قائم على الحركة ومقاومتها أي ونقيضها، ورد الفعل الضعيف في المجتمع هو الذي يجعله فاسداً ومظلوماً وغير حر.

*

هل أنت حر كلما كنت قادراً لأن هذا هو ما يعنيه القول بأن الحرية هي القدرة؟ ولكنك

تكون قادراً أحياناً على أن تقتل إنساناً تكرهه في أكبر ميدان عام وتريد قتله، وقادراً على أن تغتصب من تحب أو ما تحب وأن تأوي إلى أفخم الفنادق من غير أن تنوي دفع الثمن وأن تملأ جيوبك وحقائبك من الأوراق المالية العارضة نفسها بوحشية أمامك في أحد البنوك، وكذلك أنت قادر دائماً على أن تنكر أربابك ومذاهبك وعقائدك وأن تنقدها وتحتج عليها أو تشك وتفكر فيها، ومع هذه القدرة في كل هذا فأنت لا تفعل قدرتك هذه، إذن ليست الحرية هي القدرة كما قررت.

نعم، ولكني أعني بالقدرة هنا ما هو أوسع من القدرة الحركية والزمانية، بل أعني أيضاً القدرة الفكرية والنفسية، وأنت في هذه المواقف عاجز نفسياً وفكرياً، إنك إذا قتلت أو خدعت أو نهبت رد عليك المجتمع رداً لا تستطيع دفعه ولا الصبر عليه أو تحمله، فأنت إذن غير قادر، وأنت أيضاً تهاب إنكار أربابك وتقاليدك أو الشك والتفكير فيها لأن ظروفك العقلية والنفسية والثقافية والاجتماعية لا تستطيع ذلك، أي إنك غير قادر، إنك هنا عاجز لا فاضل.

والذين نراهم أتقياء وفضلاء لأنهم يحترمون العقائد والشرائع والأخلاق القديمة كما يحترمون الأرباب التي قد ماتت موتاً طويلاً حتى أنهم لا يجرؤون على مناقشتها أو مخالفتها من داخل أنفسهم ـ هؤلاء ليسوا فضلاء أو أتقياء بل هم ضعفاء عاجزون، لا يملكون قدرة تجعلهم يستطيعون ويستطيعون أن يستطيعوا، والقدرة ليست هي فقط أن تستطيع بل هي أيضاً وأن تستطيع أن تستطيع، أي أن تستطيع فعل ما تستطيع، فقد تكون قادراً ولكنك لا تكون قادراً على أن تفعل قدرتك، إنه العجز النفسي والفكري والأخلاقي.

وفضيلة هؤلاء الذين يبدون أتقياء وفضلاء هي أنهم ليسوا شجعاناً ولا أقوياء، والفروق بين المتمردين والمحافظين هي فروق في الحوافز فقط، فالمتمرد يجد حوافز التمرد والمحافظ لا يجد هذه الحوافز. ولكن لماذا يجد هذا ولا يجد ذاك؟ إن الفرق بينهما هو القدرة وفقد القدرة، والشعور بالقدرة نوع من القدرة أو دليل عليها، كما أن الفقد لهذا الشعور نوع من العجز أو دليل عليه، وليس الفرق بين المحافظ والمتمرد أن أحدهما رجل يعشق الصعود إلى السماء والآخر رجل يهيم بالهبوط إلى الحفر.

إن الفروق بين النمور والأرانب ليست فروقاً أخلاقية أو دينية، وليس ضعف الحمل فضيلة أو رذيلة إلا بقدر ما تكون قوة النمر أو ضعف البرغوث هذه أو هذه، إن القوة والضعف ليسا حباً للآلهة والنجوم ولا بغضاً لها، كما أن قوة هذا الحجر وضعف الحجر الآخر لا يعنيان أن أحد الحجرين يتعلم من الإله فضائله وأن الحجر الآخر يتعلم من الشيطان أو من الإنسان رذائله!

إن الإنسان يصطاد الحيوان ويقتله ويأكله، ولا يرى في ذلك شيئاً ضد الأخلاق أو الأديان أو الإنسانية أو الرحمة، ولكن قتل الحيوان للإنسان أو لحيوان آخر قد يعده الإنسان وحشية أو

ذئبية أو ثعبانية، فيرى الوحش والذئب والثعبان كائنات عدوانية غير متدينة ولا ملتزمة لتعاليم السماء التي يجري بها الأنبياء، وحينئذٍ يتدين بذم هذه الكائنات ويبالغ في ذمها ويشبه بها أردأ وأظلم من يحتقر البشر.

إن الإنسان يغفر لأنبيائه وقديسيه العظام جداً أن يفعلوا ما تفعل الذئاب والوحوش والأفاعي، بل ويشكرهم على ذلك، ثم لا يغفر لهذه الوحوش والأفاعي والذئاب أن تفعل قليلاً جداً مما يفعل أنبياؤه وقديسوه!

عجباً! كيف ينتظر البشر أخلاقية وتديناً من هذه الحيوانات لا ينتظرون مثلهما من أنبيائهم وقديسهم، أو كيف يضعون شروطاً لأخلاقية الوحوش والذئاب والأفاعي لا يضعون مثلها من الشروط لقادتهم الروحانيين! إن الذئبية والوحشية والحنشية ليست أخلاقية ولا ضد الأخلاقية، كما أن بياض جلد الإنسان وسواده ليسا أخلاقية ولا خروجاً على الأخلاقية، وكما أن الزلزال ليس هذا وهذا.

*

لم يدرك الدعاة والمعلمون أن الحرية هي القدرة، وإنما حسبوها شيئاً يخلع ويلبس ويمارس بالاختيار، وتترك ممارسته بالاختيار أيضاً، وهؤلاء المعلمون والدعاة حينما ينادوننا ويقولون لنا: كونوا أحراراً لا يقصدون أن يقولوا لنا: كونوا أقوياء، إنهم يدعوننا إلى الحرية وكأنهم يدعوننا إلى أن نلبس ثيابنا. وهل «كونوا أقوياء، أو كونوا أحراراً» يعني شيئاً؟ أليس ذلك مثل أن يقولوا: كونوا غير ذواتكم وأنفسكم، كونوا حجارة أو حديداً أو بيضاً إذا كنتم سوداً، أو سوداً إذا كنتم صفراً.

إن الحديث عن الحرية تعبير لغوي وليس موضوعاً إنسانياً، فالقضية التي أمامنا هي: إنسان يستطيع أو لا يستطيع، أو يستطيع ولا يستطيع، وهو يتحرك بقانون الاستطاعة وحده، وكل لغاته وتعاليمه تفسير لهذا القانون، وهو في وجدان حياته لا يدرك إلا هذا القانون ولا يعيش إلا إياه مهما تحدث بما يعني سواه، الإنسان لا يدرك أنه يتحرك بالحرية أو يتحرك من أجلها أو لأنه حر، فهذا الإدراك زائد عن عمليات الحياة ووجدانها، والحرية في تعبيراته ليست إلا أساليب من التفاسير اللغوية، إنه يريد أن يفسر بها لا أن يفسرها.

الاستطاعة والعجز حقيقتان، هو يكون أو لا يكون فقط، ولا واقع غير هذا، وكل حديث غير هذا لغة تختلف ويستغنى عنها مع بقاء الحقيقة التي هي موضوع الحديث كما هي. ولو لم يتحدث البشر في كل تاريخهم عن الحرية بكلمة واحدة لكان واقع كونهم أحراراً أو غير أحرار واقعاً لم يتغير. إننا نستطيع أن نجهل شعارات الحرية وحدودها وتعريفاتها وكل ما قيل فيها من شعر وامتداح وغزل، ولكننا لن نستطيع أن نخرج من كوننا نقدر أو لا نقدر أو نجهل ذلك،

وإننا نعمل بإحساس القدرة وإحساس العجز، وإننا لا نكون أو نحيا إلا بالقدرة، بل ولا نريد إلا القدرة ولا نحتاج إلا إليها، والتعبيرات لا يمكن الاتفاق عليها ولا تحديدها بخلاف الموضوعات. ولهذا اختلف الناس في تحديد الحرية وتعريفها، ولم يختلفوا هذا الاختلاف في الإحساس بالقدرة والتعريف لها.

وليس يجدي دعوة الناس إلى أن يكونوا أحراراً ولا التحدث عن شرف الحرية إلا إذا كان يجدي أن تتحدث عن مزايا الطعام إلى من لا يستطيع أن يأكل أو أن تحدث الأرض عن مزايا خروجها على تبعيتها للشمس. وكثير من الكتّاب والدعاة يصابون بمرض الرضا عن النفس وعن الكلمة فيذهبون يظنون أنهم قد صنعوا للعالم حرياته بدعوتهم إليها وشرح مزاياها لهم، ولكن الذي يجدي هو أن نعرف كيف نوجد القوة، بل أن نستطيع إيجادها. فإذا أوجدنا القوة فقد حققنا الحرية مهما اختلفنا في حدودها وتفاسيرها بل مهما جهلنا ذلك، بل مهما رفضنا أو نسينا الحديث عنها.

ولو سئلت متى تكون حراً لوجب أن يكون جوابي: أكون حراً إذا كنت قادراً، ولو سئلت فيما ذا أنت حر لقلت: أنا حر في جميع ما أنا عليه قادر، وإذا سئلت هل تكون الحرية رذيلة كان الجواب: إن الحرية لا تكون رذيلة لأنها قدرة، والحرية التي تكون رذيلة هي الحرية التي تتحول إلى عبودية أي إلى عجز، وجميع الشرور التي يتعذب بها البشر ليست إلا تعبيراً عن حالة عجز. ولكن ما هو العجز؟ العجز هو الحياة، فأنت معذب لأنك حي أو موجود لا لأنك عاجز أو متخلف أو غير حر، وأنت غير حر لأنك موجود أو لأنك تحيا.

*

إن ألم الإنسان كله في ضعفه، وضعفه كله في وجوده أو في كونه يعيش، إذن ألم الإنسان كله في كونه موجوداً وكونه حياً، إنه موجود وحي، إذن هو حتماً غير حر، هو موجود حي يبحث عن الحرية! عجباً! إنه بهذا يبحث عن أن يكون موجوداً وحياً وغير موجود وغير حي، أو يبحث عن أن يكون غير موجود وغير حي بشرط أن يكون موجوداً حياً، أو يبحث عن أن يكون بصفات غير الموجود وغير الحي وبصفات الموجود الحي! الموجود الحي لا يمكن أن يكون حراً، والحر لا يمكن أن يكون موجوداً حياً، الموجود غير الحي لا يكون حراً فكيف يكون الموجود الحي حراً؟ إن الحرية لا يمكن أن تكون ظرفاً من ظروف الوجود أو الحياة، كما لا يمكن أن يكون الوجود أو الحياة ظرفاً من ظروف الحرية.

الإنسان يوجد ويحيا ويخضع لالتزامات واحتياجات لئيمة غير حرة بل قاتلة للحرية، وهو في أحسن ظروفه ومستوياته يتنقل من التزام واحتياج غير نظيفين أو كريمين إلى أنواع أخرى من الالتزامات والاحتياجات ليست أكرم أو أنظف، دون أن يستطيع أو يريد العصيان أو الرفض.

إن جميع ما يبدو حرية أو أعلى مستويات الحرية ليس إلا خضوعاً أليماً مهيناً لضرورات وظروف شريرة أو بذيئة أو تافهة، إن كل حرياتنا ليست إلا خضوعاً لجاذبية الأرض أو لبقولها أو لأوحالها أو لأوامر الشمس والكواكب، أو لطغيان الأعاصير والفيضانات أو لنزوات الأنهار والسحاب، أو خضوعاً للجنس والجوع والخوف والحقد والموت والخصومات مع النفس ومع الآخرين ومع المذاهب والعقائد والأرباب، أو خضوعاً لهذه المذاهب والعقائد والأرباب.

إننا لا يمكن أن نكون الشيء أو نخضع له أو نتخذ أي موقف لو لم نكن خاضعين، وإذا كنا خاضعين فكيف نكون أحراراً، هل الحرية خضوع؟ إذن ما هي العبودية؟ نحن إما أن نفعل الشيء أو نقيضه، ونحن في الحالتين لا يمكن أن نفعل لو لم نكن خاضعين، ولو كنا نستطيع ألا نخضع لما فعلنا، والخضوع ليس حرية، لماذا نفعل إذا لم يكن الفعل إلزاماً؟ إن الفعل دون إلزام محال مثل استحالة نزول المطر دون ظروفه ومسبباته، إن ما يعد عبودية حالة من حالات الالتزامات، وكذلك ما يعد حرية، إن نزول المطر حالة التزام، وهكذا امتناعه، إذن فالحرية وفقد الحرية هما شيء واحد في معنى الالتزام مثل فيضان النهر وجفافه، فهما إما حرية أو لا حرية، وليسا حرية وفقداً للحرية.

إن الإنسان وجود وحياة وضرورات، فهل هو حر؟ إنه يعيش معتقلاً منذ وجوده إلى نهايته في أقسى وأضخم معتقلين، فيهما كل القيود والمخاوف والعبودية والضبط المتوحش وكل معاني الالتزام والالزام والقسوة، هذان المعتقلان الرافضان لكل معاني الحرية والتسامح واحتمالاتهما هما الكون والذات الممتلئان بأقوى وأقسى الطغاة. إن الإنسان خاضع لأكبر مجموعة من أدوات القهر والإذلال والإهانة بأسلوب لا يمكن الافلات منه أو التهاون فيه أو الاحتيال عليه أو طلب الرحمة من قضاته أو مشرعيه أو منفذيه، إنه خاضع لاحتياجاته وشهواته وظروفه وقوته وضعفه وذكائه وغبائه ولصحته ومرضه وجوعه وجنسه، ولتفكيره ولعجزه عن التفكير ولكل صفاته النفسية والجسدية والعرقية والتاريخية، ولمذاهبه وعقائده وأربابه وتقاليده، إنه خاضع بلا أية رحمة لبحثه عن الحرية ورغبته فيها ولرفضه لها واحتجاجه عليها، خاضع لكونه حراً ولكونه غير حر، وخاضع لما يجعله هذا ولما يجعله نقيضه، إنه خاضع للطبيعة والكون والآخرين وللموت والحياة ولنفسه، فهل هذه حرية؟ ليست الحرية في جميع ظروفها إلا لغة عالمية تعني في كل تفسيراتها وموضوعاتها فقدان الحرية أو أقسى أساليب العبودية. إن الذي يخضع لإله أو مذهب أو لطاغية والذي يخرج على ذلك كلاهما خاضع لحالة فيها كل معاني الالزام، فالذي يقاوم العبودية يقاومها بعبودية.

إن كل تصرفاتنا أساليب ولغات مختلفة للتعبير عن فقدان الحرية مهما بدونا أو تكلمنا وكأننا نعيش جميع معاني الحرية وتفاسيرها، ويوجد شيء واحد لكي نكون أحراراً، هو ألا

نكون أحياء أو موجودين. ولكن هل نحن أحرار في ألا نكون أحياء أو موجودين؟ ولو كنا غير أحياء وغير موجودين فهل نحن حينئذٍ أحرار أم لا أحرار ولا عبيد؟ ولكن أليست هذه هي أعظم مراحل الحرية؟

وأنتم أيها الأحياء الموجودون لا تخشوا شيئاً من هذه الآراء الحمقاء، فإنكم لن تحاولوا أن تفقدوا وجودكم وحياتكم لكي تصبحوا أحراراً، إننا جميعاً نصر على أن نبقى موجودين وأحياء مهما كان ذلك يعني أن نفقد الحرية بل والكرامة بل والشجاعة بل والنظافة بل والسعادة والصحة والشرف، إن الأفكار والمثل لا يمكن أن تكون خطراً على وجود الإنسان أو على حياته بل ولا خطراً على نقائصه وذنوبه أو على رغبته في السقوط والافتضاح.

إن شيئاً ما لا يمكن أن يكون منافساً للرغبة في البقاء والحياة تحت كل الظروف، إن جميع الحقارات والآلام عاجزة عن أن تضعف الرغبة في البقاء، إن الإنسان لا يمكن أن يخضع لمقارنة عقلية بين حياته وبين ما يعاني من عار وهوان، بل وجوع، حتى المنتحر والقتيل في المعركة لم يخضعا لهذه المقارنة.

ومها أقام البشر بمنطقهم من مقارنات بين ما يجدون وبين ما يتمنون ويعرفون فإنهم لا يتأثرون في سلوكهم بهذه المقارنات ولا بأية مقارنات أخرى.

*

البطل طفل يذل كبرياء التاريخ

«إن لنا قائداً بطلاً، والأبطال مصابون بشهوات الإعلان والضجيج، لهذا فإن بطلنا سيرفض أن يمتلك الشمس امتلاكاً إذا كان ذلك بصمت، وسيختار أن يدعي القمر ادعاء فقط إذا كان ذلك بإعلان وصراخ، أعني لو أنه وضع أمام خيار بين هذا الادعاء الصارخ المعلن لامتلاك القمر وبين هذا الامتلاك الصامت للشمس، وإنه ليفضل الطلقة المسموعة التي لا تقتل على الطلقة الصامتة التي تقتل!

إن للأبطال ذنباً لا يمكن غفرانه، ذلك أنهم يفضحون الإنسان ويكشفون ما فيه من ضعف وهوان. إن الشعوب تظل مختفية وراء شعاراتها ومثلها المكتوبة وتظاهرها بالنخوة والشجاعة والبلاغة اللفظية، لا يعرف ما فيها من طاقات الهوان والبلادة والوثنية حتى يأتي إليها أحد هؤلاء الأبطال الذين تأنقت الأبالسة في صياغتهم للانتقام بهم من البشر، وحينئذٍ تتعرى هذه الشعوب عما فيها من حضيض نفسي وفكري وأخلاقي وتتبرج في ضعفها الأليم.

إن أكبر لعنة ينزلها البطل بالإنسان أنه يطرحه عارياً أمام جبنه واتضاعه لا يملك أية مقاومة ولا أي مقدار من الغضب والاحتجاج، إنه يعرضه في ضخامة النمال وكبرياء الديدان. إن الفرق بين القاتل والبطل أن جميع القتلة العاديين في كل التاريخ قد يكونون أقل ضحايا بشرية من بطل واحد.

إن البطل هو أسوأ وحش في التاريخ ظل يتغذى بحياة الإنسان دون أن يموت الوحش أو يتعلم الإنسان. إن تفوق الأبطال تفوق عدواني مذل وليس مثل تفوق العلماء والمفكرين والشعراء والفنانين، إن تفوق البطل تفوق محارب قتالي يقود إلى الخراب والموت والدموع، أما تفوق العلماء والمفكرين والفنانين فالمفروض أنه تفوق يصنع نقيض ما يصنع تفوق الأبطال، صناع الحروب والعداوات والأحزان والجنون.»

*

البطل إنسان مصاب بالطموح العدواني وبالقسوة وإرادة القوة والاستعلاء أو بمحاباة الظروف له، أو بمجموعة من الصفات والظروف العدوانية التي تجعل منه قاتلاً أو كذاباً كبيراً، وتجعله مرهوباً أو مطاعاً، وتجعل الجماهير تمشي وراءه هاتفة بلا وقار، أو أمامه خائفة بلا شجاعة، وهي في كل الحالات بلا ذكاء، إن البطل بطل لأن تحته منخفضاً متواضعاً لا لأنه فوق قمة ولا لأنه قمة.

والبطل ليس بطلاً في صفاته أو على نفسه أو على الطبيعة أو في الطبيعة، ولكنه بطل على الناس وفي الناس، ومن هم الناس الذين يكون عليهم بطلاً؟ إن الناس ـ أي نوع من الناس؟ ـ هم دائماً سماد البطولة وترابها وسرير فحشائها. والبطولة لا توجد إلا حيث يوجد الهوان الفكري والنفسي والأخلاقي، وهذا الهوان آفة خطيرة ومنتشرة في كثير من المجتمعات حتى لقد أوشكت أن تصبح موهبة إنسانية عامة تعيشها كل المجتمعات في كل العصور وإن كان ذلك بمستويات متفاوتة، مع أنها في كل مستوياتها وأساليبها إذلال لكل كبرياء.

إن للأبطال ذنباً لا يمكن غفرانه، ذلك أنهم يفضحون الإنسان ويكتشفون ضعفه وهوانه بأسلوب مذل، إن الشعوب تظل مختفية أو مستورة وراء شعاراتها ومثلها المكتوبة وهتافاتها الضاجة وتظاهرها بالكبرياء والشجاعة ووراء ملابسها التاريخية وبلاغاتها اللفظية ـ نعم إن الشعوب تظل كذلك لا يعرف ما فيها من احتمالات الهوان والبلادة والوثنية حتى يأتي إليها هؤلاء الذين تأنقت الجحيم في صياغتهم للانتقام من البشر بهم، وحينئذٍ تتساقط الأقنعة عنها وتتعرى عن حضيضها النفسي والفكري والأخلاقي، وتتبرج في ضعفها الأليم، وتبدو وكأنها لا تملك أي مستوى من مستويات الرفض والإباء أو المناعة ضد السقوط والهزيمة.

إن أكبر لعنة ينزلها البطل بالإنسان أو على الأقل بمجتمعه أن يطرح البشر أو عشرات الملايين من البشر على الأرض عراة أمام جبنهم واتضاعهم لا يملكون أية مقاومة ولا أي مقدار من الغضب والاحتجاج والشعور بالافتضاح. إن الأبطال يفسرون البشر بسلوكهم فيهم تفسيراً مذلاً، إنهم يعرضونهم في ضخامة النمال وكبرياء الديدان!

كم في التاريخ من الرجال الفضاحين الذين هتكوا الأستار عن شعوبهم، لأنهم كانوا يسوقونها إلى معارك الهوان والجنون والموت والسفاهات دون أن تجرؤ على الرفض أو الاحتجاج أو الغضب، بل دون أن تفهم ذلك، بل لقد كانت تسير في الطوابير الطويلة ـ طوابير الهلاك والجنون ـ هاتفة مغنية مادحة باحثة في الظلام عن بيوتها المسكونة بالحشرات لتسأل الله وفرة البنين لتنجبهم باستمتاع وخصوبة ليرثوا عنها أمجادها الذليلة! إن الشعوب حينما تموت في حروب ومغامرات يقودها إليها أبطالها القتلة لا تعبر بموتها السهل عن أية شجاعة، بل تعبر بهذا الموت الرخيص والطاعة الجبانة عن كل هوان وبلادة.

إن الشعوب في طاعتها لأبطالها حينما يقودونها إلى الموت والخراب والنذالة المذهبية أو الوطنية ـ نعم إن الشعوب في هذه الطاعة تشبه الحيوانات المأمورة المدربة على القتال التي تموت في طراد أو في معركة مع حيوانات أخرى مأمورة مدربة على القتال مثلها، لأن مدربيها دفعوها إلى ذلك لا لأنها تدافع عن كرامة أو حرية أو وطن أو عن مذهب أو نظام تفهمه وتؤمن به ـ إنها لا تموت لأنها تؤمن بشعارات مذهبية أو قومية يطلقها عليها زعماؤها الباهظون بقصد القتل والاخضاع، كما تطلق الأسلحة على مواقع الأعداء والرصاص على طرائد الصيد، بل تموت بالأمر كما يموت الحيوان بلا مذاهب أو شعارات أو آلهة أو اشتراكية أو شيوعية أو رأسمالية أو دسائس ومؤامرات رجعية!

إن البطولة ليست إلا فضيحة في كفتي ميزان، في إحدى الكفتين فرد واحد في حجم الإنسان الواحد ولكن فيه من الشرور والمزايا الخبيثة ما ليس في مجتمع كامل، وفي الكفة الأخرى جمهور كبير في حجم الجمهور الكبير الآخر الرافض، ولكن فيه من الخنوع والغباء ما يجعله عاجزاً عن أن يكون كفواً لرذائل رجل واحد! البطولة اعتداء واستسلام وانتصار وهزيمة، إنها دائماً تعني وجود ضعفاء ومغلوبين ومصابين بالبحث عن الهوان والإعجاب بالهزيمة. وكلما وجدت وتعاظمت صفات البطل وجدت وتعاظمت الصفات المستسلمة المقابلة، فلا بطولة بدون صفات الهزيمة والخضوع.

والبطولة لا بد أن تكون معتدية، بل إنها، إن وجودها، مجرد وجودها عدوان، والفرق بين القاتل والبطل فرق ليس في مصلحة البطل، ليس بينهما فرق في الذكاء أو الفضيلة، وقد تكون بينهما فروق في الظروف والتعبير والشعارات، ومن أعظم الفروق بين القاتل والبطل أن جميع القتلة العاديين في كل التاريخ قد يكونون أقل ضحايا وأكثر رحمة بالإنسانية من بطل واحد.

ومن أجل وجود بطل واحد لا بد من وجود جمهور كبير من الراكعين والعاجزين المحتقرين لأنفسهم، إنه لا بد من قاعدة كبيرة وبعيدة لكي تكون القمة شامخة. والمعاني القوية في المجتمعات المتحدية ترفض وجود التفوق القاهر المذل أو التفوق المعبود، ولكن هل توجد حقيقة مجتمعات ترفض تحت كل الظروف أن تكون مقهورة؟ وهل توجد مجتمعات تتحدى وترفض؟ أم توجد فقط كلمات خطابية وشعرية تقال بالتكرار والتقليد والملق عن الشعوب وعن تحديها ورفضها الذي يتحدث عنه المتحدثون دائماً دون أن يجدوه أو يعلموه؟ إن التفوق خليق بأن يثير الحقد والمقاومة، لا العبادة، وتفوق الأبطال تفوق عدواني مذل وليس مثل تفوق العلماء والفنانين والمفكرين، إن تفوق الزعماء تفوق محارب قتالي، يقود إلى الموت والخراب والآلام، أما تفوق العلماء والفنانين والمفكرين والشعراء فالمفروض أنه يصنع نقيض ما يصنع تفوق الزعماء.

والناس يخضعون للبطل المذل ـ وفي احتمال أنهم يوجدونه ـ إما خوفاً وعجزاً أو إعجاباً أو بحثاً عن الكائن القوي المنقذ، إنهم يؤمنون بأفراد متفوقين ويمنحونهم احتمالات التفوق ويستسلمون لهم لأنهم يريدون الفرار من أنفسهم، أو لأنهم لا يعرفون كيف يتعاملون معها أو كيف يواجهونها ويواجهون المواقف المختلفة الصعبة، أو لأنهم يخافون المقاومة أو لا يستطيعونها، أو لأنهم يرفضون أن يدفعوا ثمن التحدي، أو لأنهم يعشقون مظاهر الطغيان وصفات الجبارين، وبهذا الخوف والفرار والاستسلام يحولون هؤلاء المتفوقين برذائلهم العدوانية إلى قتلة ومجانين يرون في الحروب والمغاسرات وابتكار الأزمات والمشاكل أسمى الأمجاد.

وإذا كانت كل المجتمعات قد تخلق الأبطال أو تسمح بأن يتخلقوا في أحشائها فإن أقدر المجتمعات على ذلك وأكثرها سماحاً به هي أضعف المجتمعات، وتحت احتمالات وظروف أخرى قد تصبح المجتمعات القوية والمتطورة هي أقدر المجتمعات على خلق هؤلاء القتلة وعلى إعطاء مزاياهم المحاربة الشريرة القدرة على أن تعبر عن نفسها بكل فحش وجنون، إذ إن أخلاق البشر لا يمكن ضبطها تحت قوانين محددة موحدة، إنهم يفعلون الشيء ونقيضه، ويفعلهم الشيء ونقيضه تحت أسباب وعوامل واحدة، وإن ما يصنع أحياناً منهم قوة يصنع أحياناً منهم ضعفاً، وما يجعلهم يرفضون ويحتجون قد يجعلهم يرضون ويشكرون، وهكذا هم دائماً.

إن العاجزين عن حمل أنفسهم أو الخائفين من حملها، والباحثين عن الصخب والحماقات والتحديات الغوغائية ـ وهؤلاء يوجدون في جميع المجتمعات على مستويات متفاوتة ـ قد يسعدون بوجود هؤلاء الأبطال ويذهبون يملؤون الدنيا هتافاً لهم وركوعاً تحت أقدامهم. لقد وجد الأبطال والآلهة في كل العصور لأنه قد وجدت في كل العصور الخرافة والطفولة، ووجد الباحثون عن الهزيمة وعن المجانين الذين يصنعون الإثارة والضجيج والحماقات المتألقة، ويحتجون على الحياة بالحروب والقتل ونشر الخراب واعتصار الدموع من عيون الأطفال والشيوخ والنساء.

لعل رغبة المجتمعات الدائمة في السير وراء هؤلاء الأبطال المجانين لم تكن إلا رغبة غير واعية في الاحتجاج على الحياة بتدميرها، فأفضل الوسائل لقتل الحياة قتلاً جماعياً هي أن يكون هنالك بطل قوي كبير يقود مجتمعاً مستسلماً في ظروف كلها غواية، بل لعله لا توجد وسيلة غير هذه الوسيلة لقتل البشر قتلاً جماعياً ولنشر الخراب وذرف الدموع على مستوى عالمي.

والذين يثقون بالأبطال ويستسلمون لهم راجين أن يصنعوا لهم المجد والحرية والرخاء هم كالذين يثقون بالطبيعة وبنياتها الصالحة ويتركون لها أن تقودهم إلى أفضل ما يؤملون، إنهم يضعفون ويتعذبون ويهونون بقدر ما يفعلون، بل كلا، فهؤلاء أقسى وأغبى وأضعف وأقل حباً للإنسان من الطبيعة.

إن الناس ليفعلون أحياناً ما يجعلهم يبدون وكأنهم يناضلون بحثاً عن الغباء والسقوط والمذلة وعن التفاهة والعذاب، إنهم يعشقون التراب والحضيض والانحناء أكثر مما يعشقون النجوم والصعود والانتصاب. إن عواطف الإنسان ليست أخلاقية ولا منطقية في أي مستوى من مستوياتها، وإنه قد يعيش الليل بنشوة أكبر من نشوته حينما يعيش النهار.

إذا نصبت بعض المجتمعات القوية المتحضرة على نفسها أرباباً طغاة أو قبلت أن يرتفع مثل هؤلاء الأرباب الطغاة فوق كبريائها كان المعنى أن هذه المجتمعات لم تتكافأ مع قوتها وحضارتها ـ إن حضارتها وقوتها حينئذٍ أقوى منها، أي أقوى من ذكائها وحريتها وكرامتها بل ومن إنسانيتها، لقد ظلت تلك المجتمعات كإرادة وشجاعة ووعي وكبرياء وحرية أقل منها كحضارة وقوة، أي ظلت كأدوات ورسائل وأثاث وأزياء أقوى منها كإنسانية وشخصية، والإنسان لا يساوي دائماً ما يملك ويعلم، فقد يعلم ويملك شيئاً عظيماً بينما يظل هو ـ الإنسان ـ شيئاً تافهاً صغيراً. إن الإنسان لا يساوي لغته أو حضارته أو بيته أو ملابسه أو وسائل مواصلاته. والذي يملك قوة ثم لا يملك التكافؤ معها قد تدمره قوته.

والشعب القوي ليس هو الذي يبدع القوة دون أن يتكافأ مع قوته، بل هو الذي يبدع القوة ويعيها ويحكمها ويتفوق عليها، والذين يملكون قوة لا يستطيعون التفوق عليها أو يتكافؤون معها هم مثل الذين يحملون سلاحاً لا يعرفون كيف يمنعونه من الانطلاق أو لا يعرفون كيف يستعملونه. وإن من أسوأ ما يحدث أن يملك شعب من الشعوب عبقرية وإبداعات كبيرة ثم يضع كل عبقريته وإبداعاته تحت قدمي بطل لا يملك إلا الجنون والتعبير عنه بالمغامرات والتوتر ومعاداة كل الجيران وكل الآخرين كتدليل على مزاياه المذهبية والبطولية والوطنية.

والإيمان بالأبطال ـ كالإيمان بالأرباب ـ يناقض في منطقه نمو الخصائص الذاتية في المجتمعات والأفراد، ويفرض عليها وعليهم الشعور بالهوان والهزيمة والتبعية. والمجتمعات ـ وكذا الأفراد ـ لا تنمو إلا بنمو خصائصها الذاتية، وهل يمكن أن تنمو هذه الخصائص بدون إطلاقها وتجربتها بالاستعمال الحر وبدون شعورها بالاستقلال والقدرة؟ وهل يمكن أن تنمو المشاعر المسحوقة تحت جبروت الأبطال والأرباب وضغوطهم النفسية والعقلية وسطوتهم المطلقة إلا بقدر ما يمكن أن تنمو معاني السماء فوق عفونات الأرض؟ إن المطلوب أن تعيش مشاعر الإنسان وأفكاره بلا إرهاب. وأخطر قوى الإرهاب ضد المشاعر والأفكار الإنسانية هي قوى الألوهية والبطولة، إن الألوهية والبطولة قوتان مفترستان، وهما من أقدم القوى المفترسة للبشر وأكثرها انتشاراً في التاريخ وفي العالم.

إن أفكار البشر ومشاعرهم يجب أن تكون هي السماء لكل الأشياء، يجب أن تكون سماء لا تحدها أية سماء ولا تعلو فوقها أية سماء. إن أسوأ أعداء البشر هم الذين يتحولون إلى

سموات لهم أو يخلقون لهم سموات، إن المشاعر والعقول والأخلاق المسقوفة، الموضوع فوقها سقوف ـ حتى ولو كانت هذه السقوف من الآلهة والأبطال لا تستطيع أن تمتد إلى الأعالي ولا إلى الآفاق البعيدة ولا أن تسافر إلى الأماكن المجهولة، إنها تفقد الرغبة والقدرة على الارتحال.

والأبطال يذلون أفكار الجماعة ومشاعرها ويسحقونها لأنهم يشعرونها بالهزيمة والضآلة والهوان إذ يشعرونها بقوتهم وتفوقهم عليها وبتفردهم بحكمها والتدبير لها والرؤية عنها، وإذ ينفردون بتفسير الآلهة والكون لها، والعقول التي لا تفسر هي الآلهة والكون تهون وتضل.

إن البطل الذي يتفوق على المجتمع بمزاياه القوية فيحكمه بالإذلال أو الإعجاب ليفسده ويظلمه أكثر مما يفسده ويظلمه الحاكم الطاغية الذي يحكمه بالخوف والعذاب، ولكن هل يمكن أن يكون البطل إلا طاغية، بل إلا شر الطغاة؟ والواثقون بالأفراد المتفوقين يصابون بالعقم والعجز أكثر مما يصاب الخائفون الذين لا يجدون من يثقون به. ولكن هل يوجد من يوثق به هذه الثقة أو من يستطيع أن يثق بأحد مثل هذه الثقة؟ والقائد الذي يمنحنا أسباب الثقة به أو يقنعنا بأن نثق به ونعتمد على عبقريته الملهمة أو يطالب بذلك يحطمنا ـ أو يحاول تحطيمنا ـ أكثر من العدو الذي يحاول أن يدمر فينا جميع أسباب المقاومة والنضج العقلي والإنساني.

*

إن البطولة بقية من تاريخ أو تعبير عن تاريخ وامتداد له لقد كانت البطولة في التاريخ قصة ضخمة بل مروعة، كان كل شيء يعيش على البطولة أو باسمها، ولم يكن شيء يعيش على الإنسان أو باسمه أو على القوانين المتواضعة الخاضعة للنظام والضبط ولقوانين القدرة والعجز. وكان النبي والساحر والكاهن والإله والحاكم أساليب مختلفة من أساليب البطولة والبحث عنها.

كان الناس يبحثون عن طريقهم في صعوبة ورهبة بين صفوف متراصة من الأبطال والأرباب والمعلمين المتحدثين عن الغيب وشؤونه كما يتحدثون عن أخلاق أطفالهم ومشاغباتهم وعما فيهم من بذاءة وعصبية، وكما يعدون الأشياء بأصابعهم ويعدون أصابعهم، وكان هؤلاء ـ أي الأبطال والأرباب والمعلمون ـ هم التاريخ والتفسير اللذين تفسر وتؤرخ بهما المجتمعات وأحداث الكون كلها. إن الحرب السلام والخير والشر والقوة والحياة وجميع تحركات الطبيعة من تدبيرهم وعملهم ورضاهم وغضبهم، والشعوب ليست إلا علفاً لكبريائهم وأرضاً لأقدامهم ومعرضاً تتحرك فيه أهواؤهم، ومادة ذليلة يصوغون منها عبقريتهم وألعابهم الغبية الفادحة، لقد كان النصر والرخاء منهم مع أنهم لا يحاربون ولا يزرعون الأرض أو يقيمون المصانع أو يعرفون كيف تزرع الأرض وتقام المصانع ـ بل مع أنهم هم آكلو الرخاء وثمار

الانتصارات الوبيلة، وكان الهتاف والطاعة والمجد والأمر لهم وحدهم دون أن يدفعوا أي ثمن لذلك أو دليل على جدارتهم به.

لم يكن هناك شيء للإنسان أو من الإنسان أو في مستوى الإنسان، كان كل شيء فوق الإنسان. كان البشر شيئاً لا بشراً، وكان الأبطال والأرباب والمعلمون يتعاملون عليهم كأشياء مخلوقة لا كبشر. لقد كانت الشعوب هي القرطاس والمداد اللذين تكتب بهما وعليهما سير الأبطال والأرباب، وكانت المسافة بين الأرض والسماء بعيدة، وكانت الأبعاد شاسعة بين الإنسان وبين الأبطال والأرباب والمعلمين، وكانت الأرض تزداد هبوطاً كلما ازدادت السماء صعوداً، وكان الإنسان يهون كلما ازدادت آلهته وأبطاله ومعلموه كبرياء.

لقد كان أوهام البشر تبحث عن اختراع المسافات والفروق الهائلة الشاسعة بين الأشياء، بين كل الأشياء، فكانت المسافة بين الإله والإنسان وبين البطل والمجتمع وبين الملاك والشيطان وبين النبي والمؤمنين به وبين التقي والفاجر وبين المؤمن والملحد وبين الذي نحب والذي نكره وبيننا وبين المخالفين لنا، وبين ديننا ونبينا، وبين دين الآخرين ونبيهم ـ كانت المسافة بين هذا وهذا بعيدة جداً، جداً، كان الإنسان يتدين بتصور الأبعاد والمسافات والفروق بين الأشياء لقد كان عاجزاً أن يرضى عن نفسه وعن الناس الذين حوله وعن الطبيعة التي يتعامل عليها ومعها، فكان يحاول بلا توازن أن يعوض عن هذا الرضا المفقود بتصور هذه الفروق الهائلة بين نفسه وظروفه وعالمه وبين أبطاله وأربابه ومعلميه الذين كانوا يتعاملون عليه وبه دون أن يستطيع هو التعامل عليهم أو بهم أو الرؤية لهم، لقد كانت الرؤية والتعامل من جانب واحد دائماً.

وكان الإنسان على معنى آخر يبالغ في تصور ما يحب تصوره وتصور ما يكره، وكان كأنما يحاول بذلك أن يضعف الفروق بينه وبين الطبيعة، بين ضخامتها وخلودها وقوتها وبين ضآلته وضعفه وفنائه، وأن يضعف أيضاً الفروق بين ما يجد وما ينبغي. وكان اختراعه أو تصوره للمسافات والفروق الكبيرة الواسعة بين الأشياء، بين ما يرى وما يريد نوعاً من محاولة الرد على تحدي الطبيعة له وتفوقها عليه وتعذيبها له، إن المبالغة هي دائماً أسلوب من المقاومة لشيء نرفضه أو لشيء يضايقنا أو يتحدانا.

إن البشر لا يمكن أن يطوروا حياتهم ما لم تكن أفكارهم وعواطفهم متحفزة محاربة متحدية محتجة، والأبطال الذين يريحوننا من التحفز والتحدي والاحتجاج والمقاومة، أو يحرمون ذلك علينا ـ لأننا نخافهم ونحترمهم أو نؤمن بعبقريتهم المعصومة وبما سوف يفعلون ـ يقتلوننا لأنهم يقتلون فينا أسباب القوة والانطلاق والإبداع. كم هو فظيع أن نتصور البشر محكومين منذ وجدوا بطوابير متلاحقة من القديسين والأبطال المنزهين القادرين الذين يقتلون في حياتنا بل وفي أنفسنا وتفكيرنا كل مقاومة ومعارضة وشك واحتجاج. إن الاحتجاج

النفسي والعقلي أسلوب من أساليب الإبداع والتطور والرفض للغباء والألم والهوان، وهل يمكن أن نبدع ونرفض لو فقدنا هذا الاحتجاج؟ إننا حينئذٍ لن نفعل ذلك بالأسلوب الإنساني، ولكننا قد نصنعه ـ أي نصنع الإبداع والرفض ـ بالأسلوب الكوني والطبيعي لا الإنساني. إننا محتاجون إلى أن نشك ونقاوم ونعارض ونرفض، والإيمان بالبطل أو الخوف منه لا يأذن بهذا بل يراه زندقة وفساداً.

إن الحياة بسلوكها وشرورها تأبى علينا أن نكون طيبين مصدقين تابعين دائماً كما تريد لنا التعاليم الضعيفة أو المخادعة أن نكون، إن الحياة ليست طيبة ولا نبيلة على هذا المستوى الذي تريد منا التعاليم والشعارات أن نكون أو أن نعامل به أبطالنا وأربابنا ومعلمينا، أو نراهم به. إذن كيف يمكن أن توحي إلينا أو تسمح لنا أو تفرض علينا أن نكون نحن كذلك مع أننا لسنا إلا حياة، بل أعنف أساليب الحياة؟ إن أفكارنا ومشاعرنا تحتاج إلى عضلات وإلى عمليات عنيفة من التسلق والصعود والهبوط والمبارزة والجراح الأليمة لتنبت لها عضلات مصارعة، والاسترخاء النفسي والعقلي هو عدو النمو والقوة، وهو عدو النمو للعضلات الفكرية والنفسية، ليست أجسامنا أحوج من عقولنا وعواطفنا إلى العضلات القوية، والإله والبطل بمعناهما المنطقي خصمان قديمان ودائمان لنمو العضلات النفسية والعقلية.

والمفروض أنه كلما طال عهد البطل تمكنت أسباب الضعف والاتكال والخوف من الحياة والعجز عن مواجهتها، فإذا انتهى عهد البطل الطويل الأليم تكشفت حينئذٍ المأساة، فالشعب الذي يتخلف عن عهد بطولي يجيء خائراً خائفاً فاقداً الصلابة والعزم والجسارة، لا يستطيع أن ينتصب على قدميه ويواجه المواقف بقوة وذكاء وسرعة، إنه حينئذٍ لا يستطيع بسهولة أن يعيش وحده أو أن يقف مع نفسه أو أمام نفسه في العراء الفاسق المملوء بالوقاحات، فإذا ذهب البطل سقط الشعب الذي كان يحكمه في الظلام، وأصبح مثل أعمى فقد فجأة قائده في أعماق صحراء زاخرة بالأخطار والمخاوف والوحوش المفترسة. أو مثل سفينة فقدت ربانها في أقاصي البحار تحت أعتى الأعاصير دون أن يوجد في ركابها من مارس فن قيادة السفن أو التعامل مع الأمواج. وسوف يترسب في مدارك مثل هذا الشعب، من طول ما سحق وأمر وسيق، أن الأمم ليست سوى أبطالها، وأن عليها حينما يذهب بطلها أن تظل واقفة تحت النيازك والأعاصير ضارعة مصلية تنتظر بطلاً جديداً، مسلمة نفسها إلى قرارات الذل والخمول، مبررة انسحاقها هذا بأنها بلا بطل.

إن البطل يحطم شخصية المجتمع، يحطمها بالإرهاب والخداع والأوهام والهتاف وبالشعارات البليدة المتوترة ـ والإيمان بالبطل يعلم أخلاق الطفولة ويقاوم أخلاق الرجولة، فإذا لبث المجتمع طويلاً يتعلم كيف يكون طفلاً بالقهر والتصديق والخوف والاحترام نمت فيه أفكار

الأطفال وأخلاقهم وشخصياتهم وأصبحت محاولة إخراجهم من هذا المستوى نوعاً من التعذيب أو التكليف بما لا يطاق. إن الطبيعة هي التي تعلمنا الخطأ أو الحاجة إلى الخطأ بقسوتها وتفوقها علينا، ثم هي التي تعلمنا الخروج على الخطأ وكراهته والقدرة على الخروج منه وعليه، وإذا كانت الطبيعة بقسوتها وفسوقها وانتصارها علينا قد علمتنا الهتاف لرجال قد تعاقبوا علينا يذلون ذكاءنا وكرامتنا ويمتصون رخاءنا دون أن يكونوا قادرين علينا لولا قدرتنا نحن على أنفسنا فإن هذه الطبيعة هي نفسها التي تعلمنا أو التي يجب أن تعلمنا كيف نفهمهم ونرفضهم ونخرج عليهم. وبقدر ما نستطيع أن نفهم الطبيعة وننتصر عليها تكون قدرتنا على فهم هؤلاء الرجال الخرافيين والانتصار عليهم. والذكاء أو الفهم لا يكفي وحده لاجتناب الوقوع في الخطأ أو لاجتناب الرغبة في الخطأ والبحث عنه، لأن الخطأ من عمل الحياة وليس من عمل العقل وحده. إن إرادة الخطأ، وكذا إرادة اجتنابه والوقوع في هذا أو في هذا، حالة وظروف لا ذكاء ولا غباء، ولهذا فقد يكون أذكى الناس هو أكثرهم أحياناً وقوعاً في الخطأ، كما قد يكون أقلهم ذكاء أكثرهم صواباً وحكمة، إن الطبيعة تخطىء وتصيب بلا ذكاء أو غباء وهكذا الإنسان، ولو كان الناس بلا أي ذكاء لأخطؤوا وأصابوا، ولو كانوا يملكون كل مستويات الذكاء لأخطؤوا أيضاً وأصابوا.

وقد يكون من المحتمل إن وجود البطل يعد المجتمع إعداداً سريعاً وقوياً وإن كان ذلك غير منظور لكي يتحمل همومه وتبعاته بعد سقوط البطل بأسلوب متفوق. وذلك أن موهبة المجتمع قد تظل حينئذٍ تحتج احتجاجاً صامتاً دائباً قوياً على تفاهات البطولة وطفولتها وحماقاتها العدوانية، وتظل تستنكرها استنكاراً يصعد بالوعي والقدرة صعوداً مستمراً وينضجها إنضاجاً. فإذا سقط عهد البطل مذموماً ممقوتاً هب المجتمع ليصنع نقيض ما كان موجوداً أي ليتجاوز ذلك العهد الذي جرب منه الألوهية العاجزة القاهرة المغرورة، وقد تصنع الهزائم في نتائجها نصراً، وقد يخلف العهد الضعيف والفاسد عهد قوي نظيف، كما قد يخلف الرجل الضعيف الفاسد رجل قوي صالح. وقد يكون ذلك نوعاً من التكفير عما كان ومن الفرار إلى النقيض. إذن فقد تحدث وثبة بعد سقوط البطل وموت عهده.

إن الاحتجاج في تفكير الإنسان وأحاسيسه لا يمكن قتله مهما حرم أو أخمد أو قتل التعبير عنه، فالبشر لا بد أن يروا ويشعروا ويرضوا ويغضبوا وينكروا، بل لا بد أن يمدحوا ويذموا بلا أية لغة وبلا أي أسلوب من أساليب التعبير. إن الأجسام تنمو بلا لغات ناقدة محتجة، وهكذا تنمو الأفكار والمشاعر وظروف الرفض والقبول.

والبطل يصر على أن يبقى دائماً بطلاً مهما أرهقته الشيخوخة والإعياء والأخطاء والخطايا وسخرت من غروره وزيفه الأحداث القاهرة، إنه لا يستطيع أن يرى أو يعرف ما يراه ويعرفه

كل الناس. وهذا الإصرار خليق بأن يفقده الرؤية كلها ويعجزه عن الفهم لأكثر المواقف انكشافاً، وخليق بأن يجعله لا يستطيع أن يبصر شيئاً من طريقه الممتد فوق أدق الأحداث حداً. إنه محكوم على البطل بأشد أنواع العمى، إنه لا بد أن يخطو في الظلام الدائم أي في الظلام الذاتي، فإذا لم يهو ليصرع فالفضل في ذلك للطريق الذي لم يكن فيه ما يقتل الفاقدين للرؤية حينما يسيرون فيه بجرأة المبصرين. أما إذا هوى فإنه لا يهوي وحده بل يهوي بالسفينة بكل من فيها، وقد يهوي بالسفن الأخرى المجاورة، وبالسفن البعيدة أيضاً، مقدرة النتائج بمستويات الحركة التي يطلقها هويه القاتل.

*

والبطل لا يمكن أن يكون معتدلاً، إنه محتاج دائماً إلى أن يكون مصاباً بالجنون الضخم، فالبطولة ضد الاعتدال والعقل، ولو تحول البطل عاقلاً أو معتدلاً لفقد بطولته، وإذا كانت حياة البطل غالية التكاليف جداً في حسابات البشر فإن موته قد يكون أفحش غلاء، ذلك أنه قد يرفض أن يموت وحده ويصر على أن يموت محترقاً في حريق عالمي أو في حريق كبير، وقوده حياة وأجساد الملايين أو عشرات الآلاف أو الآلاف بلا عشرات إذا جاء موته رحيماً سهلاً متواضعاً. إنه لا بد للبطل من انتصارات لا مثيل في الغلاء أو من أخطاء وهزائم لا مثيل لها أيضاً في الغلاء، إن أسوأ ما فيه أنه غالي الثمن في انتصاراته وفي هزائمه، وقد تكون انتصاراته أشد غلاء، إنه إذا لم ينتصر فقد يتعمد أن يموت موتاً كموت الآلهة، لامعاً باهظاً راقصاً.

ما الذي تدفعه حياة الإنسان ثمناً لصعود البطل إلى القمة أو ثمناً لسقوطه جثة في كهوف التاريخ الواسعة الرهيبة التي تثوي فيها جثث جميع الأبطال؟

إن البطولة ليست أفضل من المبارزة بالسيف بين فارسين من فرسان العصور القديمة تنازعا على حب أو تغاضبا على كلمة جارحة أو تنافسا على أيهما أقتل سيفاً وأقسى قلباً.

وحاجة البطل إلى الهتاف الدائم تحوله دائماً إلى كآبة وطفولة وتوتر وتجعل منه خطراً على السلام وعلى نفسه وحياة شعبه ورخائه واستقراره وكرامته. وكلما عظمت انتصارات البطل استوفى احتمالات الهزيمة لأن النصر حينئذٍ يغريه بأن يجرب كل احتمالات الخطأ. قد يكون انتصار البطل هو أقرب الأشياء إلى هزيمته، إنه كالطفل المدلل كلما أخذ ولو دون استحقاق وجدارة طالب بصراخ ليأخذ أكثر. ولعله لا يوجد أحق بالرحمة والرثاء من البطل الذي لا يحقق كل يوم انتصاراً تهتف له النجوم ويغار منه التاريخ. ما أقسى البشر الذين يرفضون أن يتصدقوا على الأبطال بالانتصارات! إذا كان الحافز على الصدقة هو الرحمة فإن أقل الناس رحمة هم الذين لا يتصدقون على أبطالهم كل يوم بانتصار ما من نوع ما على عدو أو صديق ما.

إني لأعجب كيف لا يصاب بالجنون أو كيف لا ينتحر أي إنسان يصبح بطلاً في مستوى إله من الآلهة القديمة، تهتف باسمه كل الأفواه، وتدعوه وترجوه وحده وتلقي بين يديه بكل أمورها كل الجماهير، شاكية إليه إذا تألمت، شاكرة له أي خير يصيبها أو تصيبه، توحده إذا خافت ورجت وإذا وجدت أو فقدت. ولو أنك ـ مخلصاً صادقاً ـ وضعت كل ثقتك في إنسان ما وذهبت تؤمن به وتناديه وترجوه إذا خفت أو أملت، وتحمله ـ مقتنعاً مؤملاً منتظراً ـ كل أحزانك وآلامك وكل آمالك وطموحك لكان معنى ذلك أن تقتله أو تصيبه بالجنون. إنك حينئذٍ أقسى وأظلم إنسان، وإن ذلك الإنسان الذي حملت عليه كل نفسك وآمنت به لأشد الناس بلادة وفقداً للإحساس إذا لم يمت أو يجن فراراً من العار والحرج والتورط. هل الأبطال يتحولون إلى طين وحجارة وخشب، لهذا يواجهون أنفسهم ويواجهون الهاتفين لهم المؤمنين بهم دون أن يموتوا أو ينتحروا، بل دون أن يشعروا بالعار أو الحرج أو الخجل؟ إني لأفضل أن يطلقوا النار على هؤلاء المؤمنين الهاتفين لهم على أن يبتسموا لهم أو يزيدوهم وعوداً ليزدادوا بهم إيماناً.

إن البطولة كالألوهية كلاهما موت أو جنون، وإن الذين يثقون بنا أو يهتفون لنا يظلموننا ويقتلوننا أكثر مما يصنع الأعداء. فالثقة والإيمان أسلوبان من أساليب التكليف والتوريط والتحميل بالأعباء والآلام والهموم، وليسا ـ أي الإيمان والثقة ـ احتراماً أو محبة أو تنزيهاً لمن نؤمن أو نثق بهم. فإذا آمنت بالبطل أو الإله أو وثقت به فلست إنساناً طيباً أو أخلاقياً تحاول أن تكرم هذا الإله أو البطل بإيمانك وثقتك، وإنما أنت إنسان ظالم أناني غير مهذب ولا كريم النفس، تريد أن تلقي عليه وتحمله وتضايقه بهمومك ومشاكلك، إنك إذا ألقيت بجسدك على الأرض أو بأشيائك على الدابة لتحملها فلست بذلك نبيلاً تحاول تشريف الأرض أو الدابة، وهكذا أنت حينما تلقي بهمومك ومشاكلك أو بإيمانك وثقتك على البطل أو الإله. والبطل أو الإله إذا رحب بالإيمان والثقة به فهو كمن يرحب بالإساءة إليه وبتكليفه بما لا يليق أو يطيق أو يرضى، إنه كمن يرحب بمن يلعنه أو يعلن عليه الحرب أو يتهمه بتهمة فظيعة أو يلقي عليه بمسؤولية شاقة وغير شائقة.

إن البطل في حساب الهاتفين المؤمنين ليس إلا حماماً يلقون فيه أوساخهم، وإن الذي يتقبل أن يكون بطلاً تهتف له الحناجر وتؤمن به القلوب ليس إلا إنساناً يرحب بأن يكون حماماً تلقي فيه جميع الجماهير كل أوساخها. ولو كان من الممكن أن يصبح البطل حماماً عاماً يزيل الأوساخ ويهب النظافة لكان شيئاً عظيماً ولكان أفضل وأكبر من القديسين، ولكن البطل حمام يهب الاتساخ ويضاعفه ولا يمكن أن يهب النظافة، إنه الحمام الذي يراكم الأوساخ ويباركها لا الذي يزيلها، إنه حمام من نوع فظيع.

ولعل أكثر الأبطال المجانين الذين أهانوا وقار التاريخ لم يولدوا مجانين وإنما ولدوا باحتمالات الجنون، ثم أصيبوا بالجنون أو تعرى جنونهم بعد أن عاشوا في ظروفه وبعد أن وجدوا المؤمنين الضعفاء الذين يركعون لهم ويؤمنون بهم كآلهة. وأيهم يوجد أولاً: الآلهة أم العبيد؟ وهل ألوهية الإله في ذات الإله أم في نفوس العبيد وأخلاقهم، أم فيه وفيهم معاً؟ وهل يمكن أن يتصرف تصرف البشر من يشعر مشاعر الأرباب، أو يسلك سلوك العقلاء من يتعامل مع المجانين؟ وهل يمكن أن يظل الإله عاقلاً إذا أصبح عباده مجانين، أو أن يظل الناس عقلاء إذا حكمهم أبطال صناعتهم الجنون؟

إن استسلام المظلوم وضعفه جزء من عملية الظلم بل ظلم يوجهه المظلوم إلى نفسه وإلى ظالمه كذلك، إن المظلوم ظالم لظالمه بقدر ما الظالم ظالم للمظلوم، وإن هتاف المؤمن وثقته يتحولان إلى أفكار ومشاعر يطبقها الإله أو البطل على نفسه ويراها في نفسه ويفسر بها نفسه، وإنهما ـ أي الهتاف والثقة ـ يتحولان إلى إيمان للبطل أو الإله بنفسه، ويصيبان خطواته ـ أي خطوات البطل أو الإله ـ بالحماقة والتعثر، بل إنهما مرض خطير يفسدان قدميه وسمعه وعقله وأخلاقه. إنه لو عبدنا الآخرون واقتنعوا بنا آلهة عبادة واقتناعاً مشروطين بأن نكون مجانين أو أن نفعل أفعال المجانين لكان مستحيلاً أن نظل عقلاء في جميع سلوكنا وأخلاقنا وتفكيرنا وعواطفنا.

إن ثقة المؤمنين المطلقة بقدرتنا على أن نصيد لهم النجوم وعلى أن نصلب تحت أقدامهم الشمس إذا آذتهم بحرارتها فغضبوا عليها، إن ثقتهم هذه لقادرة على أن تسلبنا التوازن وعلى أن تجعلنا أحياناً نرى في أنفسنا بعض ما يرون فينا!

إن الثقة توريط وتعذيب وتلويث وإفساد، وإن الإيمان مؤامرة عدوانية ضد الآلهة والأبطال والمعلمين المقدسين، ولكنها مؤامرة لم تكن مقصودة، أي إنها عن غباء وضياع، وشر ما في هذه المؤامرة أن ضحاياها هم أكثر من يرحبون ويسعدون بها!

*

وأخطر ما في البطل أن جميع تصرفاته موضوعة لحساب كرامته وقوته وكبريائه ومشاعره الخاصة، ولحسابات نظره إلى نفسه ونظره إلى الآخرين ونظر الآخرين إليه، فهو يفعل أو لا يفعل، يغامر أو يجبن تحت وقع هذه النظرات الذاتية والحسابات الخاصة الموجهة من ذاته إلى ذاته بإحساس مريض، ولا حساب للناس أو للظروف أو للأخلاق أو لأي شيء في العالم، وهذا يعني المخاطرة بكل شيء متى أصيبت بالخلل والتوتر أحاسيس فرد قلق متقلب متكبر يرى أن الدنيا كلها يجب أن تجري من خلال ذاته لحساب ذاته، وأن تجري طبق كبرياءه وطبق إحساسه نحو نفسه، بل يرى بسلوكه وغلاميته ـ وإن لم يصل إلى حد النطق به ـ أن العالم كله لم يخلق إلا تحية له ولعبقريته.

كم هي الأهوال والآلام التي أوقعها بالإنسانية في كل العصور والمجتمعات أبطال متألهون غاضبون لكرامتهم التي وضعوا حدودها وحساباتها هم، مستسلمون لمشاعرهم الغلامية التي لا ترى أن شيئاً في الكون يساوي أكثر من رضاهم وغضبهم؟ إن البشر مستعدون في أكثر أوقاتهم لأن يموتوا ويدمروا أوطانهم ويخربوا كل شيء ليكونوا وقوداً لشهوات البطل ولانفعالاته التي أرهقها التوتر والحساسية وإدمان النظر إلى الذات بتدليل وعشق، ولكي يتحولوا إلى إعلان ضخم أليم عن جنون البطل.

وغضب البطل لنفسه يختلط دائماً بغضب الجماهير لكرامتها وأوطانها وحقوقها وعقائدها، فقد تندفع الجماهير بجنون ووحشية وراء البطل محاربة مدمرة أو موعدة هاتفة، تذود ـ في زعمها ـ عن كبرياء وطنها وعن عقائدها وأربابها دون أن تدري أنها مقودة بجنون فرد مريض خارج على كل الأوطان وكل المذاهب والعقائد والأرباب والمثل التي لا أحد يتحدث عنها أو يخدع بها مثله. إن الجماهير المخدوعة بأكاذيب الأبطال تحارب دائماً السلام والقيم والعقائد تحت شعارات الدفاع عنها والغضب لها.

والأبطال مصابون دائماً بمرض النخوة وإدمان النظر إلى الذات والإحساس بها، إنهم يريدون دائماً أن يسقطوا فوق كل العيون كالمكاوي، بل أن يتحولوا إلى خناجر تغوص في كل العيون لتراهم دائماً، وليجرحوها ويفقؤوها لكي تراهم بقسوة أو لكي يسدوا عليها كل رؤية أخرى. لهذا فالآلام والأخطار وفقء العيون معنى من معاني وجودهم.

كم كان من الممكن أن تتقي الإنسانية كثيراً من آلامها وأمجادها الشريرة لو أنها كانت بلا أبطال، إن البطولة نوع من الافتراس، والبطل صورة إنسان فيها روح وحش، وحينما يسقط البطل يتبين أنه لم يكن إلا إعصاراً يقتل ويهدم ويزأر عالياً دون أن يترك أو أن يكون فيه ما ينفع الناس.

إنه لما كان وجود البطل عدواناً على كرامة المجتمع وعلى حريته وتحقيراً لذكائه كان من المحتوم أن يعني مجيء البطل مقاومة كل حرية وذكاء وكرامة، إنه لا يمكن أن يحدث أن يتحول البطل إلى صانع حرية أو كرامة أو ذكاء أو إلى متسامح في مقاومته للحرية والذكاء والكرامة، إن البطل قد يحارب الأعداء الأجانب ولكنه لا يفعل ذلك دفاعاً عن حرية شعبه أو كرامته، بل دفاعاً عن تفوقه هو واستبداده وتفرده بالقدرة، إنه يقاتل ويدافع كما يقاتل ويدافع الوحش غضباً ذاتياً أو طمعاً في الفريسة. وإذا كان من غير المفروض أو المحتمل أن يقاتل الحيوان المتوحش أو المدرب دفاعاً عن عقيدة أو فكرة أو مثل أو عن حرية المجتمع والمفكرين فكذلك من غير المفروض أو المحتمل أن يفعل ذلك البطل.

ولا يمكن أن يهون المجتمع أو يفقد حريته وكرامته مثلما يحدث له حينما يحكمه بطل من الأبطال الكبار.

*

يغامر البطل فإن انتصر فقد انتصر على شعبه، وحينئذٍ لا بد أن يزداد ادعاء وتألهاً، وإن انهزم فالمنهزم هو شعبه، فالشعب في الحالين خاسر، ولكن أيهما أعظم خطراً وخسراناً للشعب ـ لأي شعب ـ أن ينتصر بطله أم أن ينهزم؟

ماذا يخسر البطل إن أخطأت مغامراته؟ يخسر رأساً واحداً؟ وماذا يأخذ إن أصاب؟ يأخذ ثمناً فاحشاً. ما أعظم الربح أو ما أعظم المأساة إذا كان من الممكن بل مما يحدث دائماً أن تقامر وتغامر بحياة كل البشر، بل أن تقامر وتغامر بكل شيء، بكل الحضارة أحياناً على حساب حياتك وحدها، ما أعجب وأفدح هذه الصفقة! هل البشر رخيصون وتافهون إلى هذا المدى؟ وهل يوجد تحقير للإنسان أكثر من استعداده الدائم لعقد هذه الصفقة ولدفع ثمنها؟ إن البشر مهما وضعوا من الشعر والفلسفات والكتب المقدسة تغزلاً بأنفسهم وتمجيداً لمعناهم الكوني والإنساني فإن الاحتمالات الدائمة لتعاملهم على هذه الصفقة لتسخر من جميع مدائحهم لأنفسهم ومن تفاسيرهم لمعنى وجودهم ومعنى حياتهم! إن جميع أشعارهم وفلسفاتهم وكتبهم المنزلة لتتحول إلى هجاء لنفسها أمام هذا العار.

إن البطل لا يستطيع ـ على أفضل الاحتمالات أو أسوئها ـ أن يخسر أكثر من حياته مهما قتل ودمر وخرب وأحرق، وهذا أفظع ما يمكن تصوره من البشاعة والهوان. وجميع ما في الدنيا من قوانين ومحاكم وأخلاق وعدالة دولية لا يستطيع أن يوجد لبطل يقتل تحت تحريض جنونه وكبريائه عشرات الملايين من البشر، ويهدم عشرات الألوف من المدن والقرى عقاباً أكثر من فقده لرأسه الذي لا مثيل له في جمعه بين خفة وزنه وثقل وزنه وفي التفاوت بين قيمته الذاتية وبين ما يعطي من نتائج باهظة. وفي كل التاريخ كان الناس يأخذون رأس البطل الواقع في قبضة غضبهم ليكون ثمناً لملايينهم المقتولة والمشوهة وأوطانهم المخربة وآلامهم التي لا أفظع منها، وكانوا يظنون أنهم بهذا ينتقمون للضحايا والآلام ويعاقبون القتلة المجانين ويوقرون القوانين والعدالة ويؤكدون لها الهيبة والاحترام ـ أي حينما يقتلون رجلاً واحداً جزاء له على قتله ملايين الناس وتدميره آلاف المدن والقرى وعشرات آلاف المصانع وآلاف الحقول!

لقد كان البشر يشعرون بالنشوة والانتصار وهم يفعلون ذلك، كانوا يظنون أنهم قد انتقموا وثأروا وأرضوا ضمائرهم، ولم يدركوا أنهم بهذا يعبثون ويسخرون من أنفسهم ومن القانون والعدل وكل القيم. إن ما يفعلون يشبه أن تقام أضخم محاكمة عالمية لمحاكمة ذبابة والحكم عليها بالشنق عقاباً لها باسم المحافظة على القوانين الدولية، لأن هذه الذبابة قد دمرت أكبر

وأجمل مدينة في العالم وقتلت جميع سكانها وأحرقت أو سرقت كل ما فيها من أشياء لا يمكن تقديرها بأي ثمن!

ولكن ألا يمكن أن يوجد ما قد يقوله البطل القاتل أو ما قد يقال دفاعاً عنه؟ من الذي جعل إنساناً ما بطلاً قاتلاً، أو من الذي حول احتمالاته الشريرة الأليمة إلى تطبيقات على الناس؟ إن البطل القاتل ليس محتوماً أن يكون بطلاً قاتلاً لو لم يجد المستجيبين والظروف الملائمة. إنه ليس بطلاً بصفاته المجردة الدائمة ولا بمقاومته الخارقة للكون ولا بصراعه ضد المستحيل، وليس قاتلاً بقوة يديه. إن المجتمع هو الذي جعله بطلاً أو أعطاه الفرصة لكي يكون بطلاً بضعفه واستسلامه وهتافه وامتداحه إياه كلما أخطأ وظلم وجن، لقد كان المجتمع بذلك كالآمر بل الملزم له بأن يكون كذلك.

ولعل أي بطل عظيم كان من الممكن أن يتحول إلى سكير أو خادم مطيع ذليل أو إلى عامل بسيط أو إلى رجل دين أو إلى أي إنسان آخر، لو لم يجد المجتمع الذي حوَّله إلى بطل قاتل أو الذي سمح له أو حرَّضه على أن يكون بطلاً قاتلاً. لعل المجتمع قد ظلم البطل بصرفه إياه عن احتمالاته الأخرى الطيبة.

إن بطولة البطل موجودة في المجتمع، فالمجتمع يريد أحياناً بطلاً يفعل من خلاله أو باسمه حماقاته الكبرى، والمجتمع أيضاً هو الذي جعله قاتلاً بل هو الذي قتل له أو قتل باسمه، لقد قتل المجتمع بعضه بعضاً استجابة لشهوته - أي لشهوة المجتمع - أو لمصلحته أو حقده أو عداواته باسم البطل أو لحساب البطل. لقد أمر المجتمع البطل وألزمه بأن يكون قاتلاً.

إذن فلعل البطل القاتل كان مظلوماً كما كان ظالماً أو قبل أن يكون ظالماً، ولعله كان من العدل أو من الممكن أن يحاكم المجتمع ويعاقب لمصلحة البطل القاتل، متهماً - أي المجتمع - بأنه قد ظلم إنساناً تافهاً مسكيناً أو إنساناً طيباً أو إنساناً كان يستطيع أن يكون طيباً، ظلمه بأن حوّله إلى بطل وجعله قاتلاً وقتل باسمه وتحت توقيعاته. لقد كان البطل فدائياً ضحّى بنفسه وبضميره وباحتمالاته الطيبة الهادئة في سبيل مجتمعه القاسي الشرير، وكان مجتمعه ظالماً قاتلاً لئيم القصد. وأيهما أكثر ظلماً وعدواناً على الآخر: الوجه الفاتن أم القلب المفتتن، المطيع أم الآمر؟ إن الذي يصنع الغاوي أو الغواية ليس أقل غواية أو ذنباً من نفس الغاوي، إن الضال إنسان مصاب بالضلال وليس صانعاً له، والمصاب مظلوم أكثر من افتراضه ظالماً!

كان المجتمع يريد أن يفعل الخطأ والجنون والعدوان والشرور لأسباب نفسية وتاريخية واجتماعية ولأسباب أخرى كثيرة، فراح - أي المجتمع - يبحث عن وسيلة تسوغ له أن يصنع ذلك دون أية معاناة، فوجد هذه الوسيلة في أن يحول فرداً ضئيلاً فاقداً كل معاني العظمة - وقد يكون فرداً حزيناً متعذباً - إلى بطل عظيم لكي يفعل كل هذا الذي يريد تحت اسمه وتحت

مواكب مغامراته وأخطائه. إنه يسرق ويقتل ويعادي ويمارس السفاهات والسباب باسم البطل وتحت أعلامه وصهيل شعاراته؟ ولكنه في الحقيقة كان يفعل لحسابات نفسه.

إذن لقد كان البطل ضحية وفادياً، ضحّى به العاشقون للفساد الباحثون عن الفساد، وصنعوا جميع آثامهم الخاصة باسم الهتاف له والسير وراءه صعوداً إلى أضخم الأمجاد. وكان هتاف الهاتفين له هتافاً لأنفسهم ولأخطائهم ومصالحهم وتخلصاً من انفعالاتهم المتراكمة الحزينة الضائعة، كما كان هتافاً ضد البطل لا هتافاً له، إن الهتاف أسلوب من السلاح أو الصخر يلقى على المهتوف به والمهتوف له!

لقد كان الناس في اتباعهم للبطل وإيمانهم به مثل الذي يصنعون الآلهة والأنبياء ويرفعون تحت أسمائهم والإيمان بهم الأعلام والشعارات كأنهم يحيونهم ويدافعون عن أخلاقهم وشرفهم، وهم إنما يحيون شهواتهم وحماقاتهم وينوون ممارستها باسم الدفاع عنهم وعما جاؤوا به من مقاومة للشهوات والحماقات، والآلهة والأنبياء مظلومون مكذوب عليهم في هذا، إنهم ليسوا في حساب المؤمنين بهم المتبعين لهم إلا محللين للشهوات والحماقات وللسفه والعدوان الذي يريدونه ويريدون أن يمارسوه تحت تسويغ أو تشريع ما. ومثل الآلهة والأنبياء الذين يظلمهم الناس تحت شعار الإيمان بهم البطل القاتل الذي يظلمه مجتمعه ويمارس كل الجرائم تحت شعار الاتباع له والهتاف به.

إذن لقد كان المجتمع ظالماً لأبطاله القتلة، وإذن لقد كان الأبطال القتلة مظلومين مقتولين!

ولكن هل يمكن أن يجد القارىء في هذا الدفاع شيئاً من الجد، وهل يمكن أن يفترض الكاتب إلا مازحاً مسرفاً في المزاح؟

لقد امتدح الناس في التاريخ الأبطال وعدوهم سماء من سموات العبقرية البشرية. ولكن البشر قد امتدحوا أيضاً في التاريخ كل الرذائل والحماقات، فالتاريخ ليس صادقاً أو عادلاً أو ذكياً في مدائحه وأحكامه. لقد امتدح التاريخ الحروب والقتال والقتل والسرقات والنهب والعداوة والبغضاء والغزو والاسترقاق، وامتدح الذين يستطيعون أن يقتلوا من أعدائهم ومخالفيهم في المذهب أو الوطن أو الدين أكثر، وامتدح التفاخر بأكبر الحماقات التي يخجل اليوم المتحضرون من الحديث عنها. لقد امتدح التاريخ كل ذلك وحول امتداحه له إلى شعر وفلسفة وكتب مقدسة. فامتداح التاريخ للأبطال لا يعني أن لهم قيمة إنسانية أو قيمة من أي نوع.

*

هل المستقبل الزاخر بالاحتمالات الإنسانية الضخمة التي لا حدود لها يعني ذهاب الأبطال وانهزامهم أم بقاءهم وانتصارهم؟ سؤال لا يمكن الجواب عليه، لأن الإنسان يمارس ضعفه تحت

أقوى الظروف كما يمارس هذا الضعف تحت أضعف الظروف بنفس المستوى. وإن أقوى الناس وأفضلهم ليعيش الضعف الإنساني الذي يعيشه أضعف الناس وأسوؤهم، إن الاحتياجات النفسية التي يعانيها أعظم وأعلم إنسان هي نفس الاحتياجات النفسية التي يعاني منها أتفه وأجهل إنسان.

لعل الضعف الإنساني ليس مستوى حضارياً معيناً، وإنما هو وجود إنساني دائم تعيشه جميع المستويات الحضارية لأنها تعيش جميع الوجود الإنساني.

*

هل نعاني لأنّنا نحيا أم لأنّنا لا نسكن القمر؟

«أما النضال السياسي فما أسوأه وما أكثر ما يغرق الزعماء والحكام والدعاة شعوبهم فيه، إنه جهد ضائع وصراع ضد الإنسان.

لقد وجد الزعماء ـ ولا سيما زعماء البلاد الناشئة والمختلفة والمصابة بالثورات والحكام الثوار ـ وجدوا في السياسة مطحناً هائلاً يطحنون به اللهفة والطاقة والتطلعات والاحتجاجات الإنسانية، كما وجدوا فيها منبراً معلقاً فوق كل الرؤوس ليطلوا من عليائه على كل العالم ويلطخوه بكل ما فيهم من بذاءة وعار وشهرة إعلانية. لقد أعطت الحضارة بوسائلها الحديثة هؤلاء السياسيين كل القدرة على أن يحولوا الدنيا إلى جنون شامل دائم العرض والضجيج.. ما أعظم ذنوب الحضارة التي رفعت كل هذه المنابر لهؤلاء الباصقين عليها من فوقها.

إن السياسة في أكثر المجتمعات ليست إلا أعمال هدم مستمرة معلنة، وهي في المجتمعات المتخلفة أو التي يحكمها طغاة وثوار انطلقوا قفزاً من أعماق الظلام ليتعروا تعرياً دولياً تحت أبهر الأضواء ـ إن السياسة في مثل هذه المجتمعات أبعد وأخطر من أن تكون هدماً فقط، إنها حينئذٍ أشمل وأعظم أبعاداً وأعماقاً، إنها جنون وتهييج وسفاهات وفنون أليمة من الفجور العقلي والأخلاقي.

إن لغة الأعضاء وتعاليمها هي أقوى التعاليم واللغات في العالم وأكثرها قداسة وصدقاً ودولية».

*

الحياة أقوى دائماً من الإنسان، والحياة المتحضرة ترهقه بمشاكلها وتفوقها عليه مع أنه هو خالقها، إن مشاكل الحياة والحضارة ومتاعبهما تتعاظم اليوم أمام أقوى الأمم وأعلمها وأوفرها إمكانيات تعاظماً كأنه يتزايد مع تعاظم تلك الأمم، وكأنه يتحدى قوتها وتفوقها، والمجتمعات تبدو وكأنها عاجزة عن حل مشاكلها ومتاعبها بقدر ما هي عظيمة وقوية. ومن طبيعة الحياة أن

انتصارها يتحول إلى احتياج فيها، وأننا كلما طورناها وتفوقنا فيها احتجنا إلى مواهب أخرى أقوى وأكثر تعقيداً لكي نستطيع مواجهة الظروف الجديدة والتكافؤ معها، إن كل تقدم في الحياة يتحول إلى التزام جديد يفرض نفسه على ذكاء الإنسان وقدرته، وما من براعة تحققها موهبة البشر إلا أصبحت احتياجاً إلى براعات أخرى، فالبراعة تحتاج إلى عديد متسلسل من البراعات المختلفة، إنها ـ أي البراعة ترفض أن تعيش وحدها أو أن تعيش في مجتمع متخلف أو مجتمع مغلق أو في مجتمع لا هموم ولا مشاكل فيه.

ليس من المحتوم بل ولا من المتوقع أن التقدم الهائل الذي وصل إليه الإنسان والذي سوف يصل إليه على مستويات واحتمالات أعظم جداً والذي لن تكون له أية حدود معروفة ـ ليس من المحتوم أو المتوقع أن ذلك سوف يستطيع أن يعالج أو يقلل مشاكل الإنسان ومتاعبه النفسية أو الفنية أو العلمية أو الأخلاقية أو المادية، إن المشاكل والمتاعب قضاء محتوم على الحياة والوجود لكونهما حياة ووجوداً لا لكونهما وجوداً وحياة على مستوى معين، بل المفروض أن تتعاظم وتتعقد المشاكل والمتاعب والهموم التي يواجهها أي مجتمع من المجتمعات بقدر ما يكون ذلك المجتمع متطوراً وقوياً مبدعاً. وليست مشاكل وهموم راكبي الصواريخ المتنقلة بين الكواكب بأقل من هموم ومشاكل حارثي الأرض البسطاء المقبّلين بأكفهم لظهور حيواناتهم الوديعة العاملة معهم بطاعة واستسلام في الحقول دون منطق أو شعارات أو إيمان بمذهب من المذاهب المتكبرة الصانعة للهموم والوقاحات والأحقاد.

إن أي تقدم حضاري وعلمي قد يحل أو يخفف من المتاعب والهموم القديمة، ولكن هذا التقدم الحضاري العلمي سيخلق حتماً هموماً ومتاعب جديدة ومن طراز حديث هي أكثر تعقيداً وإلحاحاً ووحشية، فأي تطور يصنع أي انتصار في أي موقف أو احتياج من الاحتياجات والمواقف محتوم بأن يوجد عديداً من المواقف والاحتياجات، كل منها يحتاج إلى انتصارات هي أكثر ضراوة وقسوة وأبعد منالاً، وأي علاج يحسم به التطور مشكلة من المشاكل لا بد أن يصنع مشاكل هي أكثر عدداً وتحتاج إلى حلول هي أصعب وأضخم تكاليف. إن أكبر الأمم وأكثرها اليوم تقدماً علمياً وفنياً ليست أقل متاعب أو مشاكل أو هموماً أو أقرب إلى علاج أزماتها وتعقيداتها من أصغر الأمم وأقلها مستويات حضارية.

إذا انتصر أي إنسان على إحدى مشاكله العادية المتكررة فاشترى مثلاً سيارة فإن انتصاره هذا على مشكلة مواصلاته سيتحول إلى عدة مشاكل، إلى مشكلة السواق وسكن السيارة ووقودها وصيانتها وموتها يوماً ما. والانتصار على أية مشكلة من هذه المشاكل يتحول أيضاً إلى مشكلة أو إلى عديد من المشاكل. فالسواق الملائم مثلاً إذا ظفرت به يا صاحب تلك السيارة

يتحول إلى عدة مشاكل تفرض نفسها عليك، وقد تكون كل مشكلة منها أكبر من مشكلة الظفر بالسواق. وهكذا عمليات الصيانة والوقود والمأوى واحتمال الموت للسيارة، بل إن مجرد امتلاك السيارة هو في نفسه مشكلة اجتماعية ونفسية وأخلاقية وعقلية. إن المشاكل النفسية والأخلاقية والاجتماعية والفكرية تتعاظم بتعاظم الحياة والكينونة.

وحينما يقفز الإنسان قفزاته المنتظرة الكبرى فيقضي على الأمراض حليفته وصديقته الشريرة، ويصعد إلى الكواكب البعيدة لتكون وطناً له بديلاً عن الأرض أو مع الأرض، ويتعلم كل الناس ويشبعوا ـ وقد يكون هذا ممكناً ـ فإن هذه القفزة العظمى ستقيم مشاكل وأزمات وهموماً أخرى من نوع جديد هي أقسى وأعصى على الحل، ولو انتصر البشر على حاجتهم الأزلية إلى العمل، فقضوا على هذه المشكلة بأن استغنوا عن العمل بكل أساليبه، إذ استطاعوا أن يسددوا احتياجات حياتهم بلا عمل أو بلا تعب، أي بأن جعلوا الآلهة والعلم يصنعان لهم كل شيء وهم مسترخون يلعبون أي نوع من أنواع اللعب المعروفة أو يمارسون العلاقات الجنسية أو يحقدون ويشتمون ويتعلمون السفاهات والفصاحة البذيئة لما كان محتملاً أن يقضوا على همومهم وأزماتهم وآلامهم أو يخففوا منها. وقد تكون مشكلة وجودهم بلا عمل وبلا اهتمامات العمل هي أقسى من كل مشكلة.

إن وجود الإنسان أمام نفسه، متفرغاً للنظر إليها والتفكير فيها والتعامل معها وحدها ـ لو أمكن أن يوجد كاملاً أمام نفسه كاملة أمامه، متفرغاً لها متفرغة له ـ شيء لا يحتمل أو يطاق. لقد احتمل الإنسان وجوده لأنه لم يكن يوجد هكذا أمام نفسه، لقد كان العمل والاهتمام به يلقيان به بعيداً عن نفسه وعن مواجهتها والوجود فيها أو معها وعن التفرغ لها والنظر إليها، لقد كان العمل والاهتمام به يهربان بالإنسان عن ممارسة نفسه ويفقآن عينيه عن رؤيتها، لهذا استطاع أن يتحمل وجوده وأن يضحك ويبتهج ويسعد ويغني أحياناً، بل وأن يعجب بنفسه وبوجوده، فإذا جاءت مشكلة العجز عن العمل والاهتمام به وقف الإنسان أخطر وأبشع موقف، أي وقف مع نفسه وأمامها وحدهما. وهل يحتمل أو يطاق أن يكون الإنسان مع نفسه؟

ماذا يصنع الإنسان بوجوده وحياته لو لم يكن عليه إلا أن يتعامل بهما ويواجههما وينظر إليهما؟ هل يمكن أن يأكل الإنسان وجوده وحياته محولاً لهما إلى لذات؟ وهل يوجد أقسى أو أقبح أو أبذأ من ألا يكون لك أي عمل أو اهتمام إلا أن تحيا اللذة فقط؟ هل يوجد أكثر تعذيباً وتشويهاً لك من أن تنفق جميع اهتماماتك ووجودك وعبقريتك وتدينك وحبك للآلهة في عمل اللذات والتفرغ لها؟ إن الوجود والحياة من أجل اللذة، أو المصروفين إلى عمل اللذة فقط عقاب لا مثيل له في دمامته وبذاءته، وإن التعامل مع اللذات وحدها أسلوب من الجنون الدميم

الكريه ـ إنه لشيء فظيع جداً أن تنصرف إلى التعامل والتفاهم مع أعضائك الشهوانية فقط. إن الأعضاء الشهوانية عار ودمامة يغطيهما العمل والانصراف إليه، فإذا لم يوجد العمل فما الذي يمكن أن يستر هذا العار وهذه الدمامة أو يعتذر عنهما أو يخفف من النظر إليهما بعمق وحساسية؟

ومع أن التطور لا يستطيع أن يعالج أو يخفف الأزمات أو الهموم أو المعاناة فليس للبشر خيار في أن يتطوروا وفي ألا يتطوروا، إن التطور مفروض عليهم كفرض التفاهة والمعاناة والأزمات والمتاعب. ان الإنسان يتطور لأن الحياة وكل شيء يتطور، وإن عمل الإنسان يتطور لأنه هو يتطور، إنه لا خيار في تطور الحياة، إذن لا خيار في تطور الإنسان، إذن لا خيار في تطور حضارته وكينونته مهما كان الثمن أو النتيجة.

إنه لمحال أن يتطور العمل ثم لا يتطور العامل، أو أن يتطور العامل ثم لا يتطور العمل، أو أن تتطور الحياة ثم لا يتطور الأحياء، أو أن يتطور الأحياء دون تطور الحياة. إن الإنسان يتغير لأن ما يصنعه متغير، وما يصنعه متغير لأنه هو يتغير، وهو وما يصنعه متغيران لأن التغير مفروض على كل الأشياء ليس كفضيلة وجزاء فقط بل وكعقاب ورذيلة. إن الأشياء والناس لا يتغيرون أو لا يتطورون لأنهم يناضلون ضد الجمود والتأخر بل لأنهم لا يستطيعون أن يناضلوا ضد التغير والتطور، فهم يتغيرون ويتطورون ضعفاً وعجزاً عن البقاء في طور واحد كما يمرضون ويهرمون ويموتون وينحرفون في سلوكهم، ولا يفعلون التغير والتطور شجاعة أو قوة. ومع هذا فالمعاناة والمشاكل والمتاعب باقية أو متعاظمة مهما تغيروا وتطوروا، وإنهم ـ كما سبق ـ لا يصنعون التغير والتطور تخلصاً ـ بالتدبير أو بغير تدبير ـ من المشاكل والمتاعب والهموم بل عجزاً عن البقاء في المكان القديم أو عن البقاء في عمر واحد.

إن الإنسان لا بد أن يكون على نحو ما متناسباً مع الظروف الجديدة التي يوجدها أو التي يعيش فيها، والظروف الجديدة لا بد أن تخلق إنساناً جديداً على نحو ما من أنحاء الجدة. وليس بممكن أن يصنع الإنسان القديم حياة جديدة، إنه يصنع حياة جديدة لأنه يكون إنساناً جديداً، وهو يكون إنساناً جديداً لأنه لا يستطيع أن يحمي نفسه من التغير والتطور، بل لا يمكن أن يستطيع الإنسان القديم البقاء ـ لو أراد ـ في ظروف مثل هذه الحياة الجديدة دون أن ينهزم وينهار أو يتغير لكي يستطيع أن يبقى.

إن كل طور من أطوار الحياة يحتاج إلى طور من أطوار الإنسان أي من أطوار تفكيره ووعيه وطاقاته وأخلاقه، ولكن المشاكل والمتاعب مع ذلك تبقى أو تزداد مهما اختلف نوعها، وكلما تعاظمت الحياة تعاظمت أزماتها وضروراتها وهمومها وضغوطها العنيفة على الإنسان. وما من شيء يسد احتياجاً إلا ويخلق احتياجات، والحدث الجديد يوجد ضرورات وهموماً وظروفاً

جديدة، فالذين يركبون صاروخاً في رحلة طويلة إلى القمر لن تكون احتياجاتهم واهتماماتهم مثل احتياجات واهتمامات من يركبون دابة من دواب التاريخ التي كان معلمو آبائنا يركبون مثلها في أسفارهم ليعلموا الناس كيف يموتون في الأرض ليحيوا في السماء، وكيف يحبون الله بكراهتهم للناس، وكيف يحبون الناس بتعليمهم ما يجعلهم يبغضونهم!

وقد أصبح الإنسان في المجتمعات التي صنعت الحضارة إنساناً جديداً، ومع هذا فما أقسى نضاله ضد نفسه ليكون جديداً أكثر وأعمق، إنه يخاف أن يتخلف عن عصره المرهق فيعجز عن التكافؤ مع الظروف والأزمات والاهتمامات التي يخلقها هو بتقدمه، أو يخلقها خصومه وجيرانه حوله بتقدمهم.

وإذا عجز الإنسان عن التجديد في حضارته لم يكن ممكناً أن يظل متحضراً، فالحضارة كائن حي لا يمكن أن يتجمد في طور من أطوار وجوده بلا حركة أو تغير، إنها ـ أي الحضارة لا بد أن تتقدم أو تتراجع لتكون غير موجودة.

إن مقدار الفرق كبير في البطء والسرعة بين نمو البشر في مواهبهم كذوات وبين نموهم في أعمالهم كآلات، فالفرق بين الإنسان والإنسان في الكينونة الذاتية في مدى معين من التاريخ ليس متناسباً مع الفرق بين الكينونة الحضارية والكينونة الحضارية في هذه المدة من التاريخ، وهذا هو الذي جعل البشر مع تقدمهم الهائل يبدون أضعف من حضارتهم ومن مشاكلها والتزاماتها، بل يبدون أقزاماً أمام العملاق الحضاري الذي خلقوه وخلقوا منه قوة ضخمة كأنها تريد أن تهبهم المخاوف والإعياء والتعقيدات بدل أن تهبهم الراحة والأمان والحلول.

ولكن هل البشر يتغيرون؟ إن ما يفعلون ويعلمون يتغير حتماً تغيراً كبيراً، ولكن هل هم يتغيرون حقاً؟ إذا تعلمت التصوير أو الرسم أو الخط الجميل فهل معنى هذا أنك قد تغيرت أي تغير الإنسان الذي في داخلك؟ وإذا أبدعت الحضارة أو حلقت بين النجوم في أحد الصواريخ التي أبدعتها الحضارة فهل معنى هذا أنك قد تغيرت كإنسان؟ وما معنى تغير الإنسان؟ إن معارفه ووسائله وتعبيراته وأفكاره ومذاهبه تتغير كما تتغير منازله ولغاته، ولكن هل هذا يعني تغيره؟ إذا تعلمت زراعة البقول أو دباغة الجلود فهل يتغير الإنسان الذي يقيم فيك؟ إذا لم يتغير فإن إبداعك الحضارة لا يعني أيضاً تغيرك، وإذا تغيرت بتعلمك زراعة البقول وصباغة الجلود فإن التغير حينئذٍ محتوم في كل الحالات بلا حضارة أو تقدم، محتوم بسبب الوجود أي لأن الوجود يلزم الموجود بالتغير، إن الحيوانات تتعلم أشياء، كثيرة وبارعة، يعلمها إياها الإنسان، فهل تتغير الحيوانات إذا علمت هذه الأشياء الكثيرة البارعة؟

أكثر الناس، أو لعل كل الناس ـ على مستوى من المستويات ـ يريدون أن يظلوا مثل كائن غريب، بعضه حي وبعضه ميت، نصفه متحرك إلى الأمام والنصف الآخر ساكن أو راجع إلى

الوراء. إن البشر جميعاً أو أكثرهم ـ ولكن على درجات ـ يريدون أن يجمعوا في أنفسهم ـ وإن كان ذلك بلا تدبير ـ بين الإنسان القديم بأفكاره وأخلاقه وأمانيه وهمومه القديمة وبين إنسان جديد متطور متغير، رافض ومتجاوز لكل ما كان في الأمس، لكل ما غاب وراء الأفق الزماني، إنهم يريدون أن يكونوا حياة وموتاً وأن يبقوا في الأمس واليوم وأن يجمعوا بينهما دون أن يتخلوا عن أحدهما أو عن شيء منه لمصلحة الآخر. إن جميع الناس يفعلون ذلك بسلوكهم بل وبأفكارهم مهما كانوا تقدميين بمذاهبهم وتفكيرهم ومحاولاتهم ـ إنهم جميعاً ذلك الكائن الغريب، أو يريدون أن يكونوه ولكنهم قد يصنعون ذلك دون قصد.

إن إنساناً ما لا يستطيع الانفصال عن الماضي كل الانفصال كينونة أو منطقاً، كما لا يستطيع مثل هذا الانفصال عن الحياة. كل إنسان بل كل شيء لا بد أن يكون ماضياً ومستقبلاً وموتاً وحياة وظلاً وشمساً، ولا يمكن أن يكون هذا فقط أو هذا فقط، ولا توجد حدود فاصلة بين هذا وهذا. والانحياز إلى أحد الطرفين مع الابتعاد عن الطرف الآخر ليس تعبيراً عن منطق أو اقتناع، بل عن قدرة وظروف وضرورة. قد يكون منطقنا ضد الماضي والموت ومع هذا يظل وجودنا وسلوكنا ماضياً وموتاً، كما قد يكون سلوكنا ووجودنا حياة ومستقبلاً مع أن منطقنا موت وماض.

إذن اجتماع الموت والحياة والماضي والمستقبل في الإنسان، والحياة والطبيعة هو القانون الصارم، إن كل الأشياء وكل الناس يوجدون ويعيشون وكأنهم معلقون في جسر كأنه معلق بين الموت والحياة والماضي والمستقبل. وكما أنه غير مستطاع الفصل بين الأمس واليوم كذلك غير مستطاع الفصل بين ما في الكائن من موت وحياة ومن ماض ومستقبل. إن التفكير وهو فيما يظن أكثر ما في هذه الطبيعة تمرداً أو ثورة على القوانين هو أعجز الأشياء عن الفصل بين ميته وحيه وماضيه ومستقبله.

توجد اليوم مجتمعات تواجه حضارة لم تصنعها، لهذا لا تفهمها ولا تتكافأ معها في أي مستوى من مستوياتها، ولكنها لا تستطيع الهرب منها أو أن تجد عنها بديلاً. إن هذه الحضارة تفرض نفسها دون بلاغة أخلاقية أو نفسية على هذه المجتمعات، وهذه المجتمعات تواجه بلا خيار هذه الحضارة بأسلوب من فرض عليه مواجهة شيء لا يستطيع أن يفعله ولا أن يتركه، أو شيء يريده ويخافه، أو يريده ولا يستطيعه، أو يشك فيه ويتمناه ـ أي تواجهها بتوتر وصياح وطفولة وغرور، بل تواجهها بمشاعر عدوانية.

إن هذه الحضارة المحتومة تعذب بقسوة هذه المجتمعات التي لم تشارك في إبداعها أو حتى في تخيلها، تعذبها بإلزامها لها، ولأنها غريبة عنها غربة التفوق والنسب والمكان والتاريخ، ولأنها تريد أن تخرجها من حياتها القديمة، من مثلها وأفكارها وتاريخها وآلهتها ومن رضاها

عن أنبيائها وآبائها وإعجابها بهم، ومن كل ما لها من مزايا ضعيفة مريحة، ومن أخلاق ليست متحضرة.

ولكن هذه المجتمعات تتعذب أكثر وأكثر حينما تجد أن هذه الحضارة التي تواجه لا تستطيع أن تستغني عنها ولا أن تجد عنها بديلاً في كل ما لديها من أرباب وآباء وتاريخ ومفاخر تباهي بها، وحينما تجد أنها ـ أي الحضارة ـ عدو لا يمكن هزيمته ولا منافسته. إن هذه المجتمعات تريد الإبقاء على ما كان، أو تعجز ـ ولو بتفكيرها وأمانيها ـ عن الخروج منه أو الرفض له، إنها تريد أن تجمع بين الشيء ونقيضه، فهي لا تستطيع ولا تريد أن تهرب من هذه الحضارة التي صنعها الغرباء بمزاياهم وتفوقهم وبتاريخهم وأعراقهم، وهي من جهة أخرى لا تستطيع كما لا تريد ـ أحياناً ـ التخلص ـ ولو بالمنطق والتفسير والأمل والشعارات ـ من تاريخها المجيد ومن ظروفها وآبائها الموجودين بعمق ورسوخ في بلاغتها وآدابها وفي كتبها المنزلة أيضاً. وهل تستطيع الجمع بينهما بدون إضعاف أحدهما أو هزيمته؟

ولكن ليست هذه هي المشكلة التي تواجه هذه المجتمعات التي قضي عليها بأن تعيش أو تواجه أو تصادق حضارة هي فوق كل مستوياتها الإبداعية والنفسية والفكرية، وفوق قدرتها على الالتزام بكل ما فيها من هموم واهتمامات وأخطار ـ ليست المشكلة هي أفكار أو منطق هذه المجتمعات إزاء هذه الحضارة، بل المشكلة هي عجز هذه المجتمعات إزاء تفوق الحضارة. لقد قضي على هذه المجتمعات تحت وقوعها في قبضة هذا التناقض بين حتمية هذه الحضارة وعجزها عنها بأن تحاول محاولة متعبة مشوهة، تلك هي محاولتها بأن تكون الشيء دون فكرته أو دون مزاياه وجماله والقدرة عليه والتوافق معه، إنها تريد أن تستعير كل جسم الكائن وترفض منه رأسه وروحه ومعانيه الأدبية والأخلاقية، إنها تريد أن تقبل الجسم كجسم فقط وليس كجسم ورأس وروح وخصائص جمالية.

إن هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم في هذه الحضارة الغربية عنهم بكل قدراتها وفضائلها العقلية والنفسية والخيالية والابداعية والأخلاقية ليمارسون اليوم شيئاً عجباً، ذلك أنهم يستعيرون المذاهب والنظم والشعارات وكثيراً من الأساليب الحضارية كأشياء لا كمذاهب أو نظم أو حضارة بكل مواهبها والتزاماتها وأخطارها وتسامحها، فيشوهون ما يأخذون ويحولونه إلى لعنات وبصاق على وجوه الممارسين له والمشاهدين وعلى وجه الحضارة نفسها. إن هؤلاء يأخذون من هذه الحضارة نظمها ومذاهبها وتطبيقاتها أخذاً مشوهاً ثم، يذهبون بجسارة بذيئة يتهمونها بالرجعية والتخلف، ويحاولون أن ينصبوا من أنفسهم معلمين وقادة لها ولمبدعيها.

لقد جاءت هذه الحضارة صدمة أليمة لهذه المجتمعات، أما هذه المجتمعات فقد جاءت دمامة ووقاحة وتشويهاً في هذه الحضارة، بل وسباباً وغيظاً لمن جاؤوا بها.

إذا كانت قوانين الجاذبية هي التي تعوقنا عن الصعود والانفلات من الأرض والتحليق إلى الأعالي فإن جاذبية التاريخ ـ أو على الأصح جاذبية العجز والخوف ـ كأنها تريد أن تعوق هممنا وإرادتنا ومواهبنا عن الارتفاع إلى الأعالي البعيدة، إنه من أجل المضي إلى الأهداف الأمامية أو إلى النجوم لا بد لنا من وضع ذواتنا واهتماماتنا أمامنا وفوقنا، وهل يمكن أن نضع ذواتنا ومحاولاتنا أمامنا أو فوق النجوم ما لم نضع أهواءنا وأفكارنا واهتماماتنا هناك؟ والذين ينقسمون على ذواتهم هل يمكن أن يجمعوا أنفسهم في محاولة قوية أو يوحدوا قبضاتهم في ضربة واحدة؟ والذين يضعون شهواتهم واحتياجاتهم في اتجاه، ويضعون أفكارهم وآمالهم وأشواقهم ومقدساتهم في اتجاه آخر مضاد هل يمكن أن يتجمعوا في ضربة أو خطوة واحدة؟

أليس هذا عجيباً؟ إننا قد نتسامح جداً مع من ينقدون حياتنا ولكننا نرفض التسامح مع من ينقدون موتنا أي وجودنا الذي قد مات، وقد ننقد نحن بمبالغة حياتنا وأساليبنا فيها ثم نصر على تنزيه موتنا أي على تنزيهه من العيوب والأخطاء، إننا قد نتقبل كل ما يقال من اتهام وتشنيع على معلمينا وقادتنا الأحياء ثم نرفض ـ وكأننا ندافع عن الإله نفسه ـ أقل وأذكى نقد يوجه بأدب واحترام جم إلى أحد معلمينا أو قادتنا الروحانيين أو السياسيين الذين قد ماتوا، وقد نرى في ذلك كفراً يصعب غفرانه. إننا دائماً نحترم الموت أكثر من احترامنا للحياة مهما كان هواناً للحياة دون الموت، إن أحلامنا دائماً موت مهما كانت شهواتنا حياة.

إن في البشر دائماً شوقاً إلى أن يجربوا أنفسهم فيما قد مات وأن يبحثوا عن أشواقهم المنزهة أو يتصوروها هناك بعيداً، وهم جميعاً يتصورون أربابهم أشياء قد كانت أي قد ماتت، ولا يتصورونها أشياء سوف تكون أي سوف تحيا وتوجد، إن الأرباب كلها قد كانت موجودة في التاريخ وأدت موهبتها في التاريخ الذي قد كان أيضاً ثم أصبحت شيئاً ميتاً. وجميع المؤمنين يعاملون أربابهم على أنها كائنات قد ماتت وانتهت وانتهى التعامل معها مهما هتفوا باسمها أو صلوا وغضبوا في خصوماتهم مع الآخرين لها!

ماذا نجد في ثقافة وتفكير كثير من المجتمعات والهيئات المذهبية، وما هي موضوعاتها؟ أليست طريقاً طويلاً يراد له أن يصل الأحياء بالموتى، وتشييداً أو تجديداً أو تنظيفاً لهذا الطريق؟ ثم أليست أغلب أو أفضل موضوعات هذه المجتمعات موضوعات ورائية قبورية قد تخطت حدود الحياة وحماسها واهتماماتها ومشاكلها؟ إنها تعلم ما قد كان أكثر مما تعلم ما سوف يكون. ما أكثر الذين كتبوا والذين يكتبون والذين سوف يظلون يكتبون عن الموت والموتى، عن الأرباب والمعلمين والأنبياء الذين قد ماتوا، وما أقل من كتبوا ويكتبون في هذه المجتمعات عن الحياة والأحياء بالوقار ومشاعر القداسة والرهبة التي كتبوا بها ويكتبون عن الموت والأموات.

حتى من يعدون ثواراً ومتحررين جداً يهبون موتهم وموتاهم قداسة وتفضيلاً لا يهبون مثله

لحياتهم وأحيائهم. إن ماركس ولينين لينالان من الاحترام والتفضيل ما لا يمكن أن ينال مثله أي زعيم أو مفكر شيوعي حي في العالم الشيوعي، وإن المؤمنين بالأنبياء أقوى إيمان لا يخضعون حياتهم لتعاليم أنبيائهم أكثر من إخضاع أي مجتمع حياته وأفكاره لتعاليم قادة المذهب أو النظام الذي ينتسب إليه.

إن أكبر وأفضل نماذج البشر هي دائماً نماذج تعيش في القبور.

يبدو أن للموت مكانة عالمية، ويبدو أن كل المجتمعات والناس يحترمونه على درجات متفاوتة وبتعبيرات مختلفة. أكثر الناس يرفضون تغيير أفكارهم ومذاهبهم محافظة على احترامهم للموت والموتى مهما تغيروا في صور حياتهم وفسقوا في سلوكهم، بل مهما تغيرت أفكارهم ومذاهبهم دون أن يريدوا وأحياناً دون أن يدروا. إن الكثيرين من المحترمين للموتى قد تتغير أفكارهم ومذاهبهم ثم يرون أنها لم تتغير لأن تغيرها يجعلها مخالفة ـ في ظنهم ـ لأفكار أولئك الموتى الذين يحترمون، كل المثل والآلهة والعقائد بل والعواطف يجب أن تكون كالذي قد مات. إنهم يحترمون الموت ـ أي الموتى، إذن كم هو شيء فاضل أن يكون الموت مثلاً عالمياً أعلى، يبحث الجميع عن احتذائه بالفكر والمذهب وإن كان لا يستطيعه أحد بالسلوك ـ حتى أولئك الذين يعدون متحررين جداً.

إن لدى كل المجتمعات قيماً فكرية وأخلاقية كثيرة يراد لها أن تكون النموذج الدائم العام، وفي كل مجتمع أنواع مختلفة من هذه القيم التي هي امتداد للموت القديم جداً، إنه لمنطق دولي دائم أخذ القيم الفكرية والأخلاقية والإنسانية عن أقوام من الموتى، ولا يوجد مجتمع مهما كان مستواه الحضاري والثقافي لا تقتات أفكاره وقيمه بأفكاره وقيم تسكن القبور المتهدمة، أو لا يتمنى أن يحدث ذلك. حتى العداوات يجب ألا تتغير أو من الصعب أن تتغير لئلا تكون مخالفة لعداوات قوم قد ماتوا، إن أعداء الأمس يجب أن يظلوا أعداء اليوم وأعداء الأبد، إن أعداء معلمينا وآبائنا الذين قد شبعوا موتاً يجب أن يظلوا أعداءنا أيضاً.

والأحقاد يجب توزيعها كما كان السلف الماضون يوزعونها، كما كانوا يوزعونها على الأشرار والأبالسة. لقد تغير إبليس وأصبح كائناً بريئاً أو طيباً أو مظلوماً أو لا وجود له، ومع هذا يجب أن تصب على رأسه الاتهامات واللعنات لأن الذين قد ماتوا هكذا كانوا يفعلون. إن المثل، مثل كل الناس وكل المجتمعات يجب أن تظل مثلاً ميتة، مقاساتها دائماً مقاسات موتى، إن المقامات الفكرية والمذهبية لكل البشر هي مقاسات قوم قد ماتوا، وهي أيضاً مقاسات قد وضعها قوم من الأموات.

ما أفظع وأطول هذا الطريق الكئيب المسدود بجثث المعلمين والأرباب وبجثث الكتب والمذاهب والأفكار التي يمر من فوقه جميع الرواد والمسافرين. إن بعض أو أكثر المجتمعات لو

جمع بين طرفي ثقافتها، بين ثقافتها بما فيها من قيم ومثل وأرباب وقديسين منذ ألف عام، وبين ثقافتها اليوم بعد هذه الرحلة الطويلة العنيفة في دروب الزمن، أي لو جمع بين نهجها أو مستواها في التفكير والتعبير والطفولة والغفلة وفي الاحتلام في العهدين المتباعدين لجاء التشابه بين الطرفين شيئاً مثيراً.

ما أطول ما يعيش الإنسان في قبوره مهما تغيرت وتحركت أساليب حياته، إن روحاً واحدة أو قبراً واحداً قد تعيش فيه شعوب ومجتمعات كثيرة مختلفة الظروف والعصور والثقافات والأعراق آلاف الأعوام ـ أي بأفكارها وأحلامها وأشواقها. كم سيعيش البشر في قبر ماركس ولينين وكم عاشوا في قبر بوذا وفي القبور الأخرى المشابهة بل القبور الأخرى المتفوقة في قسوتها وسلطانها. والبشر يعيشون بأفكارهم ومثلهم في القبور مهما عاشوا خارجها بسلوكهم وشهواتهم، بل مهما بصقت على تلك القبور نقائصهم وذنوبهم. إن الأفكار والمثل بطيئة التغير، وإن كثيراً من المجتمعات والناس تتغير حياتهم تغيراً كبيراً حتى لتصبح شيئاً مخالفاً جداً ثم تظل أفكارهم وقيمهم المنطقية والأخلاقية ثابتة كأن الزمن لا يمر فوقها، وكأنها لا تتعامل مع الحياة والأحداث والأشياء الدائمة التغير منذ وجودها لرسوخها ومحافظتها على نفسها دون أن تصاب بالتغير. إنها معزولة عن التعامل مع الزمن والأشياء والحياة ومع نفسها.

إن حياة الناس أسرع وأكثر تغيراً وقلقاً من تفكيرهم ومن تقويمهم الأخلاقي للأشياء.

ولكن توجد مع هذا ظاهرة أخرى مناقضة، هي أن بعض الناس تتغير أفكارهم وأحكامهم العقلية على الأشياء قبل أن تتغير حياتهم بل دون أن تستطيع حياتهم التغير لو أرادوه لها. إن منطقهم أسرع جداً من حياتهم بل أسرع في تحركه من حياة كل المجتمعات، بل لعل منطقهم أسرع تحركاً من كل ما في المجتمعات من قدرة على التغير وإرادة واستعداد له. إن منطق هؤلاء المرضى لا يسبق فقط حدوث الشيء أو احتمالات حدوثه بل يسبق التفكير في احتمالات حدوثه. وقد تقترن أحياناً هذه الظاهرة بظاهرة أخرى قد تعد نقيضة لها، تلك هي أن بعض هؤلاء الشاذين الذين يسبقون كثيراً بمنطقهم قد يتخلفون بنسبة مساوية أو متفوقة في سلوكهم، إنهم يتفوقون على كل الناس بسرعة وقوة تغيير منطقهم ثم يتخلفون عنهم جداً في تغيير حياتهم، وقد يظلون محافظين أو رجعيين أو أتقياء جداً حينما يحيون أو يتعاملون، بينما يصبحون متمردين وزنادقة على مستوى بعيد جداً حينما يفكرون أو يحتجون بعقولهم أو يناقشون الأشياء. وهم بهذا يناقضون الأكثرين، فالأكثرون محافظون ورجعيون وأتقياء في إيمانهم بالآلهة والمذاهب والقيم وفي احترامهم لها، بينما هم متغيرون أو مجددون أو فاسقون أو زنادقة جداً في تعاملهم مع هذه الآلهة والمذاهب والقيم وفي تقيد شهواتهم بها، أما هؤلاء الأقلون فهم التعبير عن النقيض.

وقد يكون السبب أن هؤلاء السباقين الكافرين بأفكارهم، الرجعيين أو البطيئين أو الأتقياء في حياتهم قوم احتجاجيون بخصائصهم النفسية والعقلية ـ احتجاجيون وليسوا فضلاء. والخصائص الاحتجاجية فيهم تجعلهم يتغيرون فكرياً ونفسياً تغيراً بعيداً وأليماً، لأن كل ما في الكون والحياة والمجتمعات والناس والمذاهب والآلهة يجعل التغير الفكري والنفسي الذي يصنعه الاحتجاج شيئاً محتوماً ومرهقاً، لأن كل شيء هنا وهناك لا بد أن يتحدى العقل والمسلمات العقلية على نحو ما، إن في كل شيء ظلماً ودمامة وعبثاً، ولا تخفى هذه الدمامة والظلم والعبث إلا على من ماتت فيهم جميع صفات الاحتجاج وأغلقوا كل احتمالات الرؤية والغضب في أنفسهم.

إن كل شيء في الكون والحياة والناس ليتحدى الصمت والتسليم وينادي كل الناس بكل اللغات وأدوات التعبير والإثارة: ان انظروا هنا أو هنا أو هنالك، فكم تجدون وترون من دمامات ومظالم وأخطاء وتناقضات لا معنى لها ومن عبث صادم لكل منطق ساخر من اقتناع، إن كل ما تجدون حيثما توجهتم يصنع الألم أو يقع عليه الألم في وقت ما وبأسلوب ما، مهما كان في وقت ما وبأسلوب ما جميلاً وعادلاً ومعقولاً وصانعاً للسرور واللذة.

ولأن هؤلاء الأقلين محتجون أو مفروض عليهم الاحتجاج أو مصابون بمرض الاحتجاج العقلي والنفسي، قد يصبحون مستقيمين أو رجعيين أو عاجزين في سلوكهم ـ لا فضلاء ـ لأن طبيعة الاحتجاج فيهم تعوقهم عن الاقتحام والتقدم والوصول، لأنهم لا بد أن يحتجوا ضد أنفسهم لو حاولوا أن يخطوا أو أرادوا أن يخطوا، ولأنهم يحتجون ضد الأشياء، وهذا الاحتجاج ضد الأشياء يجعلهم يصطدمون بها ويستنكرونها بدل أن يتلاءموا معها أو يمارسوها. أما الأكثرون فإنهم يقتحمون الأشياء حتى الأشياء الذميمة أو المحتقرة أو الصغيرة جداً، ويتغيرون دون أن يحتجوا أي احتجاج على أنفسهم أو على الأشياء التي يمارسونها مهما كانت ذميمة أو صغيرة أو حقيرة، ودون أن يحتجوا أيضاً على التناقض بين مذاهبهم وأربابهم وبين سلوكهم وبذاءاتهم الأخلاقية، لأنهم لا يحتجون على شيء. إنهم يملكون مزايا عجيبة، إن عقائدهم لا ترى أعمالهم، وإن أعمالهم لا ترى عقائدهم لأنهم لا يملكون أية رؤية وإنما يعتقدون ويفعلون بلا رؤية. وهم لا يصطدمون أبداً بالأشياء ولا بأنفسهم مهما تناقضوا معها.

*

قد يكون من التكرار القول بأن الذين يدافعون عن الأفكار والقيم التي جاء بها الأرباب والمعلمون الذين يسكنون القبور التي تخطاها الزمن بعيداً، لا يدافعون عنها احتراماً لها وللأرباب والمعلمين الراقدين في مضاجع التاريخ، والذين علموها دون أن يستطيعوا التزامها، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم وظروفهم ويقاتلون الآخرين بحجة الدفاع عنها. إن هؤلا يشبهون

النائمين بعمق إذ يكرهون من يوقظونهم، أو يشبهون المتمددين على الطريق في كسل واسترخاء حينما يلعنون من يحاولون إبعادهم. فليس الموقف موقف حب أو صداقة أو فضيلة أو إيمان بل موقف بلادة وعجز. فالخروج من القيم الميتة والتخطي لها ـ ولو فكرياً فقط ـ تكليف وإرهاق وفراغ ووحشة، والفراغ عذاب وضياع وحيرة.

إن هؤلاء المؤمنين قد يتسامحون مع من يصلبون أولئك الأرباب والمعلمين ولكنهم يرفضون نقد العقائد والأفكار والمثل التي جاء بها أولئك الأرباب والمعلمون، إنهم قد يستغنون عن كل الأرباب والمعلمين، ولكنهم لا يستطيعون الاستغناء عن التعاليم والعقائد، ولهذا يموت المعلم وتظل تعاليمه أكثر حياة وقوة، إن المؤمنين ليتقبلون بكرم وتهذيب عجيب أن تملأ بيوتهم وموائدهم وملابسهم وفرشهم الصراصير والفئران والذباب ثم يرفضون بوحشية مذهبية أو دينية أن تقف مع أفكارهم ومثلهم المهجورة أية أفكار أو مثل أخرى مخالفة ـ إنهم يرفضون أن تقف مع أفكارهم وأربابهم أفكار وأرباب أخرى ثم يتقبلون بلا أي غضب أو اشمئزاز أن تصافحهم وتستلقي على موائدهم وعيونهم الحشرات الساخر وجودها من كل المعلمين والأرباب، بل أن تبصق هذه الحشرات على وجوههم ووجوه أطفالهم! قوم ينامون باستغراق وشهوة تحت طعنات أفتك الحشرات السامة مبتسمين لكل ما في الطبيعة والأرباب من جمال وذكاء، ثم يرتجفون ألماً وغضباً أو تديناً أو مذهبية حين يمر من حولهم الحديث عن الآراء المخالفة والأرباب الآخرين. هل هم أتقياء أو أذكياء؟ هل منظر الحشرات على الطعام وفوق الوجوه وفي نسيج الفرش أكثر جمالاً وتهذيباً وإرضاء للآلهة والمعلمين من وجوه الأرباب والمذاهب الأخرى؟

لقد كان المفروض أن يتسامح الناس جميعاً إزاء جميع الآراء مهما كانت هذه الآراء لأن الآراء وكل المذاهب والمعتقدات لا تعني شيئاً لأنها لا تعني الالتزام بها، فالسلوك والأعمال والأهواء تبقى كما هي وحشاً مفترساً، لا تتقيد بأية عقيدة أو مذهب أو دين ينهاها أو يأمرها، وتسير في طريقها تقتل وتريد وتقتحم جميع الحواجز غير مستأذنة أربابها أو مذاهبها أو منتظرة من يفسر لها هذه الأرباب والمذاهب.

إذن ما ضرر المذاهب والآراء المخالفة ولماذا الخوف منها؟ إنها لا تلزم المؤمنين بها ولا المخالفين لها، ولا تتحول إلى قيد ـ مهما كان واهياً ـ على رغباتهم أو على قانون الاقتحام فيهم. فلتوجد إذن المذاهب والآراء المخالفة ولتنتشر وليكثر الدعاة إليها وليرفعوا أصوات التبشير بها، وليحولوا كل الدنيا إلى أجهزة دعائية تشرح مزاياها وتمارس عمليات الاقناع بها ـ ليحدث كل ذلك فهو لا شيء لأن المذاهب والمثل لا تعني الالتزام أو الالزام، إنها لغو وحديث، وإنها شعر ينشد بتوتر وطرب أو باسترخاء وذهول دون أن تتحول إلى صخور عاتية أو جدران صاعدة تغلق الطريق

لتمنع المارين الذاهبين إلى مباذلهم وشهواتهم بكل جسارة وافتضاح. إذن لماذا خافوا المذاهب والآراء الأخرى المخالفة؟

لا يحتمل أنهم قد فعلوا ذلك احتراماً لمذاهبهم وأربابهم التي أرادوا لها أن تكون وحدها في السوق، تنزيهاً لها عن الشريك والمنافسة، إنهم لا يحترمون هذه، ولهذا يعصونها دائماً ولا يتذكرونها برهبة أو محبة حينما يشتهون ممارسة أعضائهم المحرمة. إذن هل يمكن أنهم خافوا الأفكار والعقائد المخالفة لأنهم كانوا يجهلون أنها لا تعني شيئاً في سلوك الناس؟ هل ظنوها قوة مانعة لهذا خافوها وقاوموها؟ لعلهم لم يفطنوا إلى أنهم هم لا يلتزمونها وإن كل الآخرين مثلهم في هذا العجز عن الالتزام، وإذا لم يكن هذا هو السبب فلعلهم وجدوا أن المذاهب والأفكار ـ وإن كانت لا تعني الالتزام، إلا أنها قد تدل على ما ينطوي عليه القائلون بها من اتجاه وطموح ونيات، فالذي ينادي بمذهب أو اعتقاد هو حتماً لا يلتزمه كمذهب أو اعتقاد، ولكن مناداته به قد تكون علامة على ما يفكر فيه وعلى ما يريد أن يصنع لو استطاع، وهذا يكفي للخوف من المنادين بالمذاهب والأرباب المخالفة. إن هؤلاء المنادين مخيفون لأنهم قد ينوون شيئاً لا لأنهم يؤمنون بشيء.

وقد يكون السبب أنهم يرون أن مجرد وجود المعتقدات والقيم والآلهة الخارجة على ما عندهم نوع من الهجاء والشتم لهم والخروج عليهم، قد يعتقدون أن هذه الآلهة والمعتقدات والقيم هي قصائد هجاء توجه إليهم ويشتمون بها، أما المنادون بها فكأنما هم قوم ينشدون هذه القصائد ويغنونها ويحفظونها ويفسرونها. والهجاء والسباب يرفضان لأنهما بذاءة وصانعان للغضب والألم وإن كانا لا يقتلان أو يضران. والناس جميعاً يكرهون وقد يقاومون أشياء لا تستطيع أن تقتلهم أو تضرهم، إن غضبهم وعواطفهم وتصرفاتهم ليست مادية دائماً. وأكثر الأشياء التي تثيرهم وتضعهم أمام معاركهم الجنونية ليست مما يقتل أو يضر، فالكراهة والمقاومة، وكذا الحب والمسالمة خاضعة لأهواء الطفولة وحماقتها وانفعالاتها لدى أكثر الناس نضجاً وذكاءً ومكانة، وليست متقيدة أو محكومة بالوقار الأسطوري الذي يقع الحديث عنه كثيراً ولا يقع التعامل عليه أبداً إلا معاناة كاذبة أحياناً.

إن البشر جميعاً يحبون أنفسهم ويفضلونها على الآخرين ويدافعون عنها، ويبغضون خصومهم ويتمنون لهم الهلاك وليس في هذا أي مستوى من مستويات الوقار.

*

إن الخطر على الناس جميعاً، على الأقوياء والضعفاء يجيء في هذا العصر بل وفي كل عصر من العجز عن إبداع الحياة ومواجهة الطبيعة، ولا يجيء من الأعداء، وليس للإنسان اليوم بل في كل الأوقات عدو أقوى من ضعفه وعجزه عن التفوق على الطبيعة، ونضال البشر في

جميع العصور مصروف إلى محاولة هذا التفوق مهما بدا في أوقات كثيرة إن نضالهم مصروف إلى مقاومة الخصوم أو إلى مقاومة كل الآخرين وإلى كراهتهم والحقد عليهم. والمعركة ضد الطبيعة للانتصار عليها وقهر شرورها والانتفاع بمزاياها ومواردها هي معركة ضد جميع الخصوم والأعداء، وإن من يهزم أمام الأعداء والخصوم فإنما هو مهزوم قبل ذلك أمام الطبيعة.

إن على من يخوضون المعركة ضد الطبيعة ـ وهذه المعركة هي قدر على كل كائن ـ أن يجددوا أجهزة حياتهم تجديداً مستمراً ويجددون جميع الأسلحة التي يدخلون بها هذه المعركة الأبدية العقيمة ـ إن عليهم أن يغيروا أو يجربوا دائماً أفكارهم ومثلهم وأخلاقهم وألا يبحثوا عن سلاحهم بين المقابر القديمة المحروسة بأغبى الأرباب والعقائد، كما أن المحارب في أية معركة حديثة لا ينبغي له أن يبحث عن أسلحته في مقابر آبائه بل أن يبتكر أحدث الأسلحة، إن على جميع المحاربين ضد الطبيعة أن ينطلقوا في وقاحات الحياة وزندقاتها ويتعاملوا مع ضروراتها وآلامها وكل ظروفها وكأنه لا مذاهب ولا قيم ولا آلهة تناديهم من وراء حدود الحياة أو تتخاطب بأية لغة مع عقولهم وحركاتهم واتجاهاتهم، إن المطلوب أن ينسوا جميعاً كل لغات الموتى وأن يجهلوا تفسيرات ومعاني ما كانوا يفعلون ويريدون. ولكن هل يستطيعون ذلك؟

إني أتكلم أحياناً بلغة الطفولة أو بلغة الآلهة الساذجة التي لا تعرف لغة الطبيعة ولا لغة الأعضاء التي تدين لها كل اللغات بالطاعة والحب، إني أتكلم أحياناً كواعظ، فأنا حينما أقول: «إن عليهم أن يفعلوا» «إن علينا أن نكون ـ إنه يجب أو يلزم أو يطلب أو يحل ويحرم ويصح أو لا يصح» وأمثال ذلك مما فيه معنى الأمر أو النهي أو النصح ـ نعم أنا حينما أفعل ذلك لست إلا واعظاً مصاباً بالغفلة، أو لست إلا معلماً من المعلمين القدماء الذين كانوا يجهلون كل صفات الأبالسة التي تقيم داخل ذواتهم ولا يستطيعون الخروج عليها أو التعامل مع سواها.

وليس لكل ما أعطاه المعلمون والكتاب الوعاظ الذين جاؤوا يأمرون وينهون ويحللون ويحرمون وينصحون من قيمة أكثر من أن يشغل الكاتب والمعلم والقارىء والسامع وأن تسرق من حسابات البشر وعملهم تكاليف الكتابة والنشر والتوزيع والتبليغ. إن كتب التعاليم والأوامر والنواهي التي تطلب من الناس أن يكونوا وألا يكونوا، والتي تحاول أن تصنع للإنسان سلوكاً وأخلاقاً وشهوات نظيفة أو شهوات بلا شيطان ـ إن جميع هذه الكتب التي تثقل تاريخ الكلمة بوزر السخافة لم تكن إلا لغواً يفعله الكبار جداً ويتناقلونه بعضهم عن بعض دون أن يسأل بعضهم بعضاً عن جدوى ما يفعلون. لقد كانوا يفعلون اللغو وهم عابسون متجهمون كأنما يصنعون للكون ثوباً أو خلقاً جديداً وللبشر طبيعة مبتكرة تخيلوها وأرادوها لهم بمحبة وعناية ورشاقة وذكاء. إنه لغو عجيب، لغو عظيم الحظ، لهذا كان يقرؤه ويسمعه كل الناس في كل

العصور دون أن تقرأ أو تسمع أو تفهم منه أهواؤهم أو أخلاقهم أو مصالحهم أو أعضاؤهم حرفاً واحداً.

وإذن كيف حدث أن وجد المعلمون والكتّاب والوعّاظ أو كيف تحول بعض الناس إلى معلمين وكتّاب ووعّاظ؟ هل وجدوا بأي أسلوب أن التعاليم والمواعظ تصوغ الناس أية صياغة أو تضعف فيهم جبروت الطبيعة، وهل كانوا يصنعون التعاليم والعظات لأنهم يحبون الإنسان ويناضلون لإصلاحه؟ إذن لقد كان لديهم اقتناع بأن ما يفعلون يصلح الناس وفضيلة تجعلهم يفعلون ما يصلح الناس، فهم إذن فدائيون وقديسون.

ولكن في المسألة تفسيراً آخر قد يكون غير سار إلا أنه مع هذا قد يكون هو التفسير الصحيح الأليم. يقول هذا التفسير الحزين إن هؤلاء الوعاظ من معلمين وكتّاب ليسوا سوى قوم يعانون في داخلهم تصادماً وقتالاً، ويحاولون أن يردوا على هذا التصادم والقتال الذاتي رداً ما، بلغة أو أسلوب ما دون أن يقتنعوا عقلياً بقيمة ما يفعلون ودون أن يكون في حسابهم أية إرادة لإصلاح الآخرين الذين يجعلون منهم ميداناً وأهدافاً لإطلاق أسلحتهم، إن هؤلاء الكتّاب والمعلمين قوم يقاتلون وحوشاً تعيش في أنفسهم وفي تاريخهم، بسلاح ولغة غير مفهومة. ليست المواعظ والتعاليم التي يلقي بها الدعاة والكتّاب فوق المجتمعات سوى أسلحة غزو وسوى أنين وبكاء تحولا إلى لغة موجهة إلى الناس كما توجه أدوات القتال إلى الأعداء أو إلى طرائد الصيد، وليست كذلك سوى سباب يسب به المعلم أو الكاتب نفسه أو وحوشه الذاتية وظروفه وتاريخه، ويسب به الآخرين بأسلوب يجعله يبدو أمام المجتمع وأمام نفسه كاتباً ومعلماً ومصلحاً.

إن الكاتب وكذا المعلم لا يتخاطب بما يقول مع الناس وإنما يتخاطب مع آلامه أو طموحه أو ضياعه أو نفاقه أو مهنته بشتم الناس وإغضابهم والاعتداء عليهم وإثارتهم بالتحدي والمخالفة وبالسقوط فوقهم أو بينهم عارياً صارخاً. إن الطير والحيوان حينما ينوح أو يغني لا يعني أن يكون معلماً أو نبياً أو زعيماً ثائراً يعلم الناس المذهبية والوطنية أو الأخلاق أو الإيمان بالإله، ومثل الطير والحيوان الإنساني حينما يصبح كاتباً أو داعية يبصق على الناس همومه وآلامه بأسلوب دعائي ضاج بالأنين والضراعة أو النفاق وإرادة الإعلان.

إن المعلم أو الكاتب لا يعلم ولا يكتب حينما يفعل ذلك ولكنه يبكي وأحياناً يغني، وأحياناً يكذب، وأحياناً يتاجر، إذن هو على كل الحالات لا يتكلم، لا يفسر منطقاً ولا يعرض فضيلة وإنما يعبر عن حالة من حالاته بكلمات، ولكن بغير لغة أي بغير اللغة التي يفهم بها الشيء.

أريد أن أعترف هنا بأني أبكي لا أغني ولا أقدم تعاليم أو أفكاراً، وإني أصف فقط لا أصنع، ولكني أعترف أيضاً بأني هنا لا أكذب، ولست أطمع أو أرجو أن يصدقني أحد في هذا

الاعتراف الأخير، ولكن هل أتمنى أن يكون الكاتب هكذا دائماً أي باكياً صادقاً؟ هل صدق الكاتب فضيلة؟ كل الناس يقولون إنه فضيلة ولكن لنا أن نشك في هذا الذي يقولون، أو لا نستطيع إلا أن نشك فيه. وما هو الفرق بين الصدق والكذب؟ إن الصدق والكذب حالة نفسية وليس وجوداً خارجياً، وهل يمكن أن يتكلم أحد بدون حالة نفسية؟

إذن كل صادق هو كاذب على معنى من المعاني، وكل كاذب هو صادق على هذا المعنى من المعاني. فالذي يمدح كاذباً طاغية من الطغاة هو صادق على أحد التفسيرات أو على تفسيرات كثيرة. هو صادق في أنه يريد إقناع ذلك الطاغية بامتداحه إياه، وصادق في أنه يخافه أو يرجوه، وفي أنه يريد الافلات من غضبه أو الافادة من عبثه، وهكذا حينما يذم كاذباً، إنه يكون صادقاً في بعض أهدافه ومقاصده أو حالاته النفسية. إذن لا صدق بلا كذب، ولا كذب بلا صدق، والفرق بين الصادق والكاذب ليس إلا فرقاً تفسيرياً.

*

إن البشر مهما أرادوا التحرر من الموت فإنهم لا يستطيعون ذلك، إنه لا يمكن الانفصال عن الموتى، إن الموتى يبقون في الأحياء كما يبقى الأمس في اليوم واليوم في الغد والغد في اليوم الذي بعده، وكما يبقى الأبناء في آبائهم وأجدادهم على نحو ما. وإذا كانت النبتة أو الحبة لا تستطيع أن تتخلص من آبائها الذين قد ماتوا مع أنها بلا تعاليم أو أديان أو آلهة أو صلوات متكررة تربطها بهم وتتهمها بالخيانة والعمالة إذا خرجت عليهم، فكيف يستطيع ذلك الإنسان المربوط المقتول بأقوى التعاليم والتقاليد وبالتعود على الخضوع للسلف والآباء؟

*

سبق أن النضال ضد الطبيعة هو النضال المجدي، وأن كل نضال آخر لا قيمة له حتى النضال ضد الخصوم والأعداء ـ أي نضال البشر بعضهم ضد بعض ليس شيئاً غير مجد فقط، بل هو نضال مدمر يأخذ من الإنسان ولا يعطيه شيئاً أبداً.

أما النضال السياسي فما أسوأه وما أكثر ما يغرق فيه الزعماء والحكام والدعاة والكتّاب شعوبهم، إنه أقبح جهد ضائع وصراع ضد الإنسان. ولقد وجد الزعماء والحكام ـ ولا سيما زعماء وحكام البلاد الناشئة والمتخلفة والمصابة بالثورات ـ في السياسة فرناً هائلاً لتوليد التوتر والخوف والجنون، ومنبراً معلقاً فوق كل الرؤوس ليطلوا من فوقه ويقذفوا العالم بكل ما فيهم من النقائص والتفاهات وشهوات الاعلان. لقد أعطتهم الحضارة بوسائلها الجديدة كل الفرص لكي يحولوا الدنيا إلى جنون شامل دائم العرض والضجيج. ما أقبح الحضارة التي رفعت هذه المنابر لهؤلاء الباصقين عليها من فوقها.

إن النضال السياسي ليس مقاومة إنسانية ولا طاقة من طاقات الحياة وإنما هو حركة توزيع

وإضاعة للانفعالات والأشياء وتصادم بينها، ليس طاقة في الحياة بل تبديد لهذه الطاقة، ولا مقاومة من الإنسان بل مقاومة ضد الإنسان. إن جميع الأعمال السياسية مهما كانت صادقة وقوية لا يمكن أن توجد شيئاً ينفع الإنسان أو الحياة ولكنها في أفضل حالاتها تتخذ الأشياء الموجودة موضوعات ووقوداً لها، إنها توزع الأشياء وتحولها إلى أدوات لعب لها ولكنها لا تبدعها. إن السياسة ليست إلا مستهلكاً لعبقرية الإنسان وسارقاً مفسداً لها. وكثير من الزعماء في كثير من المجتمعات لا يعلمون سوى السياسة وإن كانوا يحتاجون إلى معرفتها، وقد يرون أنهم بذلك يفعلون كل العبقرية ـ أو أن السياسة هي أكثر ما يعملون وأكثر ما يهتمون به.

والسياسة في جميع ظروفها وجميع حالات التعامل عليها لا تكون إلا صانعة للكارثة والأزمة أو كاشفة لهما معبرة عنهما. والأزمة والكارثة اللتان تكشف وتعبر عنهما السياسة ليستا إلا ذنباً من ذنوب السياسة، فهي في أغلب حالاتها وأسوئها صانعة للألم، وفي أقل حالاتها وأفضلها مانعة أو رافعة للألم الذي قد صنعته أيضاً السياسة.

إن السياسة في أكثر المجتمعات ليست إلا عمليات هدم مستمرة معلنة، وهي في المجتمعات المتخلفة والمجتمعات التي يحكمها طغاة أو ثوار انطلقوا فجأة من الظلام ليتعروا تحت أبهر الأضواء أبعد وأخطر من أن تكون هدماً فقط، إنها حينئذٍ أشمل وأبعد عمقاً من الهدم، هي جنون وتهييج وسفاهات وأكاذيب وفنون أليمة من الفسوق الأخلاقي والعقلي.

في التاريخ القديم كان رجال الدين والرؤساء والشعراء والكهان القارئون للنجوم وكل القادرين والأذكياء والمتفوقين في أحد الأشياء يلعبون بعقول البشر وعواطفهم وآمالهم ونضالهم ويحولون جميع ذلك إلى وقود لطموحهم وخصوماتهم وأحقادهم وأخطائهم، أما في هذا العصر فإن كل هؤلاء السارقين للبشر يتجمعون بكل ما فيهم من أخطار في السياسيين، لقد أعطى التقدم الإنساني هؤلاء السياسيين أقوى الظروف والإمكانيات والوسائل التي تجعل خطرهم لا حدود له.

إن العالم كله مشتوم اليوم بهؤلاء السياسيين الصغار جداً في مواهبهم الذاتية الكبار جداً في خطرهم وفي ظروفهم أي في الظروف التي يعيشون فيها، لقد وجدوا ظروفاً دولية وحضارية لا مثيل لها في محاباتها لحماقاتهم وكبريائهم ولتدللهم المهين للعبقرية الإنسانية، فراحوا يتسامجون على هذه الظروف ويصقون نقائصهم على الحضارة التي حابتهم بلا وقار أو شرف حتى لقد حق الرثاء للموهبة التي أعطت القوة والكبرياء لهؤلاء الصغار لكي يتكبروا عليها ويحللوها بالعار والجنون والتشامخ البذيء. أية بذاءة أو عار أكبر من أن يصبح محتوماً على كل عبقريات العالم ألا يكون لها من اهتمام أو رسالة غير البحث عن أقدام كل التفاهات لتسجد تحتها، وهو سجود تسوغه بل تشرعه السياسة سياسة الحضارة الانتهازية المنافقة المتنافسة

مع نفسها لاكتساب رضا التفاهات وسياسة التخلف الذي وجد الكبار جداً، كبار الساسة العالميين تحت قدميه يطلبون منه الحب والرضا والقبول، وينشدون بين يديه أعظم قصائد الغزل والنفاق، فراح يتكبر على كل العالم، ويتطاول على وقاره وسلامه بضجيجه وسماجاته ومغامراته المخفورة بأقوى آلهة الحضارة وأرخص أساليبها في النفاق.

*

إن لغة الأعضاء وتعاليمها هي أقوى التعاليم واللغات في العالم وأكثرها قداسة وصدقاً ودولية، وإن تعاليم الأعضاء ولغتها لم تدع لأية لغة أو تعاليم أخرى وقاراً أو قداسة أو مكاناً في حياة الإنسان أو في أية حياة أخرى.

أنت تحيا إذن أنت تتعذب، إن أكثر الكائنات عذاباً هي أكثرها حياة. إنه لو كانت الشمس والقمر حياة لكانت الشمس أكثر عذاباً من القمر، ولو كان القمر والشمعة حياة لكان القمر أكثر من الشمعة عذاباً، ولو كانت البحار والأنهار حياة لكانت البحار أكثر من الأنهار عذاباً، لهذا كانت الآلهة هي أعظم الكائنات عذاباً، أما لذاتها فليست إلا تعبيراً عنيفاً من تعبيرات عذابها.

إن اللذة ليست إلا أسلوباً من أساليب الافتضاح والضعف والسقوط. لقد علمتنا الطبيعة أو فرضت علينا أن نحرم كثيراً من اللذات وأن نخافها أحياناً أو دائماً، وأن نجمع نحن كل البشر في كل العصور على أن نخفي كثيراً منها أي من اللذات وأن نمارس هذا الذي نخفيه سراً من وراء العيون والتطلعات، بل وأن نحول هذا الاخفاء والتحريم والخوف من اللذات إلى نوع من العبادة والأخلاقية فلماذا هذا! أليس لأن اللذات لا تكون إلا افتضاحاً وضعفاً وسقوطاً في حسابات الإنسان وتصوراته؟

*

كبرياء التاريخ في مازق

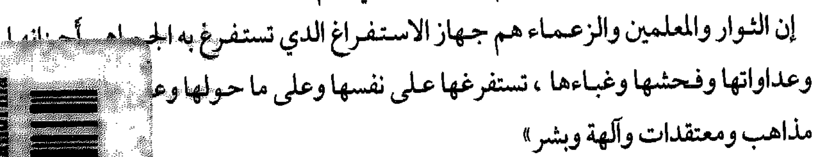
«وأما الاشتراكية فإنها في نيات وسلوك أقطابها ، ومعلميها الجدد هي البحث عن التفرد بالقوة والامتلاك بحجة البحث عن العدالة !

وأما الزعيم فهو الذي يظل يبكي في السوق ويطلب الرحمة ويتحدث عن حبه وإخلاصه لها وصدق أحزانه ودموعه ، ويهتف بنخوتها ويبالغ في مغازلتها حتى ترق له وتدعي الإيمان والاتباع له ، كأنها بذلك إنما تحاول التصدق عليه والفرار من إلحاحه والرثاء لدموعه واسترحامه والمجاملة لنفاقه وكذبه عليها باسمها ! .

وأما الشجاعة فهي أن تكون جباناً جداً حتى لا تستطيع أن تجد على عصيان تعاليمك وتاريخك وطغاتك ، حينما يدفعون بك ان تقتل نفسك ، وتقتل أيضاً أبرياء مغلوبين مثلك ، دفع بهم جبنهم إلى أن يكونوا شجعاناً على قتلك وقتل أنفسهم ، لأنهم ليسوا شجعاناً على أن يعصوا تعاليمهم وتاريخهم وطغاتهم !

وأما الطبيعة فهي ذلك «اللقيط» الضخم الذي لا يعرف من جنى عليه ، فهو المجني عليه بلا جان ، والجاني بلا جناية !

وأما الثائر فهو الذي يثور على الناس بحجة الثورة من أجلهم ، ويسلبهم الحرية والكرامة والذكاء والرخاء والفضيلة والسلام بحجة التسامي بهم ؟



إن الثوار والمعلمين والزعماء هم جهاز الاستفراغ الذي تستفرغ به الجماهير أحزانها وعداواتها وفحشها وغباءها ، تستفرغها على نفسها وعلى ما حولها و[illegible] مذاهب ومعتقدات وآلهة وبشر»